
S.D
رواية
أغلال من حرير
سلسلة 2
قلوب حررها العشق
صابرين الديب

أغلال من حرير

رواية

الجزء الثاني

سلسلة "قلوب حررها العشق"

رواية بقلم

صابرين الديب

تصميم غلاف وداخلي

صابرين الديب

تدقيق وتنسيق

نهى طلبة

جروب حلم-هن

ولنا مع الحرف حلم..

للانضمام للحلم

جروب حلم-هن

المقدمة

عندما نستكين أسفل رداء الحب ونسلم له مقاديرنا..

نتمسك بقلبٍ احتوانا ونتوقف عن الهروب..

نفتح باب القفص الذهبي وندخل إليه طواعيةً، ثم نلقي بمفتاحه بعيدًا..

عندما تتحول المكابرة لاهتمام وينقلب العناد لحب..

تتبدل الغيرة لقيدٍ خانق.. لشك..

تستحيل المسئولية لتجبر..

يصبح الخوف من الماضي، طوقًا يكبل العنق..

وطريدة الأمس لا تفلت من بين يديه أبدًا..

تتغير مشاعرنا، تتبدل، ينكسر شيئًا ويُبنى آخر..

نبتعد.. نقترب.. نخاف.. نحاول الهروب من جديد..

فتحتال قلوبنا للبقاء وتنصب لنا أفخاخ العشق..

وبعدها تتحول لأغلال..

أغلال.. تكبلنا.. لا نستطيع الفكاك منها.. نكرهها أو نحبها.. نستسلم لها أو نحاول التخلص منها..

هي فقط..

أغلال من حرير..

نظرة

لم تصدق ما سمعته ينطق به، هذه الأحرف التي خرجت بنبرته، على لسانه، من بين شفتيه كطلقات قاتلة، تجمعت في كلمات قليلة العدد عظيمة المفهوم والمردود، كلمات وقعها على الأذن كالخناجر عندما تنغرس في الصدر، تحطم الضلوع، تخترق الجلد ممزقة الأعصاب واللحم، مسيلة للدماء، لتنتهي في عمق القلب، ينتفض لثانية، أو ربما ثانيتين، ثم تهمد حركته تمامًا، تسكن نبضاته، يتوقف عن طرق قفص صدرك وضخ دمك، تصبح كميت إكلينيكيًا، أو حتى كجثة هامدة.. فقط تقف على قدمين.

عندما جهر بها لم تكن تتخيل في يوم أن تصلها منه أبدًا!!.. لقد وعدها بحب لأبد العشق، أبد الكون، بهوى تطوف في مداره حتى تنتهي أنفاسها..

والآن .. يخبرها بأنه ضحى!!.. بزواجه منها!!..

توقفت الكلمات في حلقها لدقيقة أو ربما أكثر، صمت.. ومزيد منه.. سكون.. أنفاس تعلو، تنقطع، لهاث، حدقتان متسعتان وصدمة منعتها بصرامة من الوصول إلى ملامحها، جمود غلفها، وهو ينظر إليها في عدم فهم!!..

ترى بما تفكر؟!..

هل تحلل كلماته؟!.. هل فهمتها؟!..

أم ستتصرف كعادتها وتأخذ المنحنى الخاطئ؟!..

وصله صوتها مرتجفاً يدعي الثبات:

- ليه تجبر نفسك تضحي؟!

تطلع إليها في دهشة لم تخلُ من شجن، عندما فتح فمه لينطق قاطعت حروفه بإشارة وهي تكمل بصوت بدا أشبه بالأنين:

- بيتهيألي كفاية قوي لحد كده، ما تضغطش على نفسك أكتر أو تحملها فوق طاقتها.

هتف بسرعة يلاحق كلماتها في حين كان قلبها ينتفض كطير ذبيح بين جنبيها:

- جمانة أنتِ فهمتِ إيه؟!.. ما تفهميش غلط، أنا...

رفعت رأسها في اعتداد حازم رغم ألم يمزق أحشائها..

تقاطع تبريراته، تخرس صوته الذي طالما أسمعها قصائد عشق علمت الآن أنها كاذبة..

طرفت بعينيها لتبعد صورته من داخل جفنيها، ابتسامته، شقاوة عينيه حين يشاكسها، خصلاته الفحمية التي طالما تخللتها بأصابعها، صدره الدافئ، مسكنها ومستقرها، حتى غيرته الجنونية التي أدمنتها حتى ذبحتها..

همست بألم:

- كفاية قوي.. المدة انتهت ولازم تاخد إفراج.

تطلع إليها بذهول غاضب، دموع تحارب جفنيها تحاول خدش نعومة وجنتيها لكنها صامدة، تقاتل في صلابة لم يعهدها بها، صاح بصوتٍ عالٍ ليسكت أي حماقة قد تنطق بها:

- جمانة أنتِ اتجننتِ!!.. بتقولي إيه؟!.. اتفضلي روحي دلوقتِ وهنبقى نكمل كلامنا بعدين..

فقدت ثباتها فجأة، قلبها لم يحتمل الوجع في صمت فانتفض بين ضلوعها، صرخت بآهة لم تتخطَ شفتيها لكن ما خرج من بينهما كان هتافًا حادًا عاليًا كأنها تصر عليه أن يسمعه مهما سد أذنيه بل وحتى الجدران من حوله رددته كصاعقة اخترقته:

"طلقني يا أدهم"

(١)

ضيف جديد

غيور!

نعم غيور..

وبيني وبينكِ براكين تثور..

لعشق.. لهفة.. شغف..

وحنين بمذاق اشتياق..

رباط ما قبل الكون.. ولنهاية الوجود..

وقلبٌ نَصَّب نفسه حاكماً على مملكة هواكِ..

وسنَّ قوانينها.. ثم لغى بيننا الحدود..

فمهما افترق لقاؤنا المادي..

يظل التحام القلوب بوفاء العهود..

حتى نحتضن الثرى..

تبقى الأرواح تحوم معاً..

بسكن.. مودة.. ويدوم العشق..

متخطياً الحواجزوالسدود..

بلهفة وشوق يملأ بغيومِه سماء قلبه أسرع عائداً إليها، السكن، الدفء، همساتها الرقيقة باسمه، ونغمات صوتها الناعم بلفظة.. "أفتقدك"

اهتمامها، حبها الذي تبثه إياه فيغرق فيه سعيداً مبتهجاً، لا رغبة له في نجاة من موجات عشقهما العاتية.

أنهى أعماله بأسرع ما أمكنه ثم عاد كالبرق متلهفاً للقياها، أغلق الباب خلفه بهدوء شديد وهو يتطلع حوله على الضوء الخافت المنبعث من المصباح.. خلع حذائه ثم تسلل على أطراف أصابعه نحو غرفتها، فتح بابها برفق ودلف إليها مغلقًا إياه ثانية.

اقترب من الفراش ببطء وهو يخلع سترته، وقف أمامه للحظات يتأملها نائمة في سكون وشعرها يغطي جانب وجهها، رفع الغطاء الذي يحمل دفء جسدها وانسل إلى جوارها بهدوء، ثم أحاطها من الخلف بذراعه في حنان متحسساً برفق بطنها المتكورة أسفل كفه، دنا أكثر من وجهها وطبع قبلة حانية على شعرها هامساً في أذنها بحب:

- حبيبتي.. جمانة.. جوجو!.. أنا جيت.

تململت في نومها وتقلبت بتثاقل ثم مدت يدها لتضيء المصباح الخافت المجاور لفراشها هامسة بصوت ناعس وهي تتطلع إليه بعينين نصف مغلقتين:

- أدهم!!.. أنت جيت إمتى؟ حمد الله على السلامة، ليه ما كلمتنيش قبل ما تيجي؟

ابتسم في حنان مجيباً بهمس:

- كنت عاوز أعملك مفاجأة.. أول ما الشغل خلص أخدت أول طيارة وجيت، ما قدرتش أستنى لبكرة!.. وحشتيني قوي.

بادلته ابتسامته وهمسه:

- أنت أكتريا حبيبي، حمد الله على السلامة.

تحسس بطنها ثانية متسائلاً في مرح:

- أخبار البوص بتاعنا إيه؟.. إوعي يكون بيتشاقى!

ضحكت برقة عندما قابل طفلها سؤاله بركلة شعربها أسفل كفه فضحك هو الآخر في حين ردت هي مداعِبة:

- ما تزعلوش بقى خليه براحته.

تراجع مستسلماً وهو يرفع كفيه أمام وجهه في حركة تمثيلية:

- لا.. لا.. خلاص هو أنا أقدر!.. ده البوص.

ابتسمت ثانية وحاولت الإعتدال ببطء لثقل حركتها متسائلة:

- محتاج حاجة؟.. أقوم أحضر لك الحمام أكيد تعبان من السفر!..

بدت نظرة مشاغبة في عينيه وهو يقترب منها هامساً بلهجة ملتوية واضحة المغزى بالنسبة لها:

- أيوة.. محتاج.. محتاج لكِ!

احتفظت بابتسامتها وهي تشاغبه أيضاً:

- إمممم.. ممكن البوص يعترض!

ضحك بخفوت واقترب بوجهه من بطنها قائلاً بحزم مضحك وهو يربت عليها بكفه:

- إيه ده!!.. أنت فعلاً ممكن تعترض على بابا؟!.. لا.. اسمع بقى، أنا عرفتها قبلك وحبيتها قبلك.. جوجو بتاعتي أنا وبس، هتعيش الدور هازعلك!

ركلة ثانية عند يده أطلقت منه ضحكة أخرى وهي تهتف في مرح:

- شفت!.. قلت لك هيعترض..

رفع رأسه إليها يحيطها بعينيه، ابتسامته التي تعشقها تملأ وجهه، ثم همس وهو يقترب منها أكثر ليضمها إلى صدره برفق:

- بحبك.. قوي قوي قوي يا جمانة.. واللي عاوز يعترض هو حر!

ابتسمت ثم استكانت بين ذراعيه باطمئنان وهو يبثها حبه وعشقه لها، تحلق معه في سماء غرامه غير راغبة في عودةٍ للأرض أبداً..

فيكفيها عالم أحلامها بين يديه..

******

شيء ما يداعب وجنتها ويضايقها..

حاولت تجاهله أو إزاحته بيدها لكنه يفتأ يعود مثيراً غيظها.. مزعجاً مقلقاً نومها..

فتحت عينيها ببطء متطلعة حولها لتقع عيناها على ابتسامته الشقية وعينيه الدافئتين..

ابتسمت بحب هامسة:

- صباح الخير.. أنت جيت إمتى؟!

رفع حاجبيه في دهشة ثم قهقه ضاحكاً وهو يجيب:

- جيت إمتى إزاي يا جوجو؟!.. إيه أنتِ ما حسيتيش بيَّ لما جيت؟!

تطلعت إليه في استغراب ثم هتفت:

- يعني أنا ما كنتش بأحلم؟!.. أنت فعلا جيت بالليل؟

عاد يضحك وإن بدا مغتاظاً للحظة، جذب يدها من أسفل الغطاء وقبلها بدفء:

- حلم يا جوجو!!.. حلم!.. حرام عليكِ!!.. كل ده حلم؟!

ابتسمت في خجل ولم تجد ما تقوله، أما هو فأراد أن يخجلها أكثر.. اقترب منها وتطلع في عينيها هامساً بلهجة مشاغبة مرحة:

- بس عموماً ما عنديش مانع أعتبره حلم لو كل أحلامك بيَّ بالشكل ده!.. وممكن نحول الحلم لواقع برده ولا إيه!!

وكزته في كتفه هاتفة في خجل:

- أدهم.. وبعدين معاك!!

تأوه معترضاً عندما وقعت عيناها على الجورية الحمراء في يده وصينية تحمل إفطاراً لذيذاً على الطاولة خلفه، سألته في دهشة:

- أنت عملت فطار؟

جلس إلى جوارها وناولها الوردة بعد أن طبع عليها قبلة وقال في حنان:

- أيوة.. عشان جمانتي أم ولي العهد وبس.

ابتسمت في امتنان ممتزج بالحب وردت:

- ربنا يخليك ليَّ يا حبيبي.

طبعت قبلة على الوردة هي الأخرى وهمت بقول شيء ما عندما صرخت فجأة:

- آآآه.. وبعدين بقى!

تطلع إليها في قلق، سألها:

- في إيه؟.. هو إيه اللي وبعدين؟

شعرت بألم شديد يمتد بسرعة عبر عمودها الفقري، هتفت وهي تئن:

- ابنك بيتشاقى... طالع لك!

ضحك بحنان وقال مشاغباً:

- قصدك إن أنا شقي يعني؟.. ماشي يا ستي هاعديها لك.

ابتسمت وحاولت مجاراته لكن الألم ازداد فجأة فصرخت متشبثة بيده في عنف أفزعه:

- آآآآه.. أدهم.. لا.. لا شكلي بأولد!

اتسعت عيناه ذعراً ثم انتفض في مكانه واقفاً وهو يصيح في توتر ولهفة:

- إيه!.. بتولدي!!.. طيب أعمل إيه؟ آآآآ.. أنتِ هتعملي إيه؟

بدا مرتبكاً مرتعباً لكنها لم تستطع التحمل فصرخت فيه:

- اتصرف.. اعمل أي حاجة!

وعادت تتأوه بشدة، وقف أمامها محتاراً لا يعلم ماذا يفعل!!.. يتلفت حوله بارتباك متوتر:

- أنا!!.. أتصرف!!.. أعمل ايه طيب؟

لاحظت خوفه فحاولت تهدئته على الرغم من ألمها، شدت على يديه بقوة:

- اهدى يا أدهم.. ما تخافش... ساعدني بس أقوم، الشنطة اللي هناك دي فيها حاجات البيبي هاتها وهات لي حاجة ألبسها على ما آخد شاور بسرعة.. كلم ماما خليها تيجي هي ولميا...

توقفت لثوان تلتقط أنفاساً متقطعة قصيرة وهي تتألم ثم أكملت:

- بعدين طلع عربيتك واتصل بالدكتورة عشان تستناني.

تطلع إليها في خوف وسألها متردداً:

- أنتِ قلتِ لي أعمل ايه الأول؟!

صرخت متألمة:

- كلم ماااماااا

******

ألقى هاتفه بغيظ فوق المقعد المجاور له، كاد يكسره بين أصابعه وهو يزفر بحنق شديد..

اعتصرت قبضتاه مقود السيارة وكان على وشك الإسراع بها لولا أن وصله أنين زوجته من المقعد الخلفي فتطلع إليها في المرآة بقلق، وصله تساؤل شقيقتها الوجل وهي تضمها إليها وتمسح العرق المتصبب على جبينها برفق:

- خير.. في إيه؟

أجاب بعد زفرة ضيق أخرى:

- الدكتورة بتاعتها مسافرة.. قالوا لي أروح المستشفى وهناك هنلاقي دكاترة تانيين لحد ما تيجي هي تتابع الحالة بكرة الصبح.

ابتسمت "لمياء" قليلاً، فهي تعلم لمَ هو قلق، ولمَ الغضب الشديد ممتزج بقلقه ذاك..!

سمعت شقيقتها تقول بصوت متألم:

- معلش يا أدهم.. أي حد وخلاص المهم أخلص!

وأنهت جملتها بصرخة أنين أوجعت قلبه فتطلع إليها مرة أخرى في المرآة ورد بحنان:

- خلاص.. أهو قربنا نوصل.

دقائق أخرى وتوقف بالسيارة أمام المشفى، فتح بابه بسرعة وعاد للخلف.. فتح الباب المجاور لها و"لمياء" تهبط من السيارة هاتفة:

- أدهم.. هات كرسي متحرك من جوا عشان ندخلها عليه، مش هتقدر تمشي.

فوجئت به ينحني بجذعه داخل السيارة تجاه زوجته بسرعة:

- ما فيش وقت.. بتتألم..

ومد ذراعيه أسفل ركبتيها وخلف ظهرها ثم حملها برفق، تعلقت هي بعنقه وهي تضغط شفتيها بأسنانها منعاً لصرخة كادت تنطلق في أذن زوجها..

عندما رأت "لمياء" ما فعله ابتسمت بحنان بينما يهتف بها خلال تحركه بسرعة تجاه بوابة المشفى:

- اقفلي العربية أنتِ وتعالي.

نفذت ما طلبه ثم تبعته بسرعة بينما يهرول للداخل هاتفاً بأول ممرضة صادفته:

- من فضلك إحنا اتصلنا من شوية.. مدام جمانة أبو الفتوح.

ابتسمت الممرضة هي الأخرى ثم قادته بسرعة تجاه الاستقبال وأسرعت بإحضار مقعد متحرك..

أجلسها فوقه برفق وهي لاتزال تئن بشدة، هتف بلهفة:

- طيب مين دكتورة موجودة دلوقتِ؟.. دكتورة مريم هنداوي مسافرة وقالوا لنا هنلاقي هنا بديل لحد ما تيجي.

ردت الممرضة بسرعة وهي تدفع المقعد أمامها وهم يسيرون إلى جوارها:

- موجود دلوقتِ دكتور جمال، ما تقلقش حضرتك هو كمان ممتاز.

عقد حاجبيه فجأة يسألها بحدة:

- دكتور؟.. ما فيش دكتورة؟

التفتت إليه مجيبة:

- لا يا فندم.. حالياً موجود بس دكتور جمال، وزي ما باقول لحضرتك اطمن هو ممتاز.

أوقفها فجأة ممسكاً بالمقعد وسأل ثانية بعصبية:

- إزاي ما فيش دكتورة؟!.. مستشفى كبير زي ده ما فيهوش غير دكتور نسا واحد بس؟!

أجابته مندهشة:

- هو المتواجد حالياً.. في كمان دكتورة ابتهال بس أجازة النهاردة، ودكتور جمال بس الموجود.

ازداد انعقاد حاجبيه في حين أنَّت "جمانة" وهي تتشبث بمسندي المقعد في عنف و"لمياء" تقف حائرة، لا تدري هل تقنعه أم تصمت وتتركه يفعل ما يريد!

قال بسرعة:

- لا خلاص.. هنروح مستشفى تاني!

صرخت زوجته فجأة:

- نروح إيه!!.. لا حرام....

ولم تستطع إكمال جملتها فارتفعت صرختها عالية وشعرت ببلل أسفلها فعادت تصيح وبعض الدموع تتسلل من مقلتيها رغمًا عنها:

- مش هينفع أروح مكان تاني خلاص أنا باولد.

لاحظت الممرضة ما حدث فتطلعت ل- "أدهم" بتساؤل.. بدا هو متوتراً بشدة ثم هتف حانقاً بلهجة آمرة قاطعة:

- طيب خلاص.. بس هاحضر معاها الولادة!

عادت تدفع المقعد أمامها وهي تجيب بابتسامة:

- حاضريا فندم.. تلبس حاجة مناسبة وتعقيم الأول وتدخل معاها.

بمرور دقائق أخرى ظلت "جمانة" طوالها تتوجع.. تئن أحياناً وتعض على يدها مرات تالية..

تم تحضير غرفة العمليات وحضر الطبيب، اطمئن عليها تحت ناظري زوجها الغاضب، والذي اشتعل غضبه عندما حاول الكشف عليها لمعرفة هل حان الوقت أم لا!

كاد يصرخ فيه وهو يندفع نحوه لولا أن وقفت "لمياء" أمامه فجأة نافية الأمر بعينيها.. زفر في غيظ، وأدار وجهه بعيداً كأنه لا يستطيع النظر..

طمأنهم الطبيب وأخبرهم أنها جاهزة الآن وسيتم نقلها لغرفة الولادة.. قال أنه يريد الحضور معها فوافق الطبيب مبتسماً.

تم إدخالها للغرفة متعلقة بكف زوجها الذي شعر بمدى ألمها وأظفارها تنغرس في لحم يده، تعالت صرخاتها مرة أخرى والكل يبذل أقصى ما في طاقته لمساعدتها، هو إلى جوارها يمسك بكفها التي تتشبث به هي في قوة ويهمس في أذنها مطمئناً أحياناً ويمسح على رأسها قارئاً بعض آيات القرآن علها تهون عليها أحيانٌ أخرى..

طال الأمر لحد مقلق والعرق يتصبب منها بشدة، ظل الكل يدفعها للمحاولة بقوة أكبر.. التوتر بلغ من "أدهم" مبلغه وهو يراها تعاني بهذا الشكل، صاح فيهم غاضباً:

- هو ليه اتأخر كده!.. ما فيش أي حل؟

أجابه الطبيب مطمئناً:

- ما تقلقش حضرتك، ده عادي، يلا يا مدام جمانة.. ساعدينا قربنا أهو..

ارتفعت صرخاتها مرة أخرى بعدها بثوان خرج طفلها للنور..

نبض قلب والده بعنف وهو يرى الطبيب يحمله من قدميه ويربت على مؤخرته برفق حتى سمع شهيقه وبكاءه هو الآخر.. همست "جمانة" لزوجها وهي تشعر بالإغماء:

- عاوزة أشيله.

قبل أن يجيبها تحركت به ممرضة ووضعته في حضن والدته، ضمته إليها بابتسامة ضعيفة و"أدهم" يتطلع إليهما بنظرات تحمل بعض الذهول كأنه لا يصدق أنه أصبح أباً..

بدأ جفناها يتثاقلان فنظر إليها بقلق والممرضة تعود لتلتقط الطفل منها لتنظيفه والعناية به..

سأل الطبيب الذي كان يعتني بمريضته:

- هي مالها؟.. دكتور.. هيغمى عليها!!..

طمأنه الرجل بابتسامة:

- ما تقلقش، هي بس تعبانة ومحتاجة ترتاح.. اتفضل بقى حضرتك برا ودقايق وهنجيب لك البيبي وننقلها أوضتها..

عقد حاجبيه متسائلاً بغضب:

- أطلع برا ليه؟.. هافضل جنبها!

احتفظ الطبيب بابتسامته متفهماً وهو يجيبه:

- خلاص يا فندم المدام بخير.. اتفضل بس عشان نخلص شغلنا وتقدر تفضل معاها كل الوقت اللي تحبه لما ننقلها أوضتها.

ظل متردداً، ثم حسم أمره وتحرك ببطء متضايقاً للخروج من المكان.. استقبلته "لمياء" بالخارج مع والدتها والصغيرة "ملك"، سألته الأم لهفة:

- عاملة إيه دلوقتِ؟

أجابها بعد تنهيدة حارة تحمل لمحة ضيق:

- كويسة الحمد لله.

استغربت "لمياء" الضيق البادي على ملامحه مما أثار قلقها فعادت تسأله في توتر:

- أدهم في إيه؟.. شكلك متضايق طمني عليها.

هز رأسه مجيباً:

- ما فيش.. هي كويسة، أنا بس متضايق عشان طلعوني برا!

تنهدت بارتياح وتسللت ابتسامة لوجه الأم الحنون حين خرجت ممرضة تحمل الصغير متجهة به نحو والده.. التقطه منها برهبة وبدا الارتباك على ملامحه لا يدري كيف يحمله بشكل صحيح، ساعدته "لمياء" حتى أمسك به جيداً، أخبرته بابتسامة:

- أذن في ودنه اليمين، وقيم في الشمال.

ازدرد لعابه ببطء وفعل كما قالت له، ظل يتطلع إليه صغيراً بين كفيه الكبيرتين كدمية..

رن هاتفه فانتفض للحظة، تناولته منه "لمياء" متجهة به نحو جدته في حين التقط هو الهاتف متطلعاً لاسم المتصل، أجاب:

- أيوة يا آدم.. حمد الله ع السلامة، أنت جيت إمتى؟

أجابه أخيه بمرح:

- الله يسلمك يا أدهم.. يا دوب وصلت الفجر، وأول ما صحيت قلت أطمن عليك لأني مش هأقدر آجي الشغل النهاردة، من بكرة بقى.

سارع "أدهم" بالقول:

- لا معلش يا أدوم روح الشركة النهاردة، في اجتماع مهم ومش هأقدر أحضره، أنا مع جمانة في المستشفى، ولدت الحمد لله.. روح بدالي أنت مادام جيت.

تساءل "آدم" مندهشاً:

- إيه!!.. مراتك ولدت!.. طيب يا بني مش تقول!.. هاجيلك أطمن عليها وعلى البيبي، ها ربنا رزقك بمين؟

ابتسم وهو يتطلع للصغير في حضن جدته، أجابه بحنان:

- مروان أدهم الحسيني، أنا فرحان قوي يا آدم، ما عرفتش أتصل بحد الصبح كنت متلخبط بشكل وجيت المستشفى دخلت معاها غرفة الولادة!

شعر بالسعادة في صوت أخيه وهو يرد:

- ألف مبروك يا أدهم.. ربنا يبارك لك فيه ويحفظه، ولا يهمك يا سيدي المهم إنها بخير الحمد لله، هاخلص الاجتماع وأعدي عليكم.

لاحقه بسرعة:

- بلاش تتعب نفسك.. لولا الاجتماع مهم كنت قلت لك ريح النهاردة بس أنت وقعت لي من السما لأني مش هاقدر أسيبها، ابقي تعالى وقت تاني.

أجابه هاتفاً باستنكار:

- إيه يا بني الكلام اللي بتقوله ده!.. أنا هاجي بعد الشغل، بارك لجمانة بالنيابة عني على ما آجي، سلام.

أنهى المكالمة وهو يشعر بالارتياح..

عاد الطفل مع إحدى الممرضات للاعتناء به وتم نقل "جمانة" لغرفتها بصحبة والدتها وشقيقتها وزوجها..

اتصل هو بوالدته ليخبرها، ثم جلس إلى جوارها ممسكاً بكفها طابعاً عليه قبلة ناعمة وهو يتطلع إليها وإلى ملامحها المنهكة بحب.. تبادلت الأم والأخت ابتسامة حنان وصمتتا تماما ليحل الهدوء بالمكان.

بعد فترة خرج لمتابعة حسابات المشفى.. أفاقت "جمانة" بعد خروجه هامسة باسمه، اقتربت منها شقيقتها مجيبة:

- حبيبتي جوجو.. حمد الله ع السلامة، أدهم راح يشوف حساب المستشفى وجاي.

ردت بإرهاق:

- الله يسلمك يا ميا.. فين البيبي؟

أجابتها بابتسامة:

- في الحضانة.. ما تقلقيش، هو تمام الحمد لله.. ولد زي القمر.

ثم غمزتها ضاحكة وهي تكمل:

- شبه باباه!.

ضحكت "جمانة" بخفوت عندما دخل الطبيب ليطمئن عليها مبتسماً، سألها باهتمام مرح:

- ها.. ماما عاملة إيه دلوقتِ؟

عاد "أدهم " في هذه اللحظة ليسمعها تجيب قبل أن تراه:

- الحمد لله يا دكتور.

سألها بعملية وهو يتابع المحلول الموصول بوريدها:

- ما فيش أي ألم؟

أجابته بخفوت:

- يعني شوية.

ابتسم ورد مطمئناً وهو يخرج محقناً:

- معلش.. وقت بسيط وتبقي كويسة إن شاء الله.. هاديكي دلوقتِ حقنة عشان تنظيف الرحم.. هتوجعك شوية بس هاحط لك مسكن في المحلول عشان تنامي وما تحسيش بحاجة.

أومأت برأسها إيجاباً في صمت، اقترب منها مطالباً أن تكشف عن ساقها ليحقنها فاندفع "أدهم" هاتفاً:

- هو المستشفى هنا ما فيهوش ممرضات ولا إيه يا دكتور؟

التفت إليه الطبيب في دهشة و"جمانة" تنظر إليه بقلق فقد بدا غاضباً للغاية، ابتسمت "لمياء" ووالدتها كعادتهما كلما بدت الغيرة على "أدهم".. أتت إجابة الطبيب المرتبكة:

- لا يا فندم فيه طبعاً، حضرتك بتسأل ليه؟

أجابه بحدة:

- أعتقد موضوع الحقنة ده ممكن أي ممرضة تهتم بيه.. ما فيش داعي حضرتك تتعب نفسك!

نظر إليه الطبيب لثوانٍ وملامح الغضب ترتسم على وجهه، شعر أنه فهم الأمر فابتسم ثم هز كتفيه بلامبالاة وهو يرد:

- أوك.. دقايق وهابعت لكم الممرضة.

ثم خرج من الغرفة وهو يكاد يضحك.. التفت "أدهم" لزوجته آمرًا بحزم:

- بعد كده أي تعامل يبقى مع الممرضة لحد ما الدكتورة بتاعتك تيجي الصبح!..

ابتسمت في خجل وهي تهز رأسها في صمت.. تبدلت ملامحه للحنان فجأة وهو يقترب منها، لم يشعر بسواها في الغرفة، ولم يرَ غيرها، جلس إلى جوارها ووضع ذراعه خلف رأسها يضمها إليه هامساً بحب واضح:

- حمد الله على سلامتك.

أشارت "لمياء" لوالدتها ففهمت مقصدها وهي تحمل الصغيرة النائمة متسللتان للخارج دون أن يشعر بهما "أدهم"، الذي تركزت عيناه على زوجته.. تخضبت وجنتاها خجلاً وهي تدفعه بعيداً قليلاً برفق مغمغمة في شيء من الغيظ:

- أدهم.. ماما ولميا كانوا هنا.

رد في عدم فهم:

- وإيه المشكلة مش فاهم؟!

أشارت تجاه الباب وهي تجيبه بخجل:

- انكسفوا وخرجوا.

تطلع للباب قليلاً ثم عاد يلتفت إليها مبتسماً بلؤم، همس وهو يقترب منها أكثر:

- لا هما مش انكسفوا!.. هما بس فاهميني كويس!!

وكزته في كتفه برفق فرفع حاجبيه متخابثاً، قبل رأسها وهو يستطرد:

- عاملة إيه دلوقتِ؟.. كلمت بابا وهما في الطريق، سارة هتتجنن وتشوف مروان.

ردت بهدوء:

- الحمد لله.. خلاص استقريت على مروان؟

سألها:

- مش اتفقنا؟

أجابت:

- أوك.. مروان اسم جميل، مروان أدهم الحسيني.

نطقت الاسم كاملاً كأنها تتذوقه باستمتاع فتطلع إليها لحظتها بعينين لامعتين.. التقت النظرات فابتسمت له، اقترب منها أكثر وقبل أن يلمس شفتيها طُرِق الباب برفق.. ابتعد بسرعة سامحاً للطارق بالدخول في حين احمر وجهها هي خجلاً. دخلت الممرضة للغرفة بابتسامة ودود:

- حمد الله على سلامتك يا مدام جمانة، مستعدة للحقنة؟

بادلتها ابتسامتها و"أدهم" ينهض واقفاً من جوارها، ردت:

- الحمد لله، مستعدة.

سألها باهتمام:

- هي هتوجعها؟

أجابت بنفس الابتسامة وهي تنظر إليه:

- شوية يعني.. بس في مسكن هيخليها تنام وتستريح.

تطلع إلى زوجته في قلق.. عادت شقيقتها ووالدتها للغرفة في هذه اللحظة، قبل أن يبدأ مفعول مسكن الألم بدأت ملامح الوجع تظهر على وجه "جمانة". عقد حاجبيه وهو ينظر إليها في توتر وقبل أن يسأل ثانية شعر بجفنيها يثقلان ثم انغلقا في صمت. قالت الممرضة بهدوء وهي تغادر الغرفة:

- إن شاء الله هتبقى كويسة ما تقلقوش.

جذب مقعداً وجلس إلى جوار فراشها يحتضن كفها بين أصابعه وهو يتطلع إلى وجهها بحنان. خاطبته والدتها:

- أدهم يا بني استريح شوية. أنت واقف من الصبح بدري.

أجابها دون أن يبعد عينيه عن وجه زوجته:

- أنا كده تمام قوي.

تبادلت الأم والشقيقة نظرة بمعنى "هذا متوقع" والتزمتا الصمت.. بعد قليل حضرت والدته ووالده وشقيقته، اطمئنوا على "جمانة" ثم اصطحبهم ليروا الصغير..

حملته جدته برفق وسالت دمعة فرح من عينيها، فهي على الرغم من علاقتها المحدودة بوالدته لكنه لايزال حفيدها الأول..

مكثوا معهم بعض الوقت حتى أفاقت "جمانة" ثانية.. اطمئنوا عليها ثم رحلوا، قرب المغرب أتى "آدم" ليطمئن على زوجة أخيه وطفله.. استقبله "أدهم" خارج الحجرة بضمة اشتياق هاتفاً:

- أدوم وحشتني يا كبير.. شهر بحاله يا راجل!

ضحك "آدم" وهو يرد:

- هاعمل إيه!.. يوسف كان مبسوط قوي مع جده وجدته وهما كمان، اضطريت أفضل هناك شوية يشبعوا منه ما أنت عارف مش بيشوفوه كتير.

تطلع إليه "أدهم" ثم مد أصابعه يعبث بشعر أخيه متسائلاً بمرح:

- إيه اللي إنت عامله في شعرك ده يا بني؟ من إمتى بتطوله كده؟ ودقنك كمان! كنت بتتريق عليَّ!!

أجابه بابتسامة:

- أهو تغيير!.

تأمله أخيه قليلاً ثم غمزه:

- بس عامل شغل والله.. لميا جوا على فكرة، اللوك الجديد هيعجبها!

ضحك "آدم" وهو يلكز كتفه متخابثاً:

- تفتكر!!.. ما فيش جديد من وقت ما سافرت؟

هز كتفيه مجيباً بلامبالاة:

- لا ما فيش.. تعالى شوف مارو.

سأله بابتسامة حنون:

- أنت لحقت تدلعه كمان!

أجابه بفخر:

- طبعاً.. من وهو لسه جوا أصلاً!

توجها سوياً لرؤية الصغير.. حمله عمه برفق وهو يدعو له.. بدت السعادة على وجهه ممتزجة بحنان أب سابق، فرح لأخيه بشدة فاحتضنه وقبل رأسه:

- ربنا يخليهولك يا أدهم ويقر عينك بيه.

توجها بعد ذلك نحو غرفة "جمانة".. أخبرهم "أدهم" بوجود أخيه فأثار ذلك موجة من التوتر بداخل "لمياء"، دخل هو بهدوء للغرفة تزين شفتيه ابتسامة حنون، ألقى التحية على الجميع، سأل زوجة أخيه عن حالها واطمئن عليها..

جلس معهم قليلا اختطفت فيها "لمياء" بضع نظرات مندهشة نحوه وهي ترى شكله كيف تغير!

ربما أصبح أكثر وسامة أيضاً وأصغر سناً بشعره الطويل الذي يزين جبينه ولحيته النامية وإن تخللتها شعيرات رمادية قليلة..

استدار نحوها فجأة ليضبط عينيها تخطف نظرة أخرى نحوه مما أشعرها بالخجل، لكنها لم تلتفت بعيداً حتى لا تثير اهتمامه، ابتسم لها متسائلاً:

- إزيك يا مدام لميا؟.. أخبار الشغل والقضايا والمحاكم إيه؟

ابتسمت بتحفظ، أجابت باقتضاب:

- الحمد لله، أهو..

أومأ برأسه ثم نهض واقفاً ليستأذن في الذهاب، ناداه "أدهم" حينها:

- طيب لميا خدي ماما وملك وروحوا أنتم كمان.. أنا هافضل مع جمانة النهاردة والدكتور قال هتروح بكرة، خليكم وهاجيبها وآجي بإذن الله.

عارضت "لمياء":

- لا.. لا.. روح أنت أنا هابيت معاها..

رفع أحد حاجبيه كأنه يعلمها أن قراره نهائي وهو يرد:

- ما حدش هيفضل غيري، روحوا بس لأن أنتم تعبانين من الصبح، وكلها كم ساعة ونحصلكم إن شاء الله.

ثم ناولها مفتاح سيارته مستطرداً:

- روحي بالعربية لأنك سيبتي عربيتك عند بيتنا وأنا هاتصرف.

هتفت بسرعة:

- لا طبعاً تتصرف إزاي؟ خليها معاك أنا وماما هناخد تاكسي لحد البيت عندكم وهاخد العربية من هناك ونروح.

سمعت "آدم" يقول بهدوء:

- خلاص يا أدهم أنا هاوصلهم، خلي العربية معاك عشان هتحتاجها بكرة.

اعترضت ثانية بحزم:

- دكتور آدم.. الموضوع بسيط، هناخد تاكسي لحد البيت وآخد عربيتي من هناك.

مط شفتيه في عدم فهم وهو يرد:

- طيب وليه؟.. أوصلكم لحد عربيتك وروحي من هناك براحتك.

ومنعها "أدهم" بسرعة:

- خلاص يا لميا كده هاطمن عليكم أكتر.

وردت الأم هي الأخرى:

- يلا يا لميا عشان ملك تعبت من الصبح هي كمان.

شعرت بالحصار، تريد الهروب من قربه بعد آخر لقاء منفرد بينهما طلب منها الزواج فيه، وهي تتحاشاه دوماً..

أخبرها يومها أنه سيصبر، سينتظر، أنها هدفه الجديد وهو اعتاد تحقيق أهدافه، لذلك هي تخشى لقاءه وتتجنبه على الدوام فلا استعداد تملكه لخوض تجربة جديدة مع رجل آخر وقلبها مغلق بقفل صدئ ذي مفتاح محطم.. استسلمت في حنق وتوجهت معهما في صمت..

بعد خروجهم ابتسمت "جمانة" لزوجها ودمدمت في لوم:

- على فكرة لميا مش بتحب كده.

تظاهر بالغباء وهو يسأل:

- مش بتحب إيه؟

رفعت حاجبها في غيظ تجيبه:

- التدبيس!!

ضحك فجأة، اقترب منها ليجلس إلى جوارها، التقط كفها وقبلها بحب ثم همس في أذنها:

- حلها الوحيد تدبيس، آدم مستني بقى له سنة تقريباً.

ابتسمت، عانقت أصابعه بأصابعها:

- كانت شوية وهتخبطك بأي حاجة في إيدها!

ضحك ثانية بمرح ثم همس لها ثانية مغيراً الموضوع:

- السرير ده ياخدنا إحنا الاتنين صح؟!

تطلعت إليه في دهشة فاستطرد :

- أنت فاكراني هاروح أنام ع السرير اللي هناك ده؟.. لا طبعاً!!.. وسعي شوية بقى!

ضحكت بخفوت فتطلع إليها في حب، ظل يحوطها بعينيه وهي تغرق فيهما رغماً عنها، ابتسم لها ثم همس بمكر:

- كنت هارتكب جريمة النهارده أنتِ عارفة كده؟!

بادلته ابتسامته بتفهم فضمها إليه أكثر وهو يربت على رأسها بحنان، خلع عنها حجابها الذي كانت تلفه حول رأسها أثناء وجود أخيه وداعب شعرها

ببطء، تخلله بأصابعه ثم طبع قبلة عليه، ضمها إليه برفق كأنه يخشى عليها الكسر، شاغبها بهمسة:

- بحبك يا أم العيال!

نبضت الذكرى في رأسها فجأة عندما نطقها.. لم تكن تتوقع ذلك أبداً، نفس الجملة، هل هي عادة لدى الرجال أم ماذا؟

لكنها تشبثت بقميصه وهي تدفن وجهها في صدره تشتم عطره ورائحة جسده محاولة الخروج من عبق ماضٍ اقتحم عقلها عنوة..

لاحظ تشبثها به فاندهش، فقط ضمها إليه أكثر مطمئناً وأغمض عينيه متنهداً.. سمع همستها المفاجئة وهي تفرد كفها فوق موضع قلبه:

- أنا كمان بحبك قوي.

ابتسم في سعادة وهو يغوص معها في عالم الأحلام ويشدد من ضغط ذراعيه حولها باعثاً في خلاياها إحساساً بالأمان لم تألفه من قبل ولا تشعر به إلا في هذا المكان.

******

خيم الصمت لفترة على السيارة التي تنطلق بسرعة متوسطة تشق شوراع العاصمة المزدحمة، تتوقف تارة وتتحرك تارة أخرى..

حاولت والدة "لمياء" فتح مجال للحوار فتجنبت ابنتها التدخل مطلقاً.. تحدثت مع "آدم" في أمور عامة، كان مرحاً وحديثه لطيفاً..

اختلس هو بضع نظرات نحوها وهي تجلس إلى جواره تتطلع من النافذة للخارج بسكون.. لقد أمسك بها اليوم تختطف نظرة نحوه، مرات عديدة، بدت كأنها تستغرب شكله الجديد وعندما وصل لهذه النقطة بتفكيره ابتسم بخفوت. أوصلهما حيث منزل أخيه واطمئن عليهما، انطلقت هي بسيارتها في صمت مع ابتسامة مقتضبة مودعة.. بعد انطلاقها قالت والدتها في شيء من الضيق:

- مش ملاحظة أنك كنتِ قليلة الذوق قوي معاه، هو ما كانش مجبر يوصلنا ويتعب نفسه، وأنتِ حتى ما كلفتيش نفسك تبتسمي في وشه وتشكريه!

ألقت نظرة جانبيه على والدتها، نعم هي تعلم أنها توافق على طلبه لذلك لا تتوقف عن الزج به في طريقها كلما حانت الفرصة.. ردت باقتضاب لتنهي الحديث:

- أنا شكرته يا ماما، ومش كل مرة نتصادف معاه نتكلم عنه وعني بعدها من فضلك.

كان هناك غضب في صوتها استشعرته الأم ففضلت الصمت حتى لا تستفز عناد ابنتها، تركت الأمر للوقت ليحله بنفسه ودعت الله أن يوفقها لما فيه الخير..

لا تعلم لمَ ترفض صغيرتها الزواج، سواء من "آدم" أو غيره..!

أحياناً يثير قلقها خوفاً من ذكرى زوجها السابق، تعلم أنه أول من تفتح قلبها على يديه، تفتح له هو فقط، ظلت زوجته لأكثر من ثماني سنوات لينهيها هو بغدر، بذبح لقلبها الذي كان مسكنه، وهي لا تمتلك سوى الصمت..

هل تنتظر عودته إليها؟ هل لا تزال تحبه وتريد قربه؟

تباً، لقد تزوج الرجل وأنجب وهي على حالها ترفض الاستمرار، تثبت قدميها في أرض هشة لا يوجد بها إلا الوجع وآلام الماضي..

دعت لها ثانية وهي تلقي عليها نظرة امتزج فيها الحنان بشيء من الحسرة والحزن.

(٢)

طوق الماضي

يقولون أن..

الخديعة أنثى

الخطيئة أنثى

الخيانة أنثى

الجريمة أنثى

ويتناسون أن..

الألم ذكر

الوجع ذكر

القهر ذكر

الانكسار ذكر

والماضي ذكر

وطوقه الذي يحيط بالعنق ويضيق عليها الخناق هو أيضاً ذكر..

الشمس أنثى.. والظلام ذكر

فماذا إن عكس الظلام أشعتها نحوها لتحرقها..

ألن يسود.. الذكر؟

قهراً لأنثى!

عندما استيقظ عقله شعر بأنفاسها الدافئة تداعب عنقه بانتظام..

ابتسم قبل أن يفتح عينيه وقلبه ينبض في سعادة، ظل مغمضاً جفنيه يفكر في اليوم السابق، لقد أصبح أباً، رزقه الله بطفل جميل من محبوبته، يحمل ملامحه أكثر منها..

هل هذا يثبت حبها له أكثر كما يقولون في الأمثال!

لا بالطبع..

هو يعشقها..

يذوب في ابتسامتها، تقتله لهفته دوماً عليها والغيرة تثير جنونه.

امتزج بابتسامته المرسومة على شفتيه قليل من الغيظ عندما تذكر أن طفله استقبله رجلاً آخر..

يكره أن تضطره الظروف لفعل ما يرفض، والأحمق يأتي ثانية ليداعبها والأدهى يريد أن يكشف جزءً آخر من جسدها ليحقنها بدواءٍ ما..

لقد سيطر على نفسه بصعوبة وقتها ولم يكسر له أسنانه التي ظهرت من خلف ابتسامته البلهاء!.

عاد الحنان يمتزج بابتسامته وهو يستعيد مشهدها تحمل طفله ليمتص منها غذاءه لأول مرة..

بدا جائعًا نهمًا بشدة مما أضحكه وأخجلها، كانت رائعة وهي تضمه بعطف أمومي خفق له قلبه، وشقيقته المجنونة كادت تخطفه لتهرب به!!

تذكر دمعات والدته وسعادتها، توتر والده وارتباكه وهو ينظر إليه بعينين يلمؤهما الفرح والاشتياق..

تأخر هو في الزواج يعلم ذلك، لكنه أخيراً حصل على قطعة الحلوى التي ينتظرها كل رجل ويسعد بها كل جد وجدة.

فتح عينيه ببطء والتفت قليلًا يتأمل ملامحها النائمة في سكون، لمحة البراءة واللمسة الطفولية، بعض الإرهاق وابتسامة خافتة تداعب شفتيها كحلم ناعم تغرق فيه..

اتسعت ابتسامته أكثر وهو يبتعد بوجهه قليلًا، يسحب ذراعه لمسافة قصيرة قبل أن يلتفت إليها بكامل جسده ليتأملها بحب..

اشتاق إليها كثيرًا رُغم أنها بين ذراعيه ونامت متوسدة دقات قلبه طيلة الليل، لم يستطع المقاومة فاقترب بوجهه منها ومسَّ شفتيها بنعومة بالغة ثم ابتعد سريعًا يحوطها بعينيه من جديد..

شعر بتململها، فمع تلك اللمسة الدافئة استيقظ عقلها هي الأخرى.

فتحت عينيها ببطء لتتفاجأ بعينيه تتطلعان إليها بشغف ممتزج بعشق يذيبها كلما ارتسم سافراً على ملامحه..

والآن يتجلى بأوضح صوره داخل حدقتيه اللتين اقترب لونهما من السواد في هذه اللحظة، ابتسمت له فهمس ببطء:

- صباح الخير... وحشتيني!

بادلته همسه:

- صباح النور... أنا في حضنك طول الليل وحشتك إزاي بقى؟

هي تتدلل، هو يعلم، يعشق، يسعد، ويدلل من جديد:

- طول الوقت بتوحشيني، كنتِ في حضني بس عيوني مغمضة، باحب أشوفك في كل لحظة!

امتلأت عيناها بالحب، لمحة خجل ظهرت في الخلفية أهلكت قلبه، لم يحِدْ بعينيه بعيداً، فقط ظل يتأملها في صمت استكانت هي له مغلقة جفنيها بابتسامة، أمرها بصوت عميق:

- افتحي عينيكِ.

افترق جفناها امتثالًا. تلك اللمعة بلون العسل بينهما، وانعكاس ابتسامته فيها، تنهد بعمق وهو يعيد إحدى خصلاتها النافرة للخلف بعيداً عن وجهها، همس مشاكسًا:

- هو إحنا أجازة كم يوم؟

احمرت وجنتاها وابتعدت عنه بسرعة هاتفة:

- يا ربي عليك!

ضحك متشبثًا بها وهامسًا:

- خلاص.. خلاص، بسأل بجد والله؟.. كام يوم؟

زمت شفتيها مغتاظة فداعبهما بإبهامه مبتسمًا.. فتح فمه ليهمس ثانية لكن تلك الطرقات الخافتة قاطعته..

عقد حاجبيه في ضيق ثم سحب ذراعه كاملة من أسفل رأسها ونهض جالسًا يسوي شعره بأصابعه هاتفًا في شيء من الحنق وهو يناولها حجابها لتغطي شعرها:

- ادخل.

ظهرت طبيبتها على عتبة الباب بابتسامة اعتذار:

- صباح الخير..

وقف إلى جوار الفراش وهو يرد تحيتها الصباحية في حين ابتسمت زوجته مجيبة بلهجة عاتبة:

- صباح النور.. كده يادكتور مريم تسيبيني لوحدي؟!

ضحكة خافتة خرجت من بين شفتي الطبيبة وهي تقترب منها لتفحصها باهتمام:

- أعمل إيه بس يا جمانة!!.. أنتِ كان المفروض باقي لكِ حوالي أسبوع، وِلدتِ بدري وأنا مش عاملة حسابي.. وعمومًا يا ستي عرفت إن كان معاكِ دكتور جمال وهو أستاذ جامعي وممتاز جداً..

ثم ابتسمت مستطردة:

- وشايفاكِ زي الفل أهو الحمد لله.. ومروان كمان.. ألف مبروك.. يتربى في عزكم.

بدا الضيق للحظات على وجه "أدهم" عند ذكر ذلك الطبيب اللزج فأدار وجهه بعيداً متوجهًا نحو نافذة الغرفة ليتطلع منها إلى الخارج حتى تنتهي الطبيبة من فحص زوجته، أخبرتهم بعملية:

- إحنا كده تمام والبيبي تمام.. كمان ساعة تقدري تروحي.. هاكتب لك على خروج دلوقتِ، وحمد لله على سلامتك مرة تانية.

ودعتهما بابتسامة ثم غادرت الغرفة، التفت لها ثانية معقبًا بتهكم:

- أستاذ جامعي ممتاز!!

ضحكت "جمانة" بمرح فعقد حاجبيه مغتاظًا، اقترب منها بسرعة وجلس إلى جوارها مواجهًا لها، هتف بلهجة حانقة تمتلئ بالغيرة:

- بتضحكي كمان!.. ماشي يا جمانة، عقابك بعدين!

لم تستطع كبح ضحكتها ثانية فزم شفتيه متذمرًا..

تماسكت بصعوبة وهي تستمتع بغيرته وملامحه التي تحولت لضيق محبب ومضحك، مدت أصابعها تتحسس وجنته برفق تطيب خاطره، فعاتبها بعينيه، همست تراضيه بلهجة شقية:

- خلاص بقى.. أوعدك المرة الجاية هاحبسه جوا لحد ما الدكتورة بتاعتي تبقى موجودة!

سخر منها:

- ها.. ها، فكرة برده وماله!... بس ما جاوبتيش على سؤالي!

عقدت حاجبيها في تساؤل أجابه بسرعة:

- إحنا أجازة كم يوم؟

ثم ضحك بمرح عندما لمح غضبها اللذيذ مرتسمًا على ملامحها، استطرد مشاغبًا:

- باطمن على مستقبلي يا جوجو!

شهقت في خجل ليضحك ثانية، اقترب منها وهمس في أذنها:

- أكتر من أسبوع مش هاسكت على فكرة!

عادت تشهق خجلاً ثم لكزته في كتفه وردت معاندة:

- قدامك أربعين يوم يا أبو مروان.

تراجع في صدمة، سألها:

- أنتِ بتهزري ولا بتتكلمي جد؟

أجابته بجدية:

- جد طبعاً.

تأمل وجهها لثوان كأنه يستشف من ملامحها مدى جديتها.. بدا مضحكًا للغاية والدهشة تغرق وجهه.. رفعت حاجبيها تنظر إليه باستغراب وكتمت ضحكة كادت تنفلت منها، فوجئت برده:

- طيب أنا مسافر شهر كده!!.. محتاجة مني حاجة قبل ما أمشي؟!

انطلقت ضحكتها هذه المرة بمرح ولم يتمالك نفسه هو الآخر فضحك معها وإن بدا الاستياء على ملامحه..

بعدها بقليل أتت شقيقتها لترافقها للمنزل، حملت هي الصغير بحرص شديد، تتأمله وتدعو لأختها بالبركة والهناء..

كانت "جمانة" تتطلع إليها بين حين وآخر وهي تنظر لطفلها، تَوَجَع قلبها لأجلها ولم تملك لها سوى الدعاء بأن يخلف الله عليها بالخير.

مرت عدة أيام استردت فيها "جمانة" صحتها، ولازمتها والدتها، زارها خلالها والدة زوجها ووالده وشقيقته عدة مرات، سُعدت بتلك البهجة التي ترتسم في أعين جدة الصغير عندما تحمله، هذه خطوة أخرى تقرب بينهما.

أما عنه فلها أن تُحدث ولا حرج، ذلك الصارم المخيف الذي تشاجر معها يومًا وألقى على مسامعها محاضرة شديدة السُميَّة، بعدها بقليل كان يقف إلى جوارها ويساندها، ليعرض عليها زواج تتفاجأ بعده بحب تحلق في سماءه كل لحظة وتنهل منه كل يوم لا تخشى نفاذ، الرجل الكبير القوي، عندما يحمل صغيره، تتبدل ملامحه بشدة، تتمازج فيها مشاعر وأحاسيس غريبة لا تتوافق البتة مع بعضها البعض..

ابتسامة حنان، نظرة حب، ارتباك، خوف، فرحة، بعض ذهول كأنه يستغرب الأمر، وقتها تشعر أنه هو الآخر طفلها، تعشق غيرته عليها وإن كانت تخشاها أحيانًا، تتلهف قربه الدافئ وشغفه الدائم، شقاوته

وضحكاته التي يشاغبها بها، دعاباته ومرحه، هو نفسه المتحول، شخص آخر تحيا معه، غير الذي تراه في الخارج وفي العمل، تعشق ذلك فيه..

فهو فقط رجل الجميع الصارم الشديد، طفلها هي، تستأثر بلحظات حبه ومرحه وطفولته ومشاكساته وتسعد بها.

الآن له شريك جديد فيها، يثير الغيرة بداخله أكثر، يحنقه استئثاره بها واهتمامها لأقصى حد به، هو طفله نعم، لكنه هو أيضًا طفل صغير يحتاج حنانها وقربها وحبها، يتذمر أحيانًا فتراضيه، ينتفض قلبه حبًا..

هي هدية، هدية السماء، نعمة يشكر الله عليها كل يوم، وها هي نعمه تكتمل بفرحة حياته طفله الصغير، يخاف كثيراً عندما يحمله، حجمه لا يتعدى كفيه متجاورين، خفيف الوزن رقيق وناعم البشرة يخشى أن يخدشه بذقنه الخشنة فيقبله بلمسة خفيفة خاطفة، ينساب الدفء بين ضلوعه عندما يسمع صوته، بكائه، أو يراه يفتح فمه الصغير متثائبًا..

علت شفتيه ابتسامة عندما استجاب طفله لأفكاره وتثاءب بالفعل بين يديه، لمسات أصابعها الرقيقة تتغلغل في شعره بنعومة جعلته يرفع رأسه نحوها، ابتسمت له هي الأخرى ثم جلست أمامه تتناول منه الصغير برفق هامسة:

- بتتأمل فيه كتير قوي، مستغرب؟

بدا نوع من الحيرة على وجهه، فقط تنهد مجيبًا بخفوت خشية إزعاجه:

- يمكن.. صغير قوي، خايف ينكسر في إيدي!

تحركت هي ببطء لتضع الصغير على الفراش بجوارها، ثم طبعت قبلة ناعمة على جبينه وهي تتأمله، زوجها أيضا كان يتأملها، سمع ردها الخافت:

- ما تخافش، مارو قوي زي باباه.

لمعت عيناه، حان وقت المرح قليلًا، جذبها بعيداً عن الفراش ثم خرج بها من الغرفة، لم تستطع النطق أو التساؤل فقد جرها خلفه بسرعة وخافت أن توقظ صغيرها فتبعته في صمت..

أسند ظهرها للجدار المجاور للغرفة وأحاطها بذراعيه ناظراً إليها بعينين ماكرتين هامسًا في خبث:

- دي معاكسة بقى ولا إيه؟!

ضحكت بخفوت، هزة كتف بمعنى دلال، رمشة أهداب أن نعم، فابتسامة حب، ثم هروب منه..

ابتعد فجأة فأطلق ابتعاده منها ضحكة تحمل لمحة مرح، ورنة خبث ممتزج بانتصار، عُقدة حاجبيه المغتاظة ظهرت على وجهه، ابتسامة حانقة زينت شفتيه، ثم هزة رأس باستسلام..

اقتربت منه فتطلع إليها بترقب، ما الذي تريده الآن؟.. هو يتحاشى قربها قدر المستطاع، منذ صدمة الأربعين يومًا التي أخبرته عنها بالمشفى وهي تشاغبه كطفلة صغيرة مستمتعة بهروبه وغيظه..

جلست إلى جواره، خيبت ظنه عندما سألته بجدية مفاجئة:

- هترجع الشغل إمتى؟

رغب في المزاح ثم تذكر نتيجة مزاحه فاستدرك نفسه مجيبًا:

- غالبًا بكرة.. آدم بيقول لي عنده عرض شغل جديد ومستنيني أرجع عشان يشوف هيعمل إيه!

تساءلت باهتمام:

- شغل جديد فين؟.. هو هيسيب الشركة ولا إيه؟

سارع بالإجابة:

- لا طبعًا.. يسيب الشركة إزاي!.. أنا ما أعرفش التفاصيل بالظبط، هاقابله بكرة بإذن الله وأشوف.

أومأت برأسها مجيبة بابتسامة:

- طيب هاحضر لك العشا أنت كده اتأخرت في النوم وهتصحى بدري.

دفعه قلبه سريعًا ليقول بتملك:

- هاجي أقف معاكِ!

ضحكت بمرحٍ واستجابت لرغبته في صمت، حضرت له عشاءً خفيفًا تناوله معها في المطبخ وهما يتشاغبان طوال الوقت..

في النهاية عندما راح في النوم إلى جوارها ظلت تتأمله لدقائق، أحيانًا يتوه منها قلبها وتخشى من سعادة تحياها معه، ثم تعود لتؤنب نفسها، كفى تشاؤمًا وقلقًا، لا تضيعي منكِ لحظات الحب في خوف لا داعي له..

التقطت كفه وطبعت عليها قبلة ناعمة هامسة بحب:

"ربنا يخليك ليَّ"

ثم انزلقت في الفراش وهي تحتضن يده قرب قلبها وتدفن رأسها في دفء صدره مغمضة عينيها براحة وأمان، ابتسامة ترسم نفسها ببطء على شفتيها لتودع الوعي وتهوي في حلم جميل.. معه.

******

توقفت سيارة فارهة أمام مقر شركات "أبو العز جروب" ذات النشاط المتعدد، تلك الشركة التي تنهض من رماد رفاتها لتقف على قدميها من جديد متحدية الصعاب كما مالكتها، المالكة التي ترجلت من السيارة وهي تلف وشاحها الرقيق حول رأسها بعدما أطاره الهواء هو وبضع خصلات

شيكولاتية اللون تمردت من شعرها المعقوص بطريقة رسمية أسفل الوشاح ذو اللون الأزرق الفاتح..

تحركت بخطوات سريعة وكعب حذائها القصير يدق الأرض بتتابع منتظم، بذلتها الرمادية تحيط بقدها الفاتن فلا يظهر منه شيء ووجهًا بملامح مبهمة خلت من مساحيق التجميل وإن لم تخلُ من فتنتها الواضحة، بشفاه صغيرة مكتنزة مضمومة في حزم ومنظاراً شمسيًا ضخمًا يغطي نصفه تقريبا، عندما دلفت إلى مكتبها بادرتها مساعدتها:

- صباح الخير يا فندم.. دقايق وهاجيب لحضرتك البريد وأجهز للاجتماع.

أومأت برأسها إيجابًا ثم خرج صوتها الناعم مجيبًا في حزم:

- تمام يا مها.. بسرعة لو سمحتِ لأن عندي شغل مهم لازم يخلص النهاردة.

عندما أغلقت بابه خلفها تنهدت بعمق، خلعت وشاحها ومنظارها لتلقي به فوق المكتب بإهمال.. دارت حوله لتجلس إليه على مقعدها الوثير، تنهيدة أخرى خرجت بزفرة حارة هذه المرة..

هي تعمل بكد لم تتخيل أن تبذله يومًا لأجل عمل ما، تحتفظ بشركتها منتصبة على قدميها، تحارب في سوق مليء بالوحوش وهي منذ أشهر قليلة كانت لا تفقه شيئًا..

أحيانًا لابد أن ينكسر عودنا اللين لنضمد جرحنا بعده ويكتسب صلابة تثبته في مكانه من جديد.. وهي عودها تحطم، بعدها جمعت أشلاء حطامه وألصقتها ببعضها البعض لتحصل على نتيجة ليست بالمبهرة لكنها غطتها بلاصق حجب الشروخ بداخلها عن أعين المتلصصين.

تراجعت بظهرها تستند للمقعد، شردت في أحداث عام مضى، عام كانت قبله شيء وأصبحت خلاله شيئاً آخر يختلف تمام الاختلاف..

عام فقدت فيه الكثير، وكادت تفقد ما هو أكثر لولا مساندته لها، ووقوفه إلى جوارها داعمًا ليحل محل أب رحل في وقت عظُمت فيه حاجتها إليه.

"سيدي القاضي، حضرات المستشارين..

بناءً على ما قدمناه للمحكمة الموقرة من دفاع وأدلة وبراهين، واستناداً للمادة ٢٤٥ من قانون العقوبات نلتمس من عدالتكم الحكم ببراءة المتهمة من التهمة المنسوبة إليها ونحن على ثقة ويقين من سعة صدركم"

وتم الحكم بالبراءة، بالبراءة للضحية التي تم ذبحها من وقتها مرارًا وتكرارًا وحتى هذا الحين.. لقد نالت عفواً من كرماء حقًا..

ابتسمت ساخرة، لو حكموا بالموت لكان أفضل من حياتها، هي الآن كثور قوي، تربط نفسها إلى طاحونة العمل وتغمس نفسها فيه حتى الثمالة، ثم تعود لفراشها تنزوي فوقه وتخلع قناع القوة لتعفو عن دموعها وتسمح لها بترطيب جفاف قلبها..

تغيرت كثيراً، كثيراً جداً، أكان لابد من صدمة قاتلة لتتغير؟.. لترى مساوئها على حق؟.. لتخرج من علبة اللعب الأنيقة وتخوض غمار الحياة بترابها وقسوتها وغيومها، أنفاس صعبة ودقات قلب بطيئة وعيون ترى بصعوبة؟

"اغتصاب، انتهاك، اعتداء"

ما الفارق ؟ لقد فعلتها من قبل، أم أن أمر إرادتها يختلف؟

لم يحصل عليها واحدٌ فقط، بل اثنين، وأيًا منهما لم يكن زوجها..

أحدهما سلبها عذريتها في لحظة سُكر تبعته لحظات مصالح، والآخر نال من أنوثتها في لحظة هلوسة صنعها بيديه، وتاهت هي في الطريق..

دومًا عندما تتوه تتذكره، هو من كان هناك عندما احتاجت إلى دعم، على الرغم من كثير من الأمور التي لم تكن تعجبه فيها، تبتسم بحنين وتشرد نحو أمل تعلم أنه لن يُمنح لها أبداً.

طرقات سريعة أخرجتها من هالة الشرود فأمرت بحزم:

- ادخل.

من خلف الباب ظهرت مساعدتها تحمل ملف البريد وهي تقول بعملية:

- الاجتماع بعد ربع ساعة يا مدام دينا، هنا كل الرسايل المهمة وجلال بيه هيكون موجود.

زمت شفتيها عند سماعها اللقب "مدام دينا"، ساخرة من نفسها، حقاً رداء السِتر يخفي عيوبنا عن الآخرين، لكن من يخفيها عنا نحن!..

أجابتها:

- أوك يا مها، جلال بيه كلمك بنفسه؟

ردت بسرعة:

- أيوة يا فندم وهو على وصول، وآدم بيه احتمال يحضر الاجتماع مش متأكدين لأنه في إجازة بقى له فترة.

عقدت حاجبيها في استفهام فاستطردت الفتاة:

- كان مسافر، وأدهم بيه هو اللي كان بيتابع أوراق آخر مناقصة حسب أوامر جلال بيه.

هزت رأسها في صمت..

علمت مؤخرا أن "أدهم" أصبح أباً وها هي لا تقف في مكانها فقط، بل سقطت إلى القاع بارتجاجٍ مدوٍ قلب حياتها رأسا على عقب..

الكل يتحاشاها ومن يتملقها ينفث سمومه خلف ظهرها، وهي لم تعد تبالي، بل منذ متى هي تبالي؟

راجعت بريدها ووقعت الأوراق الهامة ماحية علقم الذكريات من عقلها وحلقها، ثم توجهت لقاعة الاجتماعات راسمة على وجهها تلك النظرة الحادة التي تختص بها الجميع إلاه.

ترأست الاجتماع، هي قائدة الآن، وليست فقط مجرد قائدة بل هي ناجحة، بدعمه فقط، من جعلته أبًا روحيًا لها، عراب أمانها الجديد بعد فقدان الدعامة الأساسية وهي في غيبوبة ألم، بعد قليل أطل بهيئته الوقور وابتسامته الحنون، هبت واقفة لتتوجه إليه، بادلته ابتسامته وهو يسألها بعطف أبوي:

- إزيك يا دينا!.. عاملة إيه يا بنتي؟

أجابته بلهفة:

- الحمد لله يا أونكل، حضرتك عامل إيه؟

اتسعت ابتسامته بينما تقوده إلى مقعده المقابل لمقعدها على الطرف الآخر لطاولة الاجتماعات ثم أجابها بهدوء:

- تمام وزي البمب أهو.. طمنيني عليكِ يا بنتي.

جلست تجاوره مجيبة وقلبها ينبض بسعادة لاهتمامه:

- أنا كويسة طول ما حضرتك كويس.

مال نحوها مداعبًا:

- الغزل ده لو طنط فريدة سمعته مش هتسكت.

ضحكت بخفوت وهي تتذكر..

دومًا تعود الذكريات لتقتحم عقلها، محبطة كل أمل، منهية لكل لحظة سعادة، "فريدة" صديقة والدتها العزيزة ووالدة الرجل الذي اعتقدت أنها أحبته يومًا، بل التي قامت بالاتفاق معها ووضع الخطط لتزويجه منها بأي شكل، ترفض حتى لقائها وتتهرب منه دومًا بعد فضيحتها..

لاحظ العم شرودها فخمن السبب، ترى هل لا تزال تفكر بابنه؟

زوجته هي السبب، هي من ملأت رأسها به وبوجوب وجوده في حياتها، هل أحبته أم أنه افتتان مؤقت زال عنها الآن بعد تقلبات الزمن التي غدرت بها؟

ربت على كفها بحنو هاتفًا في مرح مصطنع:

- عرفتِ إن أدهم بقى بابا وأنا بقيت جدو للمرة التانية!.. ربنا رزقه بمروان، صغنن قوي بس شبهه.

خمنت سبب حديثه، سخرت بداخلها من نفسها، هل يعتقد أن تحب ابنه؟

هي لم تحبه يومًا، لكنه القدر، ونزعة التملك والسيطرة التي تسري في دمها، ابتسمت مجيبة بلا انفعال محدد:

- أيوة عرفت يا أونكل، ربنا يخليهوله، جمانة عاملة إيه دلوقتِ؟

رد بود:

- الحمد لله كويسة.

وصل "آدم" في هذه اللحظة للمكان، ألقى التحية عليها بتحفظ لم يتغير منذ أصر والده على رعايتها والوقوف إلى جوارها في محنتها بعد وفاة والدها، "أدهم" رفض تمامًا أن يكون بينها وبينه عملًا مشتركًا أو تعاملًا مباشرًا، لكنه كان شريفًا في رفضه فلم يخبر والده عن السبب، عما فعلته لتفوز به، وما كادت تتسبب فيه بينه وبين حبيبته بل وبين أخيه..

يبدو أن عمها على حق، "آدم" بالفعل أكثر رقة وتسامحًا من أخيه الأصغر، حتى وإن تعامل معها على مضض وبرسمية شديدة لكنه يساندها لتتعلم وتقود شركة والدها التي كادت تقع وتنتهي بعد وفاته لولا العم "جلال" الذي اكتشفت فجأة كم هو حنون بعد رحيل والدها صديقه الصدوق..

بدأ الاجتماع، تألقت بأفكارها العملية ونقاشاتها الهادفة، وانتهى بمزيد من الإعجاب ينمو داخل أباها الروحي فهاهي طفلة صديقه تعلمت، كبرت، اجتهدت، أصبحت أقوى.

بعد انتهاء الاجتماع غادر "آدم" مباشرة في حين بقي "جلال" معها لبعض الوقت، تحدث معها عن حالها، كيف هي؟ وكيف حال والدتها؟

وعندما يأتي الأمر على ذكرها ترتسم ابتسامة ساخرة على شفتيها وأكبر منها بداخل قلبها، الأم التي لم تكن أمًا أبداً أصبحت مجرد عجوز متصابية،

حفلات وسهرات، رجال ونساء وخمور، وهي فقط تنطوي على نفسها أكثر وتبتعد لتمنح والدتها المزيد من الأموال لتبذرها على أهوائها.

رحل العم بعدما ترك ابتسامة ارتياح على شفتيها، نصحها كالمعتاد، دعا لها، واعتذر عن جفاف أبنائه في معاملتها ورفض زوجته لقائها، لم تهتم كثيراً فأبوته لها تكفيها، حتى أصدقاء سهراتها السابقة ابتعدوا عنها وتحاشوها كمريض موبوء بمرضٍ معدٍ، لا يزال فقط فتاها السابق المدلل "تيام" يحوم حولها بين حين وآخر لتعود كما كانت، لكنه فقط وهم أيضًا يحلمون، لقد اكتفت وانتهى الأمر، وقناعها اقترب كثيراً من الالتصاق التام بوجهها، بل وقلبها كذلك.

عندما انتهى يومها كانت هي الأخرى قد انتهت، أُنهِكت، وفقدت جُل طاقتها، عادت لمنزلها تتحاشى لقاء أي كائن حي، لكن تفاجئها الأم العزيزة بحفل جديد، نساء أخريات بمجالس النميمة، هن سيدات المجتمع الراقي، ورائدات كل الحركات التي تهتم بالمرأة وتحريرها وبعثرتها ومعاداتها للرجل..

ورغمًا عن ذلك فها هو اللزج يلتصق بوالدتها، ستة أشهر، فقط ستة، وظهر هو لتتعلق المتصابية بذراعه في كل مكان، تنتظر خبر زواج قريب لكنها لم تعد تهتم..

مسحت المكان بنظرها سريعًا ثم استدارت لتصعد الدرج نحو قوقعتها الصغيرة لتحبس نفسها بداخلها، ثم تبكي، طقوس كل ليلة منذ عام، لم تتغير أو تتبدل، بعد درجتين أتاها صوته حنونا أو متظاهرًا بحنان:

"دينا"

توقفت، زفرة حانقة ثم التفاتة لم تردها حقًا، الوغد يبدو وسيمًا كما هو دومًا، أما هي فقد فقدت رونقها وأصبحت مجرد زهرة ذابلة دهستها الأقدار بعنف وقسوة..

لاحظ نظرتها الصامتة نحوه، بادلها صمتها، لكن نظرته مختلفة، بها شيء ما لا يريحها أبداً على الرغم من تغليفه بالرقة لكنه يطفوا جليًا للسطح في كل مرة تتلاقى فيها أعينهما..

ابتسم لها، متصنع هو تعلم ذلك علم اليقين، صعد درجة فوازاها طولاً، أمام وجهها همس برفق:

- غيري هدومك وتعالي اسهري معانا شوية..

انعقاد حاجبيها الحانق أنبأه بإجابتها لكن قبل أن تتلفظ بها وضع إصبعًا على شفتيها مستطرداً:

- بليز ما تقوليش لا، غيري جو يا بنتي مش كده.

دفعت يده بشيء من العنف هاتفة بحدة اعتادها منها مؤخراً:

- تيام.. مليون مرة قلت لك وفهمتك إني خلاص، مكاني ما بقاش بينكم، ممكن تزهق مني شوية وتشوف حفلة مام وتهيصوا مع بعض بعيد عني!

عادت تستدير لتصعد عدة درجات أخرى عندما توقفت لا إراديًا بجذبة من يده لكفها، التفتت بعنف، ستصرخ فيه حتما لكنه ترك يدها بسرعة، يعلم كيف تشعر تجاه لمسات الجنس الآخر أيًا كان، حتى هو صديق العائلة العتيد وعائلته..

لكنه يهتم لأمرها حقًا، في البداية ظن أن الأمر مجرد طريق، طريق فتح أمامه ليكون الصديق الحميم، لا ارتباطات أو التزامات، العلاقة بينهما أسمتها صداقة وأصبغ عليها هو لون الرغبة، لكنها دومًا عارضت، اعتقد أنها بريئة على الرغم من اللمسات غير المحدودة بينهما خاصة عندما حاولت نصب شباكها حول الحمار الكبير الذي كانت تحبه أو تريده على الأقل، ثم اكتشف أن البراءة لا تمت لها بأدنى صلة، وحدث لها ما حدث وعلم أن المنفذ إليها أسهل ما يكون، لكنها ترفض، وبعنف.

هل أصبحت كارهة للرجال أم ماذا؟.. حتى أمها لم تتوانى في تدميرها أكثر، لم يعد الأمر مجرد امرأة في حياته يرغبها، بل اهتمام لأمر تلك التائهة التي تضيع وتذوي في كل لحظة، همس لها برفق ونظرة حانية تملأ عينيه، كأنه يخبرها أنه لا يقصد الإيذاء:

- اعتبريني على الأقل زي أخوكِ يا دونا، اللي بتعمليه في نفسك ده مش بيضر حد غيرك.

لمحة ساخرة مرت بعينيها وهي تنظر إليه، الآن ماذا يا صديقي القديم؟.. هل تتقمص دور الحبيب؟.. أم تبغي ما هو أكثر؟.. فأنا الآن أرض ممهدة تمامًا لتلقي رغباتك دون خوف أو وجل أو التزام..

انتقلت السخرية لابتسامة تخط نفسها على شفتيها وهي تجيبه بصلف:

- أنا ما ليش إخوات، والدور اللي بتحاول تعيش فيه مش لايق عليك، عن إذنك بقى لأني واحدة بتشتغل وبتتعب كل يوم عشان تقدر تنسى.. وتعيش.

ثم تركته..

تابعها بعينيه في صمت حتى اختفت أعلى الدرج وقلبه يأمره "اتبعها"

لكن عقله هتف يلاحق رعونته "لا تكن أحمقًا متهوراً"، وأنصت له مستديراً هابطاً تلك الدرجات التي صعدها خلفها محاولًا نيل شيء من رضاها.

ها هي وحدها من جديد..

حان وقت نزع القناع، الآن وقت العفو، لحظة الضعف والانكسار، ستنهمر الدموع لتغسل قلبها وتريح عقلها المنهك..

تعود لنطاق الذكريات، الألم، وجع الماضي القريب، لحظات انتهاك مرت بها رغمًا عنها، وهي تنظر، تبكي، صراخها محبوس بداخلها، تتألم، ولا تملك قدرة على الرفض، ثم في النهاية تغتسل بدماء المنتَهِك، وتمر بأقسى وقت عندما تسترها أياد رجال لا تعرفهم وتُحمل كالمشلولة نحو سجن المرض..

كلما رأت نظرات السخرية والشماتة في أعين من كانت تظنهم أقرب المقربين شعرت بانتهاك أكبر، لقلبها، لعقل صغير أحمق ظن أنه ملك متوج في يوم ما ثم أفاق من غيبوبة حمقه على واقع مرير، أنه وككل شيء حولها له ثمن، وثمنها فضيحتها، التي أضحت بعدها كائن منبوذ، ساهمت هي في نبذه بتباعدها وهروبها الدائم، هي تتحدى كل يوم، لكنه رداء ترتديه صباحًا ثم تخلعه في غرفتها مساءً عندما تصبح وحدها، يخفت التحدي في عينيها وصوتها، وينهض مارد الضعف والقهر، لتبيت كل ليلة ودموع تروي عطش قلبها ووجنتيها للألم.

******

عندما استيقظ على لمسة ناعمة تداعب خشونة وجنته برفق ابتسم قبل أن يفتح عينيه، ثم فتحهما ببطء ليحصل على تحيته الصباحية الخاصة لكنه فوجئ بقبلة مبللة بلعاب وهزة أخرى بكف صغير تحرك كتفه..

فتحهما على اتساعهما ليجد "ملك" تدفعه برفق بعدما قبلته، اتسعت عيناه أكثر وهو ينظر إليها لكنها هتفت:

- بابا أدهم.. اصحى، ماما قالت لي أصحيك!

فرك عينيه كأنه مازال في حلم، عاد يبتسم وهو يجذبها إلى جواره يدغدغها هاتفًا بمرح:

- طيب أنا صحيت وجه وقت الزغزغة..

ضحكت الصغيرة بشدة وهو يلاعبها عندما ظهرت زوجته في مجال بصره بابتسامة، التفت إليها بنظرة خبيثة، صوته خرج مغتاظًا بشكل ما وهو يشاغبها:

- ملك صحتني بأحلى بوسة النهاردة.

وهو يتذكر لعابها الذي يبلل وجنته فضحك ثانية وهي تضحك معه، قفزت صغيرتها تحتضنها وهي تهرب من أصابعه التي تحاول اللحاق بها لمزيد من اللعب..

احتمت بأمها هاتفة بلهجتها الطفولية:

- ماما.. خبيني..

داعبتها والدتها وهي تنظر لزوجها الذي بدت في عينيه نظرة متوعدة:

- وأنا مين يخبيني؟!

قفز من الفراش فجأة يضمهما معًا مدغدغًا حتى تعالت ضحكاتهما..

أنزلت "جمانة" طفلتها وركضت بعيداً عنه تلاحقها الصغيرة ثم هو، شاغبهما لبعض الوقت ثم عاد للغرفة ليستعد للذهاب لعمله..

تناولوا الفطور سوياً وهي تحمل طفله الباكي، دومًا يغيظها بصراخه وقت انشغالها لكنها تتقبله بحب وحنان يحنقه هو..

أمره غريب لكنه رغمًا عنه يشعر بذلك، ودومًا ترتسم ابتسامة على شفتيها كلما ظهر على وجهه غيظه الطفولي، فتمحو بابتسامتها غضبه كما اعتادت.

ذهب لعمله، اليوم هام للغاية فخلفه الكثير من الأمور التي تحتاج لحسم وهو قد غاب لفترة ليكون إلى جوارها، يرعاها ويهتم بها على الرغم من إقامة والدتها معهما لأسبوع..

جلس خلف مكتبه بهدوء وهو يفكر بماذا يبدأ..

دلفت "سهام" للداخل تحمل ملفًا قدمته إليه قائلة بعملية:

- باشمهندس أدهم.. دي حاجات متأخرة لازم حضرتك اللي تشوفها، دكتور آدم تابع معانا على أد ما يقدر ودول منتظرين توقيعك.

رفع رأسه يلتقطه منها مجيباً:

- أوك يا سهام، دقايق وتعالي خديه تاني.

أومأت برأسها وتحركت لتخرج لكنها ناداها سريعاً:

- سهام.. بلغي دكتور آدم إني جيت وقولي له إني هاروح له كمان ساعة.

أجابت بعملية:

- تمام يا فندم.

خرجت لتنهي مهامها وتتركه يصب تركيزه على الملف الذي بين يديه.. راجعه باهتمام وعقله مشغول بالعمل الجديد الذي أخبره عنه أخوه..

ترى ما هو؟.. وهل سيؤثر ذلك على وجوده معه في الشركة؟.. أم أنه سيتركها كما خمنت زوجته، وهذا ما لن يسمح بحدوثه أبداً!

أنهى الأمور الهامة العالقة ثم توجه نحو مكتب أخيه بخطوات سريعة متلهفًا لمعرفة التفاصيل.. دخل ليجد مساعدته التي عملت معه بعد رفضه عودة "جمانة" للعمل..

ألقى عليها تحية مقتضبة ثم توجه مباشرة لمكتب "آدم"، طرق الباب بخفة ثم فتحه ليدخل ويغلقه خلفه بادئًا في مشاغبة أخيه:

- أدوم البيج بوص.. فينك؟!.. يعني نغيب وما تسألش عننا كده؟

ضحك أخيه بمرح وهو ينهض من مقعده متوجهًا نحوه مجيبًا:

- يا بني أنت مشغول.. بقيت بابا مش عاوزين نشغلك أكتر، أخبار الأبوة إيه؟

علت ابتسامة حنان شفتيه وهو يستعيد ملامح صغيره المنمنمة، ورد برقة:

- تجنن!

علت ضحكة "آدم" ثانية فتلقى لكمة في ذراعه من أخيه الضاحك هو الآخر، داعبه بمكر:

- مش هتجنن كتير، الجنون أنواع.. استنى أنت بس شوية وهتتجنن بجد!!

شردت عيناه لحظة وهو يرد دون أن يشعر بما يقول:

- هو أنا لسه هاتجنن أكتر من كده؟!.. ده أنا مش عارف أشوفها!!

جلجلت ضحكة أخيه فانتبه أنه قال كلماته بصوت عالٍ، شعر بالحرج فحاول مداراته متسائلاً:

- سيبك مني، طمني عليك وعلى جو؟.. عاملين إيه؟

رد سريعًا مستجيبًا له:

- تمام الحمد لله.. تعالى عشان أحكي لك على تفاصيل الشغل وننظم وقتنا مع بعض.

توجها نحو أريكة جانبية ليجلسا متجاورين و"أدهم" يتساءل:

- ننظم إيه؟.. إوعي تكون ناوي تسيب الشركة!

ابتسم أخوه مطمئنا وهو يرد:

- لا ماتقلقش.. هاحكي لك كل حاجة، أنا قصدي إن في أيام مش هاقدر أكون موجود فيها من بدري وعاوزين ننظم نفسنا بحيث أنت تباشر الشغل كله فيها.

رد بجدية:

- تمام.. احكي لي بقى إيه الموضوع بالظبط!!

استرخى "آدم" في جلسته:

- أبداً يا سيدي.. أنت تعرف دكتور "محمد الميرغني" طبعًا، الأب الروحي اللي اهتم بيَّ طول فترة دراستي ولحد ما سافرت كندا، حتى فرصة السفر هو اللي وفرها لي!

أومأ "أدهم" برأسه موافقًا لأخيه الذي استطرد:

- عرض عليا أرجع للتدريس في الجامعة، في محاضرات معينة مش كل أيام الأسبوع، عجبتني الفكرة بصراحة وقلت أجرب، أهو تغيير عن الروتين.

رد "أدهم" مستفسراً:

- طيب ده مش هيأثر على الشركة يا آدم؟.. يعني أنت كده هتغيب كتير عن الشغل ودي شركتك ولا إيه؟

طمأنه مجيباً:

- تلات أيام بس في الأسبوع والباقي هيكون هنا، ده غير إن محاضراتي الصبح، بعدها هارجع على الشركة، ما تقلقش مش هاسيبك لوحدك، عارف إنك هتغرق في شبرماية من غيري!

ثم ضحك في مرح، استجاب له أخوه بضحكة هو الآخر قبل أن يملأ عينيه حنان غريب وهو يرد:

- طيب تصدق!.. معاك حق، أنت أستاذي برده يا آدم وأنت عارف كده كويس.

ربت "آدم" على كتفه برفق مبتسمًا:

- والتلميذ تفوق على الأستاذ.

نظرة امتنان ملأت عينا "أدهم" ثم سأله فجأة:

- جامعة إيه صحيح؟

رد بدهشة:

- هيكون إيه يعني؟.. اللي كنت باشتغل فيها قبل كده!

هتف بمرح:

- ٦ أكتوبر!!.. حلو قوي، كده هتبقى مع سارة، يلا عشان تخلي بالك منها.

ضحك "آدم" بمرح:

- ولا أعرفها، هنبتدي كوسة من أولها ولا إيه!

تضاحكا قليلًا ثم تحدثا بعد ذلك في العمل وتوزيعه بينهما لتوفير الوقت المناسب لـ "آدم" في عمله الجديد، العام الدراسي على وشك البدء بالفعل ولا بد من إنهاء الكثير من الأمور المعلقة ليعود لمجال عمله الأصلي الذي تجاهله طويلاً رغم حبه له، ذلك المجال الذي يمتلئ بمفاجآت لم تكن لتخطر بباله قط، والتي لو عرفها لربما فر هاربًا قبل أن يفكر مجرد التفكير في تلك العودة.

******

أنهت مرافعتها ثم رُفعت الجلسة في انتظار النطق بالحكم، غادرت لتستنشق بعض الهواء خارج القاعة المغلقة الممتلئة بأنفاس البشر والتي أصبحت تسبب لها الاختناق مؤخراً..

كثيراً ما ترغب في الوحدة، الابتعاد، الهروب..

ذكريات الماضي تزكم أنفاسها وتطعن قلبها كل يوم في مقتل، لا تدري إلى متى ستتحمل تلك الطعنات، وإلى متى ستظل تنزف؟.. دموعًا ودمًا؟

مخطئ من يظن أنها نسيت، ومخطئ أكبر من يعتقد أن النسيان بالنسبة إليها أمر سهل أو بسيط..

القوة التي تتلبسها كعفريت في وجود الآخرين لا تلبث أن تتخلى عنها في وحدتها، يتنازعها شعور رهيب بالخواء، يحطم هالة الصلابة والبأس التي تحيط نفسها بها كدرع حماية أمام أعين البشر، وشعور برغبة قوية في الفراروالاختفاء بعيدًا، لكن أنَّى لها ذلك؟

تخطت الرابعة والثلاثين منذ أيام، ذكرى لم ترد لها أن تمر بخيالها، وها هي، أنثى وحيدة، باكية بدون دموع حقيقية ترطب قلبها الساكن في ألم..

شقيقتها الصغرى التي دوما ما آلت على نفسها مراعاتها والاهتمام بها تصبح أماً للمرة الثانية، تغلبت على تجربة الألم الأولى، استغرقها ذلك كثيراً، أكثر من ثلاث سنوات، ترى هل تحتاج هي الأخرى إلى تلك السنوات الثلاث لتنسى؟ لتترك سفينتها تمخر عباب بحر الحياة من جديد، تبحث عن مرفأ آخر ترسو إلى أمانه؟

وصل صوته الحازم الحنون لأذنيها فجأة مناديًا باسمها في رفق:

- أستاذة لميا!!

التفتت سريعًا لتطالعها عيناه، بئر عميق من الأسرار، أسرارُ حنانٍ تغوص فيه فجأة دون أن تفهم السبب، شرود أحاط بها وهي تنظر إليه، فابتسم، ولابتسامته تأثير صدمة أفاقتها، ردت بترحاب مقتضب:

- إزي حضرتك يا فندم؟

اتسعت ابتسامته للهجتها الرسمية، لم تنطق اسمه حتى، أجابها مداعبًا:

- تمام الحمد لله، لو بتسألي هتعرفي!.. فينك من زمان؟!

أومأت برأسها بلا داع، بلا معنى، أجابت بعد فترة صمت قصيرة:

- عادي يا سيادة المقدم موجودة، على حسب الشغل يعني.

تجاهل الأمر، هو يعلم جيداً أنها تتهرب منه، أحياناً يستمتع بهروبها، كلما تقابلا صدفة كهذه سارعت بالاختفاء، زوجها الأحمق أضاع ألماسة ثمينة من بين يديه، وهي ترفض أن يتملكها آخر، لكنه سعى إليها ومازال، على أمل أن تكون له في يوم ما..

هو أيضاً قلبه مجروح مثلها، إنما أكثر تعقلًا، يعلم أن الحياة ستستمر، لن تقف، دوران الأرض ليس هو محوره، لذلك كان أقوى، جابه وتحدى وعندما وجد من تستحق تقدم لينال فرصة، لكنها رفضت، رفضت بشدة ثم تحاشت بعدها اللقاء، تناسى أفكاره وهو يسألها:

- عاملة إيه؟ طمنيني عليكِ.

ابتسامة خافتة مجاملة تسللت إلى شفتيها وهي تجيبه:

- الحمد لله كويسة.

أشار بيده نحو لاشيء متسائلاً:

- بتعملي إيه هنا النهاردة؟

ردت ببساطة:

- أبداً، قضية مستنية النطق بالحكم فيها.

أومأ برأسه متفهمًا، ثم عاد يستفسر:

- لسه قدامك كتير؟.. أصلي كنت هنا النهاردة شاهد في قضية، وبصراحة هاموت من الجوع، خليني أعزمك على الغدا ونتكلم شوية في موضوع مهم عاوزك فيه.

توتر أصابها أثلج صدره، هو يحيرها، يخجلها وهذه علامة جيدة، في صالحه على الأقل.. نظرت إليه قليلًا لا تدري كيف تهرب من عرضه ذاك، أجابت بتردد:

- مش عارفة لسه الجلسة والحكم، مش هينفع النهاردة أكيد حضرتك وراك شغل.

ابتسم من جديد وهو يصر على إثارة المزيد من خجلها المرتسم على وجهها:

- ما فيش شغل، أجازة عشان جلستي، وما تقلقيش هاستناكِ حتى لو....

صمت قليلاً ليرى وجهها يتلون بالحمرة الرقيقة، اتسعت ابتسامته، وهي توترت بشدة..

لمَ صمت؟.. وما الذي ينوي قوله؟.. لكنه أكمل رافعًا الحرج عنها:

- حتى لو ساعة أو اتنين، قلت لك موضوع مهم محتاج رأيك فيه، هنتغدى سوا ونتكلم، أوك؟

مُسيرة، مخدرة، أجابت بسرعة قبل أن تركض من أمامه:

- أوك.

تابعها بعينيه اللامعتين بابتسامة مرحة وهي تعود لقاعة الجلسة الخاصة بقضيتها، ثم انتقلت الابتسامة لشفتيه وهو يتجه لأحد المقاعد المجاورة للقاعة، ليستوى عليه جالساً بانتظارها.

(٣)

لا مهرب

لا تضيق حولي الخناق..

لا تقترب أو تجادل أو تحاول إقناعي..

أن ثقتي محلها أحدكم لمرة أخرى..

فسابقًا لم أنل سوى..

كسرة قلب..

وجع يستولي على الروح..

وشرود يهيم به العقل..

هاك أسبابي..

اقبلها أو لا تقبلها..

فقط ابتعد..

واسلك طريقًا غير ذاك الذي أسير فيه..

ابتعد..

سأنأى بنفسي أنا..

وأعوض بعضي شيئًا من كلٍ قد ضاع مني..

والسبب واحد منكم..

ها أنا بقايا تحاول جمع شتاتها..

لكنك تصر بحمق ذكوري..

على بعثرتها من جديد..

بنفس الابتسامة استقبلها.. ماذا دهاها؟.. هذا ليس اللقاء الأول، وبالتأكيد لن يكون الأخير..!

كلما نظرت إليه والتقت بعينيه نظراتها شعرت بالخجل.. لم تكن نظراته وقحة أو مقتحمة لكنها فقط وببساطة.. آسرة..

عيناه بلون الغيوم الداكنة، تلمع عند ابتسامته وتميل للسواد عند غضبه والذي قليلًا ما لمحته، على الرغم من عمله ومشاقه والطريقة المعتادة لمن هم مثله في التعامل، إلا أنه شخص هادئ، كتلة من الحزم والحسم والصرامة الهادئة، تمتزج بحنان غريب تشعر أنها فقط من تراه.

قادها للخروج من المبنى الشهير متوجهًا نحو سيارته لكنها عارضت بهدوء، فاقترح عليها السير سويًا حتى مطعم قريب..

صمتًا ظللهما طوال الطريق، لم تكن مسافة طويلة لكنها بدت له كخطوتين ولها بطول ميل..

توتر، خجل، ارتباك، تخللت لحظات قوتها الواهية التي ترسمها طوال اليوم ثم تمحوها فوق وسادتها قبل أن تغلق عينيها على أمل بحلم يخفف شيئًا من واقع تحياه كل يوم.

على مائدة في ركن هادئ بالمطعم استقر بهما المقام..

ظل يتطلع إليها في صمت لدقائق هربت هي بعينيها خلالها لأي شيء، لأي مكان، إلا عيناه..

ابتسم لذلك، حتى وهي معه تهرب..

حاول الحديث:

- أخبار القضايا إيه اليومين دول؟

أجابت بسرعة كأنها تتعجل الفرار من أمامه:

- كويس الحمد لله.. إيه الموضوع اللي حضرتك محتاج تتكلم معايا فيه؟

أطلق ضحكة خافتة أثارت دهشتها، مال قليلًا نحوها عبر الطاولة بينهما مجيبًا بتسلية:

- طيب نتغدى الأول.. قلت لك هاموت من الجوع، نزلت الصبح من غير فطار، عايش لوحدي زي ما أنتِ عارفة.

انتابها التوتر من جديد، ها هو يلمح لطلبه السابق.. إن زاد في الأمر فستتركه على الفور، وتوترها أبهجه ثانية..

أليس دليلًا على شيء من الاهتمام بداخلها؟.. عاد يبتسم متسائلًا:

- ها.. تتغدي إيه؟

ألقت إجابتها بعجالة:

- أي حاجة!!

رفع حاجبًا دليل دهشة، وإن كان مستمتعًا بالارتباك الذي يسببه لها..

أنهى الأمر بلهجة تحمل شيئًا من الدعابة، دعابة بدت غريبة على وجهه الصلب وصوته الخشن:

- هاختارلك على ذوقي.

أتى الطعام، تناولاه..

كان هو يتلذذ بكل قضمة، في حين تبتلعها هي كنبتة صبار مليئة بالأشواك الحادة..

لم تستمتع بالأكل على الرغم من رائحته وطعمه الشهي.. تعاتب نفسها طيلة الوقت.. كيف وافقتْ؟.. ولمَ هي مرتبكة كمراهقة هربت من مدرستها للقاء حبيبها؟.. أنهياه، هو ببطء، هي بعجلة..

تَفَكَهَ على توترها بداخله، متابعًا لكل حركات أصابعها التي تنقر المائدة بعصبية، لم يكن لديه موضوعًا هامًا للغاية..

هي مجرد استشارة بسيطة، لكن الأهم أن يفاجئها، وهو ما قرر فعله.. سؤاله الحازم المفاجئ، ألجمها، نفض قلبها بعنف، كاد يصيبها بسكتة خجل:

- ليه رفضتِ طلبي؟

اتساع عينيها المذهول كاد يطلق منه ضحكة ثانية، لكنه تماسك بصعوبة كي لا تفهمه بطريقة خاطئة..

تلعثُم، حروف تائهة ثم إجابة متلجلجة بسؤال:

- هو ده الموضوع اللي حضرتك كنت عاوز تتكلم معايا فيه؟

أتتها إجابته حاسمة:

- الموضوع الأول والأهم.

لمَ هي متوترة هكذا؟.. أين ثوب المحاماة؟.. لمَ تخلعه أمام عروض الزواج وتتلبس ثوب الأنثى الضعيفة؟

كل ذكر يعتقد نفسه مسيطرًا كريمًا بعرضه وعليها أن تبتهل شكرًا لذلك، اعتدلت في جلستها، رسمت ملامح جامدة فوق وجهها، ببرود أجابت:

- يا فندم...

قبل أن تكمل قاطعها ليثير جنون نبضها من جديد:

- حازم..

رفعت عينيها إليه في دهشة فأكمل بنبرة حنون تحمل من الحزم ما يكفي لإجبارها على طلبه:

- ناديني باسمي.. أنا دلوقتِ لا مقدم، ولا أفندم.. أنا مجرد.. حازم..

استاءت هنا، وعقدة حاجبيها أنبأته بجوابها قبل أن تنطقه:

- لا طبعًا.. حضرتك المقدم حازم وما فيش لقب تاني هاسمح لنفسي بيه حتى لو حضرتك سمحت!

في نطقها كانت تشدد على "حضرتك"، "المقدم" ونطقت اسمه خطفًا فعقد حاجبيه مغتاظًا، أراد إحراجها ثانية فتحدث بجدية:

- زي ما تحبي، جواب سؤالي!!

شيء من العصبية سيطرت على صوتها عندما ردت:

- كنت باقول الرفض مش لشخص حضرتك.. أنا رافضة الفكرة عمومًا، ويا ريت نتكلم في الموضوع الأساسي اللي قبلت الدعوة عشانه.

تجاهُل لعصبيتها التي بدأت تولد في حروفها ورمشات أهدابها المتعاقبة وأنفاسها القصيرة السريعة:

- ليه رافضة الفكرة عمومًا؟

يا إلهي! لمَ هو مصر على إيقاظ أوجاعها من جديد؟

حسناً ستخبره وتنهي الأمر..

كما أخبرت "آدم" تمامًا وربما يرحل بلا عودة هذه المرة ويحترم رغبتها كما فعل الآخر أو على الأقل كما تظن هي..

أجابت بلهجة جامدة:

- لأني مش عاوزة ارتبط تاني.. أنا ارتبطت وجربت حظي وما اتوفقتش.. خضت التجربة وخرجت منها بجرح، وكل عرض جواز بيطعن الجرح من جديد ويزود نزيفه، عشان كده من فضلك يا سيادة المقدم.. ولآخر مرة، أنا مش بافكر في الجواز.

حمقاء هي..

هل تظن أنها ستستدر عطفه، جرحها منذ عام ونصف وهي تبكي على أطلاله للآن، أوربما...

لم يكمل حديث نفسه بل فاجآها:

- لسه بتحببيه؟.. بتتمني يرجع لك؟

هذه المرة هي الصدمة الحقيقة، كيف جرؤ؟

وقبل أن تغادروتتركه زاد:

- ما تتعصبيش، خليكِ صريحة مع نفسك ومعايا، لو رجع لك ندمان؛ هترجعي له؟ منتظراه؟

هتفت بغضب:

- لا طبعًا.

طرق الحديد في مرحلة اللهيب:

- يبقى رفضك لخوض التجربة من جديد مالوش معنى.. اديني معطيات، وصليني لبراهين، اقنعيني عشان نحل المسألة صح وننهيها.

صوته جديّ، به لمحة صرامة ألجمتها لثوانٍ.. غضبها، عنادها، هتافها الحاد الخافت مراعاة للمكان:

- أنا مش مجبرة.. حضرتك عرضت عليّ عرض معين، أنا رفضت، نقطة والسطر انتهى.

ضيق عينيه زاويا ما بين حاجبيه، وهذه المرة اكتسب صوته حزمًا آمراً:

- من حقي أعرف سبب رفض مقنع.

كانت تقف وهي تجيبه منهية النقاش والجِلسة:

- أنا رديت بأسبابي الفعلية، مقنعة بالنسبة لحضرتك أولا، مش مشكلتي!

مد يده سريعًا يمسك بكفها هاتفًا بخفوت:

- من فضلك اقعدي يا ميا.. أنا عاوز نتكلم في الموضوع بصراحة لأن لو رفضتِ المرة دي بعد كلامنا تأكدي إني مش هاعترض طريقك تاني.

تطلعت لأصابعه بنظرة غاضبة لكنه فقط زاد من إحكامها حول يدها فرفعت عينيها إليه بنظرة نارية قابلها بابتسامة محذرة..

عادت للجلوس بتخاذل رفضته وهي تنتزع يدها متمتمة بغضب مكبوت:

- لو سمحت..

تركها بسلاسة وعقلها يصرخ لقد ناداكِ باسمك مجرداً..

يا إلهي لقد بدأ في تخطي الحواجز التي بنتها بينها وبين كل رجل، لمَ هو مُصر؟

تجرأ وأمسك بيدها، أحكم قبضته معانداً..

والآن يصرعلى.. على ماذا؟

زواجها، أين المهرب؟

غبية!!.. لمَ قبلتْ دعوته؟

أتاها صوته هادئاً:

- آسف.. بس الهروب مش هو الحل كل مرة.. مرات لازم تواجهي، تنهي، ما تسيبيش خيوط وراكِ ترجعك لنقطة الصفر.

رفعت عينيها إليه، إلام يلمح بالضبط؟

مال مقتربًا ثانية وهو يكمل، صوته حنون، به حزم قاطع كأنه يخبرها أن ما يقوله هو فقط الصحيح:

- ليه مش عاوزة تنسي؟.. تجربي من تاني، تعيشي حياتك زي أي واحدة؟.. مش كلنا بنغدر أو نجرح، زي ما أنا عارف ومتأكد إن مش كلكم بتخونوا.

نظرة الدهشة ملأت مقلتيها، هل تحدث عن خيانة؟!

أجاب دهشتها دون سؤال:

- أيوة.. ببساطة قوي، حبيت واعتقدت إني اتحبيت، اتجوزت، طرت من الفرحة، حبيبتي بقيت ملكي، لكن أنا ما كنتش طموحها، مجرد ظابط

شرطة بمرتب، لا بيرتشي ولا بيجامل، حياة هي ما قدرتش تتحملها، حاولت تغيرني، تزود طموحي وتبدل اتجاهه، بمعنى أصح أتخلى عن شرفي ولما رفضت كان الفراق، جرح برده، وكبير مش سهل، لكن أنا قدامك أهو، لسه عايش، وعاوز أعيش أكتر، أتجوز واحدة عارفها كويس وواثق فيها وفي أخلاقها، أكون أب....

صمت للحظات ظهر فيها شيء من الألم على ملامحه التي عادت بعدها جامدة ثانية ثم استطرد:

- هي رفضت وقتها تكون أم.. قالت لي أنت مش راجل طموح.. عاوزة ولادي يعيشوا حياة أحسن من حياتي، اختياري لزوجي كان غلط مش معقول كمان هيكون اختياري لأبو ولادي غلط.

رفع عينيه يقابل نظرتها المتألمة، ترى هل لألمه أم لذكرى آلامها!.. أكمل بهدوء:

- خانت حبي وحياتنا مع بعض برفضها، برغبتها إني أبيع شرف مهنتي وأتحول لشيء يرضيها، وفي النهاية كان الفراق هو الحل الوحيد، تعبت شوية، رفضت وعاندت وكرهت.. في الآخر لقيتني بأضيع حياتي والحياة مش واقفة من حواليا، عشان كده قررت أستمر.

ملأ الحنان عينيه وهو ينظر إليها، همس برقة:

- وكان اختياري أنتِ.

أشاحت بوجهها بعيداً، ألا يعرف سبب طلاقها؟

صوتها أتاه ضعيفًا واهيًا متشبثًا بلمحة قوة ليصل إليه فقط:

- أنا مش هاكون أم لولادك يا سيادة المقدم.. أنا مش.. مش با.....

قاطعها بسرعة:

- اللي أعرفه إن ما كانش في سبب معين يمنع!

استدارت تواجه عينيه..

لمَ هو هكذا؟.. لمَ ذلك الحصار؟.. الإصرار؟.. بدأت تشعر بالاختناق بالفعل..

وربما يجدربها أن تسأل نفسها:

"لمَ الرفض التام المستمر؟"

ضياع يقض أساسًا بنته لوحدتها منذ زمن، لأنه هو ظهر، وقرر اختراق دفاعاتها وتفنيد أدلتها واحداً تلو الآخر فلم تعد تقوى على الحديث أو حتى النظر إليه..

لاحظ هو ما انتابها فنبض قلبه بأمل، الحيرة تغزو ملامح وجهها، بدأت تستجيب، تقترب، ربما تحاول كذلك النسيان وخوض التجربة من جديد..

هل يعدها بأمان؟.. باحتواء؟.. بحب؟

وهل هو يحب؟

لا..

مكافأته من حب عاشه سابقًا كانت فقط وجع، لذا هنا اختار بطريقة صحيحة ويعلم أن اختياره هذه المرة هو الصواب.

رآها تقف فجأة لتقول بشيء من الخنوع غريب عليها:

- ممكن أمشي يا فندم، لو ما فيش استشارة فعلًا؟

أشار للنادل ثم وقف قبالتها مجيبًا بابتسامة:

- أكيد ممكن مع إن في استشارة، هابقى أزورك في المكتب ونتكلم فيها.

ودعها أمام سيارتها، ابتسامة، نظرة تعني أن اللقاء قريب وجملة قصيرة:

- كلامنا لسه ما خلصش.

لم تستطع العودة لمكتبها، قادت سيارتها بشرود نحو المنزل.. لا تعي جيداً ما حولها ولا ترى أمامها بوضوح..

عندما وضعت رأسها على وسادتها واستعادت أحداث اليوم، لقاءه، عينيه، حديثه، كلماته، حزمه، حنانه، وجعه وألمه، قوته وشجاعته..

ارتسمت على شفتيها ابتسامة لا معنى لها، ثم راحت في النوم.

******

يا الله، إنه يشعر بتوتر لا مثيل له، كأنها المرة الأولى!

لم ينم جيداً طوال الليل، بل طوال الأسبوع منذ استقرت الأمور وأعلم أخاه بالأمر، استيقظ من نومه المتقطع في السادسة صباحًا بوجه مرهق، تأفف وهو ينهض من فراشه متجهًا نحو الحمام، وأسفل الماء الدافئ المنهمر فوق رأسه أصبح ذهنه أصفى، أرخى أعصابه استعداداً لبدء يوم جديد بمنحنى يمر به للمرة الثانية بعد طول غياب.

ارتدى ملابسه ثم توجه نحو المطبخ ليجد فطوره محضراً كما هو الحال كل يوم، السيدة التي تأتي للعناية بطفله أثناء غيابه تحضر لهما الطعام وتهتم بالصغير وبه كابنها..

توجه نحو غرفة "يوسف" ليوقظه، جلس إلى جواره، تأمل ملامحه قليلًا..

ما أكثر ما يرى نفسه في هذا الصغير اليتيم، فقد أمه، وابتعد عن جده وجدته، يحيا مع والده فقط، هل يستحق أن يأتي له بزوجة أب مثل زوجة أبيه هو؟.. هل لديه الضمانات الكافية أن تكون أمًا له؟.. أم أن طفله فقط سيعاني مثله؟.. ترى هل سيكون موقفه ضعيفًا متخاذلًا على الدوام كموقف أبيه؟..

بالطبع لا.. كما أنا اختياره للمرأة التي أراد مشاركتها ما بقي له من عمر مختلف..

هي كامرأة، كأنثى، تحتاج لطفل، وأخلاقها فوق مستوى الشبهات بكثير، قلبها أحن القلوب التي صادفها، وبداخلها طاقة واحتياج للأمومة يجعل منها مثالية، لكنها ترفض، ولا تزال ترفض، لا يفيده مطاردة أو اهتمام، والمقابلات المعدودة باردة جوفاء تتحاشاه فيها دوماً.

نظرة أخرى لوجه صغيره النائم في سكون، ثم انحنى يطبع قبلة على جبينه هامسًا برفق:

- يوسف، حبيبي.. حبيب بابا، اصحى يلا عشان ما تتأخرش على المدرسة.

فتح "يوسف" عينيه لتلمعا بنظرة كسل، ابتسم لها والده، ثم قرر مداعبته ليجبره على النهوض فمد يده الباردة يداعب عنقه هاتفًا بمرح:

- يلا يا جو وإلا هاجيب التلج!

ثم دغدغه هناك، يعلم أن تلك الطريقة تثير جنون طفله وتقتله ضحكًا وبالفعل هذا ما حدث، انتفض الصغير من مكانه ضاحكًا بمرح وهو يجيب والده هاربًا من يديه اللتين تداعبانه:

- خلاص يا بابا.. صحيت والله، بلاش كده.

ابتسم "آدم" ثم طارده:

- ما فيش مانع إني ألعب معاك شوية.

تضاحكا سويًا ووالده يطارده بالفعل في المكان ثم يحمله عاليًا ويضمه إليه بحنان..

ساعده في ارتداء ملابسه بعد ذلك وجلسا ليتناولا الفطور معًا في جو حميمي محبب، سأل "يوسف" والده:

- بابا.. النهاردة أول يوم في الدراسة، هتروح الجامعة؟

أجابه "آدم" بابتسامة تحمل لمحة من التوتر:

- أيوة يا جو، لما نشوف نظامنا إيه!!

طمأنه الصغير بابتسامته وتربيتة على كفه:

- ما تقلقش يا بابا، أكيد هتبقى شاطر قوي!

نظر لطفله بحنان، استوعب الأمر بطريقة طفولية، يطمئنه كأنه هو الأب، نبض قلبه بحب وهو ينهض ثم ينحني طابعًا قبلة على رأسه بهمس دافئ:

- ماشي يا جو، يلا عشان زمان الباص جاي.

أوصله لحافلة مدرسته ثم استقل سيارته شارداً متوجلًا نحو عهد جديد يخطو إليه كأنه لم يطأه من قبل..

توتر يملأه وارتباك من بداية غادرها منذ أكثر من أحد عشر عاماً وها هو يعود..

دعا الله بالتوفيق والتيسير عندما وصل لبوابة الجامعة، توجه بعد ذلك لمكتب عميد كلية الاقتصاد والإدارة، رحب به الرجل بتوصية خاصة من صديقه القديم دكتور "محمد" ثم صحبه لقسم الاقتصاد وأولى محاضراته .

******

ارتفع رنين المنبه بدوي مزعج أقلق منامها بشدة، فتحت عينيها بغيظ وهي تنظر إليه بحنق، مدت يدها تغلقه ويتعانق جفناها من جديد بعدها..

دقيقة أخرى وارتفع الرنين المزعج مجدداً لكن هذه المرة منبه هاتفها النقال، تأففت في غضب ولم تفتح عينيها هذه المرة..

مدت يدها تبحث عنه حتى وجدته فأغلقت الصوت ضبطاً لغفوة قصيرة، ولم تنتهي مدة الغفوة إلا والرنين يعلو بنغمة المشاكسة صديقتها في اتصال صباحي!

يا إلهي..

لقد استيقظت وستقلق نومها مهما فعلت.. أمسكت الهاتف لتجيب بعيون نصف مغمضة وصوت ناعس بشدة:

- يا علا حرام عليكِ.. أنا نمت متأخر إمبارح، مش هاروح الجامعة النهاردة عاوزة أنااام.

أتاها صوت صديقتها صاخبا بمرح:

- سارة.. لو ما صحيتيش هاجيلك بنفسي، قومي يا كسلانة وبعدين ما حدش قالك تسهري، النهاردة أول يوم وآخر سنة لينا ما تبقيش زي العيال الصغيرة اللي مش عاوزين يروحوا المدرسة.

تأففت ثانية وهي تنهض بعنف لتكشف الغطاء وتنزل بقدميها للأرض مجيبة:

- بس أما أشوفك.. الحمد لله إنها آخر سنة بعدها هاقطع علاقتي بيكِ!

ضحكة صافية قابلتها وصديقتها ترد:

- ما تقدريش على بعدي، مش كفاية مش باشوفك إلا في الدراسة، يلا عشان أحكيلك عملت إيه في الرياض مع بابا.

ابتسمت "سارة" بشوق، فهي تفتقد صديقتها المشاغبة، ردت مداعبة:

- ماشي يا ستي هالبس وأعدي عليكِ.

قالت "علا" قبل أن تنهي المكالمة:

- علم يا فندم وجاري التنفيذ!

ختمتا الحديث بضحكات مرحة على وعد باللقاء، نهضت "سارة" تتمطى بكسل كقطة ناعمة، أخذت حمامًا وارتدت ملابسها..

حضرت كشكول محاضرات بسيط كبداية وهي تتطلع لعام جديد تتمنى أن تنهيه على خيركي تعمل مع أخويها في شركة العائلة.

هبطت الدرج لتجد والدتها بانتظارها مع والدها، ابتسمت لهما هاتفة بمرح:

- إيه ده؟.. يا سلام على الصباح الحلو لما أول فيس أشوفه يبقى فيري حبيبة قلبي والبوص الكبير جلال باشا الحسيني.

ثم اقتربت منهما لتقبل وجنتي والدتها المبتسمتين مستطردة:

- صباح الخير يا ماما.

بادلتها "فريدة" قبلتها مجيبة بابتسامة:

- صباح الخير يا سارة.. النهاردة أول يوم في آخر سنة، صاحية بدري مخصوص عشانك، بس ما تتعوديش على كده!.. يلا حبيبتي عشان نفطر سوا.

التفتت لأبيها بابتسامة واسعة وقبلة أخرى:

- صباح النور يا بابا.. عامل إيه النهاردة؟

رد "جلال" بحنان:

- صباح الخيريا سارة.. تمام الحمد لله، آخر سنة يا حبيبة بابا وهتروحي مع إخواتك في الشركة.

ضحكت برقة وهي ترد غامزة:

- هبقى أنا البوص الجديد أكيد!

كان موقف الأم غريبًا فهي لم تعتد الاستيقاظ مبكراً ولو لأجلها، لكنه أسعد "سارة" غير المعتادة عليه وأثلج صدرها..

تناولت فطورها مع والديها بشهية ثم قادت سيارتها نحو منزل صديقتها التي اقتحمت السيارة بصخب وهي تنحني نحوها لتضمها وتقبل وجنتيها:

- وحشتيني قوي يا سرسورة.. عاملة إيه يا بنتي؟

اصطنعت "سارة" الغضب من صديقتها وهي ترد بتبرم:

- علا.. بلاش النيك نيم ده أحسن لك!

ضحكت "علا" بمرح وهتفت مقلدة صديقتها:

- علا!! بلاش أحسن لك، خلاص يا سارو، حلو كده؟

ابتسمت "سارة" مرددة:

- حلو جداً.

توجهتا إلى الجامعة، وحصلتا على الجدول الخاص بمحاضراتهما..

اليوم غالباً لن يكون هناك دراسة فقط تعارف بين الأساتذة والطلاب على الرغم من أن معظمهم يعرفون بعضهم البعض من السنوات السابقة..

دخلت الفتاتان إلى قاعة المحاضرات بين سلام وتحيات لباقي الصديقات وبعض الزملاء، اتخذت كل منهما مكانها ولم تتوقفا عن الحديث عما قامتا به في إجازة الصيف..

حدثتها "علا" بنبرة تخللها شيء من الحزن:

- عارفة يا سارو!.. بابا المرة دي ما كانش عاجبني، مش فاهمة ليه مش بيتجوز ويبقى معاه واحدة تاخد بالها منه!.. بقى مهمل في صحته قوي، حتى الأدوية بتاعته لو أنا ما فكرتوش بيها مش بياخدها، مش عارفة بيعمل إيه من غيري دلوقتِ!

ربتت "سارة" على كفها بحنان متسائلة:

- تفتكري باباكِ لسه بيحب مامتك؟.. عشان كده رافض فكرة الجواز؟

هزت رأسها بحيرة مجيبة:

- مش عارفة.. ماما نفسها خلاص عاشت حياتها وبابا بالنسبة لها مجرد ذكرى ووجود قديم كنت أنا نتيجته.. وسعيدة مع جوزها وولادها، وهما كويسين مش باقول حاجة، بس بابا بيصعب عليَّ.. طيب لو بيحبها قوي كده ليه انفصلوا عن بعض وحيروني بينهم بالشكل ده!!

ردت "سارة" بشرود:

- واضح إن مامتك هي اللي طلبت الانفصال.

صمتت لثانية ثم أكملت برقة:

- حبيبتي.. ربنا يخليهم لك، المهم إنهم معاكِ حتى لو كل واحد لوحده.

ضحكت بعدها لتقول:

- أول مرة أشوف بنوتة نفسها باباها يتجوز!

ابتسمت "علا" وشفتيها تنفرجان لتجيب، توقفت الكلمات في حلقها فجأة وهي تفتح عينيها على اتساعهما ناظرة إلى ما خلف "سارة"..

ثانية، اثنتان، ثم هتفت:

- ياخبر أبيض؟.. مين ده؟

عقدت "سارة" حاجبيها وهي تلتفت لترى ما تشير إليه صديقتها..

كان المحاضر الجديد يدخل من باب القاعة، بدا واثقًا هادئًا وهو يتقدم بخطوات سريعة نحو مكتبه أمام المدرجات وعلى شفتيه ابتسامة ودود.. وقف أمامهم قائلًا بصوت قوي واثق مع الأنظار المعلقة به:

- صباح الخير..

وصلته همهمات مختلفة ترد تحيته فابتسم متظاهراً بهدوء يخفي انفعاله وتوتره الداخلي وهو يكمل:

- أنا دكتور آدم الحسيني.. هاكون معاكم السنة دي إن شاء الله في دراسات الجدوى وما يندرج تحتها من دراسات للسوق والدراسات الربحية وخلافه. النهاردة طبعًا أول يوم، يعني مش هابقى دكتور شرير وأدخل أدرس من أول محاضرة، هنتعرف على بعض ونتكلم شوية عن أفكاركم وطموحاتكم بعد التخرج، ومن المرة الجاية نبتدي الشغل الجد بإذن الله.

ثم طافت عيناه حول المدرجات تتطلعان لطلبته، وقعتا على "سارة" فابتسم لها بخفة ثم أكمل تطلعه للبقية لتصطدما بمقلتين لامعتين بلون الزمرد الداكن تنظران إليه بافتتان غريب أثار المزيد من توتره..

تخطى تلك النظرات سريعًا وهو يكمل تعارفه وحديثه، انتهى وقت المحاضرة سريعًا وبدأ الطلبة في الخروج من المكان..

كان "آدم" لايزال جالسًا خلف مكتبه عندما همست "علا" في أذن صديقتها:

- هو ده الدكتور؟

ابتسمت "سارة" وهي تنظر إليها لترى عينيها معلقتين بأخيها، صوتها حالم ونظراتها مفتونة، أجابت:

- أمال مين يا بنتي؟.. مش لسه كان معانا المحاضرة.. ألووو الأرض تنادي لولو، حول!

وهي تحرك كفها أمام وجهها، لم تنظر إليها "علا" لكنها ردت:

- سارو.. أنا طبيت!

اختفت الابتسامة من وجه "سارة" وهي تهزها هاتفة:

- علا يا مجنونة أنتِ!.. في إيه وطبيتِ إيه؟.. مالك يا بنتي؟

التفت إليها بعينين شاردتين مجيبة:

- دكتور آدم.. فظيع يا سارة، شفتي عيونه حنونة إزاي؟.. وابتسامته!!.. يا نهار أبيض.. شكله متربي برا، مش صناعة محلية ده أبداً.

لم تستطع "سارة" حجب ضحكة مرحة انطلقت من بين شفتيها، ماذا لو علمت أنه أخيها الأكبر؟

جذبتها من يدها وهي تنظر إليها بغباء متسائلة:

- رايحة فين يا بنتي؟.. استني لسه مش هيمشي.. خليه هو يخرج الأول.

ردت بمرح:

- تعالي بس.. هنتعرف عليه شخصياً!

شعرت بالتوتر وهي تسير خلفها لا تحيد بعينيها عنه..

عيناها اللتان كلما التقتا برحيق العسل خاصته أغلق جفنيه والتفت بوجهه بعيداً..

ابتسم في مواجهة "سارة" التي بادلته ابتسامته بحميمية استغربت لها "علا"، اقتربتا منه أكثر فوقف مرحبا بود و"سارة" تقول بسعادة:

- دي خيانة على فكرة لما أتفاجئ أنك في الجامعة كده!

ضحك بلطف وهو يشد أذنها من فوق حجابها مجيباً بحنان:

- مش غلطتي.. أدهم عارف من بدري.

انتزعت أذنها من بين أصابعه هاتفة:

- أووتش، وما قالش ليه بقى؟!.. مع إني رحت لهم كذا مرة أشوف مارو.

هز كتفيه بلا اهتمام مجيباً:

- مش عارف.. ابقي اسأليه.

انتبهت على ضغطة من يد صديقتها لتلفت إليها.. لا تزال تلك الحالة تغزو ملامحها وهي تنظر لأخيها، استغربت ذلك.. ما بها؟..

منذ متى تنظر لأي شاب بهذه الطريقة؟

فما بالها إذا كان هذا الرجل أستاذها وبسن "آدم"! تنحنحت بسرعة:

- آدم.. دي علا أنتيمتي في أوقات الدراسة، في الأجازة لا!

ثم ضحكت بمرح عندما ارتسمت ابتسامة مغتاظة على وجه "علا" وسارة تكمل:

- علا.. طبعاً عارفة دكتور آدم الحسيني، أخويا الكبير.

فغرت الفتاة فاها وهي تنقل بصرها بينهما بدهشة هتفت بعدها:

- أخوكِ!!

ابتسمت "سارة" مجيبة بتأكيد:

- أيوة.. أخويا الكبير.

منحها هو ابتسامة صغيرة مرحباً:

- أهلاً يا آنسة علا.

عاد ينظر لشقيقته متسائلاً:

- إيه موضوع الدراسة والأجازة ده؟

ردت بسرعة:

- أصلها بتسافر لباباها السعودية طول أجازة الصيف.

أومأ برأسه متفهماً ثم سألها ثانية:

- عندك محاضرات تاني النهاردة؟

أجابته:

- أيوة اتنين كمان.. أنت موجود مش كده؟.. ما تمشيش إلا لما أخلص ونقعد مع بعض شوية أعرف الموضوع بالتفاصيل.

قال بسرعة قبل أن تغادر:

- مش هينفع يا سارة.. أنا عندي محاضرة كمان هاضطر أرجع الشركة بعدها، ابقي تعالي لي المكتب بين المحاضرات.

التفتت إليه بغيظ:

- أنت كمان هتروح الشركة؟!.. آدم.. من يوم ما رجعت من السفر يا دوب باشوفك صدفة عند أدهم، وما شفتش جو غير مرة واحدة بس، أنا هاكلم ماما وأروح على البيت عندك أستناك وأقعد مع جو لحد ما تيجي.

وافقها بابتسامة، عيناه تلمع بنظرة مستغربة لنظرات تلك الصغيرة والتي بدت كأنها ترسم حركاته وسكناته وملامحه.. خرجتا من القاعة وبعد عدة خطوات هتفت "علا" وهي توقف صديقتها:

- أخوكِ يا سارة؟.. إنتوا عيلة جبارة يا بنتي إيه ده؟!

ضحكت "سارة" وهي تسألها بدهشة:

- جبارة إيه يا مجنونة أنتِ؟!.. ربنا يهديكِ.

ردت بنظرة حالمة:

- أيوة، ما أنا فاكرة أدهم مع إني ما شفتوش غير مرتين من بعيد، بس دكتور آدم...

ختمت جملتها بتنهيدة حارة وعينين شاردتين نحو باب القاعة تتابعان خروج "آدم" وخطواته السريعة نحو مكتبه، انتبهت فجأة لأمر ما فسألتها بسرعة:

- مين جو صحيح؟

ابتسمت "سارة" وهي تنظر لصديقتها كأنها مجنونة حقاً، أجابت:

- ابن آدم.

اتسعت عيناها ارتياعاً فجأة وهي تهتف:

- ابنه؟!.. هو متجوز؟

ضحكت "سارة" وهي لا تزال تتطلع إليها بنفس الطريقة مجيبة:

- لا يا ستي، أرمل، كان متجوز واحدة كندية.

اتسعت ابتسامتها:

- أنتِ قلتِ لي قبل كده إنه كان عايش في كندا، مش بأقولك مش صناعة محلية.

عادت تضحك وهي تجرها من يدها هاتفة:

- طيب يلا يا مجنونة عشان نلحق اللي ورانا وأروح لجو لأنه واحشني قوي.

ردت "علا" بلهجتها الناعمة:

- طيب طيب، بكرة نشوف كابتن جو ونعرف هتتجنني عليه ليه كده!.. ولو إن واضح مادام ابن دكتور آدم، أكيد شبهه.

لم ترد "سارة" وهي تتساءل بداخلها عن مدى جدية صديقتها المرحة المشاغبة على الدوام..

هل أعجبت بأخيها بالفعل؟.. أم أنها تمزح فقط؟

وضحكت في سرها متخيلة رد فعل "آدم" عندما يعلم بأمر معجبته الصغيرة الحالمة، ستثير جنونه حقاً.

******

عاد "أدهم" متأخراً لمنزله، كان يشعر بإرهاق لا حد له فاليوم طال لدرجة مؤلمة وجسده يئن طلبا للراحة..

استقبلته زوجته بابتسامة متطلعة بقلق لملامحه المنهكة، امتزج الحنان بابتسامتها وهي تشب على أطراف أصابعها لتطبع قبلة حنون على وجنته الخشنة هامسة:

- حمد الله على السلامة، اتأخرت قوي النهاردة!

منحها ابتسامة متعبة وهو يضمها إليه مجيباً:

- النهاردة كان يوم غريب.. الشغل كتير بشكل وكان عندي تلات ملفات لمناقصات ضروري أراجعهم مع آدم عشان يتسلموا الصبح.. خلاص هاموت وأنام.

ابتعدت قليلاً مربتة على كتفه برفق، بدا التعاطف على وجهها وهي تغمغم:

- حبيبي.. ربنا يعينك، طيب هاحضر لك العشا على ما تاخد حمام، تتعشى وتنام.

رد بسرعة وهو يتركها متجهاً نحو غرفة النوم:

- لا أنا أكلت في الشركة مع آدم، أنا جعان نوم وبس، الولاد عملوا إيه معاكِ النهاردة؟

تبعته بهدوء:

- مروان مجنني كالعادة، شهر كامل مش باعرف أنام ولا أرتاح بسببه، وملك كلمت لميا عشان تتفق لها مع المدرسة على الباص عشان تبتدي تروح مع زمايلها بدل عم إبراهيم من الأسبوع الجاي.

توقف فجأة مما جعلها تصطدم به من الخلف وهو يضرب جبهته بكفه هاتفًا بحنق:

- آآآخ.. يا خبركان المفروض هاروح امبارح أظبط الموضوع ده.

ثم التفت إليها ليضمها ثانية معتذراً بقبلة على جبينها:

- معلش يا جمانة بجد كنت مشغول جداً.

عادت تربت على كتفه بحنان وهي تنظر إليه بحب:

- ولا يهمك يا حبيبي، قدامنا وقت ولميا بكرة فاضية، أنا عارفة إنك كنت مضغوط الفترة اللي فاتت.

ابتسم لها بتقدير فعادت تتملص من بين ذراعيه ثم تدفعه نحو الغرفة مكملة:

- يلا خد شاور وغيرعشان تنام لأحسن شكلك بجد تعبان قوي.

جذبها ثانية لمحيط صدره وهو يهتف مشاكساً:

- مش للدرجة دي يعني، ممكن الإرهاق يضيع بطرق كتيرغيرالنوم!

ضحكت بخفوت وهو ينظر إليها بخبث، طوت أصابعها على شكل قبضة لتتظاهر بالطرق على جانب رأسه بمرح:

- طق طق طق.. أربعين يوم يا أبو مروان ولا نسيت؟!

مط شفتيه بامتعاض وهو يتركها بيأس متجها نحو غرفة "ملك"، كانت الصغيرة نائمة بملائكية مست قلبه، انحنى ليطبع على جبهتها قبلة خافتة خشية أن توخزها لحيته النامية..

خرج ليجد زوجته في مكانها بانتظاره، دلف إلى غرفته متجهاً نحو فراش الصغير المجاور لفراشهما، تطلع إليه بحنان ثم لثم جبينه بقبلة سريعة هو الآخر..

ظلت تتطلع إليه بصمت حتى انتهي، التفت إليها قائلاً بخفوت:

- صحيح نسيت.. دكتور حسام كلمني النهاردة، بيقولي الدكتور اللي كان متابع معاه الصيدلية هيسيبها آخر الشهر، يعني كمان أسبوع، وبيقولك يعمل إعلان ولا تعرفي حد معين؟

أبعدته عن فراش الصغير حتى لا يوقظه الصوت، أجابته بتفكير:

- إمممم.. فجأة هيسيبها كده!!.. ليه طيب ما كان مبسوط مع دكتور حسام؟

هز كتفيه بمعنى أنه لا يفهم، فكرت قليلًا ثم أجابته وهو يلتقط منشفة كبيرة متجهًا نحو الحمام:

- بص.. نورا صاحبتي جوزها تقريباً أخته كانت في صيدلة، ممكن تكون اتخرجت هاسأل نورا وأرد عليك لو فعلًا ممكن تمسكها معاه؟

استدار إليها مفكراً للحظات ثم سألها:

- هتتصلي بيها؟

ترددت لثوان، هي تقدر قلقه لكنه يخنقها حقًا، أضفت الحيادية على صوتها وهي تجيبه:

- المفروض موضوع مهم زي ده أقابلها، وبعدين أنا ما شفتهاش من بعد ما ولدت غير مرة واحدة لما هي جت تبارك لي. هاقابلها في النادي وأهو أغير جو مع ملك ومارو.

عقدة حاجبيه المستاءة أنبأتها برده مسبقًا، عبس قليلا مفكراً ثم قطع صمته بجملة قاطعة:

- عم إبراهيم هيوصلك طبعاً وأنا هاعدي عليكِ نروح سوا، ولو معاكِ لميا يكون أحسن، للأسف مواعيدي مضغوطة الأسبوع ده جداً ومش هاعرف آجي معاكِ النادي طول اليوم.

انفرجت أساريرها بابتسامة سعيدة وهي تتجه نحوه:

- أوك يا حبيبي.

ثم ربتت على وجنته بحنان متفهم مستطردة:

- ما تقلقش علينا، خلاص!

نظرته أخبرتها..

"كيف لا أقلق؟ وأنتِ تعلمين أني أرتعب كلما فكرت بما حدث وأخشى أن يتكرر"

عادت تبتسم وهي تضم نفسها إليه مطمئنة، أحاط كتفيها بذراعيه كأنها ستتسرب من بين أصابعه في لحظة.. أسند ذقنه لرأسها وهو يشعر بها قلقة، كانت هي تفكر..

"كيف ستطلب منه ما تريد؟.. هل تؤجل طلبها للغد، لكنها تأخرت بالفعل، وبدرجة كبيرة"

فوجئت به يبعدها متطلعًا لعينيها في تساؤل، ارتسمت ابتسامة مرتبكة على شفتيها فسألها بحزم:

- عاوزة تقولي حاجة؟

توترت قليلًا، ثم حسمت أمرها في النهاية، ردت بصوت هادئ قدر استطاعتها:

- أنا من قبل ما أولد بشهرين مازرتش ماما راضية، المفروض أزورها أنت عارف إن.....

قاطعها بعصبية:

- مالهاش غيرك أنتِ وملك، أيوة عارف.

نظرت إليه بسكون، بأمل، أن يفهم ويتفهم.. وجودها أساسي مهما أحزنه أو أغضبه..

فهم ما تريد قوله بعينيها، فزم شفتيه حانقاً، لم ترد كسر حاجز الصمت، منحته الوقت ليقرر، سألها بهدوء غامض كأنه يفكر بأمر ما:

- هتاخدي مروان معاكِ؟

الآن هي مرتبكة أكثر، توترها أحنقه ثانية..

صمت تماماً في انتظار ردها، ازدردت لعابها بصعوبة وهي تنظر إليه باستغاثة لكنه تجاهل ذلك منتظراً جوابها، أجابته بحروف متقطعة:

- أدهم.. أنت عارف إني مش هينفع آخده، هاوديه عند ماما.

بنفس الهدوء عاد يقول:

- الحقيقة مش عارف، ليه ما ينفعش؟

بدأت العصبية تتسلل لصوتها وهو يمارس ضغطه أكثر:

- عشان مش هتستحمل تشوف ابن ليَّ من راجل تاني، إنت عارف كده كويس.

ببرود كان رده الصادم:

- زي ما ملك بنتك من راجل تاني غيري؟

رفعت عينها إليها بذهول، أدرك ما فهمته فأشار بيده غاضباً:

- ما تفهميش غلط.. إمتى هتدخليها حياتك بشكل عادي وتبطلي تحاسبي على كل كلمة وكل تصرف يبين قدامها أنك فعلًا بقيتِ مرتبطة براجل تاني؟.. المفروض بتقولي زي مامتك، يعني مروان يعتبر حفيدها، طبيعي تشوفه.

نظرت إليه بغضب، هو لا يفهم شيئاً وجنون الغيرة المتملك منه يعميه عن أي شيء آخر، هتفت:

- أدهم.. أنت بتقول إيه؟.. قبل كده قلت لي إنك مقدر مشاعرها، وحاسس بيها، دلوقتِ جاي تقولي المفروض تاخدي ابني معاكِ وأنتِ بتزوريها.. يعني أثبت لها أكتر إني فعلًا بقيت ملك راجل تاني.. وبأقولها ده الدليل!

استعرت عيناه بلهيب نيران غاضبة أخافتها للحظة وهو يرد بجمود غريب:

- وهو أنتِ مش فعلًا ملك راجل تاني؟.. ولا هي المفروض تفضل تعتقد للأبد إنك مرات ابنها وبس وما فيش حد تاني في حياتك؟.. مقدر مشاعرها حاجة وإنك تلغي وجودي ووجود ابننا من حياتك قدامها حاجة تانية.

ارتبكت لكن عصبيتها ازدادت:

- إيه اللي أنت بتقوله ده؟.. ليه كلامك غريب كده؟.. من إمتى بتفكر بالشكل ده؟

أجابها بتصلب عنيد جعلها تود تحطيم رأسه للحظة:

- ده مش كلام غريب ولا حاجة أنتِ بس اللي شايفاه كده، ده نتيجة أكتر من سنة أنتِ بتخبي وجودي في حياتك فيها معاها لدرجة مُهينة يا جمانة، يا تاخدي مروان يا مافيش زيارة وتقدر تشوف حفيدتها وقت ما تحب مع خالتها أو جدتها.

قالها بعنف ثم التقط منشفته واتجه نحو الحمام مغلقاً بابه خلفه بقوة أفزعتها والصغير الذي انتفض باكيًا في فراشه مما أثار غضبها أكثر وهي تتجه نحوه لتحمله برفق حنون تضمه إليها مهدهدة..

جلست على الفراش تفكر في حديثه..

أهي تخطئ فعلاً؟.. هي لا تريد أن تحزنها لا أكثر..

لقد مر أكثر من عام على زواجها، وها هي لديها طفل جديد من حبيبها.. نعم هو حبيبها مالك قلبها، لكنها فقط لا تريد أن تؤذيها، تجرح مشاعرها، كأنها تثبت لها بالدليل القاطع أن ابنها مات، وأن ما تبقى في دنياها من ذكراه أصبح ملكاً لآخر.

حتى وإن كان هذا واقعاً فعلياً فهو لا يزال مؤلماً، سيوجعها ويحزنها وهي لا تريد فقدان وجودها في حياتها وحياة صغيرتها..

نعم لقد تفهمت الجدة أمر زواجها بعد حادثة اختطاف "ملك" والرصاصة التي تلقاها زوجها وهو يحاول استعادة الصغيرة، تلك الرصاصة التي كادت تودي بحياته وهي مازالت تخطو معه في مهد حبهما، التي تثبت كل يوم وكل لحظة وفي كل مرة تقع عيناها على الندبة التي تركتها بالقرب من قلبه أنه عشقها حد الموت، وهي تبخل عليه باعتراف، اعتراف أنها له أمام العالم أجمع، آلمها ذلك لكن ترددها وخشيتها لايزالان يتحكمان بها.

خرج من الحمام، مازال الغضب يتلبس ملامحه، متجهماً بوجه محتقن.. توجه في صمت نحو الفراش حيث جلست تحمل ثمرة عشقها له.. اندس أسفل الأغطية بهدوء مديراً ظهره إليها كأنه فقط يعلن عن رفضه أكثر وأكثر..

نام الصغير فوضعته في فراشه برفق ثم عادت إليه، مرت بإصبعها على كتفه وهي تنحني إلى جوار أذنه هامسة:

- أدهم حاول تفهمني..

أغمض عينيه بقوة ودمدم من بين أسنانه:

- أنا بقى لي سنة باتفهم وباطنش وباعدي، كفاية عليَّ كده، الدور عليكِ.

التصقت بظهره وهي تحيطه بذراعها لتهمس ثانية بحب:

- طيب ممكن الزيارة الجاية؟.. مش المرة دي، أمهد لها ع الأقل إني هاخده معايا بعدين مش أول زيارة ليّ بعد الولادة أصدمها بوجوده.

انعقد حاجباه في غيظ عندما لفظت كلمة "صدمة" مقترنة بوجود صغيره، أجابها منهياً النقاش:

- المرة دي بس يا جمانة، وده آخر كلام، تصبحي على خير.

ثم سحب الغطاء فوق رأسه معلناً غضبه أكثر ومثيراً حول قلبها دوامة من الحزن.. عاندته بجذب الغطاء ثم اندست أسفله معه وأحاطته بذراعها ثانية تضمه إليها بحنان وهي تطبع قبلة صغيرة خلف أذنه رسمت على شفتيه رغما عنه ابتسامة عشق، خاصة عندما همست بحب:

- وأنت من أهله يا أبو مروان.

لم يستطع المقاومة لكن غضبه لم يبرد بعد..

اكتفى بأن جذب كفها المحيط بخصره وطبع على باطنه قبلة متملكة تفهمها هي جيداً ثم أغمض عينيه وراح في سبات عميق.

(٤)

غيوم في الأفق

ثائري الصغير..

أعشقك!

نعم..

تغارعليّ!

بشدة..

لكن تمهل قليلاً عاشقي..

أنا لك..

لك وحدك..

والدليل بين يديك..

وقلب ينبض فقط لأنك تسكنه..

ومهلاً مرة أخرى..

غضبك يؤذيني..

جفاؤك يوجع قلبي ويشقيني..

بعدك!..

نار أتلظى فوق لهيبها..

فقربني منك..

فقط دعني أسكن دفء صدرك..

واترك سيمفونية دقات خافقك..

موسيقى حالمة أغرق معها في عالم الأحلام..

رفقاً بقلبي..

معشوقي..

يومان مشحونان بغضبه.. حنقه.. صمته.. وحزنها الممتزج بقلق مزعج.. يرفض التفهم وهي لا تملك أكثر..

مرات عديدة حاولت الإقتراب منه، شرح الأمر، لكنه يقطع محاولاتها دوماً بانتظار فعل لا قول..

ينتظر منها الوفاء بعهدها في زيارة أخرى، لكن هل سيبقى غاضباً كل هذا الوقت؟..

تصرفه الطفولي يغيظها، لكن غضبه منها يقبض قلبها..

قررت أن تثبت له كما أراد عندما يحين الوقت..

اتصلت بصديقتها "نورا" التي هاتفتها بلهفة، فهي المقربة منها وتكاد لا تملك غيرها كما هو الحال مع "جمانة". أبلغتها برغبتها في لقاء يجمع الأطفال وطلبت منها سؤال زوجها بخصوص الأمر....

في اليوم التالي أوصلها السائق الخاص المكلف من زوجها بالتواجد معها دوماً إلى النادي..

تقابلت مع صديقتها المرحة وطفلها الذي لم تنجب غيره للآن، كانت تدفع عربة الصغير"مروان" معها ثم تركتها أمامها وهي تتبادل الحديث مع "نورا" بمرحٍ كالعادة، هتفت "نورا" بصخب:

- مش مصدقة يا بنتي إن جوزك سابك تيجي النادي كده لوحدك!.. أحمدك يارب.

ابتسمت مجيبة:

- نورا.. بطلي غلاستك مش فايقة لك أصلاً، أنتِ عارفة الظروف.

أجابتها مداعبة:

- عارفاها وساكتة.. بس بجد حاسة إنه مزودها قوي، مش للدرجة دي يعني.

ردت "جمانة" بهزة كتف حانقة:

- هو أدهم كده.. كل حاجة عنده متطرفة!

ابتسمت صديقتها بلؤم وهي تقترب منها هامسة بمكر:

- على كده متطرف في الحب؟

عقدت حاجبيها مغتاظة وهي تلكزها في ذراعها بوجه محمر خجلاً هاتفة:

- نورا!!

ضحكت بمرح صاخب وهي تغيظها أكثر:

- بتحمري يا جوجو!!.. يا نهار لسه لحد دلوقتِ!

زمت "جمانة" شفتيها ثم قرصت ذراعها بقوة تأوهت لها وهي تسحب يدها بعيداً مستطردة:

- إيه يا بنتي؟.. خلاص بلاش عنف، مع إن العنف ظريف أحياناً!

قالتها وهي تنظر إليها بمشاغبة ثانية جعلت "جمانة" تحذرها بجدية:

- نورا.. وبعدين معاكِ بقى!

مطت "نورا" شفتيها مقلدة وهي ترد:

- وبعدين معايا!.. هتعملي إيه يعني؟.. أنتِ بتموتي فيّ وأنا عارفة.

ضحكتا سوياً بعدها سمعتا صوت بكاء "ملك" وشجار "ياسين" طفل "نورا" مع طفل آخر بغضب..

التفتت بسرعة في قلق ثم توجهت نحوه وصديقتها تتابع الموقف بمرح، هتفت تسأل "ياسين":

- حصل إيه؟.. مالها ملك يا ياسين؟

أجابها الصغير ذو السبعة أعوام بغيظ مشيراً للطفل الآخر:

- الولد ده بيكلمها وعاوز يلعب معاها، ولما بأقوله لأ اتخانق معايا وملك خافت وعيطت.

رفعت حاجبيها في دهشة وكادت تطلق ضحكة لولا انعقاد حاجبي "ياسين" الغاضب..

هل يغار هذا الصغير على ابنتها؟

حاولت الرد برفق علها تفهم:

- طيب وإيه المشكلة لما تلعبوا مع بعض يا سينو؟

رفع عينيه إليها مجيباً بحزم طفولي مضحك:

- لا طبعاً.. ملك تلعب معايا بس أو مع بنات.. ولاد لأ!!.

تماسكت بصعوبة خاصة عندما لمحت "نورا" الضاحكة وهي تتابع الموقف وتستمع لابنها من مكانها، ردت بلهجة حاولت جعلها هادئة مقنعة:

- طيب أنت كده خوفت ملك وخليتها تعيط.. عادي لما تلعبوا مع بعض يا حبيبي وبكرة مروان كمان يكبر ويلعب معاكم.

مط شفتيه حانقاً وهو يصر:

- لا.. هتلعب معايا بس، ومروان ممكن!

تطلعت إليه في دهشة ثم رفعت عينيها لصديقتها التي هزت كتفيها باستسلام وهي تبتسم..

وجدت الصغير يمسك بيد ابنتها ويقودها متوجهًا نحو والدته، تناول منها محرمة ورقية ومد يده يمسح دموعها برفق قائلًا بحنان طفولي لذيذ:

- خلاص يا ملك مش هيضايقك تاني ما تزعليش.

ظلت الدهشة حليفة ملامح "جمانة" وهي تجلس مع "نورا" المرحة، هتفت تخاطبها بعد ابتعاد الأطفال للعب من جديد:

- شفتِ ابنك؟.. وبتقولي جوزي مزودها!!.. الله يكون في عون اللي هتتجوز ياسين!

ثم ضحكت بعدها، ردت صديقتها مداعبة:

- هو شكله حاطط عينه على ملك، يلا عشان تبقي حماة ابني وتطلعي عينه بمزاجك.

عادتا للضحك ثم تحادثتا في مواضيع شتى، سألتها "جمانة" عن شقيقة زوجها فأخبرتها أنه سيأتي في نهاية اليوم ويخبرها بنتيجة لقائه معها بنفسه..

مر الوقت سريعاً والأطفال لم يتوقفوا عن اللعب للحظة، بلا ملل أو كلل، فجأة ظهر من خلفها ظل تبعه صوت رجولي يهتف بمرح:

- مش معقول.. جمانة أبو الفتوح شخصيا!!

التفتت للخلف لتجد "شريف" زوج صديقتها وعلى وجهه ابتسامة مرحبة، ردت بهدوء:

- إزيك يا شريف؟.. عامل إيه؟

جلس على مقعد بينها وبين زوجته وهو يجيب:

- تمام الحمد لله.. ده بقى الباشا الصغير؟

قالها وهو يميل برأسه متطلعاً إلى الصغير داخل عربته فمدت "جمانة" يديها تحمله لتناوله له، تناوله منها برفق وهو يبتسم، تطلع إليه بحنان ثم طبع قبلة على جبينه هتف بعدها مشاكساً:

- إيه ده ياجمانة!!.. صغنن قوي مش زي باباه خالص.

ابتسمت وفتحت فمها لترد لكن سبقها الصوت البارد:

- وإيه علاقة حجم باباه بحجمه يا أستاذ شريف؟!

تجمد جسدها فجأة مع التفاتة "شريف" و"نورا" نحو زوجها الذي اقترب أكثر مكملاً بنفس اللهجة:

- هي بس جمانة ما كانتش بتاكل كويس.

ورسم ابتسامة أكثر برودة على شفتيه..

تنحنح "شريف" في حرج وهو يقف مناولاً الصغير لوالده الذي تلقفه منه برفق، قال بعدها:

- معلش.. هما الستات كلهم في الحمل كده.. ربنا يخليه لكم.

ابتسمت "جمانة" في توتر وهي تلمح الغيرة كالمعتاد على وجه "أدهم" الجامد، ملامحه متصلبة لكن عينيه متوهجتين بنيران الغضب، كما هو دوماً..

قالت بسرعة:

- ربنا يخليك يا شريف.. ها أسيل هتعمل إيه؟

التفت إليها بهدوء مجيباً:

- خلاص.. كلمتها وانبسطت قوي، شوفي الوقت اللي يناسبك عشان تروح معاكِ وتعرفيها على المكان.

لم يعلق "أدهم" ولم يجلس..

اتفقت هي مع صديقتها وزوجها سريعاً بخصوص عمل شقيقته في صيدليتها ثم رحلت معه بعد إيماءة مودعة باردة منه..

خيم الصمت على السيارة وهو يقودها بسرعة نسبياً، قبضتيه تتمسكان بعجلة القيادة بعنف، كأنه يعتصرها بين أصابعه، تطلعت إليه في توتر..

حاولت كسر الصمت بمرح:

- شفت ياسين ابن نورا عمل إيه النهاردة مع ملك؟

عقد حاجبيه غاضباً وهو يلقي عليها نظرة حانقة متسائلاً:

- مع ملك؟.. عمل إيه؟

أجابته ضاحكة:

- بيغير عليها!

نظرة جانبية أخرى تبعها سؤال باستخفاف:

- نعم!.. بيغير عليها إزاي يعني؟.. وهو يغير بمناسبة إيه؟

ظلت تضحك ببلاهة وهي ترد:

- كان في ولد عاوز يلعب معاهم وهو رفض واتخانق معاه.. ملك عيطت.. لما رحت أشوف في إيه لقيته بيقول لي ما تلعبش مع ولاد، أنا بس.

ابتسامة ساخرة ارتسمت على شفتيه أثارت حنقها، صمته عاد من جديد، دقائق أخرى ثم سمعت قراره المستفز:

- النادي بعد كده معايا وبس.

اتسعت عيناها دهشة، ثم غضباً، ظهر واضحاً في نبرتها عندما ردت:

- يعني إيه يا أدهم؟.. مش ملاحظ أننا تقريباً محبوسين في البيت.. وكل مرة تقول لي معلش، باخاف عليكم، باغير عليكِ، لا هاخلي معاكم بودي جارد...

قاطعها في حدة:

- وأنتِ رفضتِ وقلتِ لي مش هابقى مستريحة وأنا باتحرك تحت عيون راجل غريب وقلت أوك.. خروجك هيبقى معايا وافقتِ، دلوقتِ بتعترضي ليه؟

زمت شفتيها حانقة، تعلم أنه غاضب ومشحون منذ يومين وعلى وشك انفجار فقط يحتاج فتيلًا وثقاباً.. شرارة صغيرة تشعله وهي لا تريد ذلك، تنهدت بعمق، تحسست ذراعه برفق فألقى عليها نظرة جانبية لامبالية، ردت بهدوء:

- حبيبي.. أنا مقدرة خوفك صدقني، بس ما ينفعش كده، الخنقة والحبس في البيت مش هو الحل، وأنت مش فاضي بحيث كل مشوار أحب أروحه

تبقى معايا.. كمال دلوقتِ في السجن ومش هيخرج قريب والحاج عبدالرحمن اتبرى منه تقريباً يعني مافيش داعي للخوف.

سخر منها بهتاف غاضب:

- ده على أساس إن كمال محتاج يعمل حاجة بنفسه!.. أكيد ليه عيون برا السجن يقدر ينتقم بيهم، وأنا ما عنديش استعداد أغامر لا بيكِ ولا بحد من الولاد.

زفرت في حنق، كانت شبه متأكدة أن تبريره هذا ليس فقط هو السبب، عاندته مغتاظة:

- يعني ده السبب الوحيد في الفرمان اللي أصدرته دلوقتِ؟

التفت يلقي عليها نظرة نارية ثم أوقف السيارة إلى جانب الطريق وهو يستدير إليها بجسده هاتفاً:

- فرمان!!.. خوفي عليكم بقى فرمان؟

عاندت من جديد:

- خوف بس يا أدهم ولا كالعادة غيران والمفروض أنا أتحمل الغيرة دي عشان بتحبني؟

عقد حاجبيه، فكر لثوان وبين أعينهما حرب صغيرة فاز هو بها وهي تدير وجهها بعيداً عنه، قال بعصبية وهو يضغط أسنانه:

- يعني عادي لما ألاقي جوز صاحبتك بيهزر معاكِ كده وبتعليق سخيف كمان؟

عادت تلتفت إليه تشتعل بنيران الغضب هي الأخرى:

- نعم!!.. يهزر معايا وتعليق سخيف!.. من إمتى أصلًا أي حد ممكن يتخطى حدوده معايا؟

زم شفتيه حانقاً وأجاب بصرامة جافة:

- أنا ما اتكلمتش عنك، أنا باتكلم عنه وعن طريقته!

ردت بغضب:

- طريقته مالها يا أدهم؟.. شريف انسان محترم وعمره ما فكر يبالغ في كلامه معايا.. وجوز صاحبتي من سنين، يعني معرفة عائلية، غيرتك أنت اللي مش منطقية وبقت زيادة عن الحد اللي ممكن أتحمله.

أنهت حديثها ثم أدارت وجهها تنظر من نافذة السيارة المجاورة لها..

للحظات فكر..

إنها غاضبة، وربما لأول مرة يراها عصبية لهذه الدرجة..

هل تختنق من حبه؟.. غيرته لا دافع لها سوى عشق يتمكن من خلاياه، فهل يطوق عنقها به؟

كانت تشعر بنظراته تخترقها لكنها التزمت الصمت تخبره به عن استيائها، عاد يدير محرك السيارة وينطلق بها ملقياً نظرة على الصغيرين النائمين في المقعد الخلفي من خلال المرآة..

هدوءه أقلقها لكنها تجاهلته، عندما وصلا للمنزل لم تتحدث مطلقاً كذلك هو، فقط أخذ حماماً سريعاً ودخل غرفة مكتبه يدفن نفسه بين أوراقه.

مرت ساعة، فأخرى، ثم ثالثة، تلاشى غضبها وحل محله حنق من طريقته الطفولية في خصامها، وبدأ القلق وشيء من ندم يتسرب لقلبها..

وضعت طفليها بالفراش، توجهت نحو مكتبه ببطء، هو مخطئ لكنه لن يعترف بالتأكيد..

فتحت الباب بهدوء ليغمرها الندم بثوبه وينبض قلبها في حزن..

كان جالساً خلف مكتبه مستنداً برأسه إلى مقعده، على صدره ملف ورقي ممدداً ساقيه فوق المكتب وغارقاً في سبات غير مريح..

مطت شفتيها في غيظ وهي تهتف بداخلها:

"يالك من طفل مدلل!"

تحركت نحوه على أطراف أصابعها، سحبت الملف بهدوء ووضعته على المكتب بترتيب..

اقتربت منه أكثر تتطلع إليه بحنان، هي مغتاظة، غاضبة، لكنه طفلها، وكأي أم، يمكنها أن تنهر صغيرها ليل نهار، تصرخ في وجهه وتعاقبه، لكن عندما تجده نائماً ضعيفاً مستكيناً خارج فراشه تتألم وتندم على شجارها معه.. هو الآن يشبه الأطفال، ملامحه متعبة، عليها لمحة غضب ممتزج بحزن.. لقد نام حزيناً..

ترى بمَ كان يفكر قبلها؟.. أن حبه يخنقها؟.. هل ضايقته بكلامها؟.. لكنها على حق، هو يحتاج إلى قليل من السيطرة فقط على غضبه وغيرته التي تعميه دوماً عن كل شيء، إلا أي ذكر يقترب منها..

ابتسمت بحنان هامسة:

"مجنون"

تحركت خلف مقعده تدلك كتفيه برفق، أفاق على لمساتها الرقيقة فرفع رأسه ينظر إلى..

يا إلهي.. إنها تبتسم!

حسناً أين غضبه الآن؟.. الحنان هناك يسكن مقلتيها، أصابعها تمسح عنه إرهاقه، ابتسامتها تخبره عن قصة تكتب بينهما كل يوم بحبر العشق، وهي لا تريد أن تسطر فيها حرفاً خاطئاً لأنه لن يمحى..

مد كفه يمسك بيدها وهو يخفض ساقيه أرضاً، أجلسها فوقهما ثم ضمها إليه هامساً بقلق:

- جمانة.. أنتِ مخنوقة من حبي؟

رفعت حاجبيها دهشة، إنه أحمق كالعادة، أراحت رأسها على كتفه وهي تربت على شعره بحنان:

- أنا عاوزاك تحبني أكتر وأكتر وأكتر، بس تغير عليَّ باعتدال، وازن بينهم يا أدهم.

تنهد وهو يشدد من احتوائه لها فاستجابت بضم نفسها إليه أكثر، همس بابتسامة، وكلمة يعلم أنه قد لا يستطيع تنفيذها:

- هاحاول.

ابتسمت هي الأخرى مغمغمة:

- وده كفاية قوي.

تردد قليلاً، ثم عاد يقول:

- أنا بقيت مجنون يا جمانة، أنتِ السبب، كل ما أشوف حد بيقرب منك، حتى لو عارف أن ده عادي، بيبقى جوايا نار، نار بجد، ومش بتحرق حد غيري.

رفعت رأسها تنظر إليه، كانت نظراتها تمتلئ بحنان أمومي غريب، هي الآن ليست معشوقته فقط. ابتسمت له ثم ردت بلطف:

- على فكرة جنونك ده أجمل حاجة فيك، بس محتاجين نحط له ترمومتر عشان نظبط درجة الحرارة.

ضحك بخفوت وعاد يحتويها بعينيه، نظرت إليه ثم تحركت لتقف قائلة بلهجة آمرة:

- يلا عشان تنام جوا.. وما تعملش كده تاني.

عاد يضحك وهي تشاركه، نهض واقفاً فجأة أمامها ثم جذبها ليحملها بين ذراعيه، هتفت بمرح وهي تتشبث بعنقه:

- مجنووووون!

همس لها بشغف:

- ششششش.. هتصحي الولاد، عارف إني مجنون بيكِ وليكِ وعشانك.

ابتسمت بحب ووضعت رأسها على كتفه وهو يتوجه نحو غرفة نومهما، أنزلها فوق الفراش برفق ثم اندس إلى جوارها يضمها إليه هامساً بحب:

- تصبحي على خير.. هاستناكِ في الحلم إوعي تتأخري!

طبعت قبلة أسفل وجنته وهي تدفن رأسها في دفء صدره ثم أغمضت عينيها على أمل اللقاء في عالم الأحلام.

******

جلست مع جدة طفلتها التي تشبثت بالصغيرة بين أحضانها تداعبها وتلاعبها..

ابتسمت بحنان وهي تنظر إليها بقلق، لقد سألتها قبل قليل عن طفلها، وخلف سؤالها وملامحها المرسومة بدقة لتوحي بعدم الاهتمام قرأت هي حزناً لم تستطع أن تخفيه كاملاً..

تشعر أنها بين شقي رُحى، كل منهما يضغط عليها أكثر، يسحقها، هي لا تستطيع الهروب ولا طرف منهما يتفهم ..

"راضية" لن تتفهم مطلقاً وجود ابنها من "أدهم" معها.. لن يحزنها فقط أو يؤلمها بل سيغضبها كذلك، لكنها بالفعل زوجة لرجل غير ابنها، وأم لطفله.. ربما هو على حق ولابد أن تستوعب الجدة تلك الحقيقة وترضخ لها على أي حال..

لكن كم سيتكلف الأمر من وجع؟.. من دموع وآهات تنتزع من حُرقة قلبها على وحيدها؟.. من غضب وربما رفض لقاء؟.. لقد تكلف الأمر سابقاً رصاصة قاتلة، فما هي التكلفة هذه المرة؟

"أدهم" يعلم أن وجود طفله في الزيارة معها لا داعي له، فهو لا يربطها به شيء لكنه فقط يعاند بسبب قلقها وخوفها الدائم، وربما غيرته المعتادة.. أصابها صداع طفيف من كثيرة التفكير فقالت بمرح:

- ماما.. هاقوم أعمل قهوة، عندي صداع، ها تشربي معايا؟

ردت "راضية" بحنان:

- سلامتك يا حبيبتي.. لا بلاش أنا بتسهرني طول الليل، اعملي لملوكة الشيكولاتة اللي بتحبها.

هتفت "ملك" في هذه اللحظة:

- ماما.. عاوزة شيكولاتة.

داعبت والدتها رأسها بابتسامة مجيبة:

- حاضر.. ياحبيبتي، هاجيبلك عصير بقى يا ماما.

أومأت الجدة برأسها في صمت، انتظرت حتى رحلت "جمانة" ثم حملت الصغيرة فوق ساقيها وهي تسألها بلطف ولهجة طفولية:

- عاملة إيه مع عمو جوز ماما يا ملوكة؟.. كويس معاكِ يا حبيبتي؟.. بيجيبلك حاجات حلوة ولعب؟ ولا بيجيب للنونو بس؟

ردت الصغيرة ببراءة:

- بابا أدهم مش بيجيب لعب لمروان عشان صغير، بيجيب لي أنا بس.

طعنتها الكلمة في عمق قلبها "بابا"!..

حفيدتها، وحيدة صغيرها، قرة عينها ومهجتها، تنادي رجلًا آخر بلقبه هو فقط، تخاطبه بـ"بابا"!!

كيف جرؤت زوجته على فعل ذلك؟.. كيف أمكنها أن توجع قلبها بهذا الشكل؟.. لم تستطع النطق أو حتى طرح المزيد من الأسئلة التي كانت تراود خيالها.. أمسكت بكف الصغيرة لتقبله عندما لمحت فيه جرحاً سطحياً حديثاً، اشتعل غضبها وتضاعف بداخلها..

زوجة ابنها تهمل حفيدتها، لأجل زوج؟.. لأجل طفل آخر؟

الجرح يبدو مترباً ولم يتم تنظيفه حتى..

سنرى يا كُنَتِّي الغالية!..

انتظرت حتى عادت "جمانة" تحمل الأكواب وأطباق من الحلوى، وضعتها على طاولة صغيرة أمامها وجلست بابتسامة، قبل أن تبدأ حديثاً بادرتها الجدة قائلة بحزم وهي تشير ليد "ملك":

- ملك في إيدها جرح يا جمانة، الظاهر إنك ماخدتيش بالك منه لأنه مش نضيف.

انتفضت واقفة متجهة نحو طفلتها بقلق، أمسكت بيدها تنظر إلى الجرح المذكور، وجدته خدشاً بسيطاً ربما يكون نتيجة لعبها بألعابها هنا لأنه لم يكن موجوداً مسبقاً..

قبل أن تفكر في رد سمعت الجدة تكمل بحزم غاضب:

- معلش يا حبيبتي عارفة إن وجود نونو صعب، بس لازم تاخدي بالك من ملك شوية، ما تهتميش بيه بزيادة على حسابها، هي بنتك برده!

ذُهلت "جمانة" من حديثها، هتفت مدافعة في توتر:

- لا طبعاً يا ماما مين قال كده؟.. بس فعلًا الجرح ده تقريباً حصل هنا وهي بتلعب لأني أول مرة أشوفه.. ما كانش في إيدها قبل ما نيجي.

ردت بتبرم:

- عموما أنا نبهتك.. ما تنسيش أنكِ بالنسبة لملك أم وأب، بتعوضيها أبوها اللي راح يعني تهتمي بيها زيادة كمان لأنها محتاجة الاهتمام ده.

ارتبكت "جمانة" وشعرت داخلها بغضب.. هي لم تقصر سابقا، ولن تفعل الآن..

كما أن لديها بالفعل من عوضها احتياجها لأب، لكن يبدو أن الجدة ترفض الاعتراف كما تفعل هي تماماً..

لن تخبرها بذلك طبعاً، اكتفت بالصمت وهي تحمل صغيرتها لتقوم بغسل جرحها الصغير بالماء ثم عادت لتجلس مع الجدة ثانية والتي بادرتها:

- حبيبتي.. ما تزعليش مني، بس يصعب عليَّ ألاقي اهتمامك ببنتك الكبيرة قل عشان النونو، أينعم الفترة دي صعبة بس حاولي توازني بينهم، بنتك مالهاش غيرك!

صمتت "جمانة" ثانية، ها هي تنكأ جرحاً وتضغطه بعنف لينزف من جديد، بدأ شعور الذنب يتعاظم بداخلها..

هل أهملت طفلتها بالفعل؟

نعم زوجها يستحوذ على وقتها، طفلها الرضيع، لكن هذا طبيعي في حياة أي امرأة..

هل موت "حسام" يلقي فوق كتفيها بحمل أكبر تجاه صغيرته؟.. وهي تقصر؟.. بدأ الضيق يظهر على ملامحها ولاحظته الجدة لكنها لم تهتم له..

هي ترى أنها تحتاج لصفعة توقظها كي لا تنسى أنها زوجة ابنها وأم طفلته مهما حدث، ورغم زواجها من آخر، وما قالته ليس صفعة، بل دفعة بسيطة تنبهها..

ارتفع رنين هاتف "جمانة" في هذه اللحظة لتجد اسم والدتها، شعرت بالقلق فردت:

- أيوة يا ماما.. خير؟

أتاها صوت والدتها متوتراً وهي تجبها:

- معلش يا حبيبتي تعالي ما تتأخريش، مروان سخن شوية وخافض الحرارة مش عامل مفعول قوي ومش بيبطل عياط.

شعرت بالقلق.. تلاه غضب لأنها حبست قلقها بداخلها ولم تظهره أمام جدة صغيرتها..

كادت تصرخ في حنق والكل يدفعها حتى حافة الجنون..

أجابتها بسرعة:

- طيب يا ماما حاضر، مسافة السكة بس.

أنهت المكالمة مع تطلع "راضية" إليها بتساؤل، أجابته بسرعة:

- اعذريني يا ماما.. مضطرة أمشي احنا طولنا وتَقلنا عليكِ النهاردة.

حولت الجدة سؤالها لصوت مسموع مادامت "جمانة" قد تهربت:

- في إيه يا حبيبتي مالها مامتك؟

أجابتها بإرتباك وهي تلملم أشيائها ثم تنهض واقفة:

- مافيش يا ماما ما تقلقيش نفسك.. خير إن شاء الله.

لوت الجدة شفتيها بامتعاض ولم تعلق..

خرجت "جمانة" مع ابنتها سريعاً وهي تتصل بالعم" إبراهيم" لتتأكد من وجوده، كان هاتفه خارج التغطية وقبل أن تحاول معاودة الاتصال رن الهاتف في يدها باسم زوجها..

شعرت بتوتر أكبر، ماذا ستقول له؟

هي تأخرت نوعًا ما والصغير مريض، وبقايا الغضب لا تزال تحوم حول عقله.. ردت بارتباك:

- أيوة يا أدهم؟

أتاها صوته مستغرباً:

- على طول كده!!.. فين السلام؟.. فين حبيبي وحشتني؟

أجلت صوتها وهي تجيبه:

- معلش يا حبيبي أصل كنت باتصل بعم إبراهيم عشان مروحة، بس موبايله غير متاح، ولقيتك بتتصل، استغربت بس مش أكتر.

رد متجاهلًا الأمر:

- خلاص ماشي.. عموماً أنا قلت لعم إبراهيم يروح لأني هاعدي عليكِ ونروح لمامتك نزورها، بقى لي كتير ما زرتهاش، بعدين نتعشى برا أنا وأنتِ والولاد، إيه رأيك؟

ازداد توترها وهي تخرج من بوابة المبنى لتجد سيارته متوقفة عبر الشارع، لمحها فأغلق الخط ثم هبط متوجهاً نحوها بخطوات سريعة..

ارتمت الصغيرة بين ذراعيه بمرح فرفعها عالياً وهو ينظر لوجه زوجته الشاحب، عقد حاجبيه ثم سألها في حزم:

- مالك؟

ردت بسرعة متحاشية النظر إليه:

- أبداً.. ماما كلمتني وبتقولي مروان سخن شوية، يلا بينا عشان ما نتأخرش عليه، يمكن يحتاج دكتور.

ظهرت لمحة غضب سريعة في عينيه، مال لونهما للسواد وهو يزم شفتيه، لم يعلق فقط عاد يعبر الشارع وهو يحمل الصغيرة فتحركت خلفه بسرعة في صمت..

طوال الطريق لمنزل والدتها لم ينطق بشيء، على وجهه لوحة اختلط فيها الغضب بالقلق..

هي تشعر به، سيثور، يخاصم، ويبتعد من جديد.

******

أغلق الباب عقب دخولهم بشيء من العنف..

الغضب يتملك من خلاياه، أعصابه تشتعل فوق جمر متقد، ولأول مرة منذ زواجهما وبعد أكثر من عام، يريد بالفعل أن يصرخ في وجهها..

لقد تمادت هذه المرة والدلال لم يعد حلًا..

تهاون كثيراً، منحها وقتا أطول من اللازم، لتنسى، تتكيف، تشعر به وبحبه وتصدق أنها الآن له فقط، وأمام الكون بأكمله، لكنها دوماً ما تضع عقبة، وهي عقبة وحيدة منذ طلبها للزواج، جدة طفلتها، تسقطه من حساباتها عندما يتعلق الأمر بها، والآن أسقطت صغيرهما.

لقد عادا للمنزل مباشرة بعد زيارة الطبيب..

بالنسبة له عندما تكون هي من يخصها الأمر لا ينشغل عقله بسواها، بل وقلبه، لا بل كل عصب وخلية في جسده..

قلقها، خوفها، ألمها، حزنها، حتى لحظات الحب بينهما، مهما كان نوع كل ثانية تجمعهما يكون بأكمله ملكها..

وهي..!

هي فقط تستكثر أن تكون ملكه أمام والدة زوجها الراحل!

سخر من نفسه عندما نطقها بداخله، الآن حلل الكلمة، أصبح التلفظ بها مباحاً.. فهو مازال حياً، ويقف عقبة على الدوام بينهما.

لم تعد الغيرة فقط هي ما يشعر به ويثير لهيب قلبه بركاناً، بل أيضا إحساس موجع بمقارنة يظن أنها تعقدها بينهما، إحساس مهين أنه سيظل رقم اثنين، وأنها كانت لآخر قبله قلبًا وقالبًا لدرجة أن تتنكر لوجوده ولثمرة حبهما أمام والدته..

لكنه اكتفى، كلما تذكر وجه طفله الشاحب وصوت بكائه الذي مزق نياط قلبه شوقاً لحضن أمه اشتعل غضبه أكثر..

بادرتهما والدتها عندما فتحت الباب وقبل أن تتفاجأ بوجوده مع ابنتها هتفت بجزع حجب أنفاسه لثوان:

- مروان تعبان قوي ياجمانة، بقى له أكتر من تلات ساعات رافض الرضعة خالص، ولو رضع شوية بيرجع، وسخن مني، من ساعتها وهو بيعيط، أنتِ اتأخرتِ عليَّ.

بعدما أنهت تأنيبها لابنتها والذي أثار بركان سخطه وأهاج لواعج قلبه المجروح وقعت أنظارها عليه فتوقفت عن الحديث فيما يشبه الصدمة..

عقد حاجبيه عندما دخل من الباب قبل زوجته هاتفاً بصرامة وهو يتجه نحو الصغير:

- هنوديه للدكتور.

كلمتان هما ولم يزد عليهما حرفاً.. حمل الصغير برفق لتتسرب ليديه حرارة جسده وتشعل قلبه قلقاً..

تبادلت "جمانة" نظرة وجلة مع والدتها وهي تتبع خطواته السريعة في صمت مشوب بالخوف..

اجتمع قلقها وخوفها على طفلها، بخوفها من حنقه الواضح على وجهه، وعلى غضبه الذي يوجع قلبها..

بعد زيارة الطبيب الذي طمأنهما أنها مجرد نزلة معوية خفيفة نتيجة الرضاعة الصناعية التي لم تتقبلها معدة الطفل ولم تعتدها عادا للمنزل..

عادا محملَين بأطنان من صمت ما قبل ثورة البركان..

هدوء خيم على السيارة، الصغيرة نائمة في الخلف بعد يوم طويل مرهق، الرضيع مستكين في دفء أحضانها باطمئنان، وهي يزداد وجيب قلبها ضجيجاً كلما اقتربا من البيت..

لقد أوضح الطبيب السبب، وهي كانت المسبب، لن يغفر لها أبداً.. يشعر قلبها بالقهر، يتملك منها الخوف، والتردد يتحكم في ذراتها..

ماذا سيقول إن نطق؟.. وبماذا ستجيب؟.. هذا إن منحها الحق في دفاع.

"جمانة.. تعالي المكتب، محتاجين نتكلم"

أخرجها من شرودها صوته البارد، اختلاجة فكه - وهو يشير إليها أن تتبعه بعدما وضعت الصغيرين في فراشهما - أنبأتها أنه يقاوم رغبة طاغية في صب جام غضبه عليها الآن، لكنه فقط يتماسك حتى ينفرد بها بعيداً عن آذان الطفلين..

فكرت للحظة ماذا لو تهربت؟

لكنها ستزيد من لهيبه أكثر فاستكانت وتبعته في وجوم وهي تبتهل في سرها أن يمر الأمر بسلام.

أغلق الباب خلفهما بمفتاحه، لم تعلق..

ازداد معدل نبضها ولم تصدر منها همسة، لم يكن قد غير ملابسه بعد، وجدته يخلع سترته ليلقيها على أريكة جانبية بإهمال، توجه نحو مكتبه واستند إليه عاقداً ساقيه أمامه ضاماً ذراعيه في مواجهة صدره وهو يتطلع إليها بتأمل..

القلق على ملامحها آذاه، كاد يضعف للحظة، حزنها وخوفها يسببان الوجع لقلبه، فماذا إن كان منه هو؟.. لكن ضعفه ذاك هو ما أوصلهما لهذه النقطة..

منذ متى كان متخاذلًا واهنًا هكذا؟

هي فقط السبب، هي من يصبح أمامها شخصًا آخر غيره، لا يعرفه، ولم يكن يتخيل أن يقابله يومًا ما.

طال تأمله لها وهي تقف أمامه بهدوء، ترفع عينيها نحوه تارة، وتدور بها في أنحاء الغرفة تارة أخرى..

تريده أن ينطق، وتستجديه أن يتجاهل الأمر.. لكن كيف؟

في محاولة أخيرة حاولت الحديث:

- أدهم...

إشارة صارمة من يده ألجمت حروفها لتختنق بها..

تنهد بعمق، ربما ليرسل بعض الهواء البارد ليخفف من حدة الحمم التي تصب داخل أوردته.. اعتدل واقفاً، خطا نحوها ببطء، عندما وقف أمامها تمامًا كان صوته ثلجيًا وهو يهمس:

- احنا رقم كام في قايمة جمانة أبو الفتوح؟

ربما لو صرخ لكان أفضل، ربما لو غضب وشتم كان أهون..

جليدية صوته وكلماته جمدت روحها..

رفعت عينيها إليه في غير فهم.. نظرة عينيه لا تخبرها بشيء، فقط لمعة خاطفة أنبأتها بألمه..

عندما مدت كفها تتلمس طريقها لصدره ابتعد خطوة للخلف أوجعت قلبها، كرر سؤاله بلمحة صارمة:

- كام ياجمانة؟

الآن هي تخشاه فعليًا، لم يكن أبداً جامدًا صارمًا معها..

ما الذي جد وغيره؟

مَن مرض هو طفلها أيضًا.. هو واهم لو ظن أن الأمر لا يعنيها، لكنها فقط وكما هي دومًا خائفة.. وهو من تستند إليه، وسندها الآن ينسحب، يتقهقر، ويصبح متطلبًا..

جوابها كان بلمحة دامعة:

- أنا ما عنديش قايمة يا أدهم.. أنت كل حاجة في حياتي.. أنت أول القايمة وآخرها لأنك الوحيد فيها.

لم يقاوم ابتسامة ساخرة تسللت لشفتيه، انقلبت بعدها لضحكة مجلجلة كأنه أصيب بجنون مؤقت.. دهشتها أغرقت وجهها، قطع ضحكته فجأة وهو يقترب منها.. أمسك مرفقها بعنف لم تلمسه منه من قبل، انحنى نحوها هاتفًا في وجهها بغضب:

- الكدب عمره ما هيحل المشكلة.. كلامك مش هو اللي أنا مستنيه، أفعالك بس هي اللي بتنطق باللي جواكِ.. وأفعالك يا أم ابني بتقول أننا في الآخر

قوي، ومش باتكلم عني بس، باتكلم عن ابنك اللي سيبتيه طول النهار عند مامتك من غير مامته، برضعة تعبته، عشان ترضي مامة جوزك على حسابه وحسابي.

اتسعت عيناها ذهولاً..

ما الذي يهذي به؟

و"مامة جوزك!!"

إذاً مَن هو؟

إنها الغيرة من جديد.. ألن ينتهي هذا الأمر أبدًا!! صمتها أثاره أكثر فهزها بعنف صائحًا بحدة:

- سرحتِ فين يا مدام؟

ارتعبت وهي تنظر إليه.. عيناه تمتلئان بسعير حارق..

ثم كان جوابها دمعة، غادرت جفنها الأيمن عنوة لتنزل على قلبه فتشعل المزيد من نيرانه..

ترك يدها بعنف وابتعد، تراجع مديراً وجهه بعيداً عنها يعب الهواء داخل صدره كأنها آخر أنفاسه..

اقتربت منه ببطء، ستبكي..

هي لا تريد، لكنها ستفعل، دموعها تصلبت على حافتي جفنيها متعلقة ببداية أهدابها ومهددة بشلال لن يصب إلا أنينًا فوق وجعها.

شعر باقترابها فلم يتحرك..

ضعفها، دمعتها الوحيدة التي خدشت نعومة وجنتها، خوفًا ملأ عسل عينيها، كلها جمدته..

لمسة أصابعها خافتة خجول فوق كتفه تحثه على استدارة..

رَفْضٌ منه، يعلم قلبه الغبي، يحفظه ويدرك ألاعيبه، بل ألاعيب هواها به، وهن يصيبه يصطحب معه غيظًا وحنقًا وسخطًا، أي امرأة لا تمتلك تلك السلطة عليه إلاها..

وهو لم يطف بباله يوما أن تمتلكها أنثى أبداً..

فإذا بمن أجبرته على توقيع صك عهد أبدي.. لا يمتلكها هو!!

تألم قلبه أكثر ثم استحال الألم لغضب من نوع جديد انفجر في وجهها بالتفاتة مفاجئة، غضب منعه من تخاذل أصابه وأحكم سيطرته على شغافه مجبراً إياه على بثها شيء من اطمئنان بين ذراعيه، التفاتة صاحبها ابتعاد وهتاف مهتاج بصوت أرجفها:

- رقم كام ياجمانة؟

وبعده اقتراب مباغت، ليتمكن من مرفقيها بقبضتيه، هزها بعنف بعثر دمعاتها لترتطم بوجهه، تعالى صوته من جديد بنبرة ألم مزقتها:

- لحد إمتى هتفضلي تحسسيني إنه كان أهم ولسه أهم، مامته أهم، قربها أهم؟.. لحد إمتى هافضل أسكت وأقول معلش غصب عنها، بلاش تضغط عليها، خليك أنت أحن، افهمها وقدر خوفها ومشاعرها؟.. لحد إمتى يا جمانة؟

وكما اقترب فجأة، تركها فجأة، التفت مكملًا بصوت متهدج:

- تقدري تتخيلي واحد زيي، بتفكيري، بعقلي اللي بتقولي عليه مجنون بيحس إزاي وقدامه كل يوم دليل أنك كنت لواحد قبله؟.. دليل عمري ما فكرت إنه يبعد عنك، دليل عارف أنه أهم حاجة في حياتك وعشانه بس وافقتِ تكوني مراتي، ولما امتلك هو دليل إنك بقيتِ ليه، معاه، ساكن جواكِ زي ما أنتِ مالكاه يلاقيكِ بتهربي منه، بتخفيه، مش عاوزاه يظهر، وفي النهاية بتهمليه.

انتهى وجعه هنا، لا لم ينتهي، فقط انتهى حديثه عنه..

وحان وقت الحديث عما يجب أن يكون، رغم صمتها الذي يثير جنونه، بلهجة صارمة كان أمره:

- بعد كده ما فيش خروج من غير ابنك، يا إما تخليكِ معاه في البيت براحتك، على الأقل لما يحتاجك يلاقيكِ جنبه، زيارة جدة ملك كل شهر مرة مش أكتر، وما فيش كلام تاني هاقوله.

هل انتهت نوبة غضبه؟

ربما..

لكن الآن يحين دورها، دمعاتها لا تزال تحجب الرؤية بوضوح أمامها، لكنها أجْلَت صوتها وهي تهتف بحنق شديد، من غضبه وألمه، حدته وأوامره..

طوق الغيرة الذي يخنقها به، وماضٍ يصر على دفعه كل مرة في منتصف الطريق بينهما يأبى أن تنساه رغم محاولاتها:

- أنا مش طفلة يا أدهم، ودي مش طريقة نقاش، أوامر وغيرة وزعل وأنا عليَّ السمع والطاعة.. وأطبطب وأراضي عشان عارفة أنت بتفكر إزاي، اللي تعب ده ابني، أقرب ليَّ مني، كان جوايا باحس بنبض قلبه، وحبه اتزرع في قلبي من قبل ما أشوفه، ولما شفته حبيته أكتر، لأنه ابنك، شبهك، حتة منك، كفاية بقى تفكير في ماضي مالوش لازمة، أنا شرحت لك الموقف قبل كده وأنت فهمته ووافقت، تعب مروان ظرف طارئ ممكن يحصل في أي وقت، أنت بس التوقيت جه على مزاجك المرة دي عشان تحط قايمة أوامرك وأنا عليَّ التنفيذ من سكات.

حسنا الآن سيصرخ، هي فقط لا تتوقف وتصر أنها على حق، التفت ينظر إليها ليهدر بصوت أرعبها:

- لو كنتِ طفلة كان بقى عادي، إنما أنتِ واحدة كبيرة وعاقلة وأم، وبدل ما تعترفي بغلطك بتكابري وتعاندي وتقللي من قيمة الموضوع عشان أنا أبقى غيور وخلاص والحكاية تنتهي على كده.

صمت للحظة لم تستطع فيها النطق فقط متسعة العينين بصدمة لطبقة صوته التي لم تصل لأذنيها من قبل:

- شوفي يا جمانة.. بالنسبة لي الموضوع انتهى، واللي قلته هيتنفذ، ما فيش داعي تخلي وشي التاني يظهر معاكِ، أنتِ عمرك ما شفتيه وهيصدمك صدقيني!

يصدمها..!!

ألهذه الدرجة هو غاضب؟ أم.. حزين!!

قررت أن تصمت الآن حتى يهدأ وبعدها تتناقش معه بعقلانية، سمعت صوت مفتاح الباب فالتفتت تنظر إليه، أشار إليها لتخرج بحزم قاطع:

- تصبحي على خير.

تطلعها المشدوه نحوه أثلج صدره..

نعم حبيبتي.. لن أجاورك اليوم، وربما غداً، أو بعده، تستأهلين عقاباً، وأحتاج تدريباً على بعض القسوة..

أشاربرود مرة أخرى فاقتربت من الباب، وقفت أمامه، همست:

- هتنام هنا؟

بنظرة باردة فقط أجاب، أخفضت عينيها في ألم ثم خرجت لتسمع المفتاح يحكم إغلاق الباب عليه وحيداً بعيداً عنها ولأول مرة منذ زواجهما..

فكرة أن تنام وحيدة بدون دفء جسده يغمرها بالأمان -على الرغم من وجوده في نفس المنزل معها- أضْنت قلبها..

ألتلك الدرجة هو ثائر!

يهجرها وهو من لم يستطع يوما التنائي عن قربها!

حتى في بداية أيامهما معاً، عندما اشترطت زواجًا حبراً على ورق!

أجبرها أن تكون إلى جواره، والآن يفارقها؟

نديمها الليلة سهاد يكدر جفنيها ويمنعهما اللقاء.

******

رفقاء وحدتها، شرود، قلق، وشيء من رعب.. ذكريات ماضٍ ليس بالبعيد تقتحم أحلامها فتحولها لكوابيس سوداء تغرق فيها كمحيط مظلم بعمق لا حد له من الألم..

جافاها النوم تلك الليلة، تعدت الساعة منتصف الليل وها هي تجلس على فراشها بمنامة طفولية لم ترتدي مثلها من قبل..

هي فقط تشعرها بالراحة مؤخراً، توشمها ببراءة لم تسكنها يومًا لكنها تتلهف قدراً ضيئلًا منها يبعدها عن دنيا الوجع..

حفل ساهر آخر يصلها صداه بإزعاج من الطابق السفلي..

الأم تتسامر والعشيق يرسم دوره جيداً لتسقط ملاذها في حبائله برغبتها وكامل قواها العقلية، لو فرضنا أن لديها عقل بالفعل.

بعد موت أبيها تحولت والدتها لمسخ حقيقي، كانت متصابية قبلًا لكن كمامة الوالد لطالما منعت عنها أنفاس الرذيلة إلى حد ما..

وبعد استكانته في لحده زالت الكمامة وتنشقت الأم سموم هواء الحياة التي كانت دومًا تصبو إليها وسكرت بها، تسمم دمها، روحها، حياتها بأكملها وتريد سحب ابنتها معها بعد كل ما عانته..

لكنها تحلم، وهم أيضًا يحلمون، رفقاء أمها الذين لا يرونها إلا وتنهال النظرات على جسدها تلسعها بشهوة تقتلها في كل مرة بعدما كانت تتغذى عليها سابقاً..

على الرغم من ملابسها الرسمية داكنة الألوان على الدوام..

فتاها الصغير"تيام" يحوم حولها هو الآخر، داعياً، راغباً، يرسم دور عاشق لا يليق به حتى وإن صدق فيه للحظات..

يشدها لترافقه مرة بلهفة حبيب، وأخرى بمرح صديق، وغيرها بنظرة ذكر راغب.. وكلهم يثيرون فيها اشمئزازاً يصيبها دوماً بالغثيان ويحملها على الهروب والانزواء بعيداً وحيدة..

جلست على فراشها تضم ركبتيها إلى صدرها وتلف ذراعيها حولهما تستجدي حضناً من نفسها، من جسدها، يبثها شيء من اطمئنان، من احتواء لا يمنحها إياه أحد، وثقة فقدتها في الجميع..

تنهدت بعمق مفكرة إلى متى سيستمر هذا الحفل القميء؟

رنين هاتفها أفزعها فانتفضت في مكانها برعب.. حدقت فيه لولهلة كثعبان يهم بغرس أنيابه في عنقها ثم انتبهت أنه فقط الهاتف..

التقطته بتوتر.. لا اسم هنالك، فقط رقم مجهول غير مسجل..

ترى من يكون؟.. ومن يهاتفها في مثل هذا الوقت؟

استمر تصاعد الرنين مجبراً إياها على الرد..

فتحت الخط ووضعته بارتباك على أذنها، لم تستطع النطق لكن وصلها الصوت الخشن:

- دينا حبيبة قلبي.. كل ده عشان تردي!!.. وحشتيني.

اتسعت عيناها ذعراً وهي ترتعش بشكل مفاجئ كأن دلواً من ماء مثلج سُكِب فوق رأسها فجأة..

اقتحم ذلك الصوت الصارم خلايا عقلها من ماضٍ تحاول تناسيه في كل لحظة وها هو يتجسد أمامها..

يخبرها أنها لن تنسى أبداً وأنه سيظل حياً مرتبطاً بنبضات قلبها وذبذبات عقلها..

همست بغصة تملأ حلقها:

- طارق!!

(٥)

لقاء

رب صدفة خير من..

موعد أو ربما ألف..

آلاف..

أو هو لقاء..

مقدر قبل الميلاد..

قبل الحياة وشهيق الأنفاس..

أهي نظرة أولى!!

أم اجتماع أرواح طال فراقها؟!

وحان وقت تتآلف فيه

تتقارب.. تتناغم في معزوفة عشق

تدوم حتى نهاية الأبد..

لوله نهاية..

فلا نهاية لنا نحن..

ابتسامة رسمت نفسها عنوة على شفتيه عندما تذكر خجلها..

خطواتها الهادئة التي لا تكاد تمس فيها الأرض، ناعمة، رقيقة، وبسيطة.. بساطتها من النوع المحبب الذي يجذب العين إليها ويسكنها القلب في ثوان.

عندما قدمتها له "جمانة" بحميمية واهتمام:

- دكتورة أسيل السعدني، دكتور حسام عبد الرحمن.

أومأ لها برأسه وابتسامة رسمية تزين شفتيه ردتها بخفوت مع استطرادة "جمانة":

- دكتورة أسيل عزيزة عليَّ جدا يا دكتور حسام، اعتبرها أختي الصغيرة، هي خريجة جديدة وطبعاً أنا واثقة إن حضرتك هتكون معاها خطوة بخطوة وتتعلم معاك بسهولة.

اتسعت ابتسامته وقتها، يعلم أنها تثق به، منذ زواجها كانت هذه هي المرة الثانية التي يراها فيها، والأولى التي يرى فيها صغيرها، تحمله باهتمام وحنان شديدين نبض له قلبه، تغاضى عن ذلك وهو يجيبها:

- أكيد يا مدام جمانة.. ما تقلقيش.

منحته ابتسامة هادئة متمتمة بثقة:

- مش قلقانة يا دكتور.. ربنا يوفقكم.

ثم تركتهما..

صمتها طال وهي تتأمل المكان حولها باهتمام، تركها ليساعد عميلاً..

دقائق وعاد إليها، تساءل بلهجة هادئة ودود:

- دفعة إمتى بقى يا دكتورة أسيل؟

التفتت إليه بخجل مجيبة بخفوت:

- يا دوب السنة اللي فاتت.

ابتسم لها مطمئناً، أشار بذراعه للمكان حوله:

- وإيه رأيك بقى في الصيدلية هنا؟

هزت كتفيها بارتباك ولم تجد ما تقول فضحك بخفوت أثار المزيد من خجلها..

يومان مرا بعدها وهي تتعلم بسرعة، بذكاء شديد كل ما يلقنها إياه يتوطن في عقلها.. وكم أسعده هذا، على الرغم من سنها الصغير والذي يفرق بينهما بعشر سنوات إلا أنها أبهرته، وسعة إطلاعها ومناقشاتها معه وأفكارها

لتطوير المكان شغلت عقله بها بشدة وقرر منحها كل خبراته عن طيب خاطر.

******

الآن حل محل شرودها التائه رعب يتمكن من خلاياها ويصب فيها بدوامة ألم توجعها أكثر، وتزيد من توحدها مع ذاتها وانطوائها..

منذ ثلاثة أيام وللآن عقلها لا يتوقف عن التفكير، تقود سيارتها وعيناها تدوران في محجريهما، تتفحص الوجوه، تراقب الشوارع كأنه سيقفز أمامها فجأة كما وعدها..

كلما تذكرت اتصاله، صوته الخشن المخيف، توعده، وعيده أنها له مهما حاولت، توقفت أنفاسها وانحبست في صدرها، لا يجدي بعدها سوى شهقة عنيفة تبث الحياة في رئتيها..

ليلتها مع أرقها وحنقها من حفلات والدتها صاحَبَها اتصاله، وعندما هتفت باسمه في رعب أجابتها ضحكته المجلجلة ليقول بعدها:

- حبيبة قلبي أنتِ والله، ما أنتِ فاكرة صوتي أهو أمال إيه؟.. ما بتسأليش ليه؟.. ولا دلوقتِ مافيش مصالح بيننا؟

انتابها توتر شديد فلم تدر بنفسها إلا وهي تهتف بخوف:

- أنت عاوز إيه؟

ساخراً كان جوابه:

- تؤ تؤ تؤ، ليه كده يا دونا بس؟!.. ده إحنا بيننا عشرة وليالي حب ما تتنسيش.

أقحم الذكرى في عقلها عنوة وهي لم تكن قد انتزعتها بعد، فقط ليدمي جراحها من جديد، هتفت بعصبية شديدة كأنها ستصرخ بعد لحظات:

- اللي كان بيننا تنساه وتنساني معاه، أنا خلاص ما بقيتش زي زمان ومن فضلك ما تتصلش بيَّ تاني أبداً.

عاد يضحك، هو يسخر منها ويستلذ بالرعب الذي أثاره بداخلها فظهر جلياً في صوتها، قال بحزم:

- أنسى إيه بس؟!.. دينا.. اللي يعرفك مستحيل ينساكِ، واللي يدوق مش زي اللي يشوف من بعيد.

ترقرت الدموع في عينيها، الآن هو يسحق مشاعرها، يهدم جداراً كاذباً وهمياً بنته حول نفسها تحاول حمايتها به، لكنه وكعادة كل ما تصنعه هش، ضعيف، لن يغني عنها شيئاً، أتاها صوته من جديد:

- دينا.. أنتِ بتاعتي أنا، حتى اللي كنتِ عاوزة تتجوزيه اتجوز وسابك من زمان، اللي حصلك يا روحي ما يهمنيش، أنا بحبك وأنتِ عارفة، هاستناكِ في مكاننا المعتاد، أصلك وحشاني قوي.

اتسعت عيناها في صدمة، هل جُنَّ أم ماذا؟.. عادت تصرخ في هيستيرية:

- أنت مجنون!.. مستحيل.. اللي بتفكر فيه مستحيل.. وأنت مش بتحب حد، أنت بس مزاجك فكرك بيَّ فقلت ليه لأ.. لكن انسى، فاهم انسى!.

الآن صوته أصبح صارماً مخيفاً ليذكرها بهويته التي تتجاهلها:

- أنسى!!.. أنتِ بتحلمي لو فكرتِ إني ممكن أنسى، قلت لك أنتِ بتاعتي، ومصيرك تنتهي بين إيديَّ، ما تعانديش عشان ما تتعبيش، أنتِ عارفة أنا ممكن أعمل إيه!.. وعموماً مصيرنا نتقابل حتى لو مش بمزاجك يا... حبيبة قلبي.

قال كلمته الأخيرة ساخراً ثم أغلق الخط..

وأغلق في وجهها باب كل أمل، موصداً أقفال النسيان دونها..

احتجزها داخل دوامة الماضي يطوقها ككلابة خانقة تصر على إنهاء أنفاسها مهما حاولت.

******

فتح عينيه فجأة عندما استيقظ عقله دفعة واحدة إثر ذلك الحلم، نهض جالساً في فراشه وهو يفرك عينيه بإرهاق..

حتى في الأحلام تطارده!

لا يكاد يصدق ما يحدث له، زمردها الغائم يتابع حركاته وسكناته في كل لحظة يجتمعان فيها، وإن مر بها صدفة لمح تلك اللمعة بين أهدابها تحمل صورته..

فتاة غريبة بعقل أغرب..

هل تقدر الفارق بينهما أم هي فقط تظن الأمر مجرد لعبة؟

منذ بدء العام الدراسي قبل أكثر من أسبوعين وهي تتبعه في كل مكان داخل الجامعة، تسأله في كل شيء مهما كان تافهاً، تضحك أمامه ببلاهة غريبة، تشعره أنها فقط تتحين اللقاء وتنتهز فرصة تبادل الحديث..

لا ينكر أنها لطيفة، ومرحة، جميلة.. نعم، ولمعة حزن خفية يلمحها بين حين وآخر داخل عينيها تثير فضوله، لكنها مجرد طفلة، تماثل أخته الصغيرة عمراً أو تكبرها بعام وحيد نتيجة تأخرها في الدراسة الجامعية بسبب سفرها كما عرف منها..

تنهد بصوت مسموع، لقد أطارت النوم من عينيه بلا رجعة، نهض من فراشه متأففاً وهو يلتقط هاتفه متطلعاً للوقت..

حسناً بقي على آذان الفجر نصف ساعة، سيقضيها في القراءة مع كوب من الحليب الدافئ..

ألقى نظرة على صغيره النائم ثم توضأ، صلى ركعتي قيام جلس بعدهما بصحبة كتاب مثير للملل عله يعود للنوم من جديد..

مر الوقت ببطء حتى حان وقت الذهاب للعمل، وهناك من جديد تعثر بها، كان في مكتبه يراجع محاضرته التي سيلقيها على طلبته بعد قليل عندما وصلته طرقات خافتة على بابه، سمح بالدخول فظهرت هي ببهائها أمامه، منحها ابتسامة متكلفة وهو يتساءل برسمية:

- خير يا آنسة علا؟

ابتسمت بمرح وهي تقترب من مكتبه بخطوات رشيقة، كان ردها:

- كنت محتاجة أسأل حضرتك على حاجة قبل المحاضرة.

مط شفتيه متنهداً وهو يسأل من جديد:

- ما كانش ينفع تسأليني في المحاضرة؟

شعرت بحرج طفيف وهي تجيبه بهزة كتف:

- أنا قلت مادام حضرتك موجود بدري ممكن تشرحهالي بدل ما أتحرج أسأل قدام زمايلي.

أومأ برأسه منهياً الأمر:

- محتاجة تفهمي إيه؟

اقتربت منه تدور حول مكتبه وهو يتطلع إليها بدهشة، وقفت إلى جواره لتفتح كتابها أمامه بسرعة منحنية قليلاً ثم أشارت بإصبعها لأحد المقاطع قائلة باهتمام:

- الجزئية دي.

تسللت لأنفه رائحتها العطرة الندية برفق مداعبة خلاياه، فهز رأسه وهو يولي انتباهه للكتاب وما أشارت إليه.. شرح لها ما استغلق عليها باهتمام..

تابعته بلا عقل وهي تنظر إليه، إلى أصابعه بينما تتحرك فوق السطور أو تشير لتوضيح المعنى، تستمع إلى صوته وتتخيله يلقي عليها قصائد حب، تركت الأرض، غادرت جسدها، وحلقت بروحها في فراغ الغرفة، تهيم حوله بحميمية وتتيُم، لم تعتقد في يوم أن يجذبها رجل بهذا الشكل!.. صوته، عيناه، ابتسامته، حتى شعيراته الرمادية على الرغم من سنه الذي لا يتناسب مع وجودها..

تعلم أن الفارق بينهما ما يقرب من ستة عشر عاما، لكنها لا تهتم، تتلهف فقط قربه واهتمامه، وتعشق وجودها بين جفنيه عندما يشملها بنظراته.

هو متباعد ورسمي لأقصى حد، هي لا تبالي بذلك، خيالها أتاح لها ما تريد، وأباح لها كل شيء معه..

إن كان ينظر إليها على أنها فقط مجرد طفلة فستريه هي أنها أنثى كاملة، امرأة تستحق رجلًا مثله، ستثبت له..

أفاقت من شرودها على صوته الحازم متسائلاً:

- ها كده فهمتيها؟

ابتسمت برقة وهي تجيبه بنعومة وامتنان:

- جداً يا دكتور.. حضرتك ممتاز في الشرح.

منحها ابتسامة خافتة وهو يشيح بوجهه:

- طيب تمام، يلا على محاضرتك.

اعتدلت واقفة وابتسامتها تزداد اتساعاً، ثم هتفت بمرح وهي ترفع كفها مفرودة بمحاذاة رأسها:

- تمام يا فندم، هاكون هناك حالاً!

رفع عينيه إليها بدهشة فمنحته ابتسامة حالمة أخرى عقد حاجبيه لها.. تحركت بسرعة ورشاقة لتختفي من أمامه..

بقيت أنظاره معلقة بالباب بعد خروجها منه مفكراً، غريب أن تطوف تلك الصغيرة بخياله بهذا الشكل، والأكثر غرابة أن يطوف هو بخيالها، لقد فهم نظراتها منذ اللحظة الأولى لكنه للآن يستغربها ولا يدري ما به! ولمَ لا يوقفها!!.

******

عاد متأخراً للمنزل كما يتعمد مؤخراً..

لثلاثة أيام لم يبادلها حديثاً، ولم يحاول حتى.. غضبه في ازدياد، ورفضه لمحاولات استرضائه قاطع..

هي لم تعترف بخطئها، فقط تريد قربه ومسامحته والنسيان..

لكن هذه المرة لن يجدي الأمر، ليس بعدما حدث لطفله بسبب خوفها وقلقها من ردة فعل جدة الصغيرة..

أغلق الباب خلفه بهدوء ثم توجه نحو غرفة النوم لتغيير ملابسه ناوياً العودة لغرفة مكتبه والمبيت هناك..

عندما فتح الباب وجدها بانتظاره هذه المرة، ألقى عليها نظرة لامبالية ثم تحرك باتجاه خزانة الملابس بهدوء..

ذهبت خلفه وقبل أن يستدير مبتعداً طوقته بذراعيها وأراحت رأسها على ظهره هامسة:

- زعلك وحش قوي.

تسمر في مكانه بلا كلام، على الأقل هي تعلم أنه غاضب، لكن الأهم أن تفهم سبب غضبه ذاك وتحاول إصلاح ما أفسدته..

وجدها تضمه إليها أكثر بهمس جديد:

- ممكن نتفاهم!

فك ذراعيها بهدوء وهو يلتفت إليها، عقد ذراعيه أمام صدره متسائلاً بحزم:

- نتفاهم في إيه؟

ابتسمت برقة ثم هزت كتفيها مجيبة:

- في اللي مزعلك مني.

استند إلى الخزانة بظهره ثم عاد يسأل ببرود:

- هو اللي مزعلني محتاج تفاهم ولا محتاج يتصلح؟

ارتبكت ابتسامتها ثم تلاشت وهي ترد بنبرة عاتبة:

- أدهم.. من إمتى كنت قاسي كده؟.. وليه مش قادر تفهم موقفي؟.. ليه مش بتساندني زي ما عودتني؟.. ليه بتضغط عليَّ أنت كمان؟

رفع حاجبيه متظاهراً بدهشة هازئة:

- ياااه!.. كل ده؟.. دلوقتِ أنا اللي غلطان وأنا اللي قاسي ومش متفهم وباضغط عليكِ؟.. جمانة.. مش ملاحظة إنك مش معترفة بأي غلط نهائي؟.. مش غريبة شوية لما يكون ابني تعبان بالشكل ده والسبب إهمالك -وأيوة هاقولها بصراحة- عشان خايفة على مشاعر جدة ملك ومش خايفة على مشاعري أنا؟

علا وجهها نوع من الصدمة وهي تردد خلفه:

- إهمالي؟!

فرد ذراعيه وهو يعتدل في وقفته هاتفاً في حنق:

- أيوة إهمالك.. لما تسيبي الولد طول اليوم عند مامتك برضعة صناعي أول مرة تجربيها معاه.. وأنتِ عارفة إنك هتغيبي، والولد يتعب، وتتأخري، وترفضي يكون معاكِ عشان هي ما تزعلش، يبقى إهمال.

عيناه كانتا ناريتان وهو يصيح في وجهها غاضباً، لكن أن يتهمها بالإهمال هذا شيء آخر، لقد فقد عقله حتما والسبب غيرة كالمعتاد..

علا صوتها بعض الشيء عندما أجابته بحدة:

- لا طبعاً مش إهمال، أدهم.. لو سمحت كفاية بقى، مش كل موقف يبقى سببه غيرة تخترع له حكاية عشان تمنعه عني وتأمرني وأنا أطيع، سبق وقلت لك....

قبل أن تكمل أوقفتها نظرته لها، انعقاد حاجبيه الشديد، شفتيه المزمومتين بقوة وقبضتيه المضمومتين بعنف..

عند صمتها أتاها صوته خفيضاً صارماً بنبرة قاسية:

- لما تتكلمي معايا صوتك ما يعلاش يا جمانة... أبداً.

تراجعت خطوة للخلف برهبة..

هذه نبرة أخرى لم تسمعها منه من قبل، ماذا!.. هل انتهت أيام العسل وحان وقت الحياة الزوجية التقليدية التي يتبادلان فيها الاتهامات واللوم؟

لم ينتظر منها كلاماً آخر أو تبريرات واهية، لا تزال على رفضها وعنادها إذاً لا مجال لحديث..

تحرك متوجهًا للخارج عندما وجد كفه بين أصابعها، توقف ثانية وهو يزفر بضيق..

واجهته بعينين لامعتين تنذران بدموع لن يتحملها هذه المرة، ابتسمت بضعف وخرجت همستها باستكانة:

- آسفة.

تأملها لثوانٍ، لم يفهم علامَ الأسف بالضبط؟.. فسألها بلهجة جادة:

- على إيه بالظبط؟

نبرتها دامعة، لكن إجابتها غير مرضية:

- على كل حاجة، وإني عليت صوتي.

بنفس اللهجة طرح سؤالاً جديداً:

- كل حاجة اللي هي إيه؟

تهدل كتفيها في استسلام.. تساءلت بداخلها عن تفهمه ومراعاته السابقين أين اختفيا؟.. تركت كفه لتنكمش فوق صدره وتستمع لدقات قلبه براحة:

- أدهم.. بجد زعلك تاعبني جداً.. كفاية بقى، أنا مش عاوزة أزعلها وشرحت لك موقفي.. وأنت كمان وافقت وقلت لي خلاص من الزيارة اللي بعدها.. وبرده فهمتك إني هاقضي معظم اليوم معاها عشان مازرتهاش بقى لي كتير، تعب مروان مش بإيدي، كان ممكن يتعب برده لو معايا لأي سبب والحمد لله إن الموضوع كان بسيط.

تنهد ثانية، تعاند وتكابر من جديد..

رفعت وجهها تنظر إلى ملامحه، تردد رأته هناك طمئن قلبها قليلاً..

أحنى رأسه ينظر إليها، لمح تلك الدمعة التي غادرت جفنيها فزفر حانقاً ثم أحاطها بذراعيه وأسند ذقنه لرأسها، ضمها بقوة كأنه يعاقبها، لكن عقابه ذاك أراحها، ودت لو حطمها بين يديه لكن فقط لا يقصيها بعيداً عنه فبعده جحيم مرت به لثلاثة أيام وصدقاً لم تكن التجربة هينة أبداً.

كان يفكر؛ لو تعلم ما تفعله به دموعها، ما يشعره به خوفها، قلقها!

تلك نقاط ضعف تعصر قلبه عليها وهي تستخدمها دون أن تدري..

سيتفهم هذه المرة، سيعتبر أن ما قاله لها سابقاً هو ما سيحدث وينسى ما حدث بالفعل، لكن ستطيع أمره فيما يخص الصغير مهما حاولت بعد ذلك، ومهما أظهرت من خوف أو قلق، همس لها بحزم:

- آخر مرة يا جمانة.. وبرده اللي قلته هيتنفذ.

لم تنطق، فقط هزت رأسها موافقة بضعف أنهكه هو واستكانت أكثر تنهل من دفئه، تشعر باحتوائه وتقرعينها بأمان لا تجده سوى هناك، عند دقات قلبه، تتوسد ضلوعه وبين ذراعيه.

******

انطلقت ضحكة "علا" عالية مرحة وهي تجاور "سارة" في سيارتها مما أثار غيظها أكثر ودفعها لأن تضغط دواسة الوقود لتزيد من سرعتها عاقدة حاجبيها في ضيق ثم هتفت حانقة:

-بتضحكي يا علا! ماشي.. أنا غلطانة إني قلت لك أصلاً.

لم تنل منها سوى ضحكة أخرى تساءلت بعدها بابتسامة واسعة:

- طيب يعني متخيلة رد فعلي يكون إزاي؟.. ده مجنون ده ولا إيه؟

دخلت من بوابة الجامعة بالسيارة، لم تبطئ من سرعتها وهي تجيبها بغيظ:

- مجنون بقى ولا غبي مش مشكلتي، يا بنتي قدام السيكشن كله ألاقيه واقف قدامي بالشكل ده ويقول لي بحبك ووردة حمرا وكلام فاضي، كنت عاوزة أضربه ساعتها!

انتابت "علا" ضحكة أخرى لم تستطع التحكم بها فالتفتت إليها "سارة" بحنق هاتفة:

- علا.. لو ما بطلتيش ضحك هاحدفك من العربية وهي ماشية عشان أستر....

قاطعها هتاف صديقتها المرتعب وهي تنظر أمامها بعينين متسعتين:

- سارة.. حاسبي!

التفتت بسرعة لترى شاباً يعبر الممر أمامها، لمحها هو الآخر فحاول التراجع سريعاً لكن كان الأوان قد فات وهي تضغط مكابح السيارة بقوة لتدور بها فيصطدم هو بجانبها ويطير للخلف مترين ثم يسقط أرضاً بعنف أصدر آهة عالية منه..

فتحت بابها تبعتها "علا"، هرولت نحوه مع اقتراب بعض الطلبة الآخرين لتفقده، انحنت نحوه هاتفة بلهفة:

- يا خبر!!.. أنا آسفة جداً، أنت كويس؟.. اتعورت أو في حاجة بتوجعك؟.. يا ربي!!.. أنا آسفة قوي.

رفع رأسه متألماً ينظر إليها بغضب، لمح الرعب على ملامحها الرقيقة ولم يجد إجابة.. بدت ناعمة خائفة بشدة، وعينيها لامعتين بدموع توشك على جرح وجنتيها المحمرتين..

نظرت إليه تتفحص وجهه باهتمام بحثاً عن جروح حتى حطت بنظراتها على عينيه الذهبيتين وهما تنظران إليها بشرود..

لم تنطق هي الأخرى ودويّ أصوات من حولهما بدا وكأنه يخفت تدريجياً حتى تلاشى تماماً، سمعت همسته:

- ما تخافي.. أنا منيح.

أفاقت فجأة على جذبة يد لتجد "علا" تهتف بها:

- لازم نوديه مستشفى، رجله انكسرت.

حدقت في وجهها بذعر ثم عادت تنظر إليه تتفحص جسده الراقد أمامها، بدت بالفعل ساقه ملتوية بشكل لا يصح أبداً فهتفت تسأله:

- أنت متأكد إنك كويس؟.. رجلك!

وهي تشير إليها..

شعر بألم ينهش ساقه بعنف..

كيف نسيه للحظات؟.. ربما هي السبب، رقتها، ضعفها، خوفها..

تأوه بقوة وهو يحاول الوقوف معتمداً على ذراعي أحد زملائه الذي صاح فيها غاضباً:

- في حد يمشي بالسرعة دي جوا الجامعة؟.. عاجبك كده؟

ثم التفت إليه يخاطبه:

- عمار.. ما تسكتش على اللي عملته ده لازم تبلغ أمن الجامعة.

استند إليه بقوة وهو لا يزال يتطلع إليها، أجابه بحزم وصوته يمتلئ ألماً:

- مو مشكلة، زياد.. حصل خير، أنا كمان ما كنت منتبه وأنا بمشي.

ظلت تنظر إليه في قلق و"علا" تدفعها للحركة، رفع عينيه إليها فهتفت:

- والله آسفة جداً، لازم نروح مستشفى حالاً.

ألمه اشتد بعنف مفاجئ فضغط أسنانه بقوة لمحتها هي فحثتهم على الحركة مخاطبة صديقه:

- لو سمحت دخله العربية عشان نروح بسرعة.

نظر إليها "زياد" في غضب ثم عاونه على السير حتى مدده فوق المقعد الخلفي للسيارة، دخل إلى جواره بعناية جالساً على طرفه في حين عادت هي لتقود السيارة بجوارها "علا" وهي تعتذر ثانية:

- أنا آسفة قوي والله، فعلًا ما لمحتكش خالص.

أحرقت ظهرها نظرة صديقه الحانق في حين رد هو بأنين مكتوم:

- حصل خير، ما تخافي.

رفعت عينيها تنظر إليه بدهشة في مرآة السيارة الداخلية، هو المكسور المتوجع، وهو أيضاً من يطمئنها بدلاً من الصراخ في وجهها..

تنبهت فجأة لأمر ما فسألته بحرج:

- هو حضرتك منين؟

ابتسم بخفوت وهو يحبس أناته ثم أجابها:

- من سوريا.. بس نقلنا لهون بعد الأحداث الأخيرة.

علق صديقه بعنف:

- أنتِ هتعملي معاه تحقيق كمان!!.. احمدي ربنا إنه طيب، لو أنا مكانه كنت بهدلتك عشان تفتحي وأنتِ سايقة!

أتاه الرد من "علا" بصوت حاد:

- في إيه يا بني إنت محموق قوي كده ليه؟.. إذا كان هو طلع ذوق، اتعلم منه!

عقد حاجبيه غاضباً ثم صاح فيها بغيظ:

- كمان بتبجحي، يعني غلطانين وبت....

قاطعه صديقه بصوت خافت:

- خلص يا زياد، هدول بنات، ما بيصح.

التفت إليه مغتاظاً ثم رد بتبرم:

- بنات قوي، حاجة تفرس!

همت "علا" بالرد عليه مجدداً فأشارت إليها "سارة" بالصمت..

وصلوا للمشفى فانطلقت تعدو نحوها وهي تهتف بهم مطالبة بمقعد متحرك ليدخل عليه..

عادت بسرعة يصاحبها أحد الممرضين دافعاً أمامه المقعد.. عاونه صديقه على الانتقال إليه وتحركوا جميعاً للداخل..

مرت الدقائق ببطء والقلق والرعب يتبادلان نهش قلبها بعنف خاصة مع نظرات الصديق الحانقة والتي يوزعها بانتظام نحوها ونحو "علا" الغاضبة..

مر أكثر من ساعة ارتفع بعدها رنين هاتفها، نظرت إليه بقلق ثم أجابت بلهجة مرتبكة:

- أيوة يا آدم... أنا في المستشفى... لا.. لا ما تقلقش أنا خبطت واحد بالعربية جوا الجامعة ورجله انكسرت... طيب هاستناك ما تتأخرش عشان خاطري أنا مش عارفة المفروض أعمل إيه!... أوك سلام.

تساءلت "علا" بفضول:

- ده دكتور آدم؟

أومأت برأسها وغصة تقف في حلقها مانعة عنها الهواء وحابسة حروفها خلف لسانها الثقيل.. توجه نحوهم الطبيب بابتسامة مطمئنة ليتجمعوا حوله هم بلهفة:

- الحمد لله.. بسيطة، رجله هتتجبس لمدة تلات أسابيع ويقدر يروح بكرة هنخليه النهاردة تحت الملاحظة، بعد إذنكم.

ألقى كلماته ثم رحل..

بحنق شديد رماهما "زياد" بنظرات قاتلة ثم توجه نحو الغرفة التي يرقد بها صديقه فهتفت "سارة" بخجل:

- لو سمحت ممكن نطمن عليه؟

استدار إليها في غيظ، على الرغم من رقتها والخوف البادي على ملامحها لم يستطع إلا أن يشعر بالغضب الشديد، منها ومن الأحمق "عمار" الذي ترك الأمر يمر بسلام لمجرد أنهما.. فتاتان!

رد ببرود:

- هاسأله الأول.

دقيقة أو أقل مرت، امتلأت بالتوتر والارتباك قبل أن يطل "زياد" برأسه من الباب بجفاء:

- اتفضلوا.

خطوات بطيئة وجِلة، أنفاس لاهثة خجلًا، وابتسامة لطيفة تزين شفتيه لتوقف أنفاسها تمامًا..

دفعتها "علا" برفق لتدخل إلى الغرفة، فاستجابت بتشتت مع صوته المطمئن:

- اتفضلي.. آنسة ما تقلقي، أنا مكسور، ما بآذي حدا ولا بعض حتى!

ابتسمت بارتباك أكبر وصاحبتها ضحكة خافتة من "علا" التي رماها "زياد" بنظرة حانقة أخرى..

اقتربت أكثر بخطوات بطيئة وعيناها معلقتان بأرضية الغرفة.. وجنتاها محمرتان وصوتها مبحوح ضائع، تساءلت بخفوت:

- حضرتك عامل إيه دلوقتِ؟

اتسعت ابتسامته وهو يجيب ببساطة محاولاً رفع الحرج عنها:

- حضرتي بخير الحمد لله.. اسمي عمار.

رفعت عينيها إليه فاستطرد بنفس الابتسامة:

- يعني حضرتي كبيرة شوي، أنا بدرس هندسة، وأنتِ؟

ردت بخجل:

- سارة، اقتصاد وإدارة.

بمرح هتف:

- أهلين سارة، تشرفت بمعرفتك.

ثم رفع عينيه نحو"علا" بتساؤل صامت أجابته بابتسامة:

- علا، مع سارة برده.

رحب بها بهدوء وقبل أن ينطق بشيء دوت طرقات هادئة على باب الغرفة الموارب، فرفع عينيه إليه و"زياد" يتوجه نحوه بتساؤل:

- أيوة.

ظهر أمامهم "آدم" بملامح هادئة لا تشف عن التوتر الذي يغزوه خوفاً على صغيرته "سارة"، قدم نفسه بابتسامة:

- السلام عليكم.. أنا آدم أخو سارة.

تعلقت عينا "علا" به وبوسامته التي تنضح رجولة وهدوءً مغموسًا بحنان يزلزل قلبها..

تنهيدة خافتة خرجت من صدرها بحرارة صاحبها صوت "عمار" المرحب:

- أهلا بحضرتك.

سأله "آدم" برفق:

- عامل إيه؟.. أنا مش عارف أقول إيه!.. سارة عمرها ما كانت متهورة في السواقة، إحنا متأسفين جداً، ربنا يقومك بالسلامة.

ابتسم له الشاب مطمئنًا من جديد عندما رد:

- حصل خير أخي، الغلط مو من الآنسة سارة بس، أنا كنت ماني مركز وسرحان.

هنا تدخل "زياد" بلهجة عصبية هاتفاً بحدة موجها حديثه لـ "آدم":

- أخت حضرتك كانت ماشية بسرعة ما تنفعش جوا الجامعة، عشان كده ما قدرتش تقف قبل ما تخبطه وتكسر رجله وتعمل له كدمات ورضوض في جسمه كله تقريباً.

رفع "آدم" عينيه نحوه بنظرة تقييمية..

هو من النوع حار الدماء، عصبي على الدوام، على استعداد لخوض مشاجرة بالأيدي في أي وقت، منحه ابتسامة هادئة وهو يرد:

- إحنا على استعداد لأي ترضية يطلبها الأستاذ...

كان نطق اسمه بسرعة أمراً لم تستطع منعه لتخبر أخيها به:

- عمار..

ولأحرفه التي خرجت من بين شفتيها رنين موسيقي أسكر أذنيه وهو ينظر إليها وإلى تلك الحمرة التي تسللت لوجنتيها في ثوان إثر نظرة أخيها المتفحصة.. أكمل "آدم" بلا اهتمام:

- قلت إيه يا أستاذ عمار؟

خرج من شروده بجواب بسيط:

- ولا شي، هاد قدري.

ابتسم له بحنان نبض له قلب معجبته الصغيرة وهي تحوم حوله بعينيها، رد "آدم" بعد ذلك بحزم:

- طيب.. إحنا طبعًا هنتكفل بمصاريف المستشفى كأقل واجب، و....

قاطعه "عمار" بنبرة تحمل لمحة غاضبة:

- لا طبعاً.. أنا مو محتاج حدا يعالجني على حسابه.

تقبل "آدم" غضبه في هدوء وهو يقترب منه، ربت على كتفه بحنان أبوي:

- ده حقك.. سارة غلطت ولازم تتحمل نتيجة غلطها، ومادام أنت رافض الترضية يبقى ده أقل واجب ممكن نعمله.

قبل أن يرد صدح "زياد" بعصبيته:

- عمار.. ما فيش داعي للتنازل قوي كده، زي ما قال أستاذ آدم ده حقك.

هو يفهم صديقه، ويرى ما يراه، من زاويته هو، لكنه مخطئ، لذلك كان لابد له من التدخل، وتدخله ذاك علق أربعة أزواج من العيون به.. بعضها حانق، وبعضها لامبالي، وواحد فقط تبادل معه حديثاً صامتاً كانت نهايته موافقة..

طرقات أخرى على الباب، وقبل أن يصدر إذن بالدخول كان يُفتح وتندفع منه زوبعة صغيرة تلقي بنفسها فوق الجسد المسجى على الفراش بلهفة وقلق وحب صاحبه صوت ناعم يهتف بخوف:

- حبيبي عمار.. طمني عليك، إنت بخير؟

ضمها إليه برفق مربتاً على كتفها بحنان وقع في عيني "سارة" كشوكة تخزها بألم فأشاحت بوجهها متظاهرة باللامبالاة وصوت أخيها يصلها:

- طيب نستأذن إحنا.. وأكيد هنطمن عليك باستمرار، حمدالله على سلامتك وآسف مرة تانية.

وما وصله منها لم يكن متوقعاً على الإطلاق:

- معلش يا آدم أنا هاستنى معاه شوية، أطمن أكتر لو حابب روح أنت أو ارجع الجامعة عشان محاضراتك!

عقد حاجبيه في غير فهم، أهو شعور بالذنب؟.. أم شيء آخر صغيرتي؟.. والمكسور يتابعها بعينيه في حيرة ممتزجة بلهفة صاحبتها نبضة متفلتة في انتظارجواب..

رد "آدم" مخفياً دهشته:

- طيب هاعدي عليكِ قبل ماروح الشركة عشان أروحك.

أجابته بسرعة:

- عربيتي معايا.. كمان شوية هابقى أروح ما تقلقش عليَّ.

ثم التفتت لصديقتها مكملة بحزم:

- علا.. روحي أنتِ مع آدم عشان المحاضرات، ما ينفعش نضيعها إحنا الاتنين.

ورغم لهفتها للذهاب معه ردت على صديقتها:

- لا يا سارو أنا هافضل معاكِ.

عادت تزجرها برقة:

- لولو.. مش هينفع، النهاردة ضروري حضور المحاضرة مهمة ومش عاوزين نفوتها، احضري أنتِ.

في غضون دقائق تم الأمر..

رحل "آدم" بصحبة مجنونته وقلق يتسلل إليه من انفراد سيدوم ولو لدقائق لن تطول..

بقيت "سارة" مع المجبر الممدد في فراشه وبين ذراعيه فتاة أقل ما يقال عنها أنها فاتنة.. تضمه بلهفة يبادلها هو بحنان وحب نغز قلبها وجعاً وعقلها دهشة..

فلمَ تهتم؟.. ولمَ تتساءل من هي؟..

وكأنه قرأ مشاعرها بوضوح على صفحة وجهها الصافية فابتسم بهدوء مجيبا لسؤال لم تجرؤ على طرحه:

- ديما إختي الصغيرة، معك بالكلية، سنة تانية.

وببلاهة غريبة علت شفتيها ابتسامة حلقت بقلبه عالياً وهي ترد بصوت رقيق خجول:

- أهلاً ديما، أنا آسفة جداً إني كنت السبب في اللي حصل للأستاذ عمار.

صوته وصلها أولاً قبل رد شقيقته بنبرة ودود:

- عماروبس.. ما في داعي لإستاذ، ولو مصرة فيكي تناديلو باشمهندس.

ألقى جملته وابتسم، حمرة رقيقة غزت وجنتيها لتتسع ابتسامته مع صوت "زياد" ونظراته الماكرة وهو يقول لصديقه مداعباً:

- ماشي يا باشمهندس، هالحق أنا السيكشن عشان ضروري ما يضيعش مننا إحنا الاتنين وهاعدي عليك وأنا مروح.

نقل ابتسامته لصديقه الماكر وفهم عينيه فوراً فالتوت شفتاه مع حاجب واحد مرفوع بتهكم يخبره فقط وببساطة

"ارحل يا ممل، ليس هذا من شأنك"

وفهم الصديق فضحك بخفوت ورحل، تابع هو رحيله ثم عاد بعينيه للصغيرة المرتبكة والتي لاتزال تقف بنفس المكان قرب باب الغرفة لم تفارقه بعد، منحها ابتسامة مطمئنة شاغلت عينيها وهو يشير بهدوء نحو مقعد قريب:

- اتفضلي اقعدي آنسة سارة، رح تبقي واقفة ولا شو؟

وتغيرت ابتسامته لتحمل لمحة تسلية أخجلتها وشقيقته تتساءل:

- شو صار بالظبط عمار؟

كانت تجاوره على فراشه فربت على كفها برفق مجيباً:

- ما في شي ديما حبيبتي.. ما تقلقي، كنت ماشي سرحان ومو مركز، وآنسة سارة ما لحقت توقف السيارة بالوقت المناسب لما طلعت قدامها فجأة.

استدارت نحو "سارة" التي توجست خيفة، نظرت إليها لثوان بلمعة غاضبة سرعان ما انمحت من عينيها وهي تعود لمحادثة شقيقها بحنان:

- طيب هلا إنتَ منيح؟.. بك شي؟

عاد يربت على كفها وهو يلقي نظرة على "سارة" الصامتة القلقة ثم رد:

- الحمد لله.. ما تخافي، كسر بسيط.

عادت تتساءل بتوتر وصوت خافت:

- يعني متى فيك تنزل شغلك؟

ألقى نظرة سريعة على "سارة" ثم أجابها بخفوت:

- ما تقلقي.

استشعرت "سارة" الحرج، يبدو أن شقيقته تريد محادثته على انفراد وهي جالسة متجمدة في مقعدها كلوح من الخشب الصلب، نهضت واقفة بسرعة:

- طيب هاسيبكم براحتكم، هافضل برا شوية لو احتجت حاجة نا....

هتافه الرافض فقط أوقف الكلمات في حلقها:

- لا خليكي، ما تروحي.

وبعدها توتر، ارتباك، خجل، دهشة فصمت، تنوعت بينهما وتوزعت على أطراف الحضور حتى أخته المستغربة، بعد تمالك للهفته التي لا تزال تغزوه بلا سبب واضح يفهمه استطرد بهدوء:

- يعني ما في سبب تستني برا، لو حابة تروحي اتفضلي بس ما تقعدي لحالك برا.

أومأت برأسها في صمت وهي تجد جسدها لا إرادياً يعود باستكانة ليسكن نفس المقعد الذي غادره منذ ثوان بهدوء وخجل..

ابتسم هو وطمأن شقيقته بعينيه وبنبرة رقيقة أرسل لها هي الأخرى برسائل اطمئنان مغلفة بحنان ومداراة، لكنها على الرغم من ذلك وصلتها بوضوح.

بقيت معهما لوقت لم تحسبه، تعرفت إليهما أكثر وحادثت شقيقته في أمور عدة أثناء نومه بمفعول مسكن حقنه به الطبيب ليحجم من آلامه..

عرفت عنهما بعض الأشياء، وكيف استقر بهما الحال في "مصر" مع والدته فقط..

كانت متحفظة في البداية تُقطِّر حروفها جواباً على أسئلتها بجفاف أحرجها، ثم شيئاً فشيئًا حدث التقارب المتفهم بينهما، لترى "ديما" كيف تبدو "سارة" على حقيقتها فهي بالفعل لم تقصد إيذاء شقيقها أو التسبب له في أي ألم بالتأكيد، في النهاية عاد صديقه أثناء غفوته فتسلم منهما مهام الاعتناء به حتى عودة "ديما" من المنزل ببعض احتياجاته ووالدته بصحبة "سارة" من جديد.

(٦)

خوف

سأرحل..

ببساطة..

لا!

بل بجنون يشبه شغف الورد الأحمر

نبض العرق النافر بجوار قلب يزأر

سأرحل..

ولكن قبل أن أرحل سأجمع اعترافاتي في حكاية

عن رجل لقنني مباديء الغواية!

سطر فوق جسدي بداية الرواية

والعودة تضمن حق السبق في ذبيحة الخطايا

سأرحل..

أتمنى..

أتألم..

وحد الوجع بات شيئاً يقتل

والعهربات صرخًا مسموعًا

العهركان فضيلة ضلت طريقها نحو قتلًا مشروعًا

العهركان وسيلة لغاية ضمنت لدربه رجوعًا

سأرحل..

ربما..

كيف؟!

أتمنى أن أرحل..

بقلم/ مروة جمال

مر أسبوع آخر وغضبه محبوس بداخله، من غيرها يقرؤه؟

هي تشعر بذلك ويحزنها لكنها لا تملك فعلًا تقوم به، في الوقت الحالي على الأقل..

نعم تصالحا، نبضات قلبه عادت تبثها اطمئنانًا في أحلامها، ودفء صدره يحيطها كما هو دومًا، لكن بقايا غضب ترتع بداخله تؤرقها..

ابتسمت بخبث، ربما اليوم تحصل على رضاه، ستبثه حبها من جديد بعد فترة طالت أو هكذا تتخيلها هي!..

لقد اشتاقت إليه بالفعل، وتعلم أنه يشتاقها، فقط غضبه في الأيام الماضية يحجب شوقه ويقيده بداخله..

وانتوت فك القيد اليوم وربما تحطيمه إلى الأبد، منذ مرض الصغير والمشادة التي حدثت بينهما وهو يتأخر في الشركة لدرجة مغيظة، يعود ليلًا بلا داعٍ، في العاشرة أو بعدها يتناول عشاءً خفيفًا ثم يغادر لعالم الأحلام بعد محادثة قصيرة عن أحداث يوم ممل آخر، لكنها اليوم ستنهي ذلك الأمر وتراضيه بشكل أفضل..

تحممت وحضرت غلالة نوم تعلم أنها ستعجبه، عطرت الغرفة والحمام وكل شيء أصبح جاهزًا..

بقي على موعد عودته ما يقرب من ساعة، ستكون أكثر من مهيأة خلالها لاستقباله بحب، وبعشاء رومانسي وطعامه المفضل، ثم تصالحه بطريقتها وربما وقتها يصفو قلبه من جديد..

عاد هو للمنزل مبكرًا قليلًا، اليوم يشعر بإنهاك يتغلغل في خلاياه بشكل حرفي، حتى عقله أرهقه التفكير وقلبه يعصره الغضب والحزن..

نعم سامحها لكنه ينتظر زيارتها القادمة والخطوة التي ستقوم بها، عندها سيستقر عقله ويهدأ قلبه..

فتح الباب بهدوء ليقابله الصمت والسكون وضوء خافت يستخدم أثناء النوم فقط..

هل نامت وتركته اليوم؟

ربما أصابها الملل من محاولات نيل رضاه التام فاستسلمت..

ابتسم بتهكم وهو يتوجه نحو غرفة الصغيرة، ألقى عليها نظرة اطمئنان ثم عاد نحو غرفته، فتح الباب برفق محاولًا عدم إزعاج الصغير النائم بفراشه في غرفتهما لتكون المفاجأة من نصيبه..

ضوء المصباحين المجاورين للفراش فقط يشعان في الغرفة بخفوت، وبعد دورة سريعة بعينيه بحثًا عنها وجدها هناك، أمام طاولة الزينة، تلتحف مئزراً.. أحمرَ اللون..

رفع حاجبيه هامسًا لنفسه في مكر:

"أحمر!!"

تنحني قليلًا وشعرها المبلل لأسفل تجففه بنعومة ورفق بمنشفة أخرى، فكر لثوان متسائلًا في عقله:

"هو النهاردة كام في الشهر؟"

ظل يتطلع إليها للحظات ثم تحرك نحوها ببطء لم تلحظه..

خطوتان أخريان كانتا كافيتين ليلمح غلالة النوم الحريرية البيضاء تستقر بنعومة فوق الفراش..

بدا حجمها صغيرا للغاية فعاد يبتسم بخبث..

وقف خلفها بهدوء وقبل أن يلمسها كانت ترفع شعرها بسرعة للخلف وهي تنتصب واقفة، تراجع خطوة متفاديًا ارتطامه بوجهه لتلتقي الأعين عبر سطح المرآة اللامع، بريق عينيه أثار مشاعرها وجعل دفئًا حميميًا يغزو قلبها، ضمها إليه بقوة ولا تزال عيناه تأسران عينيها من خلال المرآة، انحنى ببطء مزيحًا شعرها جانبًا ليلمس عنقها في خفة بشفتيه هامسًا بشغف:

- هو النهاردة إيه؟

ابتسمت في خجل ولم تجب فأتبع همسته بأخرى تصاحبها أنفاسه الدافئة على بشرتها:

- الأجازة خلصت؟

نبض قلبها بقوة وهي تومئ برأسها هامسة:

- آها..

اتسعت ابتسامته لتحمل لمحة مكر أنَّ لها قلبها الذي يكاد يقفز خارج صدرها وهو يديرها بين ذراعيه ويبثها شوقه الذي أضناه طيلة أربعين يوماً حتى أهلكه.

******

"ميت مسا يا كبير"

نطقها ذلك الصوت الأجش لتصل لأذنيه بطريقة أخرجته من شروده في غلظة..

تأفف بحنق، في كل مرة يتذكر أين هو ومن أوصله لهذا المكان يغلي دمه في عروقه..

هو يجاور حثالة المجرمين ويصادقهم كي يحيا في مجتمع ليس له فيه سند سوى ماله ليحقق به ما يصبو إليه..

عاد ذلك الصوت الخشن يطلق ضحكة أثارت تقززه وهو يستطرد:

- سرحان في إيه بس؟.. مش خلاص اتفقنا ومش فاضل غير التنفيذ، قلقان من إيه؟

استدار له ببطء يحدق فيه، ملامحه الغليظة فوق بشرته السمراء وأنفه المعقوف، عينيه الجاحظتين وشفتيه الممتلئتين، شارب تقف عليه صقور وليس صقرًا واحدًا وندبة قبيحة تعانق وجنته بطولها، أجابه بجمود:

- مش قلقان يا سالم.. سيبك من الموضوع ده دلوقتِ، هات.

قالها وهو يسحب من أصابع الرجل لفافة تبغ تفوح رائحتها بما يدل على محتواها، نفس عميق أطلقه في الهواء بعدها وهو يعود بذاكرته لعام مضى، عام من خمسة عشر عاما حكم عليه بقضائها هنا في هذا المكان العفِن، والسبب محاولة قتل وخطف..

محاميه الغبي لم يستطع المرور به من عنق الزجاجة فتركه عالقًا فيها حتى اختنق، ولأنه لم يعد هناك ما يخسره فقد قرر الانتقام..

لقد خسر الكثير بالفعل..

وهذه المرة سيضمن أن تتم خطته على أكمل وجه، وأن يخرج هو منها كشعرة من عجين لين..

لن تعلق به آثارها أو يحاسبه أحدهم عليها، سيتلبس ثوب البراءة الملائكية وهو يتلقى خبر الانتهاء ممن ألقى به في غياهب جُبّ النسيان هذا..

- كمال باشا.. خليك معانا البلد دي أحسن من غيرها!

ونفس الصوت المقرف يقتحم خلوة ذكرياته من جديد، ليلتفت إلى صاحبه مجيبًا بغلظة اكتسبها وتدرب عليها جيداً في الشهور الماضية:

- مالناش غيرها يا سالم، واللي خلقني وخلقك ما هتكمل عليهم السنة!

قهقه "سالم" وتناثر رذاذ مقزز من فمه وهو يرد:

- أنت تؤمرنا يا كبيرواحنا علينا التنفيذ.

برقت عيناه بقوة، فها هو سجين جدران وقضبان، لكنه لا يزال يمتلك ما يكفيه من السلطة والمال ليحقق ما يطمح إليه ولو بعد حين.

******

عندما وصلت تلك الطرقات المتتابعة على باب مكتبه لأذنيه تأفف بضيق، هي مرة أخرى؟

لا يدري لمَ لا يوقفها ويمنعها مما تفعله؟

مجرد طفلة تلهو وتظن الأمر مجرد لعبة، ليعود ذلك الصوت بداخله والذي يخاطبه مؤخرا مستفزاً إياه

"أهي حقا طفلة؟"

تعالت الطرقات من جديد لتخرجه من شروده فهتف بحزم:

- ادخل.

فتح الباب بهدوء وظهر من خلفه أستاذه "محمد الميرغني" بابتسامة أبوية حنون تشع على وجهه بهالة نفذت إلى قلب "آدم" مباشرة وهو ينهض بسرعة مرحبًا:

- دكتور محمد.. يا خبروبتخبط ع الباب الأول!.. اتفضل.

اتسعت ابتسامة الرجل بينما يتحرك خطوة للأمام دخولًا للمكتب وصوته يعلو بحميمية:

- طبعاً لازم نخبط الأول يا دكتور آدم، أخبارك إيه؟

صافحه "آدم" بحرارة مجيباً:

- الحمد لله يا دكتور.. وأنت عاش من شافك!.. ما تقولش كده حضرتك أستاذي وفي مقام والدي.

رد الرجل وهو يشير لشخص ما خلفه ثم يتحرك للأمام أكثر سامحًا لمن وراءه بالدخول:

- وأنت أعز من ابني اللي ما خلفتوش يا آدم، احنا موجودين أهو، أنت بس ابقى اسأل وتعالى زورني زي زمان.

وقبل أن يجيبه أشار بطريقة تعريفية لتلك المرأة التي تبعته إلى الداخل:

- دكتور آدم.. أعرفك، دكتورة إيف العامري، دكتور آدم الحسيني يا دكتورة إيف، اللي كلمتك عنه قبل كده.

اقتربت المرأة أكثر بخطوات واثقة وهي تمنحه ابتسامة أنيقة قائلة بصوت ناعم:

- أهلًا بحضرتك يا دكتور آدم، دكتور محمد كلمني كتير عن حضرتك.

بادلها "آدم" ابتسامتها وهو يلقي عليها التحية..

كانت جميلة، بالفعل جميلة، أنيقة ترتدي بذلة رسمية باللون الأسود وقميصًا أسفلها أبيض اللون، تلف على رأسها حجابًا على الطريقة الحديثة، يظهر منه عنقها الطويل وخصلة هاربة من شعر أشقر، عينان بلون غيوم السماء لامعتين بشكل ملفت، وابتسامة راقية متحفظة..

أتى جوابه مرحباً:

- تشرفنا يا دكتورة إيف، يا ترى دكتور محمد بيقول إيه عني؟

ضحك الرجل هاتفًا بلهجة مرحة:

- كل خير طبعا يا آدم، شوف عشان أسيبكم تشوفوا شغلكم.. دكتورة إيف لسه راجعة من ألمانيا من حوالي شهر، وهي بنت صديق عزيز جداً، اتعينت هنا معاك في الكلية وعاوزك تتابعها وتفهمها النظام في مصر إزاي لحد ما تتعود، إنت عارف إني بأثق فيك وهاعتمد عليك تمامًا في الموضوع ده.

أومأ "آدم" برأسه مجيبًا:

- يا خبر! طبعا ثقتك فيَّ شرف يا دكتور محمد، أنا تحت أمركم.

كان الرد منها، ناعم صوتها لكنه حازم وقوي، واثق بشكل جذاب:

- أنا كمان واثقة في اختيار دكتور محمد، ومتأكدة إن حضرتك هتساعدني فعلًا.

ابتسامته الوسيمة وصلت لقلبها فجأة عندما ارتسمت على شفتيه وهو يجيب بشيء من خجل بدا غريبًا على وجهه الرجولي الخشن:

- ربنا يعزك يا دكتورة، أتمنى أكون عند حسن ظنكم.

ربت "محمد" على كتفه بأبوة:

- أنا واثق من ده يا آدم، يلا أسيبكم تتعرفوا وتتفاهموا في الشغل ونظامه.

ثم التفت إليها مستطرداً:

- ابقي سلمي على الوالد بقى يا دكتورة إيف، وقولي له في زيارة هو هربان منها من زمان ولازم نتقابل عشان أغلبه في الشطرنج زي ما اتعودنا.

ضحكت برقة وهي تجيبه:

- حاضر يا دكتور محمد، بس على فكرة بابا بقى شاطر قوي في الشطرنج ودايمًا بيغلبني.

بادلها الرجل ضحكتها:

- طيب، حيث كده يبقى هالاعبك وأشوف بنفسي.

تبادلوا بعض العبارات الودود الأخرى ثم خرج الرجل..

ابتسم لها "آدم" بترحيب وهو يسير إلى المقعد أمام مكتبه:

- اتفضلي يا دكتورة إيف.

منحته ابتسامة رقيقة وهي تتبع إشارته لتستوي جالسة بهدوء راق، دارهو حول مكتبه ثم جلس متسائلًا باهتمام:

- ها تشربي إيه؟

هزت يدها بحركة رافضة:

- لا.. لا.. مالوش داعي أبداً يا دكتور، ما تتعبش نفسك.

ابتسم ثانية وهو يرد بود:

- تعب إيه بس؟.. ده واجب، ها إيه؟...

هزت كتفيها باستسلام:

- أوك بلاك كوفي.

اتسعت ابتسامته:

- تمام قوي، يبقى اتنين قهوة.

استدعى أحد السعاة ليحضر المطلوب وهو يبدأ معها حديثًا عمليًا حول منصبها في الكلية وطرق التدريس المتبعة في الجامعة..

استمعت هي باهتمام وسجلت ملاحظات كثيرة في ذهنها، كان حديثه لبقًا منظمًا ومرتبًا بطريقة أثارت إعجابها، خاصة أنها لم تعتدها فيمن تعاملت

معهم سابقًا، كما أنه هو نفسه مثير للفضول، وهي اعتادت أن تروي فضولها مهما كان مسببه أو دافعه.

******

تنشقت عبق القهوة باستمتاع، ساكنة، هادئة، فاتنة بلمحة حزن تضفي على ملامحها رونق خاص جذاب لأقصى درجة..

رفعت فنجانها لشفتيها وهي تسحب أنفاسًا منكهة بمتعتها الوحيدة منذ مدة ليست بالقصيرة، متعة لم تطف بخيالها سابقًا مطلقًا، أو حتى تستسغ طعمها، ارتشفت منها ببطء وهي تزدرد رشفتها بتلذذ وهدوء مغمضة عينيها في سكينة.

بالتأكيد لم تلحظه أو تلمح تطلعه المفتون نحوها، كان يراقبها منذ خرجت من مقر شركتها والذي لا يدري للآن كيف أمكنها إدارتها بل والنجاح في ذلك!

تتبعها دون أن يلفت انتباهها حتى توقفت أمام ذلك المقهى الأنيق تراثي الطابع، ظل في سيارته يراقبها من خلف زجاج واجهته وهي تتشمم القهوة، ترتشفها ببطء، تتحسس شفتيها بلسانها مستمتعة بطعمها الذي لم تذقه أمامه من قبل..

لاتزال الحمقاء فاتنة، ووجهها الخالي من مستحضرات التجميل بدا بريئًا ناعمًا وهشًا، بل وذلك الحزن المطبوع على ملامحها منحها انكساراً يوحي بالحاجة للحماية..

تستفز رجولته وتدفعه لعمل متهور لم يخطط له، الآن على الأقل، لكنه لم يتردد في الاستماع لذلك الصوت بداخله.

اتبعها، اجعلها تراك، وادرس رد الفعل على ملامحها..

ابتسم بمكر وهو يترجل من سيارته متوجها نحوها بخطى قوية ثابتة..

بين التحام جفنين وافتراقهما، وقت لذة برشفة أخرى..

ظهر هو..

بقوته، وهالته الطاغية، بوسامته الصلبة وقسوة ملامحه وعيناه اللتان تعريانها ببساطة..

غصت بقهوتها وكاد الفنجان يسقط من يدها لولا أن مد يده سريعًا يمسك بكفها التي ارتعشت بعنف.. حاولت سحبها منه فقام بالتقاط الكوب ووضعه على الطاولة أمامها ثم جلس على مقعد مجاور..

لم ينطق، اكتفى برسائل عينيه المتفحصة، وأتت همستها المذبوحة:

- أنت بتعمل إيه هنا؟

ابتسامة امتزج فيها المكر بالسخرية وقليل من الاستهتار، أتى بعدها جوابه:

- باشوفك.

عقلها يهتف بها، يحث حواسها وأعصابها على الهرب، انهضي، اختفي من أمامه، الآن، فوراً، لكن قدماها تيبستا، تصلبتا، شلل مؤقت أصابهما فلم تستطع الحركة مع أنظاره المسلطة عليها، تتفحصها، وتسخر من ملابسها التي لم يعتد رؤيتها ترتديها من قبل..

مال نحوها هامسًا بفحيح سام:

- وحشتيني.

خرج صوتها أخيراً، ضعيفا، مهزوزاً، مذعوراً:

- أنت عاوز مني إيه؟

اتسعت ابتسامته، لهفة، رغبة..

عينان قويتان تقتحمان عروقها لتجمدا فيها الدماء، ثم جواب مقتضب حار بلهجة باردة:

- عاوزك أنتِ.

اتساع عينيها المرتعب أطلق منه ضحكة استلذ فيها بكل شهيق وزفير، صمت قليلًا ثم أكمل بحزم:

- أنتِ بتاعتي، مهما عملتِ ومهما رحتِ أو جيتِ، ما فيش ليكِ مهرب مني، اتأكدي من ده كويس قوي، أنا اللي يخصني مش باسيبه... إلا بمزاجي!

استجمعت شيئًا من شجاعتها.. هل تتوسله؟.. تصده؟.. أم تهدده؟

وجدت نفسها تقول:

- طارق.. أرجوك الكلام ده مالوش لازمة، أنا دلوقتِ واحدة مختلفة عن اللي عرفتها قبل كده، كفاية اللي حصل لي، سيبني أكمل حياتي في هدوء لحد ما أموت، مش عاوزة أنكسر تاني.

مط شفتيه في تظاهر بتأثر مصطنع ثم مال نحوها ثانية مجيبًا:

- تصدقي، صعبتِ عليَّ!

هو يسخر منها، فاكتفت بالصمت، ما الذي تملكه الآن لتهرب منه؟

شعرت بضعف أكبر يغزوها، وخنوع نحو مستقبل مجهول يحثها عليه خوف يعشش بداخلها، مد أصابعه يعتصر كفها بقوة مكملًا:

- مختلفة مش مختلفة.. جديدة قديمة!.. أنتِ ملكي أنا.. ختمتك يا حبي من زمان، وعندي استعداد أثبت لك ده.. بس في مكاننا المعتاد مش قدام الناس!

تألمت، ألم في أصابعها، وقهر يطعن قلبها بعنف، حاولت سحب يدها فجذبها نحو شفتيه، وبقبلة متملكة على ظهرها وصمها من جديد بعار، بملكية، بفخ يخبرها أن لا مهرب أو فكاك منه أبداً..

تركها تنهض مترنحة تكاد تفقد وعيها رعبًا، وقف أمامها وتنحى مفسحًا لها مجالًا للعبور، تخطته ببطء، بخطوات متعثرة، شبه غائبة عن الوعي وملامح منكوبة بصدمة لذلك الماضي الذي نهض من رماده ليحرقها هو الآخر..

أمام سيارتها غشيت عينيها دموع لم تمكنها من الرؤية جيداً لتجد يده الحازمة تفتح لها الباب وتدفع بها للداخل، أغلقه ثم انحنى ينظر لها عبر الزجاج، وتبعاً لأمر عينيه فتحته ببطء ليرتكن على إطار النافذة هامسًا:

- هتوحشيني لحد المرة الجاية يا دينا!

ثم مد إبهامًا خشنا يمسح دمعة غادرت جفنها قهراً وهو يمط شفتيه متظاهراً بالأسى..

اعتدل واقفا كأنه يمنحها تصريحًا بالتحرك، استغلته هي لتهرب من أمامه كأن شياطين الجحيم جميعها تطاردها.

******

أيها البعيد كمنارة

أيها القريب كوشم في صدري

أيها البعيد كذكرى الطفولة

أيها القريب كأنفاسي وأفكاري

أحبك

أح ب ك

وأصرخ بملء صمتي:

أحبك

وأنت وحدك ستسمعني

من خلف كل تلك الأسوار

أصرخ وأناديك بملء صمتي...

فالمساء حين لا أسمع صوتك:

مجزرة

"غادة السمان"

في ورقة تحمل رائحة عشق المراهقة وجد تلك الكلمات، مخطوطة بحروف أنيقة رزينة، وقلم أحمر، تحتضنها مساحات سيارته في حرم الجامعة..

هل يمكنه أن يخمن؟.. أم يطرح الأمر جانبًا ولا يهتم، أو يتسرع، فور جلوسه بداخلها وفضه لتلك الورقة ومع أول أسطرها قفزت هي لعقله.. بزمردتيها اللامعتين ونظراتها التي يفهمها جيداً لكنه فقط يستنكرها..

هل قررت الإفصاح الآن عما بداخلها؟.. وماذا إن كان الأمر كذلك، هل سيتحمل مواجهة؟،، يجرحها، يهينها، أم فقط يوضح لها الأمر كأخ أكبر!.

طرقات على زجاج الباب البعيد عنه أخرجته من شروده، وفور أن وقعت عيناه عليها ارتسمت على شفتيه ابتسامة ودود وهو يترجل من السيارة مرحبا:

- دكتورة إيف.. إزي حضرتك؟

اعتدلت مجيبة بابتسامة رقيقة:

- تمام الحمد لله يا دكتور آدم، أخبارك؟.. فاضي يا ترى ولا كنت مروح؟

رد بسرعة:

- لا تحت أمرك.. خير؟

أشارت نحو مبنى الكلية:

- طيب ممكن نتكلم في مكتبك، استشارة فنية!

وأطلقت ضحكة خافتة ناعمة استجاب لها بابتسامة واسعة وهو يتبع خطواتها.

******

أحيانًا تفكر ما بها حقا؟

منذ متى كانت رعناء، تتصرف بطفولية وغباء بل وجنون!

هو مختلف نعم بكل تأكيد، لكنه لا يناسبها أبداً..

حتى وإن شعرت بذلك، أهلها، والدتها المصون وأبيها الغائب لن يتنازلا ويمنحاها رضاهما..

فارق العمر، المركز الاجتماعي..

هي من أسرة متوسطة، لم تحتج في يوم لشيء بشكل قهري، أو تضطر للإدخار بحرص شديد..

والدها يعمل خارج البلاد منذ انفصاله عن والدتها، لا يحرمها مما ترغبه ولا يرفض لها طلبًا، لأنها حبة عينه، لأنها قطعة من حبيبته التي تركته، لكنها على الرغم من ذلك تشعر به ناءٍ عنها، يدللها نعم، لكن احتواءه الأبوي المنكه بخشونة الرجال لم تنله يوماً..

استلقت للخلف مستندة إلى فراشها، بيد وضعت القلم بين شفتيها وبإصبع اليد الأخرى التقطت إحدى خصلات شعرها الفاحم الطويل تلفها عليه في شرود..

قد يعوضها "آدم" الكثير، فهو يصلح لكل الأدوار، تتخيله عاشقًا رائعًا، يسمعها كلمات الغزل، ربما بالفرنسية أو الإنجليزية الكندية، يتمتم في أذنيها بقصائده فتغمض عينيها بتنهيدة حب..

ومرة أخرى أبًا حنونًا باسمًا، كلما تذكرت عيناه، بحر من الرقة تحوطك بدفء تلقائي لذيذ، تسري في جسدها قشعريرة كلما تلاقت مع عينيها، ثم تترك لنفسها العنان لتغوص في بحر العسل لديه، على الرغم من تهربه دومًا منها..

علت شفتيها ابتسامة وهي تتذكر طريقته، أحيانًا جدي لدرجة البرود، وأخرى دافئ رقيق مراعي، اليوم تجرأت وتركت له رسالة، ربما ليست من حروف قلبها، لكنها تعبر عما به، بحبر أحمر..

الآن أضحت كمراهقة حمقاء وقعت في حب أستاذها، تطارده بجنون، وترسل له خطابات العشق، اتسعت ابتسامتها وهي تتذكر وجهه بعد قراءتها، ذهول، تفكير، شرود ثم اهتمام، ربما أخيراً سيتقبل، هو يعلم، يفهم، هي واثقة من ذلك..

زمت شفتيها حانقة عندما تذكرت تلك المرأة نصف الألمانية الجديدة، اقتحمت خلوته مع حروف قلبها وأخذته بعيداً..

هي جميلة نعم، لكنها باردة ولن تمنحه أبداً دفء الأنثى الشرقية حتى النخاع مثلها، جنون شبابها، ولهفة المراهقة التي ستحير عقله وتذيب قلبه معها للأبد..

أمسكت بدفترها الصغير، قلمها الأحمر الذي استقر لدقائق بين شفتيها وانحنت قليلًا تخط بحروف أنيقة على صفحة بيضاء..

بجنوني أنثى شرقية..

وعشقي حمم بركانية

هل تخشاني؟! تهرب!..

ربما تحاول.. لكن مَن ستتيح لك الخيار؟

رجلي أنت رُغم الخوف، والتردد

رُغم دهشة تملأ جفنيك وقت عناق الأعين

رُغم قلق يعتريك من قلب بريء يحتويك

رُغم أنني أنثى صغيرة

لكنني وبعشقي، سأقتحم خلوة أفكارك

أهدم معبدها فوق بقايا عقلك

وأشبعه بجنون أبدي.. لن تفيق منه أبداً

آدمي.. أنا حواؤك..

بقلبي مسكنك.. ومعي جنتك..

وتفاحتي لن تخرجك منها

بل فقط ستسكرك.. ثمالة هواي هي مختلفة

فلا غوث منها ولا مهرب ولا إفاقة..

إنما غوص وأصفاد تكبلك بغيبوية غرامي..

سأكتب فيك شعراً وأتلو عليك قصائدي

وفي المقابل..

سأنال منك..

قلبك.. يليه عقلك..

ثم خلاياك خلية خلية

وأعصاب جسدك عصبًا عصبًا

حتى تفقد الإحساس إلا بي أنا..

حواء جنونك..

أغلقت الدفتر، ثم وضعته على طاولة بجوار الفراش، واستلقت في وضع استعداد للنوم، تنهدت براحة، وبعينيها بريق امتلاك، أوربما احتياج.

******

تعلقت عيناه بالحروف الحمراء مجدداً..

هي تقرأ إذاً، وتتذوق الشعر، ودون قصد اختارت إحدى المفضلات لديه، بنسبة أكثر من ثمانين بالمائة واثق أنها هي، صغيرته المفتونة، ابتسم بمرح

وهو يتخيلها تتسلل، خطوات مرتابة، أنفاس محسوبة، لفتة يمينًا ثم يسارًا، تدس الورقة يلي ذلك هروب..

ضحك بخفوت وهو يقرأ قصيدة "غادة" أو ذلك الجزء الذي انتقته منها، تلاشت ضحكته ببطء، الإدراك يعود إليه، لا ينكر تأثره بطريقتها، باندفاعها، بمرحها وبرائتها وشقاوتها، لمحة الجرأة التي تمتلكها أيضًا تثير فضوله بشدة..

ترى ما خطوتها التالية؟،، وما هو رد الفعل المناسب لها؟

عاتب نفسه..

أنت مجنون!.. كيف تفكر في طالبة صغيرة أنت أستاذها؟

ثم عاد يعترف..

هي مختلفة بالتأكيد، فيها شيء ما يمنعه من تعنيفها، توضيح الأمر لها وإيقافه لهذا الحد، يود لو يعرف ما يحدث له حتى لا تتعلق الصغيرة به أكثر..

أيبادلها شيئًا ما؟

لا.. لا.. هذا جنون..

إنها في سن أخته الصغرى، طالبته، أهي متعة غريبة بافتتان فتاة جميلة به كرجل!..

شيء ما لم يحظَ به منذ زمن، منذ وفاة زوجته..

عند هذه النقطة من أفكاره، انزاحت كل الصور وتعاظمت صورتها هي لتحتل كيانه..

لم يكن ما بداخله نحوها حبًا، اعترف بذلك أكثر من مرة..

هي!

أخبرته بحبها، في كل لحظة بينهما كانت تشدو بها في أذنيه كلحن عذب، ناعم ورقيق، ويتقبله هو بابتسامة وقبلة تخرسها كي لا تسأل عما بقلبه هو، يعلم أنها تدري بمشاعره، دوما كانت أدرى به من نفسه، ربما لهذا تعلق بها، تعلق محموم أشبه بطفل وأمه، أكثر من عاشقين أو حتى زوجين.. هي منحته ما لم يمنحه أحد إياه، الدفء، الاحتواء، والسكن إلى أنوثتها فأصبحت هي نصفه المتمم له، ومضى هو عهداً بذلك..

حتى رحلت، فقط تركته و ذهبت بلا عودة، لكنها قبل الرحيل تركت له قطعة تذكره بها، بعينيها الزرقاوين النجلاوين، شعرها الكستنائي المائل للشقرة، وبشرتها الوردية الناعمة..

"يوسف" صغيره ودنياه الواسعة..

أحيانًا يشعر بالخيانة عندما يفكر بـ "لمياء" وقراره باتخاذها زوجة له وأمًا لطفله، لا ينكر أن ذاك القرار به الكثير من الأنانية..

يعلم أنها ظلت لثماني سنوات زوجة ولم تحظَ بطفل حتى أخذ زوجها الخطوة وناله من غيرها، محطمًا قلبها في الطريق دون انتباه أو اهتمام، لذلك تلائمه هي، سيحظى صغيره بأم متعطشة لممارسة أمومتها، لن تنجب له أطفالاً آخرين ثم تغدق عليهم حبها وتنسى اليتيم الوحيد، وربما تكرهه في يوم ما، وتضطره للهرب منه كما هرب هو من والده..

أهي أنانية؟.. أم خوف؟.. أم احتياج وصل حد الهوس!!..

احتياج لاحتواء لا ينضب أكثر من حب، أكثر من زوجة أو أنثى، تعويض يطالب به من كل من تمر بحياته، عن أيام، سنوات، دقائق وثوان ذاق فيها طعم الغربة المر وتغلغل بردها في عظامه!.

ونقطة أخرى توقفت عندها أفكاره، ليست أنانية، هو يعلم كم هي رائعة، حنون، قوية وصلبة، حتى لو رُزقت منه بأطفال، لن تتغير، الأمومة بداخلها ليست مجرد غريزة حرمت من إشباعها، بل مخدر أدمنته يسري في دمها ولا شفاء منه، وهي تمتلك منها ما يكفي لمليون طفل، فما بالك بالأقرب منها، فقط لو توافق، ليتها توافق، تمنحه شيئًا من الراحة هو في أمس الحاجة إليها، تنقذه من صغيرة تثير جنونه قبل أن يصبح مجنونًا بالفعل.

******

"باشمهندس زياد!"

انطلق النداء الرقيق المتوتر باسمه في لهفة واضحة صاحبه لهاث، استدار محدقاً في صاحبته التي فقدت وقارها تمامًا وهي تقترب شبه راكضة..

توقف رافعًا أحد حاجبيه في استهجان لطريقتها..

حمقاء صغيرة ثرية، اقتربت منه بسرعة لتتوقف أمامه بوجنتين محمرتين، أهذا خجل يا جميلة؟

سخر بداخله، ترددت قليلًا وهو محتفظ بصمته كأنه يريد إثارة غيظها فحسب، سألته بخفوت:

- إزي حضرتك؟

أجابها بابتسامة باردة وهو يلاحظ ذات اللسان الذي اقتبس منه السوط طوله وسرعته وقسوته واقفة على مسافة قصيرة تنتظر صديقتها المدللة الصغيرة كأنها تحميها منه:

- الحمد لله تمام، خيريا آنسة سارة؟

توترت وساد الارتباك فوق ملامحها أكثر، عاد صوتها يصله متردداً:

- كنت عاوزة أطمن على الباشمهندس عمار، أصل ديما بقى لها يومين ما جاتش الكلية وقلقت عليها يعني.

رد متفكهًا:

- طيب ما تكلميها.

رفعت عينيها إليه في حيرة مغمغمة:

- أكيد حاولت، بس موبايلها مقفول، مش عارفة أطمن عليها أو على....

قاطعها بعجلة:

- هما كويسين الحمد لله ما تقلقيش.

سألته بإلحاح غريب:

- طيب هي ديما كويسة؟.. لأنها ما جتش إمبارح ولا النهاردة وقلقانة عليها.

هز رأسه بملل، أخرج هاتفه ليجري اتصالًا سريعا أمام ناظريها، ودهشة تغمر ملامحها، تأملها هو ساخراً، رفع الهاتف لأذنه حتى وصله الرد:

- إزيك يا كبير؟ عامل إيه؟.. طيب الحمد لله.. بأقولك هي ديما ما جاتش الكلية النهاردة ليه؟... آه.. آه... أبداً الآنسة سارة قلقت وبتسألني عليها لأن حاولت تكلمها وموبايلها مقفول... حاضر يا سيدي..

نطق جملته الأخيرة ممتزجة بضحكة ماكرة ونظرة لعوب نحو المتصلبة أمامه في ذهول ثم مد يده بالهاتف إليها..

ازداد ذهولها وهي تنقل بصرها بينه وبين الهاتف لثوان وقد شُل تفكيرها تماماً، رفع حاجبيه باستخفاف ولم يقل شيئاً، مدت يدها تلتقطه منه، وعلى أذنها همست خشية سماع الصوت الواصل إليها من الطرف الآخر:

- أيوة..

صوته يدل على ابتسامة، رقة، وحنان غريب:

- كيفك آنسة سارة؟

ارتبكت بشدة، ضاع منها الجواب للحظة والساخر يتفكه على توترها مراقباً كالصقر، خفضت عينيها أرضاً وهي تجيب بخفوت:

- الحمد لله تمام، إزي حضرتك يا باشمهندس؟.. وإزي ديما؟

ضحكة قصيرة وصلتها أربكت دقات قلبها، أتاها بعدها صوته ثانية:

- نحنا مناح الحمد لله، شكراً على سؤالك ،حتى لو موعني.

كاد الهاتف يسقط من يدها مع جملته الأخيرة، ازدردت لعابها كغصة وهمست من جديد:

- لا طبعاً أنا كنت باطمن عليك من ديما، بس لما غابت قلقت وكده.

ضحكة أخرى، ثم صوته مطيباً خاطرها:

- ما يهمك، نحنا بخير، ديما مرضانة شوي، وغالباً موبايلها خلصان شحنه لأنها نايمة من مبارح ما عم تقدر تتحرك.

شعرت بالقلق فهتفت:

- يا خبر، سلامتها، طيب هي عاملة إيه دلوقتِ؟

وجوابه حنون:

- منيحة الحمد لله.. ما تقلقي.

تنهدت براحة، وأنهت سريعاً، فقد بلغ توترها أوجه:

- طيب الحمد لله.. اتفضل معاك الباشمهندس زياد.

وألقت الهاتف في يده لتفر هاربة من أمامه بوجه محمر، وقلب يدق في صدرها كطبول حرب أفريقية.. استقبلتها "علا" بوجه متجهم، سألتها بحدة:

- كنتِ بتكلمي مين يا سارة؟

ردت بارتباك ودون انتباه:

- عمار!

اتسعت عينا "علا" ثم هتفت بعصبية:

- إزاي تكلميه؟.. كان عاوز إيه هو كمان؟.. مش كفاية البارد اللي صممتِ تسأليه على ديما!!

أجابتها بتوتر دون فهم:

- مالك يا علا؟.. أنتِ متضايقة ليه؟.. وبعدين هو كلمه عشان يسأل على ديما، فتقريباً عمار هو اللي طلب يكلمني، دقيقة بس اطمنت عليها وخلاص.

رمقتها بشك، هي أدرى بصديقتها، لم تبتلع الحُجة، وجهها المحمر، ارتباكها، خجلها، هناك شيء ما يحدث بين ضلوعها، داخل قلبها البريء، وهي تخشى عليها بشدة.

******

"يقول الرجل في المرأة ما يريد.. لكن المرأة تفعل في الرجل ما تريد"

مقولة لا يدري أين أو متى مرت به؟.. لكنه يعلم علم اليقين مدى صحتها، بالفعل هي تفعل به الأعاجيب، بقلبه الذي رَكَن إليها من أول لحظة لقاء، وبروحه التي لا تستكين إلا إلى جوارها، وبعقله المنشغل دوما بها..

عندما يغيب عنها تحتل كيانه بأكلمه، ضحكاتها، نعومتها، ابتسامة عينيها، حتى ملامحها الغاضبة بنكهة طفولية بريئة تدفع دقات قلبه للجنون..

لقد مر أسبوع منذ تصالحا،

وهي..

هي تقتله عشقاً في كل لحظة، تتفنن في إرضائه، تطوع قلبه بين أصابعها، تمتص غضبه وتلاعبه كطفلة شقية مشاغبة..

ابتسم بمكر..

ترى هل الليلة ككل ليلة منذ أسبوع، ليلة حب؟

تأخر في العمل اليوم مرغما، منهك هو منذ الصباح، مراجعات، حسابات، دراسات، يكاد يفقد عقله من ذلك الكم المفاجئ من الأشغال..

فرك عينيه برفق، حتى في طريق عودته للمنزل وعلى ضوء مصباح السيارة الداخلي لا يزال يراجع بعض الأوراق الهامة..

لقد طلب من سائقه الخاص أن يقود هو هذه المرة عله ينهي العمل قبل الوصول للمنزل.

دوار مفاجئ ألم به..

أغمض عينيه بقوة، هز رأسه ليجد رعشة تنتاب جسده، منتهية في كفيه الممسكين بالأوراق..

فتح عينيه ثانية على اتساعهما وهو يزدرد لعابه ببطء، لا تزال الرعشة تكتنفه، والدوار يزداد..

وضع الأوراق بجانبه ورفع كفه أمام وجهه يتطلع إليها بغشاوة تظلل الرؤية أمامه.. ولاحظ الإهتزازة اللاإرادية فيها..

عاد يغلق عينيه ويفتحهما، لا فائدة، تلاحقت أنفاسه قليلًا، فهتف في سائقه وهو يشعر بالاختناق:

- عم إبراهيم.. وقف شوية.

توقف الرجل فوراً وهو يتطلع إليه في قلق عبر المرآة الداخلية، سأله باهتمام:

- خير يا باشمهندس؟.. إنت تعبان ولا إيه؟

لم يمكنه الرد..

الدوار يزداد وصوته ضائع، فتح باب السيارة وترجل منها مستنداً إليها وهو يتنشق الهواء البارد من حوله بقوة مغمضاً عينيه في سكون..

ترجل "إبراهيم" يتبعه، توجه نحوه بخوف، عاد يسأل بصوت متوتر:

- مالك يا باشمهندس؟.. حاسس بإيه؟

استدار واضعاً كفيه فوق سقف السيارة البارد، يستمد منه شيئا من صلابته محاولاً التماسك مانعاً جسده من التهاوي أرضاً..

يا إلهي!!.. ما به؟

الرجل يقف إلى جواره يتطلع إليه بشيءٍ من الخوف، ازدرد لعابه مرة أخرى وهو يدير وجهه نحوه مطمئناً بخفوت:

- أنا كويس يا عم إبراهيم، دخت شوية بس، النهاردة اليوم كان مليان شغل.

رد الرجل بطيبة:

- ربنا يعافيك يا بني، ما تتعبش نفسك للدرجة دي وخلي بالك من صحتك.

ابتسم له بهدوء ودواره يتلاشى ببطء، غمغم:

- ماشي يا راجل يا طيب، يلا بينا عشان أروح أرتاح.

بادله الرجل ابتسامته وهو يشير نحو عينيه بود:

- من عينيا، يلا يا بني ربنا يريح بالك.

أخذ نفساً عميقاً، ملأ رئتيه بالهواء البارد وهو يزم شفتيه مفكراً، عاد داخل السيارة والرجل يغلق بابها خلفه بهدوء..

لاحظ أن الرعشة لا تزال تكتنف كفيه وإن خفتت حدتها قليلًا، أغمض عينيه واستند برأسه للخلف على مقعده متنفسًا ببطء واضعًا يديه على ركبتيه..

فكرة مجنونة انتابته في هذه اللحظة، لم يكن وقتها أبداً لكنها اقتحمت عقله عاصرة قلبه في طريقها بلا هوادة..

أي جنون تمر به يا "أدهم" وماذا ألم بك؟

خوف ملأ صدره، فضم قبضتيه بقوة ضاغطاً أسنانه بعنف، وغضب يتسلل إليه ببطء.

(٧)

نبض جديد

أوتدرين شيئًا؟

كأن العين عندما تنظر إليكِ تتوه..

في غياهبِ عالمٍ مصنوعٍ من الحلوى..

حلوى قطنية تشبه السحاب..

لا بل تشبه الغيوم..

غيوم تسكن مقلتيكِ..

ترسل دفء الشمس..

وتلمع بنور القمر..

وابتسامة ترسم روعة اليوم فوق شفتيكِ..

شهية أنتِ..

بريئة أنتِ..

ومتيم أنا..

ودون علمي يا صغيرة..

ضعيفة، حمقاء، لا تقدر إلا على الإستسلام، لا تعلم لمَ هي هكذا؟.. هذه ليست ابنتها الفاتنة، الواثقة بنفسها وفتنتها حد الغرور..

وقفت تتطلع إليها جالسة على فراشها، منامة قطنية طفولية، تضم ركبتيها إلى صدرها وتحيطهما بذراعيها، رأسها يستند إليهما وعيناها تحدقان في الفراغ، اللاشيء..

نوبة اكتئاب أخرى..

هذه هي الثانية خلال شهر..

اعتكاف في غرفتها المغلقة، لا عمل، لا اهتمام بشيء..

فتحت باب الغرفة أكثر ثم اقتربت منها بخيلاء

لم يتحرك جفنا الابنة..

الصمت هو مسلكها، والشرود طريق ضياعها..

وقفت إلى جوار الفراش وهتفت بحدة:

-أنتِ قاعدة كده ليه؟.. بقى لك يومين مش بتنزلي الشغل، مين هيهتم بيه؟

لم تتحرك، بل لم ترف بجفنيها حتى، إيقاع تنفسها المنتظم كأنها في غيبوبة لم يتغير، هزتها الأم من كتفها بشيء من العنف، وكأن شيئًا لم يكن..

ازداد غضبها فألقت بصدمتها في وجهها:

-أونكل رشدي طلبني للجواز، وأنا وافقت!

لمعة عينيها أنبأت الأم أنها سمعت، انتبهت، فطرقت الحديد وهو ساخن مستطردة:

- لما نتجوز، خلاص خليكِ أنتِ مكتئبة وهو هينزل يدير الشركة بدالك.

دموعها انهمرت بحرقة، قلب أمها جاف، قاس، لم تأبه لدموع ابنتها الصامتة بل نظرت إليها بقسوة، جذبتها من ذراعيها بعنف لتواجهها، صرخت فيها:

- دينا.. فوقي وكلميني، هتفضلي لحد إمتى كده؟

نشيجها بدأ يظهر..

ابتسمت الأم بانتصار، فقد تحرك الحجر المصمت، سألتها ببرود:

- حصل إيه عشان ترجعي لحالتك دي تاني؟..Tell me.

تركتها فاتخذت هي وضع الجنين، ودموعها تنهمر في صمت..

ماذا تقول؟

لقد عاد الماضي من جديد..

لن أهرب، فلا مهرب، طوقه سيبقى يحيط بعنقي حتى أختنق، أموت، أدفن، وأترك سيرة الفضيحة من خلفي..

يريدني، عشيقة بدوام كامل، أو ربما جارية اشتراها يوما بغشاء عذرية انتهكه فامتلكها، فعذرية جسدها لا تعلم متى أو لمن فقدتها!!

هو كان الأول، ويريد أن يكون الوحيد أو غالبًا الأخير..

ماذا إن استسلمت؟.. ماذا سأفقد؟.. وما هي مكاسبي؟

أمان!!

من أي نوع؟

هل أرحل عن الدنيا؟

أريح وأستريح..

تنهيدة حارة ونبرة قاسية، صلابة خارجية وقشرة اختفت خلفها وهي تهمس من بين أسنانها:

- ماحدش له دعوة بشركة داد، عاوزة تتجوزي أنتِ حرة، بس ما تفكريش أنتِ أو هو إنه ممكن يدخل من باب الشركة حتى!

قالتها، محتفظة بدموعها، بوضعها، بأنفاسها الضعيفة، لكن أمها.. ابتسمت، لاتزال ابنتها حتى وإن ابتعدت عنها أو تلاهت، أخرجتها من موجة الضعف، وستنهض لتعود، مسحت الابتسامة بسرعة، ثم بلهجة باردة ردت:

- والله يا دونا لو مش عاوزاه يروح الشركة، روحي أنتِ، work as usual.

بظهر كفها كطفلة مسحت دموعها، اعتدلت جالسة، هتفت آمرة:

- طيب ممكن تسيبيني لوحدي دلوقتِ، بكرة هانزل الشغل ومحتاجة أنام بدري.

هزت والدتها كتفيها بلامبالاة، على عقبيها استدارت مغادرة.. لتعود كسيرة الفؤاد لنهر دموعها، ألمها، وجعها، خوفها، وقلة حيلتها.

******

دوماً البراءة علامة فارقة، جميلة، مضيئة، هالة تحيط بالأنثى فتجذب الرجل كما تنجذب الفراشة للنيران، إما يحترق بحب، أو يذوي بغدر..

هالتها هي مختلفة، حقيقية، رقيقة وخجول لأقصى درجة، تكاد الأعين لا تتقابل إلا لثوانٍ، ثم تكتنف الحمرة وجنتيها فيبستم هو..

قلبه الأحمق يدق بين جنبيه بعنف وقتها، وأنفاسه تستعصي على الدخول إلى رئتيه.

شهر مر وهي تعمل معه بجد ونشاط، تتعلم بسرعة، تكتسب الخبرات، يثني عليها فينال حمرة جديدة، ثم دقة قلب زائدة متفلتة من عقال دقاته، وابتسامة تشع كشمس صغيرة تشق شفتيها الرقيقتين..

كان يراقبها منذ خمس دقائق، دفتر كبير أمامها، تتصفحه، تراجعه مع آخر أصغر، تدون بضع كلمات بخط صغير دقيق، تتنهد، تزم شفتيها، تحتار، تبرق فكرة بذهنها فتستنير ويتألق وجهها بابتسامة انتصار، ولا إرادياً تبادلها شفتيه الابتسامة.

اقترب من مجلسها خلف المكتب الصغير في ركن المكان، تأملها لثوانٍ أخرى دون أن تنتبه لاقترابه الهادئ فاتسعت ابتسامته، نبهها لوجوده بشيء من المرح:

- هييه.. إيه أخبار الشغل معاكِ؟.. لسه برده حاسة بصعوبة الموضوع؟

ابتسمت بخجل طفيف وهي تجيب بحماس لمعت له عيناه:

- الموضوع بقى أسهل طبعاً.. بصراحة في البداية أنا كنت مستصعبة الموضوع قوي، أنه يكون ترتيب الأدوية في الصيدلية حسب استعمالها ترتيب نادر شوية، أغلب الصيدليات بيكون ترتيب الأدوية فيها أبجدي.. و....

قاطعها بعملية:

- وده بيسهل الأمر على أي حد سواء صيدلي أولاً، أي حد بيعرف يقرا شوية إنجليش بيقدر يصرف نفسه، لكن طريقتنا هنا بتخلي التعامل يكون مع صيدلي فاهم، وده اللي بيفرق، إنه يقدر يتعامل ويرد على أي سؤال من المريض وكمان ينصحه إذا احتاج..

وافقته:

- عندك حق جداً.

لاحظ ترددها وفركها ليديها بتوتر فسألها:

- خير!.. شكلك عندك كلام؟

أومأت موافقة ثم أجابت بخجل:

- أيوه.. إمبارح ظهرت نتيجة التكليف على النت.. وكده...

قاطعها متسائلاً:

- التكليف!.. معقولة هدفك وظيفة حكومية ومكتب؟

شعرت ببوادر غضب خفي فأجابته بانفعال مدافعة:

- وإيه المشكلة!.. أنا ليَّ زمايل كتير بيشتغلوا في مستشفيات ووحدات صحية ومش واخدين الموضوع على إنه وظيفة ومكتب، ثم زي ما حضرتك عارف،

أنا بكالوريوس صيدلة إكلينيكية، مش صيدلة عادية، يعني الطبيعي إني شغلي في مستشفيات، و...

قاطعها بضحكة هادئة:

- خلاص يا أسيل، هدي نفسك، أنا ما كنتش أقصد ده كله، وعلى العموم أنا هظبط مواعيدي عشان تناسب مواعيد شغلك ونرتب ساعاتنا مع بعض، أنا ما يرضنيش أخسر دكتورة شاطرة ومتحمسة زيك كده، تمام ولا إيه!..

بخجل من انفعالها السابق عليه وتفهمه هو لوضعها اعتذرت هامسة:

- آه تمام، أنا آسفة.. ما كانش قصدي أنفعل كده على حضرتك يا دكتور حسام.

غمغم بلوم:

- حضرتك!.. ودكتور!.. طيب..

خفضت عينيها في خجل، نعم تلمح نظراته، تفهم تلميحاته، تشعر بشيء مختلف، هو لم يقل شيئاً، وعندما يقرر الحديث لا تدري ما يمكنها قوله فعلاً!

كان يتفرس في ملامحها ووجنتيها المحمرتين بطريقة أثارت جنون قلبه..

شهر مر، شهر طويل وهذا يكفي!

فوجيء بلسانه تتسابق الحروف عليه قبل أن يمسك بلجامها ليتساءل بغباء:

- أسيل..أنتِ مرتبطة؟

للحظة تجمدت وتجمد هو في المقابل..

ما هذا الذي نطق به، سؤال مراهقين أحمق!!

ويلي!!.. ربما تفهمه بطريقة خاطئة أو تنزعج، قبل أن يشرد أكثر في حواره مع نفسه أتته هزة رأسها النافية الخجول لينسى ما كان يفكر فيه وينسى نفسه، بل وينسى الزمان والمكان.

******

قلبها تغير بالتأكيد، لاتدري ما به، لا تفهم ما به، ولا تصدق ما تتوقع أنه حدث..

هي مرحة، مشاغبة، إنما عقلانية، لا تفكر بهوائية أو اندفاع، طفلة أحيانا، لكنها أنثى طوال الوقت، وله فقط، أرادت أن تمنح أنوثتها..

نظرة ذهبية، لحية نامية، خصلات بنية طويلة نسبيا وناعمة، جسد قوي كأنه يمارس رياضة ما أو عملًا يتطلب مجهوداً عضليًا شاقًا..

وسقطت هي في بئر ذهب عينيه.

شاردة بين أسطر كتابها، لا تلمح الحروف أو ترى الأرقام، فقط تلك اللمعة التي سرقت من الشمس دفئها بين جفنيه هي ما تطاردها، صوته الرخيم الهادئ، نبراته الحنون المتفهمة، وابتسامته، حتى لهجته المختلفة..

همست بنعومة

"تئبر ألبي"..

ثم ابتسمت بحالمية.

من بين أحلامها به، انتزعها صوت هاتفها المزعج بنغمة صديقتها، تأففت بغيظ، التقطته تنظر إلى الاسم في حنق، ستؤنبها ثانية، كما فعلت بالأمس عندما حادثها مطمئنًا..

أجابت بهدوء فأتاها صوت "علا" متطلبًا وبلهجة آمرة:

- سارة.. انزلي قابليني في سيتي ستارز، عاوزاكِ ضروري!

تساءلت في دهشة:

- خيريا لولو أنتِ كويسة؟

أتاها الجواب بتململ:

- كويسة يا سارو.. عاوزة أطلب منك طلب مهم، يلا تعالي.

وأنهت المكالمة بسرعة، رغم دهشتها أسرعت إليها، طوال الطريق تتساءل عن الخطب!..

استقبلتها "علا" بلهفة، وبعد استقرارهما في أحد المطاعم هناك، بادرتها بطلبها المفاجئ:

- سارو..عاوزاكِ تكلمي دكتور آدم إني أتدرب معاه في الشركة، بجد محتاجة تدريب عملي لأني عاوزة أشتغل بعد ما نتخرج على طول!

بدهشة واضحة لم تحاول إخفائها تطلعت إليها "سارة" وبدون مواربة سألتها بحزم:

- علا..أنتِ عاوزة تدريب بجد؟.. ولا عاوزة تقربي من آدم؟

وذلك الارتباك الذي أصاب ملامح الصديقة المتنمرة أعطاها الجواب دون حاجة للفظه، توترت قليلاً ثم أجابتها بخفوت:

- الاتنين يا سارو، مش هاكدب عليكِ!

تنهدت بعمق، لا تعلم ما تلقي بنفسها فيه، ربتت على كفها الموضوعة على الطاولة، وبجدية ردت:

- علا..آدم ما ينفعكيش، أولًا فرق السن، ثانيًا وجود يوسف، ثالثًا آدم تعب كتير في حياته واتغرب لأسباب مش هاقدر أقولها بس كانت صعبة ومؤلمة، آدم مش محتاج جنونك، آدم محتاج يرتاح.

نظرة عينيها بها ألم، الكثير منه، همست:

-لو زي ما بتقولي.. يبقى محتاج جنون فعلًا، محتاج يعيش صح، يعيش حياة اتسرقت منه واتغرب فيها بدل ما يعيشها زي اللي في سنه، وفرق السن ما يهمنيش، المهم إن جوايا حب يكفيه ويسعده، ويوسف ماله، أنا لسه ما شفتوش بس أكيد هنبقى أصحاب.

بصراحة ثانية وجدية أكبر أخبرتها:

-يوسف محتاج أم.. وآدم محتاج احتواء، أنت بطريقتك دي بتظلمي نفسك وتظلميه، آدم مش هيعيشك الحياة اللي واحدة في سنك محتاجاها، وأنت هتحولي حياته لزوابع.

رفعت "علا" حاجبيها في دهشة، أتخشى على أخيها منها هي!..

صديقتها المقربة والوحيدة؟!!

لن تستسلم أو تصمت، أسرعت تنفي:

- سارة.. أنا مش فاهماكِ!!.. آدم بالنسبة لي هيكون حبيب وأب وأخ، حاجات كتير اتحرمت منها هيعوضها.. وأنا هاعيشه شباب، حياة هو كمان اتحرم منها، أنا مش فاهمة أنتِ بتفكري إزاي؟

تنهدت "سارة".. تعلم عناد صديقتها، وفي نفس الوقت تخشى عليها وعليه، قد تثير جنونه وتفقده سيطرته، وقد لا يكون هو ما تتمناه..

أخوها الهادئ الرزين قليل الحديث، تطلعت إليها بصمت لدقيقة أو أكثر، ابتسمت بعد تنهيدة حارة:

-أنتِ بجد بتحبيه يا لولو، ولا مجرد افتتان؟!.. يعني عشان بعيد عن باباكِ و....

قاطعتها بلهفة:

- أنا مش بافكر فيه زي ما بافكر في بابا.

ثم انتبهت لمغزى حديثها فتصاعدت حمرة قانية لوجنتيها زادتها فتنة مع ضحكة "سارة" المرحة، تطلعت إليها صديقتها بغيظ هتفت بعده معاندة:

- ها هتكلميه ولا أكلمه أنا؟.. ومتأكدة إنه مش هيرفض!

وصمتت للحظة، استطردت بعدها قبل أن تجيب "سارة":

-وعلى فكرة، أنا برده عاوزة أتدرب بجد.

ابتسمت لها بهدوء، أومأت برأسها في استسلام، وبنبرة جدية أجابت:

- خلاص يا لولو.. هاقوله، بس خلي بالك منه، إوعي تجننيه!

وابتسامة ارتياح تتخلل ملامحها التي انفرجت بهدوء بعد تقطيبة الجبين، ردت بتأكيد:

- في عيوني يا سارو، نفسي يحس بيَّ بقى!

وأنهت جملتها بتنهيدة، توترت لها "سارة" ثانية..

ترى هل القرار الذي اتخذته صحيح؟.. أم أنها هكذا تخطئ في حق أخيها وصديقتها!!..

لا تمنحه خياراً بل تدسها في طريقه عنوة.

نعم أخيها الأكبر عانى الكثير، حتى شقيقة زوجة "أدهم" رفضت طلبه للزواج كما علمت من أبيها..

لا تدري لمَ اختارها هي بالذات!!..

لكنه لن يتخذ قراراً كهذا من فراغ، ويالكارثة لو تسببت صديقتها المجنونة في مشكلة، أو الخوف الأكبر..

أن يقع في حبها بالفعل فيصبح جنونه رسمياً.

******

عقله سينفجر قريبًا، حتمًا سيفعل..

ما يحدث جنون لا أكثر ولا أقل..

واحدة تطارده بخطابات غرامية تصف فيها عشقها له..

وأخرى تسبر أغواره بفضول أنثوي وتمد حبل الصداقة لكن عيناها تقولان شيئا آخر..

ومن اختارها تهرب، تعاند، وترفض..

منذ أكثر من عام أخبر أخيه أنها تتممه..

أنها خلطة سحرية من حنان وقوة وعطاء لا محدود..

يستأهل أن تقع في غرامه على الفور..

نعم هو لم يغرم بها.. لم يخفق قلبه بعنف بين ضلوعه لدى رؤياها..

لكنه يعلم أنها تكمله بطريقة ما..

بقوتها، عنفوانها، ضعفها الذي لمحه عندما رفضت عرضه للزواج أول مرة..

سمع أنين قلبها وقتها لهذا صمت.. شعر أن ضغطه، قربه، محاولاته القليلة والتي تهربت منها دوماً لا تقدم أو تؤخر.. بل فقط تضع مزيداً من الملح على جرحها الذي لم يندمل بعد..

أكثر من عام وهي ترفض، تماطل، تتهرب، وتتعامل بجفاء وبرود..

صبره وصل لمنتهاه الآن.. واحتياجه أيضاً..

صف سيارته في مرآب النادي، اليوم ألقى له أخيه بخبث خبرًا صغيرًا، هي بصحبة زوجته والطفلين، العمل لا يحتاجك ربما أنت من يحتاج لبعض

الراحة، خذ الصغير وتمتعا قليلاً وربما تقابل "جمانة" و.. "لمياء"، وقد كان..

استجاب لإيحاء الأخ الأصغر الماكر واصطحب طفله بعد انتهاء يومه الدراسي، وها هو هنا، لقاء مدبر يحمل قشرة الصدفة غير المتوقعة..

لم يبحث طويلًا حتى وجدهما، بخطوات وئيدة مترددة اقترب، بتحية مرحة هتف:

- إيه ده معقول!!.. إزيك يا جمانة؟

وبالتفاتة ولمعة تملأ مقلتيه:

- إزيك يا مدام لميا!

بادلته "جمانة" تحيته وأتاه ردها الخافت:

- الحمد لله يا دكتور آدم.. إزي حضرتك؟

ابتسم بهدوء وهو يدفع صغيره نحوها:

- تمام الحمد لله.. سلم يا جو.

عندما ألقت بنظراتها نحوه امتلأت حدقتاها بحنان غريب، افتقاد وشوق، كأنه صغيرها بالفعل..

لمحت في عينيه شيء من حزن، هدوءه وصمته الدائمين غير المناسبين لسنه على الإطلاق، يؤثران بها، فينبض قلبها ويفيض حنانها نحوه بشدة..

مدت يديها إليه فاقترب أكثر، قبلت وجنته وبدأت حديثًا بلهجة طفولية معه، استجاب لها بخجل وهي تضمه إليها أكثر..

جلس هو على مقعد مقابل بعد دعوة من زوجة أخيه، يتابع الحديث اللطيف بابتسامة ولمعة غامضة تظلل مقلتيه..

قبل "ملك" وحمل "مروان" لدقائق يلاعبه، بعد قليل كانا وحدهما، الصغيرين في مكان قريب يلعبان، و"جمانة" تعللت بأمر ما وهربت بالرضيع..

عندما نظرت حولها ووجدت نفسها وحيدة صرخت بداخلها..

إذاً هي لعبة مدبرة، واللعب غير نظيف، يلعب على وتر ابنه الجميل الذي لا يقاوم، والآن انفراد.

تبسم لتوترها، في الحال لابد من حديث ما، لكن الكلمات هربت من عقله، لا يدري ما يريد قوله!!

ابتسم لها فمنحته ابتسامة مرتبكة، وأتاه سؤالها:

- هي جمانة راحت فين؟.. ماخدتش بالي وأنا مشغولة مع يوسف.

اتسعت ابتسامته، أجابها بهزة كتف:

- مش عارف، هي خدت مروان وقالت مش هتتأخر، مشيت من هنا.

وأشار خلف ظهرها، التفاتة منها ولا شيء تراه، أتاها صوته مجدداً وسؤال ممل بنبرة حنون أثارت توترها أكثر:

- عاملة إيه؟

والآن ماذا؟

وتر جديد يعزف عليه معزوفة حنان واهتمام..

هي لا تحتاج ذلك، هي تخشى ذلك، لا تريده، تهرب منه دومًا..

لهذا أتت إجابتها جافة باردة تقليدية حد الملل كسؤاله:

- كويسة الحمد لله.

ابتسامته شابها التفهم، لكنه لن يتراجع الآن، ألقى بسؤال مفاجئ تصاحبه نظرة غامضة:

- لسه بتفكري؟

رفعت عينيها بتساؤل ولمحة تحذير، أن لا تتمادى، وإدعاء غباء في جواب:

. أفكر؟

تظاهر أنه لم ير تحذيرها، ولم يسمع نبرتها المتوعدة، أكمل بحزم:

- في طلبي، مش شايفة إن سنة كتير جداً!!.. مش متعود آخد الوقت ده كله في تحقيق أهدافي!

اتسعت عيناها، لقد تجرأ ولفظها، اقترب بمقعده أكثر ليضاعف من توترها، استطرد بهدوء وهو يميل نحوها ويأسرها بعينيه:

- لميا.. كفاية كده.

بركان التوتر انفجر بداخلها عندما لفظ اسمها، اقترب منها، وشملها بعسل شديد الصفاء بين جفنيه، تراجعت بمقعدها بعيداً عن مرمى عينيه ورمته بنظرة زاجرة مع ردها:

. دكتور آدم.. من فضلك، الموضوع اتقفل، وانتهى من يوم ما اتكلمنا فيه آخر مرة، حضرتك تقدر تحدد هدف جديد تسعى له بعيد عني.

تراجع يستند بظهره إلى مقعده، شبك أصابعه أمام وجهه لكن عيناه تحيطانها رغماً عنها، فكر لثوان، شددت على كلمة "دكتور"، رسمية هي لأقصى درجة، وتنبهه أن لا يلغي الحدود..

حاول البحث عن سبب منطقي لرفضها طوال هذه المدة، نعم علم طرفاً من حديث عن حب كان يسكنها نحو زوجها السابق، لكن الآن.. وبعد الفراق المؤلم، ما المانع؟

كل الجراح تندمل، تنبت لها قشرة تسقط بعد فترة ويعود الجرح بلون الجلد، قد يترك أثراً، ندبة، لكنه يتوقف عن النزف، وكل ما علينا فعله هو تركه لحاله، والبدء من جديد.. لكنها تتمسك فقط بأثر جرحها، تتأمله بحزن وترفض تخطيه.

عندما طال صمته، وتأمله لها، شعرت بارتباك، نعم ينظر نحوها، لكن عيناه لا تريانها، يفكر بعمق في أمر ما، ترى أهو متعلق بها؟.. أين أنتِ "جمانة"؟.. سأقتلك حتماً..

تنحنح فجأة وهو يعتدل مجددا، ببريق عينين جذاب وابتسامة رجولية عاد يحادثها:

. ممكن نتكلم بصراحة؟

تماسكت، طغت عليها شخصية أستاذة القانون، فتلبست ثوب المحامية القوية، ومنحته إيماءة صامتة بموافقة اتسعت ابتسامته لها:

. خلينا نقول واحد زائد واحد، أنتِ عارفة عني حاجات كتير، يمكن مش كتير قوي، بس مكونة صورة عن حياتي، كنت متغرب فترة طويلة واتجوزت في الغربة وربنا رزقني بيوسف، بعدها مامته اتوفت وسابته وسابتني، رجعت مصر عشان يوسف يكبر فيها ويتربى صح، مراتي عوضتني حاجات كتير ضاعت مني قبل ما أسافر، أنا وهي كملنا بعض، اهتمامنا كان متبادل

ومتكافئ، يمكن تحسيني روبوت وتقولي ليه هو جاف وبيحسبها كده؟.. بس ده اللي حصل.

استند بمرفقيه لمسندي المقعد، وأكمل بنبرة تحمل شيئًا من إجلال:

. كانت أكتر حد قريب مني.

تأملته لثوان، هو لم يجمل كلامه، لم يخبرها عن عشق، سابق أو حالي، هو بالفعل كما قال يشبه "الروبوت"..

عاد يستطرد بهدوء حازم:

. لما فكرت فيكِ كزوجة، أول حاجة لفتت انتباهي ليكِ هي.. حنانك.

لم تجد رداً، ظلت صامتة وهو لم يتوقع منها حديث، أكمل بابتسامة:

. بتعاملي جمانة كأنها بنتك، مهتمة، بتراعيها لأقصى درجة، لدرجة إنك تتبرعي بدمك لجوزها، خوفك اللي كنت بأشوفه في عيونك عليها رغم إنها مش طفلة، جواك طاقة عطاء غير عادية، عطاء يكفي كتير قوي.

وهي على صمتها، تنظر إليه بتقييم وجمود، رغم خليط المشاعر التي تتصارع بداخلها، ورغم تصديقها له أتت نبرتها جافة بلمحة ساخرة:

. وشايف إنك تستحق جزء من العطاء ده؟

رفع حاجبيه دهشة، فكر لثانيتين ثم أجاب بلهجة حنون:

. أنا محتاج العطاء ده.

يا إلهي ماذا يفعل؟ وترجديد.. الاحتياج!

شعور الأمان الذي أضاعه زوجها ومهد عشقها السابق، أن تحتاج لشخص ويؤمن هو احتياجها، وأن يحتاجها هو أيضًا..

يلقي بطوق جديد يثيربداخلها الكثير..

همسته الأخيرة نفضت قلبها:

- لميا.. كل اللي باطلبه منك هو فرصة، إدينا فرصة نقرب من بعض، تعرفيني أكتر، أفهمك وتفهميني، قلت لك قبل كده إن قدرتك على العطاء غيرعادية، ومع كل اللي حواليكِ.. حنان لمسته مع جمانة، شفته مع ملك.. فصدقيني لما أقولك إن انسانة زيك تستاهل عطاء أكبرفي المقابل.. بأتمنى تسمحي لي أكون جنبك أقدم لك جزء ولو بسيط من الاهتمام اللي تستحقيه .

رفعت عينيها إليه لتلتقي برقة تلمع بها عيناه ، نظراته الرؤوم المتفهمة، ازدردت لعابها ببطء فنزل كحديد مصهور داخل صدرها، همهمت بكلمات غيرمفهومة بينما تنهض بسرعة..

التقطت حقيبتها من مقعد مجاور ثم عادت تلتفت إليه لتجده وقف هو الآخر في مقابلها، كادت ترتطم بصدره لولا أن أمسك بمرفقها يدعمها،

تراجعت بسرعة وهي تسحب يدها منه، رفعت عينيها إليه مع شعورها بالضآلة أمام جسده العريض فارع الطول، غمغمت من جديد بارتباك شديد أسعده:

- أنا لازم أمشي، معلش اعتذرلجمانة بالنيابة عني.

وحاولت تخطيه لكنه أعاقها بخطوة في طريقها، ابتعدت ثانية تنظر إليه، ابتسم بهدوء:

- بتهربي تاني!!

لم يكن سؤالًا، بل كان تقريراً لواقع يحدث أمامه، ضغطت شفتيها سوياً وتوترها بلغ أوجه بالفعل، هزت رأسها نافية وهي تجيب بصلابة:

- ده مش هروب، بس مش بحب الحصار.

رفع حاجبيه متظاهراً بدهشة، الآن يمرح أيضاً:

- حصار!!.. سنة كاملة وتقولي حصار؟

هزت رأسها برفض عشوائي، ونبرتها الخائفة بلمحة عصبية آلمته:

- دكتور آدم من فضلك.. حضرتك بتضغط عليَّ، ولعبك مش شريف، بتستغل يوسف، وده بيوجعني أكتر، لازم أمشي لو سمحت.

الآن دهشته حقيقة، رفع كفيه نافيًا بسرعة:

- لميا.. أنا مستحيل أقصد كده، ومستحيل أعمل حاجة تتسبب لك في وجع، أنا بأقولك واقع يمكن أنتِ مش حاساه أو شايفاه .

وينطق اسمها ثانية، هل تغير ترتيب حروفه أم ماذا؟

نبضات قلبها تكاد تخترق صدرها، عزتها للخوف، إنها خائفة، لا تريد، لا تحتاج، ولن تفعل..

تراجعت للخلف أكثر هاتفة بحدة:

- من فضلك يا دكتور آدم كفاية بقى، لازم أمشي.

وانطلقت تدور حول الطاولة لتبتعد عن مواجهته وتهرول خارج المكان..

عيناه تابعتها بأسى، وقلبه يسبه حقاً، لقد آذيتها.

******

بحر من التردد ومحيط من القلق والخوف، قراراً اتخذته ووعداً قطعته، لن تخلفه أو تخل به، لكنها تخشى نتيجة وعدها ذاك..

هل أخيها بالفعل يحتاج لحالة من الجنون؟.. أن يعود لزمان مر منه بسرعة فلم يشعر به حتى شاب شعيراته اللون الرمادي وهو بعد في عقده الرابع؟.. يحتاج بعض المرح؟.. الصخب؟.. الحب!!

وهل "علا" تحبه بالفعل؟.. هل ستداوي جرحه أم تجعله ينزف من جديد؟.. هل تفكر جيداً وتحسب حساباتها بطريقة صحيحة؟.. أم افتتانها بأستاذها مجرد هوس امتلاك وإلى زوال قريب؟.

تنهيدة خرجت من صدرها وهي تخرج من غرفتها بعدما ارتدت ثيابها، هبطت الدرج لتجد والدتها تجلس في استقبال المنزل وبيدها كتاب..

اقتربت بينما أمها ترفع عينيها نحوها بابتسامة ثم انعقادة حاجبين عندما وجدتها بكامل ثيابها، بادلتها "سارة" ابتسامتها وأجابت سؤالًا لم يسأل:

- هاروح أقعد شوية مع آدم وجويا ماما.. بقى لي فترة ما زرتهمش.

الانعقادة تحولت لتقطيبة وصوت الأم ينوء باعتراض:

- سارة.. مش ملاحظة إنك بقيتِ تروحي له كتير، حبيبتي هو مش بييجي هنا خالص.

شعرت الفتاة بغضب يتسلل إليها، أنتِ تدرين أمي وأنا أعلم ما السبب!

بادرتها بما تفكر فيه:

- عارفة يا ماما، وأكيد عارفة زي ما أنتِ عارفة السبب، حقه ما ييجيش هنا، لكن أنا عاوزة أزور أخويا وألعب مع ابنه.

عصبية طفيفة تسللت لصوت "فريدة":

- أظن يا سارة أنا... أنا فهمته الوضع وقلت له إني لقيت الكوليه، يعني عادي ييجي، وتاني حاجة، دي مش طريقة تتكلمي بيها مع مامتك!.

غضبها ازداد، حسناً أمي حتى لفظ اعتذارتستكثرينه!!

جلست أمامها بهدوء مع ردها:

- أنا اتكلمت إزاي يا ماما؟.. أنا باقولك هو من حقه يعمل إيه، وأنا كمان من حقي أزورأخويا الكبير، ولا إيه؟

قبل أن ترد الأم وصلها صوته الصارم بلهجة قاطعة:

- طبعاً حقك يا سارة، قومي روحي له، بس ما تتأخريش.

شعرت "فريدة" بالارتباك، منذ أكثر من عام مضى ومعاملته لم تتغير، منذ رفضها لزواج "أدهم" والعثور على عقدها الضائع الذي اتهمت ابنه بسرقته، أصبح جافًا، بارداً، متباعداً، رغم مرحه وقربه من أولاده، وحتى بعد عودته للعمل قليلا لخاطر "دينا" التي أثارت فضيحة وقتها لايزال يعاملها بخشونة ولامبالاة.

نهضت "سارة" بابتسامة وهي تتوجه نحوه، طبعت قبلة سعيدة على وجنته وألقت تحية مقتضبة ورحلت، ألقى هو نظرة نحوها، لم تفهم معناها، ثم خطا تجاه مكتبه، هتفت به:

- جلال!!

توقف مكانه دون التفات، اقتربت هي وبتردد شرحت:

- أنا ما أقصدش أمنعها، أنا نفسي هو ييجي يزورنا ويقضي وقت معانا عادي، مش حاجة تانية.

همس لها من بين أسنانه:

- يبقى توضحي قصدك وأنتِ بتتكلمي مع بنتك عن أخوها، كفاية اللي حصل قبل كده.

ورحل تاركاً إياها تعاني قسوته وهجرانه، وكبريائها المطعون في العمق، لقد اعتذرت..

تباً لهم..

ماذا يريدون منها أكثر؟.. تتذلل، تقبل يديه طالبة العفووالغفران!!

تباً لهم جميعاً.

******

تصرف طفولي هوربما، لكنه الفضول الذي يستعمرها نحوه..

تعرف أكثر، ترى أكثر..

تسللت دون انتباه، وعلى مقاعد المدرج الخلفية اندست وأخفت نفسها جيداً..

أتى هو بهيئته الوسيمة القوية، بذلته الأنيقة، ولا رباط عنق، زر قميصه العلوي مفتوح ولحيته نامية بخشونة أعطته مظهراً رجوليًا رائعًا.

عندما وقف خلف مكتبه خلع سترته، فك أزرار أكمامه وشمر عن ساعديه، جلس على طرف المكتب وألقى تحية الصباح..

سمعت تنهيدات حارة من فتيات يجاورنها، نعم لديهن كل الحق في ذلك، حتى صوته له نبرة مميزة جذابة للغاية.

في هدوء راقبته يشرح محاضرته، لحظات كان يشرد فيها ثم يعود من جديد لعالم الواقع، بعينيه لمعة وصفتها بـ "تيه"..

وعندما انتهى من الشرح جلس خلف مكتبه في هدوء صامت ينتظر انتهاء وقت المحاضرة والمتبقي منه خمس دقائق فقط.

شروده جذبها أكثر، تقريباً لا يرى ما حوله ولا يسمع أصوات طلبته التي بدأت تعلو شيئًا فشيئًا..

انتهى الوقت وبدأوا في الخروج من المكان، سكنت مكانها وهو لايزال جالسًا في مكانه..

راقبت تلك المشاغبة وهي تقترب منه، تكاد تفهم نظراتها نحوه، تبدو مفتونة تماماً..

حسناً لها العذر، لكن هذا الاقتراب شيء لا يصح..

وقف أمامها بهدوء وهي تتحدث معه بحماس، منحها ابتسامة وبضع كلمات انتهت بوداع، راقب خروج بقية الطلبة وحينما رفع رأسه وجدها تجلس في الخلف.

نهضت بابتسامة جذابة، خطواتها بطيئة واثقة وقوية، ثوانٍ وأصبحت أمامه حياها بدهشة:

- دكتورة إيف!!.. كنت معانا في المحاضرة؟

أجابت بعينين لامعتين:

- أيوة، سوري لو ضايقتك، بس بجد كنت عاوزة أحضر معاك.

نفى بسرعة:

- لا.. لا.. أبداً.. أهلا بيكِ.

ونظر إليها بتساؤل، جلست على معقد مقابل لمكتبه فاستقر بمقعده هو الآخر متطلعاً إليها، بادرته:

- حاسة إن حضرتك متضايق من حاجة، كنت بتسرح في المحاضرة يا دكتور.

ابتسم بشرود طفيف، ومنحها رداً رسمياً:

- لا عادي.. بافكر في المحاضرة نفسها.

مالت تستند إلى المكتب بمرفقها، منحته نظرة متفهمة، وبود قالت:

- عموماً يا دكتور آدم المحاضرة كانت ممتازة، أنا شخصياً استفدت، وممكن تعتبرني صديقة، وقت ما تحب تفضفض أنا موجودة.

نبرته كانت ودود، لكنها محايدة لا تحمل رفضاً أو موافقة:

- أكيد يا دكتورة، ده شرف ليَّ.

أهدته ابتسامة أخرى ونهضت مغادرة، وفي صدرها يتردد صدى لاندماج، اندماج مرتبط حتى بتوافق الأسماء، فهي حواء "إيف" وهو "آدم"..

والرباط بينهما هو بداية الوجود ولأجله خلق الكون.

******

تتلبس تلك القشرة الصلبة من جديد، تختفي خلفها، وتخشى أن يلمسها أحدهم فيكتشف أنها صلابة ظاهرية، ومع أول اقتراب ستتهشم تماماً، تتحول لفتات، وحطام أنثى كانت في يوم ما هي الأنثى.

عناد، ثقة مدعاة، وخطوات حادة، دلفت لمكتبها في شركتها، تابعت عملها باهتمام، وقعت أوراق، قررت وألغت قرارات..

وعندما اتصل بها من جديد محاولاً إثارة رعبها؛ كبتت دمعاتها، حبست حشرجة صوتها، وبلهجة حازمة أخبرته:

- طارق.. اللي في دماغك عمره ما هيحصل، أحسن لك تدور على لعبة جديدة غيري.

وأضافت بألم أسفل رداء ساخر:

- على الأقل تكون جديدة، بالسلوفانة!

ضحكته المجلجلة اللامبالية هي ما وصلها، تباً له، لايزال يملك تلك الهالة الصلبة المخيفة التي تزلزل أعماق روحها كما اعتاد أن يفعل معها..

صمت طويل حتى ظنته أغلق الخط، لكنه لم يفعل، بل يستمتع بتركها تتلظى فوق لهيب الانتظار، انتظارٍ لرد فعل، قد يكون قاتلًا، مخيفاً، ومنهياً لحياتها نفسها، همسه بدرجة فحيح ثعباني سام اخترق أذنها:

- دينا.. وقت تغيير اللعبة عمر ما اللعبة هي اللي بتحدده، المالك بس هو اللي بيختار، يكمل لعب بيها، ولا يرميها ويشوف لعبة جديدة... بالسلوفانة.

لايزال مصراً، وهي لا تملك سوى الرفض، تستمر فيه وتعاند، لينهي هو بجملة أثارت رعبها:

- استني مني هدية قريب، متأكد إنها هتعجبك، وهتجيبك لحد عندي ترجيني ألعب بيكِ تاني، وساعتها صدقيني هالعب، أصلي لسه ما شبعتش.. يا حبيبة قلبي.

ومع رنين انقطاع الخط يدق سمعها، ظهر رنين آخر يصدح في أرجاء عقلها، رنين أجراس طوق يشبه طوق الحيوانات، لكنها تدنت في المرتبة عنها، فأصبحت تساق بسهولة، ولا حاجة لترويض، يتملكها خوف، خوف من سوط يمسكه بيده، وتهديد تعلم جيداً أنه قادر على تنفيذه متى ما أراد.

أسقطت هاتفها فوق المكتب، وانزلقت أسفله تجلس على الأرض، تضم ركبتيها لصدرها، تحتضن جسدها.. تهدهده.. تنظر للفراغ، وتتألم.

******

أخبر ولديه وأخبرها، ولمح بتهديد ووعيد أن لا جدال، حفل قريب، في منزلنا، وهي ستأتي، ستعامليها برفق كما كنت تفعلين دومًا، الحفل هام، يجمع بين الشركتين وإحدى كبرى شركات الصناعة في اليابان، سيحضره نجوم عالم المال والأعمال هنا وهناك، وبالتالي هي ستكون من الحضور.

رفض "أدهم" الحضور متعللاً بعدم رغبته في وجود زوجته ومقابلتها، لكنه أصر، سيدخلها حياتهم مهما فعلوا، وسيتركهم سنداً لها من بعده شاءوا أم أبوا.

وعندما أخبرها أباها الروحي، رفضت هي الأخرى، عاندت، وكاد الأمر يصل حد الدموع، لكنه وكعادته شجعها، ومنحها ابتسامة أبوية حنون، طمئنها، وبرفق أخبرها أنها ستحضر مهما حدث، ورغماً عنها وافقت.

على مضض ارتدت ثوباً أنيقاً مناسباً و.. محتشماً..

أصرت والدتها على مصاحبتها، وأمام بوابة المنزل المزينة توقفت، تتابع الحضور، تنظر بقلق، وتخشى ردة فعل "فريدة".. وهو لو رآها.. "أدهم".

العم "جلال" هو من أرغمها على التواجد، ولديه حق فهذا عمل، لكن أن تذهب لمنزله ورغماً عن أهله، فهذا موجع بقوة، وتخشاه بشدة.

تنهدت بعمق، بضع خطوات وأصبحت بالداخل تدور بعينيها في المكان، رآها العم فرحب بها وسحبها من يدها بعد تحية جافة ألقاها على الأم ..

لم تعلم كم مضى من الوقت! لكن بعدما حدث فرت هاربة، تصاحبها دموعها المحبوسة في مقلتيها، وهي تهتف بألم داخل قلبها:

"ليتني ما ذهبت"

وتبعها هو دون أن تدري، لتستسلم بعدها إلى يديه توجهانها نحو سيارته، ثم يقود بها إلى منزلها صامتاً، متألماً لحالها، وبعينيه لمعة غضب شرسة.

(٨)

أسرى

ما بين ضلوعي وصدري وقلبي أنتِ..

محل سكن وإقامة دائمة..

نبضات قلب خافقة.. ونداء بعمر حلمت به بين يديك..

لكن ليت العمر الواحد يكفي..

بل ليته يطول لأنهيه معك..

فوقتما شعرت أني امتكلت السماء والقمر..

وقتما سهرت أراقب النجوم وأهمس باسمك لأوراق الشجر..

عندما هيأت نفسي لعشق يدوم أبد العمر..

توقف النبض..

وبثني شيطاني خوف..

وصور..

عنكِ.. بعيدًا عني..

وآخر يملك خصلاتك الحريرية..

يبعث الحياة في شفاهك الوردية..

ويعض أناملك مداعبًا..

بينما أنت.. تبتسمين بحميمية..

آه يا وجع القلب والروح.. وآه من غدٍ لن أكون أنا فيه..

بل أنتِ و....

ضعي مكان النقاط من تشائين أو تختارين..

وأراقب أنا والحسرة تمزق أحشائي.. وما لي من صبر..

مخلوق من غلظة، جمود، برود، ولامبالاة..

تراوحت مشاعره بين الغضب الناري وبين محاول للسيطرة عليه حتى لا ينفجر في وجهها..

يروح ويجيء أمامها بخطوات بطيئة وذراعين معقودين خلف ظهره..

لم تحترم وجوده أو تطع أوامره..

أهانتها، جرحتها بقسوة شديدة، وفي النهاية تركتها تغادر دامعة، أو للدقة.. تهرب مصطحبة معها ألمها وإحساسها بالدونية والقهر.

كانت تعلم أنه غاضب بشدة حد الهياج، لكنها فقط تقوم بما هو صحيح، لن تترك ابنتها تصادقها لينتهي الأمر بها مثلها، وتقع الفضيحة فوق رؤوسهم أيضًا..

حاولت الحديث مبررة بلهجة قوية:

- جلال.. من فضلك...

ولم تكمل، لم يعطها فرصة، رمقها بنظرة نارية أخرست حروفها وقتلتها قبل أن تغادر شفتيها..

اقترب أكثر حتى وقف أمامها تمامًا، يطل عليها بقامته المهيبة والتي لم يؤثر بها الزمن بعد، صوته خفيض لكنه كان كالصراخ في أذنيها وهو يسألها بشراسة:

- هو ده اللي طلبته منك يا فريدة؟.. ده اللي أمرت بيه؟!

ازدردت ريقها بصعوبة مع سؤاله الجديد:

- ليه؟.. عملتِ كده ليه؟

وعندما انفرجت شفتاها في محاولة لإجابة أخرسها ثانية:

- مش دي اللي كنتِ عاوزة تجوزيها ابنك؟!.. وكنتِ بتتفقي معايا وتقولي لي لازم نقربهم من بعض؟.. دلوقتِ بتتحاشيها!!.. وفي النهاية تمنعي بنتك كمان تقرب منها كأنها مرض؟

هزت كتفيها، شعرت بالحصار فكان ردها عصبيًا بنبرة مرتبكة:

- أيوة يا جلال.. بس دلوقتِ هي مش زي زمان، وأنا أخاف على بنتي إنها تصاحبها، افرض بقيت زيها!!.. مين هينفعني وأنت مصر تدخلها حياتنا رغم إنك عارف إن ولادك مش بيحبوها!

ضحك، وهي تتطلع إليه ببلاهة، توقف فجأة وهو يمسك ذراعها صارخًا في وجهها:

- دلوقتِ ولادي مش بيحبوها وأنتِ بتراعي ده!!.. أنتِ أهنتيها يا فريدة، حسستيها إنها مريض موبوء، وغلطك هتصلحيه وإلا هيكون لي تصرف تاني معاكِ.

بادلته ضحكته العصبية ثم توقفت وردت ببرود ساخر:

- أصلحه!!.. إيه عاوزني أروح أعتذر لها مثلًا؟.. أنا مش فاهماك يا جلال.. زمان كنت أنت اللي بتتهرب من ضغطي عليك عشان تقربها من ابنك، دلوقتِ أنت اللي مصمم تدخلها وسطنا، وبعد اللي حصلها واللي مش عارفين سببه ولا عرفته منين وراحت له ليه!!.

برقت عيناه بغضب شديد، ضغط بقبضته أكثر على ذراعها وهو يهمس من بين أسنانه:

- مش عارفة ليه يا فريدة؟.. للدرجة دي الانسانية ضاعت من عندك؟.. دي بنت صاحبتك، اللي اتعرضت لموقف صعب جداً، ورغم كده خرجت منه قوية وبتحاول تبني نفسها من جديد، بنت صاحبي وشريكي اللي مات وسابها لوحدها، مش عاوزاني أقف جنبها!.. خلاص للدرجة دي قلبك قاسي يا فريدة هانم؟

قبل أن ترد دلف "أدهم" للمكان بصحبة زوجته وشقيقته، تناهى لمسامعه كلمات والده الأخيرة رغم انخفاض صوته، عقد حاجبيه في غير فهم و"سارة" تنظر إلى والديها في قلق..

تساءل في استغراب:

- مالك يا بابا.. خير؟

التفت إليهم بهدوء، تبدلت ملامح وجهه تمامًا، اكتست بقناع من الجمود والهدوء، أجاب ابنه:

- ما فيش يا أدهم.. يلا الحفلة قربت تخلص خد مراتك وروحوا، بكرة هآجي الشركة أحضر الاجتماع اللي مع المندوبين قبل سفرهم.

عقد حاجبيه في صمت، ناظرهما محاولًا سبر أغوار والده الصامت ووالدته التي تفادت نظراته..

سلمت زوجته على والديه ثم اصطحبها ورحل، بعد خروجهما تبعتهما "فريدة" هاربة للحديقة حيث الحفل و"سارة" تنظر لوالدها في قلق..

استدار زافراً في حنق..

نعم والدتها آلمتها، أهانتها، وأشعرتها بالحقارة، وها هو الأب ينفث غضبه في وجهها لكنها كعادتها لا تبالي..

يا إلهي أمي، ألن تتغيري أبداً!.

******

الماضي، لا يتركك أبداً، وهتك سترك يجعلك عرضة للوم في كل لحظة، وكأنك لم تعاقب بما يكفي فلابد أن يستمر عقابك دائمًا وأبداً..

ألا توجد فرصة؟.. ألا تستحقها؟..

نعم أخطأت ونالت جزاءها، وبأبشع وأقسى وأحقر طريقة ممكنة..

فإلى متى ستستمر في دفع الثمن؟.. لقد أُنهِكت حقًا ولم تعد بها طاقة لجدال أو حتى رغبة في حياة منقوصة، مُنتَزع منها كل ما تحتاجه، وفقط يُلقى في وجهها كل يوم بأخطاء لا تعلم إلى متى ستظل تكفر عنها!.

جلست إلى جواره في السيارة ودموعها تنساب في سكون، عيناها محمرتان، وقلبها يئن بين ضلوعها، تشعر به يتمزق في كل لحظة، ولا دواء لأنينه..

هذه الإهانة كانت قاصمة، لقد أشعرتها كأنها ستنقل لابنتها مرضا معديًا مميتًا، أو تسممها بأفكارها فتصير عاهرة كما شعرت بها تلقبها وإن لم تنطق بها..

نسيتِ ما كان بيننا سيدة "فريدة" وأصبحتُ بالنسبة إليكِ مجرد جرثومة ناقلة لعدوى الانحلال والفجور، وكنتِ تشاركينني الخطط لتزويجي من ابنك الوحيد!!.

استعادت ما حدث في الحفل..

أجبرها العم على الحضور واستجابت على مضض رغمًا عنها..

بعدما استقبلها بحفاوة وقضت بعض الوقت مع وفد الشركة الأجنبية، لمحت "أدهم" قادمًا من بعيد، فحاولت الابتعاد، وفي أثناء حركتها اصطدمت بـ"سارة" التي ابتسمت لها في ارتباك، وبادرتها برقة:

- إزيك يا دينا؟.. عاملة إيه؟

منحتها ابتسامة خجلى وهي ترد بخفوت:

- الحمد لله يا سارة.. أنتِ عاملة إيه؟.. وأخبار الكلية؟

اتسعت ابتسامة "سارة"، نبرتها هادئة مطمئنة كأنها تتفهم موقفها:

- الحمد لله تمام.. آخر سنة أهو وربنا يسهل بقى وأخلص.

شاب ابتسامتها شيء من هدوء نسبي مع لهجة الفتاة الودود، وقبل أن تكمل حديثها معها فوجئت ب-"فريدة" وهي تجذب ابنتها بعنف طفيف هاتفة بحدة:

- سارة.. أنتِ واقفة هنا بتعملي إيه؟.. تعالي بعيد عن المكان ده!

ومنحت المصدومة نظرة شملتها من شعرها حتى أخمص قدميها بينما تتحرك بابنتها المندهشة تجرها خلفها..

آخر ما رأته قبل أن تهرول خارج المكان هو عينا العم الغاضبتين، المواسيتين.

******

دموعها التي تغرق وجنتيها في صمت تثير بداخله الكثير..

الكثير الذي لم يرد بباله مطلقًا من قبل..

قلبه، قلبه الساكن بين ضلوعه ينقبض لها، متأثراً بها..

يود لو يمد أصابعه ويمحو تلك الدمعات التي تجرح نعومتها ورقتها..

أو ربما يمسحها بشفتيه، ويبثها بدفء قبلاته إحساسًا أضاعه منها ذلك الأحمق وعائلته، وبالأخص والدته.

توقف بالسيارة أمام الفيلا، هي إلى جواره تستند برأسها إلى المقعد، والدموع تحفر قنوات الوجع وآثاره عى ملامحها المتعبة الساكنة..

مد كفه يربت على كفها المستكين فوق ركبتها هامسًا برفق:

- دينا.. وصلنا.

لدهشته لم تدفع يده بعيداً كما اعتاد، لقد تركتها والدتها معه بدعوى توصيلها للمنزل، وأكملت هي سهرتها مع الصديقات بعدما أشارت إليه أن يلحق بها..

كأنها لم تهان، كأنها لم تنجرح وتغرق في بحر من القسوة غير المبررة.. ناداها ثانية فخفضت عينيها نحوه بشرود، ابتسم لها مطمئنًا ثم خرج من السيارة ودار حولها، فتح بابها ومد يده إليها..

لتدهشه من جديد باستجابة، وضعت كفها بين أصابعه وترجلت بمساعدته..

بدت شاردة، تائهة، حائرة وعلى وشك الإغماء..

خطوات ساندها فيها حتى وصلا إلى المنزل، على أريكة البهو الكبيرة أجلسها وجلس إلى جوارها، ربت على كفها ثانية وصوته يمتلئ بحنان غريب:

- خلاص يا دينا عشان خاطري.. كفاية دموع، حصل إيه لده كله؟

رفعت عينيها إليه وبدأ نشيجها يعلو وهي تمسح دموعها بكفيها كطفلة بريئة..

نبض قلبه بقوة لحركتها تلك واعتصره ألم أدهشه لسيل الدموع الذي لا يتوقف..

بتردد اقترب منها، تردد أكبر ثم مد يده يجذبها إلى صدره، أحاطها بذراعيه في رفق، وهو يربت على ظهرها هامسًا بحنان:

- كفاية بقى.. خلاص.. ما تعيطيش.. هو الخسران.. كلهم خسرانين.

تشبثت بقميص بذلته ناصع البياض وازداد نشيجها، ضمها إليه أكثر وكفه تمسح ظهرها مهدئًا، دقيقة وربما اثنتين ووصله صوتها المكسور وحروفها المتلعثمة:

- هي ليه عملت كده؟.. أنا مش وحشة.. أنا.. أنا.. أنا كنت بس باتكلم معاها.. ما عملتش حاجة تاني، ليه حسستني إني مرض، هاعدي بنتها وتبقى زيي، ليه بتعمل كده؟ ليه....

لم تستطع أن تكمل نحيبها الباكي وتساؤلاتها الضعيفة، فقط عادت تبكي أكثر..

رفع وجهها نحوه ثم نظر في عينيها بعمق، وأجاب عن كل ما تفوهت به من أسئلة:

- أنتِ مش وحشة أبداً، هي أو هما كلهم دماغهم كده، ده مجتمعنا المتخلف، بيحاسب الضحية وينسى الجاني، وأنتِ ضحية، مش الكل شايفك كده، في اللي شايفك حد كويس، وبيحبك.

تعلقت عيناها بنظراته الحنون، ابتسمت بانكسار وتساءلت بأمل ملهوف من بين دموعها:

- بجد يا تيام؟.. في حد بيحبني؟.. ومش شايفني وحشة؟

منحها ابتسامة دافئة وهو يقترب بشفتيه منها، همس أمام شفتيها:

- أيوة بيحبك.. بيحبك قوي.. بس محتاج إنك تاخدي بالك من حبه!

لمسات دافئة خاطفة ناعمة متتابعة..

صمتها، سكونها، استسلامها زاده جرأة فتعدى مرحلة اللمس للتناول بشغف، أعمق فأعمق..

ذراعه المحيطة بكتفها انحدرت لأسفل ليتملك من خصرها يضمها إليه أكثر..

وكفه تتسلل نحو سحاب ثوبها، استسلامها أدهشه بقدر ما أسعده..

أخيراً سيتملكها.

هي شاردة..

في هذا الكون جسد فقط لا عقل ولا روح..

هو يرغبها، يريدها، يلقي بتلميحات عن حبه لها..

هي ليست مرضًا خبيثًا..

هي أنثى مرغوبة، ومن ذكر وسيم، يدللها بلمساته، قبلاته، ودفء جسده الذي يضمها..

لمَ لا تستمتع بذلك؟.. لتمنحه ما يريد في مقابل أن تشعر بنفسها، بأنوثتها، بآدميتها.

******

اللهفة ترسم خطواتها السريعة، تكاد تجر صديقتها خلفها وهي تتجه نحو مدخل قاعة محاضراتها..

أسبوعين كاملين غابت فيهما "ديما" عن الجامعة، كانت تطمئن عليها من خلال الهاتف فقط، وبخجل تتساءل عن أخبار شقيقها، واليوم أتت أخيراً، حادثتها منذ قليل وأخبرتها أنها بانتظارها.

وقفت "ديما" في أحد الأركان، تتحدث في الهاتف بابتسامة:

- هلأ أنا عند القاعة ما تقلق.. بخير حبيبي المهم إنت.. أنا أحسن صدقني..

لمحت "سارة" و"علا" تقبلان عليها من بعيد فأشارت لهما، عانقتها "سارة" هاتفة في راحة:

- أخيراً يا ديما!.. إيه يا بنتي كل ده؟.. عاملة إيه النهاردة؟

وصله صوتها عبر الهاتف فنبض قلبه، إنها هناك معها، التفت لصديقه الجالس إلى جواره متلهفًا:

- زياد.. بدي روح لعند ديما إطمن عليها!

اتسعت عيناه دهشة، ثم عقد حاجبيه بتساؤل:

- ليه؟.. إحنا لسه موصلينها وهي كويسة الحمد لله، في إيه بقى؟

أغلق الخط معها وهو يجيبه متعجلًا بينما يقف متوكئًا عصاه:

- بتَجي معي ولا بروح لحالي؟

مط "زياد" شفتيه مستغربًا.. ما به؟.. ولمَ يتلهف الذهاب بهذا الشكل؟

خمن شيئًا فنهض واقفًا إلى جواره يسانده بيده:

- هآجي وأمري لله، مش فاهم دماغك فيها إيه!!.

منحه "عمار" ابتسامة امتنان وهو يتوجه معه نحو قاعة محاضرات شقيقته رغم محاضرته الهامة التي ستبدأ بعد قليل..

دقائق معدودة ووصل صوته الحنون لأذنيها مناديًا ولكن ليس لها:

- ديما!!

استدارت تتطلع إليه مع شقيقته وصديقتها..

ملأت عيناها بصورته وهو ينظر إليها، لمعة الذهب تلك تسحبها نحو دوامة لا تدري كيف الخلاص منها!

منحها ابتسامته التي تشعر قلبها بالدفء، وبصوت خفيض يحمل نبرة اشتياق مست شغافها:

- كيفك آنسة سارة؟

ابتسامتها خجلى..

عيناها عانقت الأرض أسفل قدميها وصوتها هامس:

- الحمد لله، وأنتَ؟

ظل يحوطها بعينيه كأنه لا يستطيع رفعهما عنها، وبنبرة لمست فيها الحنين:

- بخير ما دامك بخير.

شعرت بالخجل فخفضت عينيها أرضًا ثانية بعد رده، صمت هو وطال صمته..

عناق نظراته لوجهها البريء وحمرة الخجل تتلبس وجنتيها..

"علا" تتابع تلك النظرات بضيق، وضيق آخر يملأ عيني "زياد" وهو ينظر نحوها وكيف تنظر لصديقه المعتوه الذي جره جراً ليرى تلك "السارة" متحججًا بشقيقته..

ربما خلال الثوان القادمة سيخرج من بين شفتيها لسعات السوط التي اعتادها..

انخفضت عيناه نحوهما تلقائيًا عندما مرتا بذهنه، مكتنزتين، مضمومتين بشيء من غضب، ولونهما الطبيعي الذي يشبه حبتي كرز ناضجتين..

اندهش لاتجاه تفكيره فهز رأسه بعنف والصمت يخيم على المكان، وكز صديقه بمرفقه فالتفت ينظر إليه كأنما أفاق فجأة:

- شو بيك زياد؟

هتف في حدة:

- بيَّ أنا؟.. يلا يا عمارورانا سيكشن مهم.

لم يلحظ نظرات الصغيرة بيضاء الثلج التي تقف أمامه، تمتلئ عيناها بشغف طفولي كأنها تقف أمام قطعة حلوى ممنوعة من لمسها..

حدته، قوته، عصبيته، وصوته الخشن كلها تداعب مخيلتها فتحلم به فارسها..

انتزعهم من أفكارهم صوت "علا" الحانق:

- ديما.. يلا على المدرج بتاعك، سارة.. يلا بينا إحنا المحاضرة هتبدأ، ودكتور آدم مش بيحب حد يدخل بعده.

رمقها "زياد" بنظرة حادة بادلته إياها بسخط فعقد حاجبيه جاذباً يد صديقه الصامت:

- يلا يا بني، أنت اتسمرت في الأرض!!

التفت إليه ثانية بضيق، عاد ينظر إليهن، ثم نظرة أخيرة نحوها، وابتسامة ترفض المغادرة:

- بشوفكن بعدين صبايا.

بعدها تحرك مستنداً إلى عصاه، معتمداً على ذراع صديقه المزمجر الغاضب..

ودعتهما "علا" بعينين مشتعلتين، ولم تنسَ منح "ديما" و"سارة" بقايا اشتعال مقلتيها.

والحالمة الجميلة تتابع ابتعاد أخيها معتمداً على ذراع صديقه الذي يشغل أحلامها ولا يدري شيئًا عنها، بل يعاملها كطفلة..

ويا الله!! كم يغضبها هذا.

وهو ذهبي النظرات لم يرعينيها وهما تتابعان رحيله وابتسامة سعادة ترسم نفسها فوق شفتيها، دون اهتمام بالساخطة إلى جوارها وهي تجذبها خلفها، بل تجرها جرًا.

******

أسبوع مر..

تكررت نوبات الدوار المفاجيء التي تداهمه خلاله ثلاث مرات..

لا يعلم لها سببًا، ولا يريد أن يعلم..

يحاول النسيان، وكلما نجح في ذلك لبعض الوقت اكتنفت جسده تلك الرعشة المخيفة، وظللت عينيه غمامة لا يرى من خلالها جيداً، مع شعور بأنه على وشك فقدان الوعي، جفاف شديد في حلقه، فقدان شهية، وصداع طفيف يلازمه مؤخراً..

حاول التماسك كثيراً، وحاول التجاهل أكثر، لكن لا فائدة، فأصبح عصبيًا رغم محاولته السيطرة على نفسه معظم الوقت.

عاد للمنزل متأخراً..

عندما فتح الباب سمع صوت بكاء الصغير فتوجه نحو الغرفة، وجده يبكي بشدة في فراشه، بحث بعينيه عن زوجته فلم يجدها..

حمله برفق يهدهده عندما أتت "جمانة" تلف صغيرتها بمنشفة وتضحك معها، ابتسم لهما متسائلًا:

- كنتِ فين يا جمانة؟.. مروان كان بيعيط.

رفعت عينيها إليه، اقتربت منه تمنحه قبلة ترحيب على وجنته وتلقي نظرة على الصغير المستكين بين ذراعي والده الدافئتين..

أجابته بابتسامة:

- ملك كانت بتاخد شاور وعاوزة تلعب في المياة شوية، عيط كتير حبيبي؟

واتجهت مع الصغيرة نحو غرفتها وهو يتبعهما، جلست تجففها وتلبسها ثوب نومها، مع جوابه:

- مش عارف.. أنا جيت من برا لقيته بيعيط جامد قوي، بس شكله كان بيعيط من فترة.

تطلعت إليه تمط شفتيها بطفولية:

- حبيب ماما معلش ما سمعتش، ملك كانت مبسوطة قوي جوا وشغلتني.

وضعت الصغيرة الناعسة بالفراش وقبلت جبينها..

ناولها هو "مروان" وانحنى يمنحها قبلته هو الآخر قبل أن يتجها معاً نحو غرفة نومهما، وهناك داعبها بلهجة مرحة مقلداً الصغير:

- مروان اشتكى لي، وبيقولي ماما مطنشاني خالث يا بابا وثايباني لوحدي.

اعتدلت فجأة تلتفت إليه، بلمعة غضب مفاجئة ولهجة دفاعية:

- لا طبعاً مش مطنشة، أنا قلت لك ما سمعتش، باب الحمام كان مقفول عشان ملك ما تاخدش برد، وهوكان نايم قبل ما أدخل.

اندهش لطريقتها، ثم عقد حاجبيه في استياء..

اقترب منها يربت على كتفها برفق، نظرته تسبر أغوارها كأنه يتساءل ما بك؟

أتاها رده الهادئ بتساؤل:

- أنا باهزر يا جمانة مالك؟

شعرت بالتوتر، لمَ احتدت عليه؟.. حمقاء، أجابته بابتسامة مرتبكة:

- معلش يا حبيبي، أصله مغلبني طول النهارومش عارفة أرتاح.

نظر إليها في صمت، لا يبتلع جوابها لكن لمَ يكذبها!!

أما هي فمنذ زيارة جدة الصغيرة تبذل قصارى جهدها لتوفير الوقت لها، إحساس الذنب يملأ صدرها ويتغلغل فيه يتآكله كصدأ ينخر قطعة من المعدن..

لم تقصر في حقها، وبالطبع لم تقصر في حق الصغير..

لمَ تصرفت بهذه الطريقة معه؟..

غبية..

عنفت نفسها في صمت، إنه فقط يمزح، أصبحت عصبية مؤخراً، وتشعر بضغط رهيب يكاد يفجر مخها..

كان هو ينظر إليها في سكون، يلاحظ تتابع مشاعرها على صفحة وجهها التي تنبئ عما بداخلها دومًا وبوضوح تام..

لمَ هي متضايقة هكذا؟

حزينة، وتتخذ موقفَ دفاع رغم أنه لم يتهمها بشيء..

شعر بتلك الرعشة تسري في كفيه من جديد فتماسك قدر استطاعته، تحرك أمامها ليجلس فوق الفراش بهدوء ممدداً جسده، مغلقاً عينيه باستكانة.

نام الصغير بعدما أرضعته، جلست إلى جوار زوجها تنظر إليه..

ترى هل أغضبته؟

اقتربت منه وبرفق أحاطت خصره بذراعها وأراحت رأسها فوق صدره..

لم يفتح عينيه ولم يتحرك..

هو فقط يخشى إحاطتها بذراعيه فتشعر بما ينتاب جسده ولا يريد إثارة قلقها..

رفعت وجهها تنظر إليه وإلى عينيه المغمضتين، داعبت شفتيه بإصبعها فقبله ببسمة، سألته بدلال:

- هتنام؟

فتح عينيه ينظر إليها، لمعت عيناه بمشاغبة وأجاب بمكر:

- على حسب!!

بادلته نظرته الماكرة، وتدللت أكثر:

- حسب إيه؟

اعتدل بهدوء ورعشة جسده تتلاشى..

أحاطها بذراعيه ودفن أنفه في خصلاتها يتشممها بنشوة، إلى جوار أذنها همس بشقاوة عابثة:

- حسب هتدلعيني النهاردة إزاي؟.. لو الدلع عجبني ممكن ما أنامش.

وأتبع حديثه بقبلة خافتة فوق شعرها..

ابتعدت قليلًا تنظر إليه، امتلأت عيناها بحب وهي تتأمله، تحفظ تقاطيع وجهه..

صمت ينظر إليها بينما ترسم ملامحه ببطء..

مدت كفها تتحسس وجنته برفق، واستقرت بنظراتها تعانق نظراته، وجدت تلك الهمسة تخرج من صدرها، دافئة، بل حارة، لتخترق قلبه دفعة واحدة فينتفض بعنف:

- بحبك قوي.. قوي.. قوي، ربنا يخليك ليَّ.

سحب نفساً عميقًا ثم جذبها إليه هامسًا مجدداً:

- أنا بأقول مش مهم دلع!

ضحكت بخفوت متدللة ثم استسلمت لعاطفته المحمومة التي تغرق فيها فتبثها الحياة.

******

عندما فتح عينيه في الصباح الباكر كانت تسكن صدره كعادتها، يحيطها بذراعيه وتداعب أنفه رائحتها الخاصة، تنفسها بعمق، حبسها في صدره..

أفكاره تتناطح داخل عقله، تلك الأعراض التي أصابته مؤخراً، لا يعلم أهي خطيرة أم لا؟.. هل يمكن علاجها؟.. أم أنها فقط ستنهي حياته؟..

وعند هذه النقطة من أفكاره شعر بغليان دمه في عروقه..

هل يمكن أن تكون لغيره بعد موته؟.. مثلما كان الأمر بينهما!!

لم يحتمل مجرد مرور الفكرة العقيمة في خياله، فحركها برفق وأراح رأسها فوق الوسادة، نهض بهدوء مغادرًا الفراش، ثم خرج من الغرفة متجها نحو المطبخ.

لقد أصبح مجنونًا رسميًا، هكذا وبكل بساطة، يغار عليها حتى بعد موته!!.. أي جنونٍ أكثر من هذا؟.. ولكن هل يمكنها بالفعل أن تصبح لغيره؟.. يلمسها كما يفعل هو!.. يداعب خصلات شعرها الناعمة!.. يتنشق عبقها ويحتفظ به داخل رئتيه مثله!.. يقبل كل بوصة في وجهها مختتمًا بفاكهته المفضلة حبتي الفراولة خاصته..

ينهل من شهدها وتصبح ملكه كليًا!.. كما حدث معه تماماً؟.

ضرب السطح الرخامي البارد بعنف وهو يحضر كوبًا من القهوة..

الغضب يتصاعد بداخله، والنيران تحرق خلاياه، دمه يغلي، يفور ويكاد يفجر شرايينه..

لسعته القهوة الساخنة فشتم بصوت خفيض، حمل كوبه وتوجه إلى غرفة مكتبه، أمام النافذة الزجاجية الكبيرة التي تحتل نصف الجدار وقف، يرتشفها ببطء، يفكر بعمق، ولمعة حزن تمتزج بلهيب حدقتيه.

أنهى قهوته وسط صراعٍ قاسٍ يعانده ويحفزه أن يملأ الدنيا صراخًا بالفعل.. وضع الكوب أمامه على إطار النافذة واحتفظ بشروده..

تمطى قليلًا وعمق أنفاسه يزداد..

اهدأ "أدهم"، اهدأ..

ذراعيها التفتا حول خصره فجأة فانتفض لثانية، وهمستها الحنون تصل لأذنيه بينما تريح رأسها على ظهره:

- إيه اللي مصحيك بدري كده؟

تنهد ثانية وهو يجذبها منهما ليلصقها به أكثر، ثم يطبع قبلة على باطن كفها مجيبًا بابتسامة وارى بها قلقه:

- أبداً.. قلقت فما حبيتش أقلقك.

فكت ذراعيها ثم دارت حوله لتواجهه، وقفت أمامه تحيط عنقه بهما وهي تنظر إليه بحنان، قبل أن تنطق كان يدفعها بجسده للخلف وهو يرفع ذراعه أعلى رأسها يجذب الستار فوق النافذة هاتفًا بحنق:

- جمانة!!.. أنا قدام الشباك، بتهرجي!.. بالروب وقميص النوم!!

ضحكت بدلال وهي تداعب أنفه:

- حبيبي.. إحنا في الدور الكام؟.. بعدين ما فيش حد قصادنا، الفيو مفتوح.

قطب جبينه مغتاظًا ومصرًا:

- برده!!

ردت بحنان:

- خلاص أوك.. ما تزعلش، حبيبي.. إيه شاغل باله وقالقه بدري بقى؟

أحاط خصرها بذراعيه، ينظر إليها، بل ينظر داخلها، يفكر..

والأفكار تقتله، تذبحه الواحدة تلو الأخرى..

قلبه تتسارع نبضاته، وفي نفس الوقت يشعر به يكاد يتوقف تمامًا، لاحظت صمته وشروده فداعبته ثانية:

- إوعي تكون بتفكر في واحدة تانية غيري!!.. أقتلك وأقتلها.

ابتسم بحب، غرقت هي بين جفنيه، نظرة الغرام الدافئة التي يحوطها بها فتنسى كل وجع مر عليها منذ ولدت، همس لها بصدق:

- أدهم مستحيل يفكر في حد تاني غير جمانة.

تحسست وجنته بظاهر كفها في حنان، مع سؤاله المتردد:

- جمانة ممكن تفكر في حد تاني غير أدهم؟

نظرت إليه بدهشة، أو ربما صدمة.. ما هذا السؤال؟ ولمَ خطر بباله من الأساس؟

ابتسمت وعيناها تمتلئان بعشق تبثه رسائله حرفًا حرفًا، تابعت همسها الرقيق:

- جمانة ما تقدرش، حتى لو حاولت ما تقدرش، كل خلية في جمانة مطبوع عليها اسم أدهم، كل نقطة دم بتجري في عروقها فيها نظرته، كل فكرة بتمر في خيالها فيها ابتسامته، وكل وش بتصادفه مش بتشوف غير ملامحه، قلبها دقاته بتناديه، وراحتها وأمانها في حضنه هو بس.

أنهت كلماتها ووضعت رأسها فوق صدره، ضمها إليه بقوة، يريد أن يزرعها داخل قلبه، يحبسها بين ضلوعه..

تنهد بعمق، حديثها من المفترض أن يشعره بحبها، بالاطمئنان، بالسكينة التي يرجوها، لكن عقله يكاد ينفجر بالفعل، وشيطانه يصورها له بين ذراعي آخر غيره، يلمسها، يضمها، يقبلها، ويبثها حبه، يحفظ تفاصيل ملامحها كما يفعل هو، تجعيدة أنفها عندما تتضايق، تقطيبة جبينها عندما تفكر، ابتسامتها وقت شرودها، وتلك الحركة التي تلزمها فتمسك شحمة أذنها عندما ترتبك وتشدها بقوة..

يا إلهي سيجن حقاً.

سمعت همسته الوجلة:

- حتى لو أدهم بِعِد؟

تراجعت تنظر إليه، الآن الخوف يتمكن من مقلتيها.. أحمق، أقلقتها..

أجابته وهي لا تفهم:

- ومين قال إني ممكن أسيبه يبعد؟

منحها ابتسامة لم تلمع بها عيناه مع جوابه الذي فجر قلقها بحق:

- مش كل الفراق بإيدينا.

هزت رأسها في رهبة، وخزة موجعة اخترقت قلبها فهتفت قلقة:

- في إيه يا أدهم؟.. ليه الأسئلة دي؟

ابتسامته حاول جعلها مطمئنة هذه المرة وهو يطبع قبلة على جبينها:

- ما فيش يا جوجو، أفكار بتيجي غصب عني، وإنت عارفاني بأغير على الحريم بتوعي.

حاولت الابتسام ثم عادت تستكين فوق صدره، تفكر في حديثه دون أن تفهم، ثم تخشى التفكير فيه ويئن خافقها داخل محبسه..

اكتنفهما الصمت، لا يزال يسبح مع أفكاره التي تركض به نحو هاوية الخبال، وهي تتساءل عما به!!

شعرت بتوتر جسده، هو متضايق من أمر ما لكنه لا يصرح لها، تمنت لو استطاعت محو قلقه، لكن كيف يمكنها ذلك وهو لا يشركها فيما يسبب له الأرق؟.

فوجئت به يرفع وجهها نحوه، بعينيه بريق غريب، وغرابته تتمثل في لمحة الغضب النارية التي اقشعر لها بدنها..

ارتبكت، ولم يمنحها هو فرصة لحديث، حبس أنفاسها بشفتيه، وبتملك تشعر به للمرة الأولى، كأنه يوصمها بقوة ويثبت لها أنها ملكه هو فقط، ابتعد لثوان يلتقط أنفاسه، ابتلعت ريقها أمام عينيه..

صامت هو يتأملها وهي لا تفهم، تراجع خطوة هامسًا بحشرجة:

- ثانية واحدة.

واستدار على عقبيه يغلق باب الغرفة بمفتاحه ثم عاد يلتفت إليها..

مد يده خلف عنقه يخلع سترة منامته أثناء اقترابه منها، تطلعت إليه في دهشة صاحبها تساؤل:

- أدهم.. أنت هتعمل إيه؟

ألقى السترة فوق المقعد المقابل للمكتب وهو يخطو نحوها ببطء.. كسر صمته بابتسامة جذلة على شفتيه الخبيثتين مع رده الوقح:

- هاتأكد من اسمي المطبوع على خلاياكِ!

اتسعت عيناها، لكن نظرته الجادة والمشاكسة في نفس الوقت أنبأتها أنه لا يمزح.. هربت من أمامه فأوقفها عندما أمسك بمعصمها يجذبها إلى صدره وهي تهتف بمرح:

- يا مجنوووون!!

تملك من خصرها وهمس بشغف قبل أن ينحني نحوها:

- عارف.

لم يكن هكذا من قبل، لا تدري ما به!.. وما هذا التغيير المفاجيء!

لكن إن كان ذلك يسعده فما المانع؟

وها هي تستسلم لجنونه من جديد بينما يدفن أفكاره المتصارعة بين ذراعيها.

******

"رفض!!"

هتاف حاد، امتزج بحزن وغضب، خرج من صدر "علا" وهي تحادث صديقتها عبر الهاتف..

لقد رفض طلبها، طلبها الذي مررته مع أخته علها تقترب منه أكثر، لكنه وضع الحاجز وأنهى الأمر بشكل قاطع..

هو يخشاها بالتأكيد، يخشى انجراف مشاعره نحوها وإلا فلمَ الرفض؟.. أصابها تخمينها بنوع من الغرور الأنثوي وحفز لديها دافع التحدي، الإصرار والمثابرة.

أخبرتها "سارة" بأسف عن رفضه معللًا أنه من الأفضل أن تنتبه لدراستها في هذا الوقت بدلًا من الانشغال بالعمل، وبعد نهاية العام يمكن للفتاتين أن تعملا سويًا في الشركة..

هكذا وانتهى الأمر، قطع هو طرف الحبل من ناحيته، لكنها ستعيد عقده من جديد وهذه المرة بعقدة لا تنفصم أبداً.

جلست "سارة" شاردة تفكر في أخيها، عندما طلبت منه أن يسمح لصديقتها بالعمل والتدريب معه في الشركة حتى يحين التخرج وتستلمان وظيفتيهما بشكل جدي، وما فاجأها هو رفضه القاطع وربما الغاضب، كلمة واحدة هتف بها وقتها:

- لأ.

انعقد لسانها دهشة، ثم تركت الصغير الذي كانت تلاعبه، وتوجهت تجلس إلى جواره على الأريكة، تساءلت باستغراب:

- ليه لأ يا آدم؟.. علا هتستفيد بالخبرة العملية أكيد وهي محتاجاها.

ونظرته التالية أنبأتها أنه يعلم جيدًا ما تخطط له صديقتها، بل وما تفعله هي من دفع لها في طريقه ليتعثر بها، كأن الأمر ينقصه!

أجابها بجدية مصطنعة:

- طبيعي الرفض يا سارة، سواء أنتِ أو صاحبتك محتاجين تركزوا في مذاكرتكم الأول، خلصوا السنة دي بتقدير كويس والشغل موجود مش هيهرب، إنما دلوقتِ كل اللي هيعمله إنه يعطلكم عن دراستكم.

لاحظت صيغة الجمع في حديثه، هو يجمعها مع صديقتها كأنها طلبت منه العمل أيضًا..

يمرر لها رسالة ما ربما، أن لا تفعلي، لكن جانبها العنيد أصر:

- بس يا آدم أنا وعدتها، وهي محتاجة التدريب، عاوزة تستفيد، يبقى ليه لأ لو هي ملتزمة في الدراسة وعندها القدرة إنها تجمع بين الاتنين؟

زوى ما بين حاجبيه في استهجان:

- يعني إيه وعدتيها؟... مش المفروض تسألي الأول؟

زمت شفتيها غاضبة مع ردها الحانق:

- يعني أنا غلطانة إني قلت لك أنت!!.. كان ممكن أطلب من أدهم وما كانش هيرفض على فكرة.

رفع أحد حاجبيه بسخرية، مال نحوها مغيظاً:

- بس أنتِ طلبتِ مني؛ لأنها قالت لك عاوزة تشتغل معايا أنا مش كده؟

اتسعت عيناها قليلًا، إذاً فهو يعرف، يلاحظ، والآن يتجاهل، يرفض، تلعثمت وهي تجيبه:

- مش بالظبط، هي طلبت تتدرب في الشركة عموماً ولو معاك هيكون أفضل لأنك أستاذها وهتفيدها أكتر.

نظرة عينيه في هذه اللحظة تخبرها...

"أتلاعبينني يا صغيرة؟"

مط شفتيه ومنحها رداً نهائياً بلهجة تحمل شيئاً من ملل:

- في جميع الأحوال لأ يا سارة، لا أنتِ ولا هي، خلصوا دراستكم الأول، انجحوا ووروني التقديرات الحلوة، ووقتها الشغل هيكون تحت أمركم.

شعرت بالاستياء لكنها لا تملك من الأمر شيئاً..

وافقت على مضض، وأبلغت صديقتها برده، أحست بغضبها، حزنها، ورفضها للحديث..

لقد أنهت المكالمة معها بعدها بثوان ونقطة وانتهى السطر، لكنها على علم تام أنها ستبدأ سطرًا جديدًا عما قريب.

******

ليست ضعيفة أو منكسرة الجناح، لا تحتاج لحماية من أحدهم، ولا ذكرًا خشنًا يملي عليها أوامره، ويتكرم بوجوده المميز في حياتها..

هي أقوى وحدها، أفضل دونهم، أحسن حالًا وبالها مرتاح بشدة.

ما بال الرجال؟

أحدهما يطاردها مخبرًا إياها أنه مجروح مثلها، أن أنثاه الأولى رفضته ورفضت أن تحصل على أولادها منه، فاختارها هي ليكمل معها ما تبقى له من عمر، ولتمنحه أولاده المزعومين.

والثاني يلعب على وتر احتياجها لأن تكون مصدرَ عطاءٍ وحنانٍ في حياة أحدهم، يحتاج أمًا، لنفسه ولطفله الصغير..

كلهم يرونها أنثى منقوصة، كلهم يطاردون جزءً منها ويتركون الباقي..

لا أحد يستطيع أن يراها كاملة كما هي..

بجوانب قوتها، ضعفها، نقصها حتى..

بل يطاردون سرابًا يظنون أنها تمتلكه، لكنها للأسف لا تملك أي شيء.

عندما رحل هو سحب معه الكثير من طاقتها، من قلبها، من روحها، هو من تفتحت زهرة أنوثتها على يديه، من رواها، أسكرها، جعلها ثملة بخمر عشقه وفي النهاية ذبحها دون اكتراث، بلا اهتمام، تركها تنزف، تحتضر، ورحل.

رحل لأخرى غيرها، أخرى مكتملة، تمنحه ما ينقصه معها، تمنحه ثمرة يزرعها في أحشائها فترويها بحب حتى تحملها بين يديها..

لكن من يمنحها هي ما ضاع منها؟.. من يهتم؟.. من يراعي ويشعر ولديه الاستعداد أن يتممها؟.

تتممهم هي؟

ربما..

لكن من يكمل نقصانها؟

رباه "أحمد" لمَ طعنتني بغدر ورحلت؟

تركتني مضغة تلوكها الألسن والأعين والأفكار؟

كنت لك كُلًا كاملًا غير منقوص، لكنك لم ترَ فيّ إلا أوجه الانتقاص، وفي لحظة ما، ألقيتها بعنف صادم في وجهي..

لم تجرح يا حبيبًا لم يكن قبله أو بعده حبيب..

بل ذبحت، أنهيت، وتركت النزف بدون ضمادة، بلا توقف، وحتى الآن.

حبك حولني لضعيفة لم أكنها يومًا، وغدرك أنهى ذلك الضعف، حوله لتبلد، لامبالاة، وابتعاد..

أرفض، أكره، لا أريد، والجرح لايزال ينزف دون علاج، دون أن يندمل.

"حازم" زارها اليوم مجدداً..

أو بالأحرى فاجأها بزيارة غير متوقعة هو الآخر كأنه يحاول فرض لجام ما على قرارها..

حجة مصطنعة باستشارة أخبرها عنها سابقًا أثناء تناولهما الغذاء ذلك اليوم، قضى معها بعض الوقت في حديث قصير يخص أرضًا ما مُلكٌ لقريبه عليها نزاع بينه وبين آخر، يسأل عن كيفية الوصول لحل يرضي جميع الأطراف!..

إلى آخر حجته الطريفة.

بعدما انتهى من سرد ما لديه -وطرحت عليه فكرة مناسبة شكرها عليها بل ومنحها بعض من ثناء- لمح لموضوع زواجهما ثانية..

لم يكن جريئًا كالمرة السابقة، فقط رمى ببضع كلمات تعبر عن انتظاره لرأيها..

وعندما ابتسمت ببرود لتمنحه الرفض عقد حاجبيه مستاءً وبدأ الحديث الجدي، لكن من حسن حظها وسوء حظه أن أتى أحد المحامين المتدربين في مكتبها إليها لأمر هام فاضطرت للاعتذار منه، ليغادر هو حانقاً غاضباً، وقبل أن يرحل رماها بنظرة تخبرها أن لا مهرب مهما فعلت.

لا تدري ما به حقاً؟

لقد رفضت أكثر من مرة، ما الذي يجعله متشبثاً بها لهذه الدرجة؟

ألا توجد غيرها امرأة صالحة لمتطلباته؟

لا أخرى تفي بالغرض؟

واحدة يشطب معها قائمة المواصفات المطلوبة في العروس المرغوبة!!.. ابتسمت ساخرة، هناك أخريات بالتأكيد لكن عناء البحث منهك بلا شك، رباه متى ينتهي هذا الأمر ويتوقفا تمامًا عن ملاحقتي!!.

انتزعها من شرودها طرقات خافتة على باب حجرتها، رفعت عينيها إليه بينما والدتها تفتحه، ظهر وجهها يطل من خلفه بابتسامة حنون وسؤال هامس:

- لسه صاحية يا لميا؟

بادلتها ابتسامتها وهي تنهض من فراشها متجهة إليها، فتحت السيدة الباب أكثر مع جواب ابنتها:

- يعني يا ماما.. مش جايلي نوم، قلت أقرا شوية، أنتِ سهرانة ليه بقى يا جميل؟

أمسكت والدتها بكفها وجذبتها خلفها، لم تجِبها حتى جلستا في غرفة المعيشة بلهجة امتزج فيها القلق بالعتاب والأسى:

- بافكر في حالك يا بنتي.

اندهشت لكلمات أمها..

ما به حالها؟

يا الله ستبدأ تلك الاسطوانة من جديد..

قررت أن تحول الموضوع لدعابة فهتفت متسائلة بمرح:

- ماله حالي بس يا ست الكل؟.. ما أنا زي الفل أهو!

لم يعجب والدتها طريقتها الملتوية في الدوران حول الأمر، قررت أن تنتهج مبدأ الصراحة حد الوجع لعلها تفيق من غيبوبة الماضي الذي تدفن نفسها فيه:

- حالك مش عاجبني يا بنت قلبي، أختك كلمتني النهاردة وقالت لي إنكم قابلتوا دكتور آدم أخو جوزها في النادي إمبارح، حصل؟

التمعت عيناها بغضب، سأقتلك "جمانة" وللمرة الثانية في خلال يومين، ابتسمت في مداراة لغضبها مع جوابها المقتضب البارد:

- أيوة يا ماما، عادي يعني.

لم تهتم الأم بل سألتها من جديد:

- كلمك تاني في موضوع جوازكم؟

أشاحت بوجهها بعيدا مع زفرة حانقة..

تباً!

ردت باقتضاب أكبر:

- أيوة.

مطت والدتها شفتيها مع تقريرها:

- وطبعاً رفضتِ زي كل مرة.. تكلميه بطريقة زفت، وتمشي وتسيبيه.

باقتضاب مرة أخرى:

- أيوة.

شعرت والدتها بالغضب فصاحت فيها ساخطة:

- ليه يا لميا؟.. ليه يابنتي؟.. هتاخدي إيه من الرفض ده؟

انفجر غضبها فجأة وهي تصيح:

- وهاخد إيه من الموافقة؟.. على الأقل من الرفض هاخد راحة بالي وقلبي، أخدت إيه من الجواز قبل كده غير الوجع، والغدر، والظلم والإحساس بالنقص؟

تطلعت إليها الأم في دهشة..

هل ستفرغ شحنات غضبها المكبوتة أخيراً!!

صمتت تنتظر استطرادتها التي أتت متألمة بصوت مرتجف:

- أخدت إيه يا ماما غير قلب مكسور؟

استندت برأسها على الأريكة التي تجلس فوقها، تنهدت بعمق حد الألم، وأكلمت بخفوت:

- غير حب مش عارفة أطلعه من قلبي!!

اتسعت عينا أمها وهي تتطلع إليها..

إذاً فما ظننته حقيقة بالفعل!!

هي لا تزال باقية على العهد.. لا يزال قلبها ينبض للمخادع الذي طعنها بسكين الغدر ورحل تاركا الجرح ينزف في صمت..

لم تستطع السكون أكثر فصرخت فيها:

- أنتِ أكيد اتجننت يا لميا، أكيد.. ما هو ما فيش واحدة عاقلة تحب راجل خدعها وخانها واتجوز عليها وفي الآخر باعها بطلاق، تحبيه ليه؟.. تضيعي عمرك عشانه ليه؟

بادلتها الصراخ:

- عشان مش قادرة أتخيل نفسي في حضن واحد تاني.

نظرت إليها والدتها بأسى..

أهذه ابنتها القوية الداعمة؟.. ابنتها التي دومًا ما تحملت معها عناء تربية أختها الصغرى؟.. التي وقفت بجوارها طوال الوقت؟

ماذا حدث لكِ صغيرتي؟

لم تجد ما تقول سوى بضع كلمات خرجت من أعماق قلبها الممزق ألمًا على وجع ابنتها:

- وعشان كده هتقضي باقي عمرك لوحدك؟.. لا زوج ولا أولاد ولا حد يحبك وتحبيه، يسندك وتسنديه.. وقت ما تحتاجيه تلاقيه، حضن زي ما بتقولي بس المرة دي يكون دافي، يكون أمان بجد، يكون راجل بجد، يحميكِ ويحافظ على قلبك وحبك، ويمكن معاه ربنا يرزقك بالذرية اللي تداوي جرحك صح.. أنا مش باقية لك العمر كله يا لميا، هتعيشي لوحدك، مش هتلاقي حد يسأل عليكِ.. وأختك أهي مشغولة بحياتها آخرها هتزورك كل أسبوع والباقي هتقضيه في وحدتك، فكري تاني، فكري بدل ما تتعبي وتندمي، لأن أكيد هييجي يوم وتندمي أنك ما اديتيش نفسك فرصة تانية.

أنهت حديثها ونهضت، تتبعتها عينا ابنتها بدمعات تلتمع في مقلتيها، ربتت على كتفها من جديد والحنان يغزو حروفها:

- أنا مش باقولك الكلام ده عشان آدم بالذات، ولا حتى عشان مقدم المباحث اللي إتقدم لك قبل كده وأنتِ رفضتيه برده ويا عالم مين تاني وأنتِ ما بتقوليش!!.. لا.. باقولك عشانك أنتِ، أنتِ وبس، المهم فكري،

واختاري المرة دي صح، بس إوعديني تفكري، ريحي لي قلبي وخليني أطمن عليكِ.

غصة تكونت في حلقها منعتها الحديث، سالت دمعة من عينيها، وإيماءة صامتة كانت هي بمثابة وعد..

آه أمي، مزيد من الملح فوق جرحٍ لا يزال ينزف..

ينزف لأحتضر أنا معه في كل لحظة وليت النبض يتوقف، ليته يفعل، بعض من راحة وهدوء وفقدان الرغبة في كل شيء، ليته فقط يتوقف!.

(٩)

الماضي.. يعود

تسحب البساط من أسفل قدميّ..

بنظرة.. ابتسامة.. وشيءٍ من حنان..

تداعب.. تلاطف.. تبغي اقتراب..

ألم يكفك جرح قطعته وتركته ينزف أبدًا!!

ألم يشعرك ألمي بسيطرتك؟

ضعفي بقوتك؟

استكانتي بسلطتك؟

لمَ عدت يا رفيق الروح الغائب؟

تريد ما تبقى مني؟..

نشوة الظفر أراها في عينيك..

جميلتي لم تنسيني!..

وأجيب:

نعم، لم أفعل..

كيف الطريق إلى الخلاص من لعنة تسكن الحشى، تمزق الروح، تغتال البراءة وتبث السم؟

كيف الهروب من ساكن القلب، وهو يتربع داخل حجراته بعنجهية؟

قربك الآن، ظهورك الحالي..

حول بقاياي لهباءٍ منثور..

كأنني فقط كنت أنتظره.. لأتلاشى..

ليتها تستمع إليه فحسب.. لم يقصد.. هو فقط أراد تدليلها!..

جابهته نفسه بشيء من سخرية..

"أحقًا!!.. تدليل!.. ولم تقصد؟.. لقد استغللت لحظة ضعفها يا رجل وأردت أن تنالها حتى لو في مكانها!"

هز رأسه معنفًا لأفكاره التي تثير غيظه، طرق الباب ثانية.. الأصوات أصبحت أهدأ، طرقة أخرى تبعها حديثه الهادئ محاولا طمأنتها:

- دينا!!.. ردي عليَّ طيب!.. أنا آسف.

ولم يصله رد، فقط صوت نحيب مكتوم، أنين يحمل نبرتها المكسورة وبحة غلفت أحبالها الصوتية من كثرة البكاء..

طرق ثانية برفق أكبر، ولهجته هذه المرة تحمل اعتذارًا أعمق:

- أرجوكِ ردي عليَّ، طمنيني عليكِ، دينا.. أنا...

ولم يعرف بمَ يكمل حديثه، لقد اعتذر بالفعل، فما المبررات الأخرى التي يملكها ليقدمها لها؟..

استند برأسه لباب غرفتها الذي يشكل حاجزًا بينهما، تنهد، أو ربما هي زفرة تحمل ضيقًا يعشش بداخله، أراح كفيه في مقابل كتفيه على نفس الباب مستطردًا بأسى:

- أنا آسف بجد.. ما كانش قصدي أضايقك أو أخوفك، أنتِ غالية عندي صدقيني!

ومرة أخرى لم ترد، تحرك خطوة ثم استند بظهره إلى الجدار المجاور لغرفتها، انزلق فوقه ليجلس أرضًا دون اهتمام ببذلته باهظة الثمن، ثنى إحدى قدميه وفرد الأخرى، أراح رأسه للخلف مرتكنًا إليه وسكن تمامًا في انتظارها.. مر الوقت ببطء حتى غفت عيناه دون أن يشعر.

عادت الأم بعد حوالي ثلاث ساعات، الفجر اقترب موعده والصديق الذي يعيش دور العاشق أوصلها لمنزلها وذهب..

صعدت الدرجات الموصلة لغرفة نومها دون اهتمام بابنتها التي رحلت باكية من الحفل، فهي نفسها غادرت بعدها على الفور بصحبة رجلها.. تفاجأت بصديق العائلة الصغير غافيًا على الأرض إلى جوار غرفة "دينا"، عقدت حاجبيها في استغراب.. اقتربت منه ببطء، انحنت قليلاً تمس كتفه بيدها هاتفة برفق:

- تيام!.. تيام!.. أنت نايم كده ليه؟

أفزعته لمستها فانتفض فاتحًا عينيه بسرعة يتطلع إليها بقلق، أدهشها رد فعله لكنها لم تعلق، رآها هو فتنهد بارتياح، هب واقفًا بتساؤل:

- هي الساعة كام؟

أجابته وهي على حالها من الاستغراب:

- الساعة ٣ الفجر، أنت نايم هنا ليه كده؟!.. دينا كويسة؟

نظر إليها بتأنيب، ورد بهدوء حمل شيئًا من غيظه:

- دينا كانت نفسيتها تعبانة جداً لما وصلنا، ما اقدرتش أسيبها وأمشي، فضلت هنا لحد ما حضرتك تيجي يا طنط، وللأسف روحت في النوم.

تطلعت إليه بسخرية، هي تفهمه جيداً وتعلم ما يريده من ابنتها، فكرت لثوان ثم أخبرته:

- طيب.. أنا هاغير هدومي، انزل استناني في المكتب تحت وخلي حد يعملك قهوة على ما آجيلك ونتكلم في.. قلقك على بنتي.

ألقى إليها بنظرة هازئة..

كلمة "ابنتي" التي لفظتها كأنها بصقة لم تعجبه، هز رأسه موافقًا وتحرك هابطًا الدرج نحو غرفة المكتب كما طلبت منه، وفي عقله مائة فكرة وفكرة عما تريد الحديث معه بشأنه.

******

لحظة واحدة تساوي الكثير..

لحظة تقرر فيها مصيرك، بين حياة، نجاة، غد تتطلع إليه.. وبين موت، رحيل، وانكسار أبدي لن تتخلص منه أبدًا.

لحظة تنقلب فيها الأمور رأسًا على عقب، تتغير الأفكار، تتبدل الهواجس، تنهشك كوابيسك بعنف، تثير رعبك وتقتلك خوفًا..

لحظة تندم على الكثير فيها، وتتمنى ما هو أكثر.

لحظة فارقة أفاقت خلالها من غيبوبتها القصيرة، كفه الخشنة لسعت بشرة ظهرها الناعمة.. هو يريدها بشدة، وستكون لا شيء، أبخس من لا شيء لو استسلمت..

انتفضت بمفاجأة تبعده عنها وتمنحه نظرات مرتعبة، كان هو يلهث بعنف، ينظر إليها في قلق.. حاول مد يده نحوها ثانية فهبت واقفة، تتراجع مبتعدة بخطوات متعثرة، تنظر إليه بنوعٍ من الفزع، ارتطمت بمقعد خلفها فكادت تسقط أرضًا..

اندفع تجاهها محاولًا دعمها لكنها منعته صارخة برعب:

- ما تقربش.

توقف في مكانه بصدمة، استندت للمقعد واستمرت في التراجع بارتباك، نظراتها خاشعة نحوه تصنع بينها وبينه حاجزًا وهميًا من هلعٍ مرسوم بدقة فوق ملامحها.. أسفل الدرج استدارت تركض فوقه نحو غرفتها يصاحبها نداؤه باسمها محاولًا تهدئتها:

- دينا!!..

هو خلفها، لن تنظر للوراء، ستسقط لو فعلت، ستصبح فريسة لو فعلت، ستنهار لو فعلت..

أسرعت الخطى وقفزاته في عقبها تصلها، دخلت غرفتها بسرعة وأغلقت الباب بمفتاحه.. طرقاته فوق بابها، نداءاته، رغبة بالاطمئنان يحاول إقناعها بها.. شعرت بخوفٍ شديد، بغضبٍ أشد، خفقات قلبها تكاد تحطم ضلوعها، هو نفسه يكاد يقفز خارج صدرها، تلفتت حولها بذعر، ثم توجهت نحو طاولة الزينة تتطلع لوجهها في مرآتها..

"ماذا يريد من بقايا أنثى مثلك؟.. جمالكِ ذَبُل، عيناكِ ضائعتان تائهتان، نعم أنت مجرد بقايا.. بقايا.. بقايا.."

ترددت الكلمة بداخلها، صدى قوي يرج أرجاء عقلها حتى شعرت به يتردد حولها وتستجيب له الجدران، صرخت بقوة ثم بكلتا كفيها ألقت بكل ما استقر فوق الطاولة أرضًا، انتشرت رائحة العطور في المكان مختلطة ببعضها البعض، أثارت لديها رغبة في التقيؤ، شعرت بالغثيان، اتجهت بسرعة نحو دورة المياه الملحقة بغرفتها، وأمام المغسلة انكفأت تفرغ جوفها بالفعل..

اختلطت دموعها بشهقاتها ونحيب تصاعد بحرقة من شغافها، تشعر بروحها تنسحب خارج جسدها، فتحت الصنبور وألقت بعض الماء على وجهها، نظرت لنفسها ثانية في المرآة وبكت بشدة من جديد.

خلعت ثوبها بعنف كاد يمزقه، تحركت نحو المغطس بملابسها الداخلية، جلست بداخله وفتحت المرش..

الماء بارد تشعر به يضرب جلدها كالرصاص، وليته يطفئ شيئًا من حمم البركان التي تتلظى فوقها، تحرق كيانها، تذيبها وتصهرها فيتصاعد دخان أنينها في صمت، دون أن يشعر به أحد..

ترغب في محو لمساته، إزالة قبلاته التي انتزعها من سكونها وضعفها وانكسارها، بل وكان في طريقه لما هو أكثر، الكل يريد منها شيئًا واحدًا، وهذا الشيء خاصةً لن تستطيع منحه لأحدٍ.. أبدًا.

لم تدرِكم من الوقت مرعليها؟.. لكنها عندما نهضت كانت تشعر بالبرد ينخر عظامها، والمُستغِل الأحمق لا يزال يطرق بابها يطلب اطمئنانًا، ستنال عقابك لاحقًا "تيام"، أنت وكل من يشبهك.

ارتدت مئزرها وخرجت تستند للجدار، توجهت نحو فراشها وصعدت إليه ببطء كسير، استلقت فوقه تحتضن جسدها بذراعيها، تفكر، تدمع، وتقرر.. لا ضعف بعد اليوم، وحتى أنت يا "طارق" سينالك مني نصيبك كاملًا غير منقوص، لقد اكتفيت، ولن يطالني منكم أحد.

******

ماذا يريد منها حقًا؟.. لو كان صريحا بما يكفي -مع نفسه على الأقل- لاعترف؛ هي مجرد رغبة جسدية يطمح إليها منذ زمن طويل لكنها كانت تتمنع، ترسم دور العذراء الغير بريئة، لكن الآن..

"الآن ماذا يا سارق الفرص؟.. الطريق مفتوح أمامك؟.. هل هذا ما كنت ستنطق به؟."

أجاب نفسه حانقًا..

"لا!.. ليس ذلك فقط، أريد حمايتها، الاعتناء بها، امتلاكها كليًا لا مانع من ذلك"

ويعود فيتساءل..

"أي نوع من الامتلاك؟.. الذي لا يتبعه مسئولية، الغير ملتزم بقيود، الذي لا يتضمن صك حريتك!!.. مُستغِل.."

هتف بها ناهرًا أفكاره..

لا هو يريد أن يراها سعيدة، ولا يدري لمَ؟.. شفقة ربما، اهتمام، عطف، حب!!!.. لا.. أو.. محتمل.

تنازعته أفكاره فلم يشعر بها واقفة تراقبه باهتمامٍ وترقب، تتفحص ملامحه محاولةً قراءة ما يدور في عقله، خطت داخل الغرفة بهدوء ثم أغلقت الباب خلفها، انتبه على صوته فرفع عينيه إليها، منحته ابتسامة أضفت عليها لمحة امتنان مصطنع:

- Thanks a lot يا تيام إنك رجعت مع دينا واهتميت بيها لحد ما جيت.

رفع أحد حاجبيه باستهجان، وأجاب بالمتوقع:

- على إيه يا طنط ريما.. أنتِ عارفة أنا مهتم بدينا إزاي!!.

جلست أمامه، مالت تربت على ركبته بحميمية مع ردها الخبيث:

- عارفة!

تنهدت بعمق متظاهرة بالحزن بينما تتراجع في مقعدها، أكملت بلهجة تحمل أسىً باردًا:

- أنت طبعا شفت اللي فريدة عملته في الحفلة وإزاي عاملت دينا!

مط شفتيه مجيبا بنبرة غاضبة:

- شفت.

فاجأته بانحناءة وسؤال مقتضب:

- بتحب دينا؟

تماسك قدر استطاعته، ازدرد لعابه في توتر قبل أن يجيب:

- أكيد يا طنط، باعزها قوي.

التوت شفتاها بابتسامة هازئة، وعادت تسأل بلؤم:

- خليني أعدل صيغة السؤال يا تيام، أنت عاوز دينا؟

إن تظاهر بأنه لم يُصدم سيكون الأمر فوق قدرته، السؤال أثار ذهوله، حاول التماسك لكنه لم يستطع، ارتبك، تعرق، شعر بحرارة غريبة دفعته لخلع سترته تحت أنظارها التي تراقبه كنمر يتربص بفريسته، ابتسم بتشوش ونبرته متلعثمة:

- عاوزها إزاي يا طنط؟.. تقصدي إيه؟

ضحكت، وضحكتها أثارت حيرته أكثر. صمت ينظر إليها لتميل نحوه أكثر موضحة:

- هو الراجل بيعوز الست إزاي يا تيمو؟

الآن لعابه يقف ككرة من الوبر داخل حلقه، لا يستطيع بلعه وبنفس الوقت يستحيل بصقه، تنحنح بتوتر، حاول إصباغ اللامبالاة على صوته:

- مش عارف الغرض من سؤالك بصراحة!!.. دينا بنت جميلة وأي راجل يتمناها.

أراحته من الضغط فابتعدت ترد بمكر:

- طبعًا، دينا مش بس جميلة، دينا بلغتكم يا شباب مزة.. ومزة قوي كمان!

اتساع عينيه جعلها تضحك ثانية بينما تكمل:

- المهم، لو أنت عاوزها!!.. أنا عارفة إزاي توصلها!!

تطلع إليها بذهول، هل تمنحه ابنتها هكذا؟!..

لم تتركه لأفكاره العقيمة التي لا تزال تحمل جينات الذكر الشرقي المتخلف، لاحقته بصوتها المغوي كأفعى تجتذب الفريسة قبل التهامها:

- ده لو أنت مهتم بيها فعلًا، وعاوز تقرب منها، وكمان تخليها تحبك!!

حديثها بدأ يجذب اهتمامه، اعتدل في مقعده يتابعها بانتباه، لاحظت حركته فعادت تميل نحوه مقررة بلهجة ذات مغزى:

- لازم الرؤوس تتساوى!

عقد حاجبيه دون فهم، تساءل بخفوت:

- يعني إيه؟

احتفظت بوضعيتها وعينيها تبثه رسائل شبيهة بالتنويم، استجاب لها منصتًا:

- اللي حصل من فريدة النهاردة، غير اللي حصل لدينا قبل كده بسبب أدهم ابنها.

هز رأسه في حيرة مرددًا:

- برده مش فاهم.

برقت عيناها بطريقة أخافته مع جوابها المقتضب بلهجة حاقدة تحمل قدرًا من غموض:

- سارة الحسيني!

هز رأسه، لم يصله مقصدها، فكر لثوانٍ ثم لم يجد بدًا من طلب المزيد من الإيضاح، فغمغم باستغراب:

- مالها سارة؟

مالت نحوه أكثر حتى كاد يصله لهيب أنفاسها، وبصوت كفحيح ألف أفعى سامة، منحته الجواب، الخلاص، وصك الملكية كما تظن:

- نكسر عين فريدة، ندمر أدهم، ودي تبقى زي دي.

صمتت لثانية تتمعن في تأثير حروفها الشيطانية على ملامحه التي بدا عليها الصدمة مع تسلل الفهم إلى عقله، وكلمة واحدة خرجت من بين شفتيه في تساؤل أشبه بتقرير:

- اغتصاب!!

هزة كتفيها مع شفتيها الممطوطتين ولمعة عينيها الخبيثتين أكدت قوله وإن لم تمنحه ردًا صريحًا بموافقة ما نطق به لأفكارها..

تراجع في مقعده بشيء من رهبة، الكلمة تردد صداها داخل عقله بعنف، عيناه جاحظتان تنظران إليها، استغراب من طريقتها في التفكير والانتقام من ابنة صديقتها السابقة، ممتزج بذهول وقليل من رعب، وفي خلفية المشهد ابتسم شيطانه بخبث.

******

شروق الشمس لدى كل منا له مدلول خاص، بعضنا يشعر بالأمل، بداية جديدة، دفء يطل علينا من بين الغيوم، ونور يشق ظلمةَ ليلٍ طال.

البعض الآخر يحسبها بالثوان، وكل ثانية تمر تقتله، ويقسم أن يدفع أحدهم ثمنها غاليًا، فشمسه التي تزيح سواد السماء الآن تتسلل إليه أشعتها من خلف القضبان، قضبان سجن لن يعترف أبدًا أنه هو من ألقى نفسه بنفسه داخله.

وقف أسفل النافذة العالية شاردًا، دخانٌ معبقٌ برائحة المخدرات التي يتم تسريبها إليه يشكل غمامة فوق رأسه، الوقت مبكر للغاية لكن عقله لا يتوقف عن التفكير، وكلما قرر خطة، عاد يغيرها، يمحوها، ويرسم أخرى مختلفة، وفي كل مرة تكون الجديدة أكثر قسوةً وإيلامًا.

سمع النحنحة الناعسة من خلفه، تلاها الصوت الأجش:

- أبو كمال!!.. أنت صاحي بدري كده ليه؟

التفت إليه بعينين تبرقان، تنافسان الضوء المتسلل على استحياء لينير المكان، تطلع نحوه في صمت، اعتدل الرجل في فراشه المتهالك وصوته يعلو من جديد:

- إيه!!.. سافرت على فين؟

تنهد بحرارة، ألقى نظرة أخرى على شمسه التي بدأت تسطع، تحرك ببطء تجاهه ثم جاوره ممددًا فوق الفراش قبل أن يجيبه بغلظة:

- أني ما نمتش يا سالم أصلًا.

نظر إليه زميله بتفهم، هو يعلم ما به، خططه التي تضنيه بالتفكير فيها، والوقت الذي يستهلكه عقله اعتصارًا لأجل واحدة مناسبة، مال نحوه بابتسامة خبيثة:

- حتة الحشيش عملت دماغ يا معلم، الصنف عالي المرة دي وشكلك رسيت على الخطة الجديدة.

نظر إليه بنوع من القرف، أحمق، مجرد بلطجي يعمل بالقطعة لو صحت التسمية أو صلح الوصف، مرتزق، أجير لمن يدفع، وهو سيدفع وبكرم حتى ينال ما يتمنى، زفر بغيظ مجيبًا:

- لسه يا سالم، لسه.. تفتكر أحسن نرملها وتندب حظها، ولا نريحها من الحياة كلها ونرمله هو؟

قهقه الرجل، فكر لثوانٍ ثم رد بحماقة:

- ويا عيني على اللي حب ولا طالشِ، وبنت أخوك!!

ابتسم بشر، وصوته يخرج من صدره بكره:

- يبقى جوز أمها يربيها، أو يروق نفسه معاها، ما هي بتحصل وإيه يعني!!

عاد الرجل يضحك ثانيةً وذلك الرذاذ المقرف يتناثر من بين شدقيه مجددًا ليثير اشمئزاز الجالس إلى جواره، بعدما انتهى من معزوفة نهيقه المثيرة للغثيان هتف بمرح كمن يخطط لنزهة:

- يعني قررت خلاص؟.. نقول توكلنا على الله ونقرا الفاتحة على روح المرحومة؟

فكر ثانيةً، شرد بعيدًا، وأتى صوته كأنه من عمق بئرٍ سحيق:

- لا.. لسه شوية، سيبني أمخمخ، وأظبط دماغي، ونشوف أنسب وقت للتنفيذ.

وكزه الرجل بمرفقه قبل أن يلقي باقتراحه:

- أنت عارف يا أبو كمال، أنا رأيي نخلص منه هو، هو السبب في رميتك هنا وموته هيطفي نارك.

تطلع إليه "كمال" باستهزاء، يفكر أو لا يفكر فلا عقل له، تنهد مرةً أخرى ولم يرد..

انزلق في الفراش أكثر ممددًا جسده، أغلق عينيه دون صوت، ترك عقله يسبح بعيدًا بأفكاره وخططه التي يتفنن فيها بعناية ودقة، ويقسم لنفسه أن هذه المرة ستكون القاضية.. والأخيرة.

******

وحدتها التي قررتها لنفسها يبدو كأن العالم كله يرفضها، يمانع استقلالها وبعدها، والدتها أبكتها بالأمس، سحبت منها وعدًا عنوةً بالتفكير في قضيةٍ خاسرة.. ثماني سنوات ليست بالوقت القليل أو الهين ليسهل نسيانها،

خاصة مع الفراق الموجع.. الكل يتوقع منها أن تكون أقوى، والكل أيضًا ينسى أنها مجرد أنثى، وكما لها نقاط قوتها، فبداخلها ضعف وإن أجادت إخفاءه، ضعف يحثها على الهروب والاختباء، والرفض على الدوام.

خرجت اليوم باكرًا من المنزل، لم تشأ أن تحتك بوالدتها ولو حتى على مائدة الإفطار فهربت مسرعة قبل استيقاظها.. طوال الطريق إلى مكتبها لم يتوقف عقلها ولو لثانية، حتى قلبها، يضخ الدم بشيء من قسوة داخل عروقها كأنه فقط يطمح إلى تفجير مخها وتحويله لأشلاء مبعثرة.

عندما تقرر الاكتفاء فهي تشعر به بالفعل، لكن الآخرين لهم وجهة نظر مختلفة، حتى مجتمعها العقيم، المطلقة فيه مجرد وصمة عار، لن تنسى صديقتها أو التي كانت تظنها كذلك عندما تهربت من لقائها قبل شهر، بدأت في التباعد وقطع حبال الود، والمعنى الجلي أنها تخشى على زوجها منها، هي في نظرها مجرد سارقة للرجال، أليست مطلقة؟!.

لم تنتظر بعدها أخريات يتجاهلنها فبدأت هي في التجاهل والهروب، ودت لو تختفي لكن كيف السبيل إلى ذلك؟..

تنهدت ببطء ثم استدارت بمقعدها تتطلع من النافذة الكبيرة خلفها، شرودها أصبح لا يطاق وحتى تركيزها في عملها بات مريعًا، أفزعها رنين الهاتف الداخلي فانتفضت تحدق فيه دون فهم للحظات، مدت يدًا مرتبكة تلتقط سماعته مجيبة بلهجة صبغتها بالحزم قدر استطاعتها:

- أيوة يا شروق؟

أتاها صوت مساعدتها في ضجر:

- أستاذة لميا.. في واحد هنا مصمم يقابل حضرتك، رافض يقول ليه ورافض كمان يقول اسمه وبيقول موضوع شخصي.

عقدت حاجبيها في استياء، من هذا؟!... وأي أمر شخصي يجعله يرفض إخبارها باسمه قبل دخوله؟..

نبض قلبها في قلق، أيمكن أن يكون "آدم"؟.. ولكن لمَ؟.. لقد منحته جوابًا قاطعًا في المرة السابقة.. نبهها صوت مساعدتها بهتاف مهتم:

- أستاذة لميا!!

أجابتها بهدوء لا يعبرعن الحرب الدائرة داخل عقلها:

- أوك يا شروق، خليه يتفضل.

اعتدلت في مقعدها تنتظرهذا القادم، قلبها يدق بشدة، وتوتريسيطرعليها بسرعة، طرقة خافتة على بابها تبعها تحرك المقبض..

انفتح لتجده أمامها بابتسامته المعهودة وصوته الحنون الذي طالما أسرها بينما يخطو داخل الغرفة بهدوء:

- إزيك يا لميا؟

وقف يملأ عينيه بصورتها، ملامحها المصدومة، عينيها الجامدتين، اتسعت ابتسامته ثم استطرد مداعبًا:

- أدخل ولا أمشي؟

بعدما توقف قلبها فجأة لرؤيته عاد ينبض من جديد بقوة وعنف أصابها بالدوار.. ما الذي أتى به مجددًا؟.. هل يسعى نحو وجع آخر يحفره داخل روحها؟..

نهضت واقفة مع خطواته المقتربة حتى انتهت أمام مكتبها تماما محتفظًا بابتسامته، صوتها وصله ضعيفًا مرتبكًا ليؤكد له أنه لا يزال يؤثر بها، وتساؤل أبله كأنها تحت تأثير صدمة حادة:

- أحمد..!!.. بتعمل إيه هنا؟.

همس لها بلهجة يعلم سطوتها عليها جيدًا:

- وحشتيني!.

ولم تجد ردًا، ظلت تتطلع إليه، لا تعلم أهي تملأ عينيها بصورته، أذنيها بهمسه، كيانها بحضوره؟.. أم أنها بالفعل فقط مذهولة، مندهشة، مستغربة، وخائفة!.

******

قهرًا ترقرقت دمعة في عينيها..

لمَ يفعل ذلك؟.. سابقًا كانت متأكدة أنها تؤثر به، لكنه الآن يتباعد أكثر، يهرب بقوة، يتجاهل بطريقة مؤلمة..

وقفت تنظر إليه، لقبضتيه العنيفتين وهما تمزقان معزوفة عشقها ثم تلقي بها في سلة القمامة، تطلعه حوله بغضب، ثم دخوله إلى سيارته وإغلاق بابها بعنف وانطلاقه بها.

اليوم صباحًا رفض أن يشرح لها شيئًا في مكتبه، بل أمرها بالذهاب لقاعة محاضراتها ثم تذكيره بما تريد هناك، ولم تجد بدًا من تنفيذ أمره، وهناك عندما سألته أجابها بعملية ولهجة جافة لا تحمل ولو أقل القليل من الود، نعم هو لم يمنحها الكثير سابقًا لكنه كان رفيقًا بها، بمشاعر يعلم أنها ولدت بداخلها وتنمو يومًا عن يوم دون ارتواء، فأين ذهب رفقه الآن؟.

تركت له رسالة اليوم، من "غادته" التي علمت بعشقه لها، مختصرة لكنها تخبره بما في قلبها..

وأحبك كثيراً

أكثر حرارة من البراكين الحية..

أكثر عمقًا من دروب الشهب..

أكثر اتساعًا من خيالات سجين..

أحبك كثيراً...

أحبك حتى أكثر من عدد ذنوبي!...

وها هو قبل قليل، التقطتها من أسفل مساحات السيارة، قرأها سريعًا، تلفت حوله بملامح شبه غاضبة، ثم مزقها وكومها في قبضة واحدة، بعدها ألقاها وألقى معها قلبها في مهملات حياته دونما اهتمام لروحها التي تمزقت معها..

دمعت عيناها، وتحركت للخلف مبتعدة، هاربة، بلا قرار محدد، أتستمر أم تتوقف وتنهي الأمر؟..

لم تنتبه في خطواتها المتعثرة لذلك الواقف فاصطدمت به، تراجعت للخلف ترفع ناظريها عازمة على الصراخ في وجهه لأنه كان في طريقها، وعندما التقت الأعين لم تستطع النطق..

أما هو فعقد حاجبيه في غضب تلاشى مع تلك اللمعة بين جفنيها والتي أصرت أن تسيل ببطء على وجنتها المحمرة، تحولت نظرته للقلق مع سؤاله المهتم:

- أنتِ كويسة يا آنسة علا؟

ازدردت لعابها مع هزة رأسها الموافقة، لم يخرج من حنجرتها صوت رغم محاولتها، فتراجعت أكثر وهي تدور على عقبيها متحركة في الاتجاه المعاكس بينما يتابعها بعينيه.

وما لم تعلمه أنه رأى كل شيء.. تسللها، ورقتها الصغيرة التي تركتها فوق سيارته، رد فعل أستاذها، وحتى هروبها ودمعاتها..

وكل ما راوده وقتها، غضب ممتزج بغضب أشد وهمسة ساخطة:

"غبية"

******

ابتسامة ساخرة وملامح متبلدة، تجهم حاد وجمود تتحدث به مع كل من يقابلها، فقدت كل إحساس تملكه، وتلبست قناع الموتى.. زومبي متحرك لا قلب، لا عقل، فقط آلة تعمل بديناميكية نتيجة قصور ذاتي حتى ينتهي تأثيره.

ولكن منذ متى تتركها المصائب تسير في سكون؟..

كانت بمكتبها، تراجع أوراقها، تتشاغل بعمل، توقف عقلها عن التفكير، سحبها من عمق انشغالها طرقات مساعدتها على باب الغرفة، ثم انفتاحه، دلفت منه تحمل مغلفاً ورقيًا وضعته أمامها موضحة في اهتمام:

- الظرف ده جه لحضرتك ومكتوب عليه خاص.

تطلعت إليه في رهبة، قلق انتابها لا تدري لمَ وهي تنظر إليه!!..

تطلعت للفتاة الواقفة أمامها ومنحتها ابتسامة جافة مع ردها:

- أوك يا مها، روحي أنتِ.

تابعت خروجها بعينين غائمتين، التقطت المغلف ببطء، نظراتها تكاد تخترقه لكنها مرتعبة من فكرة فتحه، بأصابع مرتجفة فضته برفق، داخله وجدت ملفًا ورقيًا بحجم متوسط، تصفحته بخوف وما رأته أصابها بالارتياع.. ألقته فوق المكتب في فزع، ارتفاع رنين هاتفها النقال أثار ذعرها أكثر بينما تنقل بصرها منه إلى الورق بالتبادل.. أجابت الاتصال بتردد وهي لا تعلم من!.. فقط رقم مجهول، ودون رد منها أتاها صوته بطريقة متسلطة:

- دونا حبيبة قلبي.. وصلك الملف بتاعك؟

تسارعت أنفاسها، لم تستطع الرد لكنه لم يصمت:

- ده ملفك في الآداب يا قمر، بس....

قطع حروفه ليثير رعبها أكثر، أتته حشرجة صوتها:

- بس إيه؟!

شعرت به يبتسم منتصرًا مع صوته الشامت:

- بس لو طاوعتيني، هيتمحي بأستيكة، أظن مش حلو في حقك إن سيدة الأعمال الشهيرة يبقى لها ملف زي ده في الآداب، وصور بالشكل ده كمان،

صورك دي مش كده؟.. أنا ما ركبتش حاجة على فكرة، بس أنا ما بافوتش لحظات المتعة، خصوصًا لو كانت معاكِ أنت يا دونا!

خرج صوتها متعثرًا بأنفاس ضائعة:

- أنت مجنون؟!

أنهى حديثه وأغلق الخط، لم ينتظر ردها، وجملتها لم تصله، هو يعلم نتيجة فعلته، هذه ستكون قاصمة، وستخضعها له رغمًا عنها..

تطلعت للملف كعقرب سام، أعادته للمغلف الورقي وأغلقته بإحكام، نهضت واقفة لتلتقط حقيبتها وتخرج من مكتبها في خطوات شبه راكضة، نادتها مساعدتها:

- مدام دينا.. حضرتك في اجتماع كمان ربع ساعة مع....

لم تمهلها فرصة لاستكمال حديثها:

- إلغي كل المواعيد يا مها.. أنا هامشي دلوقتِ.

تحركت بسرعة وتوتر، تريد الهروب، الانزواء في ركن خفي من الكرة الأرضية حيث لا يستطيع أحد الوصول إليها.. كانت تتشبث بالمغلف بكلتا يديها..

أمام الباب الخارجي للشركة قرب مكتب الاستقبال ناداها أحد العاملين به، التفتت تنظر إليه دون انتباه فاصطدمت بالجدار، تمسكت أكثر بالملف

في يدها خشية انفلاته وبعثرته، تعثرت وكادت تسقط على ظهرها لولا ذراع صلبة أُحكِمت بقوة حول خصرها تدعمها ثم جذبتها برفق لتعتدل، اكتشفت فجأة أن الجدار الذي اصطدمت به عبارة عن لحم ودم، جسد فارع قوي، لحية وشارب بلون العسل فوق فك مربع يوحي بالبأس، عينان زرقاوان جريئتان وصوت رخيم صاحب ابتسامة آسرة:

- سوري، أنتِ كويسة؟

انتزعت نفسها بعيداً عن صدره العريض قبل أن تجيب بتلعثم:

- أيوة، آسفة ما خدتش بالي من حضرتك.

اتسعت ابتسامته ثم اكتسبت قدرًا ضيئلًا من التسلية، لمعة عينيه أخجلتها فأطرقت أرضًا مع رده:

- ولا يهمك، إممممم...

رفعت عينيها إليه ثانية فتساءل باهتمام:

- دينا أبو العز؟

ابتلعت ريقها بصعوبة وأومأت برأسها إيجابا، عاد يبتسم وهو يتأملها بشيء من تقدير، مد كفه الكبيرة مصافحًا وهو يعرفها بنفسه:

- مراد مهران.

احتضن كفها الرقيقة بأصابعه مكملًا:

- المفروض في عندي ميعاد معاكِ دلوقتِ.

سحبت يدها منه قبل أن ترد في توتر:

- آسفة جدًا، بلغت السكرتيرة تلغي مواعيدي النهاردة.

مط شفتيه متظاهراً بضيق وابتسامته تتحول للخبث:

- لا كده بداية تعاملنا مع بعض هتبقى مش صح، أنا مواعيدي محدودة وصعب ألغيها وأحدد غيرها.

ازداد ارتباكها، ولم تعرف بمَ تجيب، تذكرت أمرًا فسألته بفضول:

- عرفت إن أنا دينا إزاي؟

عادت نظرة التقدير لعينيه مع جوابه الواثق:

- قالوا لي إنها جميلة جداً، واللي قدامي فتنة مش مجرد جمال بس!

تراجعت خطوة للخلف بدهشة من جرأته، وللغرابة لم تشعر بالغضب كما اعتادت مؤخرًا، اكتنف وجنتيها حرارة شديدة فعرفت أن وجهها محمرٌ الآن وهذا ليس جيدًا، ومع تأمله لها ازداد خجلها، ودون أن تفهم حتى لمَ يخجلها هذا الرجل لمجرد مجاملة تعلمها يقينًا وقيلت لها مئات المرات!!.

******

هو خطؤه منذ البداية، لو وضع حدًا، حاجزًا، سدًا منيعًا لانتهى الأمر قبل أن يبدأ، لكنه فقط صمت، وسيكون صريحًا أكثر مع نفسه، لقد كان ما يحدث يعجبه، هذه صراحة مخزية حقًا.

فتاة جميلة، صغيرة، مرحة ومنطلقة، يجذبها هو، رغم عمره، رغم طفله، ورغم كل شيء قد يحول دون حدوث علاقة كتلك، وعندما أفاق من غيبوبة النشوة وتطلع لشعيراته الرمادية التي تغزو لحيته ببطء علم أنه غبي، ذكر أحمق منتفخ بإعجاب أنثى به كأنه مراهق صغير، لذلك قرر القطع.

رفض فكرة وجودها في الشركة للتدريب، وآخر خطاب وجده مزقه وألقاه في القمامة، يعلم أن ذلك سيؤلمها، لكن بعض الألم الآن أفضل من وجع يمزق روحها لاحقًا..

تبًّا!.. لو تزوج باكرًا قليلًا لكانت ابنته تقاربها عمرًا، وتبًّا مرة أخرى هو يود الخلاص دون جرحها لكن كيف؟.. رفضه لعملها من المفترض أن يمنحها فكرة عما يفكر به، لكنها لم ترتدع، إذًا لابد من بعض القسوة.

كان متأكدًا من وجودها وقتها، تراقب، تنتظر رد فعله، استجابته لحروف "غادة" ومشاعرها هي، لم يكمل حتى قراءة ما اختارت، لكن يكفيه ما مرت عيناه عليه، هو فقط يتمنى أن تكون الرسالة قد وصلتها بوضوح هذه المرة، وللأبد.

والأخرى، الشقراء، ذات الخصلة النافرة على الدوام والطبيعة الثلجية المتجمدة، كأن حياته ينقصها البرودة لتنصب هي شباكها حوله متخفية خلف رداء الصداقة، معتقدة أنه غرٌّ ساذج سيسقط في تلك الشِباك على الفور..

زفر بحنق، ثم عادت "لمياء" تحتل تفكيره، منذ قابلها آخر مرة، خجلها، ارتباكها، وتلك الحمرة الفاتنة التي غزت وجنتيها قبل هروبها بثوان تسيطر على الصورة القديمة التي رسمها لها سابقًا، تمحوها وتستبدلها بهذه الرقيقة التي أشعرته أنه سقط من رواية ما ليطارد أنثاه، حتى يصل إليها وينالها.

******

ذلك الشعور الرائع الذي يجعلك وكأنك تحلق فوق سحابة قطنية من قصص ديزني، تبني القصور مع بيضاء الثلج وأقزامها السبع، تلاحق سندريلا وأميرها يدللها، ورابنزل تلقي إليك بجديلتها الطويلة لتتسلقها صاعدًا برج الساحرة الشريرة.. إحساس لا يضاهيه آخر، لم تجربه من قبل، تتمنى لو مررت به أبكر من ذلك، تأخر كثيرًا في الوصول، أو ربما أنت من تأخرت.

في غرفة الاستقبال بمنزل "أسيل" جلست على استحياء وهو أمامها، يتأملها ببطء، عيناه ترسمان كل تفصيلة صغيرة من ملامحها، حركاتها،

سكناتها، حتى اختلاجة جفنيها ورجفة كفها الصغيرة، منذ ذلك السؤال الأحمق الذي طرحه عليها وبعد جوابها الخجول عليه والأمور تتطور بسرعة.

طلب منها تحديد موعد مع شقيقها فهو يعلم أن والدها متوفَى، وها هو هنا، قابله الأخ بترحاب، وزوجته وحتى طفله الشقي الجميل، والدتها ككل الأمهات المصريات سُعِدت بوجوده، تناقش معهم في أمور الزواج الهامة، ثم في النهاية انسحبت والدته تصاحب أمها، والشقيق مع أسرته وتركوهما وحدهما لتبادل الحديث.

مرت الدقائق وهو لا يستطيع النطق كمراهق غِرّ، ينظر إليها، ويحتفظ بملامحها الخجول في ذاكرته، وهي تبادله صمتًا بصمت، وتحتفظ بعينيها تعد عدد الخيوط في السجادة أسفل قدميها، تنحنح بارتباك شاعرًا بالغيظ من نفسه وصمته، خرجت حروفه خافتة تحمل شوقًا ملحوظًا:

- مبروك..

ابتسمت دون أن ترفع عيناها نحوه، وجوابها كان هامسًا:

- الله يبارك فيك.

تشجع قليلًا فتساءل باهتمام مرح:

- طلعوا كام خيط؟!

ونجحت خطته نجاحًا باهرًا عندما التقت الأعين وهي تنظر إليه بدهشة مستفهمة، لم يبعد عينيه ينهل من دفء عينيها موضحًا:

- السجادة، بتبصي لها من ساعة ما قعدتِ.

وضحكة مرحة تبعت تعليقه، وخجل زاد حتى كادت وجنتيها تنفجران، همس من جديد بحميمية:

- أنا سعيد قوي.

خفضت عينيها مجددًا لتصله همستها في حياء:

- أنا كمان.

تجرأ أكثر:

- مش أكتر مني صدقيني، بس اللي عارفه إني هاكون طاير من الفرحة لما تبقي في بيتي، مش مجرد دبلة وخطوبة.

ابتسمت ولم تستطع الرد، فسألها:

- أنتِ مش شايفة كده برده؟

لم ترد ثانية فألح بتصميم:

- أسيل.. ردي عليَّ.

أجابت بخجل:

- عاوزني أقولك إيه يعني؟

ابتسم مشاكسًا:

- أنا عاوز أسيل الشقية، اللي كانت هتتخانق معايا لما افتكرت إني معترض على شغلها في المستشفى، عاوزها تقولي: مش هتبقى مبسوطة أكتروإحنا في بيت واحد؟

ازدردت لعابها ترطب حلقها الجاف، منذ متى كانت خجول بهذا الشكل؟.. أيعقل لأنه هو.. هو فقط؟..

هبت واقفة فجأة ترد بسرعة:

- أنا هانادي ماما بقى.

وانطلقت خارجة من الغرفة أمام نظراته المندهشة..

صمت للحظات ثم ارتسمت ابتسامة على شفتيه أخذت في الاتساع وهو يفكرفي طفلته الصغيرة، وحياته التي يتمناها معها.

(١٠)

شبحٌ من زمنٍ مضى

أشباح الماضي لا تستكين..

تغافل الذكريات بحثًا عن صدورٍ تستوطنها..

أفئدةٍ تستعمرها..

تهزم الأمل..

تقتل النبض..

توشم الروح بصكِ ملكيةٍ أزليّ..

ألم ممتزج بعشق..

غدر..

خوف..

ذكرى استحواذ..

لا مهرب مما فات لما هو آت..

وتلك النظرة الساخرة.. مع الابتسامة الماكرة.. على شفتي كل شبح..

تخبرك أن:

لا فكاك..

تدفعك نحو الخنوع..

تقيدك بسلاسل صلبة تفتك بغدٍ لم يظهر ظله بعد..

وتنعيه أنت.. واقفًا على شاهد قبره..

تتلو صلاة تطهر بها روحك البائسة..

علّها ترقد في سلام..

"لكل منا شبح يزوره في الأحلام"

ذاك الصمت، الجمود، السكون، لو ألقيت إبرة كما يقولون لوصلك صوتها مدويًا.. تنظر إليه وعيناها تقولان الكثير، تتساءل، تخاف، تتردد، وهو ينظر إليها في شوق.. فقط شوق.

هالات سوداء تحيط بعينيه التي انطفأ بريقهما السابق، لحية نامية غير مشذبة، شعر غير مرتب، وقميص خفيف مع بنطال من الجينز البسيط..

نحل جسده قليلًا، والإرهاق يغلف وجهه..

عندما استقرت بنظراتها بين جفنيه لمحت شيئًا من حزن خلف الحنين الذي يغمر وجهها به، وبينما يكرر بهمس:

- وحشتيني قوي.

كان قلبها ينبض بعنف، لقد عاد!!

ما الذي أتى به؟.. وما بك يا قلب؟.. أستغدر بي؟.. تخونني؟.. وتتلهف للقاءٍ لم تتمنَ حدوثه يومًا؟..

دون دعوة جلس على المقعد المقابل لمكتبها، ودون وعي عادت تجلس هي الأخرى، حروفها المبعثرة فقط تساءلت:

- أنت جاي ليه؟

ابتسم بهدوء، ورده أتاها قاطعًا:

- عشانك يا لميا.. عشان نرجع لبعض!

ذهول، صدمة، فرفض:

- نرجع لبعض!!

نبرة ساخرة تحمل ألمًا مخفيًا:

- على أي أساس يا باشمهندس؟

كان يعلم أن الأمر لن يكون سهلًا، لقد أوجعها، طعنها في أنوثتها وقلبها، لكنه لم يعد يتحمل..

أجابها بلهجة صادقة ألجمتها:

- على أساس الحب، المشاعر اللي ما قدرتش أمحيها من قلبي، على أساس بنتي اللي اسمها لميا على اسمك عشان طول الوقت يبقى على لساني!.. على أساس إني ما قدرتش أعيش من غيرك.

تنظر إليه بإنشداه..

أي لغوٍ هذا؟!..

يلعب ثانية على وتر مشاعرها التي لم تمت نحوه بعد.. يريدها مع الأخرى!!

نعم.. فالرجل الرائع حصل على مبتغاه وأصبح أبًا، وحان دور تلك التي سقطت منه أثناء سعيه خلف أبوته، لكن أحقًا أطلق على ابنته اسمها؟!.. قلبها تزداد نبضاته كأنه سيقفز خارج صدرها، نظرت إليه ثانيةً، إلى ملامحه المنهكة، إلى الشوق الواضح في عينيه، وهمست بألم:

- ليه؟

لم يفهم، عن أي أسباب تبحث؟..

الإجابات كثيرة لأسئلة أكثر تحمل نفس المعنى، منحها نظرة متسائلة جاوبتها بصوت أعلى، اشتعل غيظًا، حنقًا، قهرًا وألمًا:

- ليه جاي تاني؟.. ترجعني ليه؟.. ناقصك إيه معاها المرة دي؟.. مش بقيت أب؟.. ناقص إيه تاني؟

جوابه كلمة من ثلاثة أحرف أشعلت دمائها:

- أنتِ!

ارتكن لسطح مكتبها بذراعه ومال فوقه مستطردا بحزم:

- أنتِ يا لميا ناقصاني، حياتي من غيرك ما كانتش حياة، هي نفسها ما استحملتش تعيش مع بقايا راجل انتهى يوم ما بعدتِ عنه وسيبتيه، ما قدرتش تفهم إزاي أسمي بنتي على اسم غريمتها في جوزها، تعبت لما ناديتها باسمك، لما كانت بتبقى معايا وحاسة أني متخيلك أنتِ في حضني، هي ما عرفتش توصل لقلبي، وأنا ما قدرتش أديه لحد تاني غيرك.. بحبك يا لميا.. وقلبي ملكك رغم الفراق.

انتفض قلبها بعنف لدى مرور الأربعة أحرف داخل أذنيها بصوته المتهدج محملة بالشوق، خُيّل إليها أنها ترى شفتيه تتحركان بتصوير بطيء بينما ينطق بها، كلمته السحرية التي طالما أسكرتها وأذابتها وتمنتها، عاد يكمل بحنين:

- يوم ولادتها فاجأتها باسم بنتنا في شهادة ميلادها، وهنا الشرخ بقى أوضح، ويوم عن يوم بيكبر.. لميا هي اللي كل يوم كانت بتنام في حضني، تصرخ

وتعيط ولما أشيلها تهدى وتبتسم لي.. كنت بانادي عليها كتير رغم إنها مش هتفهمني بس عشان أنطق حروف اسمك.

شعرت ببرودة تكتنف جسدها، لمَ خنت إذًا؟.. جرحت، غدرت وغادرت؟

قطع أفكارها من جديد ليخبرها صادمًا:

- أنا طلقتها يا ليا.. عشان أرجع لك كامل، زي ما المفروض يحصل.

اتسعت عيناها ارتياعًا هاتفة:

- طلقتها؟!

نظرة عينيه منحتها الموافقة، ليوجعها قلبها من جديد، أكملت بحدة معنفة:

- هي الستات لعبة عندك يا أحمد؟.. كل شوية .....

قاطعتها تنهيدته الحارة وتعقيبه الأكثر حرارة:

- يااااااااه.. ما تتصوريش وأنتِ بتنطقي اسمي بانفعال كده عملتِ في روحي إيه؟.. رجعتيها جوايا من تاني، خليتي قلبي يدق من جديد.

عقدت حاجبيها، ورغما عنها رقص قلبها طربًا، حمقاء، عنَّفها عقلها، ليعود القلب صارخًا فيه:

"صمتًا يا أنت، لقد عاد نادمًا، راجيًا، لم يستطع الابتعاد أكثر، هو ملكي أنا"..

لكن عقلها انتصر عليه بدفعة منها عندما ردت بدون أن تولي ما قاله اهتمامًا:

- للأسف اللي بتفكر فيه مستحيل يحصل، أنا وانت انتهينا من زمان، وأنا مش مستنية إشارة منك عشان أقولك شبيك لبيك يا باشمهندس.

برقت عيناه تحديًا، نهض واقفًا، استند بكفيه إلى المكتب ثم مال نحوها مقتربًا أكثر لتتراجع هي في مقعدها بعيدًا عن أنفاسه التي وصلتها:

- لسه ما انتهيناش.. أنا عارف إنك مستنياني، وقلبك مش قادر يفتح بابه لحد غيري.. والدليل.. إنك رافضة الجواز لحد دلوقتِ.

سخرت منه ومن نفسها قبله، المغرور على حق:

- هه.. مين قال الكلام الفارغ ده؟!.. انسى يا أحمد.. ووقتك خلص.

رفع أحد حاجبيه ساخرًا هو هذه المرة ورده فاجئها:

- مش رفضتِ الأستاذ الجامعي أخو جوز جمانة أكتر من مرة؟.. باباه قال لبابا ما أنتِ عارفة إنهم أصحاب من زمان، بابا نفسه متأكد أنك بترفضي عشاني.. زعلان مني من يوم ما طلقتك على فكرة، وبدأ يرضى عني بس لما عرف إني عاوز أرجعك.

نهضت من مقعدها مبتعدة عن هالته التي تُكتفها بداخلها رغمًا عنها وعن عقلها، فذلك الأحمق الخافق بين جنبيها ينبض له عنوة دون إرادتها، تحركت مبتعدة عن المكتب، وهي تجيبه بجدية وحقيقة لم تكذب بشأنها:

- مستحيل تكون دماغك بالشكل ده؟.. أستناك ليه وعلى أساس إيه؟!.. ما أنا كان ممكن أفضل معاك من الأول.. الجواز بالنسبة لي تجربة، مريت بيها وفشلت وما عنديش استعداد أجربها تاني.. وده آخر الحكاية بالنسبة لي.

اقترب منها فتراجعت هي، ارتسمت ابتسامة منتصرة واثقة على شفتيه مع تراجعها أثارت حنقها أكثر، ومع ثقته التي ازدادت زاد في اقترابه..

وقف على بعد خطوة منها ومال بوجهه نحوها هامسًا بلهجة لطالما أذابتها بين يديه قبلًا:

- أنا واثق إنك لسه بتحبيني، وإن سبب رفضك أنك مش متخيلة حد تاني مكاني في حياتك.

اتسعت عيناها مع جنون نبض قلبها، هزت رأسها رافضة فضيق عينيه مكملًا بدفء:

- كفاية اللي ضاع يا ليمو.. بجد وحشتيني.

انخرست تمامًا، دلال اسمها الخاص به هو فقط، من اختاره لها، وتغنى به معها.. لمح ترددها، ضعفها، وكاد يستشعر نبضات قلبها التي تدق صدرها بقوة، ابتسم برقة، ابتعد ثانية لكن قبلها همس بلهفة وأمل:

- هاستنى موافقتك.. أنا وأنتِ بنكمل بعض، بلاش نعيش ناقصين في فراق.

وابتعد أكثر، خطوات متباطئة تنتظر منها نداءً ربما، حتى وضع يده على مقبض الباب، قبل أن يديره التفت إليها، ملأ عينيه بصورتها، منحها نظرةَ عشقٍ خاصة تعرف هي أبجدياتها، ثم رحل.

******

بعض القرارات ندرسها بعمقٍ وتأنٍ، نهتم لنتائجها بدقة، ونأخذ كل الوقت اللازم لنصل إليها، والبعض الآخر، لحظي، سريع، دون فهم أو حتى استيعاب كامل للموقف، قد يصل أحيانا لدرجة الحمق.

هذا ما دار بعقل "دينا" وهي تجلس أمام رجل الأعمال القادم من أوروبا بهالته الغربية ولمحة البرود والجرأة التي تغلف نظراته وحديثه على السواء، جرأة وإن لم تستسغها فهي لم تخفها، أو تتركها منكمشة رافضة متقززة، برود جعله متحكمًا في الموقف من الألف إلى الياء، آمرًا ناهيًا بصلف وحزم.

ذلك الحزم الذي اكتسبته لهجته مع لمحة التسلية الخفيفة عندما اصطدمت به وتلا ذلك اعتذار عن الموعد المحدد مسبقًا بينهما لأجل

شراكة متوقعة وعمل جديد سيبدأه في بلده الأم، ودون وعي وجدته يعرض عليها أن يتحول الاجتماع لغذاء عمل والحؤول دون إضاعة المزيد من الوقت لأنه لا يملك الكثير منه بالفعل..

بعدها كان يقودها نحو سيارته الفارهة، الفارهة بشدة وسائقه ينتظر فاتحًا بابها الخلفي، ساعدها على الجلوس، ودلف إلى جوارها بأناقة ورُقِي.

طوال الوقت متشبثة هي بالمظروف الورقي الذي يحتوي تهديد "طارق" الأخير، ولم تعلم سببًا للحظات من النسيان أو التناسي غشيتها فتجاهلت الأمر ولو لوقت قصير بصحبة هذا الرجل ذا الحضور الطاغي والثقة المشعة بقوة.

منحها ابتسامة متسائلة، لمعة السماء الصافية في مقلتيه وتلك النظرة المتفحصة التي يختصها بها جذبت انتباهها مع صوته العميق ونبرته الماكرة بانجليزية ذات لهجة بريطانية سليمة:

You are not with me-

ازداد انتباهها، تلبست ثوب سيدة الأعمال باقتدار رغم لمحة الارتباك التي مرقت بسرعة في عينيها ولاحظها هو كالصقر، ردت بابتسامة رسمية:

- بالعكس يا مراد بيه، أنا مع حضرتك.

مط شفتيه ورغبة في المرح تدفعه نحوها لا يدري لمَ!!.. لهجته كانت مهتمة:

- مش شايف كده، عيونك بتقول إنك في مكان تاني بعيد عن هنا، و... كفاية مراد بس!

امتلأت عيناها بالتساؤل إلى جوار المزيد من الارتباك الملحوظ هذه المرة، ابتسامته الجديدة كانت آسرة بشكل أنَّ له قلبها خاصة مع استطرادته:

- إحنا دلوقتِ بنتعرف على بعض، ما فيش داعي للرسميات الشديدة قوي دي.

وميْل طفيف نحوها، شمول بنظراته لكلها وهمسة متسلية:

Take it easy-

أومأت برأسها مجارية، تريد الانتهاء من اللقاء، اللقاء الذي طال لمدة ساعة تقريبًا، لم ينهيا خلالها أية أشغال، فقط تناولا الغذاء سويًا!..

أحرقها باهتمام لم تجده من قبل، سألها كثيرًا عن سوق العمل في "مصر" وبين أسئلته العملية دس بعض الأسئلة الشخصية التي كانت تجيبها في اقتضاب أثار فضوله أكثر، لتنتهي المقابلة دون التوصل لاتفاق محدد أو حتى موعد جديد بشكل رسمي هذه المرة.

أعادها للشركة بسيارته وهناك تناول كفها طابعًا قبلة ناعمة فوق ظاهرها، قبلة رغم أنها ليست أول مرة تغازل يدها، لكنها كانت الأولى التي تخترق جلدها وتثير فيها توترًا لم تستشعره من قبل.. ليس خوفًا، لم تجد

بداخلها رغبة في الهرب، لم تشعر باشمئزاز، فقط خجل أنثوي تمر به ربما للمرة الأولى في حياتها كلها..

وتأكدت بعدما دلفت لسيارتها لتذهب إلى المنزل أن وجهها محمرٌّ بشدة عندما تطلعت لنفسها في المرآة أمامها وبالتالي ثار غضبها وتأججت نيرانه، لقد أيقظ في دقائق معدودة أنثى ظنتها دفنت على عمق سحيق بداخلها، وليته ما فعل.

الارتباك.. هو الشعور الذي طغى عليها في هذه اللحظة مع تذكرها لوداعه المقتضب المتسلط:

- المساعد بتاعي هيحدد ميعاد جديد مع سكيرتيرتك.

وشملها بنظرة أحاطتها من كل الجهات، شعرت كأنها جزيرة غارقة في محيط أزرق شاسع لا نهاية له، بينما عمق صوته يصلها بسيطرة أكبر ونبرة راقية:

As soon as possible-

ثم ترك بصمة شفتيه فوق كفها المرتجفة الباردة ورحل، تنهدت بعمق دون أن تتذكر أنه في خضم وجود ذلك الرجل وحضوره العاتي، قد نسيت مصيبتها القابعة على المقعد المجاور لها في سيارتها.

عندما انطلقت به سيارته تشق شوارع الوطن المزدحمة كعادتها كان يتحدث في هاتفه بلهجة آمرة لا تحمل المخاطَب إلا على التنفيذ:

- عاوز كل المعلومات اللي تقدر تجمعها عنها يا ماجد... لا مش معلومات عن البيزنس أو المجموعة، معلومات عنها هي شخصياً، قدامك أسبوع بالكتير... أيوة دينا مصطفى أبو العز.

أصدر أمره وأغلق الخط، أغمض عينيه مستعيدًا ملامحها التي فتنته منذ أول وهلةٍ ولا يدري لمَ!!.. هو قابل الحسناوات من قبل، أكثر بكثير من قدرته على العدّ، لكنها، بخلجاتها المرتعبة، عيناها اللامعتان بفزع، تخبطها وتوترها وجسدها الذي تخشب بين ذراعيه للحظة، أثارت لديه غريزة لم يعلم بوجودها مسبقًا، بل لم يجد ما يثيرها حتى.. غريزة الحماية.

******

الشيطان يتدخل هذه المرة، لكنه تلبس أفعى خمسينية، متصابية، لها ابنة فاتنة يريدها هو بشدة، أيًا كانت الطريقة، ومهما كان سبيل الوصول.

بثت سمومها في عقله وتركته لضميره الميت والمقبور مسبقًا، فلمَ يهتم بالأساس طالما أن الفتاة الصغيرة مجرد وسيلة لغاية يريدها بقوة؟

غاية تحطمت وتحاول جمع شتاتها رغم كل شيء..

هو يستحق، ذلك الذي رفض اهتمامها وحبها.. يستحق عقابًا قاتلًا كالذي خطط له مع أفعاه..

أمه التي كسرت روحها وأبعدتها عن طفلتها بعنف وشراسة، ستشاركه العقاب، هم يستحقون، يستأهلون وجعًا مشابها لذاك الذي تسببوا فيه لجميلته.

ابتسم ساخرًا يسب نفسه ببذاءة، أنت تملك المبررات فقط لتصل لمبتغاك، وغير ذلك لا يهم، استعاد حديثه مع "ناريمان" وهي تحاول إقناعه بمداراة بخطتها الثعبانية للانتقام من عائلة "الحسيني" متمثلًا في صغيرتهم المدللة "سارة"، لم تنطق الكلمة بوضوح، تركت له الاستنتاج، وحثته عليه بطرق ملتوية، عندما حدق في وجهها مذهولًا، وهمس بتردد ضعيف:

- أيوة.. بس سارة مالهاش ذنب، لسه صغيرة.

منحته ابتسامة خبيثة وردًا أخرسه:

- وهي دينا كان ذنبها إيه؟.. هي حبت أدهم، وحاولت بكل الطرق إنه يحبها، وفي النهاية دفعت تمن الحب ده حياتها ومستقبلها.

تسول لها نفسها الدفاع رغم سابق القذارات الموحلة التي غاصت فيها ابنتها قبلًا، لم تترك له فرصة للتفكير المنطقي، فقط أصابته بشلل عقلي مؤقت أعمى بصيرته وبصره لتضع أمامه طبقًا شهيًا من لحم ابنتها العاري كما يتمناه هو:

- لو عاوز دينا ومهتم بيها وبتحبها؛ لازم تكسر اللي كسروها يا تيام، تعرفها إنك انتقمت لها من اللي أهانوها، خدت لها حقها من اللي خدعتها وفهمتها إنها هتجوزها ابنها الأمير الوسيم اللي رفضها وكسر قلبها.

تردد، تردده فقط أعطاها أملًا في موافقته، فاستمرت تدفعه دون وضوح:

- الموضوع سهل قوي، ما حدش هيعرف مين عمل كده، ومش لازم حتى بنفسك إلا لو.. عاوز والبنت عاجباك، والنتيجة صور، هتكسر عينهم لحد ما يموتوا.

رفع عينيه إليها في قلق، شيطانه، نفسه، رغباته، كلهم يذللون أمامه الصعاب نحو اتفاقٍ مسموم، فلسفة أقنع به عقلًا مغيبًا في خمرِ أنثى تذوق منها رشفة فأصابه إدمان لإنهائها عن آخرها وببطء وتلذذ، طمع في التهام الحلوى كليًا، ليصبح بدرجة مخمور مع مرتبة الشرف وجائع إلى الأبد.

******

صغيرة للغاية، بريئة جدًا، خجول وهادئة، تمتلك قدرًا من الرقة لم يره من قبل..

يود الاقتراب لكنه يخشى عواقبه.. من هو؟.. من هي؟.. وكيف تجتمع الشمس بالقمر، أو تلتحم النجوم بالبروق!!.

وقف يراقبها في اهتمام، وحيدة هذه المرة دون درع حمايتها الغائبة منذ عدة أيام، تجلس في مكانها المنزوي المفضل أسفل شجرة وارفة تستظل بها من شمس استمدت حرارتها منها هي فقط، فكيف تهرب من لظاها؟..

نفسه تسوله القرب، عقله يحثه على مغادرة، قلبه يئن شوقًا رغم أنه يراها يوميًا تقريبًا.

الساخر إلى جواره يراقبه هو الآخر، يراقب ملامحه الولهة، عيناه الغائمتان، وابتسامته التي لا معنى لها سوى البلاهة بحق.. يعلم بمن تلتصق نظراته طول الفترة السابقة، ورغم دهشته من تفكير صديقه لكنه يتفهمه، هو الغاضب على الدوام، العصبي، الحانق على مجتمعه الخرِب، الراغب في الهروب دومًا، الصغيرة الحسناء وحدها منذ أيام، والمتردد إلى جواره لم يحادثها سوى مرة واحدة ملقيًا تحية مقتضبة بينما تصاحب هي شقيقته..

أما ذات اللسان الطويل فلم تظهر منذ ضبطها آخر مرة تلقي لأستاذها أخو الصغيرة بجواب عشق ليمزقه ذاك الآخر ويسبها هو ملصقًا بها صفة الغباء، رغم جمالها، ذكائها، عنفوانها وانطلاقها وحيويتها، فهي لا تناسبه أبدًا، وطريقتها في التقرب منه كسرت قلبها وتركته هو" زياد" الذي لا يبالي مقدار شعرة بفتيات الجامعة مضطربًا، حانقًا، ومهتمًا.

تجاهل اتجاه تفكيره الذي اعتاده مؤخرًا، لكز صديقه في ذراعه برفق، وحثه بسخرية مبطنة:

- ما تقوم تكلمها بدل ما أنت قاعد تتفرج من بعيد لبعيد كده.

التفت إليه "عمار" بنظرة تحمل صورتها، همهم بغم:

- ما بدي زياد، هي وين وأنا وين!!.. لشو إتعب قلبي!.

أثار ضجره بحق فأتاه الرد يحمل مقدارًا واضحًا منه:

- يا بني لو مهتم بيها بجد حارب عشانها، عارف إن الظروف زفت، بس اللي في عينيك ده حرام تضيعه في خوف، جرب، مش هتخسر حاجة، وكمان يعني أنت في بلدك من عيلة كبيرة ومناسبة ليها، لولا بس الظروف، الله يصلح الأحوال.

أعشقه واضح لتلك الدرجة بين جفنيه؟!

منذ شهر ونَيّف صدمته بسيارتها، جذبته برقتها، أدمن عذوبة صوتها رُغم اقتضاب الكلمات وخفوت الحروف، تمناها لنفسه، شعر بغيرة كلما خاطبها أحدهم ولو لثوانٍ، وكل هذا حدث بسرعة البرق، دون أن يحسب له حسابًا أو يخطط لوقوعه.

وكزه الجالس إلى جواره ثانية ليفيق من غيبوبة النظر إليها في سكون، دفعه ثانية بشيء من غلظة كأنه غاضب لسبب ما لا يعلم ما هو!!:

- روح كلمها يا عمار، كلام عادي مش لازم تسبل لها يعني، واسألها على صاحبتها فين؟.. مش باينة بقى لها كم يوم!!.

قال جملته الأخيرة بشيء من تردد، التفت إليه ثانية سالخًا عينيه بعيدًا عن صورتها الناعمة ودهشة تغمره حولها لسؤال مسموع:

- صاحبتها!!.. وأنت ليه تاعب حالك؟

ارتباك مر على ملامح "زياد" كانت تلك هي المرة الأولى التي يلمحه فيها، ازدادت دهشته مفكرًا، هل نبض قلب صديقه لتلك التي كان يود قتلها كلما التقيا؟..

أتاه صوته متوترًا نافيًا لشيء لم يسأل عنه من الأساس:

- أبدًا مش كده، بس مستغرب مش أكتر، ما بتظهرش معاها من فترة.

زوي "عمار" ما بين حاجبيه في مكر، لكنه لم يشبع فضوله، لو رغب في الحديث فسيكون حاضرًا وقتها، لن يضغط عليه أو يدفعه، قرر الأخذ بنصيحته فتحرك نحوها ببطء، عينا الصديق تتابعانه بابتسامة، وتنهيدة حارة خرجت من عمق صدره وهو يتأملها تنتبه لحضوره..

ابتسم لها "عمار" بلطف عندما لاحظ حمرة الخجل الرائعة والتي تثير جنونه كلما تخضبت بها وجنتيها عند كل لقاء، جلس إلى جوارها متسائلًا بهمس:

- كيفك آنسة سارة؟

هزت كتفيها بارتباك، لاحظ صوتها بصعوبة مع ردها الخافت:

- الحمد لله.

همس لها وصوته به نبرة اشتياق:

- دراستك منيحة؟

تلعثمت، هو تجرأ أكثر، يحادثها، وجوده إلى جوراها، عطره البارد أنعش حواسها، بدا مرهقًا بعض الشيء، أبعدت عينيها عن منجم الذهب الذي تغرق فيه كلما تلاقت النظرات مع جواب خفيض:

- الحمد لله، وأنت؟

ألقت سؤالها بتردد رسم ابتسامة خافتة فوق شفتيه، تنهد ببطء، ارتشف من هواء يحمل رائحتها ثم حبسه داخل صدره لثوان لا يريد تحريره، أخرجه ببطء أكبر مجيبًا:

- تمام الحمد لله، طمنيني عنك.. محتاجة شي؟

هزت رأسها بنفي صاحبه همس رقيق أذابه من جديد:

- لا.. شكرًا.

لم يجد ما يقوله، كأن الحروف عصيَّة على الخروج من بين شفتيه، وجودها يلجمه تمامًا، يبغي فقط إحاطتها بعينيه، التهام تفاصيلها، التشبع بملامحها، ابتلاع أنفاسها، تشمُمُ هواءٍ مر إلى جوارها، الاحتفاظ بذكرى ابتسامتها، خجلها، رقتها، وهروب عينيها بعيدًا عن الالتقاء بنظراته، وصله صوتها مترددًا:

- ديما ما جاتش النهاردة.. هي كويسة؟

ابتسم.. فقط ابتسم، ابتسامة طفيفة أغرقتها في بحر الشرود، بينما تتطلع إليه يناظرها بحنان لا تتخلى عيناه عنه أبدًا، وصلها صوته الذي تستشعره دوماً ينبع من قلبه:

- راحت مع ماما للدكتور.

ارتسم القلق على ملامحها هاتفة باهتمام:

- يا خبر!!.. ليه خير؟

طمأنها بعينيه قبل أن يجيب:

- ما في شي خطير، بس شوية برد.

تنهدت بارتياح ليسارع هو بالتقاط أنفاسها التي زفرتها حابسًا إياها بين حنايا صدره، تنفس ببطء شديد كأنه يخرجها بغير رغبة من رئتيه، هو يشعر بسعادة، هي إلى جواره، تبادله حديثًا ولو كان بسيطًا معدودَ الأحرف،

تمنى لو صرح لها بما يصول ويجول بين جوانحه، بلهفة تمزقه عند الفراق، وشوق ساعة اللقيا، حنين يغمر النبرات، وصوت يتغلغل في شغاف القلب لا يمسها فقط بل يقتحمها اقتحامًا، يحمل معه عشقًا لا يعلم متى كبر أو نما بهذا الشكل!!.

لاحظ توترها وسكونها، تململها في جلستها، هل تريد الذهاب؟.. هو فقط يجلس إلى جوارها، يتأملها بهدوء، لا يضايقها بحديث، رفعت عينيها نحوه، وابتسمت بخجل أشعل نيران قلبه، بدت شهية للغاية بوجنتيها المحمرتين، حاول الحديث متذكرًا رجاء صديقه المبطن فتساءل:

- ما شفت الآنسة علا معك من فترة، هي بخير؟

استغربت سؤاله، وغيرة تنهشها، غيرة لم تجد لها مبررًا، فشعرت بغضب، نعم هي تفكر به كثيرًا، والآن هي تغار، إذًا هي تحبه، ببساطة اعترفت، وببساطة أكبر لم تهتم لاعترافها الذي نطقته داخل روحها، فقط نفست عن غضبها، الأحمق ذو العينين الذهبتين يسألها عن صديقتها، هل "علا" من تجذبه وليست هي؟!

كادت تصرخ في وجهه، تماسكت قدر استطاعة قلبها الصغير، أتاه ردها باردًا بينما تنهض من جواره راحلة:

- علا أخدت أجازة وهتنزل على الامتحانات، باباها تعبان شوية وسافرت له.

وبدأت تخطو مبتعدة، لم يفهم سر تغيرها المفاجيء، نهض بسرعة يتبعها، ناداها مقتربًا:

- آنسة سارة.. شو اللي صار؟!.. وين رايحة؟

توقفت لثانية مفكرة، التفت إليه بجمود لتمنحه جوابًا قصيرًا منطقيًا بلهجة انقبض لها صدره:

- عندي محاضرة، أي استفسارات تانية؟

تراجع مبهوتًا للحظة، ما بها تلك المجنونة؟.. منذ لحظات كان الخجل يغشاها والآن..

سألها بحزم:

- شوفي، ليه تغيرتي؟.. كنتِ عم تحكي معي عادي من شوي!!

رفعت عينيها نحوه، أحرقتاه بتلك النيران المشتعلة في حدقتيهما، بينما تريحه بجواب لم تعلم كم سيطرب له قلبه:

- عادي يا باشمهندس، حضرتك كلمتني تسألني على صاحبتي وجاوبتك، فين المشكلة؟

تأملها بهدوء مندهشًا قبل أن يستنير فجأة، كاد يقفز في سعادة، إنها تغار، تغار يا "عمار"..

شقت ابتسامة شفتيه علت لها تلك الدقات التي بالتأكيد وصله صداها بين جنبيها، ظلت تنظر إليه في دهشة، لابتسامته البلهاء تغمر وجهه وعيناه تنطقان ببهجة لم تفهمها، همس لها بشقاوة بدت غريبة على تحفظه الدائم:

- زياد هو اللي بيسأل مو أنا.. أنا بدي...

وبدا أنه سيكمل حديثه لكنه توقف، ترك بقايا حروفه معلقة في الهواء تخمنها هي كيفما شاءت، وما خمنته جعل دمها يغادر كل أنحاء جسدها ليتجمع في وجهها المحتقن بقوة..

اتسعت ابتسامته أكثر، ود لو صرخ لها بحب يلتحم بجلده، يسير في دمه عبر خريطة أوردته، يدفعه قلبه مع كل نبضة نحو مخه الشارد المنشغل بها هي فقط، يخُطُّ أسطورة هو بطلها وهي مليكته، ودون أن يدري متى أو كيف، أو لمِ؟!.. المهم فقط أن يلتقيا.

منحته ابتسامة أوقفت الكون من حوله فأصبح يحلق في مدارها، همست بخجلها المعتاد ليذيبه من جديد ويصيبه بجنون عجيب:

- طيب، زي ما قلت لك سافرت لباباها.. بعد إذنك عشان محاضرتي.

وبخطوات رقيقة كفراشة تحلق بين الزهور غادرته، تبعها قلبه الصغير مرفرفًا يطوف حولها، ينبض لها، يهمس بحبها، واسمها الذي أصبح بداخله لحنًا يحلق به نحو الشمس.

******

حيرة تلبستها مؤخرًا، لا تتعلق بها بل به هو، فارس قلبها الأثير، لا تعلم ما به هذه الأيام!!.. رُغم أن التصاقه بها يسعدها، لكنه ودون إرادتها يقلقها، أسوأ المخاوف والأفكار تراودها، تغزوها، تطحن قلبها بين مطرقة الألم وسندان القلق والرعب، رعبُ مَن مَرَّ بماضٍ يخشى تكراره، فاكتفت بالأنين في صمت ممتزج بتِيه.

وقفت بثوب قطني قصير يحمل لون السماء، نقوشه وردات بيضاء رقيقة وحمالتيه رفيعتان تستقران بنعومة فوق كتفيها تعد له فطوره المفضل، تتفنن فيه وتطهوه بأنفاس عشقها، تحضر قهوته السوداء كما يحب وتستعيد ذكرى أسبوع مضى.

طوال سبعة أيام التحم بها بشكل غريب، يعود في وقت الغذاء من عمله، يتناول كل وجباته معها كما لم يفعل من قبل، يقف بصحبتها في المطبخ أثناء طهي الطعام، يدور حولها، يتلصص بعينيه تجاهها عندما تتحرك مبتعدة، تلمح في نظراته شوق، كأنه غاب لقرون، في غفلة منها يتشممها، يسرق منها قبلات خاطفة دون أن تنتبه لحضوره، يهمس لها بعشقه كل حين.

منذ يومين أصر أن يأتي بمربية للأطفال، يريد منها تفرغًا أكثر له، رغم رفضها وحنقها وعنادها كان هو أكثر عنادًا وإصرارًا، نفذ ما أراد، أتت المرأة

تعاونها طوال النهار ثم تعود لمنزلها ليلًا، هي من اشترطت ذلك لموافقتها بينما أراد هو إقامتها الدائمة لتصبح له هو فقط، وكلما حاولت طمأنته أنها لن تبتعد وأنه بالفعل يشغل معظم وقتها، وكل عقلها لكنه رفض بتعنت و تصميم.

رغبته في قربها تبهجها، لكنها تستغربها، وتثير بداخلها توتر وتوجس لا تدري كنهما، فقط يعصران قلبها عليه..

شعرت به خلفها، عطره نفذ لحواسها جميعها مباشرة بينما خطواته الهادئة تقترب منها، ذراعيه أحاطتا بخصرها بحنو، استند لكتفها بذقنه متطلعًا من فوقها لما تقوم به، همس لها بدفء:

- صباحك لؤلؤ..

ابتسمت، يناديها ب-"لؤلؤتي" مؤخرًا، يضفي على اسمها ملكيته الخاصة وهي لا تمانع، رفعت له وجنتها بينما ترد تحيته بابتسامة:

- صباح الحب.

منح تلك الوجنة الناعمة قبلة دافئة كما رغبت، تساءل بعدها بمرح:

- بتعملي إيه؟

اتسعت ابتسامتها وهي تستدير بين ذراعيه:

- فطارك.

داعب أنفها بأنفه بينما تحيط عنقه بيديها، تنهد قبل أن يتخابث بشقاوة:

- فطار إيه بس!.. هو ده وقته؟!

تراجعت بوجهها للخلف مستفهمة، لمحت نظراته فانتزعت نفسها من بين يديه هاتفة بدلال طفولي:

- طبعا وقته، أمال الناس بتفطر إمتى؟

تركها تهرب، توجهت لمكان آخر فتبعها ببطء، هذه المرة أحاطها مستندًا بكفيه لسطح المطبخ الرخامي خلفها، انحنى نحو أذنها فلفحتها أنفاسه اللاهبة، نبرته كانت أكثر لهيبًا:

- فطار عن فطار يفرق.

عادت تستدير نحوه، دفعته في صدره ضاحكة:

- ماشي، إفطر الأول، وبعدين نفكر.

تنمر بغضب مصطنع:

- على فكرة، أنتِ مطنشاني اليومين دول وأنا ساكت بمزاجي بس.

كتمت ضحكتها بصعوبة، مطت شفتيها ووسعت بين جفنيها مع هتاف مندهش:

- لا أنت أكيد بتهزر!!.. بعد "أم طاهر" ما بدأت تيجي وأنا مش ورايا غيرك.

جلجت ضحكته التي تخطف أنفاسها قبل أن يقترب منها أكثر هامسًا بحميمية:

- ما أنا مش ورايا غيرك.

ابتسمت وقلبها ينبض سعادة، يصرخ باسمه حرفًا حرفًا، أسندت كفيها لصدره ورفعت نفسها على أطراف أصابعها تلمس وجنته الخشنة بشفتيها أتبعتها بهمسة قرب أذنه:

- أنا بقى ماليش غيرك.

حاول ضمها أقرب فانفلتت منه ضاحكة، هز رأسه باستسلام يائس قبل أن يضيق عينيه ويرفع حاجبًا واحدًا بتوعد:

- ماشي يا جوجو، لما أرجع من الشغل بس.

ابتسمت مع هزة كتفٍ بدلال، زفر لدلاها بغيظ وسألها:

- طيب بأقولك كان في كارت ديزاينر اسمه "جرافيك برو" ما شفتيهوش في المكتب أو أوضة النوم؟

نفت برأسها وهمسة:

- لا.. دور تاني أكيد هتلاقيه.

زفر ثانية بحنق، تحرك خارجًا من المكان وصوته يصلها مع خطواته:

- هادور في أوضتنا يمكن حطيته هناك ونسيت.

ابتسمت وعادت تكمل تحضير الفطور، سار هو بخطوات وئيدة نحو غرفة نومهما، لؤلؤته تشغل ذهنه بشكل أصبح ضارًا بالصحة حقيقةً لا مجازًا، نوبات الغثيان والرجفة أصبحت رفيقًا دائمًا، خوفه من سببها يؤرقه، يرهبه، يثبته مكانه قلقًا مرتعبًا، ذعره من الفراق جعله متشبثًا بها لدرجة لم يتخيلها..

يعود في وسط اليوم ليتناول طعامه بصحبتها، أصبح هو يتوسد صدرها وتضمه هي بحنان أمومي يهز كيانه، يلاحقها في كل مكان بالمنزل، يغار من "ملك"، من "مروان"، يريدها أن تكون له، منشغلة به كل ثانية على مدار اليوم..

عندما اقترح مربية الأطفال رفضت هي كعادتها، رغبتها المتسلطة في أن تصبح السيدة لكل ما يحيط بهما تجعلها تمانع في أشياء كثيرة، لكنه مرهقٌ، تعِبٌ، يريدها ملكًا خالصًا له.

يخفي عنها تلك الأعراض المخيفة، ويتجاهلها بنفسه، ما دامت غير مؤذية فلمَ الاهتمام؟..

دخل الغرفة بهدوء وبدأ البحث، بعد قليل ستأتي المربية والآن صغيره ينام في غرفة أخته، فتح بضعة أدراج، طاولة الزينة، الطاولتين المجاورتين

للفراش، وفي الدرج الأخير بينما يقلب بين بضع روايات تقرأها زوجته وجده، عيناه التقطته بسرعة، وقلبه استعاد الذكرى فدق لها بعنف.

أنهت مهمتها، جهزته على طاولة المطبخ الصغيرة، ونادته، لم يرد، فتوجهت نحو الغرفة كي لا يستيقظ الصغير النائم، قرب الباب بعدما دخلت توقفت تناديه ثانية:

- أدهم!!.

وقعت نظراتها عليه، يجلس فوق الفراش، رأسه محنية لأسفل يطالع شيئًا ما بين يديه، لم يكن واضحًا من الزاوية التي تقف فيها، تحركت خطوة بنداء آخر قلق:

- أدهم.. مالك!!!

وهنا رأت ما يمسك بين أصابعه المنضغطة بشدة، انتفض قلبها في جزع، ضاع صوتها، حاولت الكلام فلم تستطع، اقتربت أكثر تزدرد لعابها عله يخفف من وطأةِ صدمةِ ما رأت لكن لا فائدة فحلقها جاف كصحراء مستعرة بنيران الجحيم، رفع رأسه ينظر إليها وبين عينين تلمعان بالصدمة وأخريين تصرخان بعتاب مذبوح دار حوار أبلغ من أي حديث.

(١١)

مِن بينِ الرَماد

هي: أحبك..

هو: تكذبين!

هي: أُقسم أحبك..

هو: أحتاج براهين..

هي: هل قلبي يكفي؟

هو بشك: لم أشعر بامتلاكه حتى الحين..

هي: إذاً فهي روحي، هو كياني، أنا بكل نبضة تنادي باسمك في لهفة، وفكرة تدور حولك بعشق..

هو: تمزحين!!.. وتخبرينني أنكِ فقط تنسين.. دعابة هي أم سخرية أم استهانة بقلب يتعبد في محراب غرامك والآن يتملكه الأنين..

هي: كيف أداوي جرحًا لم أتعمده!..

هو ساخرًا: ولمَ من البداية تجرحين؟.. تتهاونين؟.. ألأنني ملكك منذ أبدِ قلبي أصبحتِ له تتجاهلين ثم لجروحه وآلامه تتناسين!!

هي بحروف هامسة بعشق: دعني فقط أدوايك خليل الروح..

هو: اتركي جرحي يندمل وحده، فالندبة باقية ولها دومًا ستتذكرين..

هي بدمعة خائنة: أقسم بمن خلق الأكوان أعشقك..

ابتسامتك..

ضحكتك..

حتى تكشيرتك وانعقاد حاجبيك الغاضب..

صرامتك.. غيرتك عليَّ بجنون..

صوتك عندما ينطق بأحرف اسمي...

هو مقاطعًا بوجع: الأمر عصيٌّ على التصديق.. أحتاج لانفراد، والآن أنت ستصمتين..

هي تودعه بخذلان كانت من بدأه: سأنتظر حتى ترضى مالك الفؤاد.. وتعود إليَّ بحنين..

"الهجوم خير وسيلة للدفاع"

مقولة شهيرة للقائد الفرنسي "نابليون"..

هي لم تقرر الهجوم، لكنها اتخذت قرارًا حاسمًا بالمواجهة، إن كانت حربًا فستحارب لأجل تحرير نفسها المقيدة بأغلال الماضي المشين، ستقف على قدميها قبالة مدفع الخوف والرعب الذي يتحكم بزناده ذاك القذر، تهديداته ستتحداه أن ينفذها، وإن نفذها!!.. لم يعد لديها ما تخسره.

مُشتتٌ عقلها بين رجلين، أحدهما لم تلتقيه سوى لدقائق تقل عن الساعتين، غريب هو!!.. عيناه الفيروزيتان منحتاها شعورًا غير محببٍ بالاطمئنان، لم تسعد بتلك الفكرة..

كيف لأي رجلٍ كان أن تستكين إلى جواره، تهدأ بصحبته، تنسى الوقت معه؟..

يتفحصها بجرأة وتقدير كأنه يرى ما يعجبه بشدة، ورغم ذلك لم تخشَه كما هو متوقع، يمنح كفها قبلة ناعمة وخزتها وقتها لحيته العسلية المرتبة فشعرت بالوخز يسري متجها نحو قلبها.

الرجفة التي أصابتها لم تكن لخوف أو قلق أو تقزز، بل شيئًا لم تفهم معناه، ولا تريد أن تفهم!.. حتى اهتمامه غير المصرح به نحوها والذي لاحظته هي من خبرة سابقة لأنثى مغوية بدا غريبًا لكنه أسعدها، بل

وأسقط من ذاكرتها طوال اللقاء الملف القابع بين أحضانها كأنه صنع فجوة زمنية انفصلت بداخلها عن الواقع المرير.

ليلتها لم تخاطب والدتها، قبعت في غرفتها فوق فراشها، تحمل الأوراق.. تزوير فج، حتى الصور، سببت لها الغثيان رغم واقعيتها..

نعم قامت بذلك سابقًا، نعم لم ترتدع إلا بعدما تهشمت لمليون قطعة بحجم الفتات، ونعم لم تجد من يُقَوِّم سلوكها وينصحها باهتمام حقيقي، لكنها عادت تقف، تخطو نحو نسخة أخرى جديدة منها، معدلة، مطورة، وجامدة.

صباحًا أخبرتها المتصابية أن زواجها من الطامع المتصابي هو الآخر سيكون خلال أيام، لم تبالِ، ولمَ تفعل؟.. كم المشكلات التي تعيث فسادًا في رأسها كبير بما يكفي لتتناسى واحدة تكاد تبعثرها من جديد كلما حاولت التماسك والصمود في وجه عاصفة مجتمع لا يرحم..

نعم لم تقف وحدها، فالعم "جلال" يدعمها دومًا، وطبيبتها التي تتوجه إليها الآن تفكك العقد التي تعقدها فوق رأسها بين كل حينٍ وآخر... تمنحها قدرًا من حرية الحركة، تنزع عنها أغلال الذكريات الدموية التي عاشتها قبل أكثر من عام..

أحيانًا تفكر، ماذا لو منعتها والدتها يومها من الذهاب؟.. ماذا لو أنهت هي بنفسها الأمر وألقت "أدهم" خلف ظهرها والتفتت للغد؟.. ماذا لو كسرت

ساقها وهي تهبط الدرج فقط لتموت قبل أن تصل إليه؟.. وكل هذه الـ"لو" تفتح بابًا لشيطان اليأس، ليتملك منها، يوجعها، ويخبرها أنها أبدًا لن تحيا من جديد أو تتنفس بطُهر.

ترجلت من سيارتها أمام المبنى شاهق الارتفاع في ذلك الحي الراقي، بخطوات أودعتها بقايا الثقة التي لا تزال تحتفظ بها توجهت نحو المصعد الفخم، طابقها هو السابع، ضغطت زره وانتظرت انغلاق الأبواب التلقائي، لكنها وقبل أن تغادر بيتها الآمن، لم تكن تعلم أنه يتربص بها كصقر جارح ينتظر لحظة الموت الأخيرة لينقض عليها، ينهشها، وينتهي منها.

امتدت يد سمراء تمنع التقاء ضلفتي المصعد، وقبل أن ترفع عينيها نحو القادم الجديد دلف إلى جوارها بهمسه المميت:

- إزيك يا دينا!!

وانغلق الباب بانسيابية يحسد عليها، انسيابية لا توازي تلك الغصة التي تكونت في حلقها والرعب الذي شلَّ أطرافها وعقلها بينما تتطلع إليه في ذعر..

قبل أن تفهم مرة أخرى كان يمد إصبعًا متحكمًا لزر الإيقاف، وهكذا حُبِست معه بين طابقين في مكان لا يكاد يسع الهواء إلى جوارها.

اقترب منها فتراجعت هي، الحروف انحبست في صدرها والأنفاس تحشرجت حتى أن رئتيها كادتا تنطبقان في حاجة ماسة للهواء، تلقفها من الخلف

جدار المصعد البارد، وأمامها كان هو بطوله وجسده القوي، وحولها أيضا يستند بذراعيه ورائها، ابتسامته ذئبية، نظراته نهمة، وأنفاسه عالية، انحنى نحوها والدموع تخبرها أن حان وقتُ السيْل، همس قرب أذنها:

- وحشتيني!

ورفع رأسه مقدار ذرة ليسجن عينيها خلف قضبان عينيه، أنفاسه تضرب صفحة وجهها المتجمد، حارة، مقززة، أثارت اشمئزازها وتركت لديها رغبة في إفراغ جوفها فوق قدميه، شعرت بشفتيه فوق جبينها، ارتعشت بشدة، تحرك لأسفل، وجنتها الباردة، وها هو يقترب من هدفه الأول.

دفعة واهنة في صدره صاحبتها صرخة فزع وهتافٍ باكٍ متوسل:

- ابعد عني.. أرجوك.

لِمَ تخافه هكذا؟!.. لا يمكنه أن يجبرها.. ليلة أمس قررت المواجهة، قررت خوض المعركة بل ونيل النصر في تلك الحرب، فلِمَ تكاد تموت رعبًا وهو يقف ملتصقًا بها بهذا الشكل؟..

لكنه لم يستجِب لتوسلها، فقط دفعتها الضعيفة أبعدته لمسافة قصيرة، نفث لهب أنفاسه في وجهها، أمسك بمرفقيها يهزها بقوة، وهمسه الصارخ يخترق كل حواسها:

- من إمتى يا دينا ده كان بيبقى رد فعلك على لمساتي؟.. أنا فاكر كويس قوي كنت بتعملي إيه بس عشان تغويني؟.. إيه اللي حصل؟

دفعها بعنف فارتطمت بالجدار خلفها، صاحب ارتطامها تأوه ألم خفيض لمعت له عيناه، عاد يحيطها بكلابتيه هامسًا برغبة توحشت في نبراته:

- أيوة، هو ده اللي كنت باسمعه وأنا معاكِ، راح فين ده كله؟

ولم يمنحها فرصة لرد، بل حتى لم يتصدق عليها بنفحة من أنفاس تحتاجها، والنتيجة شفاه متورمة دامية وهي كخرقة بالية بين يديه، إمساكه بها فقط هو ما يمنعها من السقوط فاقدةً لوعيها..

كاد يجن منها، دفعها للجدار من جديد وابتعد بمفاجأة، مرر أصابعه بغضب في شعره حتى أوشك على انتزاعه من منابته، تلك الحمقاء الفاتنة لا تزال تؤثر به كأنها أول مرة يلمسها فيها، وهي حتى لا تدري أو تأبه لذلك، يريدها حد جنونٍ مطبقٍ يتخلل أعصابه الملتهبة بأثر قبلتها، تطلع لشفتيها وتلك الخدوش التي تركها عليهما فعاوده شيطانه مجددًا.. كاد يقترب لولا أن تحرك المصعد فجأة فخطا نحوها بسرعة، في ثانية كانت ذقنها بين أصابع يده القوية تضغطها بعنف، يجبرها على رفع رأسها والنظر إليه، وبفحيح آخر قرر:

- أنتِ بتاعتي يا دينا، فاهمة!!

وابتعد نافضًا يده منها، وقف إلى جوارها وأكمل بلهجة قاسية مخيفة:

- لو فاكرة الواد الطري اللي شفتك معاه إمبارح هيحميكِ مني!!.. تبقي بتحلمي، أخلص عليه قبل ما يقرب منك، أحسن لك لو يهمك تبعديه من طريقي وطريقك.

في غيبوبتها التي غرقت فيها رغم جفنيها المفترقين لم تنتبه لما يقول، بل لم تشعر بما حدث أو يحدث، هي أضعف من أن تواجه، تتمنى موتًا مفاجئًا رحيمًا ينهي كل ذاك الألم والعذاب، يمكنه الآن أن يفقدها وعيها، ويحصل عليها كما يريد، ماذا ينتظر؟.. هي لا تعلم!!.. ربما يريدها راغبة تدلله كما في السابق!.. تتمسح فيه وتغويه دون أن يحاول هو حتى!..

قبل أن يصل المصعد للطابق الأرضي كانت أصابعه تمسح شفتيها في قسوة بمنديلٍ ورقيّ، لاحظت الدماء بينما يده تبتعد عنها والباب ينفتح أمامها، خرج يسبقها وآخرون يدلفون للمكان الضيق، إحساسها بالزمان والمكان انتهى للحظات قبل أن تستعيد وعيها أمام طابقها المنشود ودموعها تنسكب بلا رادع فوق وجنتيها المعذبتين.

******

"سأبقى مُلكًا لك للأبد.. للأبد.. للأبد"

تلك الكلمات تتردد من جديد، صداها يعلو فوق كل صوت، كصرخة انطلقت مدوية في كهف هواجسه المظلمة، وقتها عندما وقعت عيناه على

حروفها لأول مرة أصابه الجنون، بل غضبه كاد يفقده سيطرته على نفسه فقط ليبرهن لها إلى من تنتمي حقًا! ومن يملكها بالفعل!..

أراد حينها أن يثبت ملكيته لكنه تماسك لأجل نيل قلبها أولا، والآن ويالسخرية!!.. عندما استقرت الأمور واعترفت هي بأحقيته فيها، تعود ذكريات الحبيب الأول من جديد لتقتحم حياته التي ظنها كاملة.

لا تزال تحتفظ بدفتر مذكراتها الوردي الصغير، وصورته مع "ملك" بداخله، ابتسامته الودود المحبة، سمرته الجذابة، عيناه الواسعتان وشعره الفحمي، وسوس له شيطانه:

"هذا هو من امتلكها قبلك، ووسمها باسمه وخِتْم أبدًا لن يزول مهما حاولت طمس ملامحه أوتناسي وجوده".

ندواؤها وصله من بعيد، كأنها تبعد عنه أميال، اقتربت وهمسها قلق، يكاد يستشعر خوفها يملأ الفراغ من حوله، وتلك الشهقة الخافتة التي انطلقت من بين شفتيها عندما لمحت حروفها العاشقة بين يديه..

رفع رأسه نحوها ببطء، عيناه لا يدري ما بهما لكنها تراجعت خطوة في رهبة بعد التقاء النظرات.. عاتبها بصمت، بقلب تم نحره على حين غرة، نهض واقفًا بهدوء وتلا وقوفه اقتراب، بطيءٌ للغاية، صاحب اقترابه تراجعها أكثر..

أهي تخشاه؟!.. ماذا تظن الآن؟.. تظنه سيصرخ؟.. يؤذيها كما آذته؟.. يجرحها كما آلمته؟..

اصطدم ظهرها بالجدار فانحبست بينهما، صلابة البارد خلفها، ونيران محتدمة داخل صدر الواقف أمامها، رفع يده بالدفتر الصغير أمام عينيها بهمس سمعته كالصراخ:

- مُلكًا لك للأبد؟

انحنى نحوها أكثر لتنكمش بخوف:

- مِلك مين؟

لا لعاب لتبتلعه، حلقها جاف تمامًا وأنفاسها متحشرجة، وعندما خرج صوتها كان متقطعًا واهنًا لا يكاد يُسمع:

- أدهم!!

انحنى أكثر وواصل همسه:

- محتفظة بكلامك وحبك له وصورته جنب سريرك!!.. بتحبي تشوفيه قبل ما تنامي؟.. عاوزاه دايمًا قريب منك؟.. بيوحشك؟

اتساع عينيها لم يكن كافيًا ليعبر عن نوبة الذعر التي اجتاحتها، هتفت فيه محاولةً رأب صدعٍ على وشك ابتلاع حياتها نتيجة جنونه وظنونه:

- لا يا أدهم، أنا نسيتها، صدقني.

استند بذراعه للجدار خلفها وبيده لوح بالدفتر أمام وجهها، صوته يعلو ونبراته تشتد:

- نسيتيها؟!

أومأت برأسها بنعم، وكأنها كانت تنفي فهب إعصار ثورته، ألقى بالمذكرات أرضًا وجذبها إليه من مرفقيها يهزها بعنف، يريد تحطيمها، قتلها، إخماد ذلك الصوت الذي يصرخ داخل عقله أنها لا تحبه كما يحبها، حرْقَ شيطان الوجع الذي ينخر في قلبه بوسوسة الخيانة ولو لزوج سابق ميت، صياحه أصم أذنيها فتجمعت الدموع في مقلتيها:

- نسيتيه هو ولا نسيتِ إنك في بيتي أنا؟.. جوزك؟.. أبو ابنك؟.. انطقي، بتعمل إيه هنا مذكراتك؟

وازى سؤاله دفعة عنيفة لم تشهد قسوتها منه قبلًا، فور استعادتها لتوازنها اندفعت نحوه، تتشبث بقميصه كأنه حياة، تلهث باسمه ترجوه صفحًا على خطإٍ غير مقصود، تعلم أنه يغار بشدة، تدري أنها أخطات، ومتأكدة أنه لن ينسى بسهولة، انسابت الدمعات على وجنيتها تسترضيه:

- أدهم.. صدقني دي قديمة قوي، آخر مرة كتبت فيها كان أول ما اتجوزنا، قبل ما أحبك وأعترف إني مش مِلك حد غيرك.

اشتد فكيه والتحما بعنف، أيمكنها أن تكون مِلك غيره ولو للحظة، إن كان سبقه أحدهم إليها لأنه تأخر، فهل يمكن أن يليه آخر؟!..

أمسك بكفيها المتشبثتين بقميصه، ضغطهما بقوة بين أصابعه، جذبها إليه أكثر وهمس أمام وجهها بعينين تندلع منهما نيران الغضب، الغيرة، الحزن، وعتاب حزين:

- أنتِ فعلًا مش ملك حد غيري.

كادت تبتسم لكن شفتيه قطعتا ابتسامتها بعنف تجربه معه للمرة الأولى، شراسة أخافتها لكنها اعتبرتها مداواةً لجرحٍ تسببت هي فيه، صمتت في استسلام تام كأنها تستجديه علَّ ذلك يخفف من وجعه ولو قليلًا، أبعدها بعض الشيء وقبضتيه تشتدان بقسوة فوق أصابعها، آلمتها، لكن ألم قلبها أكبر، تفحصها بعينيه وود لو خنقها بعشقٍ يفقدها ذاكرتها للأبد.

دفعها للخلف بعيدًا عنه واستدار يلتقط سترته، توجه خارجًا من الغرفة تتبعه، تتشبث بكمه كطفلة، تهتف من بين دموعها التي لايزال مذاقها فوق لسانه:

- أدهم.. عشان خاطري ما تمشيش وأنت زعلان، صدقني قديمة، وكنت ناسياها.

لم يرد، انتزع نفسه من بين أصابعها الصغيرة وأمام باب المنزل ألقى عليها نظرة حزينة وغادر..

غادر مذبوحًا بذكرى تؤرق مضجعه رغمًا عنه، وخوفٍ من غد يظن أنه لن يكون فيه فتصبح هي لغيره، وجنون يعتريه يخشى أن يصيبها هي بأذىً فابتعد.. ابتعد يلملم بقايا قلبه الذي يئن بين ضلوعه ناعيًا حبًا ظنه سيدوم حتى الأبد.

******

أكان قاسيًا بشدة؟.. هل آلمها لهذه الدرجة؟.. أم تراه أهان كرامتها واستهان بعشق كانت تبثه إياه بصمت؟..

كبرياء الأنثى بداخلها دفعها للابتعاد والهروب لتختفي عن ناظريه حتى تلتئم جروحها، فانزوت في ركن بعيد تلعقها في سكون علّها تطيب في زمن أسرع!!.. أم هو وجع قلبها الصغير الذي ما إن خطا أولى خطواته في دروب العشق حتى تعثر ووقع فانكسرت عنقه!!..

هل تكرهه الآن؟.. تحول الحب الوليد لكراهية كامنة تسكنها؟.

حيرته أغاظته أكثر، وغيابها أودعها عقله بصورة أكبر من حضورها فتضاعف غضبه من نفسه..

هو قام بالأمر الصحيح فلمَ الحنق والسخط إذاً؟..

منذ مزق خطابها الأخير وهي لم تأتِ إلى الجامعة، أكثر من أسبوع مر لم يرها فيه، كأنه يريد الاطمئنان فقط أنها بخير، أنه لم يؤذها بقسوة، أنها باقية

على صلابتها ومرحها وعنفوان شبابها الذي يبهره في كل مرة، لكنه فحسب بغيابها يشعر أنه أطفأ الشعلة، محى الوهج، وبعثر الدخان..

لم يستطع المقاومة لمدة أطول فقرر أن يسأل عنها أخته بطريقة ملتوية، تبدي اهتمام أستاذ لا غير، يتمنى فقط ألا يظهر على وجهه آثار جريمته في حق تلك الصغيرة، أو يجعله شعوره بالذنب متلعثمًا كطفل أبله.

عندما قابلها بعد انتهاء محاضراتها وحياها مبتسمًا مرحًا على غير العادة شكت في نيته، بدا غريبًا للحظات، متراجعًا عن أمر ما ينهش عقله ويريد الحديث عنه لكنه متردد، فهمت هي..

لم تعلم بما حدث آخر مرة ولا حتى بخطابات صديقتها لأخيها، لكن "علا" قبل سفرها بيوم كانت مختلفة، كسيرة الفؤاد والعينين، كأنها فقدت شيئًا عزيزًا بشكل مفاجئ مما دفع بالظنون لقلبها، هي تملك كل الأعذار لأخيها، خائف هو ربما، أكبر سنًا وأكثر حكمة وأوسع زاويةَ نظر، قررت منحه بعض الراحة دون أن يسأل بنفسه لربما يهدأ قليلا:

- بابا علا تعبان قوي اليومين دول، وهي سافرت له، تفتكر يا آدم ده هيأثر على حضورها وغيابها وكده؟.. أصل ما كانش في وقت تقدم على أجازة خدت أول طيارة على طول!!

ارتبك قليلًا، والدها مريض!!..

إذاً أهذه حجة هروب أم سببٌ فعليّ؟..

ابتسم بهدوء وبلهجة بطيئة كان رده الواجم:

- باباها؟!.. هي هناك وحدها؟

أومأت برأسها إيجابًا وأسفًا، عاد يسأل:

- مفيش حد معاها خالص؟.. حد من أهلها؟

ردت بحزن وقلق:

- لا للأسف، باباها زي ما بيقولوا مقطوع من شجرة، ومفيش غير مامتها وهما منفصلين فما فيش بينهم علاقات خالص، ربنا معاها.

أوجعه قلبه على تلك الصغيرة المشتتة، بحاجة هي لاحتواء.. ربما كان قاسيًا بالفعل، لكنه لم يكن يعلم، سألها باهتمام:

- باباها ماله طيب؟

وجوابها أخافه عليها بشدة، وحدتها، غربتها، قلة حيلتها:

- جت له كومة سكرومن وقتها ما فاقش، أنا باكلمها كل يوم بس ربنا يستر، قلقانة عليها قوي وهي لوحدها هناك، يا دوب معاها شريك باباها وابنه.

تنهد بهدوء، وشيء من راحة تتخلل صدره، هي ليست وحيدة بشكل مطلق، هناك من يساندها..

أقنع عقله بالصمت، وأسكت ضميره المؤنب بعنف واكتفى بانتظار مؤلم ودعاء أن تكون بخير، هي كصغيرته الجالسة إلى جواره، ولا يريد لها إلا الأفضل بالتأكيد.

******

كم من الأيام مرت على ذلك اللقاء؟!.. لم تخبر أحدًا، لا أمها ولا شقيقتها التي لن تتورع عن إخباروالدتها بكل التفاصيل..

عاد الحبيب الذي خان، عاد بقلب يقدمه كهدية، بألم يملأ عينيه، وبرغبة في البدء من جديد.

يقدم لها صك تملك أبديّ هذه المرة ويطلب منها صك غفران صغير تتكرم به عليه، وكأنها تملكه! وكأن قلبها توقف عن الأنين والحزن وحان وقت المسامحة!..

رجل كغيره لا يدري مقدارما عانت في غيابه، ليس بسبب حبها الذي امتلكه عن آخره فقط، بل بسبب وحدتها، قسوة مجتمع تعيش فيه رغما عنها، وذرية حُرِمتها ونالها هو من أخرى.

والآن يعود، فاتحًا، ظافرًا، لقد حظى بالنصر، حصل على ما تمنى، وحان وقت الغنيمة، السبايا، وهي من جعلها سبيته، جاريته، ظنها في وضع انتظار، أحمقٌ هو إن فكرفي ذلك!!.. بل أحمقٌ كبير.

نهضت من فراشها تتجول داخل الغرفة كلبؤة حبيسةَ قفصٍ قضبانه من ألم الغدر الذي نالته سابقًا، وكلما أغمضت عينيها تريحها من النظر إليها، اقتحمت قلبها الذكرى لتمنعها حتى من مجرد فكرة بلهاء بالتنازل والعودة من جديد.

عقلها يكاد ينفجر مطيحًا ببقايا التفكير المنطقي والسليم التي دومًا ما تتخذ منه منهاجًا لخطوات حياتها، يراسلها يوميًا، يذكرها به، بحب كان بينهما وللغباء لا يزال ينتعش من سباته داخلها بين حينٍ وآخر، يدللها، يناديها، يرجوها، وأحرف "أحبك" تصلها كأنه يهمسها في أذنها فينتفض قلبها في كل مرة تقع عيناها عليها.

ابتسمت في مرارة، ماذا تفعل بنفسها؟.. هي تضعف من جديد، تسلمه زمام أمورها بعدما ظنت أنها نهضت من كبوتها التي كان هو سببًا رئيسيًا ووحيدًا فيها، وقلبها الصغير الضعيف يعود للنبض ببطء قاتل كأنه يتشبث بالحياة فقط بعد عودته..

"ليته ما عاد"

صرخ بها عقلها ناهرًا ضعفها وجمودها، ضعف أنثى عشقت مالك قلبها الأول ولم يسكنه بعده أحدًا، وللقهر.. هو يعلم ذلك علم اليقين.

أنهكتها الأفكار بعنف، تريد التخلص منها ومنه، تبحث عن حل جذري يوقف قلبها عند حده، تزجره بشدة وقسوة، تذكره بلحظة الذبح، لحظة أن رمى في وجهها بقنبلة حبه لأخرى:

"عاوزة إيه يا لميا؟.. عاوزة اعتراف؟.. عاوزة تسمعي مني بودانك إني باخونك وإني بحب واحدة تانية؟.. طيب يا لميا.. أنا فعلًا بحب واحدة تانية ومش بس بحبها أنا اتجوزتها وخدي دي كمان، هي حامل في الشهر الخامس، مبسوطة كده يا أستاذة يا كبيرة؟"

تبعثرت أحرفه القاسية داخل جدران قلبها، حطمته، تهاوى منكسرًا جريحًا وتعالى أنينه الذي سكن لفترة في غيابه، لكنه عاد الآن متبجحًا وكأنه لم يفعل شيئًا، لم يقل حرفًا، ولم يجرح فؤادًا وروحًا كانا ملكه يومًا ما.

صفاقة لا أكثر، وقاحة، والآن هي غاضبة، أزاحت رداء الضعف والخنوع، وعلَّمَت قلبها المسكين المخدوع بعض القسوة، ذكرته بماضٍ موجع جمع بينهما فعاد يتألم، ينزف وتشاركه عيناها نزفه، ألقت في وجهه بتبريرات من خانه عله يفيق من غيبوبة عشق ظنها أبدية فإذا بها تنتهي فجأة وتعود فجأة وهو الصغير غارق فقط دون جدوى:

"ليه كده يا لميا؟.. أنا ما طلبتش حاجة وحشة أو حرام؟.. أنا نفسي أكون أب ومن حقي أكون أب، ما قلتش لأني مش عاوز أجرحك، وباقي عليكِ حتى

لو مش مصدقة، ابني هيبقى ابنك وتشوفيه وتربيه زي مامته بالظبط، مش عاوزك تسيبيني"

هكذا برر حضرات القضاة، أنهى جريمته، غسل دماء ذبيحته ببساطة ونفضها من فوق يديه متخلصًا من آثارها، وتكرم عليها برغبة في البقاء إلى جوارها، لكن الحكم النهائي آتٍ لا ريب، هو لا يستحق، وهي تستأهل من هو أفضل، واحزر ماذا سيد "أحمد"!!.. لقد وجدته، وستأتيك أنت الطعنة هذه المرة، لو كان لديك قلبٌ حقًا كما تدعي.

أمسكت بهاتفها، لثوان تراجعت، ترددت، أهذا القرار صحيح؟.. قرار في وقت الغضب أو الإحساس بالقهر هو قرار مميت، ونتيجته ستتحملينها ما بقي لكِ من عمر فلا رجعة فيه!!.. فهل لديكِ القدرة؟.. هل تملكين تلك النفس التي انتويت منحها لآخر الآن رغم رفضك القاطع مسبقًا؟!.

محت ترددها، أنعشت ذكرى وجعها، فعاد الحل يسيطر على تفكيرها، يدفعها للاتصال بالرقم بسرعة، وفور أن سمعت صوت شقيقتها الذي بدا حزينًا خافتًا، لم تهتم لسؤال، أو تجزع كما اعتادت، فقط ألقت إليها بقرارها دون إبطاء كأنها تخشى التراجع فقطعت على نفسها الطريق عنوة:

- جمانة.. عاوزاكِ ضروري.. أنا قررت أتجوز.

حتى الصدمة التي أتتها عبر الأثير لم تهمها، فقط طلبت منها اللقاء لشرح الأمر، وعندما أغلقت الخط عاد الندم ينهشها لكنها نهرت كل جزء يفكر في جسدها بالتراجع.. تنبهه أن الأوان قد فات.

******

عندما تستيقظ فجأة، بقسوة وعنف، في منتصف حلم ظننته الجنة، يكون الألم مضاعفًا، صادمًا، وبمقدار وجعه يأتي الخوف والرعب، فكلما طافت بك أمنياتك فوق السحب، تكون السقطة مميتة، قاتلة، وتحمل بين طياتها النهاية.

هل يضخم الأمور؟.. جمُّ الغيرة؟.. غزير الخوف حد الغرق فيه؟..

لا وألف لا، هو يتألم، وعلى قدر عشقه تخز قلبه طعنات تناساها ربما، ولم يضع في حسبانه أنها باقية، قديمة، وربما أزلية.

لا يدري كيف وصل إلى مقر شركته؟..

المسافة بين منزله وبينها ليست بالقصيرة، هل قاد سيارته أم قادها به أحدهم؟.. هل استخدم المصعد أم صعد على قدميه؟..

ثم وكأن الخطوب لا تأتي أبدًا فرادى ما إن دلف لمكتبه حتى هاجمه الدوار الذي أصبح مألوفًا، ارتعشت يداه واهتزت ساقاه، وظللت غمامة ناظريه، كاد يسقط أرضًا لولا أن مد ذراعيه أمامه فتلقفهما المكتب الكبير، استند

إليه لثوان ثم جلس متهالكًا فوق المقعد المقابل له تتصاعد أنفاسه عميقة بطيئة.

أغمض عينيه وأرخى رأسه للخلف بهدوء، يحاول التوقف عن التفكير ولا فائدة، يسحب الهواء من حوله فيشعر باختناق أكبر، كرته الأرضية الخاصة تدور بسرعة أكبر تكاد تسقطه أرضًا رغمًا عنه وعن جلوسه شبه المريح..

دقائق مرت لم يهتم بعددها قبل أن تأتيه الطرقات الخافتة لمساعدته، فرق بين جفنيه عنوة ناظرًا نحو الباب، تنفس بعمق من جديد ثم نهض واقفًا ليجلس خلف مكتبه هذه المرة.

دخلت "سهام" للمكان تحمل العديد من الأوراق، تطلعت إليه باهتمام بينما تناوله إياها شارحة أهمية كل منها ومحتواها، توقفت فجأة وعيناها مثبتتان على وجهه لتتساءل بقلق خجول:

- باشمهندس.. حضرتك كويس؟

رفع رأسه ينظر إليها بلا فهم لثوان، لمحت دهشته فاستطردت بارتباك:

- شكلك مرهق أو.. أو..

كانت ترغب في استكمال جملتها، تخبره أن وجهه يبدو شاحبًا كالأموات، وشفتيه بيضاوان تقريبًا لكن الخجل ألجم لسانها، فهم هو ما تريد قوله، يعلم كيف يبدو بعد كل نوبة تهاجمه، هز رأسه مطمئنًا بابتسامة خافتة:

- أنا كويس يا سهام ما تقلقيش.

ترددت ثانية ثم عادت تقول بخفوت خجول:

- طيب أجيب لحضرتك عصير فريش؟

رفع عينين محملتين بالدهشة نحوها مجددًا، هز رأسه في استسلام مستغرب ووافق ببساطة:

- ماشي، عصير مانجا بقى وهاتيه بنفسك.

أومأت إيجابًا بابتسامة قبل أن تغادر الغرفة لتحضر له شيئًا يعيد الحياة لوجهه الباهت، تبع خروجها من غرفتها الخاصة دخول "جمانة" الوجل، لم تستطع الصبر، تعلم أنها آلمته وإن كان يبالغ في غيرته المجنونة، لكنه عاشق، وهي تبادله عشقًا بعشق، لذا لن يهدأ لها بال حتى تراضيه، لقد نسيت رغمًا عنها، للأمر حسنة لن يلحظها هو بالتأكيد، هي معه تنسى كل شيء، حتى الماضي الذي لا تزال ثماره باقية حولها.

ترددت أمام بابه، هتف قلبها:

"ضعي نفسك مكانه وتخيلي أن تري مذكرات معشوقك لزوجته السابقة، يبثها عشقًا يقطع أوصال قلبك أنتِ، والطامة الكبرى، أن يكون محتفظًا بصورتها، والأسوأ من ذلك بالقرب من فراشه، مهما برر بالنسيان ستتوجعين، تغضبين وتحزنين".

تخشى رد فعله، منذ فترة وحاله متغير، والآن ماذا سيفعل؟..

قبل خروجه كاد يدمي شفتيها، أوجعها، فقط ليبرهن على ملكيته، فماذا إن رآها أمامه الآن ودون إذن منه؟..

تذكرت ما فعلته بعد خروجه الغاضب، كانت كالمهووسة، تجري هنا وهناك ودموعها كالسيل تغرق وجنتيها وملامحها البائسة تصرخ بالألم، ما إن أتت مربية الأولاد حتى أخذتها هي والصغير في طريقها إلى منزل والدتها وتحركت تتبعه إلى الشركة..

وها هي الآن تقف خاشعة أمام مكتبه ومساعدته غير موجودة بالمكان، من سينقذها من براثنه إن اشتد غضبه؟.

سحبت نفسًا عميقًا أشعل صدرها عوضًا عن تهدئته، مدت يدها نحو المقبض ببطء وأدارته، أطلت برأسها بهدوء، لم تطرق الباب، هي تريد أن تراه فورًا، رفع رأسه ينظر للقادم ظنًا منه أنها "سهام" وكوب العصير الذي أصرت عليه كأم تهتم بطفلها المريض.

ما إن لمحها حتى هب واقفًا بسرعة أرعبتها ودفعت مقعده للخلف بعنف فاصطدم بالجدار أسفل النافذة من ورائه... انعقاد حاجبيه، قبضتاه المضمومتان بقوة أنبآها أنه يحاول التماسك بشدة، عيناه تلتمعان بغضب حارق، أنفاسه تدخل وتخرج ببطء وصعوبة، لكنه للآن لم يهمس بحرف.

دخلت بخطوات متعثرة وأغلقت الباب خلفها، اقتربت، أكثر فأكثر، حدقتاه تتابعانها بصمت ونيران تخرج منهما تكاد تحرقها، وضعت حقيبتها على المقعد المقابل لمكتبه ثم دارت حوله تتعثر ومشاعرها تتبعثر على عتبات غضبه الواضح وأمام خوفها تتناثر ذرات اطمئنانها أدراج الرياح، ليس خوفًا منه بل عليه.. على قلبه الذي امتلكته فآلمته بحماقة ودون قصد..

لم يستدر نحوها، ظل واقفًا بجسده المشدود كوتر على وشك الانقطاع، ترى فكه ينضغط بقوة كأنه سيكسر أسنانه بعد قليل، وقفت إلى جواره، على بعد أقل من خطوة، ببطء رفعت أناملها تلمس كتفه بأطراف أصابعها، لمسة لم يكد يستشعرها حتى انتفض مبتعدًا ودار حول المكتب من الجهة الأخرى دون حديث.

تنهدت بيأس، التفتت تنظر إليه بينما يوليها ظهره المتصلب، خطت نحوه ثانية وهذه المرة وقفت خلفه تهمس باسمه باستجداءٍ آلمه هو:

- أدهم!!

عقدة حاجبيه تزداد مع التقاء جفنيه بشدة، همسها وصله من جديد:

- أدهم عشان خاطري حاول تفهمني، الموضوع كله غلطة، نسيت صدقني، أنا معاك بانسى كل حاجة مهما كانت قيمتها عندي كبيرة قبل كده.

قهقه ساخرًا بداخله، انقبض صدره بعنف وتعالت أنفاسه..

ما الذي أتى بها؟.. ألا تخشى على نفسها؟..

سيؤذيها.. حتمًا سيفعل!! وهي لا تبالي، تدفعه، دومًا تدفعه حتى وصل لنهاية الخط وبقيت فقط لحظة الانفجار الذي سيطيح بها لو ظلت تعاند وتكابر، رد من بين أسنانه:

- خلاص يا جمانة، نسيتِ!! حصل خير.. اتفضلي روحي وما تستنينيش ع الغدا.

سالت دمعة من عينيها وهي تستمع للهجته القاسية وحروفه التي تطردها ببساطة، كلا لن تستسلم، ستعيد البسمة لوجهه وستسمع منه معزوفة عشق رغمًا عنه، ستطيب جرحه وتعود ساكنة بين جوانحه من جديد..

عادت تدور حوله، تواجهه لتجد عينيه المغمضتين بقوة، مدت كفها الصغيرة تلتقط قبضته المضمومة، تشنجت بين يديها عندما ضمتها بيدها الأخرى، لم يسحبها لكنها شعرت به يضغطها أكثر..

ربتت على أصابعه برفق ثم رفعتها لشفتيها تقبلها فرادى.. فتح عينيه ينظر إليها بحزن، صعدت بأنظارها إليه برجاءٍ وأسف، تعلم أن الاعتذار غير كاف، لكنها مستعدة لتحمل عقابه شريطة ألا يبعدها عنه أو يغضب منها، مهما آذاها أو أوجعها، لقد طردها منذ ثوان لكنها رفضت، والآن تنتظر خطوته التالية، هل سيصرخ يا ترى؟.. لمَ هو جامدٌ هكذا؟.. عيناه فقط تخاطبانها بعتاب صريح موجع.

أخرجها من دوامة الشرود التي ضاعت فيها بين جفنيه همسته الذبيحة والتي ألقى بها في وجهها صراحة:

- لو أنتِ مكاني هتحسي بإيه؟

قررت أن تمنحه ما يريد، أجابت بصوت متقطع:

- بالوجع.

ابتسم بمرارة، ثم اشتعلت نيران مقلتيه من جديد وهو ينقض على مرفقيها يكبلهما بأصابعه فجأة:

- أنا بقى حسيت بالخيانة.

أفزعها صوته الهائج فانكمشت بين يديه وهو يرجها بعنف مكبوت كأنه يحاول اقتلاع رأسها من فوق كتفيها، استطرد بهمس مخيف:

- الوجع ده أثرجاني للطعنة، إنما سبها..!!.. خيانة يا جمانة، لما تحتفظي بصورة جوزك الأولاني في بيت جوزك التاني، جنب سريرك كأنك مش بتغمضي عينيكِ إلا لما تشوفيها تبقى خيانة، لما تكتبي له مذكرات وتسيبيها بإهمال لدرجة إنها توصل لإيدي وتقولي له فيها هافضل ملكك للأبد.. تبقى خيانة، إهمالك في حد ذاته بيوجع.. عارفة ليه؟.. لأنك مش مهتمة أشوفها أو لأ.. عادي ما أنتِ اتعودتِ إني أفضل أدي، وأثبت حبي، وأحوم حواليكِ ليل نهار، فيها إيه يعني لو شفتها مادام بعد شوية هارجع تاني ولا كأن حاجة حصلت!! مش كده؟.. استهلكتِ كل الحب اللي جوايا ورغم كده بتضني عليَّ بشوية من اللي كنت محتفظة بيه ليه رغم موته.. ليه؟ ها فهميني ليه؟ كان بيحبك أكترمني؟..

طوال حديثه كان يهزها بقوة كادت تفقدها وعيها، تطايرت عبراتها حتى وصلت لوجهه بل وحطت بملوحتها داخل فمه أثناء هياجه، لم يهتم، لكنه سكن فجأة قبل أن يقربها منه أكثرمكملًا حروفه بأنين:

- لا استني... أنتِ اللي بتحبيه أكتر.

نفضها بعيدًا وهتف آمرًا:

- امشي يا جمانة دلوقتِ، امشي قبل ما أعمل حاجة أندم عليها بعد كده

لم تستطع، فقط لم تواتها القدرة أو الشجاعة على الرحيل وتركه يعاني الألم وحده خلفها..

يا إلهي كم تعشقه!!.. فقط لو يدرك ذلك؟.. يصدقه؟.. يبيد الماضي من ذاكرته، ينسى أنه لم يكن الأول، شبح زوجها السابق يقضُّ مضجعه دومًا حتى بات الأمر مَرَضيًا بحق، وفي كل مرة تقفز صورته في مواجهته ليجن جنونه بسرعة وبقوة.

كان قد ولاها ظهره ثانيةً مبعدًا صورتها من أمام عينيه، رؤيتها توجعه، حتى همسها الضعيف الذي وصله ثانية مناديًا باسمه يذبحه، فقط لو تنصت إليه وترحل، لقد جاءت خلفه كأنها فقط تطارد أوجاعه أو للدقة تجلبها معها أينما حلت..

وضعت كفها هذه المرة فوق كتفه تشعره بقربها، نادته بحب لأول مرة يتخلل نبراتها بهاته الطريقة:

- أدهم.. عاقبني زي ما تحب بس ما تبعدش عني، كل ده ماضي من قبلك، ما تفكرش فيه لأن من يوم ما حبيتك ما بقيتش أشوف غيرك، بقيت أنت كل حياتي، إمبارح والنهاردة وبكرة، حتى أحلامي بقت ملكك، دي غلطة ما تخليهاش تهد حاجة بيننا، إحنا أقوى منها.

لا يدري أيسخر أم يسعد؟!..

هي الآن تبثه حبها محاولة محو ذاكرته ولكن يا ليتها تفلح، الأمر صعب، وألمه لا يطاق، يود لو يعثر على دواء يعالج به الجرح دفعة واحدة، يود لو يؤذيها كما آذته، يجرح قلبها كما أحزنت قلبه..

تأوه بنفاذ صبر ثم جذبها خلفه ليتحرك في الغرفة، جلب مفاتيحه وسترته وفتح الباب، كاد يصطدم بمساعدته التي وقفت تحمل كوب العصير وتهم بطرقه، ارتبكت الفتاة وابتعدت من طريقه وهي تراه يمسك بيد زوجته، لم تستطع إلقاء التحية عليها بينما يخرج مسرعًا هاتفًا فيها:

- سهام.. أنا مش راجع النهاردة، حولي أي حاجة مهمة على دكتور آدم.

وانطلق كالصاروخ تلاحق هي خطواته بصعوبة بالغة، كادت تتعثر عدة مرات لكنه كان يمسك بمعصمها محكمًا قبضته عليه، تعلم أن أصابعه ستترك علامات في هذا المكان لكنها لم تبالِ بذلك، فقط قلبها كانت ينتفض بين أضلعها خوفًا ولهفةً.

قاد السيارة بأقصى سرعة استطاعها في الشوارع الممتلئة بالسيارات والبشر حتى وصل لمنزلهما، ترجل منها متجهًا نحو بابها، فتحه ثم جرها وراءه من جديد، بعد دخولهما لم يتوقف لحظة إلا داخل غرفة النوم، وقف أمامها لثوان يحدق فيها لاهثًا وقلبه يسابق الخيول في سرعته وقوة نبضاته.. مد يده ونزع وشاحها دفعة وحدة فتناثر شعرها فوق وجهها بعشوائية لطالما عشقها، ثم بدأ في فتح أزرار قميصه وعينيه لا تحيدان عن عينيها كأنه يعلمها أنه سيعاقبها الآن..

أمسك بمعصميها بين أصابع يديه بقوة، واقترب منها هامسًا بنظرات مستعرة بهوس:

- دلوقتِ هاثبت ملكيتي ليكِ من جديد يا جمانة، والمرة دي هامحي الماضي بجد.. وللأبد.

تحرك بها للخلف، هي تعلم ما يريده، تعرف أن سيوجعها، لكنها لم تهتم إن كان ذلك يريح قلبه.. دفعها فوق الفراش فجأة ثم انقض عليها بسرعة أخافتها، لكن كل ما فعلته أنها تشبثت به وهو ينهش عقلها ماحيًا ذكريات ماضٍ يؤرقه دون نهاية، يهتك ستر ذاكرتها المحجوبة بعيدًا عنه ويستبدلها بأخرى تحمل بصماته هو، يفتك بخوف لطالما سكن ضلوعه دون قدرة على ردعه.

أنفاسه المتسارعة حارة بشدة، كأنها نابعة من الجحيم، ذلك الجحيم الذي يضطرم داخل صدره بلا توقف أبدًا، ضمت ذراعيها حول عنقه تتعلق به كأنه آخر أمل في الحياة، وفي كل لحظة كان يهمس:

- أنتِ ملكي أنا.. مش حد تاني.. ملكي

وأمام همسه ظلت تردد اسمه بلا انقطاع وتوافقه على ما يقول، تمنحه نفسها حتى آخر قطرة ليستخلص منها عشقًا لم يره من قبل ولم تكن تعلم أنها تملكه نحوه.

تجمد فجأة بين ذراعيها، فهمت هي ما حدث.. لقد وعى لما يفعله.. وهذا ليس هو أبدًا، الحبيب الرقيق، العاشق المراعي والمتفهم على الدوام، حاول الابتعاد عنها لكنها تعلقت به بقوة هامسة من أعماق روحها:

- ما تبعدش عني!

حاول تخليص نفسه ثانية لكنها لم تعطه الفرصة، زمجر من بين أسنانه:

- جمانة.. سيبيني.

تمسكت به أكثر وقلبها وروحها وكيانها كله يعانده مرددة:

- عشان خاطري ما تبعدش عني.

تصلب جسده كلوح من ثلج، يحاول الابتعاد وروحه الخائنة ترفض مبارحة حضنها الدافئ، ذراعيها المكتفتين حول عنقه تمنعانه وبقوة، لهيب أنفاسه عند عنقها أبلغها بمدى غضبه، لكنها أصرت أن تخلصه منه، ولأنه حبيبها وفارسها أبَى أن يفعل، هو أنبل وأشرف من ذلك، هو من امتلك قلبها قبل أي شيءٍ آخر، سعى إليه برقة واهتمام وحب حتى ناله ونالها هي بعده، فكيف يعود للوراء الآن؟..

هي السبب.. هي من أخرجته عن طوره وغيرت فيه، تعلم جيدًا أنه لو استمر للنهاية فسيكره نفسه ويحتقرها، وها هو برجولته ورقيه يستفيق ويبتعد، لابد وأن قلبه يعنفه الآن لكن كبرياؤه يحتفظ بقوته لينأى به عنها، إنما هي لن تمنحه تلك الفرصة أبدًا.

همست في أذنه تبثه عشقًا يزلزل روحها ويهد أعمدة الماضي الذي يخيف معشوقها، تطمئنه، تهدهد قلبه بحنو، فكّت أحد ذراعيها وحركت رأسه

تديرها لتواجهها وجنته، أراحتها فوق كتفها وتخللت بأناملها تمسد خصلاته الكثيفة، تتغلغل فيها كأنها تمحو ذاكرته هو الآخر بأصابعها وهمساتها.

بعد دقائق لم تفكر بعددها.. شعرت بسكونه وانتظام أنفاسه فابتسمت بحنان، لقد غرق في النوم كطفلها الصغير، عندما يصرخ مطالبًا بوجودها فتمنحه ذاك الوجود، ثم يستكين هو برضى وهدوء..

قبلت رأسه برفق وظلت تهمس له آملةً أن تتخلل وشوشاتها أحلامه، تهدئ من آلامه، وتجبره على التصديق أن صك ملكيتها بين يديه هو فقط، ورغمًا عنها وعنه.

(١٢)

قيد جديد

هل أخبروك يوماً عن وجع النساء!.

ماذا عن صمت النساء!!.

وخوف النساء!!!.

سأحدثك عن عشق النساء..

عن نقطة فاصلة تشبه اجتياح ثعبان أنيق لعصفور كل مبتغاه بعض الدفء..

الوفاء!.

عن الأنوثة وقتما يحين العطاء..

وعن العقاب وقتما يبدأ البلاء..

أنت واهم..

فالحب يا عزيزي ليس كما يبتغيه القرّاء..

الحب هو أساس كل داء..

ووحدها الأنثى تملك الدواء..

بقلم/ مروة جمال

"قبلت زواجها"

بعمق وبساطة نطقها وببساطة أكبر أصبحت زوجته..

رمت بنفسها لتيار لا تعلم هل ستستطيع السباحة معه أو ضده، تغوص في موجاته، أو تلفظها وتلقي بها على صخور شاطئ مهجور تحطمها من جديد!!

القرارات العقلانية ليست دائمًا ناضجة أو صحيحة، فهذه المرة هي متهورة رعناء تحمل الكثير من الحمق..

تربط نفسها بآخر هروبًا من حبيب سابق، وتؤكد له أنها لاتزال أنثى مرغوبة لن تضيع من دونه أو تسجنها الوحدة خلف قضبانها.

استعادت الذكرى بينما يقف ناظرًا إليها من الطرف المقابل للغرفة، يتلقى المباركات ويسلم كفه للمهنئين يهزونها بسعادة وفقط عيناه تلاحقانها هي..

يوم اتخذت القرار الذي لا تثق بتبعاته إلى الآن اتصلت بشقيقتها وعند اللقاء انفجرت الصغرى في وجهها توبخها وتنهر عقلها الحاذق الذى تغابى مؤخرًا:

- أنتِ مجنونة يا لميا؟.. تتجوزي واحد عشان تهربي من واحد تاني؟.. فين رفضك وقوتك؟.. واللي هتتجوزيه ده ذنبه إيه إنك تعملي منه حيطة تستخبي وراها؟.. تفتكري لو عرف هيعمل إيه؟

وكأن الحديث مس وترًا بداخلها يئن لقرارها الأحمق فانقطع، زعقت في وجهها بعصبية شديدة، ربما لأول مرة، فألجمتها:

- هيعمل إيه يا جمانة؟.. القرار عقلاني من الألف للياء سواء منه أو مني.. مالوش حق يحاسبني زي ما أنا ما طلبتش منه يحبني ويبعت لي ورد ويتغزل فيَّ.

تنهدت "جمانة" في استياء وقلبها يأسى لحال شقيقتها:

- يا حبيبتي طيب بلاش كده.. ما ينفعش تهربي، لازم تواجهي، لو مش عاوزة ترجعي لأحمد قولي لأ وخلاص، إنما تتجوزي واحد تاني ده غلط كبير ونتيجته مش مضمونة أبدًا.

سخرت منها بسخط:

- والله؟!! أواجه؟.. أنت نفسك ما واجهتيش قبل كده وأهو عايشة مع زوج بيحبك وأنتِ بتحبيه.

نظرت إليها في ضيق، والأخرى تواجهها بتحد غريب.. تمتمت:

- مش كل الحكايات شبه بعضها يا لميا، أدهم اتجوزني لأنه بيحبني، لكن أنتِ....

والمقاطعة كانت هتاف حاد قاطع وربما حزين:

- عارفة إنه مش بيحبني ولا أنا بحبه، خلاص خالصين، هي مجرد حياة هاعيشها والسلام، مين قال إني متوقعة ألاقي حب تاني؟.. ولا حتى بادور عليه.. العقل أحسن بكتير صدقيني، خلينا نبني علاقة قايمة على الاحترام والمصالح المتبادلة، وكل طرف يبقى عارف حدوده.

ترددت لثوان قبل أن تكمل بحروف متوجعة وأختها تتطلع إليها في أسف:

- ع الأقل مش هيتجوز عليَّ لو ما خلفتش ويقول عاوز أبقى أب وأحتفظ بيكِ في نفس الوقت.

عادت الصغرى تعاند:

- أيوة بس هو مالوش ذنب يا لميا، أنت مش هتقدري تديه أي حاجة، أنت بس بتحمي نفسك بيه، مجرد درع، والدروع كتير لو بصيتي، ليه هو بالذات؟

ردت بخفوت حازم وعزم معقود:

- لأنه نهائي، واحد وأخيريا جمانة.

وباستدارة حاسمة ألقت بتساؤلها الأخير:

- ها هتكلمي أدهم ولا أتصرف أنا؟

رفعت الأخت حاجبيها دهشة ثم عقدتهما في غضب:

- وهتتصرفي إزاي بقى؟.. هتروحي تطلبي إيده؟

لم ترد بل زمت شفتيها وأشاحت بوجهها بعيدًا، اقتربت منها "جمانة" تربت على كفها بحنان وهي تريحها بجواب رغم قلقها الشديد:

- هاقوله يا لميا، وربنا يسهل.

عادت الأعين تتلاقى، زوجين قلقتين عاتبتين مهتمتين، والأخريين شاردتين في غد غير مضمون وبئر سحيق ألقت بنفسها داخله بإرادتها الحرة.

******

والحائرة الأخرى تجول بعينيها بين شقيقتها الكبرى التي تلقي بحياتها بين يدي رجل رفضته قبلًا، تصنع منه درعًا واقيًا دون ضمان لنتيجة ما، وتعود بهما لزوجها البعيد القريب، يقف بجوار زوج أختها ويشد على يديه، يحتضنه مهنئًا ويمنحه ابتسامة صادقة لم تنلها هي منذ أكثر من أسبوع.

تفكر به وله وحوله..

تشاغلها نظرته التي يلقي بها نحوها بين كل لحظة وأخرى، وتمنع نفسها من الاقتراب منه..

هو رسم لنفسه حدودًا منذ آخر مرة، وغير مسموح لها تخطيها أو محاولة تجاوزها، منذ اكتشف أنه تغير بشدة، لم يعد هو، وهي من أعادت تشكيله..

تعاتبه عيناها فيتجاهل، تهمس باسمه فيشيح بوجهه، وتكاد تقترب فيهرب، تعامله البارد معها يقهر قلبها لكنها لاتزال تحاول نيل رضاه في كل دقيقة.

عادت بعينيها نحو أختها و الرجل الذي تزوجته للتو يقترب منها بخطوات وئيدة..

يقف أمامها، يمسك بكفيها، يرفعهما لشفتيه ويمنح كل منهما قبلة دافئة أنيقة، ثم يجذبها أقرب إليه ويطبع على جبينها قبلة أخرى طويلة..

بعدها همس في أذنها بكلمة ما اشتعلت لها وجنتا "لمياء" بينما تهبه ابتسامة طفيفة خجول، ابتسمت بحنان ودعت لها بالخير.

بعض الأمور صعبة على التصديق، هي للآن لا تدري كيف تم الأمر بهذه السرعة!! عندما حادثتها شقيقتها و جرت بينهما مشادة انتهت بموافقتها على قرار أختها رغم رفضها لهروبها بهذه الطريقة..

عادت للمنزل تنتظر عودة زوجها لتخبره، الحل بيده هو ولن تصلا لشيء سوى عبره..

حاولت التفكير في حوار مناسب، فكانت أفكارها تدور حوله، حول غضبه وابتعاده عنها، حول قلبه الذي سلسله بأصفاد الغضب والغيرة دون اهتمام أنها ملكه بالفعل ومنذ زمن طويل.

عندما عاد في وقت متأخر ووجدها بانتظاره أبعد عيناه عنها، اقتربت منه عدة خطوات فتراجع هو للخلف وسأل ببرود:

- لسه صاحية ليه؟.. مش قلت لك بلاش تستنيني!!

توقفت، الحدود الوهمية الحاجزة بينهما تكاد تراها بعينيها المجردتين، همست برفق:

- أنت عارف إني مش بانام إلا لما تيجي.

ضغط فكيه سويًا يكتم عبارة ساخرة ما أو ربما صرخة غاضبة، لم يعلق، تحرك في الغرفة يلتقط ملابسه من الصوان ويتحرك نحو دورة المياه بخطوات سريعة، نادت باسمه فتوقف، لم يلتفت لكنها من دارت حوله تخاطبه برقة:

- ممكن نتكلم شوية؟

عقد حاجبيه في تساؤل امتزج به ملل كأنه لا يريد منها مجرد محاولة التقرب منه، ضايقها رد فعله الجامد فهتفت حانقة:

- أدهم هتفضل كده لحد إمتى؟

سأل بسماجة:

- كده إزاي؟

تبًّا.. ابتلعت عدة أنفاس ثم زفرتها بعنف..

كبرياء الرجل أعنف بكثير من عشق وردي يسكن روحه..

وهي جرحته كما يظن هو، ورغم محاولاتها المستمرة والمستميتة لمداواة الجرح لايزال رافضًا متباعدًا، ينفر من مجرد الحديث معها، بللت شفتيها وردت بهدوء مصطنع:

- بعيد عني!!

زفر بتململ أكبر، خلع سترته وألقاها على مقعد مجاور، ألقى بالمنشفة فوق كتفه ثم كتف ذراعيه أمام صدره، بعدها ظل ينظر إليها في صمت تجاوزته هي لتبدأ ثانية:

- كفاية بقى يا أدهم.. أنا مش عارفة أراضيك إزاي؟.. الموضوع عدى عليه كم يوم وأنت برده زعلان وبعيد عني، قلت لك نسيت وغلطت واعتذرت، مطلوب مني إيه تاني؟

مط شفتيه دون اهتمام ومنحها ردًا يتخلص به من إلحاحها الذي يثير حنقه أكثر:

- مش مطلوب منك حاجة يا جمانة، أنت بررتِ موقفك والموضوع انتهى، كون إن أنا أعديه ببساطة أو لا دي حاجة ترجع لي، أنت عملتِ اللي عليكِ وزيادة.. تمام كده؟!

شعرت بغضب أكبر يتملك منها..

وعندها تعامت عن حدوده التي يحتجز خلفها قلبه ونفسه داخل دوامة الماضي والغيرة بجنون من رجل ميت..

اقتربت منه، اقتربت حتى لم يعد من فاصل بينهما سوى أنفاس تتردد بسخط متبادل، دفعت إصبعها في صدره تهتف بهوس امرأة عاشقة مشتاقة حد الموت:

- أدهم مش من حقك تبعد عني بالشكل ده، أنت بتغير بطريقة مش معقولة.. حسام مات وانتهى الموضوع من قبل ما أعرفك، وجود صورته في بيتك مش أكبر من وجود بنته اللي من حقها تعرف ملامح أبوها.

أمسك بإصبعها الذي تنغز به ضلوعه وضمه مع بقية أصابعها في قبضة قاسية، نظر إليها بعدم تصديق، ما الذي تسعى إليه بحديثها الذي لم يمر بعقلها قبل أن يلفظه لسانها الأرعن؟!

الهياج امتزج بالذهول في حدقتيه، ثوان من الصمت ثم دفعها بعيدًا لا يكاد يصدق ما نطقت به ولا يجد ردًا عليه.. يهرب من محيط يحتوي دفئها ولهيب أنفاسها التي تشتاقه بشدة..

غادرها إلى خارج الغرفة، لم يهتم لطعام فقط ألقى نظرة على الصغيرين كعادته وتوجه نحو غرفة مكتبه بعدما استبدل ملابسه، هناك جهز فراشًا يسهل طيه، تمدد فوقه والنيران لاتزال تتملك من عقله وتحرق أفكاره واحدة تليها أخرى فأخرى حتى أصبح متوقعًا للوثة ستصيبه حتمًا..

فُتِح الباب فجأة بهدوء، اللعنة.. لقد نسي إحكام إغلاقه، أطلت برأسها تنظر إليه في توتر..

هي حمقاء وتعلم ذلك.. كيف نطقت بتلك الكلمات الغبية؟!.. لعنت بلاهتها وسخطت على نفسها..

ترددت لثوان ثم اقتربت منه بتؤدة وملامح الذنب ترسم خطوطها على وجهها، جلست إلى جواره فأدار وجهه عنها ونبرته أمرتها بحزم:

- عاوز أنام يا جمانة، ما عنديش استعداد للكلام تاني.

ازدردت لعابها بصعوبة وازت غصة مريرة تكونت في حلقها، تسب كبرياءه اللعين الذي يدمي قلبها على فراق دفء أحضانه، همست بهدوء محاولة إضفاء الاتزان على لهجتها:

- معلش محتاجة أتكلم معاك في موضوع مهم.

زفرته الضائقة بها آلمتها لكن رغمًا عنها لابد من الحديث، اعتدل جالسًا في مكانه ينتظر، تنحنحت بتوتر ثم ألقت بطعم صغير:

- الموضوع بخصوص آدم ولميا.

هل جذب الأمر اهتمامه؟.. رفعت عينين مرتبكتين نحوه تتصيد بعض اكتراث لكنه الجمود من قابلها، عادت تغمغم بتردد:

- بيتهيألي لو اتقدم لماما رسمي لميا مش هتقدر ترفض.

رد بسخرية لاذعة:

- وإيه اللي يجبره على كده؟

نظرت إليه في دهشة بادلها إياها بلمحة غضب لم تفهمه، هزت كتفيها تحاول التفاهم بعقلانية:

- آدم محتاج وجود لميا في حياته وهي كمان محتاجة وجوده، هي بس بتنكر وبتكابر.

اعتدل ثانية مع جواب جاد وجامد:

- الجواز مش احتياج وبس، آدم اتقدم لها كذا مرة وفيهم كلهم كانت بترفض، أعتقد كفاية عليه إحراج لحد كده، وبكرة ربنا يوفقه ويلاقي الزوجة اللي تناسبه وبدل ما يكون محتاجها يكون بيحبها، ولميا كمان.

اتسعت عيناها قلقًا، حديثه يهدم الخطة من الأساس، لا تخذلني من فضلك، هتفت بها داخلها في وجل بينما تخاطبه ثانية:

-أيوة بس هما مناسبين لبعض، لميا خايفة مش أكتر، محتاجة ثقة والثقة دي مش هتوصل لها إلا بالقرب، وهي لحد دلوقتِ بترفض من بعيد، لازم تجرب والتجربة هتكون الدليل إنها ممكن تعيش من جديد وتحب وتتحب.

زفر أو ربما تنهد، في كلتا الحالتين أنفاسه ساخنة متضايقة:

- جمانة إيه فكرك بالموضوع ده دلوقتِ؟

ترددت، هل تخبره؟.. أم تصر على اقتراحها مع رفضه المقلق هذا:

-أحمد ظهر تاني!.

رفع حاجبيه في دهشة ساخرة:

- أحمد شكري؟ طليقها؟

تعلم بزمالتهما السابقة فلم تستغرب معرفته به، أومأت في صمت فتساءل:

- وأنتِ بقى خايفة إنها توافق ترجع له وشايفة إنه ما يستاهلش!!

هتفت مدافعة:

- طبعًا ما يستاهلش، ده خانها واتجوز عليها.

تساءل ببرود:

- وإيه رجعه تاني والحال زي ما هو؟

توسلت إليه بأمل ترجوه التفهم:

- بيقولها إنه بيحبها، بس لو كان بيحبها ما كانش جرحها من الأول، ع الأقل كان خيرها، عرفها، مش يغدر بيها عشان ياخد كل اللي نفسه فيه الزوجة اللي بيحبها والزوجة اللي هتجيب له الابن، حرمها من أمومتها وراح دور على أبوته من غير ما يهتم بمشاعرها أو إزاي حاجة زي دي ممكن تكسرها، أحمد ما يستحقهاش وهي تستاهل حد يهتم بيها ويراعيها، وانا وأثقة إن آدم هيعمل ده.

فكر لثوان، زوى ما بين حاجبيه وتساءل بعمق:

- ولميا إحساسها إيه ناحيته؟

ارتبكت من جديد، هذا خطؤها منذ البداية والسبب تبرير أحمق لم تفز من ورائه بالكثير:

- لميا رافضة طبعا لحد دلوقتِ بس ...

قاطعها:

- بس أنتِ قلقانة إنها ممكن ترجع له؟.. فقلت تلحقي تحميها بضل راجل تاني مش كده؟

نظرت إليه في قلق رده نحوها بعينين باردتين وجملة أثارت حنقها بشدة:

- والمطلوب مني أقول لآدم روح إخطبها من مامتها رسمي وحطها قدام الأمر الواقع لأن وقتها هتقنعها والباقي عليك صح؟

والهدف يحتاج صمود وبرود..

الشقيقة التي تنحر حياتها بسكين ثالم هروبًا ترتجي منها خدمة وهو يعاند ويسخر ويغضب..

وفي النهاية قبل أن تفند حديثه استلقى مجددًا يمنحها ظهره، ينهي النقاش بسخط مستتر:

- أخويا مش هيتجوز واحدة غصب عنها، لازم يكون برضاها ويفضل لو بتحبه من البداية، مش هيتسول منها الحنان والحب بعد الجواز، حكاية مش مضمون نتيجتها.. تصبحي على خير.

ثم يلقي بكلمات يقصدها بها..

ضمت قبضتيها بقوة، الغيظ، الحنق، والدهشة تملكوا جميعًا منها بنسب متساوية ومقادير أسقطت حساباتها الخاطئة..

هل ينهي الأمر بهذه الطريقة لأنه حانق عليها فقط؟ أم أنه مقتنع بما يقول حقًا؟!.

ومر يوم، فآخر، وآخر، هي تحاول إقناعه، وهو يرفض، في النهاية استسلم لطلبها البسيط بأن يخبر أخيه ويخيره، ليس من حقه اتخاذ القرار عنه..

والمفاجأة أن الأخ الأكبر وافق ورحب بالفكرة بجنون يوازي جنون شقيقتها، ولم يمر أسبوع حتى أصبحت زوجته وانتهت الحكاية.

******

المعجزات تحدث..

من قال أن زمن المعجزات قد انتهى؟.. أحمق لو صدق..

لقد وافقت أخيرًا وها هو يصل للهدف، والليلة كتب إلى جوار اسمه اسمها على وثيقة زواج، رباط غليظ مقدس سيحافظ عليه مهما كلفه الأمر، رباط شعر به يُعقد بينهما وقتما منحته موافقتها ونبضة قلب لم يدري لها سببًا لكنها بالتأكيد نبضة سعيدة، أخيرًا سيشعر بالاستقرار.

الجمع من حوله سعداء لأجله أيضًا، أخيه يقف إلى جوراه يتلقى التهاني وبين كل حين وآخر، يمنحه ابتسامة ويشد على يده..

وهي هناك.. في الزاوية المقابلة، تجلس بين شقيقتها وأخته، مع أمها وزوجة أبيه، وامرأة أخرى لا يعرفها..

أناس قليلون لكنه يكتفي بها، يود الذهاب إليها فقط هو محاصر نوعًا، شرد لدقيقة، لقد وافقت.. لا يكاد يصدق، بعد رفضها المتعنت السابق، محاولاته ومطارداته المعدودة، والحل كان في يد الأم منذ البداية.

تذكر عندما أخبره أخيه باقتراح بسيط، "لمَ لا تتقدم لخطبتها من والدتها بشكل مباشر؟ حينها قد تحدث الموافقة!!"، اندهش وقتها لكنه قرر

المحاولة وباءت بالنجاح الباهر، ليلتها وأمام والدتها بعد نظرة قصيرة متبادلة بينهما قالتها صريحة، مباشرة وحازمة:

- أنا موافقة يا دكتور آدم.

كاد ينتفض في مقعده لكنه ابتسم بسعادة واضحة، بعدها طلب الاختلاء بها قليلًا، لا يدري السبب لكنه يريد الحديث معها، حينها سألته بجدية:

- مش بتمل من مطاردة أهدافك مش كده؟.

تلاعبت في عينيه نظرة ماكرة محاها سريعًا، وجاوبها بصمت قصير تبعته نبرته الحنون:

- مش كل هدف يستاهل سعي جاد لآخر لحظة.

أدارت وجهها فيما أسماه خجلًا، صمتت لكنه كان من تحدث:

- ووصلت.. صح؟.

عادت تنظر إليه، صوتها هادئ لكن أصابعها المعقودة فوق ساقيها أنبأته بتوترها:

- وصلت.

اقترب في مجلسه منها فنظرت إليه دون تعليق، منحها ابتسامة لطيفة مطمئنة وبخفوت تحدث:

- أوعدك إني مش هاخذلك أبدًا.

وكأنه يعلم أن هذا هو سبب معاناتها الرئيسي..

"الخذلان".. تعاني من آثاره غير القابلة للمحو، تهرب ولا منفذ، تحاول النسيان لكنه متجدد كل يوم..

رفعت عينيها إليه تمنحه نظرة تطالب فيها بالأمان، فابتسم ثانية وكرر بحسم:

- أوعدك.

حينها خفضت عينيها وانتهت الجلسة بتحديد موعد عقد القران بعدها بأسبوع، ولدهشته لم تعترض أيضًا، لكن سعادته لم تترك له مساحة للتفكير في منطقة الأحداث أو تفسيرها..

والآن هي زوجته، ملك يمينه، وفي نيته تعويض.. نعم سيفعل، سيمحو الماضي بذكرياته الأليمة، يضمد جرحها ويجمل ندوبه، يمنحها اهتمامه وينهل من حنانها.

توجه نحوها ببطء، عيناه مسلطتان على عينيها، سجن انحبسا فيه يتبادلان النظرات والهمسات الغير مسموعة، انحنى يمسك بكفيها يساعدها على النهوض، انحناءة أخرى بقبلتين على أصابعها الناعمة، وتالية بقبلة دافئة طويلة فوق جبينها، تلتها همسة:

"مبروك يا لميا.. بقيتي أخيرًا مراتي"

وشاهد بمتعة احمرار وجنتيها فابتسم من جديد وطمح إلى خلوة، أوحى بها لأخيه أن تصرف والشهم قد فعل..

سحبها خلفه نحو شرفة المنزل الكبيرة، وقفا متجاورين يتطلعان للنجوم المتناثرة بلمعتها الفضية تغرق دجى الليل الأدهمي، أراد الحديث فاستعصت الحروف، ورغبت هي في الصمت والفرار..

مد كفه الكبيرة بجرأة يحيط بكفها بحنان، أدارها نحوه وضمها بين كفيه الدافئتين، بنبرة سعيدة في وضوح همس:

- أنا سعيد قوي النهاردة.

تكرمت بابتسامة صغيرة، السعادة لا تبدو على ملامحها كما يريد هو، بل قلق، توتر، ورعشة خفيفة انتابت يدها الممسك بها..

مد أصابعه يرفع وجهها نحوه، أمسك بذقنها بين سبابته وإبهامه، فاستجابت بهدوء، نظر في عينيها، ومنحها تساؤل يخشى جوابه:

- وأنتِ؟

أسبلت أهدابها فتأمل ملامحها بحرية توقفها عادةً نظراتها نحوه، عادت تفتح عينيها وهمست:

- أيوة.

ابتسم من جديد وعاد يطمئنها:

- لميا أنا مش عارف أقول إيه!! بس كل اللي عاوزك تفهميه، إني هانسيك كل حاجة وكل ماضي إلا أنا، وعد مني.

بغمزة مرحة أنهى جملته فشاكسته بتردد:

- غرورده؟.

ترك ذقنها ليعدل من ياقة قميصه بابتسامة لئيمة:

- لا.. دي ثقة.

شعرت بالخجل، ومرات قليلة هي تلك التي يصادفها فيها ذلك الشعور..

عادت تخفض وجهها، تلتفت نحو سور الشرفة، تنظر نحو السماء فحذا هو حذوها، وفي قلب كل منهما تكونت دعوة، "يا رب امنحني السعادة التي تنسيني كل آلامي".

******

بالتأكيد هناك شيء ما قد حدث..

الرجل الحازم، آلة العمل الصلبة القاسية، الجاد المثابر والصارم، تغير.. لأجل جميلة بل فاتنة صغيرة، بعينين حزينتين رغم جديتها معظم الوقت، وملامح يغزوها الفزع بين كل حين وآخر دون أن يدري له سببًا.

خمسة أيام من أصل سبع رآها، بل التقاها، وكلها لقاءات مدبرة وختامها لم ينس مذاقه حتى الآن..

كان يجلس في مكتبه الجديد حيث مقر شركته المفتتحة حديثًا ويستعيد الذكريات، ابتساماتها المترددة والقليلة، عيناها الغائبتان عن عالمنا في عالم محمل بلون الشيكولاتة ونكهتها بين خصلاتها الناعمة الطويلة..

دفئها الذي لمسه لدقائق اعتلت فيها خلفه دراجته النارية في لحظات عفوية لم يكن خلالها هو رجل الأعمال وهي سيدتها، بل كانا كمراهقين صغيرين يستمتعان بوقتهما.

أول مرة ذهب إلى شركتها، وتم اللقاء، نقاشات عملية جادة، وسرقة نظرات، مداعبات وجدية افتقدها في نفسه معها..

والثانية في مقر عملها أيضا مع محاميه وذراعه الأيمن هنا، نقاشات جادة تألقت هي فيها..

والعرض أصبح أكثر إغراءً فقد عقد العزم على أن تكون هي جزءً من الصفقة لتصبح رابحة تمامًا..

بلى.. انتوى أن يتقرب منها أكثر، ويوم واحد تالٍ لم يلتقيها، كان طويلًا مملًا كما لم يعرف من قبل، وما تلاه بنكهة حضورها كان أشهى وأفضل مذاقًا.

عندها علم بالفارق الذي تشكله هي، بكل ما يراه منها من لامبالاة وتماسك مصطنع ولمحات هروب تتفلت منها بين لحظة وأخرى، لذلك قرر الهجوم، مع تغيير تكتيكي في الخطة..

في اللقاء ما قبل الأخير بشركتها، وعند الوداع صافحها واحتفظ بكفها بين أنامله القوية، لهجته حازمة آمرة، لكنها دافئة:

- عندك مانع نقضي بكرة سوا؟

سحبت يدها بارتباك تنظر إليه في غير فهم، استطرد هو بلهجة مغوية كأنه يحادث طفلة يغريها بقطعة سكاكر لذيذة تشبهها:

- أنا جديد هنا، بس عرفت كذا مكان هيعجبوكِ، هاعدي عليكِ الساعة عشرة الصبح تكوني جاهزة قدام باب الفيلا، أوك؟!

وللغرابة لم ترفض..

ربما لمتعة خوض المغامرة..

أو الابتعاد عن الروتين القاتل والأفكار المزعجة..

فالغد عطلة نهاية الأسبوع وهي لا تريد أن تهلك نفسها بالعمل كعادتها، منحته إيماءة صامتة بموافقة فقابل المنح بابتسامته الجذابة، استدار خارجًا وعند الباب التفت بلهجة مستمتعة:

- البسي جينزوتي شيرت بسيط، عشان تبقي على راحتك.

وخرج تاركًا علامات الدهشة على ملامحها، في اليوم التالي تفاجأت به، بنطال من الجينز الأزرق، قميص قطني أبيض قصير الأكمام، سترة جلدية وخوذة ضخمة سوداء تحمل الحرفين الأوليين من اسمه، ترجل بعدها عن دراجة نارية ضخمة متجهًا نحوها..

في الطريق خلع خوذته، نظر إليها بعمق، والابتسامة لا تغادر شفتيه، ألقى تحية صباح متطلعًا إليها..

عبير الشيكولاتة في خصلاتها معقوص على شكل ذيل حصان، تفلتت منه بعضها تداعب وجنتيها بجموح أثار غضبه وغيرته، وكما أمرها ترتدي جينز أسود وقميص حريري أرجواني اللون يعانق منحنيات جسدها القاتلة بنعومة فائقة تعلوه سترة بنفس لون البنطال..

وقف ينظر إليها للحظات، ثم أفاق على تململها، ابتسم وحياها، أشار إليها بخوذة أخرى لترتديها و تعتلي الدراجة خلفه، والنتيجة، تراجع خطوتين للخلف، ملامح متوترة بشدة ورفض بلفظ حاد وحيد:

- لأ!!

زوى ما بين حاجبيه مندهشًا في تساؤل صامت فأردفت تجيب:

- مش هينفع أركبها، أخاف ومش عارفة هامسك في إيه!!

ابتسم بخبث، وشيء تمناه سيحدث، ببراءة منحها جواب اتسعت له عيناها أكثر فكاد يغوص فيهما رغمًا عنه:

- إمسكي فيَّ.

تراجعت أكثر بهتاف مرتبك، لذيذة هي وقت الارتباك، يود لو يقضمها كقطعة من الشيكولاتة الداكنة التي يعشقها:

- لا مش ممكن، مش هينفع.

وبعد مناوشات، وحوارات ومداولات، استجابت، وتمسك يكاد يكون بأظافرها في سترته متباعدة ودون لمس..

أراد التمتع قليلًا فأخافها بسرعة مفاجئة وصرير، والنتيجة ذراعيها حول خصره، تتشبث به بعنف ورأسها يستند لظهره في ذعر بعينين مغمضتين بقوة مع صرختها:

- مراد بيه من فضلك!!

تبع متعته غيظ، لاتزال تلقبه برسمية جافة، حسنًا فاتنتي.. سنرى..!

يوم لطيف، ماتع، فاتن كهي..

أخذها لجزيرة صغيرة في نيل القاهرة يريد شراءها، مركب قديم متهالك بعبق الوطن، أغانٍ شعبية، وجمع من شباب يتمتعون بغناء ورقص..

انكمشت هي إلى جواره تنظر بغرابة كأنها وعلى الرغم من وجودها الدائم على هذه الأرض لم تذهب في رحلة بسيطة كتلك، حصلا على الفطور في مطعم شعبي بسيط، والغذاء حمل نكهة "مصر" المميزة، ربما فقط يعبر عن افتقاده لها بمذاقها في فمه، أكلا "الذرة المشوية" على الكورنيش، وقدم لها عقدًا من الفل أعطته إياه فتاة سمراء صغيرة وجميلة، شعر أنه يعيش في جو الأفلام القديمة التي اعتاد مشاهدتها وكم أمتعه ذلك وبشدة.

في نهاية اليوم أصبحت هي أكثر استرخاءً ومودة، حصل منها على ابتسامة طبيعية مرحة، عندما أوصلها هذه المرة، كانت تضع كفيها حول وسطه براحة وهدوء، دون تشبث ودون ابتعاد، أمام منزلها ترجل، وابتسم لتبتسم وتشكر:

- بجد كان يوم لطيف قوي، حاجات عمري ما جربتها قبل كده.

هز رأسه بانحناءة بسيطة والمرح يطغى على نبرته:

- مراد.. تحت أمر مولاتي.

ورفع عينه بغمزة أخرى علم أنها أثارت توترها، بعد صمت قصير همست بخفوت شديد:

- متشكرة قوي يا مراد، بجد النهاردة فرق معايا كتير.

وأخيرًا لفظت اسمه، بهمسة ندية رقيقة حملته لعنان السماء، وخجل من نطقه أذابه هو مع احمرار وجنتيها بلذة أنهكت ضربات قلبه فبادلها همسًا بهمس دون خجل:

- وفرق معايا أكتر، ولازم أكرره، مرة واتنين وتلاتة و.....!!

وترك لها الحساب والعدد..

وانحنى يقبل أناملها بلهفة..

وعينيه تحيطان بها في شرنقة نظرة لا يريد لها انتهاء..

تراجع خطوة فأخرى، لوحت بيدها لتحصل على انحناءة ثانية وإشارة بكفه كتحية، ثم رحل، يوم مر، وها هو الثاني دون أن يراها، واللعنة هو يشتاقها، تساءل بهمس يحمل متعة كما يملأه الغيظ:

"أنتِ عملتِ فيَّ إيه يا دينا؟!"

طرقات متتابعة على باب مكتبه أخرجته من شروده، سمح بالدخول فظهر أمامه أحد أهم العاملين لديه، يحمل ملفًا ورقيًا ناوله إياه باهتمام صاحبه توضيح:

- ملف المعلومات اللي حضرتك طلبته عن دينا أبو العزيا مراد بيه!

رفع عينيه إليه بغتة، ثم نقلهما نحو الأوراق، تردد لثانية قبل أن يلتقطها، وقلبه ينبئه أن ما بها سيهدم شيئًا ما بداخله، فتلك النظرة التي تعتلي وجه رجله لا تبشر بخير أبدًا.

******

عامل الوقت مختلف بشدة، طويل عند الانتظار قصير عند المتعة، فماذا لو امتزجت المتعة بالانتظار؟ سنحصل على مذاق مختلف مميز يعجبه هو بشدة..

اقترب موعد تفعيل زواجهما، مر أسبوعين أنجز فيهما الكثير في منزله تهيئة لاستقبال سيدته الجديدة، لا مهلًا لحظة، هي سيدته الأولى والوحيدة..

سعادة طفله بها تكاد توازي سعادته التي تضاعفت برقتها مع صغيره وحنانها عليه.

بابتسامة كان يرتشف قهوته اليومية السوداء في مقهاه المفضل القريب من مقر الشركة، تذكر خجلها على الهاتف أمس كأنها مراهقة صغيرة تسمع الغزل لأول مرة، تمنى لو رآها وقتها، كاد يجزم أن وجهها أضحى كحبة فراولة شهية حمراء داكنة، اتسعت ابتسامته وهو يستعيد تلعثمها عندما تجرأ معها قليلًا مذكرًا إياها بموعد زفافهما .. قبل أن يغوص في أفكاره أكثر وصله الصوت المتسائل:

- دكتور آدم الحسيني !

رفع عينيه لذلك الرجل الواقف أمامه بصلف، عقد حاجبيه في استفهام وأجاب:

- أيوة، مين حضرتك ؟

لم يجبه فورًا بل أشار بهدوء للمقعد المقابل له ومنحه مطلبًا كبداية:

- تسمح لي أقعد أتكلم معاك شوية ؟

صمت "آدم" للحظات وهو يتأمل الرجل، لم يشعر نحوه بالراحة، بالإضافة لكونه لا يعرفه فهو يتصرف بطريقة غريبة، لكنه لم يملك إلا أن يشير إليه موافقًا، جلس في مواجهته وبعد ثوان شعر بها دهرًا نطق الرجل بما نفض قلبه بعنف:

- أنا المهندس أحمد شكري، طليق لميا.

لحظات جنون صامتة، حرب نظرات، باردة قاسية ضد أخرى متسائلة بلا فهم امتزجت بغضب خفي..

عليه أن يطرده، بنزعة الشرقي الساكن في جيناته الذكورية أقل ما يمكن فعله أن يغادر، أمران اثنان دفعاه للجلوس في سكون وهدوء مقابلًا لذاك المتبجح بزواجه السابق من زوجته الحالية، فضول ينهشه يحتاج لارتواء بما سيبثه هذا الرجل في أذنيه من سموم في الغالب، ولمحة حضارة غربية

منحته برودًا كافيا ينظر به إليه، وثقة كبيرة يدعم بها موقفه، فهو الزوج، المالك، السلطان الحاكم الآن.

أضفى على صوته هدوءًا وصل حد الجمود عندما رد:

- أهلا و سهلا، خير؟

وقبل أن يجيبه الجالس أمامه، أشار بكفه مدعيًا:

- يا خبر، معلش يا باشمهندس، نسيت .. تحب تشرب إيه ؟

عقد "أحمد" حاجبيه في استياء، وبدأت ثورة مشاعره في الغليان، أجابه بابتسامة لزجة:

- لا متشكر، الموضوع كلمتين وهامشي.

منحه ابتسامة مماثلة ونبرة باردة:

- زي ما تحب.

تراجع الرجل في مقعده مع تنهيدة عميقة يستجمع بها حروفه المسمومة:

- أولا طبعًا مبروك، لميا حد كويس جدا، وتستاهل كل خير، ياريت هروبها يبقى بفايدة وتلاقي سعادتها معاك.

أشعلت الكلمة فتيل قنبلة موقوتة بداخله، ثوان أخرى..

إن لم يفهم سينزع عباءة الغربي المتمدن ويرتدي جلباب الشرقي حار الدماء..

أي هروب يقصده ذاك الأحمق ؟ لم يرد، والآخر لم ينتظر ردًا، استطرد بعد نظرة شماتة خاطفة اختفت بسرعة قبل أن يلمحها غريمه:

- إنت طبعا عارف قد إيه أنا ولميا كنا بنحب بعض، ومش هاخبي عليك، إحنا لسه بنحب بعض، أنا بحبها قوي، هي الوحيدة اللي حبيتها، ومتأكد إنها لسه بتحبني.

رفع "آدم" أحد حاجبيه ساخرًا، حقا طاووس منتفش بجينات ليس له يد فيها، أحمق كما أطلق عليه بالضبط، لاحظ "أحمد" صمته وحاجبه الساخر، فأكمل ببرود:

- أنا قابلت لميا وطلبت منها نرجع لبعض بس هي كرامتها واجعاها شوية، وخايفة قلبها يضغط عليها فتيجي على كرامتها وترجع لي، الحل الوحيد قدامها هو الهروب لحضن راجل تاني، والجميل في الموضوع إنه عنده ابن، هيعوضها كتير.

الآن عقدة الحاجبين غاضبة، ما الذي يتفوه به ذلك الغبي ؟ ومتى عاد طالبًا زواجها من جديد؟ صوته وصله ثانية بلمحة تشف:

- لميا اتجوزتك عشان تهرب من حبها ليَّ، من ضعفها قدامي، وأنا متأكد إنك لو رجعت في كلامك ورفضت تتمم الجواز، هي هتبقى مراتي تاني يوم.

صمت تام في المقابل، مال نحوه مستمرًا في بث سمومه:

- قلبها اتفتح على إيدي، أول واحد دق له، أول واحد لمسها، أول واحد علمها الحب، وجوا قلبها متأكد إني الأخير.

ازداد غليان الدماء في عروقه لدى سماعه لكلماته الحقيرة، بعد انتهائه مط "آدم" شفتيه في شبه استفهام ساخر ثم تساءل:

- خلاص كده ؟ قلت كل اللي عندك ؟ على فكرة أنا عارف إن لميا كانت متجوزة قبلي، وعارف إنها كانت بتحب جوزها، ويمكن ماحبتش غيره، المهم اللي جاي، المستقبل، الحياة اللي هتجمعني أنا وهي، وقتها نتكلم عن القلوب، لأني عارف ومتأكد، إني هاملكه وهاملكها بكل ذرة في كيانها، وابقى قابلنا قدام شوية واحكم بنفسك.

قالها ببرود شديد، برود طاغ لا يعكس فوران دمه واحمرار الصورة أمام عينيه، نهض واقفًا وألقى ببضع وريقات نقدية على المائدة ثم تحرك مغادرًا المكان بخطوات سريعة قوية .. وواثقة .

هشاشة موقفه داخلها يعلمها، هي وافقت بشكل مفاجئ للجميع، حتى والدتها نفسها..

ترى هل هي السر وراء حث أخيه له على التقدم لها بشكل رسمي وطلب يدها من والدتها مباشرة؟

هل لاتزال تحب ذلك الأجوف الذي قابله منذ قليل ؟ ما الذي جذبها إليه حقا ؟ مجرد برميل يحدث ضجيجًا عاليًا، فارغ، لا يملك شيئًا، ويلعب بدناءة .

هي زوجته الآن، عُقِد قرانهما، لن يحاسب على ماض وبيده مستقبل سيشكله كيفما شاء، وذاكرتها التي انطبعت فيها بقايا ذلك "الأحمد" سيمحوها باقتدار، هو يعلم ذلك، وواثق بنفسه بقوة، ابتسم باستهزاء عندما استقر خلف مقود سيارته وانطلق بها مسرعًا كأنه يفرغ غضبه تحت عجلاتها .

******

مقادير السعادة يتم توزيعها، وتريد هي أن تخطف منها قدرًا كبيرًا تحتفظ به لأجلها وأجل ذهبي العينين، لقد تأكدت ولا جدال..

هو يحبها وهي مغرمة به..

لم يصرح ولم توضح لكن القلوب تتبادل الهمسات حين كل لقاء والأعين تهتف بالحب عند عناق النظرات.

تتمدد فوق فراشها بكسل، كتاب ممل لإحدى موادها الدراسية وصورة وسيمها تحتل صفحاته جميعها.. واحدة واحدة.. علمت الكثير عنه خلال الأسابيع الماضية، بعد عقد قران أخيها بأيام قابلته، وتحدثت معه بتحفظ

كالمعتاد، ونالت ابتسامة ونظرة حب ورحلت، قوتًا يكفيها حتى اللقاء التالي، ومن شقيقته علمت عن رجولته، صلابته، حنانه واهتمامه.

هو الشقيق الأكبر لها ولأخ أصغر توفي قبل مجيئهما لـ"مصر" بعام.. الحزن ظلل حياتهم كثيرًا، وترك غمامته فوق قلب أخيها حتى أشرقت شمسها هي، أخبرتها بصراحة أنه يكن لها مشاعر ما، وفتحت صنبور الحديث الذي لم ينته إلا وهي تعرف عنه الكثير.. والكثير جدًا.

في السنة النهائية بكلية الهندسة، القسم المعماري، تأخر لعام عندما أتى لوطنها بسبب ملابسات روتينية معتادة لذلك هو يكبرها بسنتين، يعمل بعد الجامعة في مكتب بسيط للتصاميم الهندسية، لا يليق بمهندس على وشك التخرج مثله، لكنه لم يغتر، يوفر لهم المال اللازم لاحتياجاتهم، من عائلة ثرية في وطنهم فقط الفقر صحبهم وقت الفرار بأرواحهم.

الخال يرسل إليهم بمصروفات ربع سنوية تكفي بالكاد دراسته هو وشقيقته، فتحمل هو بنفسه عبء الباقي، ابتسمت بحنان امتزج بالفخر، رجلها قوي وناجح مهما كان المجال الذي اختاره ورغم انه لم يبدأ حياته العملية الجادة بالفعل.

قاطع شرودها رنين هاتفها برسالة نصية، والمحتوى أوقف قلبها، ثلاث كلمات سالت لها دمعاتها بعد شهقة صدمة حبستها بكفها داخل صدرها:

"بابا مات يا سارة"

(١٣)

قدر

قدرٌ أنت بشكل امرأة..

وأنا مقتنعٌ جداً بهذا القدرِ

إنني بعضك، يا سيدتي

مثلما الآهُ امتدادُ الوتر

مطر يغسلني أنتِ.. فلا

تحرميني من سقوط المطر

بصري أنت.. وهل يمكنها

أن ترى العينان دون البصر؟

رجل!!

"نزار قباني"

أحيانًا يكون الحل.. تسلل، هجوم مفاجئ، وشغف مسروق لكنه مباح!.. لعنات الجحيم تحرق قلبها وعقلها وروحها في فراقه البعيد القريب..

وهو يقسو ويقسو، الحبيب المتفاني، العابث والرقيق، صاحب المتناقضات، يتباعد ويرفض القرب، غيرته، جنونه، دوافع تبغضها لكنها تذوب لها؛ يغار عليها، يجن بها، ويحرق الكون لأجل عينيها أو الأصح.. يفارقه برحابة صدر فقط لتكون هي بخير..

إذًا تباعدها هي الأخرى خطأ كبير وهو.. به شيء ما مختلف ستعمل على اكتشافه، إنما بعد أن تحصل عليه أولًا.

لقد عادا منذ قليل من حفل العشاء البسيط الذي كان بمثابة إعلان زواج شقيقتها بأخيه، كم تتمنى لهما السعادة، ولها حبًا كالذي حظيت به هي.. معشوق روحها بدا كوالد العريس، ينظم، يشارك، يأمر والجميع ينفذ دون نقاش بتسلط محبب لنفسها، وفي الليل ببزة سوداء رسمية وقميص يوازيها سوادًا، دون رابطة عنق، بلحيته الخشنة المشذبة وخصلاته التي سمح لها بالنمو أطول بدا وسيمًا كعادته، أو ربما أكثر، لقد خطف أنفاسها تمامًا كما فعلت هي بالمثل معه.

ابتسمت بسعادة تستعيد ملامحه عندما دلف لغرفة النوم يكمل ارتداء ملابسه، كانت تقف أمام طاولة الزينة، ترتدي ثوبها الفيروزي دون سترته العلوية، بحمالتيه الرفيعتين وخصلات الكستناء تتراقص بدلال فوق

كتفيها بينما تمشطها بعناية، استدارت تلتقط وشاحها فوقعت عيناها عليه مسمراً عند الباب ينظر إليها باشتياق واضح، وعندما تلاقت الأعين هربت نظراته للمرآة يقترب منها، يلتقط عطره المفضل لديها، زخات غزيرة حبست أنفاسها أمامها، وهي تنظر إليه بدقات قلب تكاد تغادر صدرها، منحها نظرة سريعة عبر السطح المصقول ثم التفت وغادر.

والآن ستذهب هي إليه بعطرها الذي يعشقه، لن تحاول إغواءه بل فقط ستبثه حبًا يتدفق في خلاياها كشلال عنيف قوي، يهدر به قلبها دون توقف، وتلتقي به شرايينها في نعومة فيسري عبر خريطة جسدها كاملة.

لم يكن نائمًا ولم يغلق باب الغرفة، فقط نزع سترته وبقي بقميصه وبنطاله، يجلس على مقعد مكتبه في ضوء جانبي خافت، يطالع السماء الحالكة من خلف زجاج نافذته، والشرود يحيط به إحاطة السوار بالمعصم، لم ينتبه لتأملها له، ولا حتى لخطواتها البطيئة الخافتة، لمست كتفيه من خلف مقعده برفق، تتحسسه بأصابعها، لم ينتفض لكن رد الفعل كان انعقاد حاجبين في صمت فعلمت أن الطريق ليس هينًا كما تظن وقررت بدء السير فيه.

دارت حول المقعد تنظر إليه فرفع عينيه إليها في خواء، لا معنى محدد لنظراته، انقبض قلبها للحظة وعطرها يداعب حواسه كلها، لقد علم بوجودها منذ خرجت من باب غرفة النوم، سكونها، وقوفها وتأملها له،

دخولها وصوت إغلاق الباب خلفها، اقترابها الحثيث حتى لمستها الخافتة توقعها ولم يجد بداخله رد فعلٍ معينٍ فصمت.

فاجأته باقتراب، جلست فوق ساقيه تحيط عنقه بذراعيها تتحسس خصلاته برقة، همستها كانت خافتة، مشبعة بمشاعر تتفجر صارخة داخل صوتها الخفيض:

- بحبك.

تأملها في سكون، لم يحاول ضمها والمبشر لم يبعدها عنه، عيناه تحملان حزنًا، عتابًا، وعشقًا يتسلل في الخلفية رغمًا عن إرادته، فتح شفتيه وأغلقهما ثانية، لم يجد ما يقوله، قلبه ممزق وخوفه من فراق محتمل يتضاعف في كل لحظة فيثير أعصابه ويفجر براكين غضبه وجنونه.

ظلت تبثه الرسائل بعينيها ويقابلها هو بالصمت، وعندما حاول النطق من جديد منعته بشفتيها!

هل تفاجأ؟!.. بكل تأكيد.. فهي لم تكن البادئة يومًا، وفور عناق الشفاه تفجرت حمم الشوق في قلبه وعقله وكيانه كله، صدمة مبادرتها ألجمته لثوان، لكن فيض مشاعره استجاب بعد استيعاب الموقف وتحرك الشغف مغادرًا القمقم الذي ظل حبيسه كجني معاقب بالحرمان.

ابتعدت ببطء، ليس كثيرًا، تلفح أنفاسها الحارة وجهه ويحرقها لهاثه، العيون في لقاء من جديد وهمسها يتردد من أعماق روحها:

- بحبك.

وأخيراً تحركت ذراعاه تضمانها إليه، إحداهما تحيط بخصرها والأخرى تلقي برأسها فوق كتفه وتتخلل خصلاتها الناعمة، أنفاسه تهدأ ببطء وقلبه ينبض باسمها ويرجوه اللقاء، يلعنه ويسب بعنف كبرياء رجل أحمق يفارق حبيبته بكامل إرادته لذكرى ماضٍ أفقده ثقته بنفسه وبقلبها، يؤنبه على ضعف واستسلام لتباعد بدلًا من اجتياح حد الامتلاك وحتى الرمق الأخير، هي لك الآن فلمَ عقد المقارنات يا غبي؟!.. لمَ الإحساس بالدونية داخل قلبها؟ أنت هنا لست لا تثق بها بل لا تثق بقدرتك على تملك كل ذرة فيها.

واستجاب لقلبه، استجابة رجل عاشق حد الثمالة، ثمالة هوىً لم يترك في كيانه قدر أنملة إلا واشتراها بغرام مدفوع مقدمًا، مد أصابعه يرفع ذقنها، تلاقت المقل بهمسات صامتة وعزفت الشفاه معزوفة شغف تغار منها أوتار الكمان، انتهت بها بين ذراعيه ثملة كعادتها برجل تكتفي به عن العالم أجمع.

******

عندما تعاند الأنثى، تكابر، ترفض بعنف وتتهرب.. تثير لدى الذكر غريزة القنص، تستفزها ببدائية، وتخرج إنسان الكهف الغارق في سباته بأعماقه.. وهي الفاتنة، المثيرة، الحزينة مؤخرًا.. لا تثير فقط رغبته في

الصيد، بل تحرك شيئًا ما بداخله يدفعه لمطاردتها بكل الوسائل المباحة أو غير المباحة حتى الوصول إلى الاستسلام التام.

رؤيتها من جديد، القبلة التي تبادلاها... أو على وجه الدقة التي انتزعها منها عنوة في حين كانت هي مجرد مانح صامت خائف مستسلم، رائحتها، صوتها، قربها وحتى رعبها المتمكن منها، تحفز كل غرائزه الكامنة، تدفعه للمثابرة بعناد، القتال بشراسة، وتخطي العراقيل مهما بلغت صعوبتها، وفي النهاية يعلم أنه سيصل.

يراقب خطواتها كالصقر، يتتبع تحركاتها كجارح ينوي نهش الفريسة بعدما يضنيها التعب فتهلك بين يديه، وكل ما يصله يسيئه، يغضبه، ويشعل الجحيم بداخله.. سابقًا كانت تلتزم بالعمل، فقط العمل، أما في الفترة السابقة، وخلال أسبوع كامل أصبحت ترى أحدهم، يدخل الشركة يوميًا تقريبًا وفي اليوم الأخير اصطحبها كحبيبته فوق دراجة نارية دون أي اعتبارات أخرى، تبًّا لها.. سوف ينهي الأمر قريبًا ولن تكون لغيره أبدًا، فبعد وشمه الموصومة به لا يصح أن يلمسها آخر، ملكيته لا تمحى إلا بنهاية الحياة.. بالموت، وهي من اختارت ذلك من البداية.

وصل لأنفه حال شروده عطرها الفج، يا إلهي كم يكره هذا العطر.. ألا تسمع عن العطور الهادئة الرقيقة الأنثوية؟ كعبق "دينا" الذي يسكره!! تسللت بكفيها تتحرك فوق كتفيه ببطء، تحيط عنقه من الخلف، تهمس باسمه بلهجة موحية:

- طارق.. قاعد هنا ليه؟ البنات ناموا.

مط شفتيه وضمهما ثم أخذ نفسًا سريعًا قبل أن يستدير نحوها بابتسامة اختلقها بصعوبة:

- أبدًا يا جيجي.. مستنيكِ.

أحاط خصرها بكفيه، فرفعت نفسها تطبع قبلة على فكه، اقتربت من أذنه بهمس:

- معلش اتأخرت عليك.. وحشتك؟.

وابتعدت تنظر في عينيه، منحها ابتسامة ماكرة لعوب قبل أن يحملها بين ذراعيه فتضحك بأنوثة، ورد بلؤم رجل على وشك ابتلاع طعم ما برضاه التام:

- أكيد.

ثم تحرك بها نحو غرفة نومهما، هناك أسقطها بعنف فوق الفراش كما اعتادت منه وكما تحب، لكنه عندما اقترب منها تجسدت أمام عينيه أخرى يشتهيها بشدة ولا ينالها، تلبستها وتشبثت بعقله تمحو الصورة من ناظريه، وبين واقع يشعر بدفئه بقربه وخيال يصب بحممه داخل شرايينه تاه هو وخرجت منه همسة خاطئة بحروف لا تمت بصلة لتلك الضائعة بين ذراعيه.

وما حدث بدا أشبه بإعصار، دفعته عنها بقوة تصرخ في وجهه، تسبه ربما، وتهذي بغضب أنثى مهانة ونمرة جريحة على وشك افتراس أحدهم، تبتعد تلملم أشلاءها بعد طعنته الغائرة وتستر عريًا طال كيانها كله حتى ودت لو انشقت الأرض وسحبتها إلى أعماقها..

غادرت الغرفة نحو الحمام، وهو جالس فوق الفراش، حانق، ساخط، وصورة فاتنته تحتل عقله من جديد ليصبح أيضًا مشتاق وراغب.

خرجت الثائرة بخصلات مبللة، بقايا دموع اختلطت بالماء، ملامح هائجة لا تبغي إلا الدم كما يظن..

عقد حاجبيه ينظر إليها في برود، اقتربت من موضع جلوسه، وقفت أمامه تنظر إليه بغل قبل أن تهمس بفحيح من بين أسنانها المضغوطة بعنف:

- مين دينا؟

ظل يتطلع إليها في جمود، فاستطردت تشهق بأنفاس ثقيلة:

- نزوة جديدة؟

لم يرد.. صرخت تبغي إيقاظ ساكني القبور:

- من إمتى كنت بتخلط بيني وبين نزواتك يا طارق باشا؟

نهض بخفة مفاجئة من الفراش، أمسك بمرفقها في قسوة آلمتها، قربها منه يهمس ببرود طاغ:

- جيجي.. الموضوع مش جديد عليكِ، غلطة وخلاص!! عادي يا قلبي.. عديها!

نزعت يدها منه بعنف، ولم تستطع السكوت كما أراد هو:

- دي مش أي غلطة يا طارق، مين دينا؟

نطقت سؤالها الأخير بإصرار تعانده، فضغط أسنانه يطالعها بغضب:

- واحدة يا جيهان.. واحدة زيها زي غيرها، ما تركزيش عشان ما تتعبيش!

وبين أعينهما دار صراع قوة، البقاء فيه لصاحب السيطرة، ولأنه يعلم نقطة ضعفها.. "هو".. فقد فاز وبتمكن واقتدار..

زمت شفتيها، واستدارت تتحرك في الغرفة خارجة منها بينما تمنحه ردها على حديثه بلهجة حاولت إخراجها متماسكة رغم عمق الجرح:

- أوك يا طارق.. مجرد نزوة جديدة، تمام.. وقت ما تنتهي منها أنا عند بابا في البيت، هاريح أعصابي أنا والبنات شوية.

والتفتت تتأمله بحزن، لن تنكسر، هي قوية وهو جشع.. ذكر جشع يعشق النساء، وتعلم.. لكن الأمر هذه المرة أقلقها وانقبض له قلبها، لقد همس باسم أخرى وهو بين أحضانها، أخرى تشغل حيزًا لا تدري مداه من عقله، لدرجة أن يتناسى أهم قاعدة اتفقا عليها..

"أن تغض الطرف عن غزاوته مقابل أن يتركها على عتبات منزل الزوجية قبل دخوله"..

كم هي ضعيفة وكم هو وضيع!.. وياله من ثنائي متلائم!!.

******

وقت الامتلاك تتغير المفاهيم، الوصول للهدف متعة لا توازيها أخرى، وبين متعة ومفهوم جديد يتمسك بلجام الصبر والتعقل لحين الفهم..

ربما الوقت ليس مناسبًا، ربما هو أحمق غبي كي يبدأ أول ليلة لهما معًا بحوار عن زوج سابق، ربما مجنون وقد يضيع فرصته في تملكها كما يتمنى.. لكن النيران التي لم تهدأ بداخله منذ قابله ذلك الوغد الفارغ تقلبه فوقها حتى أصبح ناضجًا وعلى وشك الاحتراق.

في منزلهما الآن، و"يوسف" الصغير يبيت بمنزل عمه، وقف يتأملها لا يجد ما يقول بينما هي الخجل يلبس وجنتيها الرداء الأحمر ويجبر عينيها على الالتصاق بالأرضية..

قد يكون زواج عقل دون مشاعر، قد تكون هاربة من ماضٍ تخاف الوقوع في شركه، لكنها الآن زوجته.. زوجته، تردد اللفظ بداخلها بصدى غريب، لقد أصبحت ملكًا لآخر وله وحده الحق في الاستحواذ على أفكارها، فلتمحو ما مضى وتتقدم نحو الغد ومستقبل تتمناه هادئًا مستقرًا حتى تنتهي حياتها.

رفعت عينيها نحوه في حياء فابتسم لها، تقدم منها خطوة واحدة تلتها أخرى ببطء يلهب وجنتيها أكثر ويثير رعشة خوف في كفيها وداخل عروقها، وهو مستمتع بكل ذلك، تحولت الابتسامة المطمئنة لابتسامة تلذذ تحمل بعض الخبث والعبث الغريب على ملامحه، وقف أمامها تمامًا ورفع كفها يمنحها قبلة ناعمة، ثم يهمس بخفوت شديد لا يكاد يسمع:

- مبروك.

وهبته بسمة خافتة ونظرة خاطفة ثم جاوبته بصوت مرتجف:

- الله يبارك فيك.

ارتجافة صوتها الواضحة أيضًا في يدها بين أصابعه أسعدته أكثر، ربما لأنه ولأول مرة يراها بهذا الشكل.. جميلة، أنيقة، وخجول، تمتلك ذلك الجمال الراقي الذي لا يجعل من السهل عليك أن تبتعد بنظراتك عنها، سابقًا كانت تدفن أنوثتها خلف ملابس محتشمة وعملية لتناسب طبيعة عملها، أما الآن وهي ترتدي ثوبًا كريمي اللون، يحيط بصدرها بأناقة وينسدل فوق جسدها باتساع ذو كسرات رقيقة، له سترة قصيرة مع وشاح من نفس اللون معقود فوق رأسها برقي، بدت مكتملة الأنوثة لدرجة لم يرها من قبل ولم يتوقعها أيضًا.. ود لو خلعه عنها الآن وتخلل خصلاتها بأصابعه، فهو رغم عقد قرانهما منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع لم تتح له الفرصة للجلوس معها بأريحية أو حتى رؤية تاجها الذي يزين رأسها.

قادها نحو غرفة النوم، تتبعه هي بتوتر وسكون، هناك وقف وأخبرها بهدوء:

- هاسيبك تغيري براحتك وهاخرج أنا برا، لما تخلصي ناديني عشان نصلي.

ابتسمت بامتنان وهزت رأسها في صمت، ومرت خمس، عشر، خمسة عشر وعشرون دقيقة، وهو على وضع الانتظار بالخارج، وهي على وضع الخجل بالداخل، تملأها رهبة غريبة لم تسكنها من قبل على الرغم من كونها ليست عذراء صغيرة، لقد غيرت ملابسها وارتدت ثوب صلاتها منذ ما يقرب من عشر دقائق لكنها متسمرة خلف الباب، تمد يدها نحو مقبضه وفي اللحظة التالية تستعيدها إلى جوارها، تفركها مع الأخرى، تدور في الغرفة، ثم تعود نحو بابها لتدور بنفس الدائرة من جديد.. قاطع أفكارها طرقاته الخافتة فانتفضت بعنف، توجهت نحوه وهي تسمعه ينادي باسمها في شيء من قلق..

فتحت الباب ببطء وأطلت من خلفه فابتسم بارتياح يتأملها، عاد المكر يظهر في عينيه وهو يطالعها باحتشامها الزائد عن الحد، اتسعت ابتسامته دون أن ترفع عينيها إليه، أشار إليها بلهجة مرحة:

- قلقتيني، يلا عشان نصلي.

رفعت أجفانها -اللتان توشكان على العناق وهي توشك على الذوبان خجلًا ورهبةً- تنظر إليه، تبعت إشارته، وقفت خلفه، يكبر، يقرأ القرآن، وهي

تسمع بقلب واجف، حال سجودها دعت، دعت بوجل أن تجد الأمان، تشعر بالمودة والرحمة بينهما، لم تطمع في عشق يذيب كيانها لكنها فقط ترجو الراحة وتتبعثر طامحة إلى هدوء واستقرار.

انتهيا، دعا لهما ولها بالبركة، بعدها اقترب منها، أمسك بيدها في تردد، حان وقت الجد، لقد حاول تناسي الأمر لكنه لم يستطع، ولا يريد البدء فوق صفحة جديدة تحمل نقطة سوداء تعززها الأيام حتى تسوَدَّ الصفحة بأكملها.. أجلسها أمامه على أريكة عريضة في أحد أركان الغرفة، ظل يتطلع إليها وهي ساكنة تنتظر وتشعر بأن هناك شيء ما على غير ما يرام، منحها ابتسامة بسيطة لمحت فيها ارتباكه وتردده، بادر بحديثه بلهجة رسم لها الهدوء لكنها خرجت متوترة:

- لميا... أنا عاوز أبتدي حياتي معاكِ صح، عارف إن كلامي دلوقتِ أو موقفي ممكن يكون توقيته غلط، بس عاوز أبتدي على أساس متين، نبني حياتنا فوقه سليمة وقوية، عشان كده لازم نتكلم.

نظرت إليه في قلق، وانقبض قلبها ساحبًا من أسفل قدميها بساط الاطمئنان اللحظي الذي مرت به، عند صمتها أردف هو:

- أحمد زارني.

اتسعت عيناها في صدمة، شهقة متألمة كادت تخرج من بين شفتيها، وسبة نطقها قلبها المجروح في صمت، الغادر لم يكتفِ بالغدر بل قرر اللعب دون

شرف وهدم الحياة التي اختارتها فقط ليفوز بها، ياله من حقير بائس.. لاحظ تتابع مشاعرها على صفحة وجهها، ذهول، ألم، غضب..

استطرد بتفهم:

- ليه وافقتِ فجأة على جوازنا يا لميا؟.. بتهربي منه فعلًا؟.. كان عاوز يرجع لك بجد؟

رفعت عينيها تقابل عينيه، ابتلعت ريقها بصعوبة، هزت رأسها في رفض تجيبه:

- هو مش موجود في حياتي عشان أهرب منه، أنا خدت القرار بعد ما ظهر تاني لأن سبب الرفض ما بقالوش وجود، التردد والخوف اللي كانوا جوايا من إني أكون لحد تاني غيره انمحوا في لحظة شفت فيها غطرسته وغروره واعتقاده إني ضعيفة قدامه، إنه بمجرد ما يتكرم عليَّ ويطلب نرجع لبعض هاوافق ومش هاصدق نفسي من الفرحة، بس اللي حصل العكس...

ولمعت عيناها بشرارة نارية بينما تكمل:

- اللي حصل إنه جدد الجرح من جديد، فتحه بعد ما قلت إنه خلاص إلتئم وما بقاش بينزف، ووقف يتفرج ع النزيف بفرحة وثقة ...

قاطعها بنبرة غاضبة أقلقتها:

- وقررتِ تعاقبيه بجوازك من واحد تاني غيره؟!

تحشرجت أنفاسها، فكرت لثوان تهز رأسها في دفاعٍ واهٍ:

- جوازي منك مش عقاب له أو هروب منه يا آدم، هو خلاص بقى مجرد ماضي واندفن، اندفن يوم ما قتلني بخيانته، اندفن يوم ما رجع يتكرم عليَّ بوجوده، اندفن لما وقف يتفرج على جرحي من غير أدنى شعور بالذنب أو الندم.

ومدت يدها في تردد تجذب كفه بين يديها، تناشده التفهم:

- اندفن يوم ما اخترت أكون ليك أنت وبس، أنا عاوزة أبتدي معاك من جديد، عاوزة أحس بالأمان والراحة والاستقرار.

هو يصدقها، مقتنع تمامًا بما تقول، لكنه الخوف، كأي رجل لن يقبل أن يكون مجرد بديل، أو وسيلة هروب، حتى وإن لم يكن يحمل لها أي حب، لهجتها الآن، حديثها، الألم الواضح فيه، نبرته المرتجفة، تخبره أنها تحاول النسيان، تطيب الجرح بنفسها، وتطمح لغد أكثر أمانًا في كنفه هو، يشعره ذلك بأهميته لديها، بصدق اختيارها، لكنها جينات الذكر الغبية ببقايا الشرقي المتأصلة في أعماقه.

وكما أخبر ذلك الأجوف سيجعلها له قلبًا وقالبًا مهما استغرق ذلك من جهد ووقت وبذل، فلم التردد إذًا؟!.. ما الذي ينشده؟.. هل يريدها أن تخبره أنها اختارته لشعور ما ينمو بداخلها؟..

أهو مصاص مشاعر، يمتص الحب من الأخريات ويتغذى عليه دون القدرة على عطائه؟.. وعندما ظهرت هي باختيار عقلاني بحت شعر بالغضب؟!.. يريدها أن تمنحه خُلاصة روحها كما فعلت أم طفله ويمنحها هو فتات مشاعره وبعض وقته وقليل من عقله؟.. كم يشعر بالغضب، من نفسه ومنها ومن ماضٍ ترك علاماته الموجعة داخل روحه المشتتة الضائعة!.

غضبه تحول فجأة وبطريقة غريبة لرغبة في تملكها، هي زوجته، ملكه بالفعل، وكم مر من سنوات لم يلمس فيها امرأة؟.. وهذه الجميلة الراقية له، بكل ما فيها له..

نهض واقفًا يجذبها إليه فجأة فأربكها، مد كفه الكبيرة يحيط بها جانب وجهها وأصابعه تفك حجاب ثوب صلاتها الذي لم تخلعه بعد، أبعده عن شعرها ببطء ليجده معقوصًا بحزم أغاظه فحرك يده نحوه يطلقه من عقاله، وأمام عينيه المذهولتين انهمر كشلال من القهوة فوق عنقها وكتفيها بطوله الرائع ونعومته التي تلتمع أسفل ضوء الغرفة الخافت.. تلعثم لثوان ينظر إليه وهو يكاد يغطي ظهرها، أمسك بخصلة منه وقربها من أنفه يتشممها، ابتسم في تلذذ وصاحب ابتسامته همسة مستمتعة:

- إمممممم.. خوخ.

رفع وجهها نحوه يكمل همسته بطريقة أخجلتها:

- باعشقه.

لم تجد ما تقول فاقترب من أذنها يطمئنها بدفء:

- إحنا ولاد النهاردة.

كادت تتنهد بارتياح لولا تلك اللمسة الخافتة فوق وجنتها بالقرب من ذقنها، تجمدت من جديد وهو يتحرك بشفتيه بتمهل مثير فوق ملامحها ويعيد يده الأخرى لتحيط مع الأولى بوجهها كله.. ابتعد ينظر داخل عينيها، كأنه يطالع عمق روحها، نظراته قوية مطمئنة هادئة والاستجابة الوحيدة أمامها هي الاستسلام لعاطفته التي بدأ يغزوها بها بينما يُسقِط عن كتفيها رداء الصلاة ببطء.

في ثوان أو ربما دقائق أو حتى ساعات لم تشعر إلا به، فقدت الإحساس بكل ما حولها، وتوقف عقلها عن العمل مؤقتًا وهي تختبر معه شعورًا لم تتذوقه من قبل، غريبًا عليها بشدة، ولدرجة أخافتها، استجابتها له أدهشتها قبل أن تدهشه هو، ربما لأنه لم يكن واعيًا تمامًا، لكنها رأت، شعرت، وقدمت شيئًا ما لم تعلم حتى أنها تمتلكه.

في النهاية وعندما سكن كل شيء واستلقت إلى جواره يضمها إليه باحتواء ولهفة بدت غريبة هي الأخرى، همس في أذنها في حين ترتسم على ملامحه مشاعر متباينة شاردة كأنه ينقب في الماضي رغمًا عن كل شيء:

- أنا سعيد قوي إنك بقيتِ ليَّ يا ميا...

وامتزج بشروده شيء من الاستغراب، بينما يكمل:

- سعيد لدرجة ما كنتش أتخيلها!

بدت لهجته باسمة وبنفس الوقت ماكرة فابتسمت بخجل ولم تعلق، أدار وجهها نحوه فأغمضت عينيها عاد يهمس:

- افتحي عينيكِ.

تفرق جفناها بتردد لتجده مبتسمًا راضيًا، تأملها لثوان احترقت فيها وجنتاها قبل أن يميل نحوها ويطبع على شفتيها قبلة خافتة، ثم يبتعد ويعدل من وضعها لتستريح رأسها فوق صدره، جذب كفها يقبل باطنها برقة ويضعها عند قلبه الهادر ببقايا لحظات لن ينساها ما حيا أبدًا، أغمض عينيه هو الآخر في راحة، وسكينة تتسلل إلى نفسه تغمره بالهدوء والطمأنينة، يشرد بأفكاره بعيدًا.. لكن تظل في مدارها.

******

هل جربت من قبل شعور الأسد الجريح بشدة، وهو حبيس خلف قضبان صُنِعت من الخوف، الرهبة وإحساس العجز؟.. إحساس موجع بقسوة ينخر في القلب كما ينخر البرد في العظام، يجمدها ويفتتها في النهاية لتبعثرها رياح أكثر برودة وصقيعًا.

ما يقرب من أسبوعين، مركل هذا الوقت وهو تقريبًا محتجبٌ عن العالم، يتابع العمل بشرود، وداخله غصة تمنع عنه الهواء و تجتث الروح من جسده ببطء، ما كان يملأه نحوها.. افتتان، إعجاب، شغف بأنثى حسناء،

اهتمام ورغبة في القرب، وختام المشاعر صدمة ألجمت حواسه جميعها، حتى عقله المرتجف بغضب.

يومها سلمه رجله الأمين ملفًا ورقيًا يحتوي بين طياته سكينًا ثالمًا ذبح به مشاعره قبل أن تولد، خرج الرجل وتأمل هو الملف لثوان، لا يشعر باطمئنان، القلق يتسرب إلى حواسه بتباطؤ مخيف فأصابه بشلل مؤقت.. للحظة فكر في إلقاءه في سلة القمامة أسفل مكتبه، ما الذي يسعى إليه؟.. أي معلومات يريدها قد تشكل فارقًا لديه؟.. ألا تكفيه هي؟.. برقتها، فزعها، نظراتها المرتابة والقلقة؟.. غريزة الحماية التي توخزه في كل لحظة يقضيها إلى جوارها؟.

رجل الأعمال نصف الإنجليزي يتردد، يخاف، ويبحث عن مزيد..

وهذا المزيد يثير بداخله رهبة انبثقت من وجه ذراعه الأيمن وهو يناوله الملف بملامح غير مبشرة ولهجة موحية..

فتحه بارتباك لتطالعه صورة لها، يكتنفها الغموض، ويتلبسها شجن خفي، تخفي عينيها الجميلتين بمنظار شمسي ضخم وخصلات الشيكولاتة أسفل وشاح بلون زرقة السماء ورغم ذلك تمردت بعضها لتداعب جبينها ووجنتيها بمجون، ابتسم بخفوت، أزاح الصورة وبدأ القراءة.

مع كل سطر تنقبض ملامحه، ينعقد حاجبيه، يضم قبضتيه بقوة وعنف، ويحبس أنفاسه في ترقب لما هو أكثر إيلامًا لنفسه، عندما انتهى، تركه

مفتوحا وتوجه نحو دورة المياه بمكتبه، هناك دفن رأسه أسفل الماء البارد المنهمر من الصنبور ليسمع بلا مبالغة صوت يشبه التقاء الماء بالنار.

جفف وجهه وشعره، عاد للداخل بملامح جامدة لا يُتكهن منها بشيء، جلس ثانية خلف مكتبه والتقط صورتها ينظر إليها، يتأملها، ويكذب ظنونًا زرعها برأسه تقرير رجله عنها، لقد كانت في منزله، ذهبت إليه بقدميها.. انتهكها وقتلته.. هكذا ببساطة.. دمائه الحارة تغلي في عروقه وتدفعه نحو الجنون، ما الذي جعلها تذهب إليه؟.. هل ربط بينهما سابق علاقة؟.. علاقة أرادت إنهائها فقرر هو تذوقها لمرة أخيرة ورغمًا عنها؟.. وينتهي الموقف بطعنة ودماء تبعتها غيبوبة وحكم بالبراءة دفاعًا عن الشرف.

تنهد بعمق بينما ينهض من مقعده، يتجه نحو نافذة ضخمة تحتل نصف الحائط، تطلع من خلفها نحو السماء الرمادية الممتلئة بغيوم قاتمة أصابته بكآبة وثقل بين ضلوعه.. منذ أسبوعين وهو يقرأ الملف، تجري عيناه فوق السطور، يبرر، يفند، يغضب، ويعود فيهدأ، ويتألم..

رباه بالكاد قابلها وها هو يتألم، أرادها له، الفتى العابث بداخله طمح لامتلاكها، لكنها فاجأته بآخر سبقه إليها، وبطريقة مشكوك بأمرها لدرجة تصيبه بالسخط والغيظ والكثير من الغضب.. وهنا ينهض الشرقي متثائبًا من غفوته وتثور دمائه الحارة في أوردته.

لم يعلم الكثير عن تفاصيل القضية أو ملابساتها، وفي الحقيقة هو لا يريد أن يدرك شيئًا عنها، لقد اكتفي بما توصل إليه ولا يتطلع إلى المزيد.. خلال الأيام الماضية وفي اجتماعات العمل التي تربط بين شركته الوليدة في السوق وشركتها الموروثة عن أبيها أحد أقطاب رجال المال والأعمال لم يذهب، قاوم كل مرة رغبته في رؤيتها، كان يرسل مساعده ومحاميه لتتم الأمور بشكل رسمي وقانوني، لكنه تخلف عن تلك المقابلات، ويبدو أنها لم تسأل، لم تحاول الاتصال به، أو الاهتمام لغيابه اللاإرادي.

فرك جبينه بحنق، مال نحو مكتبه يلتقط صورتها، رفعها أمام عينيه يتأملها بتدقيق، لمعة تمر بعينيه غير واضحة المعنى.. مد أنامله يتحسس وجهها الذي يملأ فراغ الصورة، وبعبث شردت أفكاره إليها، عاد يتذكر رفضها للمساته، تعنتها بخصوص ركوب الدراجة النارية، خوفها من مجرد التمسك به كي لا تقع، تلك الرجفة التي تسري في كفها كلما صافحها أو منح أصابعها قبلة.. وعند ذكر اللمسات ابتسم، ابتسم باستمتاع، ففي آخر مرة قابلها، كان الحصار حول مشاعرها قد تفكك قليلًا فنال ابتساماتها الفاتنة، وغمره عبير الشيكولاتة الذي يفوح بطريقة غريبة من خصلاتها فيكاد يسكره.

جلس ثانية على مقعده، تراجع فيه بتنهيدة حارة تحرق صدره، خلل شعره بأصابعه وزرقة عينيه تتحول للون داكن حيث تركضان وتحطان فوق صورتها من جديد، كثرة التفكير أرهقته بحق، وحان وقت اتخاذ القرار أيًا

كان ومهما كانت تبعاته.. ابتسم يرسم حزنها الماثل أمامه بجمود عدسة تصوير لكنه ناطق بشدة ويخترق القلب، ضم قبضته الحرة وضغط شفتيه، عادت تلك اللمعة المجهولة لعينيه مجددًا وابتسامة توازيها في عدم الوضوح أو الهدف ترتسم عليهما.. هي الآن في اجتماع مع رجله ومحاميه، وهو اتخذ قرارًا باقتحامه، واقتحامها هي الأخرى..

وبنفس الابتسامة المقلقة همس بحزم قاطع:

"You are mine"

وتحرك كفهد في رحلة قنص يغادر المكان متجهًا إلى شركتها، وليكن ما يكون.

******

الاكتفاء.. إحساس رائع، مريح، وليس من السهل الوصول إليه.. تواردت الفكرة لرأسه بينما يتقلب في الفراش بعد ليلة طويلة برضى وابتسامة طفيفة تحلق فوق شفتيه.. مد ذراعه يتلمس وجودها إلى جواره ليتفاجأ بالفراغ..

فتح عينيه بسرعة وقلق يتسلل لنفسه، أكان هذا حلمًا؟.. لا مستحيل.. ذلك الهدوء النفسي الذي يتمكن من خلاياه لا يمكن أن يكون مجرد حلم!!.

أزاح الغطاء وجلس على طرف الفراش، هناك لمح رداء صلاتها الذي خلعه عنها بالأمس فابتسم واستعاد الذكرى، ظهرت نظرة ماكرة في عينيه إذ يتحرك حافي القدمين إلى خارج الغرفة، سمع صوت تحركاتها الخافتة ناحية المطبخ فتوجه إليه مسرعًا، دخل بهدوء دون أن يشعرها بوجوده، هناك لمحها تقف بحيوية تعد شيئًا ما أمامها باهتمام، ترتدي منامة حريرية قصيرة عارية الكتفين بلون الفستق تتناسب مع بشرتها بشدة، استند إلى الجدار المجاور للباب يتأملها بإعجاب، وعندما قرر التحرك نحوها استدارت هي لتجده هناك وفي عينيه الكثير، ارتدت للخلف في فزع وشهقة مفاجئة تخرج من صدرها:

- آدم!!!.. حرام عليك خضيتني، واقف كده ليه؟!

اقترب منها بتمهل، نظراته تحيط بها فتخجلها، وابتسامة لعوب تتراقص فوق شفتيه، أخذ من يدها الطبق الذي تحمله، ومد يده به خلفها، وضعه على سطح المطبخ وأحاط خصرها بذراعيه يجذبها إليه أقرب، انحنى يهمس في أذنها بعبث:

- باتفرج على العرض الصباحي الممتع ده.

عقدت حاجبيها دون فهم فتراجعت تستفسر بعينيها، منحها الجواب بنظرة متفحصة طالتها من خصلاتها الحرة وحتى أطراف أصابع قدميها، اشتعلت

وجنتاها من جديد ليضحك هو بخفوت مستمتع، ويعود للهمس بينما ينحني ليمنح شفتيها قبلة دافئة:

- صباح الخير.

ابتسمت ترد:

- صباح النور.

تطلع خلفها بتأمل ثم عاد ينظر إليها متسائلا:

- بتعملي إيه؟

هزت كتفيها تحاول التخلص من احتضانه لها لكنه تمسك بها:

- فطار خفيف قبل السفر.

مط شفتيه بتفكير ثم جذبها يتحرك بها خارج المكان مغمغمًا بمشاكسة:

- أنا عارف أنا هافطر إيه.

نادته باعتراض:

- آدم.. لسه الشنط وهنعدي على يوسف ولازم ناكل حاجة قبل ما نمشي إحنا...

قاطع فم المحامية الثرثار بقبلة، وقليلة هي القبلات التي تخطف الأنفاس وتثبت السيطرة، همس بين شفتيها يخرسها:

- بعدين.. كله بعدين.

واستسلمت، والغريب الذي تقابله للمرة الأولى يفجر بداخلها أنثى لم تعي وجودها من قبل سوى بين ذراعيه.. الأستاذ الوقور، هو رجل.. ككل رجل، لعوب، ماكر، ومرح يشاكسها، وفي النهاية ينسيها كل شيء عداه عندما يتملكها.

في الطريق إلى المطار بصحبة أخيه كان الوقت مرحًا وسحابة من السعادة تظهر في سمائها وهي تجلس في المقعد الخلفي تتطلع إليه، تندهش، تفكر، وتشرد لتعود على مداعبة منه أو من "أدهم" الذي استعاد مرحه المفقود اليوم..

لقد تصالحا هو وشقيقتها بالتأكيد، انتزعها من أفكارها صوته المشاغب:

- مرسى علم تحفة في الوقت ده من السنة يا ميا، هتعجبك جدًا، Have fun يا عرسان.

وتبادل هو وزوجها ضحكة وغمزة رأتها هي وقحة، فأسبلت جفنيها وخجلت كعادتها، أمام المطار ناوله "أدهم" مظروفًا متوسط الحجم هاتفًا بمرح:

- حجزت لكم في هيلتون مرسى علم نوبيان.. تمام!!.. زي ما قلت لي ٣ ليالي.

أومأ له بتفهم، وتساءلت هي:

- ويوسف؟!.

التفت إليها "أدهم" بابتسامة مطمئنة:

- هيفضل معايا أكيد.

أوصلهما للداخل، بقي معهما حتى موعد إقلاع الطائرة، وبعد فك الأحزمة تناول هو كفها بين يديه وانحنى يطبع بباطنها قبلة. ثم ابتسم لعينيها وفي عينيه وعد بسعادة وأمان أثلج صدرها وتنهد له قلبها في ارتياح واطمئنان.

******

ليت الدموع تعيد من ذهب!.. إذًا لبكت أبد الدهر، حتى تجف المقل وتنقطع الأنفاس، بين ذراعي صديقتها، تنعيه بألم، لا أم تطيب الجرح، ولا أخ يخرجها من قوقعة الحزن.. هو أبيها وكل شيء، وما عداه أصفار ناحية اليسار دون قيمة، وبدونه هي لا شيء.

النهنهات المتقطعة والأنين الذي يصحب شهقاتها مزقت نياط قلب "سارة" بينما تضمها لصدرها بحنو، المصائب لا تأتى وحيدة أبدًا، قبل أيام تقل عن الشهر عقد أخوها الأكبر قرانه، واحتارت كيف تخبر صديقتها المتعلقة به!!.. والآن عادت الصديقة لأرض الوطن يصاحبها جثمان أبيها، فقدان الداعم، وفقدان القلب، روح تنسل من الجسد وبينهما هي تتيه دون عودة.

لن تخبرها الآن بالتأكيد، فيكفيها ما تعانيه، قاطع أفكارها الحائرة نشيج"علا":

- مات يا سارة.. مات وسابني، كان عارف أنا بحبه قد إيه، بس ما لحقتش يومها أقولها له، روحت البيت بعد ما نام، ورجعت الصبح لقيتهم بيقولوا لي البقاء لله، خلاص راح، بقيت لوحدي.

ربتت صديقتها على كتفيها برفق تدعمها:

- ما تقوليش كده يا علا.. هو عارف قد إيه كنت بتحبيه!!.. ادعي له بالرحمة، وكمان أنا معاكِ، مامتك وإخواتك، إزاي بقى بقيتي لوحدك؟

رفعت عينيها الدمعتين إليها تصرخ بهمس موجوع:

- بابا كان حاجات كتير قوي في حياتي، رغم الفترة القصيرة اللي كنت باقضيها معاه، بس كان الأحن والأرق، كان مثال لكل حاجة باتمناها في الراجل اللي ممكن أرتبط بيه، وفجأة ضاع، ما لحقتش أشبع منه، تلات شهور كل سنة مش كفاية، ما كانوش كفاية، بس أنا كنت غبية وقلت هاكتفي بيهم لحد ما أنهي دراستي، هو بقى ما استناش يا سارة، ما استناش أخلص الكلية وأروح أعيش معاه بدل ما هو عايش لوحده، بابا مات في الغربة، وأنا اتغربت من بعده.

ضمتها إليها بقوة تواسيها، فوقت الهذيان الذي تمر به لا يصلح معه حديث، تربت برقة، تهمس بحروف تطمئنها، تدعو له ولها، وتضم بحنان أمومي فطري، وبداخل قلبها المعذب تنعي قلب صديقتها الذي سيعاني المزيد من الآلام.. ولكن ليس الآن، فليطيب جرحها أولًا.

(١٤)

حلم عنيد

أريحيني على صدرك

لأني متعب مثلك

دعي اسمي وعنواني وماذا كنت

سنين العمر تخنقها دروب الصمت

وجئت إليك لا أدري لماذا جئت!

فخلف الباب أمطارٌ تطاردني

شتاءٌ قاتمُ الأنفاس يخنقني

وأقدام بلون الليل تسحقني

وليس لدي أحباب

ولا بيت ليؤويني من الطوفان

وجئت إليك تحملني

رياح الشك.. للإيمان

فهل أرتاح بعض الوقت في عينيك!

أم أمضي مع الأحزان؟

وهل في الناس من يعطي..!

بلا ثمن.. بلا دين.. بلا ميزان؟

أريحيني على صدرك

لأني متعب مثلك

غدا نمضي كما جئنا

وقد ننسى بريق الضوء والألوان

وقد ننسى امتهان السجن والسجان

وقد نهفو إلى زمن بلا عنوان

وقد ننسى وقد ننسى

فلا يبقى لنا شيء لنذكره مع النسيان

ويكفي أننا يوما. تلاقينا بلا استئذان

زمان القهر علمنا

بأن الحب سلطان بلا أوطان

وأن ممالك العشاق أطلال

وأضرحة من الحرمان

وأن بحارنا صارت بلا شطآن

وليس الآن يعنينا

إذا ما طالت الأيام

أم جنحت مع الطوفان

فيكفي أننا يوما تمردنا على الأحزان

وعشنا العمر ساعات

فلم نقبض لها ثمنًا

ولم ندفع لها دينًا

ولم نحسب مشاعرنا

ككل الناس.. في الميزان ..

"فاروق جويدة"

دهشة الأنثى توازي متعة، وعندما تصل لحد الذهول عليك بالابتسام فقد أدى ظهورك مهمته تمامًا، وهذا ما فعله "مراد" وهو يقتحم غرفة الاجتماعات في مجموعة شركات "أبو العز".. يقف أمام مديرتها محييًا بعينيه، صامتًا بتأمل للصدمة فوق ملامحها، غارقًا في فتنة عينيها المتسعتين وبريق عسلي لامع يعكس ابتسامته بين جفنيها.

بعدما أدى حضوره المفاجيء دوره، التفت لمساعده ومحاميه بلهجة آمرة:

- خلاص كده يا جماعة.. هاكمل أنا الشغل.

تبادل الرجلان نظرة غامضة وربما متفهمة وخبيثة أيضًا ثم نهضا بهدوء وغادرا المكان، وبقدر خطوات إبتعادهما كان يقترب هو خطوة، فثانية ثم ثالثة.. وكل واحدة توازي نفسًا يهدر صدرها حاجةً إليه، ودقة مفقودة من خافقها برهبة وجوده، حتى اقتصر الفاصل بينهما على واحدة أخرى زائدة.. برد فعل طبيعي مد يده يلتقط كفها، وبانحناءة خفيفة وحصار من زرقة عينيه منح ظاهرها قبلة وابتسامة أخرى نافذة لنظراتها المتوجسة.

تأملت حضوره بتيه، لقد غاب أسبوعين تقريبًا بعد يوم أطاح فيه بأغلال خوفها، حطمها وفك القيد، منحها شيئًا من حرية تتوق إليها، ومسح ذاكرتها بشكل مؤقت لتعيش اللحظة وفقط، ثم اختفى، ورفض الظهور، ولأنها اعتادت فقد قررت أن الأمر قد انتهى، ستعود لمسارها السابق، تكافح أشباح الماضي وتقاتل شياطينه.. وحدها، ثم ها هو يعود من جديد،

بابتسامة مهلكة، ولمعة عينين متملكتين، لكن معه عاد خوفها، ورد فعلها الطبيعي انسحاب.

سحبت يدها من بين أصابعه، ابتسمت برسمية وألقت تحية جافة:

- أهلا مراد بيه، اتفضل نكمل الشغل، بس كان المفروض أستاذ عادل المحامي يكون موجود.

وكأنها لم تقل شيئًا، وكأنه لم يسمع حرفًا، والخطوة التي ابتعدتها اقتربها هو ثانية، وأمسك بمرفقها يقربها إليه بهدوء، نظراته تقتحم عينيها بسهام حادة وهمسه يعلو فوق كل ضجيج يصدره قلبها المسكين:

- مراد.. مراد بس.. أنا مش هاقول دينا هانم ولا مدام دينا، هاقولك بس.. وحشتيني.. قوي.

وقيَّد العينين ولا فكاك، أنفاسها بدأت تعلو وتتسارع، خوف ما أخذ ينهشها ولاحظ هو فتركها وابتعد، وصاحب ابتعاده استدارتها تهرب من سهام مواجهته، ظهر فحرك أنثى غافية وغاب ثم عاد.. ورد الفعل المطلوب منها على كل ذلك.. تجاوب.. وقهرًا أنثاها الكامنة ترقص في سعادة، بحشرجة امتزجت بصوتها الناعم دون إرادة:

- مراد بيه من فضلك، إحنا بنشتغل.

وابتسم ثانية، لكن هذه المرة.. ابتسامة فهد مفترس تلتمع عيناه أمام فريسة شاردة، وما أجمل الصيد عندما تكون الفريسة هاربة بدرجة ممتعة..! والصياد محترف بدرجة خبير..! فريسة حسناء وصيادها متمرس بمهارة لا يتقنها إلاه..! إذًا؛ ليس أمامها سوى دخول مصيدته المنصوبة لأجلها هي، مهما ابتعدت فرارًا.. فالنتيجة واحدة، دار حولها وتمم حديثه يفجر نبضاتها:

- أنا مش جاي للشغل، أنا جاي أقول لك حاجة مهمة...

وعاد يقترب دون لمس، وضع كفه فوق صدره عند قلبه الهادر أمام نظراتها الضائعة المرتبكة:

- في هنا حاجة بتتولد ليكِ.

ثم بعينيه أشار نحو قلبها وتساءل بحسم:

- في هنا حاجة ليَّ؟

أمام صراحته ازداد توترها وعلت وتيرة ارتباكها عن الحد المسموح به، نبض قلبها تسارع بعنف، وأنفاسها انحبست ورفضت الخروج كما انحبست حروفها.. تأملها، خوفها، ارتعاشها، عينيها الهاربتين بعيدًا عن الالتقاء بعينيه، ثم صمتها ووجومها، علم أن الأمر لن يكون سهلًا أبدًا، والتسليم سيكون بعد نصر فاتح وأمدٍ قد يكون طويلًا، همس بمكابرة:

- لو مفيش..!! أنا عندي استعداد للحرب وجاهز بكل معداتي وأسلحتي.

رفعت عينيها نحوه في دهشة فانحنى يكمل همسه بمكر:

- يا أهلا بالمعارك.

وابتسم بإصرار يلتمع بين جفنيه:

- أنا مقاتل ومتعود على النصر و.. بس.

وكادت تسلم أشرعتها لتياره لكنها أجبن من ترك نفسها تتحرك في اتجاه لا تعلم آخره فصمتت لا تمنحه ردًا واضحًا بإيجاب، ولا ترفض حربًا قرر خوضها ليفوز بها.

******

أحيانًا نظن أننا وصلنا لدرجة عالية من السعادة لم نصل إليها من قبل، ولن نصل إليها من بعد، ويدور الزمن، تتحرك الساعات والأيام والسنون.. ونكتشف مدى الخطأ الذي وقعنا فيه. هذا حين تتفجر مشاعرنا وتنضح رضًا وتستكين أرواحنا براحة. هنا لم تعد مسكنات السعادة العادية ذات جدوى، فقد أدمن الجسد والعقل والكيان.. إحساس الإكتفاء والرضاء التام.

أحيانٌ أخرى نلاحظ أن الوقت يمر بسرعة لا تقدر، كالضوء أو ربما أسرع، تنفلت الثواني من بين أصابعك، وتتسلل الدقائق خلسة دون أن تشعر بها،

أما عن الساعات والأيام فحدث ولا حرج، هذا هو يومهما الأخير هنا، وغدًا صباحًا سيعودان للمنزل، استيقظ قبلها ككل يوم خلال أجازتهما القصيرة، يرتفع بجسده قليلًا، يستند إلى مرفقه، ويتيه في حالة تأمل لملامحها الساكنة حال نومها، خصلاتها الطويلة تنتشر على الوسادة، وهدوء مستريح يسكن وجهها.

مد أصابعه يبعد خصلة عن جبينها ووجنتها، انحنى يطبع بعدها قبلة فوق مكانها ويمرغ أنفه هناك، يهمس لها برفق وينفث أنفاسه الدافئة محاولًا إيقاظها، تمطت بنعومة ثم انقلبت على ظهرها تنظر إليه بابتسامة رسمت شبيهة لها فوق شفتيه على الفور، همس بينما يتأملها:

- Rise and shine sleepy head

تمطت ثانية ثم تنهدت بابتسامة كسولة، عادت توليه ظهرها وترد:

- إمممممم.. صباح الخير.. عاوزة أنام شوية كمان.

ضحك بخفوت ومد ذراعه يحيطها من الخلف ويهمس في أذنها:

- لا كفاية كده، النهاردة آخر يوم لينا هنا، عاوزين ناخده من أوله.

عادت تستدير أسفل ذراعه:

- هنروح فين؟

لمعت عيناه بلؤم قبل أن يقترب منها أكثر:

- مش هنروح.

اتسعت عيناها وهتفت تدفعه بعيدًا بضحكة رقيقة:

- لا.. أنت وعدتني آخريوم هيبقى يوم ما يتنسيش.

أخرسها ثانية بينما يبتلع بقايا أحرفها بين شفتيه:

- وأنا أد وعدي.

وعادت تستسلم كعادتها، لا تدري ما يحدث لها بين يديه، ولا تفقه شيئًا عن أبجديات تهجتها لأول مرة معه، هي فقط تتذوق سعادة لم تعتقد أنها يمكن أن تجدها في زواج تقليدي كهذا، ورضًا عن أنوثتها لم يشعرها به أحد قبله، ففي كل لمسة، ضمة وقبلة، يمحو ذكرى تعلقت بين ثنايا عقلها، وينقش وجوده هو.. ورغمًا عنها.

بعد هدوء الأنفاس ضمها إلى صدره بقوة، قبل جبينها ثم رفع وجهها ليمنح شفتيها رشفات من النعيم تقبلتها هي بانسجام تام، أحاطته بذراعها ثم تساءلت:

- هنروح فين النهاردة بقى؟

شاكسها:

- مين قال هنروح في أي حتة؟

وكزته بقبضته المضمومة في صدره ورفعت نفسها تنظر إليه بغضب مصطنع:

- آدم.. إحنا من يوم ما جينا ما خرجناش مرتين على بعض وكل مرة مش أكتر من ساعتين، عاوزة أشوف المكان قبل ما نمشي.

تظاهر بالتفكير لثوان، بعدها ابتسم يقايضها:

- إمممممم.. طيب.. هنقضي اليوم النهاردة نستكشف المكان بس بشرط..!

عقدت حاجبيها تنتظر استطرادته فمنحها إياها بجدية:

- النهار بتاعك نخرج زي ما أنتِ عاوزة، بس... الليل بتاعي أنا.

وقبل أن تمنحه ردًا اقتنص شفتيها من جديد وفقدت كل فرصة اعتراض ممكنة..

وفى بوعده، قضيا النهار بطوله يستمتعان بجمال المكان، قاما برحلة بحرية على متن مركب سياحي أنيق، تجولا في الأسواق وعاد يحمل هدية خاصة للغاية ليمنحها لها ليلًا، تناولا العشاء في أحد أرقى المطاعم هناك، تمشيا كثيرًا، تحدثا أكثر، وبينما هي تضحك برقة وتحكي له طرفة حدثت لها في مرة أثناء إحدى المحاكمات، كان هو يتأملها ودهشة تتسلل إلى أعماقه، كم هي عفوية، بسيطة، وجميلة!! في كل لحظة يقضيها بصحبتها يكتشف جديدًا يربطه بها أكثر، وتنتشر بداخله بهجة أن هذه الرائعة له هو.

عندما حل الليل وغمر السكون الكون، كانت هي تجلس أمام طاولة الزينة بينما يقف هو خلفها، خصلاتها مبللة وترتدي مئزر استحمام، في يده فرشاة يمشط بها شعرها في رقة ويغمرها بعينيه عبر السطح اللامع، وتمنحه نظرات مرتبكة خجلة، تتخللها غبطة تتسلل داخلها بحنو، أنهى مساعدته الرقيقة ثم تحرك خلفها لثوان، هي تراقبه من خلال المرآة، بعدها عاد إليها، ثم فوجئت به يطوق عنقها بسلسلة فضية لامعة يتدلى منها حجر ذو ألوان غريبة متداخلة، تطلعت إليه في اهتمام، أمسكته بأناملها بينما يمسك هو بمرفقها ويجذبها إليه.

أحاط خصرها بذراعيه وأراحت كفيها فوق صدره، الصمت هو سيد الموقف، والعيون في لقاء جارف بمشاعر مختلطة أغلبها غير مفهوم..!! حرر إحدى يديه وتحسس بسبابته الحجر المستقر بين عظمتي ترقوتيها، تأمله للحظة ثم عاد إليها بعينيه وهمسه الدافئ:

- عقيق.. يشبهك قوي.

ابتسمت بحيرة، أمالت رأسها لليمين ونبرتها مستغربة:

- يشبهني؟!

انحنى يقبل جبهتها، وجنتيها، شفتيها، عنقها، وهناك عند أذنها أكمل الهمس:

- عنده قدرة على المنح، العطاء، هو بيدي قوة، وأنت بتدي سعادة...

ثم رفع رأسه يناظر عينيها من جديد، غاص فيهما بصمت، لازمه تردد وتاهت حروفه، لفظة "سعادة" لا تكفي للتعبير عما تمنحه إياه تلك المرأة، هي تمنحه نفسه من جديد، تبني معه كيانًا بدفئها ظنه تحول لجليد أبدي وضاع في متاهة غربة اختارها بكامل عقله، وبينما شرد هو يبحث عن وصف مناسب، تأملته هي، تفهمته، حيرته تنعكس عليها، وكما هو لا يفهم، هي ضائعة، شيء ما.. حالة ما، تنشأ بينهما ولا تعريف لها، سمعته يردف بعد تنهيدة:

- لأ.. حاجة أكبر، مش عارف اسمها ولا شكلها، بس عاوز منها.. منك.. أكتر.

تحسست وجنته الخشنة بأصابعها في رقة، وهمست كأنما استشعرت قلقًا أو ربما خوفًا في نبرته، تطمئنه وتريح باله وعقله:

- أنا مراتك يا آدم، يعني كلي ليك.

علت شفتيه ابتسامة متملكة، تحرك بها لايزال يضمها إليه وهمس قبل أن يرفعها إلى الفراش خلفها:

- وأنا مش عاوز غيرك أنتِ.

ثم قرر منحها ملكيته الخاصة هو الآخر، يبثها شيئًا لم يظن أن مثله قد وجد بداخله يومًا، لا يدري كنهه، لا يعلم له اسمًا ولم يمر به من قبل، لكنها الأجدر باستحقاقه.

******

تطول الأحزان أو تقصر، لكن تظل نعمة النسيان آفتها، تدور العجلة وتستمر الحياة، يمر يومان أو عامان، لا فارق مادام الفراق أزلي،لأسبوع رفضت مغادرة المنزل، زيارات من صديقتها الوحيدة، اهتمام والدتها منزوع الدسم لو أرادت منحه وصفًا مناسبًا، فصاحب القلب الذي طالما طوقها بحنانه قد رحل، وما بعده سراب، بقايا، دون نكهة أو طعم أو رائحة.

تساءلت؛ هل علم؟ ولو فعل..؛ كيف كان رد فعله؟ هل ينتظر عودتها ليراها؟ فلم التأخر عنه إذًا؟ وعندما وصلت بعقلها لهذه النتيجة؛ في صبيحة اليوم التالي توجهت لجامعتها، تنشد منه لفتة، أو نظرة حنون يحتوي بها حزنها الذي ينخر في قلبها دون توقف.

مرت عليها "سارة" تصطحبها كعادتها، وهناك عندما حانت محاضرته لم يظهر، بل أتى بديل لم تستمع لحرف مما كان يقوله، في أول فرصة سانحة اقتنصتها وسألت أخته:

- سارة هو دكتور آدم فين؟ ليه ما جاش النهاردة؟

هنا انتاب التوتر الجالسة إلى جوارها، وهذا أثار قلقها بشدة، وضع حجرًا ثقيلًا فوق قلبها وغصة منعتها من التنفس أو حتى حشرجة الصوت حتى انتهت المحاضرة، بعدها حان وقت التحقيق وإعادة السؤال بصراحة وحزم

دون تراجع حتى الحصول على جواب له.. والارتباك يظهر من جديد حتى لامس الصوت الخفيض الذي خرج من بين شفتي صديقتها:

- آدم مسافركم يوم يا علا.

كادت تتنهد بارتياح.. هو مسافر.. لمَ كل هذا القلق إذًا؟ سألتها بتردد:

- عرف إن بابا....

ولم تكمل، وبالطبع المعنى واضح فأتاها الجواب:

- لا لسه.

حسن قليل من الدهشة لن يضر.. تمتزج بالسؤال الحائر:

- هو مسافر من زمان؟

الحمل ثقيل ينوء به قلبها، لكن لحظة الحقيقة آتية لا محالة:

- من تلات أيام بس، هيرجع بكرة، مش عارفة هيجي ع الكلية ولا هياخد أجازة أطول!!

انعقد حاجبي "علا" وغزا ملامحها عدم الفهم، فسألت بحسم شابهُ توجس:

- سارة هو في إيه؟ دكتور آدم كويس؟

قررت قطع الوريد وترك دمه ينزف، ففي النهاية ستعلم والنتيجة واحدة:

- آدم اتجوز وكان بيقضي كام يوم مع مراته.. شهر عسل يعني!!

لوهلة لم تتغير ملامح الجامدة إلى جانبها، عدم استيعاب، تشتت، أو ربما لم تسمع ما قالته، بينما الحقيقة، أن بداخلها ينهار بسرعة وقسوة، العينان جامدتان، الأنفاس بطيئة، العقل مكبل، والقلب يخفق بجنون.. وغضب.

******

لن تبكي.. تبًّا.. أبدًا لن تبكي، اكتفت من الدموع، من مرارة الفقدان، من ملكية ظنتها فأضحت سرابًا، وأملًا تمنته فانتهى للعدم..

تحولت لحالة من الجمود، تلبسها برود، وغزاها ألم أفقدها الإحساس به كأنها جثة منزوعة القلب والروح، تلقت الخبر بصلابة تحسد عليها، رسمت ملامح لا تشي بأي مما يعتمل داخل صدرها، ولم تحمر عيناها وتبدآن في در الدموع من جديد، بل اصطنعت ابتسامة ظهرت مكسورة و.. كسيرة، وهمست لصديقتها حينها:

- بجد..!! مبروك، ربنا يسعده.

وبالطبع الصديقة لم تقتنع، تدري أن الحزن يوازيه تصنع، تعلم أنه قناع مرسوم لن يلبث إلا وينهار، ووقت الانهيار لابد أن تكون هناك لتتلقاها بحنانها، لذلك لازمت الصمت، فكثرة الحروف حين اعتلال الروح تثير

الشجن، تحرك المواجع وتزيد من نزف القلب، اكتفت بهزة رأس تتقبل تهنئتها لكن المصدومة لم تصمت وانتابها فضول:

- هو يعرفها من زمان؟! اتجوز فجأة!!

أجابتها بتردد:

- أخت مرات أدهم.

أومأت برأسها في تفهم لازمه استسلام، فالتعويض ضاع، والكيان فقد، وحان وقت الانزواء ولعق الجرح حتى تمام الشفاء، هذا لو قدر له أن يندمل:

- معلش يا سارة مش هاقدر أكمل محاضرات، كمليها أنتِ وابقي هاتيها لي.

نهضت تلاحق خطواتها الهاربة:

- علا استني طيب، هاوصلك مش مهم المحاضرات نجيبها في أي وقت.

توقفت وحدث بينهما اصطدام جسدي، وداخل المكروبة كاد ينقلب لصراخ لكنها تماسكت:

- لا لا يا سارة، أنا هاروح، ويمكن أتمشى شوية، بس جو المحاضرات خانقني ومش عارفة أركز أصلًا، محتاجة أفصل شوية، خليكي وهاكلمك بالليل.

ورحلت ركضًا تمنع الأخرى من ملاحقتها، خطواتها سريعة، أنفاسها أسرع، ونبضاتها تتنافس بجنون على دفع قلبها خارج الضلوع، قبل الوصول لبر أمان خارج أسوار حرم الجامعة إرتطمت به وكادت تسقط لكنها حصلت على دعم قربها منه أكثر فابتعدت كالملسوعة تنظر لوجه مقتحم مساحتها الخاصة وقبل إكتمال الصورة بين جفنيها أتاها صوته بخشونة لم تفهمها:

- أنت كويسة؟

رفعت عينيها تواجه عينيه، رأت اهتمام، وشوق.. أهذا شوق حقًا؟ وفي عينيه هو بالذات!!.. تلعثمت وارتباكها متعة للواقف أمامها، يتأملها، حزين لأجلها، ومهتم:

- أيوة.. معلش ما خدتش بالي.

وحاولت التحرك فقاطع محاولتها بسؤال:

- ما عندكيش محاضرات النهاردة؟

ناظرته بحيرة، لمَ يبالي؟ لكنها جاوبت بهزة كتف دون اكتراث:

- في.. بس مش هاحضر.

ابتسم بمواساة:

- البقاء لله.. الله يرحمه.

ردت بخشوع:

- آمين يارب.

لاحقها بقرار أخذه قبل مرحلة الجبن:

- طيب ممكن أعزمك على أي حاجة ونتكلم شوية؟

عقدت حاجبيها، مزيج من غضب ودهشة اختلطا بين جفنيها فسارع يكمل:

- كنت عاوزك في موضوع مهم.. بجد.

ودون أن تعي حروفها نطقت بموافقة، اصطحبها لسيارة صغيرة تقف بالقرب، وفي أحد المقاهي القريبة نوعًا من الجامعة جلسا، واساها قليلًا، تساءل عن حالها، دعمها بكلمات هادئة مطمئنة، وفي كل لحظة تمر في اللقاء يرتفع معدل الاستغراب داخلها وتزداد درجة الدهشة، يبدو غريبًا، ودودًا، وحنونًا لدرجة لم تظنها فيه، حتى نظراته التي يلقيها نحوها بين حين وآخر ليست هي المعتادة، أين غضبه الناري؟.. لسانه الحارق؟.. وعينيه اللتين تخنقانها في المعتاد؟.

ساعة قضتها بصحبته، قص فيها عليها حكايا لا تهمها ولا تعلم سببًا واضحًا لها..!! لكنه في النهاية بينما يطالع الحيرة المرسومة بوضوح داخل لمعة مقلتيها الدامعتين وهو يعلم لِمَ!! فلابد أن الخبر قد وصلها، أنهى الحديث:

- وطبعًا إحنا قربنا نتخرج، والشغل مضمون زي ما فهمتك.

منحته نظرة مرتبكة، وتساءلت في حيرة:

- ربنا يوفقك.. بس مش فاهمة ليه بتقول لي ده كله!!

نظر إليها بتدقيق، سحب نفسًا بعمق، وحرره ببطء، زم شفتيه بين أسنانه كأنه في حرب ما مع حروف تتمنع على الخروج، ثم نطقها بحسم وسرعة:

- علا..!! تتجوزيني؟!

وأمام كلماته هتف عقله "مستغل".. و رد قلبه "كل شيء مباح في الحب والحرب"..

بينما هي في وضع مصعوقة، أو ربما مصدومة وتقترب من فقدان الوعي، عيناها لا تطرفان، وأنفاسها سجينة رئتيها الموشكتان على الانفجار، يعلم أنه إختار التوقيت الأسوأ لها، لكنه الأنسب له.. وكل ما عليه فعله.. أن ينتظر موافقتها.. وفقط.

******

اللقاء كان دافئًا، والأخ الأصغر مشاغبًا كعادته، يمازحه بمرح، ويلقي بنكات عن أيام العسل القليلة التي قضاها بعيدًا عن العمل، وبين ضحكات تعالت ومشاكسات اندمجا فيها سأله "أدهم":

- ها قولي... الزوجة الكندية ولا المصرية؟

رفع "آدم حاجبًا في سخرية فبادر الصغير مجددًا:

- يا بني النكد المصري له نكهة خاصة برده ما تنكرش.

كور ورقة من فوق المكتب وقذفه بها ضاحكًا، هتف بعدها في اشمئزاز مفتعل:

- نكد إيه يخربيتك!!.. إحنا لحقنا؟.. وبعدين هي جمانة منكدة عليك ولا إيه يا أبو مروان؟

رفع كفيه باستسلام يعلن الهزيمة:

- لا لا.. نكد؟.. مين جاب سيرة نكد؟

عادا للضحك من جديد، ثم انقلب الحديث لاهتمام:

- عرفت بموضوع حفلة العقود الجديدة؟.. أكيد هتيجي؟

مط شفتيه بتنهيدة تحمل شيئًا من الضيق:

- مش عارف والله يا أدهم!!.. لسه هاشوف.

نهض بسرعة من خلف مكتبه متوجهًا إليه، فور نهوضه هاجمه الدوار المعتاد فاستند للمكتب بكفه، هب "آدم" من مقعده يدعمه بيديه حتى أجلسه على أريكة في ركن الغرفة والقلق يملأ ملامحه:

- إيه مالك يا أدهم؟.. حصل إيه؟

تنفس ببطء، حاول سحب الهواء بعمق لكن الأنفاس كانت عصية على إراحة صدره، أسند رأسه للخلف وصمت قليلًا يسترد وعيه بالكامل، بعدها رد على أخيه الذي يتطلع إليه في خوف وقلق:

- ما فيش ما تقلقش، دخت بس.. يمكن شوية إرهاق.

نظر إليه في شك:

- إرهاق؟ أدهم انت مش شايف وشك عامل إزاي؟ أول مرة يحصلك كده ولا إيه؟

ولا مناص من كذبة تنجيه من إلحاح أخيه:

- أيوة.. باقولك يمكن إرهاق، أنت عارف العقود الأخيرة خدت مجهود وأنت كمان سافرت وقبلها كنت مشغول، وأنا ماكنتش بانام كويس، عادي ما تقلقش.

هز "آدم" رأسه، لا يبتلع التبرير:

- طيب قوم نروح لدكتور نطمن.

وكأنما لدغته حية، هب واقفًا يبتعد، يتحرك بعشوائية ويهتف بحدة تلمس فيها الأخ شيء من غضب:

- لا لا دكتور إيه بس، أنت هتكبر الموضوع ليه؟ باقولك إرهاق.. أنا ممكن أروح أرتاح النهاردة.

نهض يربت على كتفه، يوافقه ويراضيه:

- خلاص ماشي، روح أنت النهاردة وأنا جيت أهو، خلي عم إبراهيم يسوق بلاش أنت.

وافقه بإيماءة صامتة وغادر بالفعل، الأمر لم يعد يخيفه بقدر ما هو يغضبه، التكرار يزداد، والآخرون ينتبهون، لم يبق سوى والدته وزوجته وعندها سيحمل كطفل صغير لأقرب طبيب، همهم قلبه بحزن يعاتبه: "زوجتك من المفترض أن تنتبه.. لكنها لا تفعل يا أحمق" فنهره يخرسه، وأقنع نفسه أنه بارع في إخفاء الأمر وفقط.

******

أسبوعين كاملين مرا كالحلم، حلم لا يريد الاستيقاظ منه على الإطلاق، لا يشبع أو يرتوي، ودائما وأبدًا يطمح للمزيد، يوم الحفل إكرامًا لأبيه، وإرضاءً لأخيه وافق على الحضور، أخبرها بالأمر فرحبت ولم تمانع، وانتهت الحكاية، أحضر السيدة التي تعتني بطفله لتكمل الليلة معه، وتحَضَّر للحفل المقام في منزل والده الذي لم يطأه منذ آخر مرة خرج منه شبه مطرود يوم سقط الأب مريضًا بعدها.

حلة رمادية داكنة، قميص أبيض، وربطة عنق بلون البذلة، زخات من عطره الرجولي، ووقف ينتظر ظهورها، عندما حانت منه التفاتة نحو باب الغرفة اتسعت عيناه دهشة وإعجابًا، ثم ثوان أخرى وظهرت تلك النظرة

التي يلاحقها بها دومًا، تلك التي تضعفها في لحظات، تعلم الآن أنه يرغبها، فقررت ملاعبته قليلًا لحين العودة من الحفل.

اندفع إليها الصغير"يوسف" هاتفًا بمرح طفولي، يتأملها بعينيه الزرقاوين:

- وااااو.. حلوة قوي يا لومي.

جذبه والده من أذنه يمازحه مع ردها:

- بجد يا جو؟،، طيب إيه رأيك تيجي أنت معايا الحفلة وبلاش بابا؟

وهنا تدخل "بابا" معترضًا بجدية اصطنعها:

- لاا.. كده لا بابا ولا لومي ولا جو هيروحوا الحفلة.

علت الضحكات لدقيقة كان المزاح سيدها، وفي النهاية رحل "بابا" بصحبة "الجميلة" تتعلق بذراعه في حبور..

وصلا إلى منزل والده، هناك ترجلا من السيارة وتوجها ببطء إلى الداخل، يتقدم خطوة ثم يعود فيؤخرها، وهي تسير على هداه كأنها تتفهم ما يفكر به، التفت ينظر إليها فابتسمت، لمعة عينيها وهي تنظر إليه تسببت في غليان بداخله..

نظرتها امتلأت بإعجاب أنثوي محض أثار مشاعره بشدة، لا يدري سر ذلك الشغف الذي يملأه نحوها، لقد انقلب السحر على الساحر وأضحت

اللعبة أكثر جدية من الواقع نفسه، العقل تنحى قليلا وترك للجسد لجام السيطرة وهو لا يمانع أبدًا.

عندما دلفا للمكان سويا، تتأبط ذراعه، وتتأمله بحالمية غريبة، التفت إليها ثانية بابتسامة تملأ عينيه قبل أن ترتسم بخبث فوق شفتيه بينما يميل نحوها متسائلا بمكر:

- بتبصي لي كده ليه ؟

منحته ابتسامة أنثوية لئيمة قبل أن تجيب بدلال تتقنه لأجل مشاكسته:

- معجبة..!

رفع رأسه ينظر إليها بدهشة وقبل أن يعلق ظهرت "جمانة" من اللامكان لتجذب شقيقتها من يده وتمنحه ابتسامة اعتذار، ثم تختفيا من أمام عينيه، ظل يحدق بشرود في اتجاه ذهابها حتى أفاق على لمسة فوق كتفه وصوت مرح مشاغب :

- عينيك هتطلع، زمانهم جايين.

استدار نحو أخيه بابتسامة على زاوية شفتيه، تساءل باهتمام :

- هي مراتك خدت لميا وراحوا فين؟

هز "أدهم" كتفيه بلامبالاة مجيبًا :

- مش عارف، بس هي مستنياكم من بدري، تقريبا عاوزة تسألها على حاجة.

لم يسأل ثانية، اندمج مع الضيوف مرحبًا بذاك و ضاحكًا لآخر، نصف ساعة كانت قد عادت لتقف مع شقيقتها وأحد سيدات الأعمال الشهيرات مع زوجها، عينا "جمانة" تدوران في المكان بقلق، تخشى غيرة "أدهم" من وقوفها مع الرجل وزوجته، وهي تبتسم وتتحدث بهدوء.

فوجئت بمن يجذبها من مرفقها بلطف، فالتفتت لتغرق في دفء عينيه العسليتين، ابتسمت له فبادلها إياها ببسمة تحمل لهفةً بدت واضحة لعينيها، قبل أن تسأله عما يريد، اعتذر للواقفين بهزة رأس ثم تحرك بها، خطوات سريعة، تتبعه في عدم فهم، سألته وهو يتوجه لأحد الأركان بحديقة المنزل:

- خيريا آدم في إيه؟

شجرة ضخمة تزين المكان وتحجبه عن العيون خارج سور البيت، أسند ظهرها لجذعها العريض وقطع استفساراتها و تساؤلاتها -التي بدت له حمقاء ولا داعي لها- بشفتيه..

لثوان تجمدت في ذهول، ما هذا التهور؟.. ماذا لو مر أحدهم؟.. عندما مدت يديها لصدره تدفعه، فوجئت بهما تستريحان هناك، وهي تستجيب إليه بكل جوارحها، لا تدري ما الذي دهاها حقا؟.. منذ لحظة كانت ستعترض، ترفض وتستنكر، أما الآن.. الآن هي تذوب، تنصهر، وتكاد تسقط أرضا.

وعنده هو كان الحل يتمثل في جذبة، وأمام العيون المراقبة، لا اهتمام سوى بالحصول على شفتيها في هذه اللحظة، وجنونه يزداد باستجابتها، ما يحدث له، يقابله صدى يتردد بداخلها هي الأخرى، ابتعد عنها لاهثًا بعد وقت لم يحسب طوله، ابتعد لمسافة قصيرة، قصيرة جدًا، ثم همس لها من بين أنفاسه المتسارعة :

- إيه رأيك نروح بقى؟

بعينين غائمتين مليئتين بمشاعر متضاربة أومأت برأسها وأجابت بهمس :

- أوك.

ابتسامة جذلة ارتسمت على شفتيه دفعت بقلبها لحافة الجنون، لمعت عيناه وهو يتأملها بشغف، جذبها خلفه ثانية، حيا أخيه ووالده، ودعت هي شقيقتها، وفي غضون دقائق كانت سيارته تنطلق بهما إلى منزلهما، أمام الباب، أخرج مفتاح وفتح بهدوء شديد، ما إن خطا للداخل خلفها حتى وجدت نفسها تطير في الهواء محمولة على ذراعيه القويتين مع همسته الذي أذابتها تماما :

- أخيرًا وصلنا، الطريق كان طويل قوي.

ونظرة تعد بالكثير، مع دقات قلبها اللاهثة خلف حروفه، بريق عينيه، وتلك الثورة التي تنبض بها عروقها شوقًا إليه، تشبثت بعنقه وأراحت

رأسها على كتفه وهو يتحرك بها بخطوات سريعة محدثًا أقل قدر من الأصوات نحو غرفة نومهما .

******

عطرها المنعش، كفها باردة رطبة، تداعب وجنته، تحيط بأنفه وتتسلل نحو عنقه، تحاول إخراجه من عالم الأحلام، وجذبه لأرض الواقع حيث وجودها الفعلي، ابتسم ولم يفتح عينيه مستمتعًا بلمساتها، حينها أتته الهمسة:

- إصحى يا كسول.

تنفس بعمق يحتفظ بالعطر بين حنايا صدره، فتح عينيه ببطء يطالع وجهها القريب منه، اتسعت ابتسامته المرتاحة وبادلها الهمس:

- أصحى ليه بس إذا كنتِ بتصحيني كده؟

نهضت واقفة فجأة تمازحه:

- يعني المفروض أقف في طرف الأوضة وأصرخ!!

رفع كفيه متظاهرًا باستسلام:

- لا لا وعلى إيه!! أنا صحيت أهو.

ثم مد يده في غمضة عين وجذبها إليه، سقطت فوق صدره فأحاطها بذراعيه ومنح شفتيها قبلة ابتسم بعدها بكسل أمام وجهها:

- صباح الحب.

ثم تحرك يقلبها فوق الفراش وانحنى يحاول نيل واحدة أخرى.. وما قاطعه كان أمرًا قهريًا، لا ضحكتها المتدللة ولا دفعة منها، ولا حتى هروب، بل صوت بكاء الصغير..

تهدلت أكتافه في يأس أطلق منها ضحكة مرحة شقية فنظر إليها في غيظ، تركته ونهضت نحو المهد الموجود بغرفتهما، التقطت "مروان" تهدهده، لثمت وجنته الممتلئة فتثاءب، مرغت أنفها أسفل ذقنه فابتسم، وهو ينظر بقلب منتفض.. كم يعشق رؤيتهما معًا!!.

نهض هو الآخر وتحرك نحوها، ضمها من الخلف وأخفض رأسه يتشمم خصلاتها، أزاحها عن عنقها وتحرك بأنفه هناك مرسلًا رجفة في جسدها كما اعتادت مع لمساته، سمعت همسته المغتاظة:

- قاتل المتعة..!

ضحكت رغمًا عنها ومع رنين صوتها ضحك هو الآخر وتحرك بانهزام تجاه الحمام، عندما خرج لم يجدها في الغرفة، بل وجد صغيره نائمًا براحة، شتمه في سره بحنق لذيذ ثم ارتدى ملابسه وخرج يبحث عنها.

أعدت الإفطار وجلست بانتظاره أمام طاولة الطعام، عندما ظهر يسبقه عطره ابتسمت له بحب، اقترب وجلس على مقعده المعتاد، تمازحا قليلًا ثم تذكر:

- صحيح باقولك، دكتور حسام كلمني إمبارح عشان ميعاد الجرد السنوي.

أومأت برأسها في صمت، فتردد هو لثوان، مد يده يمسك بكفها، رفعها لشفتيه ثم ابتعد بعينيها يتشاغل عنها محاولًا النطق من جديد:

- جمانة..!! مش بتفكري تبيعي الصيدلية؟ يعني أنتِ مش محتاجاها في حاجة.

رفعت عينيها إليه في صدمة، تحدق فيه، تسخط عليه، وربما تحاول الصراخ، لكن الذهول حبس صوتها وأنفاسها، وألجمها تمامًا، داخل كل منهما صرخ هاتف "ألهذه الدرجة تكره متعلقاته، تغار منها وترفض الاحتفاظ بها؟!".. حاولت التماسك لكن الغضب انتشر بقلبها وعقلها كما تنتشر النار في الهشيم، فردت بحدة:

- مش من حقي أفكر يا أدهم.. دي هتفضل موجودة عشان بنتي، ممكن في يوم تبقى زي باباها وتحتاجها، غير إن ده ميراثها منه مش هامسح كل وجود ليه من حياتها بالشكل ده.

تصاعد الغضب بداخله هو الآخر، لم يقصد ما فهمته وإن كان جزءً كبيرًا منه صحيح إلى حد ما، لكنه جنونه المعتاد، امتزج بلهجته حزم صارم:

- أنا ما قلتش تمسحيه من حياتها، بس أنا مش شايف منها أي فايدة حاليًا، ده كل الموضوع.

نظرت إليه في استنكار، هزت رأسها تقطع الحديث وترفض بحسم:

- مش من حقي أتصرف في ميراثها يا أدهم.. لما هي تكبر تتصرف براحتها.. عن إذنك.

ونهضت تغادره متحججة بصوت صغيرها الذي استيقظ من جديد، زم شفتيه، تبًّا.. هو لم يقصد إغضابها، هز رأسه في يأس ونهض هو الآخر راحلًا لعمله.

مضت ساعة واثنتين وفي الثالثة كان الغضب المصطنع قد انتهى وحل محله الندم، يا إلهي كم هو أحمق!! لم يمر ثلاثة أسابيع على المصالحة التي بذلت هي جهدًا لأجلها ليعود فيثير هو حزنها وغضبها، هاتف أخيه وأخبره أنه سيرحل الآن، قاد سيارته نحو أقرب محل للزهور، واختار لها باقة من الأوركيد تزينها واحدة متفردة من التيوليب، أكمل طريقه نحو المنزل، سيصالحها.. ويصالحها.. حسنا ويصالحها مجددًا حتى ترضخ ويمر الموقف بسلام.

توقف أمام المنزل عبر الشارع فجأة.. اتسعت عيناه في صدمة ألجمته لدقائق، نظراته تحيط بذلك الذي يدلف لسيارته أسفل بيته، يديرها ويتحرك بها مبتعدًا، تعالت أنفاسه وتقطعت، هاجمه دوار عنيف وغضب

أشد عنفًا.. ضم قبضتيه فوق المقود ثم لكمه بقسوة أوجعته هو، التفت بعينيه نحو الباقة الموضوعة بعناية إلى جواره، التقطها وألقاها عبر النافذة في هياج ثم تحرك بسيارته يدهسها وهو ينوي خنقها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة بين يديه.

******

بملل، يقذف بالكرة الصغيرة نحو الحائط، ثم يعود فيلتقطها، عقله غائب في ذكرى اللقاء السام، يخاف!!.. نعم، يتوجس!!.. بشدة، يرغب!!.. بعنف، لكن طريق الوصول معبد بغيوم قد تحمل إعصارًا مميتا، وأفاع أو هي واحدة فقط.. سامة، قاتلة، وشيطانية، والهدف.. بعيد، والرغبة فيه والشوق إليه يحرقان جسده في كل لحظة.

بالأمس كان هذا اللقاء، على حين غرة وجدها أمامه في النادي، بصحبة زوجها الجديد، المتصابية تمرح وتنطلق، تعيش وابنتها تذبل وتذوي حتى الموت التام، أوقفته بعينيها، ونادته بإشارة من يدها، تبع إشارتها كمسحور ووقف قبالتها كمذنب ينتظر العفو أو ربما.. العقاب، صرفت الزوج بحجة تافهة وحولت انتباهها الكامل إليه:

- إيه يا تيمو!! خايف ولا صعبانة عليك؟ اتأخرت في التنفيذ كده ليه؟

تردد للحظة، أشاح بوجهه ثم حرك يده بلا معنى:

- لا ده ولا ده يا طنط ريما، الموضوع مش سهل للدرجة دي، محتاج ترتيب وتخطيط عشان ينتهي بسلام ومن غير ديول توصلهم ليَّ.

نظرت إليه بخبث، تتعمق في دواخله تحاول سبر أغواره والبحث عن كذبة ما يداري بها رعبه من مجرد مرور الفكرة بذهنه:

- ماشي يا تيام، هاصدقك، بس انجز شوية، لو دينا تهمك بجد!! هما عايشين حياتهم وهي يتضيع كل يوم عن اللي قبله.

كاد يصرخ فيها: "أنت أحد وأهم أسباب ضياعها" لكنه صمت، أفعى مثلها قد تنقض عليه وتنهي حياته في لحظة بلدغة سامة واحدة وأخيرة.. وقد تضع العوائق في طريق يمتلئ بها بالفعل، صمت وشيطانه يدفعه نحو خطوة بقدر ما يخشاها.. بقدر ما تثير بداخله غريزة الصيد.. والمغامرة، وتحفز شهيته لمذاق جديد، بريء.

(١٥)

وتتحول الغيرة

أتعلم شيئًا يا عزيزًا على الروح؟

حينما ينتهي وقت العشق بجموح!

تنطفئ جذوة اشتعالك!

وتخمد بداخلي نار الجنوح!

تمتلئ النفس بقيح الجروح..

يهدأ القلب في حضورك..

وتُحبَسُ الأنفاس في صدري المذبوح..

حينها..

تفقدني!.. أفقدك!..

أخافك!.. أبتعد وربما أهرب.. حيث اللاعودة..

أغسل دمي المسفوح..

قربانًا لعشق.. ظننته مسموح..

بل مشروح.. وربما للنقاش غير مطروح..

لكنك طعنت.. والنزف حال فتح الجرح.. ليس بمكبوح..

تغيرات شاملة تنتابها.. لم تبحث لها عن أسباب أو تكتب فيها دفاع..

هي فقط قررت التنحي عن القضية وتركها للقضاة؛ قلبها.. وعقلها..

ويبدو أنهما على وفاق، يسيران بهدوء نحو الدلائل التي تظهر أمامها كل يوم وفي كل لحظة، يفندانها، يصنفانها، ويصدقان عليها، ثم تُحفظ في صندوق الذاكرة الجديد، الذي يخصه هو.

دارت بمقعدها وإحساس بالحيوية يغمرها، هناك شيء ما يحدث، يتعلق به.. بها.. أو بهما معًا.. وهذا الشيء يعجبها، ويحرك روح المغامرة والاستكشاف فيها، ولأنها أستاذة قانون.. فقد قررت البحث فيه بجدية واهتمام، حتى الوصول للمرافعة النهائية.

أفاقت على رنين هاتفها الداخلي المفاجئ وصوت مساعدتها يخبرها بحضور أحد العملاء، ردت بهدوء:

- أوك يا شروق.. خليه يتفضل.

طرقة واحدة وفتح الباب، ارتسمت ابتسامة واسعة مرحبة على شفتيها بينما تنهض واقفة وتشير إليه بالتقدم والجلوس أمام مكتبها بتباسط:

- أهلًا يا دكتور حسام.. اتفضل.

بادلها الابتسامة والترحيب.. سأل عن أحوالها وسألته، وبعدها بدأ الحديث العملي، أتاها اليوم بخصوص الصيدلية التي يمتلكها مع شريك؛ يود إنهاء الشراكة وشراءها كاملة، ومعه شريك جديد سيكون نصيبه باسمه.. مخطوبته "أسيل"..

هنأته ودعاها لحضور الزفاف القريب، أثناء الحديث ارتفع رنين هاتفها النقال بنغمة خاصة عقدت لها حاجبيها، اعتذرت منه ونهضت مبتعدة ترد بقلق:

- أيوة يا جمانة... اهدي بس في إيه؟... أيوة بس أنا... يا بنتي اهدي مش فاهمة منك حاجة... وبعدين معاكِ!!.. حصل إيه لده كله؟.. جمانة.. بطلي عصبية عشان أفهم... أووووه... طيب.. طيب مسافة السكة.

أغلقت الخط وعادت تعتذر:

- معلش يا دكتور حسام.. مضطرة أسيب المكتب دلوقتِ، نكمل كلامنا يوم تاني.. حدد ميعاد مع شروق في أقرب وقت يناسبك وأنا تحت أمرك.

هزرأسه متقبلًا بابتسامة متفهمة وقلقٍ ما ينتابه ثم غادر..

التقطت حقيبتها ومفاتيحها وتبعته هي الأخرى، أخبرت مساعدتها بغيابها، ورحلت..

أمام سيارتها توقفت تسب وتلعن، أحد إطاراتها فقد هواءه، هي بالطبع لا تستطيع تغييره، وليس لديها رفاهية التأخر على المجنونة التي كانت تصرخ على الهاتف، خرجت من المبنى تبحث عن سيارة أجرة في هذا الوقت القاتل، من المستحيل أن تجدها بسهولة، توقفت أمامها سيارة سوداء رباعية الدفع، أنزل قائدها الزجاج المقابل له وهتف باهتمام:

- خيريا أستاذة لميا؟.. عربيتك فيها مشكلة؟

انحنت تنظر إليه بتوتر:

- أيوة، الكاوتش نايم.. هاخد تاكسي.

عرض عليها بكرم:

- طيب اتفضلي أوصلك، وأهو بالمرة نكمل كلام في الشغل.

ترددت لثوان، ثم اتخذت قرارها ودلفت إلى جواره..

مر الوقت ببطء خلال هذا الزحام حتى أوصلها أسفل منزل شقيقتها، هبط من السيارة يعرض مساعدته بأي شكل فشكرته، صعدت هي وتابعها هو للحظات بعينيه ثم دلف لسيارته ورحل.

وعند الصغيرة المجنونة كما صرخت في وجهها، كانت تصيح في غضب، تبكي تارة، وتسخط تارة أخرى، تعاند وترفض، ثم تتفهم، كأنما أصابها هوس..

قصت عليها طلب زوجها، وختمت حديثها بغيظ واضح:

- أنا تعبت يا ميا.. غيرته بقت غير محتملة، من كل حاجة وأي حد، وفي الآخر بيغير من ممتلكات حسام _الله يرحمه_ اللي ناقص بكرة يغير من ملك!.

ربتت على كفها برفق:

- معلش يا جمانة.. هو طبعه كده وأنتِ عارفة ومتفهمة، وفي الموقف ده أنتِ عرفتيه إن في حد هيقف عنده بخصوص ورث ملك، يبقى خلاص بقى، وأنا متأكدة إنه لما ييجي هيعتذرلك ويراضيكِ.

نظرت إليها شقيقتها بشك، فابتسمت بينما تنهض واقفة:

- أيوة أنا عارفة ومتأكدة من كده.. هاعملك ليمون تروقي أعصابك يا مجنونة أنتِ.. رعبتيني.

تحركت وتركتها جالسة في مكانها، ترغي وتزبد، تثور وتهدأ..

عواصف وأعاصير تتصارع بداخلها، تفكر فيه، تسعد بجنون عشقه، تختنق بغيرته، تخاف منها، وتخشى أن يأتي يوم تخاف فيه منه.

******

"لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها"

حتى لحظات ماضية كانت تصدق هذه المقولة، تعتقد فيها، كما تبدو لها منطقية؛ بعد الذبح.. الموت لا ألم، فما الذي قد يصيب شاة مذبوحة إن مزقوها أو سلخوها!

وبين ماضٍ وإن كان قريبًا وحاضرٍ وإن كان مخيفًا علقت هي..

دوامة، عالم موازٍ، غيبوبة تفتح فيها عيناها ولا شيء آخر..

أصابعه تنغرس في لحم ذراعها بقسوة كادت تقسم أنها ستنزف على إثرها، يضغط ظهرها إلى الجدار خلفها ويصرخ في وجهها، شفتاه تتحركان وهي لا تعي ما يقول، تنظر إليه في جمود، حتى الخوف لم يعد له محل من الإعراب.

هي الآن ذبيحة، تنزف، تحتضر، أو ربما ماتت بالفعل، ورغم ذلك لا تنطبق عليها الحكمة الشهيرة، بل لا يزال الألم ينهش روحها، يفترس قلبها، يمزق كيانها، تشهق به أنفاسها ولا رادع له.

نداء غاضب أوقف شفتيه وأعادها لعالم الواقع:

- أدهم!!.

استدار هو فيما يشبه الفزع، وكانت شقيقتها تقف هناك، تنظر إليه بذهول ممتزج بغضب ناري يتأجج في مقلتيها..

تراخت أصابعه عن ذراعها ببطء، يحدق في المهتاجة خلفه، ثم يعود فينظر للمنكمشة أمامه، وكل ما استطاع نطقه هو اسمها بصدمة:

- لميا؟!!..

اقتربت منه بخطوات ثائرة، تريد الصراخ في وجهه..

كيف جرؤ؟.. لا يحق له؟.. كيف أمكنه؟.. ولا سؤال يكتمل..

عقلها لا يصدق ما سمعته أذناها للتو لكنه ورغمًا عن ذهولها واقع مرير، هزت رأسها:

- إيه اللي أنت بتقوله ده؟

ازدرد لعابه بصعوبة بالغة أشعرتها أنه سيموت في هذه اللحظة، فتح فمه لينطق شيئًا ما ولم يجد..رمش بعينيه في اضطراب.. يتنفس بصعوبة بالغة وبطء شديد..

عاد ينظر للمستندة إلى الجدار، بتصلب وجمود، برهبة وحالة من الذهول تكتنف جسدها كله حتى أصابته بالشلل، أخرجه من تطلعه نحوها صوت شقيقتها الغاضب:

- أنا مش مصدقة اللي سمعته؟!!.. هي حصلت!!.. وأنا اللي كنت لسه باقولها ده حب!

ازداد ارتباكه، وكل ما قاله كان غير مفهوم إلا لها:

- كان تحت البيت.. شفته وهو طالع بعربيته.. كان ماشي من تحت البيت.

صاحت بحدة:

- أيوة.. كان بيوصلني.. كان عندي في المكتب وجمانة اتصلت تقولي تعالي لي.. وهو وصلني لأن عربيتي عطلت.. بيوصلني أنا.

الأخرى صامتة، تحاول ابتلاع ما قاله لكن كل حرف توقف كغصة قاتلة في حلقها.. يخنقها، يمنع عنها الهواء، وقلبها تقسم أنه قد توقف ولن يعود للحياة ثانية..

وجدته يلتفت إليها من جديد، عيناه تحاولان الوصول إليها باعتذار ربما.. بخوف، بأسف غرقت فيه لكنه أبدًا لا يكفي.. يهز رأسه يحاول الحديث ولا كلام يساعد أو يخفف من وقع الأمر..

همست بشحوب أخيرًا:

- لميا.. استنيني.. هاجهز شنطتي وأنزل معاكِ.

واتسعت عيناه ذعرًا، لقد أضاعها، بغبائه، جنونه، عشقه الزائد عن الحد وغيرته التي وصلت لمنحنى خطر أسقطه في الهاوية..

حاول الإمساك بها وهي تتحرك نحو غرفة النوم فهتفت به "لمياء":

- أدهم من فضلك.. كفاية.. سيبها تعمل اللي هي عاوزاه.

استدار إليها والهلع على وجهه أشعرها بالشفقة..

سبته بقلبها "غبي"..

هتف بصرامة لا تدري كيف اكتسبها صوته بعد ما حدث!:

- يعني إيه تعمل اللي هي عاوزاه؟!.. مستحيل تسيب البيت.

وقبل أن تلحقه كان يذهب خلفها، وقف ينظر إليها بعدما أغلق الباب من ورائه.. تتحرك باكية، تلتقط الملابس بعشوائية، وتلقي بها داخل حقيبة كبيرة في فوضى.. الدموع تغشي عينيها، تمنع عنها الرؤية، وتغلق الأفق أمامها..

تستعيد ذكرى دقائق قصيرة مضت، حديثه، صوته، اتهامه، ولا تكاد تصدق، لا يمكن أن تصدق، هذا لا يمكن أن يحدث أبدًا.

جلست تقضم أظافرها غيظًا، وشقيقتها الحنون الهادئة -التي تواسيها وتلهمها بصبرٍ نفذ منذ زمن دون إدراك- تعد لها العصير.. والحجة لتهدأ.. هي هادئة.. من قال أنها ثائرة أو غاضبة أو ساخطة أو شيء من هذا القبيل؟..

هي بكل خير، سمعت صوت دوران مفتاحه في القفل وانعقد حاجبيها.. هل صدقت أختها وعاد ليراضيها؟!..

كادت تبتسم بينما تنهض وتتحرك خارجة من الغرفة لتستقبله بالقرب من باب المنزل، ما إن رأته حتى علمت أنه بالتأكيد لم يعد لخير.

اقترب منها بتباطؤ أوجف قلبها، عيناه محمرتان تصرخان بغضب غير محتمل، قبل أن تنطق.. تتساءل عما به أو حتى عن سبب عودته المبكرة كان أمامها تمامًا لا يفصل بينهما مقدار شعرات، يزم شفتيه وكادت تقسم أنها تسمع صوت طحن أسنانه..

تظاهرت بمخاصمته وحاولت الابتعاد وهي تسأله متظاهرة بلامبالاة تعلم أنها مفتعلة وبشدة، لأنها فقط تتدلل:

- إيه اللي رجعك من الشغل بدري قوي كده؟

قبل أن تتخطاه كما رغبت قبض على ذراعها وغاص فيه بعنف أصدر منها آهة متوترة، تطلعت إليه في دهشة، تأوهت ثانية تسأل بحدة:

- في إيه يا أدهم؟.. بتوجعني!

دفعها للخلف بينما لا يزال ممكسًا بذراعها، صدم ظهرها بالحائط لتتأوه من جديد، انحنى نحوها، على مسافة أنفاس أمام وجهها همس بصوت أحَّد من الصراخ في أذنيها:

- حسام كان هنا بيعمل إيه؟

لم تفهم.. علا ملامحها دهشة أثارت هياج المشتعل قبالتها أكثر:

- حسام!!.. حسام مين اللي كان هنا؟

صاح بغضب حارق:

- هو في كام حسام يا جمانة؟.. مستغربة إني رجعت بدري؟.. انطقي.. حسام كان بيعمل إيه هنا وأنا مش موجود؟

واتضحت الصورة في عقلها فجأة.. الآن تحول قيد غيرته لشك.. يشك فيها.. يشك فيها..

"يشك فيكِ!"..

ترددت الكلمة بصدى داخل كيانها كله الذي ارتج للفكرة المخيفة، ودخلت في حالة من فقدان الإحساس بما حولها حتى أصابعه التي تكاد تقطع لحم ذراعها، إلى أن أفاقت وإياه على صوت شقيقتها تنادي باسمه، تعنفه، ويدخل هو في حالة الذهول التي وضعها فيها منذ قليل.

هل تبكي؟.. هي تريد، تريد أن تبكي.. تصرخ.. تنهار أرضًا.. تكسر كل ما يأتي أمام يديها، تمزق ملابسه، تضربه بعنف، وربما تغرس سكينًا في قلبه كما فعل هو معها.. لكن دموعها عصية، أعصابها حديدية، فقط ترقرقت باهتة في مقلتيها فشوهت الصورة أمام ناظريها.

وجدت من يمسك بها فجأة ويمنع حركتها، رفعت رأسها لتجده، التقت العيون، ما وجده هو كان الجمود، الخواء، وبعض رفض عنيف بدأ في الاشتعال..

وما وجدته هي كان الخوف، الأسف، وحزم قاطع لم تأبه له، همس لها بترجي:

- جمانة.. ما تسيبيش البيت.

انتزعت نفسها من بين يديه، لم ترد، ولن ترد.. أكملت تحركاتها تنقل من الصوان للحقيبة بآلية متكررة حتى قطع الطريق أمامها ثانية، تماسك بقوة، يسب نفسه، يلعن الغباء الذي تمكن منه، والخوف الذي أشعل فتيل جنونه حتى تفجر في وجهها.. هي معشوقته، حبيبته، خليلة روحه كما كانت دومًا، لكنه فقط أحمق كبير، جبان أكبر، وقلِقٌ بعنف.

توقفت ولم ترفع عيناها نحوه، اقترب أكثر، أمسك بمرفقيها وجذبها إلى صدره، أسند ذقنه لرأسها وضغطه بقوة، أبعدها ينظر إليها من جديد، وهذه المرة كان حاسمًا ينفي مجرد فكرة قد تطرأ بذهنها عن مغادرة منزلهما معًا.. لن تعود لمنزله أبدًا..

هي له، منذ ولدت، وحتى تموت.. أو يموت هو:

- مش هتسيبي بيتنا يا جمانة.. سامعاني!

وهذه المرة منحته نظرة.. بقدر ما كانت مذبوحة نازفة بوضوح أمام عينيه المجردتين، بقدر ما هاله ما فيها من خوف، عتاب، وغضب يطلق بشراراته الحارقة نحوه، ردت من بين أسنانها تأمره، تبعده، تنفي وجوده حتى:

- سيب إيديا.

امتلأت نفسه بالحيرة وتلك النبرة الغريبة تتخلل أذنيه لأول مرة، لقد أذاها بشدة ويستحق العقاب، وبقسوة.. لكنها لن تقسو لدرجة تركه!

لا.. ليس لهذه الدرجة.. لأنه عندها سيموت حقًا، تشبث بها أكتر، وكسا لهجته بصرامة مخيفة:

- مش هاسيبك يا جمانة، لو فاكرة إنك ممكن تسيبي بيتنا تبقي بتحلمي، حتى لو هاحبسك فيه.

والرد كان مكررًا واللهجة اكتسبت حدةً وعنفًا:

- سيب إيديا.

نظر إليها بدهشة، هل تكرهه الآن؟!..

لم يكمل أفكاره الجنونية لأنها نزعت ذراعيها بقوة من بين أصابعه، وانقلب الحال فجأة لحرب صغيرة، تضرب صدره بعنف بكلتا قبضتيها، تصرخ فيه:

- قلت لك سيبني، إبعد عني، أنا مش قادرة حتى أبص لك، بتعمل فيّ كده ليه؟.. ده مش حب.. ده مرض.. وأنا هاعالجك منه.. وببساطة قوي.. مش هتشوفني تاني.. أنا هامشي من هنا...

هيستيريا هي ربما، لكنه احتمل يديها الصغيرين، تركها تنفس عن الحريق بداخلها، تصرخ، تغضب، وتكرهه لدقائق، فقط دقائق هي أقصى ما يمكنه تحمله.. لا يمكنه لومها، لا يجرؤ.. لقد أخطأ وبشدة، وغيرته التي كانت دليلَ عشق.. أضحت شكًا ودليلَ فقدانَ ثقة.. بنفسه وبها.. حبيبته هي.

دقيقة أو أكثر تلكم صدره بكل ما أوتيت من قوة بثها الغضب في جسدها وروحها، في النهاية تراخت ساقيها أسفل جسدها وكادت تسقط أرضًا.. ضمها بسرعة بين ذراعيه وهبط معها إلى الأرض..

جلست تنشج، تنتحب، تنعي حبًا ظنته يتملك منه، فاكتشفت أن التملك صار صكًا خاصًا بها هي.. احتكارًا نهائيًا وأبديًا لها ثم في النهاية انقلب لعملية تدمير.. هو فقط دمرها.

أما هو!!.. فمحتار، خائف، ونادم.. لكن الندم لا ينفع الذبيحة بعد قطع الوريد.. لقد مزقها بقسوة، وانتزع جزءً إن لم يكن كُلًّا من عشق يسكنها نحوه وألقاه في أقرب سلة مهملات دون اكتراث.. ولا يدري كيف يستعيده من جديد؟.. أو حتى هل هو قابل للاستعادة أم لا؟

ظل يحتويها في أمان صدره، هي تبكي، هو يربت.. هي تسد أذنيها عن صوته، تعمي عينيها عن صورته، وتوشك على طعن قلبها حتى يتوقف عن النبض له..

وهو يريد الاعتذار.. لكن مجرد نطق الكلمة يجعلها أبخس من أن تساوي ذرة في الحزن الذي أغرقها فيه.

اكتفى بالصمت ورأسها بين ذراعيه، يزرعه بقوة فوق ضلوعه، يسمعها دقات خافقه التي تصرخ لها هي وفقط، يؤنب نفسه، وقلبه يوبخه.. لكن ما الفائدة!..

لقد أخذ الخطوة وما من رجوع، عادت تنتزع نفسها من حضنه الذي كان ملاذها الآمن يومًا.. نهضت واقفة وعادت بآلية تعبئ الحقيبة.. تبعها، أوقفها ثانية، وأمسك بيدها يرجوها لكنه بدا وكأنه يأمرها:

- جمانة.. مش هتسيبي البيت...

وصمت لثانية أو اثنتين.. يموت من فراقٍ سيحدث شاء أم أبى.. ويشعر بانتزاع روحه من جسده لأحرف سينطقها الآن:

- أنا هاسيبه.

وقفت تنظر إليه.. رأف قلبها بحاله.. شحوب وجهه الذي أقلقها لثوان لكنها صمَّت أذنيها عن نداءات القلب.. وأمرته بالصمت..

هز كتفيه في يأس وأردف:

- أنا هامشي.. بس ما تسيبيش بيتنا.

يا إلهي.. هي وقلبها الأحمق الذي يذوب له!.. يئن اشتياقًا وهو حتى لم يغادر الصورة أمام عينيها بعد..

حاول لمس وجهها بأنامله فأشاحت به تنظر للبعيد، توقفت اللمسة على مسافة لا تحصى من ضمن المسافات، تنهد بعمق وضربات قلبه تتسارع، أنفاسه تتحول للهاث مكتوم، أنهى الأمر باستدارة، وابتعاد، يلملم القليل مما يخصه، وخلف الباب ينظر إليها من جديد، يرجو صفحًا بعينيه، و يتمنى العفو والغفران.. وشفيعه عشق تعلم أنه يسكنه.

خرج من الغرفة بحقيبته الصغيرة، وقف عند غرفة طفله يطالعه بألم بين يدي خالته التي رمته بنظرة حانقة، غمغم يخبرها:

- أنا هاسيب البيت لحد ما أعصابها تهدى.

ظلت ترمقه بغيظ، فتنهد ساخطًا:

- خلاص يا لميا.. عارف أنا عملت إيه.

وهنا غضبها بلغ أوجه فهتفت:

- فعلًا؟!.. أنت عارف أنت عملت إيه؟.. دي مش غيرة.. ولا حتى شك.. أنت اتهمتها في...

قاطعها بحدة لا يريدها أن تكمل:

- أنا ما قصدتش.. وعارف إن جمانة مستحيل تعمل حاجة زي دي، الموقف كله كان.. كان جنون، وهادفع تمنه أهو لأن الاعتذار مش كفاية.

لم ترد، عاد يتنهد، يقترب، يحمل طفله من بين ذراعيها، يضمه إليه، يقبل رأسه، استبقاه في حضنه للحظات أخرى، ثم أعاده إليها وغادر..

مع صوت انغلاق الباب الذي وصلها في غرفتها حانت لحظة الانهيار الحقيقية، ألقت الحقيبة أرضًا بعنف، تدوسها بقدميها، تصرخ، تبكي، وتلعن قلبها..

والكبرى في الخارج، تستمع إليها وتتألم لحالها.. تركتها تفرغ انفعالها لبعض الوقت ثم دخلت تضمها، تواسيها، وتحاول تطييب جرح نازف تعلم أنه نافذ في عمق القلب والروح.

******

تكره الاستغلال.. كما تكره الضعف.. أو الاضطرار للخضوع، وهو المتفضل بعرض زواجٍ مفاجئ بل وصادم.. يعلم علم اليقين بخبر فجيعتها، ويستغل لحظة ضعفها وموت والدها ليتقرب منها، يطلب يدها للزواج، دون أن يصرح بحب.. أو يمنح أسباب.

أسبوعين وأكثر مرا منذ لقائه الذي أثار ذهولها بمقدار مساوٍ لحنقها واستيائها.. في أكثر لحظاتها احتياجًا، هروبًا من خبر ذبح قلبها الوليد في عالم العشق، وحزنًا على فراق دعامة حياتها، يظهر هو، بثوب فرسان لا تعتقد أنه يليق به، ويعرض نفسه بشهامة كسند يظن أنها تحتاجه.

يظن أنه يصلح لملء الفراغ المتروك خلف المفارق بموت.. لكن لا هو ولا مائة غيره يصلحون.. وحتى الذي ظننت فيه الصلاحية ذهب بلا عودة..

لم تذهب للجامعة طوال تلك الفترة، يومها أوصلها، أخبرها برفق أنه يختارها هي دون غيرها، لأنها هي..

ولم يصرح بشيء آخر.. في الحقيقة هي لم تظن أن تصريحه بحب ما قد يحدث فارقًا!

مشاعرها المتجمدة حينها، دمعاتها التي أصرت ألا يراها مخلوق، ولو حتى وجنتيها الجافتين بشدة وتشتاقان لبعض الارتواء، ثم يأتي هو على جواد الصدفة يحملها ويطير بها حيث يظن نفسه الفارس المنقذ والملجأ الآمن.. وهل هناك أجمل من مفاجأة أنثى هاربة من عدوان الأحزان على قلبها؟.. وقتها ستمتلئ بالامتنان نحوك حد التخمة، حينها تصبح مدينة لك ولا وفاء للأبد.

لكنها لن تذعن لذكر ما يظن نفسه سخيًا بما يكفي ليمنحها قربه وعقد زواج.. يمتلك فتمنح.. تخضع.. وتصبح له قلبًا لو أمكنها وبالطبع قالبًا..

ولآخر الخط يظن نفسه هو المتفضل بعطاء لا ينتهي، كأن وجوده فقط نعمة ينبغي أن تشكرعليها ما دامت تتنفس.

عرضه بث في روحها القوة الكافية رغم الحيرة التي شعرت بها في البداية والتخبط الذي لازمها لفترة.. وقررت استخدامها بحكمة.. فهي لن تترك نفسها يتآكلها الضياع.. ويفتك بها الفراق.. خاصة أنه فراق مَن لم يكن لها يومًا وإن ظنت أو تمنت ذلك.

اليوم عادت.. تخطو بهدوء وثقة داخل أروقة كليتها، صديقتها لم تكف عن الاتصال بها طوال الأيام الماضية لكنها لم تخبرها بشيء، ولمَ تخبرها عن أمر انتهى قبل أن يحدث؟..

منذ يومين زارتها، دفعتها دفعًا للحديث وهي التزمت الصمت، وتغاضت عن توافه تظنها الصديقة تؤلمها.. لا تفهم هي أن الألم عندما يصل لأقصى درجاته يسبب صدمة عصبية وحينها يموت الوجع.. ومعه تذبل الروح.

تباطأت ساقيها فجأة وكادتا تتوقفان عن الحركة، لمحته يقف مع زميل له أمام مكتبه..

يبدو مختلفًا.. حقًا؟.. يشع حيوية وابتسامته تمتلئ بروح براقة لم ترها من قبل.. أتراه يحبها؟.. هل هذا الاختلاف الواضح بسببها؟.. وجودها معه يشكل الفارق الجوهري الذي حوله لرجل يبدو حتى أصغر سنًا وأكثر

حياة؟.. اقتربت أكثر.. هي فقط ستعبر الممر، لن تخاطبه أو تنظر إليه، هي قوية.. صامدة ولن تهزها رياح الألم من جديد.

- آنسة علا؟...

اللعنة عليه.. على صوته العميق الخشن، على ابتسامته التي قابلت عيناها بمواساة، على حنوٍ غريب يملأ مقلتيه..

لمَ ناداها؟.. وكيف ستهرب؟..

توقفت في صمت تحاول الالتفات إليه ببطء، اقترب هو بخطوات سريعة، وقف أمامها ولا تزال تلك الابتسامة تقيد نظراتها.. قابل صمتها برفق:

- البقاء لله.

وأخيرًا نظرت إليه.. وعادت تشتم وتلعن وتسب عقلها الذي قرر قوة لم تكن تمتلكها.. هي تغرق ثانية في دفء يبدو أنه يشع منه دون إرادة.. دون افتعال.. ودون تخصيص لأحد بعينه.. هي هالته هو وفقط، هزت رأسها تتقبل تعازيه وهمست بخفوت:

- الحمد لله.

تردد قليلًا، لقد علم بالأمر بعد عودته للعمل منذ أسبوعين، هي لم تظهر من يومها، ويبدو أنها بخير.. ظاهريًا على الأقل..

لن يغتر بعنترية ويتساءل عن وقع الخبر عليها!.. هو فقط يريد الاطمئنان أنها في حال جيد بعد وفاة والدها ولا شيء آخر..

خاطبها مجددًا بلهجة أبوية تحمل بعض الحزم:

- اعتبري نفسك زي سارة لو احتجتِ أي حاجة ما تترددیش!.

ابتسمت بمرارة ذابت فوق لسانها مع أحرف مشتتة:

- متشكرة يا دكتور، الحمد لله كله تمام.

أومأ برأسه ولم يجد ما يقوله ثانية فتحركت هي مبتعدة.. وقبل أن تتخطاه تمامًا عادت تتوقف، استدارت نحوه، وبنفس الابتسامة التي زادت مرارتها هنأته:

- مبروك يا دكتور.. معلش نسيت حضرتك عارف الظروف.

رسم بسمة خافتة فوق شفتيه ورد بهدوء:

- الله يبارك فيك.. ولا يهمك.. عقبالك.

برقت عيناها فجأة مع كلمته، اتسعت ابتسامتها أكثر واكتسبت لمحة شر غريبة، بينما لهجتها لا تنبيء بالجحيم المستعر داخلها:

- ميرسي.. عمومًا هانت، قريب إن شاء الله هاعزم حضرتك على خطوبتي.

ولم تنتظر ردًا.. أو ترفع ناظريها نحوه لترى الدهشة التي ارتسمت على ملامحه، فوالدها قد تُوفي للتو..

تحركت وخطواتها أكثر ثقة، قوة وربما عنفًا.. تدق الأرض بقدميها تخبرها أن القرار متخذ، وانتهى الحديث.

عندما تقرر الأنثى الانتقام مداواةً لقلب جريح وكرامة تعتقد أنها مهانة، تقدم نفسها كطبق رئيسي، لا تفضله باردًا، بل حارًا يشبه النار التي تسيرها، بعدها تصير مقبلات، حساء وحلوى، وتنتهي مستنزفة حتى الرمق الأخير، والدافع واهن، رخيص، لكنها من تدفع الثمن الحقيقي بأغلى ما تملك.. هي.

******

التخطيط ممتع، شيق، مثير للحواس ومنشط للعقل، لكن التنفيذ.. شهي بقوة، كأن انسكاب الدم يثير غرائزه البدائية كما يدفع أسماك القرش للتصرف بشراسة حد التمزيق بعنف.

وهو يخطط منذ زمن طويل، عام ونصف أو ربما أكثر، لقد فقد إحساسه بالوقت بين هذه الجدران العفنة، لكنه الآن أنهى الخطة، حبكها بدقة، رسمها بنظام، وحان وقت التنفيذ مع الضمانات الكافية أن لا أخطاء هذه المرة، والنشوة ستكون في أوجها.. فالدم كثير حد التوحش.

نظر لرفيق محبسه يتأمله بينما يغط في نومه بشخيرٍ عالٍ متقطع كأنما يخرج أنفاسه الأخيرة، بصق في اشمئزاز دون اهتمام لفعلته الأكثر قرفًا، توجه نحوه وانحنى يهزه بعنف:

- سالم.. اصحى يخرب بيتك.. المغرب أذن وأنت مسطح زي الحجر.

تأفف الرجل وزجره:

- أبو كمال.. الله يخليك سيبني في حالي، أنا دماغي ضاربة ومش ناقصة.

شعر بالغضب فعاد يهزه بقوة أكبر:

- أنت يا زفت قوم، خلاص عاوزك تكلم رجالتك عشان التنفيذ.

انتفض الرجل جالسًا كأن رائحة الدم القادم في الطريق أثارت شهيته هو الآخر:

- بجد!.. خلاص آخر كلام؟.

برقت عيناه في ظلام الزنزانة الضيقة، أومأ برأسه يجيب بلهجة شيطانية:

- آخر كلام.

انتقل البريق لعينين تحملان بقايا نعاس، اشتعلت حماسته وسار الدم باندفاع داخل عروقه، نهض شيطانه الخاص من كبوته المؤقتة، وملامحه تبتسم بشراسة مخيفة.. تنتظر قرب النهاية.

******

الحماقة لا دين لها، لا مبدأ ولا نهاية. الجبن والخوف لا حدود لهما، والغيرة وجنون العشق ينتهيان عندما تنتهي أنفاسه وفقط. قبلها وبعدها هو محض جنون، يستحق التعذيب..

لكنه قَهْرُ الخوف من غدٍ يخشى غيابه فيه عن الصورة واحتلال آخر مكانه.. فأنهى الأمر بنحرها وذبح قلبها قبل أن يأتي ما يخافه.. وهو على قيد الحياة.

حل الليل، لم يعد بالطبع لمنزله، ويتردد كلما فكر بذهابه لمنزل والده.. أمه لن تسكت، وسوف تصب المزيد من الزيت فوق النار.. هو يعلم ذلك علم اليقين ولا يحتاج لمزيدٍ من الاشتعال.. كما أنه لن يخبرها عن فعلته.. ليس لأنه يخشى رأيها فيه.. ولكنه بهذا يدق مسمارًا في نعش زواجه الذي تنتظر والدته نعيه منذ البداية.

والمحتوم مهما تأخر.. لابد من حدوثه، ترجل من السيارة أمام المنزل، حمل حقيبته الصغيرة ودق الباب، داعيًا ألا يقابل أحدًا، لكن ليت المطالب بالتمني.. فور دخوله استقبلته والدته بلهفة:

- أدهم.. حبيبي، تعالى.

وضع الحقيبة أرضًا فتطلعت إليها بدهشة، اقترب منها يرسم ابتسامة لا يدري كيف افتعلها:

- إزيك يا أمي؟.. وحشتك عارف!.. وجيت أقضي معاكِ كم يوم.

نهضت تقبل وجنتيه فمنح كفها قبلة، أخذته من يده وأجلسته أمامها على أريكة مريحة، وفي نيتها إجراء تحقيق مفصل وشامل:

- إيه الشنطة دي؟.. أنت اتخانقت مع مراتك؟

تنهد، كيف يخبرها؟ سيصطنع حكاية ما.. لا يملك غير ذلك:

- لا.. لا مافيش خناق.. بس مشكلة كده وبكرة تتحل.

ومنحها نظرة تمنعها من الاستطراد أكثر، فهمتها، غضبت، وقررت الاكتفاء لكن بعد قنبلة صغيرة:

- ولو ما اتحلتش.. أنت وهي طبيعي ده يحصل بينكم.

زفر في ضيق، رباه أمي ألا ترين ما أنا فيه؟..

نهض واقفًا يردف كأنه لم يسمع ما نطقت به:

- أنا هاطلع أنام، بابا صاحي؟

أجابته برفعة حاجب:

- أيوة، في أوضته فوق، استنى لما تتعشى بعدين نام.

رد بلهجة قاطعة:

- لا مش عاوز، هاطلع له أسلم عليه وأنام.

واستدار، اكتنفه دواره المعتاد.. صلب جسده بقوة ولم يتحرك، لا يريد أن تلحظ أمه، يكفيه ما هو فيه ولن يجلب لنفسه المزيد، لن يعامل كطفل، أو يمنح أحدهم حتى هي حق التدخل في قراراته، لاحظت جموده فنهضت تقترب، ربتت على كتفه:

- مالك يا حبيبي؟

نظر إليها يطمئنها:

- ولا حاجة يا فيري؟.. مالك أنتِ قلقانة كده ليه؟

يمازحها!!.. وجهه شاحب، مرتبك، هو يداري شيئًا، هتفت بحدة :

- أدهم أنت تعبان؟.. وشك عامل كده ليه؟

ربت على كفها واستحضر أكبر قدر ممكن من الهدوء في صوته:

- مرهق بس يا أمي.. ما تقلقيش.. لما أنام وأرتاح هابقى كويس.. بجد جعان نوم.

وسحب بساط الوقت والفرص من أسفل قدميها بينما يغادر سريعًا إلى الطابق العلوي، سلم على والده الذي رمقه بغموض ولم يحاول التدخل أو إشباع فضوله، توجه إلى غرفته دون المرور على شقيقته..

أخذ حمامًا ودلف إلى الفراش بإعياء، روحه منهكة، قلبه متعب، ونفسه التي لا تستكين إلا إلى جوارها خائرة كقواه الجسدية، يفكر بها..

هل بدأ زواجه في التصدع بالفعل؟.. هل أمه على حق؟.. هما لا يليقان ببعضهما؟..

وماذا عن الحب؟.. هل هو تحصيل حاصل؟.. كماليات؟.. رفاهية لا يرقى للوصول إليها؟.. ورداء لا يناسب مقاسه؟..

تذكر جريمته التي ارتكبها بصلف في حقها، وعاد قلبه ينهره، وروحه تبحث عن جواب.. حل..

ولا فائدة، يتمنى معجزة في عصر قلت فيه المعجزات، ويرجو منها زيارة في حلم لا تؤنبه فيه بل تمنحه العفو.. لو قدرت عليه.

(١٦)

للعشق جنون

أتعلم عندما توقظ أنثى غافية!

من سبات.. من ممات..

بعد قبلة حياة، وبسمة نجاة..

بأمل ممدود، ويد تنتشل من وسط العذاب..

تنجو، ترتفع، دون غرق، دون طوق

أنت الطوق..

وأنت هو من حدث..

كيف لرجل أن يظهر في وسط العواصف فينهيها!

كيف له أن ينظر للرعود فيوقفها، وللبرق فيحبس ضوئه!

كيف له أن يحمل الغيوم الرمادية بين كفيه، ويبدلها لسحب حكايا الأطفال!

كيف له أن يوجد..

وقد ظننت أن النهاية كما البداية..

بوجع، وحدة وألم حتى فراق الأنفاس!

وكيف لها أن تقتنص لحظات السعادة من زمن قرر منحها نشيج تتأوه معه في كل الثوان!

هل تعافر؟..

تقاتل؟..

تحارب حتى النصر؟..

وهل هناك في معاركها.. من نصر.. وأمل في شفاء!

هي فقط بسمة تعانق الشفاه، ولمعة مقل عند اللقاء.. ووجيب قلب يعلو بأمنية..

أمنية وفقط..

علها تغافل أوجاعها..

وتتجسد في دنياها من عالم الخيال..

هناك أشياء تحدث، لكن رغم كونها واقعًا ملموسًا، لا يمكننا التصديق بوجودها، ربما للألم.. ربما للخوف، عدم التوقع أو حتى مرورها بالذهن.. لأنها مستحيلة الحدوث، وعند دخولها لدائرة المتاح، تنخفض احتمالية تحملها، ويتهدم سقف الطموحات الذي بلغ يومًا عنان السماء.

حالات العشق والجنون شهيرة وكثيرة، وكلها تقريبًا مميتة، تنتهي قبل أن تبدأ، وعن حكايتها الخاصة، وأسطورتها التي ظننت أنها الأجمل، الأقوى، بل وربما الأكثر خبالًا وهوسًا وفقدانًا للسيطرة، انغلقت إحدى صفحاتها على حدثٍ دامٍ، نزف له قلبها، واستنزفت فيه روحها المسلوبة من قبل حبيب، غيور حد القتل والخنق والموت.. حد الذبح.. حد الشك.

تقلبت في فراشها، تستعيد كلماته، قسوة أصابعه المغروسة بعنف في لحم ذراعها، عينيه الناريتين، صوته المغلف باتهام ألجم كل حواسها، وكلما حاولت إغلاق جفنيها والغوص في عالم اللاوعي بعيدًا عن الواقع وألمه الذي يفترس بقايا روحها المذبوحة، يرن حديثه في أذنيها، يوقف النبض، ويؤلم حد الصراخ.

في هذه المرة اندفعت الشقيقة إلى غرفتها، تضمها إلى صدرها بحنان، تهدهدها، تشعرها بقليل من الاطمئنان، هي هنا، وهو.. غادر.. لا تخافي، وتهزأ من نفسها ساخرة بعنف.. هل أصبح الآن مصدر خوف بعدما كان الملجأ الآمن؟!.. مصدر الحماية، والصدر الدافئ حيث السكن والمستقر؟

بكت، ثم بكت ثانية، واستمرت حتى جفت الدموع، دعت أن تجدد غددها الدمعية إنتاجها لكنها أبت، لعنت كل شيء، تضم نفسها للحنون بجوارها أكثر وهمسها المنكسر يخرج بحروف أكثر انكسارًا:

- بيشك فيَّ يا لميا.. أنا!.. ليه؟

وابتعدت عن الحضن المحتوي بحنو، تنظر إليها بتشتت أوجع قلبها تردف بحيرة:

- أدهم!.. شك فيَّ أنا!.. إزاي؟.. طيب عشان إيه؟.. أنا عملت إيه؟

تهز رأسها دون فهم، عيناها تدوران في الغرفة بضياع، كأنها تبحث عن طيفه، تستجديه تكذيب واقع حدث لكنها هي من تأبى التصديق في حدوثه، والكبرى تريد اختلاق العذر، تعرف هوسه بها، وهي الأدرى بعشق صغيرتها له، لكن لحظات الجنون.. تعمي القلب وتخرس صوت العقل.

ربتت على كتفها برفق، تمنحها الدفء وتنتشلها من تيه تغوص فيه، تحاول إصلاح الموقف لكن لا مبررات تصلح لرتق الثقب الذي انفتق بقذارة، همست لها بصوت ناعم هادئ كأنها تتغنى لها بترنيمة المهد علها تهدأ وتنام:

- جمانة.. أنا مش هاقدر أبرر تصرفه، بس هو عارف إنه غلط، وغلط كبير، عارف إن اللي حصل كان جنون ولحظة فقد فيها السيطرة على نفسه، عقله اتشل وما قدرش يفكر ويحلل صح، هو شاف موقف، ولأنه غيور

بزيادة حلله غلط، مالوش عذر، بس هو ده أدهم.. زي ما قلتِ لي قبل كده.. متطرف في كل حاجة.

عادت دموعها تنساب بصمت، تقضم شفتيها كأنها ستمزقهما، نعم هذا هو من أحبت، هذا هو من لا يفقه في عشقها سوى عنان السماء وعمق جحيم الأرض، نار، أو غيوم وردية، يحرق، أو يدلل، وكله حتى الرمق الأخير، هذا من لا يطيق مرورها بحدقتي رجل غيره ولو صدفة عابرة، ويتمنى لو يمنع الهواء من لمسها كما أخبرها صبيحة زواجهما، بعدما أسلمت له كيانها وقلبها وروحها وجسدها، وأتى دوره في الاعتراف..

هو يغار.. والآن الغيرة أصبحت طوق خانق، يضيق في كل لحظة حول عنقها، حتى أصبحت تجاهد لالتقاط بضع أنفاس.

وفي نهاية الأمر، حبس كل ذرات الأكسجين المحيطة بها فجأة بشك أحكم انغلاق الطوق، واعتصر عنقها حتى قاربت على لفظ أنفاسها بين يديه.. لا حبًا، لا عشقًا، لا شوقًا.. بل قهرًا وانكسارًا.. وصدمةً لا تزال لا تصدقها لهذه اللحظة.

حركتها أختها لتعدل من وضعها، استلقت إلى جوارها تضمها إليها، تمسد شعرها ببطء ورتابة، أسلمت عقلها للنوم من جديد، رغم رعب يغلف كل ما فيها، من تكرار الكابوس، صراخه، ألمها.. ونهاية لن تتحملها أبدًا هذه المرة.

******

عرق غزير، حرارة مرتفعة كأنه يُعَذب في قلب الجحيم، يمد يديه عله يقبض على وسيلة نجاة لكن لا توجد واحدة، وهي تظهر من بعيد، تنظر إليه بعتب، حزن، ودمعات صامتة تنساب فوق وجنتيها، يصرخ باسمها، يناديها، يتوسلها، لكنها على حالها، دون استجابة، دون رد فعل، يتشبث أكثر محاولًا التسلق والوصول إليها، لتتلاشى من أمامه ببطء وآخر ما يتبقى منها ملوحة عبراتها تمسح وجهه وتستقر بين شفتيه، يتذوق عذابها بمرارته فوق لسانه، ويناجيها.. بلا جواب.

انتفض فوق فراشه بعنف، يلهث بشدة لكن الأنفاس تصارع رئتيه رافضة الدخول، تلفت حوله بعينين متسعتين، أراح رأسه للخلف مستندًا لظهر الفراش، اللعنة.. لقد كان كابوسًا!

تنهد يلتقط الهواء يملأ صدره به، تطلع إلى الساعة ليجدها السادسة صباحًا، زم شفتيه غاضبًا، أمسك هاتفه، هل يتصل بها؟ من المؤكد أنها نائمة.. أو على أفضل تقدير هي لن تجيب اتصاله، فرك عينيه بأصابعه، يزفر في ضيق، قلقه في نمو مستمر، وجفاف حلقه بحاجة لارتواء.

نهض يخرج من الغرفة، توجه هابطًا الدرج نحو المطبخ، الكل نيام في هذا الوقت، تجرع بعض الماء البارد ثم خرج من المكان عائدًا لأعلى، أخذ حمامًا يعيد به النشاط لجسده الخامل، ارتدى ملابسه على عجل وقرر المغادرة

حتى لو سيفتح أبواب الشركة بنفسه، لا يريد مقابلة أحد، خاصة والدته، وصغيرته الثرثارة "سارة".. لن ترتاح أو تهدأ حتى تدس أنفها في الأمر وتعرف التفاصيل، وهذا ما ليس لديه استعداد له أبدًا.

في مكتبه حاول شغل نفسه بالعمل، يطحن مخه وسط الأوراق، لكن رغمًا عنه تعود لذاكرته صورتها، منكمشة أمامه تنظر إليه بخوف.. لقد زرع فيها الخوف، وهذا يقتله في كل لحظة، هو يصرخ، هي تشعر بالصدمة، ويستمر مسلسل الجنون حتى يفيق على صوت شقيقتها ولكن بعد فوات الأوان، ليته لم يعد، بل ليته لم يغضبها منذ البداية، هو أحمق كبير.. لا.. لا.. هو عاشق تائه في ملكوت هواها.

لا يدري ما تفعله ضئيلة الحجم تلك بكيانه كله!.. هي تقلبه رأسًا على عقب، تزلزله، تعود فتبنيه، تحرقه بنيران مستعرة، وتطفئه ببسمة من شفتيها، منذ رآها لأول مرة، حينما لم يفهم ما يحدث له، عندما هاجمها بطلب زواج، بالطبع فالموقف كان هجومي مفاجئ، له ولها..

ابتسم بحزن يستعيد ذكرى أول أيام زواجهما، شقاوته، خجلها، هروبها، عشقه الذي كان يتضاعف في كل لحظة، عشقه الجامح دون لجام، عشقه المميت الذي قتلها في النهاية..

وقتها كان صيادًا، ويعترف أنه كان ماهرًا، طاردها بعنفوان حتى سلمت وأحكمت إغلاق فخه حولها، ذابت في هواه كما أغرِم هو بها، حتى تملكها.

بعدها.. بعد متعة الصيد والمطاردة، بعد التملك الفعلي والحقيقي، ظهرت أشباح الماضي تطارده، ليتحول من الفهد، للفريسة، فريسة ينهشها خوف، وربما غضب أنه لم يكن الأول، لم يفز بها قبل غيره، لم يصل إليها منذ وعت عيناها الدنيا، لقد تأخر، دار وغاب كثيرًا حتى تاهت منه، لكنه عندما وجدها، لم تكن خالصة له، بل جزء منها، من روحها، من جسدها، من عقلها وذكرياتها ملك لآخر، آخر يثير جنونه حتى وإن رحل عن الدنيا بأسرها.

وعندها انتوى نسيان الماضي، والتحكم في الحاضر والقادم، وليته أمر سهل، بل في كل مرة ينفلت العقد، ويفقد الزمام، حتى انكسرت حلقة الوصل بينهما في لحظة تهور، لحظة ثار فيها بركان غيرته وامتزج بحمم خوفه من مستقبل مجهول وغدٍ تمحى منه صورته كما محيت صورة من سبقه، ليحتلها آخر، يتملك منها آخر، وتعشق هي آخر.. بينما تتغذى ديدان القبر على جسده وقلبه ويصرخ هو دون مجيب.

عند هذه النقطة من أفكاره أزاح الأوراق من فوق مكتبه بعنف ليسقطها مبعثرةً أرضًا، الغضب يتأجج داخله أكثر، ترتفع ألسنة لهبه عالية وفي طريقها تقضي على ما تبقى من عقله المثار بشدة..

طرقات خافتة على بابه انتزعته من جنون على وشك الحدوث، رفع عينيه ينظر إليه دون جواب، وتوقع القادم، بالطبع لن يكون آخر، دخل وأغلقه

من خلفه، تقدم بهدوء يجلس على مقعد مقابل يتفرس في ملامحه يستشف منها ما يدور وخمن أن الأمر أكبر مما يظن، منحه ابتسامة حنون:

- إيه؟ مالك؟.

تأمله للحظات، بماذا يجيبه حقًا!.. ابتعد بعينيه وصمت، الصمت هروب مناسب الآن وإن كان دليل جبن، استطرد "آدم" في هدوء يسأل بمباشرة:

- أنت اتخانقت مع مراتك وسيبت البيت؟

استدار إليه بغضب، يحدق فيه ونظرة نارية تتمكن من مقلتيه، رد من بين أسنانه حانقًا:

- هي لميا مش بلغتك!.. بتسأل ليه؟

رفع حاجبيه دهشة، ثم عقدهما يجيبه بحزم:

- لميا ما بلغتنيش حاجة يا أدهم، كل الموضوع إنها طلبت تبيت مع جمانة إمبارح وعرفت إنك سيبت البيت، من غير تفاصيل، ما أعتقدش إنها ممكن تحكي معايا في حاجة تخص أختها.

تذمر هازئًا بغيظ:

- فعلًا!..

ازداد انعقاد حاجبي الأكبر وشعر بالغضب كون أخيه يشكك في كلامه وفي طريقة معالجة زوجته للأمر، صمت قليلًا يطالعه، يحاول استنتاج شيء من ملامحه الممتلئة بالسخط، هز رأسه يقيمه ثانية ثم تنهد في استسلام يسعى للفهم أو لحل المشكلة إن وجدت:

- في إيه يا أدهم؟.. مالك؟.. أنت مش طبيعي.. لو زعلان مع جمانة قول لي أحاول أصلح ما بينكم.

فوجيء به ينهض بعنف، وصياحه غاضب بشدة:

- بالله عليك يا آدم أنا مش ناقص وظيفة المحقق ولا المصلح الاجتماعي، ومش عاوز أتكلم دلوقتِ ولا حتى بعدين، مشاكلي تخصني وأنا بس اللي هاحلها.

حسنًا.. هذه صدمة!!

نهض في مقابله ينظر إليه في دهشة، دهشة أثارت المزيد من حنق المشتعل ذاك، فتحرك خارجًا من المكان لكن قبلها منحه هتاف مستاء:

- يوووه.. أنا ماشي من هنا.. كفاية تحقيقات بقى.

وخرج كإعصار صاحبه نداء أخيه الذي لم يصل حتى لأذنيه بينما يغادر المكان، يهرب ربما، يستاء أكثر، يحزن، يفرغ انفعاله في جدار المصعد، ويصرخ في محيط سيارته المغلقة قبل أن ينطلق بها مسرعًا بشدة كأنما

تطارده شياطين الجحيم مجتمعة، أو ربما شياطينه الخاصة التي تهدد سلامه النفسي وثبات عقله وتدفع به نحو حافة الجنون الفعلي حتى يكاد يسقط دون أمل في نجاة.

******

أبجديات العشق بالنسبة للبعض معضلة، مفرداته معادلة صعبة على الفهم، وطرقه يخوضها فقط الشجعان، حيث لا مجال للجبن، التراجع أو الخوف عندما تتحداك رغبتك في القرب أن تتصدى لها، رغمًا عنك تدفعك دفعًا إليها، تجد عوامل الجذب غير منطقية، لا تصلح للتعامل معها بعقل، تثأر من نبضات قلبك كأنه ثأر تاريخي، وتفتت ذراتك، كيانك، وربما روحك.. فلا تشعر بالاكتمال، الثبات، الانسانية إلا عندما.. وفقط عندما تقترب.

ولأن الاقتراب ليس بهين، ليس برخيص أو سهل، يتملك منك اليأس، تستجدي لحظة جنون، اندفاع، تهور، تصرح فيها، أو حتى تصرخ بانعدام قدرتك على الصمود أمام رياح غرامها إعصارية الطابع وفيضانية التوابع، والاستجداء في بعض الأحيان قد يجدي، لكن دقات القلب حينها تعود لمنطقة الجبن.. منطقة آمنة، لا تخشى فيها الرفض، أو تخاف الهروب.

ومن منطقة الجبن تتنقل لمناطق أخرى أكثر سوءً، والأسوأ فيها.. مساحة الخيال الخاصة بك، لأن هناك لا حدود، لا تقسيمات، لا أسوار أو حواجز

صنعها مجتمع عقيم تحيا فيه، مساحة شاسعة بقدر استطاعتك أنت، جرأتك، تمكنك من الابتكار، وهنا تضيع يا صغير.. تضيع بالمعنى الحرفي، لأنك تتوه فيها، تشرد في تفاصيلها المنمنمة، لا تعقيدات، ولا أفكار، ولا تراجع، فقط خطوات للأمام، حد تشمم عبيرها، حد الشعور بدفء أنفاسها، حد اقتراب غير مصرح به سوى في وزارات العشاق، تنهل من منتج مطابق لمواصفات قلبك القياسية حتى تهلك روحك فيه ولا تشبع.

"جبان"

شتم بها نفسه، يقف في ظل شجرة وحيدة تشبهه، يتأملها، ولا يجرؤ على الدنو منها، أخذ خطوة نحوها، خطوة واحدة، وعاد فتراجعها ثانية وأخرى تتبعها، تبًا ولعنات الجحيم كلها، يريد أن يخبرها، يريد أن يعلم عنها، يظن أن بقلبها شيءٌ نحوه، لكنه يرتعب من فكرة أن يكون مجرد صدىً لما يتربع متملكًا من قلبه هو، تمنيات وأمنيات، أحلام وخيالات، تصب في أوردته، في عقله، لا وجود لها على أرض الواقع، يحتاج لتجربة عملية، دليل، برهان صغير، لكن الجبن سيد الأخلاق عندما تتعلق الأمور بها.

ويسب نفسه مرارًا وتكرارًا، ليته يمتلك نصف شجاعة صديقه المتهور، الفتى طلب الزواج ممن أراد في لحظة، وهو هنا يقف كتمثال أبله، يتعبد في محراب صورتها من بعيد، صديقتها نهضت وتركتها، ربما قليلًا وستعود، هي فرصة فلتقتنصها يا غبي!

تحرك نحوها بسرعة، وقف خلفها ونسمة هواء تحمل رائحتها داعبت حواسه فنفضت قلبه، همس لها برفق:

- سارة؟

التفتت إليه بشيءٍ من فزعٍ، هو ليس قريبًا إلى هذه الدرجة.. صحيح!...

تراجعت خطوة، ويا الله على احمرار وجنتيها، مُهلك.. تطلعت إليه في خجل شديد، ناداها باسمها دون ألقاب، لقد أسقط حاجزًا.. أتراه في طريقه لإسقاط المزيد؟..

ابتسمت برقة فبادلها إياها وعاد يهمس باهتمام:

- كيفك؟

هزت كتفيها توحي بحالها الجيدة، وصوتها بالكاد وصله:

- الحمد لله.. وأنت؟

وتلك الخطوة التي تراجعتها وجد قوىً خفية تدفعه نحو اقترابها مجددًا، لم يعاند أو يرفض.. فقط استجاب ببساطة صاحبت جوابه الخفيض، المشتعل بحرارة تُصهِر داخله:

- متل كل مرة.. بخير.. مادامك بخير.

وها هي تعانق الأرض بعينيها، محظوظة هي، تنال نظراتها وتهرب بها منه إليها.. ظل يتأمل رأسها المنكسة، ثوانٍ، طالت لدقيقة، فابتسم، على الأقل خطوته لم تبتعدها من جديد، ناداها فرفعت ناظريها إليه، وبقدر عمق ذلك البئر الذهبي السحيق بين جفنيه، غرقت هي.. هي تعلم جيدًا قوانين السباحة ولو مبدئيًا.. فلم تكاد تغرق؟ لا هي لا تكاد، بل تهبط لأسفل، وتهبط، وتغرق، وتغوص، ولا قرار لنهر الذهب ذاك، مفاجِئًا وأيضا متفاجئًا همس دون صوت، بحركات شفاه مقروءة:

- اشتقتلك.

والسعير يضطرم بداخله بجنون، ازداد احمرار وجنتيها، وفي كل مرة يتلبسها ذلك الخجل، تتعمق بعقله تلك اللوثة حتى تمكنت منه، فانطلق يهمس من جديد وهذه المرة سمعت بوضوح دون غيرها:

- بحبك..

اتسعت عيناها، حمرتها تضرب وجهها بعنف، والحرارة تشتد حتى كادت تشعر بالعرق يتصبب فوق جبينها، تراجعت خطوتها ثانية، فتحت شفتيها الشهيتين فتعلقت عيناه بهما في انتظار، تريد النطق، تحث لسانها على الحركة، لكنها لم تستطع فعادت وضمتهما، وحينها لمحت اتجاه عينيه فخفضت وجهها بسرعة، لم يتعدَ على مساحتها الخاصة ثانية فقط أخبرها بإقرار:

- كان بدي تعرفي؛ لأن ما عدت فكر غير فيكِ.

لم ترد، لم ترفع وجهها، تود لو تنشق الأرض وتحتويها بخجلها بعيدًا عن حضوره الذي جن جنون قلبها له، لكنه شعر بالقلق، خاف، وعاد الجبن يسيطر عليه، وبصوته شعرت بكل ذلك:

- سارة؟..

همسه باسمها، وتلك النبرة الوَجِلة، أرادت أن تطمئنه، لكن ذاك فوق طاقتها، ناداها ثانية وثالثة، فركضت تبتعد دون رد، وكاد قلبه يتوقف عن النبض، هل ترفضه أم هي فقط خجلة؟

لقد تسرع، لم يكن ينبغي له إخبارها الآن، لم ينهي دراسته بعد، والعمل الذي يدر عليه دخلًا معقولًا ليس بدائم، ظل يحوطها بعينيه وهي تتحرك بسرعة، بعد مسافة ليست بالقصيرة لكنها لا تزال تحتوي دفئها استدارت تنظر إليه، وكانت تلك الالتفاتة كافية، بل أكثر، لأن شفتيها تحملان ابتسامة..

أعلن قلبه العصيان أمامها، وقرر أن يترك جسده ويعدو خلفها غير مبالٍ بصاحبه الذي كاد يحلق نحو السماء فرحًا، هذا نصر صغير، معركة في حرب، ولن يتوقف حتى يكتب في تاريخ العشاق من الفاتحين.

******

Because I smell chocolate in your hair, see it in your shiny eyes "
it was the best gift for chocolate queen, plus flowers of course..
"But I really, really miss you my one and only queen

Mourad

هذا كثير.. حسنًا، هذا أكثير بكثير من الكثير السابق، يراسلها بهدايا الفتيات، يغازلها بمختلف اللغات، ويطاردها بطريقة جنونية، بقدر ما تسعدها وترسم البسمة على شفتيها، بقدر ما تخيفها، هو لا يدري عنها شيئًا، ولو علم.. سيهرب منها كما يهرب الأصحاء من وباء الطاعون، لكنها لا تصدق أن هذا يحدث لها، ما تشعر به، ما يفعله بها، بقلبها.. كله غريب ومثير للدهشة.

نعم.. هي تمتلك قلبًا، وقلبًا لم تتخيل وجوده، لم تستخدمه مسبقًا، ولم تعلم عنه سوى أنه يضخ الدم ويبقيها على قيد الحياة، لكن أي حياة قبل أن تتعلم معنى النبض!..

معنى أن يسكنه أحدهم، يتسلل إليه بخفة لص محترف، يفتح أقفاله الصدئة، ويشعرها بأنوثة تختلف تمامًا عما شعرت به من قبل أبدًا.

لم تلمح بعينيه نظرة بغيضة أو وقحة تتأمل مفاتنها، تعلم أنها تخفيها، لكن النظر متاح متى ما أراد، وهو لا يفعل، بل يمنحها بعينيه أمانًا غريبًا عجيبًا.. لم تتوقع أن رجلًا قادرٌ على منحها إياه في وقت ما، هو فعل، هو

جريء بطريقته المميزة، يقتحم حصونها، حصون أنثى مدفونة على عمق لم تصل إليه من قبل يدا إنسان، أنثى وجدت لأجله فقط، لأنه هو من استخرجها من منجمها المهجور.

أنثى تطرب لرجولته، رقته، لطفه، مشاغباته، مطارداته، ومرحه الذي يسبغ على دنياها الرمادية ألوان قوس المطر، أنثى تشتاق للحب.. وهي.. هي لم تعرف معناه مسبقًا، لم تهتم له، ولم تتوقف حتى عند مسماه، لكنها فقط تطمح إليه الحين.. والسبب ذلك المجنون.

التقطت هاتفها، تستعرض ذكرى رسائله التي يشاغلها بها بين كل حين وآخر، يخبرها عنه، عن يومه، يضحك على موقف طريف، ويغضب لموقف استاء منه، يشركها في حياته كأنه يدعوها للولوج إليها أو ربما يجرها نحوها جرًا.

يغازلها، وغزله جميل.. يدغدغ حواسها، يداعب خيالها، وتبتسم.. هي تبتسم بعد أكثر من عام لم تعرف فيه شفتاها معنى الافتراق لأجل بسمة سوى تلك المصطنعة لأجل العمل.. تتنهد بعمق كفتاة حالمة، تعود لسني مراهقة.. تشعر بنفسها في السابعة عشر لا ناضجة تتجه نحو عامها السابع والعشرون، تدور بمقعدها، تقف، تتجول في الغرفة وتتنهد من جديد.. ويقاطعها هو برنين هاتف لتعود الابتسامة البلهاء لمحياها ثانية، بحركة واحدة تلتقطه، تنظر إليه، تجبن، تتردد، تريد وتخاف..

"هناك ماضٍ سيء لن تهربي منه يا جميلة"

ماضٍ لا تزال مخالبه تريد نهشك في كل لحظة، ماضٍ يتجسد أمامك كلما حاولتِ الهروب، توقف الرنين عندما انتهت مدته، نظرت إليه في أمل.. ولم يخيبه لها، بل عاود الاتصال.. وهذه المرة أجابت بخفوت وحصلت على زلزال صغير رجها برفق مع نبرته العميقة التي تنساب لخلاياها العصبية فتحفز حواسها كلها مجتمعة:

- دينا..

همسه باسمها فقط أخرج تنهيدة محبوسة من صدرها، وصلت لأذنيه حارة ليتحفز هو الآخر، يعتدل في مقعده بعد وضع الاسترخاء، هي تتجاوب وإن كان ببطء..

"أنتِ لي فاتنتي!"

رددها لنفسه ثم ناداها مجددًا، وهذه المرة ردت:

- عاوز إيه يا مراد؟

جاوبها بضحكة شقية وصوت مقتحم بتملك:

- عاوز ملكة الشيكولاتة!

ابتسمت، تشعر بسعادة، وتخشى فقدانها فيتعمق الألم من جديد، وكررت تعاود السؤال علها تصل لمرفأ آمن يقيها موجات الفزع:

- عاوز مني إيه يا مراد؟

نبرتها الخائفة توتره في كل مرة، حمائيته تندفع في عروقه بغزارة فيكاد يقفز من مقعده ويطير إليها، يضمها إلى صدره، يهدهدها بأمان، ويمحو ذلك الخوف الذي يتمكن من قلبها وروحها:

- عاوزك أنتِ يا دينا.. كلك على بعضك، مش هارضى بأقل من كده.

ازدردت لعابها بصعوبة، هكذا قالها "طارق" وها هو "مراد" ينطق بها.. "يريدها".. لكن لديها المردود مختلف، الصدى مغاير، ونبضة القلب التي غافلتها على حين غرة وهتفت باسمه تخبرها أنها ملكه.. تريد أن تكون له، مع صمتها تحدث ثانية:

- اتعشي معايا النهاردة.. محتاج أتكلم معاكِ.

رباه كيف تهرب منه؟.. هو يأمرها، وهي تريد الخضوع لسيطرته، ما الفارق بينهما؟ كلاهما رجل.. يريدانها، يتتبعانها، يأمرانها، فقط أحدهما يهدد.. والآخر يطارد بمتعة وخشونة ذكر يعرف ما يمتلك، يعرف تأثيره على جنس الإناث، يعرف ما يريد بالتحديد، ربما الكل، وليس البعض.. هكذا قال، وهكذا تصدق.. أو تريد أن تصدق.. أنهت أفكارها بحزم:

- فين؟

ستترك نفسها لتياره، فهذه المرة قد ينقذها من الغرق، شعرت في لهجته بابتسامة، وكادت ترى النصر على ملامحه..

ألجم كل صوت وكل فكرة بتحكم آمر:

- اجهزي على الساعة ثمانية.. هاعدي عليكِ.

وأغلق الخط دون وداع، ياله من رجل!

قل كلمة ما يا أحمق.. لكنها هي الحمقاء، فها هي تبتسم.. تسعد، وتنوي مغادرة العمل باكرًا لتحضر نفسها للقائه..

وإلى الجحيم؛ "طارق" وتهديداته وملفاته وأوراقه.. هذه لحظات سعادة ستقتنصها، تنتزعها بعنفوان من بين فكي الزمن المستأسد على أشلائها.

******

بعض المواقف تجر وراءها سخرية، لكنها سخرية مريرة، لا تثير المرح في نفسك.. بل تضحكك حد البكاء وسيل الدموع، تتجمد أمامها، لا تدري ما هو التصرف الأمثل أو رد الفعل المناسب، في النهاية تحافظ على صمتك، وتبقى قيد الانتظار للطرف المقابل وتصرفه هو.

عندما أعلنت التحدي، قررت تقديم نفسها كطبق شهي حار غادر النار للتو، كانت تتصرف كحمقاء، رعناء، لم تكنها في يوم ما، أو ربما طفلة تغيظ رفيق اللعب، بلعبة تخصها كما استبدلها هو.

لكنها.. وعلى بعد خطوات، كانت تضحك، ربما أثار مظهرها الفضول، لكنها لم تستطع التحكم بضحكاتها الساخرة فاختلت بنفسها أسفل السلم، وهناك ازدادت نوبة الضحك حتى طفرت الدموع من عينيها..

يالها من غبية!.. أتظنه يهتم؟ هو يراها كأخته الصغيرة صديقتها، فلمَ عليها أن تدفع ثمن قصة نسجتها من وحي خيالها وإن دعمها هو بغبائه للحظات، وبماذا؟.. الزواج من آخر.. لا يصلح لها بالمرة.

حسنًا.. لقد حصلت على بعض المرح وهذا جيد، حان وقت عودتها لصراطها المستقيم الذي لم تحد عنه سابقًا إلا عندما ظهر هو.. لكن، وكما قالوا.. تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.. يومها عادت للمنزل بعد محاضرتين وصحبة صديقتها، لتفاجأها والدتها بزيارة هامة لم ترها قادمة في الطريق ولم تدخل في أفق توقعاتها، صديق والدها وشريكه.. بصحبة ابنه ووالدته.. هل لها أن تخمن أم تترك الأمر للظروف؟.

ويا ليتها ما تركته.. لربما قطعت الطريق قبل أن يسيروا فيها ليداهموا روحها المشتتة بطلب زواج جديد، شاب ناجح، من أسرة طيبة، يدير أعمال العائلة مع أبيه، ويبحث عن عروس مناسبة، بالصدفة رآها عندما كانت تقيم مع والدها في رحلة مرضه الأخيرة، وأعجبته الصغيرة ذات الزمرد اللامع.. فأخذ الخطوة الوحيدة الصالحة والجدية وتقدم لخطبتها.

يالكِ من محظوظة "علا"..! خاطبين في نفس الوقت، أحدهما معجب.. والآخر تعتقد أنه يحب رغم عدم اعترافه.. لكن سبب طلبه وحيد وواحد بالطبع وهي ليست غبية.. رحلوا على وعد بانتظار رد يجمع أواصر العائلتين، وها هو زوج أم يمدح في الشاب الطموح، والأم بنفسها تسعد كمثيلاتها من الأمهات بمن طرق الباب خاطبًا ابنتها.

وثارت هي، هذا غير ممكن.. غير معقول.. وغير مقبول، لا تريد الزواج الآن، وإن حدث وقررت في يوم، فلن يكون إلا من رجل تعشقه ويذوب هو فيها، أما هذان فحتى وإن أحبها أحدهما فهي لا تحبه، ولا تراه يصلح لها على الإطلاق بعصبيته وشراسته، والآخر يبحث فيها عن قائمة محددة جاءت هي مطابقة لها، وبالتالي قررت الشذوذ عنها والرفض القاطع لكليهما.

والدتها أصابها القهر وقبله الغضب والغيظ، حاولت إقناعها لكن رأسها الصلب تجمد ورفض، في النهاية ظهرت عصبيتها:

- علا.. أنا مش فاهماكِ!.. بترفضي عريس زي ده ليه؟.. لو في حد تاني قولي نشوف هيتقدم ولا هيعمل إيه؟.. إنما رفضك لشاب ممتاز بالشكل ده مش منطقي.

نظرت إليها ببرود، منذ متى أمي كنتِ رفيقتي؟ تهتمين لما يدور بداخلي؟ صرحت بحدة:

- ما فيش حد تاني، ومش معنى الرفض إن لازم يبقى في، هو مش مناسب ليَّ وبس، مش مرتاحة له، ومش هو اللي شايفة إني أقدر أكمل معاه.. خلاص نقطة وانتهى السطر وهنقفل القوس.. مش هاتكلم في الموضوع تاني يا ماما.

زمجرت والدتها تعنفها:

- علا.. خلي بالك وأنتِ بتتكلمي معايا، على الأقل لما ترفضي اقنعيني، مش هو كده وخلاص!

زفرت مغتاظة، حانقة، ساخطة، تود الصراخ، لكن أمها لن تتفهم، هي أبدًا لم تفعل، ولن تفعل الآن، هزت رأسها محاولة إنهاء الأمر:

- ماما.. لو وجودي معاكِ في البيت طول الوقت بعد وفاة بابا مضايقك.. أنا ممكن أسيبه، وبيت جدتي لسه موجود، أنتِ عارفة إن بابا كان بيقعد فيه معاها لما ينزل زيارة وهي هترحب بوجودي، وكده هترتاحي من مشاكلي وقرفي.

حدقت والدتها في وجهها لا تكاد تصدق، هذه ابنتها قد كبرت وتناطحها بالحديث، بل وتشعر بما يدور حولها جيدًا، هي ابنتها الكبرى، الأولى، ذات الحب الخاص والمكانة المميزة.. لكن زوجها، بالكاد كان يتحملها في أوقات الدراسة والتي كانت تقضي فيها معظم يومها مع صديقتها تلك.. لكن الآن، هي حتى تخشاه عليها، لمَ لا تفهم تلك الغبية أنها تريد صالحها؟.. زوج ناجح وطموح من عائلة جيدة، سترتاح معه، لكنها فقط تعاند:

- أنتِ بتقولي إيه يا علا؟ أنا...

لكن اللهجة الباردة كانت مقاطعة وقاطعة:

- ماما من فضلك.. أنا مش غبية، عارفة إن أونكل منير مش بيحب وجودي كتير، حقه، ده بيته برده، ومش معنى إنه اتجوزك إنه هيتكفل ببنتك كمان.. عمومًا.. أنا ليَّ بيت تاني، وأهل برده.. وأكيد هازورك.

ومرحلة عدم التصديق وصلت لمستوى حرج، والأدهى والأمر أنها لا تستطيع الدفاع أو صد الهجوم، فابنتها قد نضجت قبل أوانها، ترى خبث الحياة وظلماتها، ابنتها على حق، لكنها أبدًا لن تتركها وحيدة، وليتصرف زوجها كما يحلو له، صغيرتها باقية في أمان أحضانها لن تفارقها إلا لو ذهبت لبيت زوجها، وإن كانت تشك من حالها في الأشهر الماضية أن هناك طارق قد دق باب قلبها رغم رفضها الاعتراف، فقط ستترك لها اختيار الأوان المناسب لتصارحها بوجوده، لذلك فقد صمتت على مضض، وافقت هواها.. ومنحتها مباركتها لرفضها كما ترغب.

******

يوم ويوم، ساعة تليها أخرى، دقيقة تتبعها ستون ومئات، وبطء مرير تختنق به الثوان، هو على حاله، يتصل فترفض اتصاله حتى أغلقت هاتفها تمامًا، ويطوف حول المنزل يرتجي لمحة من طرفها لكنها مختفية بالداخل كأنها تعلم بوجوده حولها، محرومًا منها، ومن قربها.

يومان.. يا إلهي.. هما فقط يومان لكنهما بطول دهر، منذ تشاجر مع أخيه وهو يتحاشى لقاءه، يهرب منه، ولا يعلم هل بلغه تفاصيل أم لا..؟ لكنه يشعر بالخجل، لقد تصرف بجنون، بحماقة بالغة وصلت الحد الأقصى وبعدها ما من رجوع، لا يعلم كيف سينصلح الموقف؟ هل ستقبله؟ هل ستسامحه؟ أم أن تلك الفجوة التي صنعها في جدار قلبها ردمها بألم حمل توقيعه الخاص..!

أخفض عينيه التي كان يتطلع بهما نحو شرفة منزله، ينظر إلى صورتها والصغيرين على شاشة هاتفه، تلمسها بحنين وابتسم بحزن، همس لصورتها بتلعثم رغم أنه لجماد:

"آسف.. عارف إني زودتها، بس أعمل إيه؟ أنا مجنون بيكِ يا جمانة.. مش عارف عملتِ فيَّ إيه! اتمكنتِ مني للدرجة دي إزاي؟.. بس خلاص.. هو ده قدري اللي ما فيش منه مهرب.. وأنا مش عاوز أهرب، ومش قادر أبعد"

ورفع عينيه لأعلى ثانية للحظات، تنهد وخاطب صورتها بعشق هامس:

"حتى الكلام ده مش قادر أقوله لك، أنتِ متخيلة حالي في بعدك؟ على الأقل لما كنا بنتخاصم كنت بافضل في البيت، باشوفك كل يوم، باشم ريحتك، بالمسك ولو حتى اتظاهرت إنه مش عن عمد.. بس كده.. تعبت"

رمى برأسه على مسند مقعده وأردف:

"تعبت قوي، أنا اندفعت بغباوة، إنما مستحيل تفكري إني أظن فيكِ خيانة، أنا بس ما دققتش واتجننت زي عادتي كل ما أحس بالغيرة"

تأوه من عمق قلبه والتفت برأسه يرمي بعينيه لمنزله:

"وحشتيني.. وحشتيني قوي، خايف أموت وأنتِ بعيد عني، خايف من بكرة وأنتِ لغيري، أناني يمكن، بس لو أقدر أعمل عليكِ حصار بعد موتي وما تكونيش لحد تاني؛ هاعمل.. المهم أنا اللي أبقى معاكِ في الجنة مش حد تاني"

وتنهيدة حارة أخرى صاحبت ارتفاع نظراته نحو السماء:

"يااارب"

رنا ببصره هناك ثانية، ثم أدار محرك سيارته وغادر، طوق والدته يضيق عليه الخناق، تريد معرفة التفاصيل، وأخيه غاضب منه، بينما يتحاشى هو الكل ويهرب من نظراتهم المتسائلة، الوقت متأخر حينما يعود لمنزله ككل يوم فرارًا من لقاء لا يريده، ضغط دواسة الوقود أكثر كأنه يدهس في طريقه حرقة قلبه التي تشيع في روحه بالأنين.. وكانت غلطة، غلطة قد يكون ثمنها حياته التي يخشى قرب نهايتها.

دواره، صاحبه غثيان ورعشة تملكت من جسده بأكمله، زاغ بصره وفقد تركيزه للحظات..

رباه ليس الآن!..

ابتهل في قلبه.. حاول تخفيف سرعته، والتوقف بالسيارة إلى جانب الطريق، لكن الأمور اختلطت، المكابح اندمجت مع دواسة الوقود في ذهنه فتشتت بينهما وانساقت قدمه للاتجاه الخاطئ نحو دواسة البنزين، ضغطها أكثر لتسرع به السيارة كصاروخ وهو يتجه إلى يمين الطريق، لم يعد يميز أمامه جيدًا، وفي هذه الحالة لم يكن هناك مفر من الاصطدام.

ارتطمت عجلات السيارة بالحاجز الجانبي للشارع في عنف شديد اصطدم له جسده بالباب المجاور له، يحاول فتح عينيه على اتساعهما موسعًا مجال الرؤية لكنها فقط أظلمت أكثر، السيارة تقفز أعلى الرصيف، تنطلق فوقه بسرعة كبيرة، ليوقفها في النهاية بصدمة شديدة أحد أعمدة الإنارة، تحطمت على إثرها مقدمة السيارة، تبعها قرقعة عالية وصراخ قادم من بعيد، صوت ارتطام قوي فوق سطح القفص المعدني المسجون بداخله، سائل لزج يسيل على جانب وجهه، وألم قاتل ينهش كل جسده، ثم ظلام نهائي غرق فيه دون قدرة على الهروب أو الفكاك من سلاسله التي تقيده نحو النهاية.

(١٧)

يومًا ما سنفترق

قالوا عن الفراق:

الفراق: لسانه الدّموع، وحديثه الصمت، ونظره يجوب السّماء..

الفراق: هو القاتل الصّامت، والقاهر الميت، والجرح الّذي لا يبرأ، والدّاء الحامل لدوائه..

الفراق: كالحبّ تعجز الحروف عن وصفه، وإن أبينَ تفرّقا..

الفراق: كالعين الجارية الّتي بعد ما اخضرَّ محيطها نضبت..

هل للوداع مكان أم أنه سفينه بلا شراع!.. يا ليت الزّمان يعود، واللّقاء يبقى للأبد..

ولكن مهما مضينا من سنين سيبقى الموت هو الأنين..

وستبقى الذّكريات قاموساً تتردّد عليه لمسات الوداع والفراق، والوداع والموت هو البقاء..

هل هناك مسوغات للاشتياق؟!

هل تبدأه أسباب معينة أوتشعله دوافع محددة!!

هل نشتاق لمن نحب فقط؟ أم أيضًا لمن.. نحتاج!!

تنظر إليه وفي عينيها شيء من دهشة، كأنها تستغرب نظراته هو أو لهفته، أو حتى أمره الذي لفظه بما يشبه استجداء يطالب بعودتها!

هل بعينيه ما هو غريب؟!

بالتأكيد شوقه واضح، فضحته تلك الضمة شبه القاسية التي استقبلها بها وإن كانت بذراع واحدة لأنها كانت تضم طفله وقتها.

أعلنت عنه كلماته بين كل حين وآخر يسأل عن أحوالها، ويرميها بتأنيب خفي أن تركته ليومين، وفي النهاية ومن بعيد يحرك شفتيه همسًا..

"وحشتيني"!

والمقابل بسمة رقيقة، ونظرة معتذرة، وتضم الصغير الذي يحسده الآن أكثر..

يراقب من مسافة ليست بالكبيرة، يشملها بنظراته المتأنية، رغم غيابها القصير لكنه افتقد وجودها من حوله؛ صوتها في الصباح عندما توقظه، تحركاتها الخافتة في غرفة النوم ترتدي ملابسها استعدادًا للعمل، وحتى

حركة الملاعق والأواني في مطبخها وهي تصر على تحضير الفطور بنفسها يوميًا رغم وجود مدبرة المنزل.

يحتاج حنانها الذي تمنحه إياه ببذخ، ينشد اهتمامها الذي تسبغه على كل أموره مهما كانت صغيرة، يطالب بعدم فراقها ثانيةً لأن وجودها في حياته أصبح دعامة تعتمد عليها، وربما في يوم ما يطمح في حبها كما حدث مع والدة طفله.

ترى هل يمكنها أن تحبه؟!..

لكن لمَ وهو لا يملك نحوها مثله؟

هل تقدر على منحه قلبها مع احتفاظه هو بقلبه؟!

هل الأنثى الشرقية لا تحمل بداخلها ذلك الجين الأناني المشابه لجين الرجل في تملك من يريد حتى وإن لم يمنحه كله كاملًا!!

وصغيره.. اشتاقها بشدة، تساءل عن غيابها، وطالب بحديث معها عبر الهاتف، طفله المسكين يفتقد الحنان والاهتمام مثله تمامًا، وهو يعلم أنها أكثر من قادرة على عطائه لكليهما دون أن ينضب وإلى أن تنتهي الحياة.

لاحظ نظراتها المتسائلة نحوه..

ابتسم لها ونادى السيدة لتأخذ "يوسف" لغرفته تحضره للنوم، قبلت هي الصغير، وتوجهت معه نحو غرفتهما، بعدما أغلق الباب خلفهما استدارت إليه برقة:

- عملتوا إيه من غيري؟

اقترب يحيط خصرها يقربها منه، يتنفس عبيرها الرقيق بعمق، ثم يجيب بصدق:

- كنا مساكين.

ابتسمت بسعادة خفية، كم يبهجها أن تشعر باحتياج أحدهم إليها!! ويثلج صدرها أكثر أن تجد لديها ما يحتاجه الآخرون منها، فتمنحه برضى وعن طيب خاطر، شبت على أطراف أصابعها تقبل وجنته باعتذار رهيف:

- سامحوني.

غرق في عينيها يأمر والنبرة راجية:

- ما تسيبيناش تاني!

وهذه المرة أظهرت اتساع ابتسامتها تقسم بحنان:

- وعد.

ابتعدت تغادره إلى الحمام، تريد إزاحة عناء اليومين السابقين عن كاهل عقلها المتعسر في فهم ما حدث إلى الآن، تعلم أن العشق جنون، أن زوج أختها مهووس بها، لكن خروجه عن السيطرة.. طبق عليه القول:

"ومن الحب ما قتل"..

وهو قتلها بالفعل..

كثيرًا ما شعرت بالغبطة نحو شقيقتها، تمنت حالة تغوص بها في عمق المشاعر كتلك، لكنها الآن أصبحت تخشاها، إن كان الحب يسبب العمى!.. يثير التملك حد الثمالة! يحفز غريزة البقاء ربما.. البقاء على قيد الحياة داخل قلب المعشوق ولو بطريقة سوداء! فهي لا تريد، تخاف، وعندما يتدخل الخوف بين المحبين، يفقد الحب مصداقيته، وتتوه في دروبه القلوب.

تلك الحياة التي عاشتها سابقًا مع زوجها تختلف تمامًا عما خبرته مع أختها، كانت حياة بسيطة، هادئة، روتينية.. وارتضت هي ذلك الروتين الذي أبقاها في منطقة حيادية آمنة مريحة لا ترهق قلبها أو مشاعرها، بل تسير فقط بخطى حثيثة ثابتة مطمئنة.. حتى غدر؛ وهنا انتهك ميثاق الصدق وزلزل الطمأنينة فانهارت معه منطقتها ودخلت متاهات الفزع بعد طعنة نالت من قلبها وعقلها على حد السواء.

ترى هل يمكن أن تنهار حياة صغيرتها كما حدث معها؟..

الأمر دومًا يبدأ بشك..

هي تأكدت لأن الآخر خان بالفعل، لكن "أدهم" وغيرته العمياء لدرجة سواد مميت، سيصل بهما لطريق مسدود، وربما حينها لن ينفعه عشق بذله من قبل.

نفضت عن عقلها تشتت الأفكار وتصارعها الذي يسبب لها رعبًا من الغد، خرجت لتجده في انتظارها، ومن عينيه علمت أنه يريد الحديث عما حدث، لابد وأن أخيه المجنون قد أخبره..

ترى ماذا كان رده؟ هل عنفه؟ سبه ربما وأنبه؟ هو يستحق وبجدارة.

ابتسمت تقبل عليه، جلست إلى جواره على الأريكة الواسعة، وبادرت حينما شملها بنظراته:

- شُفت أدهم طبعًا!!

أومأ موافقًا ولم يرد، هل يخالف قوانين اللعبة حين يلتزم الصمت ليصل إلى ما أخفاه أخيه؟..

يبدو أن الأمر أكبر مما تصور، وهو لا يعلم ما عليه فعله بينما موقعه خارج نطاق الصورة!!

عادت تسأل ونبرة عصبية استغربها تتسلل لصوتها:

- قلت له إيه؟ ينفع اللي عمله ده؟

هز كتفيه دون رد صريح فقط:

- أدهم كان عصبي جدًا، ومش عاوز يسمعني.

ازدادت وتيرة الغضب في صوتها بينما تنهض من جواره تتحرك في الغرفة أمامه دون هدف:

- ما هو عارف إنك أكيد مش هيرضيك اللي عمله، طبيعي يقلب الترابيزة وما يسمحش لحد يعاتبه، حرام عليه والله، البنت كل يوم كوابيس.

عقد حاجبيه في قلق، حثها بطريقة خفية:

- ياه!.. لدرجة كوابيس؟ وهي عاملة إيه النهاردة؟

هزت كتفيها تزفر بغيظ:

- زي إمبارح، بتعيط ومش مصدقة إن الإنسان اللي حبيته ممكن يشك فيها!!.. ماما معاها دلوقتِ، لحد ما نشوف هنعمل إيه..

انتفض في مكانه، هل قالت: "يشك فيها؟" في زوجته؟..

نهض يمسك بكتفيها يوقف حركتها العصبية ويسأل بجدية متغاضيًا عن اصطناع المعرفة:

- يشك فيها؟!

توترت فجأة ورفعت عينيها تنظر إليه:

- هو مش قالك اللي عمله؟

نفى بجدية أكبر:

- قلت لك كان عصبي ومش عاوز يسمعني، فهميني.. يعني إيه يشك فيها؟.. وليه؟

خلصت نفسها من قبضتيه، أدارت ظهرها إليه بتوتر، لقد فضحت الأمر بغباء، وهو... التفتت إليه ثانية وعلى ملامحها غضب..

شعر به موجه إليه قبل حتى أن تهتف بشك:

- أنت ما كنتش عارف وبتستدرجني عشان أحكي لك!

رفع حاجبيه في استنكار يعيد ما قالت:

- أستدرجك!!

تملك منها غضب أكبر، عادت تدور في المكان حانقة مغتاظة، نعم هي على حق.. وقد وقعت في شركه كأي امرأة بلهاء، أشعرها هذا بالسخط فألقت الأمر بعنف:

- أخوك بيشك إن دكتور حسام اللي بيدير الصيدلية كان عندها في البيت، طالع يتخانق ويزعق وشوية لو ما كنتش هناك كان ممكن يأذيها!

تجاهل غضبها الموجه لشخصه، وفكر فيما هو أكثر أهمية، لقد جن أخيه الأصغر حتمًا، سألها باهتمام أكبر يحاول الفهم:

- وإيه يخليه يشك في حاجة زي دي؟

ردت دون انتباه بنفس النبرة المشتعلة:

- عشان شافه طالع بعربيته من تحت البيت، كان بيوصلني وهو افترض تلقائي إنه كان فوق.

انعقد حاجباه بقسوة، رد بصوت خافت من بين أسنانه المتلاحمة بقوة:

- بيوصلك..!!...

بدا وكأنه سيكمل.. وانتبهت هي لنبرته، ماذا الآن!!.. وأردف بالفعل:

- وليه يوصلك؟

جابهت بعناد نافية أي فكرة قد تدور بذهنه:

- كان عندي في المكتب عشان شغل يا آدم، وجمانة كلمتني أروح لها نزلت لقيت عربيتي عطلانة، هو بذوق عرض يوصلني مش أكتر، وأظن مش ده الموضوع المهم دلوقتِ.

اللهجة اكتسبت برودة لم تعجبها هذه المرة:

- مين قال مش مهم؟.. ليه تركبي معاه؟!! كان ممكن تكلميني أبعت لك السواق أو حتى آجي لك بنفسي.. لكن اللي حصل إنك خدتِ الموضوع ببساطة وقلتِ يوصلني عادي مش كده؟!

ابتعدت خطوة تنظر إليه دون فهم.. هل هو غاضب لأن رجلًا آخر أوصلها؟ هل يغار؟..

لا سمح الله!!

وبينما هي تحاول تفسير رد فعله الجامد والذي ينذر بهبوب عاصفة، كان هو يجاهد لفهم الضيق الذي غمره لمعرفته بذلك الأمر!

ببساطة وكأن ما حدث لا يعد شيئًا.. ركبت سيارة رجل غريب، تسامرت معه طوال الطريق، وفي النهاية تسبب وجوده في حدوث مشكلة بين أخيه وزوجته..

حقيقةً الخطأ الأكبر على المجنون الذي يشك بحماقة ورعونة في حبيبته، لكنها من نزعت الفتيل خاصة مع التغير الغير مفهوم والذي لاحظه عليه مؤخرًا.

والآن هو يكاد يحترق غضبًا، هل معنى زواجهما العقلاني أنها لا تأبه لمشاعره كرجل يشبه أي رجل غيره!.. يتضايق لما تفعله امرأته ويشمل ذكرًا آخر؟ خاصة وأنه خارج إطار العمل!!

ثم ها هي تعاند أكثر، ولا ترضخ أو تقر بخطأ:

- إيه المشكلة إنه يوصلني!!.. ده معرفة عائلية وماسك لنا شغل، مش حد غريب.

وتبرر أيضًا، وجد نفسه يكاد يزعق دون ترابط:

- والمعرفة العائلية اتسببت في مشكلة بين أختك وجوزها، كده عادي برده؟! ما فيش مشاكل!!

تراجعت خطوة، هل يلمح أنها السبب!!.. عقدت حاجبيها تتأكد أولًا قبل مرحلة الهجوم الفعلي:

- قصدك إن أنا السبب يا آدم؟

رد بحدة:

- أنتِ شايفة غير كده؟

وتقابله بحدة مماثلة وإن كانت أكثر تماسكًا:

- وأخوك!! لمجرد وجود راجل يعرفه تحت بيته!! عادي يشك في مراته؟ أنت فاهم ده معناه إيه؟ عرضه، شرفه هو...

قاطعها لا يريدها أن تكمل، هو غاضب بشدة ولا يدري سببًا محددًا سوى وجود ذلك الصيدلي في الصورة، وهي تعاند وفقط:

- أنا ما قلتش إنه مش غلطان، بس لولا وجود الراجل اللي بتقولي عليه ما كانش هيحصل الموقف أصلًا.. ولا إيه؟

تحاول التماسك.. لكن أن يرمى بالخطأ فوق رأسها، خاصة مع شعور غريب بالذنب يتسلل إليها من وقتها أثقلها أكثر، وأثار حفيظتها بعنف، والنتيجة رد في صيغة سؤال قاسي وازى خطوة اقتراب ونظرة متحدية:

- يعني لو شفت أحمد تحت البيت هتظن إنه كان عندي؟

تراجع مبهوتًا للحظة!!

كيف تفكر فيه بهذا الشكل؟.. بل كيف تذكر اسم ذلك الرجل بهذه الطريقة؟..

ورغم كل شيء وقتها سيجن جنونه لو حدث ما أشارت إليه..

ظهر استياءه بوضوح على ملامحه، تخطاها متجها نحو الفراش برد أكثر برودة من لهجته التي نطقه بها:

- أنا شايف إن اتجاه النقاش بقى مش مناسب.. تصبحي على خير.

ببساطة هكذا ينهي الأمر!!.. ودون أن يجيب عن سؤالها؟

هل سيسيئ الظن بها بالفعل؟..

عند هذه الفكرة تأججت نيرانها، تحركت تقف أمامه تكرر بغضب مكبوت:

- هتظن إنه كان عندي يا آدم؟!

نبرتها كانت مذهولة.. أو ربما مستنكرة، هو لن يخوض في مسألة كهذه خاصة وأنها تطرحها لتفاضل بينه وبين أخيه الغيور بجنون..

لم يرد وهذه المرة تحول غضبها لحزن، خطت تغادر الغرفة في صمت لكنه جذب مرفقها يديرها إليه بتساؤل:

- رايحة فين؟

بدت وكأنها طفلة عنيدة عندما جاوبته:

- هانام مع يوسف.. تصبح على خير.

وكاد يفقد هدوءه بالفعل، هل تصر على إغضابه، وبأي شكل!!.. شدد قبضته على يدها، أكسب لهجته صرامة حاسمة تقطع أمامها كل الطرق:

- شوفي يا لميا.. إحنا نتخانق عادي، نغضب مع بعض، يبقى في بينا مشاكل زي كل الناس، لكن إنك تسيبي أوضتنا، لأ مش هيحصل.

ولم يزد حرفًا، بل تركها وتوجه نحو الفراش، استلقى على ظهره بهدوء وهو يعلم أنها ستتبعه، تطلعت إليه لثوان، تتناحر على وجهها مشاعر شتى، أبرزها الغضب الممتزج بحزن..

هل كانت تنتظر منه تصريحًا بالثقة؟ هل هي غبية أم ماذا!! إن كان لا يثق بها فلمَ اختارها منذ البداية؟

طرحها للفكرة أثار سخطه، حتى أنه كاد يصرخ في وجهها يمنعها من ذكر اسم...

"ذلك الرجل"..

ما دامت قد أصبحت له، هي ملكه الآن، غير مسموح لها بالتفكير في آخر، ولا يتاح لها أيضًا ذكره أمامه، هي له.. وحسب.

دلفت للفراش بهدوء لا يوضح ما يعتمل داخلها، لقد خذلها، وأول مشادة بينهما بعد زواجهما انقلبت لأمر سيء.. تعيد التفكير فيما قالت وتعترف أن سؤالها خاطئ، زوجها السابق يختلف عن "حسام".. و"آدم" ليس هو "أدهم"..

السؤال ظالم وفي غير موضعه لكن تعنته وضيقه غير المبرر أخرج عصبيتها من عقالها، وأفلت لسانها بحماقة.

نظرت إليه فبادلها النظرة بصمت، دقيقة أو أكثر ثم أدار لها ظهره يزفر بحرارة تعني غيظه، كادت تتحدث ثانية لولا ارتفاع رنين هاتفه بشكل مفاجئ نفضهما معًا بتوتر، التقطه بسرعة يلقي نظرة على الرقم المجهول، أجاب بخفوت قلق اشتعل مع الرد الذي أتاه من الطرف الآخر.

******

وكأنها عادت طفلة، تبحث عن الأمان في دفء احتواء صدر أمها، عاد بها الزمن لأيام وجع ودموع ظنت أنها هجرتها، أن السعادة طرقت بابها أخيرًا ودخلت دون استئذان تمنحها قدرًا منها، أن الأمن مستتب كما يقولون والأمور كلها بخير.

ودوام الحال.. من المحال، وها هي، ترتكن برأسها فوق فخذ والدتها داخل الفراش الذي يفتقد عبقه هو، وأناملها تتخلل خصلاتها برتابة تبعث على الملل.. وربما النوم، وباليد الأخرى تحيط كتفها وتواسيها بصمت.

فقدان الوعي أحيانًا يفيد، لكن كيف الوصول إليه وكل نقطة دم في جسدها متيقظة تذكرها بقسوته التي تختبرها للمرة الأولى!!

نعم يمكنه، ومتى بدأ الأمر سينفرط العقد وتتكرر المرات، وتتحول قصة العشق الملحمية لمأساة حالكة السواد.

لقد أغلقت هاتفها تمامًا خلال اليومين الماضيين، تقطع عليه محاولاته الدؤوبة غير ذات الفائدة، هل يتوقع منها غفرانًا بينما تنزف حتى آخر قطرة!!.. هل يطالبها بالصفح وهي تنتفض بآخر الأنفاس!!.. هل يقترب الآن باحثًا عن حبها في الوقت الذي أطلق عليه نيران الشك فأصابته في مقتل؟!

وماذا بعد يا حبيب؟!

البَعد الآتي قريبًا يناشدها قلبها لأجله، القلب الصغير الضعيف الذي يفتقده لحدٍ مؤلم وقاس، يختلق له المبررات، ودومًا يخترع قصة عن عاشق تمتلكه هي ولها أن تفتخر.. لا أن تغضب وتعاند.. وتخاصم.

تستعيد في كل مرة كوابيسها التي تهاجم لياليها كلما تعانق جفنيها وأسلمت نفسها لسلطان النوم هروبًا من واقع موجع، كوابيس تنتهي بفراق، أو به يؤذيها.. وما يثير ذعرها أكثر أنه نثر بفعلته بذور الخوف بداخلها.. خوف منه، خوف أصبح كسوس ينخر في روحها، ينهشها من العمق ببطء، ويقتل ما تبقى من تشبثها الضعيف بالحياة.

أمها لم تقل شيئًا، علمت ببعض التفاصيل واكتفت بالصمت، والصمت في حرم الوجع.. إنصاف يعادل مواساة تهدهد القلب برفق، وتفكر: ماذا ستقول؟ تصب جام غضبها عليه.. أو تبرر؟ في كل الأحوال، قضي الأمر وغادرت الرصاصة القاتلة فوهة النار، ولا أمان هنالك.

أخرجها من دوامة الشرود اهتزاز هاتف والدتها الصامت، التقطته الأم وكان المتصل شقيقتها، فتحت الخط وقبل أن تنطق بحرف تعالى بوضوح الصياح المرتعب:

- ماما!!.. جمانة فين؟.. أدهم عمل حادثة بالعربية...

ووصلها الصوت شبه الصارخ، قفزت من رقدتها وقلبها يكاد يوازي قفزتها خروجًا من صدرها..

تبًا له!! لن تفقده الآن، ليس قبل أن تعذبه، تعاقبه، تؤنبه، تصرخ في وجهه.. ثم تسامحه وتقسم على حبه.

******

للمرة الثانية تتأمله من وسط الضمادات، راقدًا في فراش المرض، مخلوع الكتف وشبهة ارتجاج في المخ، وليلة يجب أن يقضيها بغرفة العناية المركزة، وجهه يمتلئ بالجروح، ومن بعيد تلمح أحدها غائرًا في جبينه، مستكينًا داخل غيبوبته غير المفهومة، ملامحه هادئة باردة لحد مخيف.

استندت برأسها وكفيها لزجاج النافذة الضخم، دموعها تغرق وجنتيها بصمت، وعيناها تحيطانه بكل ما يعتمل داخل روحها من ألم وحب.

كادت تفقده.. ألن ينتهي هذا الرعب أبدًا؟ ذعر الفراق.. الهلع من موت قد ينتزعه من بين ذراعيها!! قلبها يئن منذ سمعت الخبر، لا تدري كيف أتت في هذه الساعة، كيف قفزت من الفراش ترتدي ما تجمع في يدها من ملابس لتجد سائقهم بانتظارها تبعًا لأوامر زوج أختها.

طوال الطريق تنتفض.. فعليًا جسدها يرتعش كأنها تجلس في وسط الصقيع، تهمس برجاء، تدعو أن يكون بخير، تأمل وتتمنى وتدعو ثانية..

عندما وصلت وجدت أخاه في انتظارها يطمئنها، لكن قلبها أبى إلا أن يراه.. منعوها من الدخول إليه.. مجددًا، ارتمت بين ذراعي شقيقتها التي احتوتها بحنان وبكت، بكت كثيرًا، بكت وروحها تكاد تغادر جسدها بلا رجعة.

هي غاضبة منه بشدة، حزينة، مكسورة الفؤاد، لكن ليس من حقه أبدًا أن يتألم وهي بعيدة عنه!!.. أن يقترب من الموت.. لديها عقدها الخاصة منه ولا تنقصها واحدة جديدة.

شعرت بخطوات تقترب منها، توقفت خلفها وخاطبها الصوت الجامد بنبرة تحترق بنيران الغضب:

- هو ده الحب اللي كان بيكلمني عنه؟

التفتت في سكون، السيدة "فريدة" لن تترك الفرصة أو تمررها حتى في ظل هذه الظروف، ربما رضخت لواقع الأمور، تقبلت وجودها في حياة ابنها تبعًا لرغبته، تهاوى شيءٌ من الجدار القائم بينهما بوجود حفيدها.. لكنها أبدًا لن تقبل بها كزوجة يستحقها صغيرها.

لم تجد ما تقوله، هي نفسها غاضبة.. حانقة، خائفة.. أمانها الذي يتمثل في وجوده ينهار ببطء، ولا تدري ما التالي بعده!!..

أردفت المرأة أمام صمتها بسخط واضح:

- ما دام مش بتحبيه ابعدي عنه!!.. ابني هيضيع مني بسببك، كفاية بقى.

رفعت كفها تحاول توضيح الأمور، المشاكل تحدث في كل البيوت، كل زوجين لهما نوع خاص وهذا معتاد، فلمَ مشاكلها هي تأخذ حجمًا أكبر من العادي!

انفرجت شفتاها بهمسة لم تكتمل:

- أنا!

وقاطعتها بوجع ودمعة تخدش وجنتها.. فقبل كل شيء هي أمه:

- هترتاحي لما يموت زي جوزك الأولاني، عاوزة تموتيه!!

وكأن صاعقة ضربتها في صميم روحها.. كادت تفقد وعيها على إثرها لولا الصيحة الصارمة من خلفها:

- فريدة!!

صوت الأب المكلوم يهتز بألم، يستند للجدار بكفه ويصيح في زوجته، وجهه يزرق، أنفاسه تتسارع، وفي النهاية يسقط أرضًا بعنف صاحبه نداء ابنه المرتعب والقادم من بعيد.

******

لا أحد يعلم كيف مر الليل بطوله الذي يكاد لا ينتهي عليهم جميعًا!!

الأب جاور ابنه في إحدى غرف المشفى مصابًا بسكتة قلبية مفاجئة نتيجة الضغوطات التي تعرض لها مؤخرًا، وزوجها راقد في صمت لا يخرج من غيبوبته لكنهم نقلوه في الصباح لغرفة عادية.

أختها وأخوه منهكان تمامًا والأم تبكي أكثر، فقط الصغيرة "سارة" كانت هي الأكثر تماسكًا، تواسيها حينًا، تضم والدتها حين آخر.. وتتجول بينهم جميعًا بحنان غريب!.

دخلت للغرفة ببطء.. عيناها تتجولان فوق ملامحه الساكنة، تقترب ويبدو مع كل خطوة كأن المسافة تكبر بينهما، شعرت بالخوف من جديد، حتى عقلها يهيئ لها أسوأ الصور، تخيلاتها تثير رعبها تخبرها أنها تحيا المستحيل وفي نفس الوقت تكاد تضيعه مرات ومرات.

وقفت أخيرًا إلى جوار الفراش، تتشبع من سكونه.. ترسم ملامحه.. تحيطها بنظرات الشوق والحنين، ذلك الحنين الذي يذبحها من اليمين قبالة شكه الذي يجز عنقها من اليسار.. تيه، حيرة، ضياع انتهى بخوف من فقدانه ألجم باقي الأحاسيس.. وطغى هو ليعيدها إلى جواره بقلب واجم.

دارت بعينيها فوق خدوش وجهه وذلك الجرح الواضح فوق جبهته، مدت أناملها تتحسسها برفق، تناشده أن يفتح عينيه، فقط عد وسنتفاهم فيما بعد!

انحنت تلثم جرحه وتترك دمعة غافلتها تسيل على وجنته هو حتى اختفت فوق الوسادة.

تنقلت بتأملها لكتفه المدعوم برباط إلى عنقه فوق صدره العاري، وتجدد ألمها مع تلك الندبة التي لا تزول، أثر رصاصة غادرة قصدت قلبه، تحاول انتزاع الروح منه واقتلاعه هو من حياتها البائسة التي انتعشت بوجوده.

اتجهت نحوها بأطراف أصابعها، تطوف حولها وتدمع، تتلمسها برفق وتعتذر، تغضب وتثور وتحزن، تستجديه ليعود حتى تقتله بنفسها.. فقط

"افتح عيناك يا أحمق.. أحبك وأنت تعلم!"

وانحنت تحيطها بشفتيها في قبلة.. تعترف لها وتهمس بأنها أبدًا لن تنسى، تخبرها أنها تعشقه، وتعلم أنه يذوب في تتيمه بها، لكنه الجنون.. وسواس الغيرة النارية الذي يتملك منه، يسعدها ويخيفها، وقلقها من تغير قد لا يعود بعده ذلك العاشق القديم.

رفعت رأسها تتطلع إليه في صمت.. تدعو وتدعو، وتنتظر، علَّه يرفق بحالها، ويشملها بين جفنيه بنظرة تعلمها أنه بخير.. تتمنى وتبعث بأمنياتها نحو السماء، وتتناسى ألمًا تسبب فيه. فالآن.. اليوم وفي هذه اللحظة كل ما ترجوه هو عودته ولنترك العقاب لوقت لاحق.

رأت تحرك جفنيه بتشوش، تجمدت دموعها على أطراف أهدابها، تناظره بأمل وينبض قلبها بقوة تكاد تخرجه من بين ضلوعها ليلقي بنفسه عند قلبه هو.. مسكنه ومستقره، همست باسمه بترجي:

- أدهم!!

لاحظت الحركة المضطربة لجفنيه أكثر وهو يحاول فتح عينيه، يناديها بصوت ضائع وحلق جاف:

- جمانة!.. أنتِ هنا؟!

لم تكد تسمع صوته، انحنت نحوه تتساقط دموعها كشلال تناديه:

- أيوة هنا.. هاكون فين غير هنا!!.. حبيبي افتح عينيك.

يجاهد أكثر، ويراها من خلف غشاوة بيضاء قريبة، بأنفاسها الدافئة وابتسامة سعيدة تعانقها الدموع التي تغرق وجنتيها، يبحث عن كفها بيده فتلتقطها بين أصابعها وتربت عليها بحنان، تشهق بالعبرات وتناديه ثانية.. لكنه يغوص في عالم اللاوعي مرة أخرى بعد همسة أوجعت قلبها:

- ما تسيبينيش..

وغاب عن وعيه بما حوله وبها، جلست إلى جواره تعده دون أن يسمع:

- مستحيل أسيبك..

دخلت والدته للغرفة، فنهضت هي متعجلة، رمقتها بغضب لم يهدأ، لكن الانكسار يمنعها من معاودة تعنيفها، تكاد تشعر بالفعل أنها السبب.. ربما شرد فيها أثناء قيادته فوقع الحادث.. هي لا تعلم تفاصيله للآن لكنها تعلم أن لها يدًا خفية في حدوثه.

راقبت الأم تنحني لتقبل جبينه وتهمس في أذنه بشيءٍ ما..

ترى هل تخبره باحتياجها إليه؟.. عن مرض والده وغيابه عن الوعي هو الآخر!.. الأمر صعب، والخوف يزداد في كل حين.

******

"أبو كمال!.. التنفيذ هيتأجل يا كبير"

نطق "سالم" بهذه العبارة بصوته الزاعق ولهجة خائبة، نعم فتأجيل سيل الدماء لا يرضي الوحوش، وهو وحش ينتشي برؤيتها، وربما بمذاقها.. التفت إليه الآخر بغضب مفاجئ يسأل بينما يتجه نحوه متوثبًا:

- قصدك إيه هيتأجل!! ليه؟

وأمسك بياقة بذلته الزرقاء يجذبه منها بعنف، خلص نفسه من يده ببساطة ليجيب بحنق واضح:

- جوزها عمل حادثة عربية ومن ساعتها وهي معاه في المستشفى.

انتقل السخط إليه وعاد يصيح في وجه "سالم" بتعالي دون أن يأبه لفارق الحجم الكبير بينهما:

- ورجالتك اتأخروا ليه؟.. مش قلنا هننفذ من أسبوع!!

رد الرجل ببرود ينبهه من بيده مقاليد الأمور:

- جرى إيه يا أبو كمال!! مش خطة وبترسم، ومواعيد وبتتظبط ولا هو سلق بيض!!

رد بتكبر لا يليق بالمكان:

- وأنت بتاخد فلوس عشان تخطط وترسم وتظبط يا سالم، ومن زمان.. يعني وقت التنفيذ تبقى جاهز فوري، مش تقولي لسه هاخطط.

مال الرجل نحوه بأنفاسه المقززة المفعمة برائحة المخدرات:

- التخطيط من زمان يا باشا.. بس وقت التنفيذ لازم يتحسب صح، وإلا الخطة مش هتكمل.

تراجع خطوة، يدور حول نفسه في كمد، هو من كان ينتظر الخبر، يبحث عن الدماء، يكاد يتشممها وينتشي انتصارًا هذه المرة، لكن بحماقة وربما مناصرة القدر.. تأجل التنفيذ.

******

يكاد صدى حزنه ووجعه يصلها عبر هذه المسافة بينهما، هو الأكثر تأثرًا ودون أن يلاحظ أحد سواها، خوفه المرسوم على ملامحه يداريه بقوة ويكاد ينجح؛ لولا ارتعاش شفتيه وهو ينظر لوالده المستلقي في فراشه بضعف، نظرته المشتتة يبحث عن أنفاس تدخل وتخرج من صدره بانتظام!!

ومراقبته الصامتة الطويلة له دون أن يتحرك مقدار أنملة كتمثال متخشب من شعور الوحدة الممتزج بذكريات ماضٍ موجع.

مر يومان والأب على حاله من فقدان الوعي، الأخ يفيق بين حين وآخر دون وعي تام؛ لإصابته بارتجاج فعلي نتيجة سقوط أحد أعمدة الإنارة فوق السيارة بعد الحادث، وزوجته تلازمه وتكاد لا تغادر المكان إلا لسويعات للاهتمام بطفليها، أمه محتارة هي الأخرى بين الغرفتين، أما هو...

صامت، بملامح لا تدل على شيء، يطفو عليها من حين لآخر بعض القلق، لكن يغزوها التأمل وينقشها الانتظار..

لا تعلم ما به!!.. فقط غيابه عما حوله وإن كان واعيًا يقلقها ويثير حزنها.. تريد احتواءه ولا تدري ممَ!.. أو ما الذي يمكنها تقديمه!!.. بالتأكيد هو يخشى على والده، يتألم لأخيه، لكنه أيضًا يبدو تائهًا وحيدًا، يرفض اقتراب أحدهم منه.. حتى هي.

كان يجلس إلى جوار فراش الأب، خائف وبشدة، يحتوي يده الضعيفة بين كفيه كأنه يبثه جزءً من دفئه، من حياته وحيويته علّه يفيق ويعود إليه، يشعر أنه عاد ذلك الطفل اليتيم الذي يبحث عن داعم ولا يجد، وكلما حاول أحدهم دعمه قوبل بالصد، يحاول رسم القوة، يتشبث بتجلد لا يمتلكه، ويدرب نفسه من جديد على آلام ووحدة الفراق.

لا أحد يفهم أو يشعر بما يمر به الآن!!.. الكل يظنه مجرد قلق على أبيه، لكن الأمر أكبر من ذلك، القصة تبدأ منذ عقود، منذ أن كان طفلًا في الثالثة واستيقظ في يوم ما على خبر صعود أمه، ملاكه، حاميته إلى السماء ودون عودة، ويتزوج الأب وتأتي أخرى ولا ينال هو تعويضًا، بل مزيدًا من الضياع والوحدة.. ثم تنتهي بقهر.. قهر رجل ذاق مرارة الظلم، ولم يكن أمامه سوى الرحيل.

وتغرب، ابتعد، سافر وهاجر، وهناك كانت هي.. برقتها وحنانها وأمومتها الفطرية التي لم تبخل بها.. بكلها عليه، وظن أن القدر قد منحه أخيرًا رشفة من السعادة، من راحة يبحث عنها في كومة الآلام التي تغرق حياته..

وثانية يأتي الحرمان في المرتبة الأولى، الفراق بطعمه المر اللاذع الذي يجبره على فتح عينيه على الحقيقة، أنه مفارق مهما طال وقت العشرة.. فتموت الحنون بعدما عوضته عن يتمه وغربته ووحدته، لكنها لم تكن بخيلة في نهاية الأمر.. بل تركت له ثمرة فؤادها كذكرى تملأ كونه الصغير.

ويبتسم بوجع، تنشق شفتاه رغمًا عن كل شيء، ترسمها عنوة تمنع بها دمعة تلتمع في مقلتيه دون أن تسمح لها كرامته أو بقايا كبريائه بالهطول حتى لو احتاجها قلبه لقليل من الارتواء، عليه أن يسلم للقدر، يعترف ويقر بسطوته.. يرضخ لسلطته، هو رجل فُطِم على الفراق، وسيموت عليه.

شعر بتربيتة حنون على كتفه، رفع عينيه لصاحبة اليد وفيهما أثر من نظرته نحو أبيه، هالها ما رأت بين جفنيه.. تشتت وضياع غريب، كأنها تراه للمرة الأولى، هذا ليس زوجها المثابر القوي الذي يتحرك بآلية روتينية لا تكاد تخطئ في مرة، هذا آخر.. تائه، عيناه لا تستقران سوى على والده، وإن فارقتا وجهه تحتاران في مستقر.

جذبته تبعده لكنه تشبث بأبيه يرفض بوهن:

- لا خليني جنبه.

ردت بحزمٍ حانٍ:

- تعالى بس، سيبه يرتاح، مش هنخرج.

تبعها في استسلام أوجع قلبها أكثر، جاورها على الأريكة الكبيرة في ركن الغرفة، احتوت كفه بين أصابعها تمنحه دفئها وتهمس له تطمئنه عليه، تبثه شيئًا من حنانها قد يخفف عنه، ولا تدرك هل تملك ما تقدمه أم لا، فقط لو يفتح قلبه أو يخبرها ما به!!

ضعفه الغريب أشعرها هي بالضعف ولم تقاوم، بل لمَ عليها أن تقاوم!!.. هو زوجها قبل أي شيء، يحتاجها، وهي ستدعمه حتى دون علم بماهية احتياجه، وقفت على إحدى ركبتيها فوق الأريكة واعتمدت بقدمها الأخرى على الأرض، اقتربت منه وضمت رأسه لصدرها تهدهده بحنو لعل الأمان يتسرب إليه، قلبه يهدأ ويطمئن.. وتدعو الله أن يهدأ باله ويستريح قلبه.

******

لقاء الشر على طاولة اجتماعات الجحيم، مناقشات شيطانية مطولة، صفقات بلون الدم، وشراكة مسممة ضحيتها لا ذنب لها سوى وجودها في حياة هذه الأفعى بشكل أو بآخر.

هاتفته، أعطته أمرًا واجب التنفيذ بالحضور، وهناك قطعت كل الأوردة وأسالت الدماء حتى آخر قطرة، وضعت أمامه مفتاحًا غريب الهيئة، وهمست بفحيح:

- أظن الظروف دلوقتِ مناسبة للتنفيذ يا تيام، مشغولين بمليون حاجة، وما حدش هيركز لحد ما نوصل للي عاوزينه.

نظر للمفتاح بتساؤل وقلب وجل، قربته منه بدفعة وتكمل بلهجة تغوي الشيطان بنفسه:

- ده مفتاح شقة في التجمع، عمارة جديدة صاحبتها بتأجرها مفروشة بالليلة لأصحاب المزاج، من غير بيانات أو أسماء أو تفاصيل، المهم تقبض التمن.

مد أنامله يلتقطه كأنه يمسك بجمرة، تردد بتمتمة حائرة:

- يعني ما حدش يقدر يوصل للي أجر المكان نهائي؟!

تراجعت تبتسم بانتصار:

- مستحيل.

رفع عينيه إليها، خلف نظرة الموافقة لمحت قلقًا ما، أجهضت ولادته بسرعة تغويه أكثر:

- نفذ زي ما اتفقنا، بس ما تفكرش كتير، وطبعًا من غير ما تعرف هي كانت مع مين!! خلص وابعت لي الصور، وكل ما قل عدد اللي يعرفوا كان أمان ليك أكتر.. هاستناك يا تيمو، أنا واثقة فيك، وعارفة إن دينا مش هتنسى لك أبدًا إنك انتقمت من اللي كسر قلبها وكان السبب في كسرها.

وضغطت بقوة مناسبة عند نقطة الضعف المطلوبة، جاوب ببريق عينين شرستين، وصوته معبأ بشر لا سبب له:

- هانتقم لها.. استني مني الصور قريب قوي.

ونهض يغادر، ومع كل خطوة يبتعدها كانت ابتسامتها المنتصرة تتسع وتتسع حتى شملت وجهها كله، تضفي عليه لمحة شيطانية دموية مع نظرتها اللامعة بفوز ستحظى به قريبًا.. ولتتساوى الرؤوس سيدة "فريدة".. ثم حينها نتقابل ونرى من سيدفن في الوحل!!

******

تتأرجح بين السعادة والحزن.. الأمل والألم، لقد عاد الحبيب ومعه عادت الذكرى، ما بين إغماءة وأخرى يفيق متشبثًا بها، مناديًا باسمها، تستجيب

بحب، وكلما اقترب موعد عودته التامة لوعيه يتراجع الحب، ويظهر الغضب.

مرت أربعة أيام، والده استفاق بالأمس لكنه رغم ذلك لا يزال طريح الفراش، لا يقدر على الحركة براحة، وها هو أمامها الآن، عاد لوعيه.. وعاد معه انكسارها غير القابل للترميم بسهولة.

لاحظ شرودها عبر النافذة، لا تكاد تنظر في عينيه، همس باسمها فالتفتت إليه، مد يده إليها.. تطلعت نحوه في صمت للحظات، ناداها مجددًا فاستجابت، ناولته كفها فقبض عليها برفق وجذبها لتجلس إلى جواره، لم تنظر إليه وكان هو يتقلب فوق الجمر.. يحترق، يرغب في اعتذار، يريد قربها ولا يملك من الأمر شيئًا، ويتردد اسمها فوق لسانه بهمس حائر لترفع عينيها إليه، ابتسم بارتباك:

- جمانة.. أنا...

وكأنما فهمت أنه سيعتذر.. وضعت أناملها توقف شفتيه، توقف أي حرف قبل يصعب الأمور أكثر:

- ما تقولش حاجة.

أبعد أصابعها يصر على الحديث فأوقفته ثانية بحزم أكبر:

- الكلام مش كفاية يا أدهم.. ما تقولش حاجة.

وسحبت كفها منه لكنه تشبث بها قبل أن تنفلت تمامًا من بين أصابعه:

- ده مش وقته، المهم تخلي بالك من نفسك، وتقوم بالسلامة.

تردد ثانية ثم سأل بسرعة كأنه يخشى أن يجبن فيتراجع:

- ولما أقوم.. بالسلامة، هنرجع البيت سوا؟!

كادت تجيبه ب-"لا".. جرحها لم يندمل حتى ليعتقد أنه برأ تمامًا ويمكنه العودة، متى سيتعلم ويسيطر على غضبه وغيرته غير محمودة العواقب؟!

طال صمتها لكنها همست في النهاية:

- قوم بالسلامة وسيب كل حاجة لوقتها.

وكان الرفض أوضح ما يكون، هي لم تسامحه، وليس معنى وجودها إلى جواره أن الأمر انتهى!!..

لقد آذاها وبشدة، وعليه تحمل نتائج عشقه الممزوج بهوس حوله لمخبول يطوف في مدارها، عليه الصبر ومنحها الوقت اللازم لتسامحه، أو حتى تسمع اعتذاره وتتقبله، ومن ثم بعدها.. قد تعود إليه.

عم الصمت، لا ترغب في الحديث وهو لا يجد ما يقول، فقط يحتوي يدها بين أصابعه ويرفض التخلي عنها وتركتها هي له في استسلام، وصلهما طرقات متتابعة على باب الغرفة، ثم انفتح ليظهر خلفه طبيبه المتابع لحالته.

جلس باستسلام فوق الفراش يخضع للفحص، تتأمله من خلف الرجل، وتفكر.. هل ستسامح الآن، وينتهي الأمر؟!.. هل تمرره ببساطة؟!..

لكن الطعنة قوية تنزف لها للآن.. والوجع لا يتوقف، والأفكار في حرب مشتعلة بين ثنايا عقلها الذي يكاد ينفجر.. حتى قلبها العاشق: حزين.

أما هو فيرميها بنظراته، أحيانًا يملأها القلق، وأخرى تتعلق بأهداب الأمل، انتهى الطبيب ثم تكلم بلهجة عملية وإن كانت غاضبة بعض الشيء دون سبب مفهوم:

- قولي يا باشمهندس.. الفترة اللي فاتت كان بيجي لك دوخة أو رعشة أو فقدان شهية؟!

تطلعت إليه بدهشة مستغربة!

أخفض هو رأسه وقلقه يشتعل، أجاب بخفوت متردد:

- يعني شوية، بس غالبًا كان إرهاق من الشغل.

رد الطبيب بخشونة ولهجته عاتبة:

-- إرهاق إيه يا باشمهندس بس!.. حضرتك عندك نقص حاد في فيتامين ب١٢ والحمد لله لسه في البدايات، يعني مع الأعراض وتكرارها كان طبيعي تهتم وتروح لدكتور، مش تكبر دماغك!!.. لو العلاج اتأخر كان ممكن لا قدر الله يبقى له مضاعفات خطيرة على صحتك.

ثم استدار إليها يعاتبها هي الأخرى:

- وأنتِ يا مدام، هو مش مهتم بنفسه مش معقول ما لاحظتيش إنه مش بياكل كويس أو وشه أصفر مثلًا!

وأتى دورها لتخفض عينيها أرضًا في خجل، هو لم يظهر عليه شيء.. أو ربما هي من لم تلحظ أو تهتم!!.. لقد قصرت في حقه بالفعل، ولم تكن تعلم..

وهو!.. لم يشتكِ ولو لمرة، عادت ترفع نظراتها لتلتقي بنظراته بينما ينهي الطبيب فحصه، يطمئنه ويغادر.

ويسيطر الصمت من جديد، يستعيد حديث الطبيب، هل يتنفس ارتياحًا.. أم يطلق صيحة فرحة!!.. الأمر كان أبسط بكثير مما هيأ له شيطانه ووسوس في عقله به، هو لن يموت.. على الأقل بمرضه المجهول، لقد ترك للخوف ومشاعر الغضب وغيرته غير المقننة لجام السيطرة، ألقاه على الغارب والنتيجة كانت قاسية، حادة وعنيفة حتى كادت أن تفرق بينهما!!

ترك لأنفاسه راحة الخروج بتنهيدة صعداء تعبر عن طمأنينة تقتحم مرفأ رعبه السابق وتستقر فوق مينائه تمنحه الأمل بقوة وصلابة.. نعم هو بخير، مرضه ليس خطيرًا، وهو أحمق جبان ترك لخوفه تسييره والتحكم فيه.. لكن الأمر انتهى الآن وهذا هو المهم.

أما هي!.. ففقط تشعر بالغضب.. غضب ناري امتزج بخوفها السابق وشعور بالذنب يهلكها..

لقد أهملته بالفعل، قصرت في حقه، وهو اكتفى بالصمت وكتم أوجاعه بل والاحتفاظ بها لنفسه دون أن يشركها في ألمه كأنها غريبة عنه..

ترى كيف كان يفكر فيها وقتها!!.. أنه لا يهمها؟ أنها لا تحبه بما يكفي لترى ما يمر به؟.. أنها تتشاغل عنه بطفليها أو ربما حتى طفلة غريمه الميت الذي تؤرقه ذكراه في كل حين!!..

وهكذا إذًا.. يبني بداخله غمامة سوداء ألقت بظلها على قلبه وردود فعله، فتضاعف على إثرها غضبه وجنونه!!.. لم تستطع أن تحجم انفعالها الحارق بهتاف ذو نبرة مختلطة غريبة:

- تعبان وما قلتليش!!

تأملها، يحاول فهم ردة فعلها العصبية..

هل يلومها؟!.. نعم بعض الشيء..

هي لم ترَ ما به، الوحيدة التي لم تفعل!!.. فلمَ لا يلقي عليها ببعض اللوم.؟.. يغتاظ منها، أو حتى يحزن لذلك؟!..

والآن تغضب وتثور!.. لمَ تثور؟ ليس من حقها بل من حقه هو، أم أنها تصدح بغضبها قبل أن يجاهر هو بلومه!!

لم يرد أن يتحدث في الأمر، لقد اطمئن قلبه أخيرًا، رغم أنه يسب عقله على دوامة الوهم التي أدخل نفسه في تفاصيلها دون تأكيد بسيط، لكنه انتهى وعلى خير، والرد كان بلهجة باردة غامضة:

- ما تاخديش في بالك.. كنت فاكره مجرد إرهاق عادي!

تهدلت أكتافها كأنها تريد الاعتذار لكن غضبها السابق يحجب نطق الكلمات، ولم تجد بدًا من هجوم غير مبرر تعلنه لسبب مفتعل لا يقترب من الحقيقة في شيء:

- ما آخدش في بالي!!.. ده ردك؟ ما هو طبيعي.. أنا بالنسبة لك مجرد متلقي، هتسمع منه أو تشاركه في حياتك ليه ما دام بتسيطر عليه وعارف إنه مش هيروح بعيد.

لم يفهم ما تعنيه!!.. هل تلومه على مرضه الآن وإخفائه عنها؟.. أم تعنفه لأمر آخر!! نظر لها في تساؤل أغضبها أكثر:

- أيوة.. تفاصيلي أنا بالنسبة لك أمر واجب التنفيذ لكن حياتك أنت وتعبك الرد الجاهز ما أخدش في بالي، بتتحكم في كل حاجة تخصني وأنت مش عاوز تشاركني حتى في همومك.

ولم يفهم ثانية!!.. هل خوفه عليها ذنب الآن؟.. شيء خاطئ ينبغي أن يعاقب عليه!! تغاضى عن الأمر، حتى وإن شعر بشيء من الحزن لأنها لم تنتبه لأمره أو تعتني به بما يكفي:

- جمانة.. أنا مش بالومك على حاجة.. كان مجرد تعب وإرهاق وخلاص.

فتحت فمها لترد، لكنها انتبهت لما قال.. يلومها!! هل يفعل؟ نعم لقد نفى أنه يفعل، والنفي إثبات بالدليل بالقاطع.. لكن ذكره له يدل أنه بقلبه بقايا ألم..

احتارت في رد فعلها، تشعر أنها محشورة في زاوية قاسية.. قصرت في حقه وواجبه عليها واهتمامها به وربما الثمن الذي ينبغي دفعه الآن أن تتغاضى عن شكه وتعلله بمرضه وتحاول تعويضه والقبول بالرجوع إليه.. وبنفس الوقت روحها المقهورة وشيء من الكرامة تمنعانها من الرضوخ.. فليس هذا هو الثمن المطلوب.

هو يكاد يشعر بما تفكر فيه، تعتقد أنه يضغط عليها بمرضه الذي لم تنتبه إليه.. هو لا يفعل؛ لكن لو فعل!!.. هل ستقبل؟ ما يهمه الآن هو أن تعود إليه، معه، له، تصفح وتسامح.. وتنسى.. لذلك حاول طمأنتها بهدوء أن الثمن لن يكون هي:

- ممكن ما تفكريش في الموضوع!!.. أنا الحمد لله دلوقتِ وده المهم.

ولم يطالب بشيء أو حتى يمنحها نظرة تدل على ذلك..

هل أراحها!! ربما..

أغضبها!! كثيرًا..

هل كانت تريده أن يحارب قلبها ومشاعرها بطرق ملتوية لتعود إليه!!..

رباه لقد جنت بالفعل وهو السبب.. لايزال يتعلق بأذيال الماضي الخائب ويفكر فيه دون أن يعلم بحالها الآن، اكتفت بإيماءة صامتة ونظرة مشتعلة ابتسم لها بمرح وسعادة خفية ترتسم على ملامحه، أما قلبه فيردد بخشوع: "الحمد لله"

******

لعبة ماذا لو؟!

رائعة للغاية.. فإن كنت تستطيع بها تغيير الماضي في خيالك..

فماذا عن تحقيق أمنيات المستقبل!!

ماضيها مهما حاولت لن يمحى.. لن ينسى، لن يتلاشى من الوجود لمجرد رغبتها في ذلك.. أو حتى تمنيها له!!

إذًا.. ماذا لو تجاهلته؟ تناسته؟ فكرت في الغد!! وحلمت به أفضل..

طيلة الفترة السابقة لم يكتفِ بالمطاردة فحسب.. بل بدأ يصرح بمشاعر غريبة، نعم تستغربها وبشدة، ربما لأنها تصدقها.. سمعت مثلها الكثير، لكن هذه هي المرة الأولى التي تخترق دفاعاتها الواهنة وتسيطر على حصون خوفها فتدكها بعنفوان.. تمحوها فتصدق، تنتصر فتشعر بالأمان والطمأنينة، وتتمنى أن يأتي الغد.. أفضل.

تعددت اللقاءات، خلال كل لقاء تشعر بنفسها تتيه في دنياه هو، في زرقة عينيه وابتسامته التي تحمل لمحة ماكرة على الدوام، لا تخيفها.. هو لا يخيفها، حتى مداعباته التي تزداد جرأة بصحبة نظراته التي تتفحصها دومًا برضى، كلها تشبع أنوثتها وترضيها عن نفسها كما لم يحدث من قبل.

سمعت رنين الهاتف معلنًا عن رسالة.. ابتسمت، هو يراسلها يوميًا مرتين، يلقي بتحية الصباح فور استيقاظها كأنه بات ليله يراقبها ويعلم متى فتحت عينيها!! وقبل نومها يتمنى لها أحلامًا سعيدة..

رباه!.. كم تتمنى هي الأخرى لنفسها تلك الأحلام، لكن نومها مليء بالكوابيس، بالخوف والقلق والرعب، ليس من ماضٍ مظلم تخشى أن يعلم عنه شيء.. ولكن أيضًا من أذياله التي تطاردها للآن.

"طارق" لا يتوانى عن تذكيرها بحضوره هو الآخر، كأنها ستستسلم له في نهاية الأمر مهما رفضت أو ماطلت أو عاندت!!.. يدفع مقدمًا رعبه المتمثل في هلاكها ونهايتها، مشيرًا لكونها ستخضع له مهما طال الوقت.

دخلت والدتها للغرفة بشكل مفاجئ أغاظها، تقاطع أفكارها أو حتى بحثها المضني عن عالم الأحلام الوردي، بادرتها دون مقدمات:

- أنا عملت توكيل لأونكل رشدي عشان يدير نصيبي في الشركة بدالي يا دينا.

انتفضت جالسة في فراشها تشهق بعنف وتكاد تصرخ:

- إيه!! توكيل إيه يا ماما؟!.. أنا قلت ما حدش هيدخل شركة بابا غيره أبدًا.

ردت والدتها ببرود:

- أنا قلت نصيبي، وأنا حرة، هو محتاج الشغل ده وصدقيني هيساعدك لأن عنده خبرة أكتر منك بكتير. خليكي لطيفة معاه يا دينا وإلا هيبقى لي تصرف تاني.

هذه المرة صرخت بالفعل:

- لطيفة!!.. آخر كلام يا ناريمان هانم.. شركة بابا هتفضل بتاعته وبس، ولما أقدر أجهز سيولة هاشتري نصيبك منها.. إنما تجيبي لي شريك مكان بابا.. لأ.. مش هيحصل أبدًا.

انحنت والدتها نحوها، تربت على كتفها برقة مصطنعة وتنهي الموقف بقرار أخير:

- الموضوع انتهى يا حبيبة ماما، اعتبريه زي باباكِ.. مش فاهمة أنتِ إيه مشكلتك معاه!!

وعادت تهتف بغضب يزداد شيئًا فشيء:

- ما عنديش مشاكل معاه ولا مع غيره، بس شركة بابا لأ.

عقدت الأم حاجبيها هذه المرة تعلنها بوضوح وصراحة وحزم آمر وتنهي الموقف:

- نصيبي ما يخصكيش يا دينا، الموضوع انتهى والتوكيل اتسجل.

شعرت بالعجز، تود الصراخ ثانية، لقد تعبت، اكتفت، لم تكد السعادة تتسلل لحياتها من ثقب ضئيل حتى عادت والدتها بكل تجبر.. تسد الثقوب، وتشرك غريبًا في أموال والدها التي تشقى هي لتحافظ عليها.

خرجت الأم دون إضافة المزيد من الكلمات، أمسكت بالهاتف تنتظر لرسالة "مراد" الأخيرة.. وأمنيته الوحيدة التي يتمناها لها كل ليلة، وهذه المرة دمعت عيناها تتوجع من حلم لن يتحقق، وضعف يكتنفها يشعرها بالعجز والضياع.

(١٨)

احتياج

لعبة القلوب ليست بهينة..

أنت فيها إما خاسر أو رابح، لا بين بين..

قد تصعد بفوزك نحو السحب، وقد تُخسَف بك الأرض عندما تخفق..

لكن الأكيد في الأمر..

أن الهزيمة موجعة، والألم مضنٍ، ونتائجه غير محتملة..

عليك تقديم الكثير؛ حتى تنال ما هو أكثر..

والدافع موسوم بعشق.. والغاية أسمى من كل وسيلة..

فقط احذر!..

فما يزيد عن الحد..

ينقلب إلى الضد..

وعندها تتحول الخسارة لواقع ملموس، لا تستطيع الخلاص منه..

لكل لعبة أسس وقواعد..

لذا؛ فعليك في كل مرة السير وفقها.. قد تطول البداية، تثير لديك الملل، لكن متعة الفوز النهائي تمحو ما سبقها من هزائم.. أو معوقات.

وليس كل ما يتمناه يناله بطريقة شريفة.. هو فقط عليه أن يدركه، ففي النهاية.. كل الطرق تؤدي إلى روما، حتى لو كان طريقه الذي سلكه ممهد بالخديعة ومحاصر بسياج السرقة المشروعة.

تخلص من التصاقها به، يود لو يتخلص منها تمامًا لكنه لا يزال يخطو أولى خطواته وعليه التزام جانب الحذر حتى لا يتعثر فتضيع الصفقة..

أمسك بهاتفه واتصل بالرقم الذي يعلم أن حبل مشنقة مستقبله معلق في يد صاحبه، أتاه الصوت الجامد بكلمة وحيدة تجيبه، تردد لثوانٍ ثم ابتلع لعابه بعسر، سحب عدة أنفاس قبل أن يهمس بخفوت وأذنه تسترق السمع تراقب خطواتها:

- أيوة.. أنا رشدي غانم... كل حاجة تمام والتوكيل اتوثق خلاص.. هابقى في الشركة من بكره والأسهم هتبقى في جيبك.. لا كله متخطط له مظبوط جهز لي أنت بس الناس اللي هتشتري وسيب الباقي عليَّ.. زود العدد على أد ما تقدر مش عاوزين العيون تاخد بالها مننا.. تمام، كله هيبقى تحت أمرك في الآخر وما تنساش نسبتي!.. بالنسبة لك ده مجرد شيء بسيط.

أنهى المكالمة الموصومة بالشك بابتسامة تشبعت بالانتصار، نعم نسبة من بيعة غير قانونية في الخفاء تتخذ من الشرعية غطاءً في العلن، وذلك بخلاف ما سيحصل عليه من ثمن فيها..

أخيرًا ستضحك دنياه له ويحيا كما يريد.. أخيرًا سيحصل على نصيبه الذي اقتنصه من بين فكي الأسد كما يقولون بعدما دفع الثمن.. بعدما تزوج من متصابية تكبره بأكثر من عشر سنوات، ليحرق أعصابه في كل مرة يكون فيها بالقرب منها.

وعلى ذكر الشياطين.. فهي تحضر دون ترتيب مسبق، وعندها تغيب الملائكة، حتى لو كانت من الجحيم.. تتدلل تبغي رجولته، وهو يمنحها إياها بكرم، يتخمها ويسكر عقلها عن مخططاته فيخرجها من الباب الخلفي بأمان.

اقتربت منه بابتسامة:

- كنت بتكلم مين؟

والأمر هنا يحتاج مناورة، أو ربما مراوغة تخرسها وتحبس أنفاسها فينتهي الاستجواب قبل أن يبدأ:

- مكالمة شغل.

والتالي قبلة، فتعلُق منها.. نهاية بفراش يدخله من باب الواجب الوطني، فالغاية كبيرة.. وكل وسيلة متاحة لا تحتاج لتبرير.

******

لا تقتصر الأوجاع القاتلة على الجسد فقط، فرغم كل شيء، وجع قلبه أكبر..

أكثر إيلامًا لكل بقعة في روحه التائهة دونها..

هي لا تتدلل هذه المرة، بل تعاقب وبقسوة..!

نعم هو يستحق، لكنه يطمع.. والطمع في هذه الحالة مباح إن كان الدافع عشق.. وإن كان الوعد بعدم التكرار قائمًا في حيز التنفيذ.

ربما لو كان هنا وفي هذا الحين أكثر اقتحامًا، بسالة وشجاعة، محاربًا في وغى معركة حب يعلم أن الخروج منها إما منتصرًا أو منتصرًا فلا خيار آخر!!.. لكان الآن معها..

لكنه وكما في كل المرات السابقة، يدلل قلبها، يداعب مشاعرها، ويمنحها الحق في كل الوقت الذي تحتاج إليه ويستطيع هو منحه ، حتى لو كان لا يملكه..

الشوق يقتله، والخوف يثير كل قلق ممكن في خلايا مخه التي تكاد تنهار من تفكير عقيم سابق بفراق وموت، وحالي بفراق وموت أيضًا.. لكنه هذه المرة

من نوع آخر.. نوع ينبض فيه القلب برتابة، يعمل فيه العقل بروتينية، ويتحرك بآلية تلقائية.. فقط الروح تموت رغم أنها لم تغادر الجسد.

محاولة التغيير الآن غير مجدية، هي لم تعتد منه حدة الهجوم المشاعري، دومًا ما كان يشاغب قلبها برقة وحنو حتى ناله، نعم هو ناله لكنه بحماقة.. يكاد يفقده..

والآن عندما يحاول التفكير بجدية في تغيير تكنيكه الهجومي والدفاعي، سياسته في تناول الأمور بينهما، يجد أن الأمر معقدٌ أكثر مما ينبغي، فلا الدلال يجدي، ولا السيطرة والتسلط هو الحل!.

هو ملعون.. ملعون بحبها، يشتاقها، دفء أحضانها، لمسات أناملها الصغيرة الناعمة، وهمسات شفتيها باسمه، بحبه، بنداء تبغي بعده القرب..

وعلى هذه الحال فهو يخطو بقوة نحو خبال ظن أنه تعافى منه سابقًا لكنه فقط يسري في دمائه.. كما أدمنها هي بالضبط..

"للدرجة دي مش حاسس باللي حواليك؟!"

انتفض بدهشة يرفع عينيه نحو شقيقته التي تشاغبه بكفها تحركه أمام وجهه وتهتف بشقاوة، ابتسم لها فجلست إلى جواره على الفراش تربت على ساقه الممددة براحة وتغمغم متسائلة بحنان:

- ليه ما روحتش بيتك؟

تنهد.. أو زفر بحرقة، الهام في كل الحكاية أن صدره يكاد يشتعل، لكنها لم تتح له راحة الجواب بعد تفكير، بل عاجلته تقتنص شروده وتحاول مداواة حزنه:

- مش هتقولي أنت وجمانة متخانقين ليه؟

نظر إليها وهذه المرة بعينيه تعنيف.. هذا الأمر لن يخوض فيه مع أحد، لكنها لم ترتدع، بل تحدته بنظراتها اللامعة، تجيب على سؤال لم تسأله:

- مش عاوز تحكي طبعًا، واضح إن الموضوع كبير، ومش عاوز حد يقولك إنك غلطان!

زجرها بخشونة:

- سارة!!

وغير الموضوع بسرعة يشغل ذهنها بما يعلم أهميته لديها:

- بابا عامل إيه دلوقتِ؟

رفعت حاجبًا تستفزه به أكثر، فعقد هو حاجبيه، وربما تخبره أنها تدري بنيته وستجاريه فقط لتريحه:

- الحمد لله.. مرتاح في أوضته، بس واضح إنه زعلان مع ماما!!

وهزت كتفيها لا تعلم ما به هذا المنزل وأهله!!

عاد يتنهد ويسأل باهتمام:

- ما تعرفيش هو حصله كده ليه أو إزاي؟

أجابته بهزة كتف أخرى:

- لأ.. ما كنتش موجودة وقتها، بس أعتقد آدم ممكن يكون عارف.. ابقى اسأله.

فكر لثوانٍ ولم يرد..

"ترى ما الذي حدث؟"..

يكاد يجزم أن غضب أبيه من أمه يرتبط بما حدث له بدرجة كبيرة، صحته كانت على ما يرام لولا الوعكات الطفيفة التي تداهمه من حين لآخر، لكن الآن الأمر أكبر مما تخيل، وهو يخشى عليه بشدة.

شعر بيدها تربت على ساقه مجددًا بينما تنهض بابتسامة مهتمة:

- أدهم.. أنا عارفة أنت أد إيه بتحب جمانة وهي كمان بتحبك.. ما تخليش أي عقبة تقف في طريق الحب ده، لأنه يستاهل منكم أنتم الاتنين تحاربوا عشانه.

وانحنت تقبل مقدمة رأسه، والدهشة تحل محل كل المشاعر الأخرى بداخله، متى كبرت صغيرته لهذه الدرجة؟!!.. بل وأصبحت تنصحه بخصوص زواجه، وتحنو عليه كأمه!!

مع رحيلها، تعلقت عيناه بالباب الذي أغلقته خلفها في هدوء، ثم عاد يدور في دوامة لا تنتهي، دوائر متكررة بعدد غير معلوم، وهو محبوس في المنتصف..

يجاهد لفتح منفذ يقتنص منه عفوها.. دون أن يضغط أو يحارب أو يلوم، العودة ستكون عندما يصفو قلبها، أو على الأقل عندما تمتلك القدرة على سماع اعتذاره.. وعلى تقبله.

ثم يعِد نفسه بعدها بمحاولة التأقلم على كونه ليس الرجل الوحيد في هذا العالم، وأن زوجته ستشملها العيون رغمًا عن أنفه، فعليه ضبط النفس، والمحافظة على مستوى الغيرة في الدم بدرجة لا توقف قلبه.

******

وكما حاله.. حالها هي الأخرى لا يسر، قلبها يلعن قسوتها ويسب عقلها، يخبرها أنها مخطئة، أن العقاب متاح في القرب، وربما يكون أشد قساوة..

وتبتسم في شجن.. لكنه الآن بعيد..

ويعود القلب فيهدد بالتوقف ويلوم بعنف.. وتتنهد..!

لقد غادر المشفى اليوم بعد أسبوع مر عليه مستلقيًا فوق الفراش يدعي المرض أغلب الوقت ليحصل على دلالها، وهي لم تبخل به لكنه لم يكن بنكهة العاشقة التي اعتادها، بل كان جافًا خشنًا، لا يروي العطش، ولا يقتل بنفس الوقت.

لقد قصرت سابقًا ولم تنتبه لتغيره، لمرض يكتنف جسده ويضعفه، ويأتي في النهاية ليخبرها أن لا لوم، لا عتاب ولا حتى غضب، يمرر الموقف بسلام، وربما في ذهنه مقابلًا ما؛ أن تمرر موقفه هي أيضًا، وتتغاضى عن ذبحه لها..

لكن هل يمكنها؟!.. هل تستطيع أن تعتذر عن إهمالها بهذه الطريقة!

وتعود فتبتسم.. تتذكر نظراته التي ترتجي مسامحتها في كل لحظة، ومشاغباته التي لم يتوقف عنها؛ فهذه عدلي لي الوسادة ويهمس بدفء أنفاسه "أحبك" في أذنها.. لا يعلم أن الهمسة تقع في أعماق قلبها دون المرور بحاسة أخرى، وتلك رأسي تؤلمني، ويحصل على تدليك خاص من أصابعها، تتعمد إنهائه بقوة يتأوه لها، والأخيرة عندما كانت تساعده في ارتداء قميصه استعدادًا للرحيل، فيعلو صوته متألمًا، يستند إليها بذراعه الحرة، ويدعي الضعف.. فلا تجد بدًا من مساندته ودعمه ويستغل هو الوضع أكثر فيكاد يضمها إليه.

تلك المناوشات تداعب قلبها بلطف كما اعتادت منه..

لطالما أحبت طريقته في حبها.. فقط في البداية، عندما كان رقيقًا مرحًا عابثًا، لكن عندما دخل العشق مرحلة السواد وسيطرت الغيرة على لجامه، انقلب السحر على الساحر، وتحولت حالة الشغف التي تاها فيها لطوق يكبل عنقها وفي بعض الأحيان يحبس الهواء عن رئتيها..

قيد حريري ناعم، لا تريد الانفلات منه، وفي نفس الوقت استسلامها له يهلكها أكثر وأكثر..

تحركت تضع صغيرها في فراشه، خرجت من الغرفة بهدوء تبحث عن والدتها التي استقبلتها ببسمة حانية تفتقدها دومًا، جلست تجاورها على أريكة ضخمة، ثم وضعت رأسها فوق فخذها كعادتها، وتلقائيًا تحركت كف الأم تربت على خصلاتها بدفء رتيب.

بدا عليها التردد قليلًا، لكن لا مفر من الحديث، بادرتها بلهجة هادئة:

- هتعملي إيه مع جوزك يا جمانة؟.. هتفضلوا بعيد عن بعض كده؟

اعتدلت جالسة تناظر أمها باستغراب، فهي منذ علمت بالأمر كانت تلتزم الصمت تواسيها به، ولا تخوض في تفاصيل تعلم أنها تؤذيها، ابتسمت لها والدتها تنتظر الجواب الذي أتاها مترددًا:

- مش قادرة أسامحه ببساطة يا ماما، سيبك من كل الكلام الكبير بتاع الأخلاق وإزاي تشك وتفكر وأنا ما أعملش كده.. دي حاجة بديهية، لكن

كمان تاعب قلبي إنه مش حاسس بحبي، على طول بيقارن بينه وبين حسام الله يرحمه، ودلوقتِ دخل الشك في المعادلة، شك إني ممكن أخونه!

أمسكت الأم بكفها تربت عليها وتهدئ من ذلك السعير الواضح لهبه في عيني ابنتها:

- جمانة.. أنا عارفة وأنتِ كمان عارفة إنه مستحيل يفكر إنك بتخونيه.. وعارفة كويس هو بيغير أد إيه!!.. الموضوع كبر منه بس بسبب حبه ليكِ، ويمكن كمان بسبب مرضه اللي ما أخدتيش بالك منه!!

وفي لهجتها تأنيب أخجلها، تنهدت توضح أكثر:

- أنا مش بابرر له اللي عمله لأنه مش سهل ولا بسيط، ولازم يعرف حجم الغلطة دي كبير إزاي!!.. بس أنتِ كمان ما تحمليش الموقف فوق طاقته، أنتِ أكتر واحدة فاهماه، وعارفة إن كل تصرفاته بدافع واحد بس.. الحب.

وضمتها إليها تقبل رأسها تكمل بفهم:

- علميه إزاي يحبك.. لو طريقته بتتعبك أو بتخنقك، فهميه الطريقة الصح، كلنا عارفين إنه مجنون بيكِ، سيطري على الجنون ده وخليه لصالح حياتكم مع بعض وبس.. ما تبعديش عنه، عاقبيه بالطريقة اللي ترضيكِ بس من غير بعد، في البعد قلبه هيتكيف على الفراق.. وده مش في مصلحتك أنتِ يا بنتي.

وربتت فوق شعرها ثانية ثم نهضت وتركتها لأفكارها..

هل يمكن أن يتكيف على فراقها بالفعل؟! هل سيتعايش قلبه مع غيابها وينطفئ الوهج المشتعل بينهما منذ اللحظة الأولى؟!! هل يمكن أن تخمد نيران حبها التي تشمل كيانه كله كما تعلم عن يقين.. وتتحول لجليد يجمد قلبها هي الأخرى!!

نفضت رأسها بقوة تطرد منها تلك الأفكار المخيفة حد رعب زلزل روحها، تجاهد بشدة حتى لا تهاتفه وتأمره بالعودة الآن وفورًا..

هو مخطئ بتقدير امتياز لغباء يتملك منه حين يغار.. وهي تريد أن تسامح وتعاقب بطريقتها.. لكن الكرامة تأبى والكبرياء مجروح، وخليط الخوف والشك يعمي عقلها عن أي مبرر يختلقه القلب.

******

الأمر قد يحتاج لوجهة نظر مغايرة، أكثر شمولًا وعقلانية، وربما لأنها شاهدت بعينيها ما حدث، هل هي تبالغ!! أم أن الحق يناصرها بالفعل!

هاتفت شقيقتها، وحادثتها، لم تبدُ الأخرى بذهنٍ صافٍ، فلديها مشاكلها التي يزمجر بها عقلها دون الحاجة لمزيد مما يخصها، انتهت المكالمة دون فائدة تذكر، فأسلمت نفسها للنوم تريح رأسها الذي يوشك على الانفجار.

وبالفعل، "لمياء" ليست خالية الذهن هي أيضًا لتمتص أوجاع شقيقتها وتحاول مساندتها في هذه اللحظة، لديها الكثير لتفكر به، الكثير من الحيرة تغمرها وتربك عقلها، والأكثر.. من حزن، لأنها تريد أن تمنح زوجها راحة لا تدري كيف!!.. ولا تعلل على أسبابها التي تجهلها.

تنهدت تفرغ القليل من كبت الأيام السابقة، مشكلة بينهما هي الأولى لم تنتهِ للآن بشكل كامل، بقيت معلقة بسبب حادث أخيه ومرض والده، وهي لن تناقشه في الأمر في الوقت الحالي، لم تفهم موقفه حينها ولا تفعل حتى هذه اللحظة، وربما حتى لا تريد، لكنها غاضبة منه بشكل ما خاصة مع سؤالها المستفز والذي لم تحصل على جواب له.

تعترف أنه أغضبه، بل وعندما فكرت علمت أنه ليس في محله ولا يصلح كوجه للمقارنة بين الموقفين..

هل تطالبه بثقة!!.. أم تنشد منه غيرة نارية تجعله يصرخ في وجهها أنه سيقتله حينها وربما يقتلها!!

انتبهت لتلك الفكرة الصادمة.. هل تريده أن يغار عليها؟!.. تلك الأنثى بداخلها تشاكس مشاعرها وتبغي الدلال من رجلها.. لكن على أي أساس؟!!.. لا حب ولا غرام ولا غرق في عالم التيه.. فلمَ تطلب منه ما لا يمكنه منحه؟!.. والأدهى ما لم يعدها به، أو تسأله هي في السابق!!.

ذلك العقد بينهما لم يتضمن شرطًا عن إدخال المشاعر في الصفقة، بل كان مبنيًا منذ اللحظة الأولى على العقل.. العقل الذي جمعهما على أسس التفاهم والروتين، رغبة الاستقرار وأمانٍ تبحث عنه في كنف رجل لن يطالبها بالكثير، أو الأصح لن يطالبها بما لا تملكه.. الجانب الآمن، الرجل الذي يمتلك طفلًا بالفعل ولن يغادرها في يوم ما ينتقصها ويبحث عن الاكتمال مع أخرى..

استدارت تريد الخروج من الغرفة، هي تشعر بغضب يمتزج بملل وقهر.. حيرة تداهم أركان عقلها فتكاد تسقط آخر دعامات استندت إليها في حياتها الباردة التي بحثت عنها حتى ظنت أنها وجدتها، وفي النهاية ترى الأنثى الكامنة بداخلها تبحث وتطالب بما لم تدفع ثمنه؟

وجدته خلفها يتكئ على إطار الباب، يكتف ذراعيه أمام صدره ويراقبها بصمت..

عيناه غامضتان لا تفهم تلك النظرة التي تمكنت منهما، لكن لا غضب واضح على الأقل وهذه نقطة مطمئنة تبعث على الراحة..

اقتربت منه بتؤدة تهمس باسمه تريد الاطمئنان عليه:

- آدم!!.. باباك عامل إيه دلوقتِ؟

وهنا لمعت مقلتاه بقسوة امتزجت بضعف غريب وحيرة تكاد تتفوق على حيرتها هي، لم يتدارك عقلها الموقف، فكأن ذكر والده بأحرفها المعدودة التي همست بها أضرمت النيران ولم يتبقَ سوى أن تحرقها.

قلص المسافة بينهما بانقضاضة سريعة جمدتها مكانها، تناول شفتيها في قبلة أخمدت كل الأصوات وحجبت الأنفاس قاطبةً..

شهقت بعدها تبحث عن الهواء وقبل أن تنبس بحرف سمعت صوت تمزق جلبابها القطني القصير وطارت محمولة بعنفوان ليسقطها تاليًا فوق الفراش ويسكِّن الحرب الدائرة داخل روحه بغيبوبة في دفء احتوائها.

******

الاستسلام لم يكن من طباعها الشريرة، ولا حتى الجيدة منها، لكنها الآن جُبِلت على شيء لم تستسغه يومًا، تبتلعه بقهر، وخلفه الكثير من المسكنات علَّ الوجع يخفت.

أمها المصون.. ألقت القرار في وجهها، والزوج المخلص الوفي كجرو لطيف ينفذ، ومن أسفل الطاولة يدفع نحو الهدف.

هي لا تحبه، وقد يصل الأمر أنها لا تطيقه، يصغر والدتها بالكثير، والعلاقة بينهما لا تهضمها ولا تفهمها!

الأم متصابية تعيش دور مراهقة لا يليق بها، وهو يقنعها بحب لا يمكن أن يولد بينهما، والغرض في النهاية يتضح.. شراكة فيما لا يخصه، وامتلاك لما لم يشقَ للوصول إليه.

تراجعت في مقعدها تدور به في متاهة شرودها، تفكر إلام يريد أن يصل؟.. ما الذي يسعى إليه في ذروة الأحداث؟!!

وعندها.. كيف ستمنعه؟.. توقفه؟.. وتحرمه مما يطمح إليه؟..

سمعت الطرقات المتوالية على باب مكتبها، زفرت تبغي قليلًا من الوحدة، بملل جاوبت الطارق تسمح له بالدخول، وتجده بطلته البهية وابتسامة لزجة فوق شفتيه يناديها بلهجة أبوية أغاظتها:

- قلت إنك نزلتِ من غير فطار، وبما إننا مع بعض في نفس الشركة، جبت لك معايا.

ودلف للداخل بهدوء، يضع كوبًا من القهوة المركزة، وحقيبة ورقية تحتوي على شطائر بالطبع، منحته بسمة أكثر لزوجة وردت ببرود:

- متشكرة قوي يا أونكل.

والنبرة تجمدت يتساقط منها الثلج:

- منور الشركة.

دار حول المكتب يقترب منها فانتفضت تحاول النهوض بسرعة، توقف عندها وأكمل كأنه لم يهتم.. أو ربما يدعي عدم الانتباه لانتفاضتها:

- منورة بأصحابها يا دينا يا حبيبتي، لولا إن مامتك صممت إني أدير نصيبها وآخد مكانها كنت هابقى في شركتي دلوقتِ، بس أنتِ عارفة مش باقدر أرفض لها طلب.

غمغمت تتظاهر بالانشغال في ملف ورقي أمامها:

- طبعًا يا أونكل.

وأخفضت عينيها ورأسها وكتفيها تمنحه كل إشارة ممكنة توحي أنها تعمل وتطلب منه المغادرة..

التهمها بعينيه، لربما كانت تصغره بأقل من عشرين عامًا، لكنها تفتن أي رجل، وهو لم يكن استثناءً..

رد بتنبيه أبوي آخر:

- طيب يا حبيبتي، أنا موجود لو احتجتِ حاجة في الشغل كلميني، وما تنسيش تفطري وتشربي قهوتك.

رفعت عينيها تتابع انصرافه وكادت تقذف الكوب خلفه، كتلة الافتعال ذاك!!

تود لو لكمته في أنفه لتكسرها له، لكن أمها تحجم اندفاعها وجموحها، وتدعي حبًا لا تمتلكه ولا يمنحه هو.

قاطع أفكارها الدموية ارتفاع رنين الهاتف برسالة، قرأتها بابتسامة لا يرسمها سواه فوق شفتيها:

"وحشتيني، لازم أشوفك!!"

والرد كان قصيرًا بليغًا، ويفي بالغرض كأنها ترسم خطة حربية، ولأنها تريد لقاءه بالفعل:

"حدد الوقت والمكان"

وتراجعت في مقعدها ثانية، تبتسم بنفس الشرود وإن اختلفت الأسباب.

******

فتاتان، يجمع بينهما التيه، وتقربها الأفكار رغم التضاد..

هذه تفكر فيما آل إليه حال أسرتها، وتشابهها الأخرى، واحدة فقدت أباها والثانية ربما على وشك فقدانه، وشقيقها خرج للتو من حادث مميت بمعجزة..

نادتها "علا" تسحبها من دوامة أفكارها، التفتت إليها كأنها لا تراها، هزت الصديقة كتفها تنبهها، وتسأل باهتمام:

- مالك يا سارو؟!.. كفاية سرحان بقى!!.. أنا زهقت من كل حاجة.

ابتسمت "سارة" بتأفف، تعلم نية صديقتها لكنها أيضًا تدري بقدرتها على القيام بالأمر، هي فقط مترددة والجبن لن يفيدها في هذه الحال:

- زهقتِ من إيه بس؟.. بصي أنا قلت لك رأيي من أول مرة، مادام أنتِ عاوزة كده يبقى خلاص نفذي.. وأنا هاشتغل معاكِ يا ستي مش هاسيبك لوحدك.

مطت شفتيها بتذمر:

- وشركة باباكِ!.. مش هتشتغلي مع أخواتك؟

ربتت على كفها برقة:

- مش شرط يا لولو، أنا محتاجة أعتمد على نفسي، ومادام هتنقلي الشغل هنا؛ يبقى نبتدي مع بعض.

علا التردد ملامحها ثانية، تفتقد الثقة وتشعر بالخوف:

- بس يا سارة...

وزفرت في حنق تردف بعده:

- مش عارفة، حاسة إننا مش أدها، محتاجين خبرة وكده هنبتدي من الصفر، وممكن...

قاطعتها "سارة" باهتمام وقرار:

- لا هننجح يا علا إن شاء الله.. وكمان لو احتجنا حاجة أكيد أدهم وآدم مش هيتأخروا علينا وهيساعدونا.

وقلبها ينبض ثانية عند مرور اسمه عبر أذنيها.. متى ستتوقف عن ذلك؟.. لن تقصي وجوده من حياتها فهو أخو صديقتها الصدوق، فكيف تتخلص من تأثيره عليها!! على قلبها؟ وعلى تلك الضعيفة التي لم تظهر بداخلها إلا عندما قابلته.. ترغب في الارتكاز لقوته!!

نفضت رأسها تومئ بموافقة وتغير الموضوع لتنهي الموقف:

- أدهم عامل إيه؟.. وباباكِ؟؟

هزت "سارة" رأسها في يأس مستسلم:

- أدهم الحمد لله كويس.. بس بابا حالته متأخرة ورفض يكمل علاجه في المستشفى، بنحاول كلنا نخلي بالنا منه وفي ممرضة مقيمة كمان بتهتم بيه وبأدويته.

واستها صديقتها برقة وعادت تغير محور الحديث، غمزتها بشقاوة:

- طيب وعمار!!.. أخباره إيه؟

اكتنفت وجنتيها حمرة ضحكت لها "علا" بمرح عابث، نالت وكزة في كتفها وتقطيبة جبين تعلن الغضب، والرد ربما هو الدليل:

- مش باشوفه من وقت أدهم ما عمل الحادثة.. الامتحانات قربت، والسنة هتخلص، وهو مش بيقول حاجة يا علا.

ومطت شفتيها بحنق، لكن "علا" ردت بمنطقية:

- عمار حاسة إنه شخص جاد، أكيد مش هيتكلم بشكل رسمي في الموضوع إلا لو عارف إنه أده.. يعني لسه بيدرس وما فيش شغل دائم، أكيد صعب يتقدم لك دلوقتِ.

وافقتها بصمت.. هي تكاد ترتعب لمجرد الفكرة، أن يطلبها للزواج، وقبل أن تقفز فرحًا ينهض الواقع ليمنعها بحزم ويخبرها أن أخويها ووالديها.. ليسوا بالعقبة التي يسهل تخطيها، لكنها تعد نفسها أنها ستدعمه، وتبني معه حياتهما من البداية.

ربما لهذا تريد الخروج من عباءة عائلة "الحسيني".. العمل بشركاتهم، والابتعاد التام بعمل في شركة صغيرة لم تولد بعد، وحينها يمكنها أن تحصل على السعادة والهناء.. وإلى الأبد.

******

هل كانت لحظات عقاب؟!.. أم هروب؟!.. أو ربما هو احتياج!

يطحن أفكاره وتطحن هي الأخرى عقله، تحبسه بين شقي رحى الخوف والضعف وإحساس بالعجز يكبل روحه، أمنيات ودعوات، ورغمها ورغمًا

عن كل شيء.. يبقى رعب اليتم لرجل قارب الأربعين هو حالة من انعدام التوازن حد السقوط في هوة اليأس.

لا يذكر أنه في مرة تصرف بهذا الشكل، ربما لم يكن عنيفًا أو قاسيًا.. لكنه كان متطلبًا وبشدة، لدرجة أن تدفعه هي لتشهق بأنفاس متسارعة مجهدة ويمنحها هو لها لثوان ثم يمنعها عنها من جديد.

وكعادتها.. وكما يعرف أنها كذلك.. لم توقفه، لم ترفض ما تظنه يحتاجه، يدفن نفسه فيه علَّه يتناسى رعب الفراق الذي يسيطر على كل خلاياه ويكاد يقتلها.. فقط احتوته في صمت، ومنحته نفسها لآخر قطرة، بحنان لا يشبع منه أبدًا، ورقة توازي أنوثتها التي تحرك كل رغباته الساكنة منذ دهر.

هو العاقل الرزين، محدود الكلام، قليل العواطف وربما معدومها.. يفقد وقاره معها، ويندفع كشاب صغير يدللها وينهل من تلك الأنوثة دون أن يكتفي، وأيضًا دون أن يدرك أن ذلك الغريب بين ذراعيها هو نفسه..

وهذه المرة بعدما تفجر احتياجه المفاجئ في وجهها، تباعد، ادعى نومًا لم ينل منه سوى ساعة بعد الشروق، وظل معظم الوقت يراقب ملامحها المستكينة إلى جواره، كأنه يسألها عما لا يعرفه ويحصل منها على إجابات لا تفيده.

في الصباح غادرها قبل أن تستيقظ. لم يستطع مواجهتها، لا يعلم لمَ!!.. لم يخطئ، لم يؤذها، وليس في الأمر مشكلة.. سوى أنهما تشاجرا سابقًا بالفعل ولم ينته الموقف بحلٍ مرضٍ لكلا الطرفين.. وبالتالي ما فعله لا يرضى عنه، وربما يغضبها ويثير استياءها حينما تفيق من موجة الحنان الممنوحة بسخاء.

تأفف بغيظ، كثيرة هي الأفكار التي تصول وتجول داخل عقله المنهك حد الموت، لم يكد يخرج من حالة الرعب التي تملكته نحو والده، يبتهل ويدعو له بالشفاء، حتى يغوص هذه المرة في حالة لا يفهمها ولا يريد.

نهض يلملم أشياءه، يلتقط مفاتيحه ويرتدي سترته القاتمة كأفكاره، غادر المكان وفي نيته الذهاب إليها، ربما يعتذر بعشاء في الخارج، ويتمنى منها نسيان الموقف السابق، وربما يعوضها هذه الليلة عن ليلة أمس وجموحه الغريب غير المقبول والمستهجن بالنسبة إليه فيها.

******

هي لا تفقه الكثير عن عالم الرجال بتعقيداته ودهاليزه المشفرة، كل تعاملها معهم بشكل خاص لم يتجاوز اثنين، أحدهما أوهمها أنها ملكة كونه وأميرة عالمه، فظنت أنها تملكت العرش وارتدت التاج، ثم في النهاية استيقظت من حلم الأميرة المسحورة على واقع أنه مجرد رجل.. وشرقي، ويريد الوريث بغض النظر عمن تحمله!!

والثاني يحيرها وبشدة!.. في لحظة يتصرف بجمود، وفي التالية يخترق روحها كلهيب النار، لا يملك في قلبه شيئًا خاصًا لها، ورغم كل ذلك فهي مستقره الآمن، ومرفأ سفينته حيث ينتهي عندها ويبدأ منها..

لا تدري أيحتاجها فقط!! أم أن هناك ما جد في الأمر؟!

بالأمس كان غريبًا، كان متسلطًا يبغي السيطرة ويطمح للكثير، لم ينبس بحرف على خلاف عادته، ولم يلق بتحية حتى عند دخوله، فقط هاجمها وحملها إلى حيث يريد، وعندما انتهى عم الصمت واكتسبت الأنفاس رتابة النوم، كأنه أفرغ شحنة غضبه وحزنه وارتاح.

ثم في الصباح، وما لم تتوقعه، استيقظت وحيدة في الفراش، وجانبه البارد يخبرها أنه غادر مبكرًا عن المعتاد، كأنه يهرب.. يخاف عراكًا آخر أو الأسوأ.. حوارًا تتساءل فيه عما به..!

قاطع صليل أفكارها صوت الهاتف الداخلي، أجابت بنبرة هادئة تحوي شيئًا من شرود، ثم لم تلبث أن ابتسمت ترد برقة:

- لا خلاص يا شروق روحي أنتِ، وألف مبروك يا حبيبتي، ربنا يتمم لك بخير.. أنا هاقعد شوية بعدين أمشي.. لا ما يهمكيش.. مبروك مرة تانية.

وأغلقت الخط، مساعدتها تريد المغادرة، فالشخص الذي تحبه سيتقدم لخطبتها اليوم، نهرتها أن أتت للعمل من الأساس لكنها ادعت أهمية ما يشغلها في المكتب كأنها تشعر بالخوف من اللقاء..

كم هو جميل الحب!! يتسلل للقلوب خفية حتى يتمكن منها، يسلسلها، وفي النهاية ترضخ باستسلام خانع لسلطانه، وتقبل بأحكامه عليها وعلى والروح وحتى العقل الذي يستجيب له في نهاية الأمر.

تنهدت تبتسم ثانية ثم نهضت تريد المغادرة..

خطوة وثانية وفي الثالثة رفعت عينيها لتجده أمامها بشحمه ولحمه وأعصابه..

وسعير يتأجج في سواد مقلتيه.. ملأها الغضب والسخط:

- أنت بتعمل إيه هنا؟!

تردد وصمت.. يطالعها بتأمل غريب، ثم يجيب بهمس حائر وهزة كتف يائسة:

- مش عارف!!

تراجعت خطوة لا تفهم غرضه. لم تمنحه أو تمنح نفسها الفرصة لمزيد من الحديث، بادرته بعنف:

- ما ينفعش تكون موجود هنا يا أحمد.. من فضلك امشي.

لم يتزحزح قيد أنملة، ولم يبعد عينيه، بل حاوطها بهما ثانية وتساءل ببؤس:

- ليه عملتِ فينا كده يا لميا؟!

وخطوة أخرى ترتدها للخلف، وهذه المرة استنكار ساخر، لكنه استطرد بنفس اللهجة:

- ليه لما وقعت ما أخدتيش بإيدي وساعدتيني أقف من تاني؟.. نبني حياتنا من جديد!!

وكادت تضحك.. الموقف مؤلم حد الضحك بالفعل، يثير السخرية ولا يجوز فيه سوى الاستهزاء:

- أنا عملت ده كله؟.. حقيقي..! طيب ليه أنت ما تسميش الحاجة باسمها الصح؟ أنت ما وقعتش!! أنت غدرت.. خنت، وسكت وكنت عاوز تحتفظ بكل المكسب لنفسك.

ودارت بعينيها في المكان كأنها تبحث عن جواب ملائم أو ربما سبة تناسبه:

- نبني أي حياة من جديد؟! الحياة اللي أنت هديتها في السر، في الضلمة؟ الحياة اللي أنا طلعت منها بمعلومة مهمة قوي.. إني مش ست كفاية، إني مش كاملة بالنسبة لراجل عاوز يعيش حياته زي الكتاب ما بيقول!!

تأملها بصمت من جديد، الحزن يبدو غريبًا على وجهه، لكنه يبادر بهجوم كأن ما قالته لم يمر بأذنيه:

- ليه هربتِ مني، من حبك ليَّ؟

وهذه المرة لم تقاوم، بل ضحكت بالفعل، ثم هتفت بعدها بدهشة مفتعلة:

- هربت منك؟!.. مش شايف إنك بتدي نفسك حجم أكبر من اللي تستحقه!!

اقترب خطوتين دون تأثر بكلماتها القاسية، تحدته أن يقترب أكثر.. لكنه توقف ولمع العناد في عينيه وعلى ملامحه يجابه إنكارها الذي لا يصدقه:

- أيوة هربتِ.. انكري إنك لسه بتحبيني!!.. إنك خفتِ من ضعف قلبك قدامي فترجعي لي وكرامتك تنجرح، أو كبريائك يتهان!!

وخطوة أخرى بتحدٍ آخر في لقاء الأعين:

- هربتِ من حبك ليَّ اللي لسه موجود جواكِ..

ظلت تتطلع إليه بسكون.. مغرور!.. أناني، ومتبجح بصلافة!!..

كيف ظننت أنها أحبته في يوم ما؟.. ما الذي جذبها إليه؟!.. أهو الاعتياد، أو كونه أول من طرق باب حياتها المنغلقة فسلمته كل المفاتيح دون فحص أو تمحيص وتدقيق!!

هزت رأسها تنفض أفكارها، وتعترف..

"إن بدأ الأمر بهروب، فقبل أن تكتمل الخطوة الأولى كانت وجهات النظر قد تغيرت!"

باتت تبحث عن الاستقرار والروتين الآمن لحياة واحدة ستحياها ومصيرها للانتهاء، تمنح ما تملك، وقد تحصل على مقابل مناسب من الاهتمام والشعور بالأمومة وهي تكتفي بهذا الثمن في الوقت الحالي وربما.. للأبد.

سألته وهي لا تبالي بجواب:

- مهتم قوي ليه بالموضوع ده دلوقتِ يا أحمد؟! بعد ما كل حاجة انتهت!!

ورده باغتها بنبرته الصادقة غير المتوقعة:

- عاوز أعرف عشان يمكن أرتاح وأقدر أبعد وأحاول أنسى..

صمتت تفكر: "يتلاعب بالكلمات ويعزف على أوتار الحب القديم!!".. هل تجيبه بوضوحٍ؟! أم أنه لا يستحق عناء انتقاء الكلمات والتفكير في رد مناسب لا يسبب الألم!!.. في النهاية أتى حديثها بجمود:

- أنا ما أنكرش إني حاولت أهرب...

قاطعها بتشبث متلهف:

- ولسه بتحبيني.. ما تنكريش دي كمان!!

لكن قبل أن ترد، دلف آخر من تتوقع أو ترغب في ظهوره إلى المكان بخطوات ثابتة قوية تكاد تقيسها بانضباط، يلقي تحية المساء ونبرته لا تحتمل أي شيء.. بل فقدت كل مدلول:

- مساء الخير.

وكادت تفقد الوعي..

هل سمع؟.. هل سيتفهم؟!.. هل سيمنحها فرصة للشرح؟.. أو ربما يترك لها الوقت لتكمل وتستطرد وتسهب في الحديث عن صحة اختيارها.. أن ما بدأ بخطة هروب، أصبح فخًا أحكمته حول نفسها برضى ودون ممانعة!!

نظرة واحدة لملامحه التي لا تشي بدليل أخافتها، أخرستها، وألجمت دفاعاتها فصمتت تتلقى تحيته، تخضع لاقترابه الحثيث وفي عينيه الكثير.. الكثير دون وضوح، الصارخ دون صوت.

(١٩)

وحان الفراق

هل تعلمون ما هو وجع الرجال!!

قهر الرجال!!

خوف الرجال!!

ضعف الرجال!!

ذلك الانكسار غير المرمم، فلا تجبره السنون!

تلك الجروح العميقة داخل الروح، فلا تفهم معنى التئام، ولا تداويها علاجات أو تغطيها ضمادات!!

ندوب تترك الأثر في الكيان، تبعثره، تشتته، تحوله لهباء منثور!

أغلال مصهورة تسلسل القلوب وتحجبها في غياهب عتمة الضلوع!!

لحظات طويلة من حزن مختلط بنسب مقننة من الذعر، ذُرفوقها قليل من ملح الغضب..

وكبرياء مدعاة بعناد ترفض الخنوع، تقاوم الخضوع..

ثم اختفاء خلف قشرة صلبة، لا يهدمها معول الزمن.. حيث هم السند ولا مجال للدموع!

والآن!

هل تفهمون هوان الرجال!!

من قال أن الصمت من ذهب؟!

لا!.. بل هو في أحايين كثيرة: مخيف، يثير الرعب في النفوس ويبعث سكونه على القشعريرة، باردة هي تغزو جسدك فترتجف بعنف من داخلك دون قدرة على إظهار الرجفة..

صمته الحالي.. تكاد تدفع كل ما تملك ليخرج من بوتقته، ليقول شيئًا، يصيح بغضب، أو حتى يصرخ في وجهها مؤنبًا، فقط ينطق ولو بحرف، تسمع صوته المحبوس خلف شفتيه المكبلتين بسلاسل جرح الكبرياء والفهم الخاطئ..

دلف للمكان بهدوء لا يوازي ما قد يفعله آخر في موقف مشابه، يلقي تحية ويحيط كتفيها بذراع والأخرى تستريح كفها داخل جيب بنطاله، ينظر للواقف أمامها بجمود، ويسأله كأنما لا يعرفه عن سبب وجوده، فيتهرب الجبان من الرد ويعتذر.. ثم يغادر.

تستغرب هروبه!!..

هذا ليس صلفه المعتاد أوعناده الذي ألفته سابقًا، هل يظن أنه سبب لها مشكلة فآثر الرحيل؟!.. أم أنه خطط ودبر لتلك المشكلة المزعومة وحينها اكتملت الخطة فتركها تنضج بينهما ببساطة؟..

وهكذا حقق ظهوره غير المفهوم مسعاه!!

من بعدها لم ينطق بكلمة، ولم تنبس شفتاه بهمسة ولو حتى لنفسه، يقود بصمت، يدلف للمصعد بصمت، ويفتح باب المنزل.. يدخل إليه يغير ملابسه.. وكله بصمت.

والآن لم تعد تحتمل، اللعنة عليه فليقل أي شيء!

كان يتحرك في طريقه للفراش كأنه يريد النوم رغم الوقت المبكر عندما اعترضت طريقه بعينين متحديتين، تجابه نظرته الجامدة التي لا تفهم لها معنىً، وينال نبرتها عصبية سببها بروده القاتل:

- آدم.. ممكن تقول حاجة، بلاش حرب الأعصاب دي!.

ظل على وقفته، يتعمق في عينيها دون غرق، ثم يهمس من بين أسنانه بدهشة مفتعلة بوضوح:

- حرب أعصاب!!

يشد قامته ويتراجع خطوة، يضع كفيه في جيبي سروال منامته السوداء، يدور حول نفسه، ثم يعود فيدور حولها، ويكمل بنفس اللهجة الباردة تصاحب هزة كتف لامبالية:

- أوك.. نتكلم.

توقف أمامها، مال نحوها برأسه واشتعل اللهب بين جفنيه بشكل مفاجئ، يستطرد همسه الجامد رغم نيران نظراته:

- ببساطة ووضوح: أنتِ أهنتِ كبريائي، امتهنتِ رجولتي.. حطيتيني في موقف لا أحسد عليه، وكنتِ في موقف ما يصحش زوجة تكون فيه.

نبض قلبها بعنف لعين، شعرت بالتوتر يغزو عقلها فيعجزها عن الرد المنطقي، لكنها هتفت بدفاع:

- أنا كنت لسه باكمل كلامي.

تراجع مرة أخرى يتأملها بتقييم مستفز، ثم يتحدث ثانية كأنه يسامرها عن غذاء الغد، يمط شفتيه ويتساءل بغموض باهت:

- ولو كنتِ كملتِ، كنتِ هتقولي إيه؟.. إنك بتحبيني مثلًا!.. ده على فرض إن الكلام معاه مباح!!

أمال عنقه للجانب ينظر إليها بقوة ويجيب على نفسه دون انتظار:

- لكن للأسف ده مش واقع.. هتبرري الوضع الحالي بإيه؟.. هتبرري البداية الغلط بإيه؟

ثم زفر، وزفرته بدت لها حادة وربما ناقمة:

- جوازنا كان مبني على أساس معين: قلتلك إني محتاج وجودك في حياتي ووعدتك أني أديكِ الاهتمام اللي تستحقيه.. وعدتك إني مش هاخذلك...

وتوقف يسحب نفسًا كأنه يحبس غضبه:

- لكن أنتِ اللي خذلتيني.. وقدام مين!

اشتعلت عيناه بسواد حالك أخافها بينما يردف بقسوة ويخرج يديه من جيبيه يشيح بهما:

- واحد ما يمتلكش أدنى حق إنه يسمع مبرر منك.. واحد مالوش أي علاقة بيكِ حاليًا ولا طبيعي يكون موجود معاكِ تتناقشوا في غرامياتكم القديمة ومين السبب في فراقكم!!

ويكمل بغضب أوضح هذه المرة:

- مش من حقه ولا من حقك يا أستاذة.

هي تريد الحديث، تريد مقاطعته والتوضيح، لا تعلم ما الذي يلجم لسانها؟.. أهو على حق؟!!..

لا هي لم تفعل، لقد كانت ترفض وجوده وتطلب منه الرحيل، هو من أصر يبغي راحة لا تعلم سببها، سمعت نبرته هذه المرة ساخرة تتخذ من البرود مسلكًا من جديد:

- بس الواضح إن رجوعه وضعفه قدامك غذى غرورك.. فقلتِ تعرفيه إنه حقيقي ضيعك من إيده وبوضوح قلتِ له إنك هربتِ فعلًا.. وكنتِ لسه هتعترفي إنك باقية على حبه.

أنهى رصاص كلماته القاتل وصمت.. بينما هي انتفضت لآخر جملة نطقها..

كلا.. لقد فهم بشكل خاطئ كليًا، ولأول مرة تشعر بحيرة وضعف الأنثى عندما تقف في موضع الاتهام ولا تملك دليلًا يثبت براءتها..

بادرته بهدوء تدعي خلفه الثبات وتهاجم بأحرف تتخذ منها دفاع:

- أنت على أي أساس بنيت كلامك ده كله يا آدم؟.. ما دام سمعت الحوار من بدايته ليه ما استنيتش تكمل؟!.. ولا دور الضحية المخدوع عاجبك؟

برقت عيناه بنار حارقة أرسلت في عمودها الفقري رعشة خوف، فاستطردت بسرعة:

- أنا قلتلك من الأول إنه بقى مالوش وجود في حياتي.. يعني فكرة حبه دي تنساها خالص، أنا ما بقيتش أعرف يعني إيه حب ولا مهتمة بيه حتى!

ويبتسم بسخرية، يود لو يخنقها فقط لتصمت:

- لميا.. كفاية لف ودوران، شغل المحاماة ده مش هينفعك دلوقتِ.. أول يوم بينا اتكلمت معاكِ بوضوحٍ وصراحة، قلتِ لي إن جوازنا ما كانش هروب من حبك وخوفك من الضعف قدامه، إنك محتاجة تستقري وتحسي بالأمان..

وبدا شيء من الألم في نبرته أضعف قلبها:

- وأنا صدقت.. كان كل نيتي إني ألبي لكِ احتياجك ده، ابتديت معاكِ حياتنا وقلت إننا بنكمل بعض بشكل أو بآخر.. لكن النتيجة إن الأستاذة المحامية اللامعة كتبت مذكرة دفاع هايلة، فوق الممتازة خدت على أساسها حكم البراءة لأن القاضي كان أعمى وكان نفسه يعيش ويرتاح.

لم تعلم ما تقول، لم تملك ما تنطق به، لو فقط صبر قليلًا لكان قلبه استراح!!..

همست باسمه في ضعف:

- آدم...

وقاطعها هذه المرة بزعيق كأنما اكتفى ولم تعد به طاقة لجدال:

- كفاية.. ما عنديش استعداد أسمع كلام تاني أو مبررات مالهاش لازمة.

وصوته العالي أثار غضبها ثانية، تتذبذب بين مشاعر مشتتة ومن النقيض لنقيضه.. الشفقة والرثاء لموقفه وما جعلته يمر به نتيجة فهم خاطئ

يثقلها بالذنب، والاحتراق بسخط لعدم تفهمه، والآن هذا أيضًا: يصيح في وجهها:

- ما هو مش معقول تكون بتغير!!

بعدما استدار ليغادرها عاد يلتفت، ينظر إليها بنارية شعرت أنها أحرقتها بالفعل، ويقترب بعنف جمدها، يمسك بمرفقها وينحني يتمم حديثه أمام عينيها مباشرة:

- هي الغيرة السبب الوحيد اللي عقلك فكر فيه؟.. ما فكرتيش إني راجل مجروح، إن من حقي مراتي تكون اختارتني لأني أنا، مش لسبب تاني!!.. إن على الأقل من حقي تكون هي واضحة وصريحة معايا بدل ما ألاقي نفسي في موقف زي ده..

ويدور حول نفسه كأسد حبيس قفص من نار:

- ما فكرتيش إني طبيعي أغير زي أي راجل لما يلاقي مراته بتستعيد الذكريات مع حبيبها القديم!!.. أغير على رجولتي وعلى حاجة المفروض إنها بينا والمفروض إنها تحافظ عليها؟!.. على حياة كنا بدأنا نبنيها!!

ويواجهها بزعيق آخر:

- مش من حقي؟!!

انتفضت بذعر، لكنه تراجع بحزن يشير بكفه يخرسها كأنما شعر باليأس:

- لأول مرة يا لميا أحس أني ما حسبتهاش صح.. أفكر إني غلطت في الاختيار، إن العقل مش دايمًا عنده حق، وكان لازم أفكر في اللي تختارني لأني أنا، آدم.. مش مجرد ملجأ آمن يحميها من ضعفها قدام حبيب مش قادرة تنساه.

توترت بشدة، كيف تدافع؟!!.. لا.. بل كيف تطبب جرحًا تسببت فيه دون أن تدري؟! كانت ستكمل، تغضب وتنهر وتطرد..

تبًا!.. فقط لو صبر!.. فقط لو يستمع إليها ويصدق!..

لكن ونعود لدائرة الكيف مرة تلو أخرى.. كيف يكذب أذنيه ويصدقها هي؟.. الواقع أمامه يرسم صورة بشعة مؤلمة، وهي لا تعلم كيف تمحوها!

وتتذكر.. هو لا يحبها.. لا، لا يفعل، فلمَ يتحدث عن اختياره لها بالذات! هي اختارته هو؛ فقط السبب يختلف، وجدت لسانها ينطق دون رادع كأنه يزيد من سواد الموقف:

- أنت ما اخترتش لميا لأنها لميا!!

وتجابه عينيه بتحدٍ، لكنه اكتفى، ولم يعد للحديث من معنىً أو هدف.. نظر إليها ينهي كلامه بحزم صادق واضح كالشمس:

- أنا اخترتك أنتِ.. بالذات أنتِ، انتظرتك وأصريت عليكِ، لكن أنتِ...!

واستدار يرفض التطلع إليها ويتحرك يغادر المكان:

- أنتِ اخترتِ أي واحد يصلح، وصادف إني كنت متاح وقتها.

ورحل إلى غرفة صغيره، يكسر ما أمر به مسبقًا ويتركها وحيدة، فالغضب والمشكلة والنار هذه المرة أكبر من أن تستمع لمبدأ أرساه هو لما يصادفهما من معوقات.

كانت له الكلمة الأخيرة، الكلمة الموجعة.. وللأسف الصادقة لحد كبير، هي لم تختره لأنه "آدم".. بل اختارت الجانب الأكثر أمانًا، وجدار الحماية الأكثر صلابة.. رغم أن الأمر لم يكن هروبًا حتى النهاية وحتى قبل بداية حياتهما معًا.. لكن؛ كيف تخبره؟ وكيف يصدق؟!..

******

لم تنعم بالنسيان ولو لدقائق من قبل، لكن معه، في حضوره، بابتسامته، باهتمامه ورقته، بنظراته الجريئة التي تغرقها بين جفنيه ولا تشدها نحو بحر الخوف المرضي الذي تغوص في أعماقه.. هو بكل ما فيه؛ ينسيها الكون والألم وكل رعب يبثه الآخرون داخلها.

فقط لو تفهم!.. لو تدرك!.. لو تعلم!.. أو حتى تصدق أنه ممكن، متاح.. أن القلب يمتلك الحق في النبض، في الحياة، في السكن في كنف حبيب.. تبًا هي لو فقط تعلم ما معنى حبيب؟!..

لا تمل من تأمله، قسمات وجهه القوية، لحيته العسلية القصيرة التي تخفي فكه المربع وتُناقض لون شعره الداكن أكثر.. نظراته الجانبية التي

يلقيها نحوها بين كل فينة وأخرى أثناء قيادته للسيارة، أصابعه الطويلة التي تمسك بالمقود في إحكام صلب وحتى وتيرة حركة ذراعه بينما يقود بتمكن، تفاصيل غريبة لم تتصور أن تحفظها في رجل، لكنها تلفت انتباهها معه.. وبشدة.

فوجئت بابتسامته الواثقة، ثم همس لها بغرور مرح:

- وسيم مش كده!

رفعت عينيها تلاقي عينيه، ردت البسمة بأخرى تجيبه محاولة صبغ لهجتها بمرح مشابه:

- مغرور أكتر.

ضحك بشقاوة، وضحكته أذابت آخر حائط دفاع لديها فأطلقت العنان لنبضاتها، نظراتها وابتساماتها، لكنه أخجلها بنظرة متفحصة تقدر ما ترى، ويهمس أذاب ما تبقى من أنوثتها التي تنشد دلاله مع رفعة حاجب مشاغبة:

- جميلة قوي..

خجلت ولا يخجلها إلا إياه، فابتسم يغازلها ويكمل:

- You take my breath away.

وصمتت تستمع لصوت حبات المطر وهي تداعب سقف السيارة ثم لمحتها تضرب زجاجها الأمامي على استحياء، سكنت تنظر إليها لثوان قبل أن تسأله بشرود:

- وده اللي لفت نظرك ليَّ!!

ألقى عليها نظرة أخرى، مد يده يلتقط كفها يحيطها بأصابعه بلمسة لم تقشعر لها كما في السابق، يمنحها بكرم قبلة دافئة سبقت رده المخلص الرقيق:

- عينيكِ..

لم يكمل، ولم تفهم.. أتعجبه عيناها؟!..

لكنه يدرك جيدًا ما يتحدث عنه، الخوف المدموغة به نظراتها، الرهبة التي تلتمع بين جفنيها كل حين، التردد والضعف الذي تداريه بتحدٍ وصمودٍ خارجي يروق له..

لقد رأى مئات الجميلات، قابلهن وكن رهن إشارة منه، الشقراوات والصهباوات والسمراوات، لكن هي.. بعبق الشيكولاتة التي هي مَلِكَتُها تملكت منه واستعبدت قلبه فأصبح أسيرها، فقط بنظرة ضعف لا يراها إلا هو، كأنها موجهة إليه وفقط، تنشد حمايته.. تثير لديه كل بدائية الرجل في الزود عمن يحب ويهتم لأمره، ولو كان الثمن أغلى مما يقدر عليه.

فاجأه صوتها الراجي بحزم:

- وقف شوية.

وكانا يعبران أحد الكباري الشهيرة بين ضفتي نهر النيل، استجاب لها ببساطة وتوقف إلى جانب الطريق، فتحت باب السيارة أمام نظراته المندهشة، وقفت خارجها تخلع سترتها وتتركها خلفها على المقعد، ثم تتحرك نحو السور الحديدي الضخم، تنظر للسماء وتتلقى قطرات المطر الناعمة فوق رأسها ووجهها ببسمة مكسورة.

تبعها بهدوء، وقف إلى جوارها فهمست:

- الشتا بيودعنا بآخر مطر، دايما لحظات الوادع جميلة، رقيقة حتى لو مش بنحبها، بس خلاصة مشاعرنا بتكون فيها.

حديثها غريب، كأنها تحكي عن ألم خاص، وداع سبق وأن مرت به، مشاعر بذلتها حتى النهاية، لم يعلم أن وداعها الوحيد لم تحضره، ووجعها الأكبر كانت فيه غائبة عن عالم الوعي..

اشتد هطول المطر، أصبحت القطرات الناعمة قوية تخمش وجهها بقسوة لكنها لم تخفضه، ظلت تتلقاها بجفنين منغلقين وعقل شارد في ذكرى الماضي الذي تود محوه للأبد.

تأملها أكثر، أحاطها بعينيه، تابع القطرات التي تسير فوق وجهها، تغادره إلى عنقها العاجي الطويل، تسيل فوقه بسلاسة وتختفي خلف قبة قميصها الحريري ذو الزر العلوي المفتوح، صدرها يعلو ويهبط ببطء.. تتنفس بعمق والحرير يلتصق بحناياها بينما هي شاردة في غياهب كون آخر، فتحت عينيها تلتفت إليه بابتسامة لكنها لمحت نظرته، عقدت حاجبيها وعنفته بغضب:

- ما تبصيليش كده!..

ابتسم بعبث وتساءل زاويًا ما بين حاجبيه في غباء مصطنع:

- بابص لك إزاي؟

نهرته ثانية تشير نحو عينيه بإصبعها:

- أنت عارف.. كده!!

التوت شفتاه بمكر، لكنه هز كتفيه يهمس ببراءة:

- ده إعجاب.

تحدته بنظراتها تؤنبه وتعلن استيائها فأكمل ببسمة شقية:

- وحاجات تانية.. بس غصب عني.

لم تبتسم، فأراحها بإرادته والتفت بوجهه ينظر إلى النهر الجاري أسفل منهما، لقد لمح الخوف والرفض في مقلتيها، حتى منه هو!!

يود لو يملك عصى سحرية يحركها مرة فينسيها كل أوجاعها، ويحركها أخرى فيعيد إليها ثقتها بنفسها وبالآخرين، وثالثة تعلنه متوجًا على عرش قلبها..

لكن السحر يبقى حبيس الخيال، والجني أسير القمقم، وتتعثر الأمنيات في حفرة الواقع الملموس.. أما هي فيكبلها ماضٍ زرع الخوف في أرض روحها القاحلة ورواها حتى أزهر وأثمر، شعر بحدة المطر تزداد فخلع معطفه وأحاط كتفيها به، همس في أذنها بنبرة آمرة:

- كده هتبردي، يلا نرجع العربية.

لم تجادل، اكتفت بالطاعة وتلك الدغدغة التي تنتشل بقايا أنوثتها من الضياع تزداد وتزداد، ضمت المعطف الذي يشع بحرارته وعطره الدافئ حول جسدها وتبعته في صمت.

بعدما أوصلها أمام منزلها، لم تعلم لمَ فعلت ذلك!.. لكنها رغبت به ولم تتردد في التنفيذ، غادرت السيارة تضم معطفه حولها أكثر، وبينما يطبع شفتيه فوق كفها من جديد كانت تهمس بصوت لا يكاد يسمع:

- هاخليه معايا.

ولم يمانع، بل احتواها بين جفنيه بدفء، ولمعة عينيه تشي بابتسامة، تعد بأمان لم تعلم لمَ دومًا يبثها إياه في صمت!!.. لكنها تطمئن له، وتستسلم إلى جواره.

******

أحقًا مر أسبوعان!!

أربعة عشر يومًا منذ الحادث، وقبلها يومان ترك خلالهما المنزل؛ستة عشر يومًا في فراق، دون أن يراها كل يوم، يضمها حال نومه، يستيقظ على صوتها الناعم ولمسة يدها المعطرة الباردة!!

رباه!.. كم هي قاسية، عنيدة، ويعشقها!!

يريد فعل الكثير، التفكير فيما هو أكثر، امتلاك الزمام وإعلان السيطرة على جنونه الذي كاد يفقده إياها، حبه غير المحدود الذي آذاها في النهاية..

حين الندم؛ نلوم النفس.. مهما أخطأ الآخرون في حقنا.. تظهر أمامنا عيوبنا الخاصة، تتضخم وتستفحل، وننسى أننا أيضًا نحتاج لاعتذار، ننشد العتاب ونتحين اللوم.. هذه هي حاله، فقط يرجو قربها، ولا يبغي لومًا أو عتابًا!

ذلك الوقت الذي مر في بعادها، يكاد يحسبه بالثواني، ثوانٍ طويلة تسبب عقم المشاعر والأفكار، تجبر القلب على الجفاء وتسبب في تربته الجفاف..

هو يحتاج للارتواء، التنفس، القرب.. وهي تعاند، تتألم وتفارق دونما اهتمام لقلبه المصفد بأغلال عشقه لها.

لقد عاد بالأمس للعمل، يتهرب من الجميع كما هي العادة، يحاول التركيز، ويترك لها المساحة المطلوبة والوقت الذي تحتاجه.. يريدها أن تأتي إليه هذه المرة، نعم حينها سيعلن ندمه ويعد بمحاولات جدية للثبات على مبدأ..

"قليل من الغيرة، كثير من الحب"..

فقط عليها أن تظهر أمامه برغبتها، وكامل إرادتها الحرة..

بعد دقائق دون حساب وجد أخيه يدلف لمكتبه بهدوء، يقتحم عمقه الساكن بنظراته الثابتة المتسائلة، يبدو أنه عرف.. والآن حان وقت التأنيب والتوبيخ، تأفف بوضوح يبادره قبل أن يبدأ:

- مش عاوز نصايح ولا عتاب يا آدم، أنا مكتفي باللي حاسه.

رفع "آدم" حاجبًا بسخرية باردة استغربها، جلس أمامه لا يبالي بما قاله للتو:

- عارف إيه مشكلتك؟.. إنك مش عاوز حد يقولك إنك غلطت.. بتقول من نفسك أنا غلطان، وأنا عارف وكفاية عليَّ كده!!.. بس يا ترى أنت شايف حجم الغلط ده صح ولا بتقدره من وجهة نظر رجل عاشق وبس؟!

منحه نظرة مستنكرة تمتلئ بالدهشة، لمَ يهاجمه أخيه بحدة هكذا؟!..

لقد كان دومًا الهادئ الناصح الرفيق.. هل بالفعل خطأه يثير غضبه إلى هذا الحد؟!.. قاطع تفكيره بنظرة وحديث يكتمل بلهجة لم يخمن مغزى نبرتها الشاردة:

- أنا مش جاي ألومك، بعدك عنها وعن بيتك والولاد عقاب معقول، وإن كان عمره ما هيبقى كفاية بالنسبة لها، ده منطقي.. أنا جاي أنصحك بحاجة بسيطة هتنفعك في حياتك معاها قدام وقت ما تنول العفو وتقرر تسامحك وترجع لك.

نهض يتحرك في المكان بلا هدف تتابعه عينا الصامت المستمع:

- حاول ماتديش اللي بتحبه كل جزء فيك، تندمج فيه وتنسى إنك ليك كيانك المنفصل.. زي ما بتدي استنى تاخد، إحساسك إنك في عطائك غير محدود هو اللي مخليك ما تشوفش حبها، فكر شوية وشيل الماضي من جواك.. لأنه مستحيل يتمحي، هيفضل موجود سواء أنت عاوز أو لأ.

ثم توقف لثوان، ينظر خارج النافذة يتابع ضوء النهار، عاد يلقي بعينيه نحو أخيه الذي شرد في حديثه، أردف بصراحة:

- الغيرة الزايدة من القديم أو حتى من أي جديد بتخنق الحب.. وأنت حولتها لشك، والشك بيقتل.

واقترب من المكتب، يستند إليه بكفيه، ينظر إليه والآخر يتلقى النظرات بخنوع غريب:

- مش بيقتل الحب بس يا أدهم، بيقتل روح الحبيب!!

ومال أكثر يكمل بعمق متفهم:

- أنا عارف إنك مش قاصد إنها بتخون، بس ما تنساش إن الموقف كله على بعضه بأي كلام قلته كان شك، أنت مش واثق في حبها.. ولا حتى واثق إنك تستحقه عشان كده بتجري ورا كل شعور يحسسك بالنقص جواها، لأنك كده بترضي عقلك اللي بيقنعك إنك بتحبها أكتر بكتير وهي مش بتحبك بما فيه الكفاية.

ثم تراجع يدور مرة أخرى داخل الغرفة والصمت يحفه، يكمل بشرود من جديد:

- ما تنساش نفسك فيها وما تمنحش روحك لآخر الخط.. إعرف إمتى تدي وإمتى توقف العطاء ده.. وما تضغطش على مشاعرك في مقابل إنك مش عاوز تزعلها.. لأ، عاتب واغضب بس كله في حدود المنطق والمعقول.

وشرد أكثر وأكثر كأنه يحادث نفسه، يأمرها بشيء يخشاه بعنف:

- ما تخليش حبك يستهلكك.

بعدها زفر ينهي ما رغب في قوله، ثم استدار ينظر إليه ويعلمه بقراره:

- أنا هاسافر مأمورية إسكندرية بنفسي، محتاج أغير جو.

وكأنما انتقل من النار إلى الجليد، انتبه أخيه إليه فجأة يهتف بتساؤل:

- تسافر!!.. أيوة يا آدم بس...

وقاطعه ينهي أي جدال، فالقرار له وحده وفقط:

- هما يومين، وزي ما قلت لك محتاج أغير جو، وأبعد عن هنا شوية.

نظر إليه "أدهم" بشك، فلوح بيده واتجه نحو الباب، فتحه والتفت يلقي بكلمة أخيرة:

- فكر في كلامي، هينفعك صدقني.

وخرج، يغلقه خلفه بهدوء، لا يترك بصمة في المكان سوى تلك التي نقشها داخل عقل الأخ الأصغر، والفكرة التي زرعها هناك..

"لا تترك لحبك المجال لاستهلاكك بالكامل"..

وهو الأدرى أنه على حق.. حينها يكتنفه الضعف، ويفقد السيطرة على العقل وباقي الحواس.. ثم يتلون الكون أمامه بلون الغيرة الدامي، حتى فارقها في النهاية، وقبلها يسامح ويتناسى حتى لحظة الانفجار التي كانت من القوة حيث كادت تهدم كل شيء.

******

ببرود أخبرها بقرار السفر، وبوجوم تلقته..!

ألا يكفي مقاطعته الغريبة لها طيلة الأيام الماضية!.. حتى يفاجئها الآن بقرار سفر مفاجئ يبغي منه فقط البعد!.. ألن يتفهم أبدًا!.. يستمع ويتقبل ويمرر الأمر..

هي المحامية الشهيرة التي تجلجل بقضاياها ودفاعاتها في أكبر محاكم الدولة، تقف أمام غضبه المبرر مكتوفة الأيدي، تشعر بعجز غريب ويحيطها صمت أغرب.. وهو فقط لا يهتم، بل يبادلها صمتًا بصمت، ويعتكف بروحه داخل نفسه حاجبًا إياها خارج حدود عقله.

اليوم عاد من عمله، يتحرك كأنه شبح يطوف في المنزل، لا يختلط بأهله إلا بعض الوقت مع صغيره الذي لا يحرمه حنانه واهتمامه أبدًا، يجافيها، يخاصمها ويعاند بكبرياء رجل نازفة.

تكاد تسبه وتلعن ذلك الإباء الذي يتخذه ستارًا لغضبه، اعتذرت مرات ومرات، وكلما حاولت فتح الأمر أكثر والحديث فيه باستفاضة، وضع النقاط على الحروف وإنهاء تلك المعضلة الكونية اللانهائية تجده يتهرب، يرفض، وأحيانًا ينتفض بحنق ظاهر ويمنعها بالقوة وبالقسوة من النطق.

وها هو الآن يخبرها أنه سيسافر، على حاله من السخط، وبينهما خصام لم يرتجع عنه ولا يريد له حلًا تبحث خلفه هي كإبرة تاهت في كومة قش، يتناول بضع لقيمات فقط لأجل الصغير، يأمرها بتحضير حقيبة ملابس تكفي يومين، ويعلمها بقرار الغياب دونما اهتمام لرأيها.

تأملته يتحرك بحقيبته، يتركها خلف باب المنزل ويتوجه نحو غرفة "يوسف".. يجلس أمامه على الأرض بينما هو منهمك في دفتره الصغير يرسم بحس فني رائع، يطالع ما يرسمه قليلًا ثم يقبل رأسه، يعلمه بقرار سفره، ويلقي نحوها بنظرة بينما يخبره أن "ماما لمياء" ستهتم به وهو لن يتأخر كثيرًا.

حسنٌ!.. على الأقل هناك أمر ما يثق فيها عندما تتولاه، طفله الذي يعلم عن يقين أنها لن تتهاون في العناية به رغم حالة الغضب العامة التي تظلل الحياة بينهما بغمامة قاتمة لا تمطر.

عندما عاد ومال يلتقط الحقيبة متأهبًا للرحيل دون حتى أن يلقي إليها بتعليمات خط السير خلال غيابه، تمسكت به، ترجوه..

الذنب ينهشها حتى كادت تذوي وتتناثر من حوله، تعلم أنها أخطأت وهي ليست بالجبانة لتدافع وتعاند وتجادل عن خطأها، لا هي أشجع من ذلك وأولى خطوات الشجاعة اعتراف، فقط لو يمنحها الفرصة، ينصت ويستمع بعقله وقلبه معًا!!.. ثم يقرر فيما بعد.

وقفت خلفه تعقد ذراعيها حول جسدها كأنها تشعر بالبرد وتضم نفسها إليها، تهمس له بنبرة مهتمة راجية، تطالب قاضيها بالنظر في أمر قضيتها المستعصية على الحل:

- آدم.. هنفضل على الحال ده كتير؟!

توقف يوليها ظهره، لقد مر أسبوع، هو سئم، لكن الجرح لا يزال يؤلم، لا ينزف.. بل فقط ينشر بداخله الوجع، التفت لها بعينين لا حياة فيهما، يفكر قليلًا ثم يجيب بجمود لم يتخلص منه بعد:

-هما بيقولوا إيه لما القضية تبقى ما لهاش حل!!

وصمت لثانية أردف بعدها ونبرته تكاد تكون ساخرة، كأنما يهزأ من نفسه:

- آه.. يبقى الحال على ما هو عليه وعلى المتضرر اللجوء للقضاء، بس بما إن أنا المتضرر هنا والقضاء مش هيحللي مشكلتي؛ فأيوة!.. هنفضل على الحال ده.. لحد إمتى؟.. مش عارف!!..

ثم زفر بحرارة يفكر لفترة أطول، ويردف بينما يغادر دون أن يلتفت للوراء:

- يمكن لحد ما أنسى إني كنت مجرد مهرب أو بديل.

وكانت هذه طعنة جديدة سددها لروحها التي تفتقد اهتمامه وقربه وإحساس الاستقرار في كنفه، طعنة لم توجعها لأنه فقط يبعدها عنه، بل أيضًا لأنه هو الآخر يتوجع.. وبصمت.

******

"مش معقول.. طارق بيه بنفسه!!"

آخر ما كان يتمنى سماعه هو هذا الصوت بهذه النبرة وتلك الكلمات بينما هو في هذا الموقف بالذات! استدار يحمل صغيرته فوق كتفه، يقابل

العينين اللامعتين باهتمام متسائل، يرسم بسمة جافة فوق شفتيه ويجيب بنبرة لا تدل على ما يعتمل بداخله:

- أهلا يا دينا.. إزيك!!

وتبتسم.. بالفعل تبتسم، وبانتصار غريب، ونبرتها هي شامتة أوربما هازئة:

- الحمد لله يا طارق بيه.

ثم تقترب بثقة كأنها لم تعد تخشاه!!.. تداعب وجنة الصغيرة المكتنزة بقرصة لطيفة وتحدثه بمرح صارخ بافتعال:

- العسولة دي بنتك؟

ثم تداعبها مرة أخرى، وتوجه السؤال إليها هذه المرة:

- اسمك إيه يا سكر؟

وتجيب الطفلة بطلاقة منقطعة النظير:

- لوجي طارق عبد الجليل الحديدي.

وتضحك هذه المرة بمرح أكبر وحقيقي، ينبض قلبها بعنف، وتضع يدها فوق نقطة ضعف، وللحقيقة الصرفة: نقطة سيطرة.. الفتاة ستعطيها العنوان المفصل مع السؤال التالي، وتقرص الوجنة المغرية بالعض مجددًا وتداعب بصوت مثير:

- يا حياتي.

ثم ترفع عينيها للمحدق بجمود مستنكر، تبتسم بصلابة وتهاجم مباشرة:

- متجوز وعندك بنت!...

قاطعها نزول الصغيرة من بين ذراعي والدها تجري نحو امرأة رشيقة تصبغ شعرها بشقرة تناسب بشرتها اللامعة، ترتدي ثوب سباحة وفوقه قطعة شفافة لا تخفي شيئًا، ومعها طفلة أخرى تماثل الأولى، هي توأمتها إذًا!!..

اتسعت بسمتها واستطردت بانتصار:

- بنتين زي القمروزوجة جميلة!!.. إمممم!..

ورمقته بنظرة مستفهمة:

- يا ترى المدام تعرف عن مغامراتك ولا بتبقى في الضل!!

نهرها بعينيه يأمرها أن تخرس والرد من بين أسنانه يحاول الحفاظ على مظهر حضاري فلا ينقض عليها يخنقها في مكانها:

- ما تدخليش في اللي ما يخصكيش يا دينا.

الأحمق يتبجح!!.. حسنًا..

طريقة أخرى للهجوم، تنظر للمرأة التي بادلتها النظرة بدهشة متسائلة، تبتسم له ثانية وتواجهه بقوة تتظاهر بامتلاكها:

- طيب لو فرضنا إن المدام بتغمي عينيها وتعدي!!.. أكيد طارق بيه الحديدي مش هيتجوز أي واحدة!!.. ياترى بنت لواء؟.. مساعد وزير؟!.. ومش بعيد بنت الوزير نفسه...

وزمت شفتيها ببسمة تفاوض:

- ياترى بابي سيادة اللواء هيبقى راضي عن تصرفات جوز بنته الطايشة؟!

ضغط أسنانه بعنف ونارية نظرته أخافتها لكنها ادعت التماسك:

- عاوزة إيه يا دينا؟!.. وبتعملي إيه هنا أصلًا؟!

هزت كتفيها تجيبه ببساطة:

- ده النادي اللي اشتركت فيه جديد، وصدفة هايلة إنك كمان مشترك فيه، أما بالنسبة للي عاوزاه...

وصمتت تترقب رد فعله قبل أن تكمل ببطء صارم:

- تبعد عن طريقي.

وتماسك عن الضحك بصعوبة، يحك ذقنه غير الحليقة بين سبابته وإبهامه، يمرر عينيه فوق جسدها بتمهل أثار غثيانها:

- أنتِ بتهدديني يا دينا؟!

استقامت تتحدث بجدية حازمة:

- اعتبره تهديد، ولو ما نفذتش طلبي...

ولم تكمل، تركت له حرية التخمين، لكنه فاجأها بضحكة واسعة لا ترقى للقهقهة، وشملها بنظراته مجددًا دون أن يحيد بها بعيدًا عنها، مال نحوها دون اقتراب زائد:

- هي دي دينا اللي أنا أعرفها، تاخد حقها من بق السبع.

تأملته لثوان هي الأخرى قبل أن تجيب ببرود:

- لأ.. دي دينا اللي عاوزة تنسى الماضي، تبتدي من جديد وتعيش.

عندها شعر بيد زوجته على كتفه، تستند إليه وتتأمل الفاتنة التي تثرثر مع زوجها بحميمية لم ترق لها، بادرتها باهتمام فضولي:

- هاي، جيجي مرات طارق.

منحتها "دينا" ابتسامة كبيرة مشرقة كأنها تشكرها على منحها الخلاص:

- دينا أبو العز، معرفة قديمة مع طارق بيه.

وانعقد حاجبا الزوجة بينما تعتدل في وقفتها، يتردد اسم الحسناء داخل خلايا عقلها حتى يكاد يفجرها، والذكرى القاهرة تعود وتصرخ بجنون:

"تلك هي من همس باسمها وهو بين ذراعيك"

حيتهما بإيماءة أخرى، منحت زوجته بسمة لطيفة، ورشقته بنظرة كالسهم تحذر وتندد وتطالب.. بل تأمر، هنا غريزة البقاء تتولى السيطرة وتتمسك بمقعد السلطة، وهي ستفعل المستحيل لتحيا من جديد مع من ينبض قلبها باسمه.

فقط عليها تطهير بعض أذيال الماضي أو قطعها للأصح، امتلاك الجرأة والشجاعة لمصارحته بما حدث لها وبما كانت عليه.. ثم استجداء عفوه ومغفرته..

لو كانت تعلم أنه سيظهر في يوم ما.. وقت ما بمستقبلها العقيم؛ لاحتفظت بكل ذرة في كيانها لأجله، لكن كل ما تملكه الآن هو قلب يتمنى قربه، وروح تهفو إليه، وقوة منحتها إياها رغبتها في الانتهاء به ومعه، ثم تختتم بأمل وضع هو دعاماته داخل كيانها المتلهف للحب والأمان.

******

ينهب الطريق بسيارته نهبًا، يود لو أمكنه الطيران، امتطاء صاروخ أو حتى التواجد هناك في طرفة عين؛ كم هو أحمق، غبي، أناني، وجبان ضعيف!

أنَّى له الغياب في هذا التوقيت!!.. كيف أمكنه الابتعاد؟!.. هل سيتحمل وجع فراق لم يكن قبله لقاء أخير؟!.. ولكن.. أهذا فراق!!

يومان خارج العالم، غيبوبة اختيارية في تمام وعيه، يهرب من ألم الخذلان، وربما يضخم الأمور لكن هذا هو دون إضافات أو مكملات تجميلية.. موعد

عودته المفترض كان في صباح الغد، أي بعد أربع وعشرون ساعة أخرى.. لكن المكالمة القاصمة أتته حال هروبه.

قبل ساعتين، اتصل به أخيه الأصغر، يخبره عن اشتداد المرض على الأب، صوته، ارتباكه، خوفه الواضح، ونبرته المتألمة بعنف.. كلها أطاحت بعقله، لا.. لا يمكنه، لن يمكنه.. بل كيف يمكنه؟!

لن يفعل مثلها ويغادر العالم بهذه البساطة!! بينما هو بعيد، بينما هو لا يعلم.. بينما هو غائب!!.. لن يكون بهذه القسوة، بل لن تكون الحياة بهذه الغلظة والجهامة..

أليس من حقه الحزن؟.. الانطواء؟.. قليل من الابتعاد وإعادة حساب معادلات حياته التي ما إن تشرق فيها الشمس حتى تظلم بغيوم سوداء جافة!!

هو لن يفعل.. لن يتركه قبل وداع، قبل قبلة على الجبين وضمة..

لا!.. ولمَ يتركه؟ الكل تركوه، وهو من بقي.. فكيف يقسو لهذه الدرجة؟.. كيف يجعله يخوض غمار الفراق مرتين بنفس النكهة الشرسة التي تطحن ضلوعه وتعصر قلبه دونما اكتراث..

هو الآن على مشارف الموت، وإن كانت أنفاسه تتصاعد بارتياع مذعور وخافقه يئن بنبضات الهلع!!

أبوه يريده، يطلب رؤيته، علامة موجعة على غد لن يكون فيه، كأنما الموتى تُرفع عنهم الحجب بالفعل فيطلبون مفارقة الحياة في حضور الأحبة، لا يعلمون كم هو أليم ذاك الحضور!!

أن تقف أمام من تحب وتراقب خروج الروح، سكون الجسد وبرودة تتسرب إليه فلا يكفي صراخك أو عويلك أو قربك في محو القليل منها ولو بذلت دفئك كله!!

عجز، وهن.. كلي وشامل، قهر وتماسك مُدعى لأنهم يحتاجون رؤية الصمود بين جفوننا، دموع محبوسة لمنحهم اطمئنانًا على من يتركونهم خلفهم حين الرحيل الأبدي..

وصل للمنزل لا يدري كيف قاد طوال الطريق!.. ولا كيف حتى سار عبر الشوارع ليصل؟!..

كأن عيناه تبصران وتحركانه نيابة عن عقله الذي لا يعلم أين هو بالتحديد!!..

التاسعة صباحًا، والشمس تظهر بخجل تودع الشتاء وتمحو صقيعه..

طرق الباب بعنف، يكاد يصرخ مناديًا على أهل الدار، بل يقفز عبر الشرفات حتى يصل لغرفة أبيه، يكاد يموت كمدًا وقلبه لا يكف عن النبض المرتاع، ومخه على وشك الانفجار..

انفتح الباب...

وظهروجه أخيه، عينان مظلمتان، ملامح جامدة تشي بسكون الموت، ولمعة دامعة حبسها بين الجفون دون إطلاق سراح، تراجع خطوة ينتفض كطير ذبيح، يشعر ببرودة عنيفة تكتنف جسده وتنتشر فيه كنار في هشيم، بل وحتى روحه، يهز رأسه في رفض.. بعنف وشراسة قاسية، ينفي واقعًا مرسومًا باحتراف على وجه الأخ الأصغر، ويتمتم بنبرة قلب تم نحره ببطء وجفونه تطرف بتتابع سريع:

- لأ.. لأ.. لأ..

وبين الـ "لا" الرافضة التي تخرج من عمق روحه، والموافقة الصامتة من الواقف أمامه صرخ بها أعلى واندفع يتخطاه علَّه ينال نظرة وداع.. أخيرة.

(٢٠)

رحيل بلا عودة

إنه عربة تقف عند كل باب..

إنه يصحح كل الأخطاء، ويجفف كل الدموع..

إنه سكين على رقاب العباد..

إنه نقطة في نهاية كل سطر!

...

الموت هنا، الموت هناك..

الموت مشغول بالحياة في كل مكان..

كل مكان: مقبرة.. كل زي: كفن.. كل بداية: نهاية.. كل حي: ميت!

أنيس منصور

هل يمكننا أن نعاتب الموتى؟!

هل يحق لنا الصراخ في وجوههم الساكنة وشفاههم البيضاء!..

هل نلوم؟!.. نوبخ ونعدد المساوئ؟!.. نخبرهم عن مدى قساوتهم بينما ردهم الوحيد هو الجمود والصمت!

هل نلقي بالتهم؟!.. نصبح المدعي والقاضي والجلاد أمام عجزهم عن الدفاع!..

هل نتهمهم برغبة الفراق دون مبالاة بمن يتركون خلفهم ثكالى القلوب!!

كلها أسئلة تدور في فلكِ الضعف، انكسارِ القلب، هوانٍ تشعر به الروح ويتغلغل فيها حتى تباعدت عن إيمانها بأنه..

"لكل أجلٍ كتاب"..

وأننا مهما حاربنا، غضبنا، أصابنا الحزن وجزع الرحيل الأبدي، فهي نهاية محتومة مقدرة قبل الميلاد، لكن.. حين المصيبة؛ إما أن تصبر فتؤجر.. أو تجزع فتهلك روحك وتسأل فتأثم!!

والبعض يتبلد، يتجمد وتتجمد معه ملامحه، عيناه، صوته، وكل حركاته تتحول لسكنات، عقله ينغمس في دوامة الشرود، والقلب يتيه في عالم الخوف ويقبع في ركن الصمت يتوجع بعيدًا عن الأعين.

يغفل عما حوله، يركز كل ما تبقى من وعيه فيمن فارق الحياة، راقدًا فوق فراشه ووجهه مغطى بنبوءة تعني اللاعودة، نقطة لا رجوع بعدها، لا أنفاس، لا همهمات أو كلمات أو حتى غضب يقسم أنه سيبتلعه فقط حتى ينعم مجددًا بالقرب.

وللمرة الثالثة يفارق، وللثانية يفارق دون لحظة وداع أخيرة يشبع فيها نهمه لمن تركه خلفه بقسوة، ينكب على يديه بقبلات التبجيل، ويمنحه دمعات الرعب فينال ربتة حنون تبث قلبه شيئًا من طمأنينة لن ينالها الآن.. ولا حتى حين يموت.

لا يعلم كم بقي جالسًا في المقعد المجاور لفراش والده!! ساعات.. سنوات.. عقود وربما قرون!! يكشف عن وجهه الساكن، لا يبدو عليه ملامح الموت، هو نائم فحسب، وهم يمازحونه، كبرامج المقالب التي يكرهها ويحتقر من ينضمون إليها!!

هي محض مزحة قوية، قاسية، ولا تعجبه، سيفتح الأب عينيه الآن، يبتسم، يضحك، يلكزه في كتفه، ويخبره بمرح أنه قد وقع أسير الفخ وانطلت عليه اللعبة..

مد يده المترددة، يهز كفه، يتوسله بقلبه، يستجديه..

"افتح عيناك أبي"..

أنت لن تفعلها!!.. أنا ولدك الذي فارق كل من اهتم لأمره، كل من تعلق به قلبه على اختلاف المشاعر، لن تفعلها أنت الآخر وتتركني، ودون وداع..

لن تقسو لهذه الدرجة، هيا.. المزحة انتهت وتوقفت الكاميرات عن الدوران، فليظهر المصور، وليصرخ المخرج: "اقطع".. هذا مشهد رائع يا سادة، هل نذيع أم...!

وسيضحك حينها ببلاهة ثم يناوله لكمة يكسر بها فكه المبتسم، بعدها يرتمي في حضن والده، يعاتبه، يتظاهر بغضب من بين الدموع ويطلب ببراءة طفل ألا يكرر تلك الدعابة مرة أخرى، هي ثقيلة غير مضحكة ولم تعجبه..

هيا أبي.. هيا أنا أعلم أنك مستيقظ، أكاد أرى حركة بؤبؤيك أسفل جفنيك المنغلقين، لا تمزح.. لا مزاح في الموت أبتاه!!

ويكاد يصرخ: هيا!..

لكن الوجه الساكن يحتفظ بسكونه، لا تتحرك شفاه ببسمة، ولا تتفرق جفون بلمعة عينين محبتين، ولا تنضغط النواجذ حبسًا لضحكة تحاول الانفلات من المشهد المحبوك بخبرة.

والآخر يحفر وجهه الألم، يتوجع كأن صدره يُشق، أحدهم يحطم ضلوعه، يقبض على قلبه، يعتصره، يُسيل دمه ويُغرق به المكان، يسحب روحه في الطريق، ويكاد يلتحق بمن تركه وفارق قلبه النبض.

هل يسعى لكلمة "لو"؟!

يفتح بها أبواب الشياطين ويترك لها حرية التجوال في طرقات عقله العليل الضائع؟!

فربما لو كان هنا، لحظي بضمة أخيرة، نظرة دافئة، أو حتى وصية على أخويه الصغيرين ووالدتهما..

"هيا "آدم".. أنت الأكبر، أنت رب هذه الأسرة من بعدي، اعتني بهم جميعًا، لا تتركهم للتشتت بعدما تواريني الثرى، كن أنت الأب الذي لم أكنه أنا.."

ويقسم أنه سيفعل، وتعود "لو" للظهور.. فقط لو تفتح عيناك أبي وتأمرني بما تريد، دعني أرى نفسي فيهما لمرة أخيرة قبل أن تنطفئ لمعتهما للأبد.

لكن الجواب صامت، الحروف مذبوحة على شفاه خاطها الفراق بخيط سرمدي، لا ينقطع ولا يمكن تحريرها من أسره المحكم.

يمسك بكفه الباردة، ينحني، يدمع، يقبل جبين، ويهمس بأنين:

"حتى في فراقك!! كنت قاسي يا والدي"

******

ليست كل الأوجاع مقبولة، بدرجة محتملة، أو لا تتحسس لها الأرواح!!

عندما نفارق من نحب دون أن يعلم كم كان غاليًا؛ لا يصبح الرحيل مجرد فراق، لكنه يتحول بفعل أطنان من المشاعر المتضاربة إلى مخاض ينتج عنه عذاب أبدي!

لوم وندم يدوم ربما حتى توقف الأنفاس، والكثير من أمنيات تطالب بالرجوع، العودة بالزمن.. لكن الأمر غير مسموح به، الفرصة تُمنح مرة واحدة.. وفاتت، وأنت من ضيعت، فألقِ بالأحزان على كاهلك علَّك ترتجع، تتعظ.. وتغير في مستقبلك.

وليس الكل يفعلها، هناك من يستمر على غفلته، وهناك من ينتبه للرسائل، تتفاوت العقول والقلوب، ويبقى في النهاية نقاء الروح هو العامل الرئيس.

ها هي الكاميرات تهبط الدرج، تقترب من المنتحبة الباكية بعنف أضاع رونقها الذي تهتم لأمره أكثر من أي شيء، تجاور ابنها وترتمي فوق صدره تبلله بعبرات لوم الذات، تهمس بضياع:

- كنت بحبه.. أيوة يا أدهم والله، بحبه.

وتبتعد، تلتقط محرمة ورقية تحاول لملمة الدموع التي تعاند بانهمار فيضاني لا يتوقف، وتكمل بضعف:

- يمكن ما قلتلوش، بس أكيد كان عارف!!.. كان واضح عليَّ، مش كده يا أدهم!!.. مش كده!

والصامت مكفهر الوجه، يربت بتكرار لا حياة فيه، والعينان شاردتان في البعيد الذي لا نهاية له، لا يسمع أي صوت، الكاهل مثقل بعبء الألم والرحيل الذي رغم كل شيء لم يتوقعه..

أما الصغيرة المدللة، فتبكي، وتهتم لأمر الأم المنكسرة، والأخ الأكبر الذي يرفض فراق من رحل، سألته من بين دموعها:

- أدهم المفروض أكلم لميا وجمانة.

نظر إليها بجمود الموتى، هز رأسه لا تدري أهي موافقة، أم مجرد إشارة على وجود حياة في جسده الساكن!!

وتعود فتدمع وتهاتف زوجة الكبير، تخبرها عن فقد واحتياج، وتطلب منها سرعة الحضور لأجل من تظنه الأضعف في هذه اللحظة.

"كنت بحبه، بس ما قلتش، وانتهت الحياة رغم طولها قبل ما أقول!!"

صوت الأم يعلو بنحيب ونبرته نادمة، والابن يبتعد بصدره، القبضة العاصرة التي تكاد تحبس أنفاسه تضغطه أكثر، وقسوة ما تتخلل روحه تهدد بضياع إن لم يكن هو الدعامة التي سيستند إليها الجميع!!.. هو من يتلقف الدموع ويمسحها، هو القوي والمسئول!!.. هو الذي سيهتم بكل شيء..

أمه تشعر بانتكاسة في مشاعرها رغم سنوات عشرة طويلة أضاعتها متناسية ما تعلم الآن أنها فقدته!.. أخته؛ صغيرة، حزينة، باكية تدعي التماسك ولا تملكه!.. أخوه؛ الحلقة الأضعف والانكسار الذي لن يجبره شيء، اليتيم الأول والأخير، الرجل والطفل الصغير، المفارق على الدوام، كأنما لعنة الموت تطارده.. أما هو.. فسيتسم بالقوة، سيُحضِّر للعزاء، يتولى الدفن، يستخرج الأوراق، يمسح الدموع، يضم ويحنو، ويحبس آهاته داخل صدره حتى ينطبق..

******

الدموع لا تتوقف ولن تفعل، ألا يكفي وجع بعاده الذي اختاره كمسلك لخطواته بعدما حدث، والآن هو من يفارق، وتنتهي الحياة دون وجوده..

تخشى الكثير، الكثير جدًا، فلولاها لكان هنا، يرى، يعانق، يحادث ويودع!.. لكنها أغضبته فهجر، سافر وابتعد فحصل على فراق دون وداع..

وعلى من يقع اللوم؟! عليها هي حتى لو لم يلمها هو!

هي تلوم نفسها، تكرهها.. ولا تملك لها سوى التأنيب الذي لا يجدي!.. هي لم تكن له الزوجة التي تمناها وأصر عليها.. رغم أنه حاول تعويضها برقته وحنوه ورجولته الرزينة عن كل ألم مضى أو سبق ومرت به، خذلان أضعفها، وكسر كبريائها.. ورد الجميل كان كسره هو..

تقود بسرعة، تريد الوصول إليه، الشمس تسعى لتوسط السماء والجو يكتسب حرارة صيفية رغم أنه فصل الربيع المترب..

رنين هاتف أختها الحمقاء يتصاعد ولا مجيب، هل ماتت هي الأخرى؟!.. زوجها يحتاجها!!

الفراق، الموت، نهاية الحياة.. لحظات قريبة ودون سابق إنذار!.. تفاجئنا بالغياب الذي لا لقاء بعده، ونخضع دون أن نملك من الأمر شيئًا؛ فلمَ نعاند ونكابر ونقسو!.. ماذا لو حانت لحظة القدر حين الهجر؟!.. بمَ سيفيدنا الندم؟! وكيف سنتحمل تقريع القلب ومعاتبة الضمير!..

هي الآن تريد الاعتذار، تريد احتواء وجعه الذي تعلم كم هو عظيم، وبمجرد تخمين.. هو لا يحكي قط، لا يشكو ولا يبث الآخرين آلامه، لكنها تتفهم، القصة واضحة والسطور منقوشة بالألم، إن لم تفهمها هي فمن يفعل؟!

تعاود الاتصال.. ورنين، ثم لا جواب!! تشتعل غضبًا ويذوب قلبها حزنًا..

وصلت للمكان، رائحة الموت تشع منه، مراسم العزاء الواضحة، أناس كُثر، وأسى يرتسم على الوجوه، بينما الوجه الذي تبحث عنه لا يظهر في الصورة.

دخلت للمنزل تتلفت حولها بخجل، لم تكن هنا من قبل، ولا تعلم كيف ستكون المقابلة! لكنه هنا، ويحتاجها.. إذًا الجواب لا يحتمل التردد.

تقدمت ببطء تبحث عن وجه مألوف، حتى قابلت "أدهم" الخارج من باب جانبي، يبدو عليه التماسك، لكن مع طرفة عينه لمحت ألمًا يختفي خلف جدار الصلابة المصطنع، نادته بخفوت، التفت لها ولمعت مقلتاه للحظة بكرب واضح، شعرت بغصة تسد حلقها، اقتربت منه تعزيه وتسأل عن زوجها، أجابها وغادر بصمت، لم يتساءل عن شقيقتها كأنما هو الآن مسير لقضاء مهام محددة لا يتحول تفكيره عنها.

ومحاولات فاشلة من جديد للاتصال بالبلهاء الصغيرة.. لا تعلم أين هي!!.. ولا تملك الوقت لمزيد من البحث..

صعدت الدرج ببطء، عند أعلاه قابلت "سارة".. أمالت رأسها تنظر إليها بحنان، واقتربت تضمها بين ذراعيها بتردد، تقبلت الفتاة ضمتها واستكانت فوق صدرها لثوان بدموع صامتة، تبثها ألمًا وتمتص منها بعض الحنان.

أشارت لها على غرفة أبيها وحثتها لتذهب لأخيها القابع هناك بانتظارمراسم الدفن، خطت نحوها بارتباك.

لا تعلم كيف ستظهر أمامه!!.. هل سيتقبل محاولاتها لدعمه ومساندته واحتواء أوجاعه!! أم أنه سيرفض والأسباب كثيرة والدفاع ممنوع ورفضه حق مشروع!!

عند الباب توقفت لمرة أخيرة واتصال.. أخيرًا سمعت صوت أختها الناعس، كادت تصرخ لكنها همست بغضب من بين أسنانها لا تريد أن تسمعها وصلة من السباب غير المحترم:

- أنتِ كل ده نايمة وأنا باتصل بيكِ من أكتر من ساعة يا جمانة!!.. عمو جلال الله يرحمه.. تعالي لجوزك عشان أكيد محتاجك.

ولم تطل أكثر، لم تسمع ردها ولم تهتم له فقد أدت مهمتها والآن حان وقت المهمة الأصعب والقريبة من المستحيل، لكنها تعده وتعد نفسها أنها ستكون إلى جواره مهما كان رد فعله على وجودها.

لقد تركت الصغير في رعاية مربيته، وأتت إلى هنا تطمئن، تهدهد وترفق وتمنح، ثم ستعود به إلى منزلهما حيث الابتعاد عن الذكريات العالقة بأبيه وكل ركن في هذا البيت.

طرقت الباب بهدوء ولم تحصل على استجابة، فتحته وأطلت برأسها، ظلام إلا من بصيص لضوء النهار يدخل على استحياء من بين خصاص النافذة.. بحثت بعينيها عنه سريعًا ووجدته.

دلفت للغرفة وأغلقت بابها خلفها، كان مستلقيًا على أريكة عريضة في جانب الغرفة المواجه للنافذة، يضع ساعده فوق عينيه، وذراعه الأخرى تستكين إلى جوراه، أنفاسه منتظمة بطيئة الإيقاع لكنها توقن أنه مستيقظ.

اقتربت أكثر، انحنت تجلس أمامه أرضًا فوق ركبتيها، تمد يدها بارتباك تربت على كفه المستريحة فوق الأريكة، لم يتحرك، لكنه علم أنها هي..

وفي داخله تتصارع المزيد من الأفكار والمشاعر!..

الآن رحل الأب، وقبله الزوجة وأم طفله، وقبلهما بكثير أمه هو.. فماذا عنها هي؟!.. متى يحين موعد الرحيل؟!.. هل حينها ستفارق دون وداع، أم ستحنو بنظرة أخيرة!

كثيرًا ما ود لو كانت نهايته هو الأسبق، أن يتجرع الآخرون مرارة فقدانه كما شرب هو كؤوس أوجاع فراقهم.. أناني هو؟!.. ويجيب بنعم.. بحدة وقسوة أنبتها الزمن في قلبه، قسوة لا يداويها حنان ولا يمحوها حب، ولا تنفعها شفاعة الاهتمام..

سمع همسها الخافت باسمه، وكان أول ما نطق به دون أن يبعد ساعده عن عينيه:

- يا ترى مين فينا هيفارق التاني الأول!!.. أنا.. ولا أنتِ؟!

ونال شهقة!! بالطبع.. فالرقيقة لا تتخيل سؤالًا مخيفًا كهذا، لكن من قال أنه مخيف!! بل هو واقعي للغاية، واقعي حد مرارة تغمر حلقه وتحبس غصة في منتصف عنقه تصيبه باختناق، كشف عينيه ونظر إليها بدموعها التي تغرق وجنتيها.. لأجله!!

تأملها بجمود، ثم أردف ببؤس لم يكلف نفسه عناء مداراته:

- ما تقلقيش عليَّ.. أنا اتعودت، ما فيش داعي للدموع.

وشهقت ثانية، وازداد السيل انهمارًا، ربت على كفها بآلية، يواسيها ويواسي نفسه، لكن العلقم في فمه لاذع حاد، لا ينتهي مذاقه بشربة ماء، ولا تغطيه قطعة حلوى.. اعتدل جالسًا وأجلسها إلى جواره، يتأملها كأنه يتساءل عن الوقت، أصبح هو كل ما يهمه.. متى سترحلين؟

وتبكي من جديد، وتقترب، فتضم وتقبل رأسه وتهمس بحنان أم:

- أنا مش هاسيبك أبدًا.

ولم يفارق دفء أحضانها فقط غمغم بيأس:

- ده وعد مش هتقدري تحافظي عليه.

لكنها لا تزال تحاول وتصر:

- هاحاول أحافظ عليه ما دام أقدر.

لكن الوجع أكبر من مساندته بكلمات:

- الموت أكبر، هو الحقيقة الوحيدة في الكون، هو القوة العظمى اللي ما حدش يقدر يتحداها، الكل بينحني قدامها ويسلم ويستسلم.. وهي دايما اللي بتنتصر.

لكنها تريد له راحة فتحنو أكثر:

- هادعي ربنا.. والدعاء ممكن يرد القضاء.

ابتسم بشفقة ورثاء لحاله:

- هتدعي إني أموت الأول؟!

أصابتها وخزة حادة في قلبها إثر سؤاله!!.. لكنها تبتسم بشجن من بين خيوط دموعها:

- هادعي نموت سوا، لا تسيبني لوحدي ولا أسيبك لوحدك.

ويغمغم بيأس أكبر كأنما لم يعد هناك أمل يطرق باب عقله:

- هتقدري تعيشي من بعدي ما تخافيش.

لكنها تخاف، بل ويدق خافقها بعنف أسفل أذنه، ما هذا الحديث!!.. هي تريد مواساته، منحه قليلًا من الراحة والهدوء النفسي، الاهتمام والعناية بقلبه المتوجع وروحه الحزينة، لكنه يغوص في وحل القنوط أكثر، ولا يمنح نفسه معها فرصةً في أمل.

تشعر بنفسها موثوقة اليدين لا تستطيع تخطي حدود الألم معه، وبه محزونًا غارقًا فيه حد فقدان الشعور، ضمته بقوة أكبر تتخلل خصلاته المشعثة بأصابعها، تهمس له برقة، تواسيه وتحنو، لكنه قاطع كل ذلك بجملة قصيرة كادت توقف نبضها:

- مكتوب عليَّ أفارق من غير وداع، يمكن الوحيدة اللي كان القدر رحيم بيَّ معاها هي أم يوسف..

وشعرت به يجاهد ليملأ صدره بالهواء، هل سيلومها الآن!! لكنه استطرد بنبرة ضعيفة:

- ده قدري.. وراضي بيه.

وتململ قليلًا ثم عاد يستكين بحيرة وضياع:

- مش عارف الرضى ده لأني ما فيش حل قدامي غيره!!.. ولا صبر حقيقي على تكرار البلاء!!

تشعر وكأنه يهذي!!.. أو ربما يواسي نفسه ويخلق لها منطقة توازن تستطيع الوقوف فوقها دون الوقوع في ظلمات اليأس والفزع عند المصائب!!

ويتمتم بصوت خفيض:

- أنا عاوز أصبر، عاوز أتعود.. باقنع نفسي إنها خلاص المفروض تكون فهمت الحدوتة وإن الحياة مستحيل تديك لآخر الخط، لكن لما باحسبها من البداية بالاقي اللي اتاخد مني أكبر..

رباه!.. أبعدته عنها وانخفضت تقف على الأرض بركبتيها أمامه، تمسك وجهه بين كفيها وتواجه عيناه، لا تتوقف دموعها وتلمح بشارات دموعه تتعلق بأطراف أهدابه السفلية، لا تنذر بهبوط لكنها ستفعل..

ابتسمت بانكسار تربت على وجنته قرب جفونه:

- ما تمنعهاش، سيبها تريحك.

هز رأسه يائسًا بشدة:

- تفتكري دموعي فيها راحة!!.. ولا الأريح نهايتي؟!

بكت أكثر وتعود فتضم وتهمس بانفعال:

- ما تقولش كده!

لكنه استسلم لها كما في السابق بخنوع ضعيف، واستمر في حديثه البائس كأنما يفرغ ما في جعبته من ألم طال حبسه بين جنبيه حتى تخطى كل حدود الاحتمال:

- القصة اتكررت كتير قوي، من وقت ما كنت لسه مش فاهم يعني إيه موت!!.. يعني إيه أصحى وأدور على أمي، فين لعبتي؟.. فين لبسي اللي بحبه؟.. فين فطاري؟.. وأبكي وهي ما تظهرش عشان تحضني وتمسح دموعي!!.. وفي الآخر ببساطة قالوا: ماما في السما، بقت ملاك.. بتشوفك دلوقتِ، ما تعيطش عشان هي تبقى فرحانة وسعيدة بيك.

وتنهد بحرارة أشعلت قلبها عليه وجعًا:

- وحبست دموعي.. عشان خاطرها، عشان تفرح وعشان أنا راجل، المفروض أكون كبير وما أبكيش، اتعلمت إن الدموع ضعف، بتهين الكرامة، مجرد رد فعل سلبي للعجز، وفضلت أحبسها طول عمري..

وابتعد عن دفء أحضانها يشرد خارج النافذة والضوء الخافت يغلف ملامحه فيظهر شجنها أكثر:

- حبستها لما بدأت أكبر وعرفت إن الراجل ما يقدرش يعيش من غير ست حتى لو عشان خاطر ابنه!!.. لما الأب اتجوز أول واحدة شافها مناسبة لمستواه الاجتماعي وحياته مش للطفل اليتيم اللي محتاج أم.. لما عرفت إن وجودي شيء زائد، وفي معظم الوقت غير محتمل، لما كبرت لوحدي وكنت أنا الأب لأخويا الأصغر مني، لما علمته إزاي يكون قوي وإزاي يقف على رجليه، وإزاي يكون حنين مع اللي بيحبهم ويحبوه..

ويلتفت إليها بعينين فارغتين كعيون الموتى:

- حبستها لما مرات أبويا اتهمتني.. ولما اتغربت وهربت من كل حاجة تربطني بهنا!

ولمعت الدمعة من جديد توحي بوجع أكبر:

- وحبستها لما لورين ماتت وسابت لي يوسف أربيه لوحدي، وأتحول لنسخة تانية من والدي اللي كنت...

لم يستطع أن يكمل، وهي لم تستطع القول أنه ليس كأبيه.. أن تقنعه أنه اختارها هي وهي لن تؤذيه أو تؤذي طفلهما أبدًا.. نعم هو طفلها رغم أنها لم تخُض آلام حمله وولادته، فقط ثمرة تعلق بها القلب وهي تكتفي به، لم يمكنها القول أنه مختلف وأنها أيضًا مختلفة.

اعتدلت تجلس إلى جواره، تحيطه بذراعيها ثانية وتلتزم الصمت، تمنحه أذنيها وعقلها وقلبها ينصتون إلى شكواه الأولى.. وربما الأخيرة..

أردف أخيرًا بصوت دامع بوضوح:

- لما في النهاية فقدت الأب.. واتخلى عني كعادته من غير وداع، من غير ما يقولي إنه بيحبني زي إخواتي، من غير ما يقولي أنت راجل البيت من بعدي وخلي بالك منهم كلهم.

شهقت بدموعها ثانية، حاولت الحديث فخرج صوتها متحشرجًا يغص بأنات معذبة:

- ابكِ يا آدم.. قلبك محتاج دموعك، ما تقساش عليه، رطبه بيها واسمح له يحزن، الدموع مش ضعف، وحبسها مش قوة، كتمان وجعك بيوجع أكتر، اشكِ، اصرخ، ابكِ، حتى لو عاوز تغضب وتكسر وتلوم، طلع كل وجعك، لأن قلبك محتاج يرتاح.. محتاج يفضفض.

رفع رأسه ينظر إليها بوهن، قبلت جبينه بحنو وهمستها الأخيرة أطلقت العنان لدموعه الحبيسة:

- ابكِ..

واستسلم لأمرها، وبكى..

******

ماذا عن الرحيل!!

يصير الأمر بسيطًا بالنسبة لمن غادر، فما هي إلا طرفة عين ويتبدل الحال، تطفو كريشة تحملها النسمات، وتصعد الروح لباريها، بينما يتبقى للماكثين الرثاء، الغضب، ومسئولية ثقيلة لم تكن في الحسبان، ولا تخضع لقانون التوزيع العشوائي، لك منها القليل وتتهرب من بقيتها بخدعة ماهرة أو ماكرة.

لا!.. كل شيء، كل حزن، كل ألم، كل دعم وسند واحتياج وحنان واحتواء وأوراق و... والكثير من حروف العطف، فوق كاهلك أنت الذي ناء فجأة بحمل ثقيل لم يدر بخلده لا الآن، ولا في مستقبل قريب، لكنه حدث.. وعليك أن تكون على قدر تحمله وحمله والسير به.

دوامة لا تنتهي، حركة دؤوب، معاملات ورقية ومجاملات اجتماعية جوفاء، ساقية يدور فيها كثور مكمم الفم ومعمي الأعين، متى ينتهي؟.. وهل سينتهي؟!

الكل يشد من أزره، يقولون نحن معك، إلى جوارك، لن تكون وحيدًا.. وفي الحقيقة هو منذ اللحظة الأولى وحيد، وحيد خائف مذعور مفارق بفاجعة أخذته على حين غرة ولم تترك له من حينها فرصة لالتقاط الأنفاس.

والدته قبل قليل غادرت لغرفتها بصحبة زوجته وأخته.. زوجته التي تولت واجبات العزاء طوال اليوم دون أمه المنهارة بشكل تام الآن، زوجته التي أتت تبحث عنه بدموع لم يكن ليحتملها هي الأخرى، فلديه منها مخزونًا يكفيه لنهاية العمر، دموع أغرقت صدره وأغرقت روحه.. دموع حبسها بصلابة لكنها تخدش جدران قلبه بسكين حاد، تنقش الألم، وشفاه تمتنع عن الصراخ علَّها تكون الأقوى.. بل لأنها لابد وأن تكون الأقوى وإلا.. فالنتيجة انهيار.

دموع ود لو تركها تنهمر كفيضان يقضي في طريقه على الأخضر واليابس.. لكن دومًا هناك ما هو أكبر، ما هو أهم، من هو أولى.

أخيه الأكبر حزنه مضاعف عشرات المرات، لم يره كثيرًا إلا وقت العزاء، قبلها كان يلازم أبيه وتركه فقط وقت تغسيله الذي وقف هو عليه بكل جَلَد وصبر، مغمض العينين وقلبه ينشج بدموع القهر في صمت..

أخته التي تركها الأب خلفه، صغيرة، بريئة لا تعي من الدنيا سوى أنها لن تقلق بشأن أي شيء ما دام أبيها هنا.. والآن رحل، وسيكون هو مكانه، إن لم يفعل فمن سيكون!!

وأمه.. آه يا أماه، بكاءها يوجعه بشدة، ربما لأنها دموع حزن على من فارق، وحسرة على تسويف طال وطال حتى انتهت الحياة دون أن نمنح من نحب كل ما بداخلنا من حب.

يا إلهي!.. الحياة قصيرة، بل قصيرة للغاية، نغادرها فجأة، أو يغادرنا من نهتم لأمرهم فجأة، ونعض بعدها أصابع الندم.. لكنها فرصة واحدة نُمنح إياها وبعدها لا شيء.. لا شيء.

يشعر بأفكاره ضائعة، مشتتة، لا ترتكز على دعامة ولا تتجه نحو هدف محدد، هي فقط تتطاير داخل عقله الذي شُق عليه طول اليوم وأحداثه التي انتهت ولم تنته.

خلع سترة بذلته السوداء، ربطة عنقه القاتمة وفك أزرار القميص العلوية والتي سببت له الاختناق، يتشح بالسواد كروحه التي تتوشح بمخاض الفراق، تتمسك بأذيال الذكرى، وتتعلق بطيف تظنه يحوم حولها ويرعاها، أو تتمناه على الأقل.

سمع صوت باب الغرفة ينفتح، استدار إليه بصمت، ووجدها.. ترى هل يحتاجها في هذه اللحظة.. أم يحتاج لوحدته؟..

تقترب منه على مهل، عيناها تضمانه بنظرة عطوف، همست براحة:

- أخدت المهدئ اللي الدكتور كتبه ونامت، وآدم هيروح مع لميا.

قلبه يتأوه، صدره يتنهد، عقله يشرد وروحه تحارب لأجل البقاء، ولا راحة.. لا راحة!..

دنت أكثر، تنظر إليه باحتواء، لم تتحدث، فقط أحنت جسده ووقفت على أطراف أصابعها، قربته منها تضع رأسه على كتفها وتضمه بحنان عاشقة.. لمسة ربما لأول مرة يختبرها معها، واستكان.

لم تطرف عيناه بل أغمضهما فحسب، وتنفس ببطء، بطء حارق.. يكاد يشعر بالنار تأكل كيانه كله فلا تبقي ولا تذر.. لظاها يحرقه، يتسلل فيحيط به رويدًا رويدًا، وعجز يكبله فلا ينطق ولا يصرخ ولا يظهر عليه انفعال.

أبعدته ثانية تنظر في عمق عينيه، تحاول الوصول لذلك القابع بالداخل يرفض الخروج، يرفض البكاء، لا يجاهر بالألم كمن حوله، يفتقد إظهار الحزن رغم حاجته إليه، همست برفق:

- أدهم.. ما تكتمش حزنك جواك أو تنساه، حرر دموعك اللي شايفاها في عينيك.

لمعت عيناه بقسوة مفاجئة لم تفهمها، ابتعد عنها أكثر، وقف أمام النافذة كما كان قبل قليل، وشرد بينما حروفه تخرج مغلفة بغلظة غريبة:

- دموع!!

ثم استدار إليها بعنقه يشملها بنظرة أجفلتها:

- أنا دلوقتِ المسئول عن البيت ده بكل اللي فيه، حتى أخويا الكبير.. عاوزاني أبكي؟!

اقتربت ثانية ترفع كفها تحاول التربيت على كتفه وتهمس باسمه في جزع حقيقي وقلق عليه من كبت سيولد انفجارًا لو لم ينفس عنه:

- أدهم!

أوقفها بحزم صارم أخرس حروفها:

- مش عاوز كلام.

توقفت.. والدنو أصبح خرقًا لقانون منطقته المحرمة الخاصة، حيث علق لافتة بلون أحمر مخيف.. "ممنوع الاقتراب أو الحديث".. وعليها أن تستجيب ما دامت هذه هي حاجته، أن تتفهم، تواسي وتحنو.. لكن بصمت.

هي ترى لحظة ضعف، لكنه وبكل صرامة وشدة يخفيها عن الأعين، ستستوعب وتسكت كما أراد وأمر، فلحظات ضعف الرجال تجبر على الصمت.. لأن الحديث وقتها انكسارٌ أكبر لا يريدون بكبريائهم المعتاد.. الخوض فيه.

تخطت حدوده الوهمية، تجذب كفه المتدلية إلى جواره، نظر إليها بسكون فاحتوته بعينيها من جديد، تحدثت بحزم أم سترعى صغيرها مهما رفض:

- هاحضرلك الحمام، بعدين نام وارتاح ومن غير نقاش.

وكأنه سينام!.. وكأنه سيرتاح!.. وكأن الأمور تغدو وتروح وتجيء بهذه البساطة!!

لم يرد وهي لم تنتظر موافقته، بعد قليل كان يخرج ببقايا ماء تسيل من شعره، ويتجه من فوره إلى الفراش، دخلت إلى جواره فنظر إليها بخنوع غريب كأنما المياه رطبت قشرة التماسك التي يحاول التخفي خلفها فظهر شيئًا من احتياجه الذي يرفض الاعتراف بوجوده..

ضمت رأسه المبلل إلى صدرها وهمست له بحنان تواسي أو تمنح دفئًا أو تقتل ألمًا.. فالهام في الأمر: أن يرتاح.

قبل أن يستسلم بخضوع لسلطان النوم الذي يخبره أن خلاياه تصرخ تعبًا همس:

- الولاد!!

ابتسمت بحنو:

- ماما معاهم، وهتجيبهم الصبح، ارتاح أنت.

واستجاب، تعانقت الجفون، وغاب العقل في عالم آخر.. لكنه عالم مظلم كواقع أفاق عليه بغتة.. فقط همسة أخرى داهمت عقلها وأوجعت قلبها:

- هتمشي؟

تنهدت، هذا الصارم الذي كانت ملامحه تشع قسوةً وجمودًا قبل قليل: ينشد بضعفه الآن قربها، طبعت شفتيها فوق رأسه لثوان:

- أنا جنبك وماليش مكان تاني غير معاك.

وتقسم أنه تنفس بارتياح، لكن بعدها انتظمت أنفاسه وغادرها كأنما فقد الوعي، عدلت وضع رأسه بين أحضانها وظلت تربت على خصلاته بهدوء وتتابع حتى راحت في النوم هي الأخرى.

******

الليل.. مثير الشجون، هادئ، مظلم، أضواء نجومه مبعثرة ونور قمره الفضي يختفي خلف غيوم سوداء تحجبه، انتهى اليوم، بطوله، ساعاته، دقائقه وثوانيه، انتهى بأحزانه الوليدة، زرع بذورها في تربة الروح، ورواها بدموع حرقة القلب.

ترك للذاكرة المتشبثة بالماضي ولحظاته التعيسة، ومضاته السعيدة، أوقاته على اختلافها مهمة الإرواء، وهي مهمة ليست بالهينة أو السهلة، وماء الحزن غزير لا ينضب.

رفض البقاء في منزل والده، وبينما تنتظره في المكتب القريب من الباب الخارجي كان هو يودع الأركان والجدران، كأنه يخبرها أنه لن يعود، لن يقدر على العودة بينما روح الغائب تحوم حوله وتهيم في المكان، تستحضر معها شتى أنواع الجزع.. وهو قرر الصبر.

اتجه للغرفة التي تنتظره بها زوجته بعدما تحدث مع أخيه الصامت، حاول مواساته فاستصعبت الحروف الخروج وقررت الموت عند شفتيه، اكتفى بضمة وربتة على الكتف، والقلب يعلم أنه موجود حين الحاجة إليه، والصغيرة "سارة" لم تتوقف عن البكاء بعد، طلب منها الذهاب معه لكنها رفضت، استجاب لها ومنحها وعدًا صامتًا بأن يكون هو الأب الذي تحتاج.

عندما فتح الباب وجدها نائمة في وضع الجلوس فوق الأريكة، تستند برأسها لذراعيها المنعقدين على المسند الجانبي لها، وبقايا الدموع تحفر أخاديد الغم فوق وجنتيها، رق قلبه.. وماذا بعد الخصام؟ بل ماذا بعد العناد؟

لم يهرب من قبل خلال معركة، وقبلها كان قد توعد بالنصر، هي تبذل الجهد، تحاول رتق ثقوب انفصمت بها حياتهما معًا بفعلها هي، فلمَ لا يحاول معها؟.

الحياة قصيرة "آدم" مهما طالت، والفراق المفاجئ لابد وأن يؤخذ في الحسبان، لقد اكتفى منه، واكتفى من كل شيء، سيعيش.. سيحيا، ربما بآلية، ربما ببقايا تجارب لإنقاذ الروح، ربما لأجل الصغير، لكنه يعد ببذل الجهد لأجل المحاولة، يدعو ويتمنى نجاحها هذه المرة، ويوافق على تحويل المسار، فما بدأ بهروب، سينتهي بملكية كاملة موثقة وموقعة من جميع الأطراف.

جلس جوارها وهزها برفق، انتفضت بفزع تهتف باسمه، ربت على كتفها برقة وتحدث بصوت كئيب:

- ده أنا ما تخافيش.

تأملته بعينيها سريعًا، تبحث عن صمود، أو حتى دموع، تبحث عن صبر وقوة وجلد، تبحث عن زوجها الذي ظنته فاقدًا للشعور فإذا بها تصطدم بواقع أنه يكتمه، يسجنه، يسلسله بداخله ويمنعه من الظهور بملء إرادته الحرة، لكنه لا يزال موجودًا هناك.. ولو كان في الظل.

تنهدت براحة، غمغمت بتساؤل:

- عامل إيه دلوقتِ؟

أومأ برأسه في روتينية كجوابه تمامًا:

- الحمد لله.

تشعر به.. تقسم أنها تشعر به، بألمه الذي يحبسه خلف قناع الصمود، وتتذكر دموعه التي أغرق بها كتفها في الصباح..

كيف تواسيه وهو فقد الأب؟!..

مرت بهذه المرحلة من قبل، تعلم أن الوجع غير محتمل، وكانت هي تقف في موضعه بالضبط حينها، الكبرى، رغم صغر سنها حينها، من تحمي، تهدهد ويتقوى بها الجميع.

هي تعلم أنه قوي، سيقف ثانيةً، سيكون الداعم والسند والوالد الجديد، لكنه يحتاج لدفعة تبث الصلابة في إرادته الواهنة الآن، في روحه المستكينة والمستسلمة لليأس، القانطة من كل حياة والتائهة في ملكوت فوبيا الفراق.

سمعته يسألها بضعف:

- يوسف فين!!

الآن ذاكرته تنشط من عالم التيه، نعم هو من بقي، وهو من سيموت بعده لو أصابه مكروه.. فلمن سيعيش ولمن تستحق الحياة أن تُعاش إذا غادرها كل الأحبة!! أجابت بخفوت:

- مع دادة جليلة، ما رضيتش أجيبه معايا، الوقت مش مناسب لوجود طفل.

وأكلمت داخلها:

"وكنت أخشى انهيار والده، لم أرده أن يشهد انهياره!!"..

أومأ برأسه صامتًا، تكاد تشعر بتلك الغصة المحشورة في حلقة مع ابتلاعه لريقه، تتحرك تفاحة آدم خاصته ببطء كأن هناك ما يكبلها، أرادت دعمه أكثر، والكلام هو ما تملك، علَّه يجد صدىً لديه:

- آدم.. أنت صابر وقوي، هتقدر تتحمل وتعدي المرحلة دي، أنت أقوى منها بكتير، أقوى من الحزن اللي بيحاول يغلبك ويتعب قلبك.. أقوى من ماضي

بيحاول يسيطر ويرسم جواك إن الفراق سيد الموقف، لأ.. أنت سيد الموقف، أنت الأب بدل اللي راح، أنت أقوى حتى من كل الموجودين هنا...

وتحركت بكفها فوق صدره تريحها عند النابض ببطء غريب:

- لأن ده أقوى، وأحن.. لأنه مليان مشاعر حلوة مستخبية بس محتاجة تظهر للنور، محتاج توزعها على اللي بتحبهم ويهموك، لأن ده يقدر بكل المشاعر الحلوة اللي فيه يكون السند، ولأن كلهم محتاجينك وأنت كمان محتاجهم، باباك مش هيرتاح إلا لو أنت ارتحت.

تأملها بصمت، ما تقوله لا يمر بمصفاة عقله، هي مجرد مواساة، كلمات تتبعثر على مسامعه لا رابط لها ولا هدف، لكنها على حق في نقطة.. أخيه، أخته، حتى زوجة والده؛ في حاجة إليه، هو لم يتأخر من قبل ولن يفعلها الآن، ولدت في عينيه دمعة أخرى، منعها متشبثًا ببقايا قوة يدعيها.

سمع صوتها من جديد يخاطب قلبه:

- كل الكلام اللي باقوله ممكن يكون مكرر وسمعته قبل كده طول اليوم، لكن المهم أنت –مش هاقول تقتنع بيه- لأ.. المهم تحسه وتعرف إنك لازم تكون أقوى، لأنك فعلا أقوى.. لأن القوة دي موجودة جواك بس محتاجة منك تدور عليها وتمسك فيها وتعافر لحد ما تسيطر أنت على لجامها.

وربتت على قلبه ثانية، تكمل:

- أنت فعلا أقوى.

ثم تفكر للحظة، وتحتوي وجنته فوق راحتها:

- كل الابتلاءات دي علامة على حب ربنا، على قدر إيمانك ربنا بيبتليك، ولما تصبر وتستمر؛ الجزاء هيكون كبير، هينسيك كل ألم مريت بيه في حياتك.

وغادرت الدمعة الجفون التي حاولت التحمل والتماسك، لم تستطع فغلبتها وسالت على وجنته الخشنة، تستقر بمرارتها بين شعيرات ذقنه التي استطالت بإهمال كأنما فقط تناسب الصورة..

لم تحتمل، ما الذي بيدها لتفعله!!.. إحساس العجز يغلب عليها، ومن كانت تظنه بلا قلب تعلم الآن أن قلبه توجع وتوجع حتى قرر أن يفقد الاهتمام بما حوله ويتوقف عن الشعور مادام لا يحوي إلا أنين عذاب لا يحتمل، لكن في النهاية يأتي الألم الأكبر ويفتح الجروح القديمة بل ويزيد عليها وينثر فوقها ملح من نار، يحرقها ويحتجز الصراخ خلف شفاه لم تعرف من قبل للشكوى طريق.

أمام عينيها مد يده يمسح الدمعة الخائنة بقسوة، كأنه ينهرها وينهر نفسه على لحظة ضعف جديدة تراها هي، نهض بسرعة يبحث عن مهرب، تبعته بهدوء فتمتم لها عن مغادرة، هناك من يحتاج إلى وجوده.. وهو لن يبخل بهذا الوجود.

غمرها بنظرة لم تفهمها، ثم غادر المكان وهي خلفه.. عنوان الرحيل ألم محبوس، دموع لن تعاند وتسيل، قلب يعلو بوجيبه يخترق صمت الحزن فيزيده حزنًا، ورغبة في أمل؛ تستدعيه من عالم الخيال وتجسده على أرض واقع مليء بالبؤس ولوعة الفراق.

******

تعددت الآلام والدموع واحدة!..

تعاقبت الأوجاع والنهاية هي نفسها!..

عتمة، انطواء، وعودة لجحر اليأس والخوف والوحدة المظلم، رغم بصيص الأمل الذي يحاول التسلل بحياء لدجنة حياتها الحالكة.

لم تعد تعرف من أين تأتي الدموع!!

مر يوم وتاليه وثالث ورابع، هي على حالها، اتصالاته لم تنقطع، وردها لم يحصل عليه، تنكمش في ظلمة غرفتها، حتى محاولات والدتها وتظاهرات زوجها وشركة أبيها، كلها أمور لم تخرجها من اختيارها الإرادي بالابتعاد.

لقد مات!!..

هو الآخر تركها تجاهد وحدها في طرقات الحياة المرعبة ورحل، دون أن تودعه، ودون أن تمنح أو تقبل فيه عزاء.. فلو ظهرت هناك لكان الطرد هو أهون ردود الفعل.

وربما لا.. لكنها أجبن من مخاطرة بتجربة غير مأمونة العواقب، ودت لو ألقت عليه نظرة أخيرة، تنال منه بسمة مطمئنة ووعد أن الأمان لن يرحل برحيله!

لكنه لم يفعل، باغتها بالنزوح إلى مكان لا يعود منه من ينتقل إليه، وعليها أن تصبر، تودع من جديد، وتفقد الداعم والأب لمرة أخرى.. يتجدد الوجع، تتوالد الدموع، ويستمر أنين الروح على من فارقتْ دون مآب.

عند البعض الأنثى خطيئة تستوجب العقاب.. فالتوبة.. ثم الستر، هذا إن كانت عادية كآلالاف تسرن في طرقات المدينة، لكن ماذا عمن تلبستها الخطيئة وعوقبت بما يوازيها؟!.. لن تُقبل لها توبة في مجتمع ينظر إليها كمرض معدٍ، ولن يسترها أحد بعدها، بل فقط يريدون تعريتها أكثروأكثر.

إلا هو.. هو لم يعاقب، غفر وستر، ساند واحتوى، ثم منح الأمان، وبعد لمحة اطمئنان وسكينة بوجوده، رحل وتركها خلفه أسيرة لزوابع الجزع تلقي بها على الجدران وتهشمها لمئات القطع غير القابلة للملمة أو إصلاح.

ويرتفع رنين هاتفها من جديد، لكنها لا تستطيع، لا طاقة لديها وحتى صوتها ينحبس داخلها لا يقدر على الخروج، أمسكت بالهاتف، تدمع وتدمع ومن خلف ستار الدموع أرسلت بأحرف قليلة:

"بابا مات لتاني مرة"

وانزلقت في الفراش تنعيه، تحتمي بنفسها لأجل نفسها، وتأمر العبرات بالتوقف لكنها فحسب.. لا تطيع أو حتى تستجيب، تتجاهل الرنين الذي عاد يملأ الغرفة بصراخ مجنون، أخرسته بكبسة زر تغلق بها الهاتف نهائيًا وتستكين من جديد لبحر الدموع.

******

"رؤية الموت؛ تختلف كثيرًا عن تذوقه"

مصطفى محمود

وهي تذوقته، ورأته، وتجاهد الآن لدعم الصديقة التي ساندتها من قبل!

رحل الأب.. ورحلت معه كل علامات البراءة، كأنما نضجت فجأة وقفزت من مرحلة الجدائل والحلوى، إلى مرحلة الأنثى الكبيرة التي ليس لها سوى نفسها تتكل عليها.

أخيرًا استجابت لها بعد مرور ثلاثة أسابيع على رحيل والدها، غادرت المنزل وذهبت للجامعة، تحتاج للخروج، لتنسم هواء لا يمتلئ بالحزن والأسى واليأس، رؤية ملامح لا ترسمها الدموع والتواجد في مكان لا يعج بالذكريات المؤلمة.

وكان هو بالانتظار، تعلم أنه يهمها، أنه قد يطبب مشاعرها الخانعة للبؤس والشقاء، وتدرك أنه يبالي لأمرها ويكترث به، لمحته يقترب مع صديقه الذي أبعدت عينيها عن لقاء عينيه، يناديها برقة:

- سارة!!

وللمرة الأولى ترفض عناق الأرض وترفع نظراتها بعيدًا عنها لتلتقي بمنجم الذهب الذي يحتويها بحنان الآن، دنا أكثر يكمل برفق:

- البقاء لله.. العمر إلك.

أومأت برأسها وتمتمة شاكرة لم تتجاوز شفتيها سوى بحشرجة غير واضحة، سمعت صوت صديقه الخشن:

- البقاء لله يا آنسة سارة.. ربنا يصبركم.

ألقت إليه بنظرة خاطفة قبل أن تمنحه نفس الجواب المحبوس بلا رغبة في التحرر، حاول "عمار" الحديث ثانية بعدما ابتعدت "علا" عدة خطوات للخلف وبالمثل فعل "زياد":

- طمنيني عنك!!

هزت كتفيها والصمت لا يغادر المكان، لكنه يلح أكثر:

- ريحيلي قلبي.. كيفك هلأ؟

وتحاول، بل تجاهد بعنف لتتحرر في النهاية الهمسة القصيرة:

- أنا الحمد لله.. ما تقلقش.

تنهد براحة قبل أن يردف:

- كيف ما بدك إقلق؟!.. بعرف بشو عم تحسي هلأ.. جربت ها الشعور من قبل وبدي إياكِ تكوني بخير..

عادت تومئ وتبحث عن صديقتها تود الهروب، لا تريد الحديث، وترغب في العودة من حيث أتت، هتف بها قبل أن تبتعد:

- سارة!!

التفتت بنظرة باهتة:

- ديري بالك على حالك.

وتومئ من جديد وترحل، كيف وافقت على المجيء إلى هنا!!.. طيلة الأسابيع الماضية لم تترك المنزل إلا لمامًا.. لواجبات العزاء والزيارات التي تتبعه، فلمَ أنصتت لصديقتها هذه المرة وخرجت؟!

الاختلاط بالناس يوجعها أكثر، لا تريد أن تلمح نظرات الشفقة والعطف في الأعين، لا تريد أن تتقبل التعازي، ولا تريد حتى أن تسمع أي صوت!

أصرت "علا" على حضور آخر المحاضرات، نهاية العام، والامتحانات اقتربت، تحثها على الانشغال بأمر آخر ولا تعلم أن تفكيرها كله انحصر في نقطة من زمن فات لا يمكنها العودة إليه.. فآلات الزمن لم تخترع بعد، ولا تزال محض خيال.

زمن كان هو فيه، بحبه وعطفه الذي لم يبخل به عليها رغم كل شيء، بتفهمه ومراعاته لها، بصداقتهما التي طالما عشقتها وكانت لها دوما منفذًا من قيود سلطة الأم القاسية.

انتهى اليوم وأصرت على الرحيل، ودعت صديقتها عند باب الكلية تخبرها أنها لن تعود للمنزل الآن على الرغم من قرب حلول الغروب، ستذهب لزيارة أبيها.. هي تشتاقه بحق.

حاولت الذهاب معها لكنها رفضت، تبتسم بحزن وتتمتم بخفوت شديد:

- عاوزة أتكلم معاه في أسراريا علا، ما ينفعش تيجي.

تتظاهر بمزاح، وترغب في الفرار والاختباء بعيدًا.. بعيدًا عن الكل في كنفه هو حتى بعد الرحيل، ولم تبخل الصديقة، قادت سيارتها بسرعة بطيئة نسبيًا حتى وصلت للمكان، المغرب يوشك على الصدوح بأذانه وهي لا تخشى شيئًا مادامت ستكون إلى جواره.

وقفت أمام القبر، دموعها تنساب بصمت، تتلمسه بأطراف أناملها وتلقي بعشب أخضر علَّه يجلب بعض الراحة إليه!!

تهمس له وتعتذر:

- معلش يا بابا إني جيت لك متأخر..

ثم تنشج وتكمل:

- عارفة إنك مش بتحبني أتأخر برا لوحدي، بس لسه الشمس موجودة، المغرب لسه ما أذنش.

لكن الآذان وصل لأذنيها من بعيد كأنما يعاندها، فابتسمت بنحيب:

- خلاص أذن، بس مش عاوزة أمشى دلوقتِ، خليني معاك شوية، أنا مش هاخاف من المكان لأنك معايا، هتاخد بالك مني وتحميني.. مش كده!!

ولم تنل الرد المتوقع لكنها توهمت منه هزة رأس وبسمة حنون:

- أنا زعلانة منك على فكرة.. أنت سيبتني وكنت وعدتني هتكون معايا وقت الامتحانات، تعمل لي النسكافيه بنفسك رغم تعبك، فاكر!

وتمسح دموعها بظاهر يدها:

- ما تقولش إنك نسيت!!.. عشان كده مشيت بسرعة، لأ أنا عارفة إنك فاكر كويس، مش هتنسى سارة حبيبتك.. صح؟!

ونزلت على ركبتيها أمام القبر الساكن وسط ترابه الذي يحمل رائحة الموت، بينما الظلام ينسدل بردائه الحالك فوق المكان:

- كنت بتقولي كده عشان أذاكر بس!!.. بعدين سيبتني ورُحت لمكان مش هترجع منه تاني.. أنا محتاجاك يا بابا، مش هاقدر أنجح من غيرك، مش هاقدر أكون قوية غير في وجودك، محتاجاك.

وعلا نحيبها أكثر تكمل همسها بضعف:

- محتاجاك.

ظلت على حالها لوقت لم تحسبه، لم تنظر في ساعتها، فقط بعدما بثته شكواها وحاولت قراءة ما تحفظ من آيات قرآنية؛ جففت دموعها ونهضت تترنح وتتحرك ببطء، تلتفت نحوه قبل البوابة الخارجية تلقي إليه بنظرة أخيرة ثم تغادر.

بخطوات متثاقلة ضعيفة توجهت إلى سيارتها، ربما أخطأت عندما أتت وحدها!!.. المكان موحش ومقبض، مظلم لا أنفاس للحياة فيه، وهناك رعب ما بدأ يحفر نفقًا داخل قلبها.

أسرعت في خطواتها تشعر بأعين تراقبها، تحيطها، تطاردها، وقفت أمام السيارة تجذب مفتاحها من حقيبتها تحاول بارتباك فتح الباب، لكن النهاية أتت أسرع..

قبل أن تصل إليه، خرجت من الظلام يد تتشح كليًا بالسواد ما عدا نسيج قماشي أبيض اللون لم يُدنس بعد، تحيط بوجهها وتركز به على منفذ الأنفاس.. تحبس الصراخ وتُنكه هواءها برائحة مخيفة.

ذراع قوية تحبس خصرها، تكبلها وتمنعها الحركة، مدت كفيها تحارب لدفع صاحب اليد لكن لا فائدة.. تشهق بعنف وتجاهد بكل ما أوتيت من قوة تسعى ولو لصراخ، لكن ماذا تفعل صغيرة بين مخالب الوحوش!!

ومع كل حركة تبذلها ونفسًا جديدًا يتلقاه صدرها؛ كانت تغوص في دنيا اللاوعي أكثر، الظلام ينتشر ويسود ليس حولها فقط، إنما داخلها أيضًا، ثم التقت الجفون تضع كلمة النهاية، تسدل الستار بخاتمة لم تكن في الحسبان حتى سقطت في آخر الأمر ساكنة بين ذراعي خاطفها.

(٢١)

براءة

وكأن حزني لا يكفي!

وكأن رحيل أماني عني لا يكفي!

وكأنه كثيرٌ عليك يا قلبي أن تحزن وحدك!

ليُقتل من حولك..

برحيل طهارتي..

بقلم/ هند شريف

حبس المشاعر.. أم إطلاقها حرة تحلق خارج سجن الصدور؟!

هذا أو ذاك، كلها خيارات لا تنهي الألم، ولا تطيب الجروح، قد تمنح نفسك الفرصة للشكوى، أو ببساطة تبخل بذرة واحدة من احتياج تئن روحك افتقارًا إليه، لكن النتيجة واحدة.. لن تنسى، والتناسي معضلة لا تنتهي بها معادلة الأحزان، بل فقط مجرد دعامة واهية تستند إليها خطواتك حتى تمضي قدمًا.

ثلاثة أسابيع.. واحد وعشرون يومًا، خمسمائة وأربع ساعات، فما بالك بالدقائق والثوان!! طويلة للغاية كدهر لا ينتهي، تتواتر بتتابع يبعث الإنهاك في كل خلية من الجسد، وكل فكرة تطوف بالعقل.

قبل أسبوع.. قبل أن تخلد روح أبيه لمثواه الأخير باطمئنان دعاهم محاميه وصديق عمره لمكتبه، ناول كلًا منهم خطابًا.. هو، أخيه وأخته، ثم أمه، وفي النهاية للمتبناة معنويًا "دينا".. خطابه هو احتوى ما قرر بنفسه حمله منذ البداية، المسئولية الثقيلة، حتى عن أخيه الأكبر.

ثم في نهايته حبر آمر يتضمن رجاءً بيتيمة أخرى، تحتاج دعمه وحمايته رغم رفضه لذلك منذ البداية.. ابنة العم "مصطفى" التي كادت تدمر له حياته قبل أن تبدأ مع زوجته، لا يعلم كيف يوصيه والده هو بالذات بها!!.. لكن وصيته ستنفذ ورغمًا عن رغبته الشخصية.

دلفت "جمانة" للغرفة بهدوء.. ملامحها تشي بغضب مكبوت، هو في الحقيقة لن يتحمل شكوى أخرى!! نظر إليها بصمت، لابد أنها مناوشة جديدة مع والدته!!.. جلست إلى جواره على الأريكة تهز ساقيها بتوتر كاد يخرجه عن شعوره، سيخبرها الآن بالقرار الذي توصل إليه وعليها أن ترضخ مهما كانت الظروف التي تحثها على الرفض، تحدث بهدوء محاولًا عدم إظهار ملاحظته لما بها:

- جمانة أنا مش هاقدر أسيب البيت هنا!!

رفعت عينيها إليه بحدة، فأكمل بحسم:

- ما ينفعش أسيب أمي وأختي لوحدهم وأنا موجود.

زمت شفتيها، ومن هي لتعترض على قراره الذي اتخذه منذ البداية.. أنه المسئول!!

لا تدري كيف ستتحمل الإقامة الدائمة مع والدته؟! ثلاثة أسابيع قضتها هنا إلى جواره، رغم رفضه الاعتراف بحاجته للدعم مثله مثلهم جميعًا، تباعده وصمته الطويل معظم الوقت، كلماته المعدودة وقبلاته القليلة للطفلين تصاحبها نظرات -خوف ممتزج برهبة عللتها بفراق يخشاه- لم يستطع مداراتها.

السيدة "فريدة" لا تطيقها.. هي تعلم، وهو يعلم، بل والجدران تعلم!! لا تستطيع التفكير في أن تظل معها هنا للأبد.. لن تتحمل، ستكثر المشاكل الكثيرة بالفعل، ومن يدري ما الذي ستزرعه في أفكاره حال غيابها؟!..

تنهدت بعمق، القرار صعب لكن لا خيار:

- طبيعي يا أدهم، مش هاقدر أقولك ما ينفعش.

منحها نظرة غامضة:

- وأنتِ هتعيشي معايا هنا.

وكان الحديث قرارًا لا يحمل صيغة استفهام، فأومأت:

- أكيد.. أمال هاعيش فين!!

وبداخلها تسخر، تثور وتكاد تنفعل بصراخ.. نالت تنهيدة راحة، ونظرات تحيطها أكثر، تعلم أن هناك حديث تكتمه الشفاه رغم طول الوقت، نظر للبعيد لحظة ثم عاد إليها بعينيه، لمعتا من جديد وعدم الفهم هو صديقها هذه المرة، لكن ما وصلها يحمل نبرته أخرسها لثوان:

- جمانة..! أنا..

وزفر بغيظ بدأ يظهر في الأفق، ثم بصقها واحدة معدودة الأحرف بسرعة قبل التراجع:

- آسف.

صمتها أقلقه، وابتعاد عينيها عن لقاء عينيه انعقد له الجبين، أمسك بذقنها يدير وجهها نحوه فاستجابت بصمت، أمال رأسه بتساؤل أجابته دون الحاجة لسماعه:

- مش عاوزاك تعتذر يا أدهم.. كلمة آسف وحقك عليَّ مش كفاية..!

وتشير لقلبه تريح كفها فوق نبضه الهادر:

- عاوزاك تتغير.. عاوزة ده يآمن بحبي ليك ويصدقه ويقتنع إن دي الحقيقة الوحيدة بينا.

ربما حان وقت المصارحة، حروف تحتاج لنقاط منذ زمن وغيابها أضاع الفهم، بادرت هي من جديد:

- نفسي تبطل تفكر في اللي فات، تبطل تقارن، تنسى، ده بيخلي اللي جاي أصعب، وبيوجع.

ولأنها تشتاق للقرب اندست بين ذراعيه تضع رأسها فوق صدره وتستمع بحنين لقلبه الذي تسارعت دقاته ببطء تعلن شوقها هي الأخرى:

- تتأكد إني ملكك أنت ومن زمان، من قبل حتى أنا ما أعترف لنفسي إني بحبك.

أحاطها بتوق، استند بذقنه لرأسها يستنشق عبير خصلاتها بعمق وتتمرد روحه تبغي القرب:

- كنتِ بتحبيه من قبلي.

ويقرر عنها من جديد، وهل أنكرت هي من قبل حبها لزوجها الذي رحل؟!.. لم تفعل!! بل كانت تعلنها صريحة واضحة في كل مرة كان يحاول هو فيها التقرب منها، فلمَ العودة للماضي الآن؟!.. لمَ نبش ذكريات لن تثير بداخله سوى الكرب والغضب!!.. ابتعدت عن دفئه تنظر في عينيه بتركيز:

- أنا ما أنكرتش ده!

انقبض قلبه لكنها أردفت بسرعة:

- بس مش معنى كده إني عايشة معاك على ذكراه.

انعقد الحاجبين، والنظرة الغاضبة تتسلل للعينين البنيتين، وتكمل بنبرة حنون محبة:

- ليه مصمم تدخله بينا؟! تقارن نفسك بيه!! ما فيش وجه للمقارنة بينكم يا أدهم.

العقدة تزداد، لهجته قاسية حانقة بشدة:

- يعني إيه ما فيش وجه للمقارنة!!.. للدرجة دي كنتِ بتحبيه؟

تنهدت تمسك بكفه بين يديها، تتحدث بصدق وإخلاص، لمرة أولى وأخيرة تنهي الأمر فقد زاد عن الحد:

- هاتكلم بصراحة من غير ما تتضايق..

نظر إليها بقلق، تنهدت ثانيةً تستبقي بعض الأنفاس بصدرها علَّها تساعدها على هذه الخطوة:

- حسام أول واحد باب قلبي اتفتح على إيده، كان حبه زي النسمة الرقيقة اللي مرت بيَّ فاتعلقت بيها.

اشتعلت نيران غضبه -وهي تعلم- لدى سماعه اسمه بنبرتها الناعمة، يرغب بمقاطعة فتلمس شفتيه بإصبعها تحبس حديثه الذي تتوقعه، تتحرك بكفها تحتوي وجنته وتربت عليها بحنو:

- أنت بقى..

ثم تصمت تثير فضوله فمنحها نظرة قاتلة ابتسمت لها، هزت كتفيها تعلن عدم الاستيعاب الكامل لكنه فقط الواقع المسلم لأمره:

- كنت إعصار..

لم يفهم هو الآخر!!.. أكملت عندما رأت حيرته:

- اقتحمتني غصب عني، ما كانش قدامي غير التسليم لأن المقاومة حاجة خارج حدود قدرتي.

لكن الرد الذي أتاها لم يكن هو ما تتمناه وبنبرة حزينة تمتزج بشيء من سخط:

- يعني أنا حاصرتك بمشاعري فاضطريتِ تحبيني!!.. بس هو فتح قلبك بهدوء وسلمتيهوله بإرادتك..

كادت تزفر بغيظ، هل يدعي عدم الفهم ويتظاهر بالغباء أم فقط يطمح إلى الدلال!.. حسنًا، هو يستحق بعضه، يستحق حنانها ورقتها وحبها أو عشقها بالأحرى وفي النهاية احتوائها لقلقه وخوفه:

- أنت اقتحمت قلبي من غير استئذان، سكنت جواه وملكت مشاعري...

ثم تضمه إليها وتضم نفسها إليه:

- أنت ما حاصرتنيش، أنت دمرت كل الحواجز والأسوار اللي كنت مستخبية وراها، حاجة ما كنتش أملك قدامها غير إني أغرق فيها وبإرادتي، لأني كنت أضعف من إني أقاوم حب عنيف وقوي بالشكل ده، وقوتك دي هي اللي أنا عايشة بيها وفيها دلوقتِ.

وتنهدت تدفن جسدها في دفئه أكثر:

- حب بالقوة دي حلم لأي واحدة، أمنية مش سهل تتحقق، وأكيد يستحق حب يوازيه وأكبر منه كمان، أنت تستحق مني أكتر.. وأنا باحاول أقنعك بده

بكل الطرق.. نفسي تحسه وتشوفه، تعرف وتتأكد إن أنا فعلًا ملكك وبرده بإرادتي الحرة.

استشعرت انفراج شفتيه بابتسامة قرب عنقها فضمته بشدة، شعرت بذراعيه حولها تضيقان أكثر، يتشبث بها كغريق يسبح نحو شاطئ أمان ظهر أمام أعينه فجأة بعدما فقد الأمل في النجاة واستسلم للغرق..

كم يخشى الفقدان، يتألم للفراق، يرتعب من تكراره المفاجئ!!.. ويود لو يقتنص كل لحظة مع من يحب حتى تمام الشبع.

طبع قبلة فوق شعرها فهمست له بينما يعتصرها فوق صدره حتى كاد يحطم ضلوعها:

- بحبك.

لكنها لم تسمع جوابه، ما وصل لأذنيها طرقات عنيفة سريعة على باب الغرفة وصوت والدته القلق:

- أدهم.. سارة لسه ما رجعتش لحد دلوقتِ.

وبعد نظرة سريعة للساعة المعلقة فوق الجدار، ترك زوجته وقفز نحو الباب يفتحه:

- إزاي ما رجعتش الساعة داخلة على تمانية؟

لمح دموع والدته المنهمرة حينما أجابته بانهيار:

- كانت مع علا، قلت معلش لو قعدت معاها أهي تغير جو وتخرج من البيت شوية، بس كلمتها ما بتردش اتصلت على علا قالت لي إنها سابت الجامعة قبل المغرب وقالت هتروح تزور بابا.

انعقد حاجباه، تحرك للداخل ثانية ولمح القلق على وجه زوجته التي طمأنته بلهفة وهو يلتقط مفاتيحه ليغادر:

- إن شاء الله خير، استنى هآجي معاك.

لكنه رحل بجملة قصيرة والرعب يكاد يقبض روحه:

- لا ما فيش وقت، هابقى أطمنكم.

تبعته مع والدته التي لم تتوقف عن البكاء، شعرت بالشفقة نحوها فاقتربت منها بتردد تحيط كتفيها بذراعها وما أثار دهشتها أن ارتمت المرأة فوق صدرها ونحيبها يزداد علوًا.

******

كانت تلعن التأخير الذي حدث، الليل أقبل وصاحب المكتبة المتعنت أجلها للنهاية؛ والحجة أوراق كثيرة وتحتاج لوقت أطول للنسخ وصبر ثم هناك من هو أقل وأهم.

جلست متأففة على سور حجري قريب تنتظر وتنتظر، قاطع تململها رنين هاتفها برقم السيدة "فريدة".. شعرت بالقلق بينما تجيب بهدوء حاولت

افتعاله، صوت المرأة يتساءل برفق في البداية، لكن مع النفي النبرة تتحول للذعر، والقلق ينقلب لخوف انتهى بوعد منها أن تذهب إليها لتبحث عنها.

تحركت شبه راكضة تسب نفسها على الاستجابة لرغبتها وتركها وحيدة، سقطت منها بضع أوراق فانحنت تجمعها بتوتر وقلبها يدعو بضراعة أن تكون صديقتها بخير، وجدت يدًا أخرى تساعدها في جمع أوراقها، رفعت عينيها لتلتقي بالنظرات السوداء مجهولة المعنى، والابتسامة الطفيفة المصاحبة للنبرة الجافة:

- خلي بالك.

ناولها ما جمعه، التقطتهم منه وقبل أن تضمهم مع الآخرين تفرطوا من يدها مرة أخرى فدبت قدمها في الأرض صارخة بحنق، انحنى يلملمهم من جديد والقلق يتسرب إليه، سألها باهتمام:

- في إيه يا آنسة علا؟.. مالك!..

رغبت في تعنيفه على التدخل فيما لا يخصه، أو حتى إفراغ ذلك الغضب والرعب الذي ينحشر داخل قلبها في وجهه، لكن روحها الواجفة عاندتها عندما لمحت سيارته الصغيرة المتوقفة بالقرب ووجدت فيها وسيلة سريعة للذهاب حيث تلحق بالغائبة فأجابت بضعف:

- سارة راحت تزور قبر باباها من بعد العصر ولسه ما روحتش.

عقد حاجبيه، قلقه ازداد؛ فتحرك أمامها بقرار حاسم:

- طيب لو عارفة العنوان تعالي نروح نطمن عليها.

تأملت ظهره أثناء ابتعاده ثم هرولت خلفه، روحها تبتهل أن تكون بخير، قلبها يأمل، وعقلها يرعبها بخيالات مخيفة لن تتحملها.

******

الكثير من الأفكار، صراع جديد تخوضه وهذه المرة القضاة هم قلبها وعقلها.. والاثنان أبدًا لا يتفقان، كل منهما في واد وهي تتمزق بينهما.

طيلة الفترة الماضية كانت إلى جواره، أهملت عملها قليلًا رغمًا عنها، تشعر باحتياجه لها، لاحتوائها واهتمامها ووجودها الذي لم تبخل به، كل ما تملكه هو المنح، وذاك هو كل ما يحتاج؛ حتى في صمته وتباعده وانطوائه.

حزنه لم ينتهِ بعد، لكنه يخبئه في العمق، يخفيه تحت السطح ولا يجود عليها بفرصة تَلَقِي همومه ومحاولة محوها ولو ببطء، لا يتركها تتسلل خارج صدره، بل يحبسها كأنه فقط يرغب في إيلام نفسه أكثر، إغراقها في الوجع.. يعاقبها أنها أحبت وتعلقت وفي النهاية فارقت وإرادته لا تملك محض سيطرة.

تأملت وجهه الساكن، عاد من العمل بروتينية معتادة، تناول غذاءً خفيفًا ورحل للفراش يهرب بنوم، الساعة لم تتجاوز الثامنة بعد لكنها أصبحت

عادة لا يريد الفكاك منها، ملامحه الغائبة في عالم آخر تحمل حزنًا يهد الجبال، تشعر به طودًا شامخًا لكن بداخل قلبه الضعيف كرب يملأ أرجاء الكون، شفتاه تتهدلان للأسفل ببؤس، جفناه يهتزان بحركة سريعة تشي بحلم مخيف، جبينه متعرق وتكاد تراه يرتجف دون حركة واضحة.

مسحت عرقه وانحنت تقبل رأسه بحنان أمومي، تحركت خارج الغرفة نحو الصغير الجالس أمام التلفاز يشاهد أحد أفلام الكرتون التي يفضلها، جلست إلى جواره تضمه إلى صدرها، داعبته برقة:

- مش بتزهق من الفيلم ده يا جو!!

ابتعد الصغير عنها، عيناه تلمعان بذكاء، ثم رد بابتسامة:

- الفيلم تحفة يا لومي، نفسي تتفرجي عليه عشان تصدقيني.

داعبت خصلاته الكستنائية الناعمة وتحدثت بمرح مقابل:

- أوك.. احكي لي القصة.

اعتدل أمامها يجلس بطريقة جدية ابتسمت لها، أسرع يقص حكايته مستعينًا بحركات من يديه:

- القصة عن حصان بري، ما حدش قادر يروضه، قوي وجميل، عذبوه وربطوه وقصوا شعره وذيله بس ما سمحش لحد برده يركبه، لحد ما قابل ولد هندي، اتعرفوا بطريقة غريبة وفي النهاية هربوا من المعسكر مع بعض

وراح معاه عند القبيلة بتاعته، هناك اتعرف على فرسة جميلة.. كان مستغرب هي إزاي بتتعامل مع الهندي ده على إنه صديق أوكأنه واحد من الخيول!

وتوقف للحظات يلتقط أنفاسه بينما هي تنصت باهتمام:

- حاول يقنعها إنهم يرجعوا للحياة البرية تاني وإنها ما تقبلش إن حد يسيطر عليها، بس رفضت.. وبعد ما بيتصور إنها ماتت بيستسلم للترويض، بس بيقابل مجموعة خيول كانوا معاه في المعسكر قبل كده، ومع تحركهم عشان يعملوا قضبان قطر بيعرف إنهم كده هيقتحموا المكان اللي هو بيته وموجود في مامته وعيلته، هيتظاهر بالموت ولما يفكوه هيحرر باقي الخيول ويهرب ويقابل الهندي تاني.. يكمل هروبه معاه، الحدوتة بتنتهي إنه فضل هو الأقوى، ما قبلش إن حد يسيطر عليه، وحتى الراجل اللي كان عاوز يروضه سابه واحترم حريته.. وكمان عرف إن الفرس اللي حبها كانت عايشة وإن الهندي أنقذها.. بس.

أنهى قصته بحماس، هي تتأمله بحب يزداد داخلها يومًا بعد يوم، اتسعت ابتسامتها وهو يسألها:

- إيه رأيك في الفيلم؟

عبثت في شعره بلطف:

- حلو قوي، وأنت بقى استفدت منه إيه؟

لمعت عيناه الزرقاوين ببريق جذاب:

- إني حر.. وإني ما دام باحافظ على حريتي ما حدش هيقدر يسرقها مني!!.. وفي الآخر الكل لازم هيحترمها.

نظرت إليه بدهشة!!.. عقله الصغير استوعب الأمر بشكل رائع، التفتت تحدج الممر المؤدي لغرف النوم بنظرة شاردة، صوت خافت يهمس بداخلها:

"لكن فقط يمكنك التضحية بها في سبيل من تحب يا صغيري"..

قبلت رأسه بحنو وقبل أن تجيبه ارتفع رنين هاتف زوجها بإلحاح أقلقها، اتجهت نحوه ورأت اسم أخيه، أجابته بسرعة ثم في اللحظات التالية كانت توقظه وترتدي ملابسها بنفس الوقت، تدعو أن يمر الأمر بسلام وأن تكون بخير.

هو لن يحتمل، أخيه لن يحتمل إن حدث للصغيرة مكروه، أوصت مربية الصغير به وغادرت معه حيث انتظرهما "أدهم" أسفل البناية والقلوب كلها تلهج بالدعاء وتنقبض في وجل.

******

الكل يعبث، يفكر، يخطط ويقرر، وعليه التنفيذ!

هو أيضًا لديه خططه التي يرسمها بعناية، تلك الشمطاء تهدده، تمسك بذراعه التي تعلم أنها توجعه وتلويها بعنف لتحصل على خضوعه وطاعته لرغبتها، وبالفعل نجحت.

قبل يومين أنذرته أنه تأخر بالتنفيذ كثيرًا، وهو يتعلل بموت والدها وعدم خروجها وحيدة من منزلها، لكنها نهرته تعنفه وتشكو خيبته بسخرية، ثم تنهي الحديث وتخبره أنها ستحصل على من يقوم بالمهمة بدلًا منه.

وبالطبع لم يكن ليتركها تفعل.. إذا خرج الأمر من بين يديه فما الفائدة التي ستعود عليه حينها؟!.. لو آخر فعلها؛ كيف ستكون الفاتنة له في النهاية!!..

وقف يتأمل الغرفة بتركيز، تأكد من خلو المنزل من عدسات متلصصة يمكن أن تكون الأفعى قد دستها دون علمه، لا دليل صريح على المكان، جدران عارية مجهولة، فراش عادي وشرشف أبيض سينثر خطاياه فوقه بعد قليل، تتوسطه جميلة رقيقة.. بريئة بشدة، وفاقدة للوعي أو للأصح مخدرة.

مال نحوها يتلمس وجهها ببطء، يمرر أنامله فوق وجنتها، ينتقل لشفتيها، يتحسسهما برفق، يمد أصابعه في النهاية يحاول خلع وشاحها المحكم حول رأسها.. لا يذكر متى ارتدته!!.. لكنه يليق بها..

ارتعشت يده.. لمَ يبدو الأمر في غاية الصعوبة؟!.. هو مجرد قطعة من قماش لا تعني شيئًا!.. لا تمثل له أي عائق، وبالتأكيد لن توقفه عما يعتزم القيام به.

حرك يده ثانية، يقبض بأنامل كفيه الاثنتين فوق المشبك أسفل ذقنها، تتوتر حركته، لا ينفتح بسهولة، يحاول جذبه ولا فائدة.. ويغضب الآن، مسح عرقًا وهميًا تخيله فوق جبينه، وهذه المرة قرر أن الطريقة الأسهل والأسرع هي نزعه دون اهتمام لطريقة التخلص منه.. وفعلها، بدأ بأول خطوات تعريتها، وسلْب ما ليس له.

حررها منه، من سترتها السوداء، وبتمهل فك أزرار قميصها الأسود هو الآخر، خلعه عنها يتأمل بشرتها الناعمة التي انكشفت أمام عينيه النهمتين، عقد حاجبيه بصمت، وزم الشفتين على أسنانه بتردد، يمد يده نحوها، يحاول دفع الشجاعة داخل عروقه..

"هيا المسها، هي جميلة، وليست أول امرأة.. افعلها وستكون من ترغب بين يديك لاحقًا"..

وسوسة شيطانه عن تلك التي يشتاق لتملكها دفعت بالدم في شرايينه حارًا منصهرًا، مد يدًا قاسية يجذب بنطالها بعنف.. يمزق ما تبقى من ملابسها!.. ثم وقف يتأملها وبداخله تتحرك الكثير من المشاعر في صراع مع غريزته البدائية كرجل: أمامه امرأة عارية في فراش.

استدار-بآلية من لديه مهمة محددة وعليه إنجازها- نحو الكاميرا الموضوعة على الطاولة المجاورة، ضبطها لتعمل على وضع تصوير الفيديو واعتدل من جديد، وقف قبالتها، يغزوها بعينيه دون رحمة، ينتهكها بنظراته قبل أن يترك لجسده العنان، ويلوث نقاءً لم تمسسه من قبل يد بشر.

في هذه اللحظات الفارقة يحلو له التمهل، التباطؤ حتى ينال المتعة كاملة، رغم أنها فاقدة الوعي كجثة، لكنها تشع حرارة أشعلت النيران في أوردته، فتح قميصه وأفكاره تجول حولها، تتخيل متعة الحصول على عذراء صغيرة لم يعاشر مثلها من قبل وربما لن يحصل على من تشبهها فيما بعد.

اتجه إلى الفراش وفي الطريق أنهى خلع ملابسه، جاورها يخفي وجهه عن تلك العدسة التي تراقب وتلتقط الصور، تشهد عملية اغتيال تامة وبنجاح، والضحية تدمغ بختمه الموصوم بالعار.

يمحو منها براءة، يختلس ما لا يملك، يسرق روحها ضحية الانتقام.. انتقام مهلك بحمرة الدم، ويقتل ما تبقى فيها من حياة، يحبس عنها أنفاس الطهارة ويدنسها بإثم كان دورها فيه.. مفعولًا به صامتًا.

ساكنة.. هادئة كالموتي، وهي بالفعل.. ماتت بين يديه..!

******

الخطوب لا تهاجم متفرقة، بل تشن غاراتها على القلوب والأرواح مجتمعة، كذئاب تترابط فيما بينها حتى تنهش ضحاياها، تحاوطها بإحكام تام، تمزقها بمخالبها وتغرس أنيابها فيما تبقى فيها من نبض حياة، تزرع الأنين في تربة الأفئدة العليلة، ترويها بزخم الأحزان وغيماتها الرمادية محملة بأمطار من نار.. سعير تحترق فيه النفس دون انطفاء.

والمصائب تتعاقب.. الواحدة تلي الأخرى، لا صبر، لا تأخير، بل مواعيد منضبطة كمنبه يوقظك في كل مرة على وجع.. وجع جديد ينشر بداخلك انقباضاته، حتى يبيت هو النديم لروحك التي استكانت له واستأنست به فأصبح هو سلواها.

ثم النوائب تتكاثر حتى تتناسى الألم، تفقد الإحساس، وتتبلد فيك مراكز الانتباه والشعور.. عقلك يتوقف عن التفكير وقلبك يصر على النبض فقط من أجل غريزة.. هي البقاء على قيد حياة تريد أنت أن تنهيها فحسب وليت الأمر يعود إليك.

همساتهم ترددت في رجاء، توسل، أمل وخوف حد الرعب الذي يشيب لهوله الوليد.. أمنيات أن تكون الصغيرة بخير..

"فقط بكت حد التعب، أُنهكت، فجلست حتى ترتاح أو ربما راحت في النوم.."

رغم وحشة المكان، وضوءه الخافت لكن أمانها واطمئنانها سيكون في كنف الأب حتى لو بقبره.

يقود بسرعة كبيرة، يطوي الأرض طيًا، يود لو يملك خيوط السيطرة ليطير إليها بسرعة البرق، أمام الباب الخارجي كانت سيارتها متوقفة، مظلمة.. ساكنة كسكون المكان المقبض للنفس.

ترجل "أدهم" يتبعه أخيه وزوجته، تفَحَصَ السيارة يدعو أن تكون بداخلها لكنها فارغة.. انتقل الفراغ المظلم لقلبه الذي يبتهل أن تكون صغيرته، مدللته، ابنته الأولى بخير.

همس "آدم" بتوتر:

- ما دام العربية هنا أكيد هي جوا، يمكن تعبت!

لم يتركه يتمم جملته، بل ركض للداخل وهما خلفه، بوابة المقبرة غير محكمة الإغلاق، أعمدة الإنارة ذات الضوء الكئيب تضفي على المكان رهبة تعتصر القلب، دفع الباب برفق ودخل بخطوات وجلة...

خطوة.. ثانية.. ثالثة، وبعد الرابعة توقف!!..

هل توقف جسده عن الحركة فقط؟!.. أم توقف قلبه عن النبض أيضًا؟!.. هل انتزعت روحه الآن وهو يعاني سكرات الموت.. كل هذا الألم!! الرعب..

عدم التصديق، الغضب، القهر والضعف!!.. الموازي لانسحاب الروح من الجسد.

...

مع توقفه المفاجئ وعيناه اللتان تعلقتا بشيء ما أمامه تخطاه أخيه الأكبر بسرعة يحاول الفهم، والمحاولات أحيانًا تنجح وقد يكون نجاحها مميت.. مميت حد أنفاس انحشرت داخل الصدر، انطبق عليها ولم يعد لها من نفاذ، شهق بحشرجة قاسية يحاول إخراج الهواء المتوقف عند رئتيه..

يقترب أكثر ببطء شديد كأن الخطوات عصية.. الحركة عسيرة، وشهيق الحياة شاق، يدقق، ينحني على ركبتيه.. بل الأصح يسقط، نعم.. لقد سقط، سقط عندما سقطت هي، ضاع عندما ضاعت هي، مات عندما انتهكت هي..

...

الصغير لا يتزحزح، عيناه لا تطرفان، مثبتتان على الصورة والدماء تغرق الأفق أمامه بحمرة قانية، نزيف القلب أصبح مجرد صورة باهتة لا تمت بصلة للطعنة التي نالها.. فحتى لو فرغت منها شرايينه؛ لا يزال النبض المتباطئ عنوة يخبره بوضوح.. أنه لم يحمها، لم يكن قدر مسئولية ألقيت على كتفيه رغمًا عنه، أنه ضعيف.. خانع، واهن، وأضاع ملاكه البريء.

...

مال "آدم" يحتويها بين ذراعيه، يستر عريًا تراه عيناه وترفضان القبول، لكن مع تسلل ضوء القمر من وراء السحب كأنه يشارك اللحظة ويهاجم بأن جواب السؤال هو: نعم؛ لمح آثار دمغها بها من قتلها.

ضمها إليه بقوة كادت تكسر عظامها، ربت على وجنتها وقلبه ينتفض ببقايا روح ترغب في الخروج من جسده علَّه يرتاح، يدعو أن تخرج.. أن يموت الآن، يستجدي الرحيل فالوجع قد فاق قدرته على التحمل، يهمس اسمها بأنين:

- سارة!!

...

نبرته المضطربة وصلت لأذني ذاك المتخشب كجثة فقدت الشعور وكل معاني الحياة، يراقب، فقط يراقب.. لا يملك قدرة على الحركة، يحاول دفع نفسه للقرب، يحاول ألا يصدق ما يرى، أن يكذب الصورة وينفيها، يمحوها من عقله، ينسى عريها وسكونها بين ذراعي أخيه، لكن قدماه تتشبثان بالأرض بقوة، ترفضان الحركة كما قلبه الذي يرفض النبض.. إلا من بقايا بائسة تجبره على فتح عينيه على واقع لم يدُر بخلده يومًا.

...

يكرر همسه باسمها.. وتلحق بنبرته علامات تعجب!!.. لا.. بل رفض، يريد الصراخ، تنحبس الأنفاس، تموت الحروف، والصوت تنقطع أحباله فتُذبح نفسه التي تنظر وتُجبر أن تصدق.. الدليل دامغ، البرهان واقع.. ولا مناص.

عذرية شفاه أدماها انتهاك، وآثار اعتداء غاشم مظلم على طهارة لوثها بخطيئة لا تغتفر، غياب عن الوعي، وعري لا يستره سوى شرشف يحكي القصة بوضوح واختصار.

...

في مكانه لا يتحرك، كأنما تحول لتمثال من حجر.. لكن هل تتألم التماثيل!!.. هل تتوجع الأحجار!!.. هل تنزف داخلها عوضًا عن دموع لن تغادر الأجفان مهما توالت عليها النوازل والبلايا!!..

هل نموت والعقل لا يزال يفهم، يعلم ويدرك!!.. والقلب يصرخ دون صوت؟!

يتأمل بجمود كأنما هو خارج إطار الصورة، ضعيفة.. هشة، موصومة ببصمة لم توثقها قوانين ولا تشرعها عهود، بصمة يعلم أنها قاتلة.. اجتثت منها الحياة.

...

الصمت يطرق باب المكان دون صوت، والدمعة تغادر المقل، لا تبرد القلب، بل تنساب فوق وجنة الساكنة فوق ضلوعه، تنتهي بين شفتيها تحمل مرارة وجعه لتتذوقه هي كأن أوجاعها لا تكفي، شعر بيد تحاول انتزاعها من بين ذراعيه، هناك من يحاول أخذ صغيرته منه، لا.. لا.. أيها الوحوش لن تمسوها بسوء، ويتشبث بها أكثر حد إيلامها في غيابها، والصوت يأتيه بدموع:

- آدم.. سيبها خليني أتطمن عليها.

زوجته الباكية تأخذ دور المنطق، لكن ذراعاه ترفضان الخضوع، لا تستجيبان لأوامر العقل، لن تغادرهما، سيحميها، بحياته سيفعل، بروحه سيفعل، وبكل قواه حتى تكون بخير.. حتى تصبح بخير.

...

هي مذعورة، ترفض التصديق، تحاول استجداء عقلها للنظر في أمر هذه المعضلة، صغيرتهما.. مدللتهما.. الابنة التي لم ينجبها أيًا منهما لكنهما تعهدا لها بأبوة حتى تنتفي الحياة من الجسد!!

ضاعت، ذُبحت في شرنقة حزنها التي لم تخرج منها بعد، فمن رحل تركها خلفه في كنف رجلين قُصِم ظهريهما ودُقت الأعناق.. والنتيجة أنهما ماتا قبل أن تموت هي.

...

رجفة أصابت قلبه رغم تصلبه في موقعه لا يفارقه، حوَّل عينيه لأخيه والتمعت فيهما عَبرة، لكن القسوة تتغلغل فيه أكثر وتمنعه راحة بانهمارها..

يسأله: "لم يحدث شيء أخي.. صحيح!!"

والجواب صامت بلقاء جفون ونظرة دامية على علامات تحكي ما حدث دون مهرب و.. "نعم حدث"..

الصراخ محبوس، والخوف مشروع، والقلب واجف يرتوي بالدموع لكن العيون جفت مآقيها فلا أمل.

...

تنظر إليها فوق صدر زوجها الذي تشعر بضيق أنفاسه، الأسئلة تفجر عقلها، الذعر يلجمها، الحزن يشل أرجاء نفسها، من فعل بها ذلك؟!.. لمَ؟!.. وتُختم بكيف؟!

ثم تنتهي أفكار المحامية التي تبحث دومًا عن جواب، وتنتفض روح الأنثى.. تراقب من تشبهها، منتهكة، ضائعة في دنيا اللاوعي، وتظهر غريزة الأمومة فتسيطر وتقترب ثانية تحاول ضمها، الاطمئنان عليها، احتوائها ومواساتها في سباتها.

...

رنين هاتف المتجمد عند خطوته الرابعة ارتفع برسالة، نفضت أجسادهم جميعًا، انسلخت عيناه بصعوبة عن المشهد الماثل قبالته لا يريد محوه، بل يعاقب نفسه ويعذبها، يجلدها به، ينظر في وجوم، وترتفع دقات القلب، ضخات دم عنيفة تضرب المخ بقسوة.. إن لم تصدق ما تراه أمامك فها هو الدليل..

مدللتك، عارية في فراش أحدهم، فاقدةً للوعي، ساكنة كجثة.. يقبلها، ينتهك براءتها، يلوث طهارتها، ينتزع منها الحياة..

وشاهد يا مُعَذب، فالآلام لم تكتفِ منك بعد!..

تيبُس نظراته عند شاشة هاتفه حركت الآخر، ترك الصغيرة بين أحضان زوجته تحاول إفاقتها من خلال دموعها، وألقى بعينيه ليرى ما يراه أخيه.. وليته ما فعل!!..

انهمرت دموع قلبه وارتفع أنين نزفه يصم أذنيه، عاد إليها، يضمها ثانية ويتحشرج صوته باسمها ولا فائدة.. لا تفيق، لا ترد، وكأنها تهرب بغيابها عن وعي تعلم أنه النهاية، أنه موت أشد قساوة وغلظة من غيبوبة تفقد فيها مجرد الشعور.

وذلك الجامد، لم يتحرك قيد أنملة.. كأنما توقف كل جسده بما فيه عن العمل: الروح، القلب والعقل، تتأرجح نظراته بين المستكينة في حضن

أخيه، وبين قبر أبيه خلفهما يقف منتصبًا كأنه يخبره أنه رأى.. علم.. شهد على ما حدث، أنه قصَّر وأضاع الأمانة.. ولم يكن أهلًا لمسئولية ظنه قدرها.

ويعود لهاتفه، تتوالى الصور، ثم لها.. من ماتت على قيد الحياة.. وفي النهاية تحط نظراته على الأرض، الهوان، الخيبة والعجز.. التقصير ولوم النفس والرغبة الدفينة بطعن القلب حتى يلفظ آخر نقطة دم ويصل لختام النبضات، تتحرك حدقتاه بتتابع ميت، يعض على شفتيه حتى استشعر طعم الدم الصدئ في فمه.. قبضته تنضغط بعنف، تحطم الهاتف وشظاياه تخترق كفه فتسيل معها المزيد من الدماء.

ثم وهم بالهمسة الصارخة تخترق عقله:

"لقد أضعت ابنتي ولم تكن قدر المسئولية"

ويعتذر بصمت وجفناه يتعانقان بشدة كأنما حينها قد يجد نفسه في كابوس:

"آسف أبي، لقد قُصم ظهري، خذلتك وخذلتها وخذلت نفسي"

يتحرك بآلية، يخلع سترته وأخيه بالمثل، ينحني الاثنان وكل منهما يستر ما تطاله يداه، تلتقي الأعين بنظرة قاسية ترفض التصديق، لكن الدليل عارٍ بين أيديهما مهما حاولا الرفض، ويخفض الأصغر عينيه بانكسار، يحيطها بذراعيه مع صوت "لمياء" الحازم من بين الدموع:

- لازم نبلغ البوليس!

رفع نظراته نحوها فجأة.. جافة عنيفة ترغب في القتل، تعني زجرًا وأمرًا بالصمت لكنها لم تفعل:

- ما ينفعش نسكت على حقها..

وينعقد الجبين بعنف أكبر، لا يستطيع النطق، يلتفت لزوجها يحادثه بعينيه علَّه يوقفها لكنها تصر:

- ما تضيعوش حقها، اللي عمل كده لازم يتعدم.

لكنه أغلق جفنيه بقوة ثانية، الألم لم يعد محتمل، يكاد يشعر بنزيف روحه، تجاهلها وتجاهل كل ما حوله، انحنى أكثر يحملها بين يديه، يضمها لصدره أقرب كأنها طفلته.. وهي بالفعل طفلته، هو من رباها وفي يوم لم يمانع أن تناديه أبي ولو من باب المزاح، يحتويها بشدة حتى سمع أنينها فانتبه لضمته القاسية، تحرك الجمع كجنازة صغيرة، تودع البراءة قبرها وتردم عليها بأوحال خطيئة دنستها دون ذنب.

الوجوم يرسم الخطوات إلا من صراخ "لمياء" وإصرارها على الأخذ بالثأر، أي ثأر وممن؟ من مجهول قتل ودفن وهرب وأُغلقت قضيته قبل أن تفتح!!

مع كل خطوة كان شيء ما بداخله ينكسر، ظهره ينحني، تشعر روحه بالذل والمهانة وتخرج من جسده تراقب من علو خطواتهم، تودع وترحل.. وتعلن أن الثرى أكرم لها وأهون.

******

"أهي عربيتها يا زياد.. وقف بسرعة"

قبل أن يوقف السيارة تمامًا ترجلت منها، تركض نحو الأخرى المتوقفة إلى جوار المقابر، لقد بحثا كثيرًا والظلام المخيم على المكان لم يمنحهما الفرصة للوصول أسرع، لمح سيارة ثانية ضخمة متوقفة خلف الأولى، خمن أنها لأسرتها.. وقبل أن يغوص في تخميناته أكثر وصله صوت "علا" بصراخ نبرته تمتلئ بالهلع وعدم التصديق:

- حصلها إيه!!.. سارة ردي عليَّ.. مش ممكن.. مستحيل!!

لمح تراجعها بظهرها وانعقد حاجبيه، رجلين، امرأة تصيح بصوت عالٍ ونبرة حازمة، ترغب في إبلاغ الشرطة عن أمر ما..

"علا" يحمل وجهها ملامح صدمة عنيفة، وفتاة مغطاة بعبث بشرشف وسترات رجالية.. محمولة بين ذراعي أحدهما، يضمها إليه كأنها ستتلاشى لو تركها.

انقبض قلبه، الأمر لا يحتاج لمحقق ألمعي، والصورة واضحة لا تحتمل سوى تخمينًا واحدًا..

همس لنفسه بصوت شاحب:

- يا الله!!

لم يغادر سيارته، ود لو اختفى داخلها، يبتعد عن المكان، يغمض عينيه عنها ويصم أذنيه عن صوت صراخ صديقتها وتلك الأخرى..

انطلقت بهم السيارة ثم قبل أن يبتعد هو الآخر فُتح الباب المجاور وجلست "علا" بجانبه، تشهق، تبكي، تخفي وجهها بين كفيها وتمنحه جملة قصيرة لم تستطع نطق ما هو أكثر منها بلهجة متقطعة:

- ممكن توصلني عندها؟.. امشي وراهم.

واستجاب في صمت.. الحكاية أمامه لا تحتاج لتوضيح أو سؤال، الموقف أكبر من أي حديث، والوجع هذه المرة لن يداويه شيء.

******

من بين حجب الظلام تابع رحيل الركب الصغير، يراقب بسكون بعدما انقض بسرعة صقر جارح، نال من ضحيته، مزقها، وحصل على مراده.

والآن الأمر انتهى، يعلم أنه لا دليل عليه، على وجوده هو بالذات معها، أو حتى على المكان الذي كانت فيه.. يعلم أنها لم تشعر بشيء حتى الآن.. لكن

بعد قليل ستتساوى الرؤوس.. تستيقظ الذبيحة من غفوتها المؤقتة، تموت أمام أعينهم مرات ومرات.. وقيود الذل تكبل أيديهم وتغلها لأعناقهم فلا يقدرون على مداواتها أو حتى استدعاء الصبر.

ابتسامة شيطانية ارتسمت على وجهه، الآن حان وقت دفع الثمن.. لقد قدم ما لديه وسينتظر أن يحوز على ما يريد، رفع هاتفه يتصل برقم ما، ثوان لم تطُل وأتاه صوتها متلهفًا:

- ها عملت إيه؟

اتسعت ابتسامته حتى غرقت فيها ملامحه الوسيمة فأضحت مخيفة في ذلك الضوء الشاحب:

- كله تمام.

وبلهفة أكبر تسارع وتطلب بلهجة آمرة:

- ابعت لي نسخة من الصور.

عقد حاجبيه بخبث ثم بعد صمت قصير قطع عرق المسألة وأسال دمها:

- للأسف ما فيش نسخة، أنا بعتهم على موبايل أدهم ودمرت الميموري، ما عنديش استعداد يبقى في أي دليل على وجودي معاها في إيد أي حد.

بعد سماعها قوله صرخت، غضبت، سبته واتهمته بحماقة لكنه أوقف سيلها المنهمر بحزم:

- أنا عملت المطلوب، أنت عاوزة تكسريهم وده حصل.. مستني مكافأتي.

جاوبته بخشونة:

- أكسرهم في السريا تيمو!!.. طيب إزاي؟!..

وزفرت بحدة، تحسب المكاسب وتعدد الخسائر، في نهاية القسمة المطولة خرجت بأن معدل الخسارة أعلى وأكثر إيلامًا من الربح، سكنت لثوان قبل أن تنهي المحادثة برقة مفتعلة:

- عمومًا يا تيمو أنت كده عملت اللي عليك وانتقمت لدينا، باقي بقى تحاول تقرب منها وهما أكيد مش هيعرفوا يخبوا كتير.. الحاجات دي مش بتستخبى.

ثم أنهت المكالمة وبالطبع لم ترَ ابتسامته التي تشع بلؤم.. كأنه توقع ردها، لكن في النهاية من يهتم!.. لقد كان وقتًا لطيفًا قضاه بمتعة مع جميلة أخرى، يعلم أنه سيصل لمبتغاه في النهاية مع قليل من السعي، وسيجبرها أن تسانده وتقدم له ابنتها على طبق من ذهب.

******

تتنقل بين باب الشرفة والسور الخارجي لها، خطواتها مرتعبة متوترة، والأفكار في حالة حرب داخل رأسها المتعب، أي راحة تقصدها زوجة ابنها!!..

كيف ترتاح وطفلتها في الخارج لا تدري عنها شيئًا؟!.. وحتى هاتف ابنها الذي ذهب للبحث عنها لا يصلها منه سوى جواب بأنه مغلق.

تدعو.. وربما من المرات القليلة التي تبتهل فيها لخالقها أن تكون صغيرتها بخير.. هذا كثير للغاية، والتحمل لم يعد من ضمن قدراتها الخاصة، إلا هي.. إلا من حصلت عليها بعد عناء سنوات، من خاضت في سبيل ضمها إلى صدرها الكثير من الأوجاع وابتلعت لأجلها مرارة الدواء.

من فقدت الأمل قبل وصولها لدنياها ثم عاد للحياة في لحظة خروجها للنور.. لا بل لحظة علمت بوجودها بين أحشائها..

كم تمنت وحلمت ودعت وبكت!.. ثم عوضها الله بعد صبر دام لأكثر من اثني عشر عامًا كادت تفقد فيها كل معنى للجَلَد والأمل!..

إلا هي يا الله.. الوجع كبير هذه المرة وتوقن أنها ستموت بعده!!..

لمحت ضوء السيارة قبل أن تسمع صوتها تدلف من البوابة الخارجية للمنزل، ركض قلبها وتسارعت نبضاته قبل أن تلحق به خطواتها وهي تهرول خارج غرفتها لتلتقي بزوجة ابنها أعلى الدرج.

فُتح الباب ومع شُقه الذي يزداد اتساعًا في كل لحظة وقربها الذي يزداد خطوة كانت روحها ترفرف بين جنبيها وإحساسها يخبرها أن الأمور ليست بخير أبدًا..

ثم تأكدت عندما رأت طفلتها محمولة بين ذراعي شقيقها شبه عارية بشفاه مدماة مكدومة، خصلات مشعثة مكشوفة، وغياب عن عالم الوعي.

******

اقتراب حثيث يصاحب نبض قلبها البطيء قرب نبضه هو المتسارع بغضب بدأ ينهشه من الداخل، يضعها برفق فوق فراش أحلامها الوردية التي انقلبت لكوابيس، برفق يكاد فيه يبدو للناظر ساكنًا لا يتحرك.. وتأبى ذراعاه تركها، يرفض صدره أن تغادره رأسها، وتعانده أنفاسه ألا تختلط بأنفاسها!!..

وماذا بعد!!..

ما الذي عليه فعله؟!.. هل يموت!!.. فالموت أهون، هل يفقد قدرته على التفكير والنطق والحركة ويتجمد كما تصلب هناك عندما رآها!!.. لكن يبقى الوجع ينخر في قلبه ببطء حتى يعلن أنه غادر الحياة، أو ربما عليه الصبر من جديد، الكتمان والتحمل والمواساة.. لكن يواسي من؟!.. يواسيها هي!!.. من فقدت كل شيء ولم تعد زيارتها لعالم الأحلام الناعمة مسموحًا بها؟! يواسيها باعتراف أنه لم يحافظ عليها ولم يكن أهلًا لحمايتها!!

أم يواسي نفسه ويعترف بضعفه وعجزه وأنه ليس قدر تلك المسئولية الضخمة التي أصبحت فوق كاهله هو وفقط؟!.. أو ربما يدعم أمه التي

ماتت روحها لحظة وقعت عيناها على أخته بين يديه!! أو أخيه الأكبر الذي تنفك الآلام تطارده من كل اتجاه!!

شعر بعقله يكاد ينفجر، قلبه يتضخم بأحزان لم يؤَهل لاحتمالها.. تحرك ليغادر الغرفة بصمت ومع ابتعادها عن دفء صدره استفاقت بأنين، تجمد مكانه.. علا صوت توجعها فاستدار نحوها غير راغب.. الواقفين حوله يراقبونها باهتمام قلق.. لكن القلوب مذعورة وفي حالة هلع لا يمكن شفاؤه.

انفرج جفنيها عن غشاوة بيضاء، ثم بدأت الصورة تتضح بتدريج..

جسدها يؤلمها، تشعر به محطمًا كأنما صدمتها سيارة وألقت بها فوق الأرض الصلبة.. رفعت كفها تضغط رأسها تحاول أن تصحو وتفهم ما كل هذا الألم!!.. لكن تيار الهواء الذي شعرت به أوقف يدها في مكانها، وانحنت بعينيها لأسفل..

تكاد دقات القلوب تقرع كطبول حرب في لحظة ترقب.. لحظة الحسم، الانتظار على أوجه، النيران تندلع والرعب يتمكن من ملامحها.. نظرت إليهم والنظرة بسؤال جوابه كان خفض الأعين هروبًا منها، ونشيج والدتها يأتيها من بعيد يخبرها أن ما تظنه هو ما حدث..

اكتنفها رعب.. ضمت قبضتيها وارتفعت دقاتها حد سماعها في أذنيها تكاد تخرقهما، أصابعها الواهنة امتدت تجذب السترة التي اشتمت فيها عطر

أخيها فوق صدرها، تنظر إليهم بفزع، ونحيب بطيء يتصاعد من بين شفتيها المضمومتين تحاول منعه.

خائفة.. هي خائفة.. تناشدهم بعينيها أن تكون دعابة.. ولكن أي دعابة مع كل هذا الوجع!!.. مع عريها الذي انكشف أمام أخويها والستر كان فقط مجرد سترة تحمل رائحتهما!!.. مع نظرة تنضح بها أعينهم المنخفضة بانكسار و"أدهم" الذي ينظر باعتذار!

هزت رأسها برفض، تتذكر.. يد تمتد من الظلام تحبس عنها الأنفاس وتستبدلها برائحة نفاذة أظلمت الكون من حولها، وأخرى تسيطر على خصرها تكبلها وتمنعها الهروب، ثم سقطت.. وبعدها أفاقت هنا والنتيجة واضحة لا تحتاج لعلامات استفهام..

رفض عنيف ارتسم في عينيها.. رفض ترجمته حركات رأسها يمنة ويسرى.. رفض أعلنت عنه بصرخات متتالية بكلمة "لا".. لا تعني شيئًا، لا تجدي نفعًا، ولا تعود بالزمن للوراء.

احتواء شقيقها لها بين ذراعيه دفعها لرفض أكبر، تدفعه بعنف وترتجف ببرودة تتسلل لروحها المذبوحة، تصرخ أكثر والأصوات تتداخل، هناك من يطمئن، من يحنو، من يضم، وصوت من بعيد يطالب بطبيب وعلاج واحتياج.. وتغيب عن الوعي بإرادتها هذه المرة.

******

"يا آدم ما ينفعش، ما تضيعوش حقها.. حرام"

تصيح بحرقة في تلك الغرفة الجانبية حينما انفردت فيها بزوجها بعد رحيل صديقتها الطبيبة.. والتي نظرت لـ"سارة" بغضب ممتزج باستفهام قوبل من الجميع بنظرة غامضة آمرة بشيء واحد.. الصمت.

ساعدت أختها في تنظيفها وتغيير ملابسها، حقنة مهدئة وتوصية بمثلها حين الحاجة.. ثم حديث مختصر مع الصديقة تطلب منها تكتم الأمر كما أمر زوجها.. لكن الآن حان وقت الجد، هذا السكوت يثير جنونها ولن تلتزم هذه المرة.. استدار نحوها بنظرة مستعرة:

- حقها!!.. وهنجيبه إزاي حقها؟!.. من واحد مجهول ما نعرفش هو مين ولا عمل كده ليه؟

تنهدت بصبر، دموعها لم تجف فوق وجنتيها بعد:

- دي مش شغلتك، دي مهمة البوليس.. المهم أنت تاخد الخطوة.

أمسك بمرفقها يهزها يفرغ غضبه في وجهها، وصياحه هذه المرة أثار خوفها:

- أنت متخيلة تأثير ده عليها إيه؟.. حاسة بالصدمة اللي ممكن تتعرض لها؟!.. ما شفتيش كانت حالتها إزاي لمجرد إنها عرفت؟.. عاوزة الفضيحة تكبر وتنتشر وهي؟!!.. فكرتِ فيها؟

ترددت للحظة وذهنها يسترجع صورة أخته عندما استعادت وعيها، ارتجف قلبها وتخيلت نفسها مكانها، لا تعلم ما هو القرار الصحيح.. بمنطق المحامية ترفض ضياع الحقوق.. وبمنطق الأنثى تعلم أن اتساع حيز الصورة سيوجعها أكثر ويهيل على ما تبقى من روحها -العالقة بين الموت والحياة- التراب..

هزت رأسها بيأس:

- طيب على الأقل تروح مستشفى.. نطمن عليها، مش معقول كده افرض تعبت!!

دفعها عنه وأعطاها ظهره، يمسح وجهه بكفه بعنف كأنما يريد اقتلاع عينيه التي رأت:

- ما فيش حاجة من دي يا لميا.. الدكتورة صاحبتك طمنتنا وخلاص.

عاد إليها غضبها:

- على الأقل نتأكد إن ما فيش حمل!!..

استدار إليها ثانية بعنف سريع، عيناه تتألقان ككرتين من نار أحرقتاها بلهيب النظرة، والنبض بين جنبيه يتعالى، عقله يحلل بسرعة ويتخذ القرار:

- يومين ونعمل تحليل دم، ولو في حاجة: نقدر نلحقها.

تهدل كتفاها في وجوم، لا تريد الصمت، ترفض الخنوع وإحساس الذل، لكن ما الذي بيدها لتفعله؟!..

سمعت صوته يبرر بعد تنهيدة مستعرة:

- أكيد اللي عمل كده واخد احتياطه، مش هيسيب وراه حاجة توصلنا له.

رفعت عينيها إليه دون فهم فأشاح بذراعه ينهي الأمر ويرفض الإيضاح أو الخوض فيه أكثر:

- كان في صور وصلت على موبايل أدهم.. الموضوع انتهى يا لميا ومش عاوز أسمع كلام فيه تاني.

انتبهت فجأة إثر انتهاء كلماته، التمعت عيناها بتصميم ونبرتها اكتسبت حدة:

- صور..!! أنت فاهم ده معناه إيه؟

لم يرد، اكتفى بنظرة مستفهمة وقلبه ينبض برهبة، أردفت بلهجة مكبوتة بسخط:

- انتقام..!

انعقد حاجبيه يفكر في كلمتها الوحيدة، لكنها عاجلته بتوضيح:

- اللي عمل كده عارف أنتم مين وهي مين وقاصد..

ازدادت حدة تنفسه، عض شفته السفلى وعيناه تبرقان بنظرة قاتمة.. صمته دام ربما لدقيقة، قبل أن ينظر في عمق عينيها وبلهجة آمرة:

- اقفلي الموضوع يا لميا.. أنا هاتصرف.

كادت تعترض ثانية ربما لتخبره أن التصرف السليم والوحيد هو إبلاغ الشرطة، لكنه منعها بنظرة زاجرة حادة وإشارة حاسمة من كفه، يعلمها أن الأمر بيده الآن وعليها التزام الصمت، شعرت بالعجز وفي النهاية همستها وصلته تشعره بنار قلبها:

- والله حرام.

هو يعلم.. من قال أنه لا يفهم؟!.. نعم هي أنثى مثلها وتقدر الموقف من نظرتها الخاصة.. لكن هناك زوايا أخرى للنظر، لا تفهمها هي بل تأخذها حمية أستاذة القانون لا تدري أن تطبيقه أحيانًا قد يكون بمثابة توقيع شهادة وفاة.

******

التنهيدات بنكهة النار، بمذاق السعير.. الجبن والخوف والذعر مرادفات مجتمعة تتحكم بالمشاعر، تسيطر على اللجام وتقود الزمام.

لا تدري ماذا تفعل!.. عقلها بالفعل في حالة شلل.. منذ رأت زوجها يحمل شقيقته بين ذراعيه كجثة وهي في دوامة، تطوف حولهم، تدعم هذا وتساند

ذاك وتحمل تلك، قلبها موجوع بشدة، وهي نفسها تشعر بالهلع.. الأسئلة التي تريد نطقها كثيرة للغاية حتى كادت لا تعرف بأيها تبدأ وهل يحق لها السؤال من الأساس!!..

دثرت الصغيرة بغطاء نظيف، تأملت وجهها وملامحها الموصومة بأثر تركه صاحب السيف الذي إجتز به عنقها دون رحمة، قبلت جبينها وابتهلت بقلبها أن تمر الأزمة بسلام.. لا تعلم كيف لكن ربها رحيم!!..

تركت ضوءً خافتًا إلى جوارها، وتأملتها لثانية أخرى ثم تحركت بهدوء تغادر الغرفة، الكل في حالة سكون.. الأم لم تنم سوى بالمهدئ هي الأخرى بعد انهيارها وصراخها الذي رج المكان وأثار أعصاب الأخين أكثر، والأخ الأكبر مع زوجته في غرفة قريبة بعدما رفض الرحيل هذه المرة..

وزوجها!..

رباه.. ما إن أغلقت الباب خلفها حتى سمعت أصوات تكسير زجاج قادمة من غرفتهما!!.. هرولت إليها وفتحتها بهدوء تخشى مما ستراه.. وتوقفت مبهوتة!!..

الحبيب المسكين، حطم الغرفة تمامًا، ومازال مستمرًا.. المرآة تفتت لقطع صغيرة أسفل قدميه، المقاعد مقلوبة، الفراش تناثرت شراشفه وتبعثرت وسائده، العطور اختلطت روائحها بعدما تكسرت الزجاجات، والآن يقف

أمام صوان الملابس يلكمه بكفيه ويصرخ بصوت خفيض يلوم نفسه ويعذبها:

- ما حميتهاش..

ويتممتم بعد لكمة أخرى:

- ماكنتش أد المسئولية..

ولكمة وصدمة برأسه:

- أنا ضعيف..

ويفتح الباب يحاول خلعه فلا يستطيع، يمد يديه داخله ينتزع الملابس من مكانها ويمزق ما تطاله يداه:

- ضيعت الأمانة يا بابا..

والتفاتة نحوها بصرخة أعلى ووجه محتقن بشدة:

- حبست دموعي وكتمت حزني وقلت أنا الأقوى..

وينهار أكثر دون أن يراها فعليًا:

- بس اكتشفت إني الأضعف.. إن فات وقت الحزن بس لسه الأحزان ما بتنتهيش..

ويضرب صدره بقبضته المضمومة كأنما يبغي إيلام نفسه، يهمس بأنين:

- الأحزان بتتولد كل يوم، وقصادها الفرح بيموت.

ويتحرك بجنون داخل المكان يبعثره كأنما لم يتحطم كليًا، ارتجفت وانقبض قلبها، في تعبيره عن ألمه وحزنه اختار الغضب، الغضب في أسوأ صوره.. تلك التي تخيفها منه وتسبب في نفسها الوجع عليه، فلا تدري هل تهرب من ذلك المرعب أم تقترب وتضم، تحنو وتهدهد، تحتويه وتبثه السكون والطمأنينة!!..

ركضت نحوه تحاول منعه، اقتربت تلمس كتفه بأناملها وتنادي باسمه:

- أدهم!!..

لكنه استدار نحوها بعينين محمرتين ثم تحرك يدفعها من طريقه بصراخ جديد:

- ضيعتهااااا..

وسقطت.. حاولت الاستناد لأي شيء لكنها اندفعت بقسوة فوق الأرض وسط حطام المرآة وبين محاولات التماسك والرغبة في مداواته استندت بيدها على قطعة كبيرة من الزجاج وانفجرت نافورة الدم، تأوهت بعنف جعله ينظر نحوها وانخلع قلبه مع مشهد الدماء التي تسيل بسرعة لتغرق

الأرضية وتغرق ملابسها ومع مرأى قطعة الزجاج الضخمة المغروسة في باطن كفها.

تجمد مكانه لثوان يحاول استيعاب ما فعله، نظر ليديه برعب كأنما لا يصدق أنه آذاها!!.. ثم انتفض فجأة مع تأوهها ومحاولتها التحرك ونزع تلك القطعة المخيفة، اقترب بركض ينحني نحوها بهتاف آمر:

- استني...

رفعت عينيها إليه بألم فقابل نظراتها بهزة رأس يائسة ونظرة بائسة، برفق حاول سحب الزجاج من كفها، ومعه تتأوه أكثر، مع خروجها تمامًا ازداد اندفاع الدماء فشعر بالذعر، جذبها من خصرها يساعدها على النهوض، وسحب مفاتيح سيارته مع منشفة وجدها في طريقه، أحاط بها كفها وأمرها بالضغط فوقها.

ساندها يتحرك بها مغادرًا المكان، تحاول الاعتراض ولا فائدة.. قاد السيارة بسرعة كبيرة نسبيًا أخافتها أكثر لكنها التزمت الصمت.. تشكر الله على ما حدث لها رغم الوجع، لقد غير اتجاه تفكيره وحول مشاعره التي كادت تقتله لناحية أخرى قد يستطيع بعدها الصبر.. وقد يمكنها حينها مواساته!

في المشفى القريب خاط الطبيب الجرح وطهره بعناية، ينظر إليه بشك ولملابسها الغارقة في الحمرة بعدم رضى، ناولها وصفة طبية ونبرته لائمة بطريقة غريبة:

- اتفضلي يا مدام جمانة.. ده مضاد حيوي مرتين في اليوم ومعاه مسكن لو في ألم، لازم تهتمي بالجرح، وخلي بالك بعد كده لأنه مش بسيط.

أومأت برأسها موافقة بينما عقد "أدهم" حاجبيه في ضيق، لقد شعر أن الطبيب يلمح لكونه السبب، أو أنه هو من آذاها.. نعم هو فعل؛ لكن بدون قصد..

اكتنفه غضب حبسه بداخله حتى عادا للمنزل، وقف بباب الغرفة ينظر إليها بقلب منقبض ويلمح آثار الدماء في البقعة التي سقطت فيها زوجته، جذبها من يدها نحو غرفة الطفلين بتمتمة:

- هننام هنا النهاردة.

على فراش آخر في الجانب المقابل لفراش "ملك" استلقى بجانبها بصعوبة، أدار وجهه نحوها وبعينيه ذنب يخالطه ندم.. منحته بسمة رقيقة واقتربت منه، رفعت نفسها قليلًا تحتوي رأسه في دفء أحضانها فاستسلم لها، قبلتها بحنو وهدهدت قلبه بهمس رقيق:

- ارتاح..

زفر واحتار في رد، عن أي راحة تتحدث!!.. وهل يمكنه بالفعل أن يرتاح؟!.. رفع رأسه نحوها فنظرت لعينيه بتساؤل أجابه بخجل:

- آسف.. ما كانش قصدي!!

ربتت على وجنته ومالت تقبل مقدمة رأسه ثانيةً بعطف:

- عارفة، وبسيطة ما تاخدش في بالك.. المهم إنك ترتاح.

عاد يزفر وهذه المرة زفرته أشد حرارة، ضمته إليها أكثر.. تود لو تحبسه بداخلها، تمحو منه أحزانه، تملك عصىً سحرية تشير بها فينتهي كل شيء ويزول كل ألم، تَمَسَك بها كطفل حين سمع همسها يتردد بدفء:

- احزن يا أدهم.. بيِّن حزنك، مش عيب ولا ضعف، مش معنى إنك أخدت المسئولية على كتافك إنك تحجر على مشاعرك وتمنع قلبك يحس ويقول آه.. قولها يا أدهم.. جرب تدي نفسك الراحة اللي محتاجاها، وأنا معاك.. قولها في حضني، أنا بس اللي هاسمعها قولها أو حتى اصرخ بيها يمكن خروجها يداويك.

أغلق جفنيه بقوة، يحبسها بين شفتيه والكلمة كأنما استجابت لأمرها الحازم برفق تريد الخروج، لكنه أقوى وسيتحمل، سيفعل.. سيقاوم ويصمد ويحارب حتى النصر.. هي تدفعه أكثر بلين:

- خرج كل اللي جواك يا حبيبي.. ما تحرمش نفسك الراحة، ما تعذبهاش وتجلدها، كل ده قدر وقضاء مكتوب، اصبر وادعي وربنا هيهونها..

ولم يتأوه.. بل فقط استكان لذكر خالقه الودود فخرجت همسته بنداء خاشع يستلهم منه الصبر:

- يااارب.

سمعته فاستمرت بضمه إليها، تمسد عنقه بأصابعها تزيل عنها تشنجها.. بعد دقائق طويلة أبعدت رأسه تنظر في عينيه وتمنحه الاحتواء:

- قوم صلِ ركعتين وادعِ ربنا.. ما فيش أرحم منه بعباده، هو عالم بينا وقادر يرحمنا برحمته.

رمقها بصمت تحول لامتنان ثم أطاع، تحرك بهدوء يتوضأ، يقف بين يدي خالقه، يسأله الصبر، يتوسله الجلد، ويطلب منه بطمع أن يكون إلى جوارها ويمنحها القوة حتى تقف على قدميها من جديد، يدعو بالرحمة فالقلب ناء بحمله واعتصره الأنين حتى أصبحت كل نبضاته محض وجع.

(٢٢)

بلا دِيَّة

آه لو كان بيدي!

كنتُ حبستُكِ بين جَنبي..

كي لا يراكِ أحد..

حتى لا يؤلمكِ.. يوجعكِ..

يسيء إليكِ أحد..

آه لو تدرين!

أني أكاد أقتل الأحمق بداخلي..

لأنه فرَّط فيكِ.. غفل عن حمايتك..

تركك فريسة لأحدهم..

استغل ضعفك..

وطأ بنفسه الموحِلة بستان برائتك..

غفلتُ عنكِ فقط لحظة..

عن حمايتك..

فنفذ فيكِ الوضيعُ أسوأ كابوس..

لأب..

لأخ..

لرجل!

آه لو كنتُ أستطيع..

تخفيف الألم..!

استبدال القهر!

محو مهانة ستوصمني وتوصمك!

أبد الدهر..

آه لو تمكنتُ من العودة بكِ لأيام..

لساعات مضت..

فقط لساعات..

سأدفع عمري بأكمله لأفعل..

فقط لأعيد لصغيرتي..

برائتها..

عفتها..

حياة سُلِبت منها..

رغمًا عني و..

عنها..!

إهداء/ مروة ممدوح

انكسار رجل.. أو وجع قلب أم!!..

لا تدري أيهما أشد قساوة أو عنفًا على الروح؟!..

في حالته؛ قُصِم ظهره، انحنت أكتافه، وأخفض عينيه يعانق تراب الأرض..

ليس خجلًا أو إحساسًا بالعار وهي تعلم، بل ذنبًا ينوء به كاهله حتى انفصم..

ذنب؛ أنه لم يكن الحامي، لم يحرسها تحت جناحه، ولم يمكنه أن يحطها بسياج أمان لطالما كان يحتويها طوال حياتها القصيرة..

هي تُحمِّله بالفعل شيئًا من المسئولية، لقد قصَّر.. لم يكن لها الأب عوضًا عمن رحل، لم يستطع أن يكون السند، ولم يمتلك القوة الكافية.

ولن يكون بعد الراحل داعم.. لقد تركها وحيدة تعافر أمواج الحزن فتهزم واحدة وتغرقها أخرى، حتى أتت الأكثر فتكًا وشراسة فنالت مما تبقى منها، لقد ضاعت صغيرتها.. انتهت، وربما كان الموت أهون لها؛ وهذه ليست قسوةَ قلب.. بل وجعًا أفقده كل شعور إلا الخوف.

أي هول ذاك الذي حدث؟!.. أي فضيحة سترج عالمها لو تسرب خبرها خارج جدران هذا المنزل!!.. وتلك الصور التي تواتر لأذنها الحديث عنها قبل يومين!

هناك من فعلها عامدًا، آذى طفلتها ونحرها من الوريد حتى الوريد، تركها تنزف في احتضار صامت، فلا نبضاتها تتوقف فترتاح.. ولا تفتح عيناها فتريح.

خلال اليومين الماضيين كانت تعتصر قلبها موجات ألم باردة، تترك أحشائها تتلوى في صقيع لا تذيبه سوى نيران الغضب الذي تنبعث شراراته من عيني ولدها وأخيه..

الاثنان يتناوبان التواجد بالبيت، الاهتمام والعناية بأختهما.. لم يتوقفا عن البحث لدقيقة، وتقريبًا خاصم النوم أعينهما وأسهد لياليهما الأرق واليأس..

لا دليل، لا برهان ولو حتى صغير.. تعلم أنهما لو علما من فعلها فسيكون مكان ظهوره التالي هو جنازته، ووداعه الأخير عند قبره، لكنهما لم يجدا شيئًا.. ولا تعلم إن كانا سيفعلان!!..

أخرجها من شرودها رنين هاتفها، تطلعت إليه بترقب كأنما سيقفز المتحدث خارجه في أية لحظة ليهاجمها!!..

تناولته تنظر لشاشته ولم تتعرف المتصل غير المسجل، ترددت هل تجيب ذلك اللحوح أم لا؟!.. في النهاية رضخت فقد أعاد الاتصال، والرسالة مختصرة واضحة صريحة لا تحتمل سوى اليقين:

"أظن دلوقتِ الرووس اتساوت يا فريدة هانم!"

وانقطع الخط ومعه انقطعت أنفاسها، تلك النبرة الملتوية، اللهجة الشامتة.. الجملة التي تصرخ أن الحادث متعمد.. مقصود.. وهي المعنية به.

لم تستدل على الرقم لكن الصوت أقرب إليها، تعرف صاحبته حق المعرفة، ولطالما تسامرت النبرات واختلط الحديث وطال بخطط ومكائد ونميمة لا تصلح سوى لجلسات مجتمعهما التافهة: "ناريمان"!!.. والدة "دينا" التي منعت طفلتها من الحديث إليها قبل أشهر كأنها طاعون سينقل إليها عدوى الفجور.

انفرط عقد دقات قلبها، الألم تخطى الحد المسموح لتحمله، نهضت تترنح، خافقها يئن بصراخ وعويل.. يولول بين ضلوعها على من فقدت كل شيء.. عقلها ينتحب ويوبخ وينفعل والضمير يحاول النهوض من غفوة أضحت غيبوبة إرادية..

أنتِ فعلتِها "فريدة".. أنتِ المقصودة.. وأنتِ السبب في انتهاك صغيرتك التي لا ذنب لها سوى.. أنكِ أمها.

الآن تساوت الرؤوس.. كل إناء ينضح بما فيه سيدة المجتمع، ولم يعد هناك من فارق، ابنتها.. ابنتك، ونهاية متشابهة كأنه عقاب سُلط على عنقك حتى بتر منها الأنفاس، وانتزع ممن سكنت قرب قلبك نبض الحياة.

تقدمت ببطء تصعد الدرج، تخطو كأنها تتجه نحو القبر الذي حفرته بيديها لمدللتها، تفتح الباب تلقي بنظرة نحو الغارقة في سكون لا ينتهي وسط ظلام الغرفة.. ظلام لا يكسره سوى ضوء نهار خافت محتضر كما الغافية في فراشها بفعل مهدئات لم تتوقف عن تناولها بعد..

اقتربت، خطوة للأمام ونبضة مفقودة، خطوة ونفس متحشرج.. خطوة وضمير يموت أكثر وأكثر.. انتهت الخطوات أمام الفراش، لمسة فوق الوجنة، قبلة فوق الجبين.. ودمعة تصاحب همسة:

- سامحيني يا سارة.

وتعود أدراجها تغادر المكان، تقرر أن الكتمان لا حل غيره، والستر هو رداء تدعو أن تختفي خلفه، الذنب تحمله وحدها حتى الموت.. ثم واأسفاه على من ضاعت دون ثمن.

******

المشاعر كثيرًا ما تكون خادعة.. تتمازج فيما بينها فلا تعلم في وقت ما كيف ينبغي أن تشعر!!.. ولا ما المفترض أن تعبر عنه حينها!!..

المشاعر أغلبها قوية.. تستنزف الروح والقلب والجسد على حد السواء، تهلك العقل في دواماتها فيتيه معها غير مدرك أنه ليس معقِلُها الأول.

بل محلها مكان آخر، امتلأ بها حتى فاض واشتكى.. نزف وبكى ولم يعد لأنينه من صوت مسموع، فاكتفى بتوجع صامت ومشاركة ما يتخمه مع سائر الجسد الضعيف.

لكن العقل يريد السيطرة.. يحسبها بدقة ويعلم أنه لو استسلم لذلك الفيض فهو هالك لا محالة، هو من يقيم أود الروح، يمنع انهيارها، وبسببه يتشبث الناس بالأمل.. بالحياة، بفكرة قد يكون فيها النجاة، لذلك يقرر أنه لا استسلام أو خضوع لهذا الطوفان الذي يرسل به القلب عبر الشرايين، عبر صور متلاحقة لم تنسها الأعين بعد ولم تودعها الأفكار فسكنت الكوابيس، عبر صغيرة كالموتى لها مشهد واحد في الذاكرة كأنما لم

يكن لها قبله شيء.. يتكرر ويتكرر ويعود فيتكرر لأبد لا ينتهي: عُري.. انتهاك.. يتبعه انتهاء.

البحث لم يتوقف للحظة، أخيه ينظر له بشك يثير استغرابه كأنه يعلم شيئًا ويخفيه عنه!!..

لكن المحصلة: لم ينجح أحد.. فلا هو نجح وتوصل لطرف خيط، ولا الأخ الأكبر نجح في حل المعادلة، لقد طلبه ليأتي في غير موعده المعتاد، هناك حديث مطول بينهما ونقاط خفية تحتاج لمزيد من الإيضاح، بعد دقائق قصيرة سمع الطرقات التي يحفظها عن ظهر قلب وبالطبع انفتح الباب بعدها.. دلف للداخل بخطوات متباطئة، العيون تتلاقى بين سؤال وجواب، عتاب وشك، احتياج وقلق، بادره "أدهم" باهتمام:

- عرفت حاجة عن الرقم؟!

هز رأسه بنفي، خلع سترته وفك رابطة عنقه قليلًا يزيح بها اختناقًا لا يدري أهي السبب فيه أم أنه نابع من جسده الذي يعاند التنفس براحة من يومها!!..

جلس على المقعد المقابل للمكتب وأردف بتفصيل:

- الرقم من غير اسم، اتسجل في الشبكة ليلتها لمدة خمس دقايق بالظبط بعدين اتقفل تاني، ومن وقتها ما فيش دليل على وجوده!!

ولأن معون الصبر قد نفذ والصمت ليس حلًا، كما أن الأحجية تنقصها بعض القطع فقد هاجم بطريقة مباشرة دون التفاف أو تزيين.. هو لم يعد يحتمل الكتمان أو التأجيل:

- أدهم!.. أنت.. أنت..

انحبست الأحرف مجددًا، لن يتهم أخيه بشيء!!.. حسنًا "آدم".. اهدأ قليلًا واختر كلماتك، لن تذبحه أنت أيضًا!!..

وتحت مجهر عينيه المتصلبتين فوق وجهه بترقب تخلله توجس:

- الصور..

نال نظرة متسائلة يصاحبها ارتفاع معدل القلق فوق وجه الجالس أمامه:

- الصور ما لهاش غير معنى واحد!!.. اللي عمل كده كان قاصد...

وتردد؛ هل يخبره أنه يشك أنه يقصده هو بالذات؟!.. ويكسره أكثر!!..

حاول الثبات:

- كان قاصدنا.. معاه رقم موبايلك، يعرفك كويس ويعرف سارة..

لاحظ انعقاد جبين أخيه وصرير أسنانه كاد يصله بوضوح، نهض يتحرك في الغرفة يتحدث كأنما فقط يطرد ما في صدره علّه يصل لطرف خيط:

- المكان.. اللي عملها ما كانش في المقابر!!.. الـ...

وتلعثم يريد وصف المشهد الذي وجدوها عليه:

- لما لقيناها كانت هدومها سليمة جنبها وكانت متغطية...

رباه!!.. كيف ينطقها؟!.. لكن وصلته مقاطعة حادة بنبرة قاسية:

- فهمت.. كمل قصدك إيه؟!

رفع عينيه نحو أخيه وعينيه اللتين تشعان بغضب مستعر:

- باحاول أحط تصور للي حصل، كانت متخدرة، خدها مكان تاني!!.. صورها وواضح في الصور إن المكان نضيف.. أينعم ما فيش دليل بس مش هيكون جوا المقابر، قاصد سارة بالذات.. وبعتلك الصور.. فكر معايا.. أنا بقى لي يومين هاتجنن وباحاول أركز أنا ممكن أكون أذيت مين عشان...

وتقطعت حروفه ثانية:

- إحنا أذينا حد في الشغل؟!.. خدنا مناقصة مهمة من حد؟!..

قاطعه "أدهم" بنبرة غليظة يخفي خلفها وجع قلبه:

- وإحنا من إمتى بنأذي حد في شغلنا؟!.. حتى لو كان زي ما بتقول؟!.. ليه سارة وليه كده بالذات؟!..

ونهض هو الآخر يتحرك كنمر جريح:

- أنا ما بقتش فاهم حاجة!!.. ليه يحصلها كده؟!.. ليه صور؟!.. ومادام متعمد...

والتفت إليه بقلق ارتسم على وجهه يحفر خنادقه بشراسة:

- تفتكر ممكن ينشر الصور دي؟!

نبض قلب "آدم" وتعالت دقاته في ارتياع مع مجرد التخيل.. تحرك يغادر على عجلة:

- أنا هاتابع الموضوع ده..

خلف الباب توقف قبل أن يفتحه، أحكم أصابعه حول المقبض ومن بين شفتيه المضمومتين بألم همس:

- فاقت ولا لسه!!..

سمع التنهيدة الحارة تلاها الجواب اليائس:

- زي ما هي، كل ما تفوق تنهار وتعيط.. بتاخد المهدئ ونايمة طول الوقت.

زم شفتيه أكثر ولم يعرف بماذا يرد!!..

الأمر أكبر من كونه قد يطوف بخياله في يوم ما.. الصغيرة التي تركها طفلة وعاد ليجدها امرأة جميلة؛ تذبل أمام عينيه ولا يجد ما يرويه بها، تكالبت

عليها المآسي، وناءت روحها بحملها من الأحزان، فاختارت فقدان الوعي ولو بعمد.

غادر في صمت وتبعه "أدهم" متوجهًا نحو غرفتها، يحلل، يفكر، يطعنه الشك بخنجر مسموم، والضمير يجلده بسوطه.. يلقي ما في جعبته:

"أنت لم تقصر فقط.. بل قد تكون السبب، والمعنِيّ، والموجه إليه ذلك الانتقام".

دلف لحجرتها بتردد، كلما وقعت عيناه عليها اعتصره الذنب أكثر، اقترب من الفراش وجثا أمامه على ركبتيه يتأمل ملامح وجهها الغارقة في سكون الدواء..

مد أنامله يتلمسه، يسير فوق الخدوش التي برأت بعض الشيء، أبعد خصلة انسدلت فوقه خلف أذنها وقلبه يشكو بنحيب نازف:

"قارب وجهك تمام الشفاء طفلتي.. لكن ماذا عن روحك التي ترفض العودة لعالم الأحياء!!.."

رفع نفسه قليلًا يقبل جبينها، يبحث عن دمعة تروي جفاف مقلتيه ولا فائدة، يقسم بحماية، يعد باهتمام، يبحث عن انتقام.. ويعلنها صريحة، لن يريحه إلا إراقة دم من فعلها وبين يديها.

****

الوقت يمر ببطء شديد على الكل، هي نفسها فقدت القدرة على حسابه.. وكل ما تفعله هو العناية بالصغيرة التي بدأت تستفيق، تركن للواقع وتستكين.. تسلم لأمره لكن بصمت.

دخلت إلى الحجرة كما اعتادت كل صباح، تعلم أنها مستيقظة حتى لو لم تتحرك أو تغادر الفراش، توجهت من فورها نحو النافذة تزيح الستار الثقيل، ولا رد فعل.. فالراقدة فوق فراشها تسجن نفسها داخل قوقعة فارغة إلا منها، كأنها تنأى بنفسها عن كل شعور، كل فكرة، وعن كل من وما حولها.

لا ترفع عينيها في مواجهة أي عينين.. لا تهمس، تتنفس ببطء ورتابة، لا تتحرك إلا لضرورة، إما نائمة في وضع جنين خائف، أو جالسة تضم ركبتيها إلى صدرها بنظرات شاردة إلى اللامكان.

اقتربت منها، جاورتها فوق الفراش تداعب خصلاتها المنسدلة، مالت تقبل وجنتها التي تقابلها:

- صباح الخير يا سارة.

لم تتوقع أن تتلقى ردًا كما حدث طيلة الأسبوع الماضي، نظرت إليها بحنان أمومي قبل أن تحادثها كما اعتادت كل يوم:

- هتفطري معايا النهاردة؟!.. ولا هتزعليني زي كل يوم؟!..

ولأول مرة تشعر بحركة ممن تحولت لجثة ساكنة لا حياة فيها، حركة طفيفة تشبه ميلاد ابتسامة ساخرة فوق شفتيها الجافتين، ورغم رد الفعل الباهت فقد اعتبرته هائلًا وأكملت برقة:

- إيه مش عاجبك نفطر سوا؟!.. طيب إيه رأيك بقى هتاكلي غصب عنك وهاجيبلك ملك كمان تأكلك بإيديها.. قلتِ إيه؟!..

لاحظت عناق الجفون الصامت، كأنما إغماض عينيها يمنع عنها عالمًا لا تريد أن تكون فيه، تحتجب عمن يعيشون داخله، وتصم الأذان عن كل صوت.. تعلن رفضها لأي حضور أو دعم أو شفقة تتغطى برداء مواساة.. تنهدت "جمانة" لا تدري ماذا تقدم لها!!..

لقد نصحتهم شقيقتها بعرضها على طبيب نفسي، وهي بالفعل تحتاج لذلك؟!.. لكن التوقيت عامل هام، فماذا ستفعل معه وهي ترفض الحديث، وحتى لقاء النظرات تتهرب منه على الدوام!!..

عادت تتنهد، تحضر الطعام، تساعدها على الجلوس وتستجيب هي بطاعة كأنما فقدت قدرتها على التحكم في كل الأمور، أو حتى تلك الرغبة البسيطة في وجود إرادة.. تلقمها قطعًا من الطعام داخل فمها، تراقبها تمضغها بغياب، تزدردها بعُسر، ولا تزال العينان بعيدتان عن عالم البشر.

******

وكما فقد الكل إحساسهم بالوقت وهم يدورون بين شقي رحى العجز والندم فقدته هي، تنظر لابنتها كل يوم، تريد تقديم أي شيء لها، وتعود فتفكر في الفضيحة، ستكسرها أكثر، وليس وحدها بل العائلة بأكملها..

ولو أخبرت أخويها!!.. هل سينتصران لها؟!.. وكيف سيكون ذلك؟!.. بضياع أحدهما!!.. وبعدها كيف سينظر لها ابنها؟!.. كيف ستراها ابنتها.. وهل سيكون هناك غفران عندما يعرفون أنها كانت محفز اشتعال النيران التي قضت على حياة طفلتها وأمان أسرتها؟!..

زفرت بضيق تراقب خطوات الفتاة، تقترب منها بابتسامة خافتة وأعين دافئة، جلست أمامها على مقعد مقابل في حديقة المنزل وبادرتها برفق:

- عاملة إيه يا طنط؟!

أومات برأسها تمنحها جوابًا شاحبًا:

- الحمد لله يا علا، سارة زي ما هي، رافضة تتكلم، وبنأكلها زي الأطفال.. ساكتة، حتى مش بتبكي.

تنهدت الفتاة بحزن، في أكثر خيالاتها جموحًا وبؤسًا ورعبًا؛ لم تفكر أن أمرًا كهذا قد يحدث لصديقتها الوحيدة!!.. لم يمر بذهنها أن تمر قريبة منها بهذه التجربة المريرة فتموت في كل لحظة ويموت من حولها قهرًا وانكسارًا وعجزًا.

عادت صورتها تقتحم عقلها، تذكرها بلحظة الضياع، بلحظة هتك نالت من براءة صغيرة لطالما ظنت أنها تحميها وتعتني بها كأنها أختها الكبرى..

خرجت منها تمتمة لا شعورية:

- مش قادرة أشيل صورتها من عقلي لما شفتهم خارجين بيها من المقابر.

وانحدرت على وجنتها دمعة متوجعة، اعتدلت "فريدة" في مقعدها تنظر إليها باهتمام قلق:

- أنتِ كنتِ هناك؟

رفعت عينيها إليها شاردة دون فهم.. ثم استدركت:

- أيوة بعد حضرتك ما كلمتيني رحت مع واحد زميلنا صمم يوصلني ويطمن.. وشفتها، ما كنتش مستوعبة ولا قادرة أصدق.

وعادت تزفر بضيق يطبق على صدرها، جذبت الأم كفها بتشبث متوتر:

- واحد زميلكم؟!.. يعني في حد تاني شاف سارة؟!..

انتبهت لنبرة السيدة ووعت لما تريد قوله فطمأنتها وهي على ثقة مما تقول:

- ما تقلقيش يا طنط.. زياد انسان محترم جدًا وشهم، مستحيل يقول حاجة لأي حد.

عقدت "فريدة" حاجبيها تتأملها، تحاول سبر أغوارها وتقنع نفسها بالتصديق:

- متأكدة يا علا؟!.. هي مش هتستحمل الخبر ده يتعرف..

ربتت الفتاة على كفها بحنان:

- متأكدة جدًا.. ما تقلقيش.

استفسرت عنه منها قليلًا كما لو أنها تحاول إقناع عقلها أن الأمور بخير.. عقلها الذي يخشى الكل ويعتقد أن من حوله فقط ينتظرون كبوة.. سقطة، بعدها سينهشون لحمها ويمزقونها إربًا..

تركتها "علا" وصعدت لصديقتها، دخلت للغرفة بهدوء كعادتها طيلة الأسبوع الماضي.. جاورتها فوق الفراش، تبتسم لها، تقبل جبينها، وتقص عليها أخبار اليوم.

تحاول إخراجها من حالة الصمت التي تكتنفها، تدعمها، تحتويها، تخبرها أنها أقوى من الاستسلام للهزيمة.. للوجع والانكسار، أنها ستنهض، تعود.. وتشرق شمس روحها من جديد.. فقط لو عقدت العزم.. أن الكل حولها يحبها، يرعاها، يهتم بها ولن يتخلى عنها أبدًا وأولهم هي.

******

سبعة أيام مرت، لم تغادر فيها منزلها، ولم تبرح صورتها عقله!!..

يسير في منطقة سكنها كأنما يرغب في لمحة منها، يجلس هناك قريبًا بالساعات يراقب وينتظر علَّها تظهر..

أصبح لا يعلم ما به!!.. هل يطمئن على جريمته الكاملة دون خيوط تقود إليه!!.. أم يرغب في إلقاء نظرة أخرى على الذبيحة؟!..

سبعة أيام لم يرَ فيها فاتنته التي فعل كل ما فعل لأجلها، ولم يخاطب أمها التي يعلم أنها لن تنفعه بشيء فقد حصلت مبتغاها وانتهى الأمر..

سبعة أيام كانت هي.. ضحيته، بطلة أحلامه وأفكاره.

كأي مجرم خبير.. سفاح لو شئنا الدقة -ويبتسم بسخرية- أنهى مهمته بحرفية، محا بصمات وأزال دلائل، فقط استبقى آثار كان يهمه دمغها بها، سترها بعدما عرّى روحها، وتركها في ظلمة قبر أبيها، شاهدًا على ما حدث، ضعيفة.. غائبة، لكنه ترك جزءً منه، من نفسه معها.

جزءً من عقله، من شاب لم يكن يأبه لشيء في الحياة سوى عمله الذي وُلد ليجده حاضرًا لأجله مع والده، مغامراته النسائية اللانهائية، والمزاج الذي يسعى لإشباعه بين حين وآخر.

ثم أتت هي.. جميلة، بل فاتنة، فاتنة إلى حدٍ موجعٍ لكل جسده ومشعلٍ للنيران فيه، تفضل آخر عليه والآخر لا يراها من الأساس، بعدها تضيع وتضعف.. لكنها لم تسقط رغم ذاك الوهن بين يديه، بل ظلت ترفض وتعاند كأنها باتت تكره نوعه ليس إلا.

وتاليًا ظهرت الأفعى الأم بخطة شيطانية وقربان.. قربان ملوث ببراءة روح أضاع طهارتها وقتل فيها كل نبض فأصبحت على قيد حياة دون حياة، لكن قربانه لم يشفع له، وبعد تفكير يعلم أنه لن يخبرها عن فعلته.. وتفكير جديد!!.. كيف سينالها إذًا؟!..

زفر بسخط، التقط هاتفه، اتصل برقمها وعندما وصله صوتها هتف بها بنبرة حادة:

- مستني مكافأتي لسه يا ناريمان هانم..

صدى الضحكة العالية التي تحمل تهكمًا ساخرًا اخترق أذنيه:

- تيمو.. تيمو.. تيمو!!.. أنا ما قلتش إني هاكافئك بدينا.. في دي أنت وشطارتك بقى، وما تنساش روحك في إيدي، تليفون صغير وتروح في ستين داهية.

عقد حاجبيه.. تصاعدت شرارات الغضب بين جفنيه وهمس من بين أسنانه:

- مش هاروح لوحدي وأنتِ عارفة.. دينا بتاعتي، مش هاعمل ده كله عشان في الآخر ينضحك عليَّ زي العيال.

قهقهت ثانية فاستطرد بحنق:

- ما فيش دليل على وجودي أو على إن أنا اللي عملت كده.

وجوابها هامس بلهجة مخيفة:

- إخواتها مش محتاجين دليل يا تيمو.. بالذات أدهم، هتبقى في غمضة عين الله يرحمك.. ويا حرام كنت شاب صغير.

يعلم أنها على حق، فمع بذرة شك واحدة تشير نحوه بإصبع اتهام سيصبح في خبركان، وعليه وعلى دنياه السلام.. سمعها تعود لهمسها الثعباني:

- تيمو حبيبي، أنا مقدرة قوي اللي أنت عملته عشان دينا.. بس لازم تحاول أنت تقرب منها، في حفلة كمان أسبوع ودينا هتحضرها، عاوزة أشوفك يومها، وأوعدك برقصة معاها..

وتصمت للحظة تتركه فوق النيران حتى تمام النضج، ثم تكرر بمكر:

- وأنت وشطارتك.

صمت.. حبل الموت قريب من عنقه، وما هي إلا إشارة تافهة ويلتف حولها حتى ينهي حياته، إذًا.. ما يملكه هو الرضوخ والمحاولة كما أخبرته..

تمتم بموافقة، أغلق الخط.. نظرة أخيرة على المنزل القابع أمامه يراقب كل شرفاته يبحث عن طيفها الغائب.. ثم أدار محرك سيارته بعد تنهيدة غضب، ورحل.

******

الوقت، مطحنة الزمن.. مطرقة ماضي وسندان حاضر يوازي رعبَ مستقبلٍ غامض مجهول قد يكون مظلمًا كماضيها الذي تهرب منه في حاضرها حالك الظلمة.. وكلما هربت؛ تعثرت.. ظهر حجر، حفرة تعرقل خطوات ركضها المذعور، وانقلبت على وجهها في أوحال خطيئة لم يصنعها غيرها.

باتت تخشى الغد أكثر، وتمقت اليوم بكل أحداثه، كلما نهضت من إحدى العثرات قابلتها واحدة تعلمها بمعادلة بسيطة أن العقاب أبدي وأنه لا مهرب لها مما قدمت يداها سابقًا، لا فرصة ثانية، لا حياة جديدة، لا أنفاس طاهرة يستحقها صدرها الملوث بعهر.

رحل الداعم.. ورغم وجود "مراد".. فأذيال الماضي تجر وراءها خيبة تلو أخرى.. رعبًا يتبع آخر، مكالمات "طارق".. رسائله، المكتوبة والمصورة.. وفي كل مرة تقع عيناها على إحداها تتقيأ كأنما تدفع عبر حلقها آثامًا كفرت وتكفر وتعلم أنها ستظل تكفر عنها ما بقي لها من حياة.

شهر مر على رحيل أبيها لمرة ثانية.. بوجع جديد وحزن لا ينتهي، فراق لا لقاء بعده، ولم يكن قبله وداع.. يتكرر ألمها بحذافيره، فكما لم ترَ والدها عند موته بحسرة قلبه حزنًا عليها وعلى حالها، لم ترَ أباها الروحي أو تلقي عليه نظرة أخيرة يمنحها فيها طمأنينة تئن حاجة إليها.

ابتسمت بانكسار تتذكر ما فعله المجنون عندما بعثت برسالتها القصيرة وأغلقت الهاتف، لم تمر ثلاثون دقيقة إلا وكان يطرق باب منزلها، يقابل والدتها ويسأل عنها.. وكم ندمت أنها لم تجب اتصاله.. فاللقاء مع الأم لم يكن من ضمن خططها.. في هذه المرحلة على الأقل.

قابلته، وشعرت بضمة عينيه الحانيتين.. غرقت في محيط رقته واهتمامه.. وعشقت جنونه أكثر وأكثر، ودون أن يعلم طَيَّب جرحًا في عمق القلب وأوقف نزفه، فقط بظهوره ذاك.

وتمر أيام.. يهتم، يتصل وتجيب، ينتزع منها بسمة، لكن دمعة العين أقرب، أهملت عملها، وكانت الفرصة التي تعلم أن زوج والدتها سيقتنصها ليسيطر على مقادير الأمور أكثر لكنها كانت أضعف من مجرد محاولة للوقوف بهذه السرعة وتلك البساطة.

ثم عند أول خطوة تجاه قناع الصمود الذي عادت تحاول الاختفاء خلفه من جديد، أتاها اتصاله، وعيده، يلاعبها كقط يتلذذ بخوف فأر ومحاصرته.. لم يأبه لتهديدها السابق، ويتسلى بخوفها منه.. ثم يقرر أن نهايتها لن تكون سوى بين ذراعيه.

"مدام دينا!!.. الاجتماع هيبدأ خلال خمس دقايق"

استدرات نحو مساعدتها التي انتزعتها من شرودها.. اليوم عادت للعمل، تريد متابعة آخر المستجدات فطلبت اجتماعًا عاجلًا بمجلس إدارة

المجموعة.. توجهت بخطى ثابتة تجيد اصطناعها، جلست على رأس المائدة، وبدأت المناقشات، وكانت الأولى صادمة:

- من أيام اكتشفنا إن في شخص واحد اشترى مجموعة كبيرة من أسهم الشركة ومن مصادر مختلفة، البيع والشرا قانوني، بس اللي يقلق إن النسبة تعادل نسبة ناريمان هانم.

التفتت نحو مقعد زوج أمها الخالي من صاحبه بعقدة جبين، وقبل أن تتساءل عما يعنيه هذا، وصلها صوت مساعدتها:

- مدام دينا.. في واحد برا بيقول لازم يقابل حضرتك فورًا.

رفعت عينيها إليها دون فهم، كادت تعنفها وتصرفها لتطرد ذلك المتطفل، لكنه كان مقتحمًا أكثر!!..

ظهر أمامها بطوله الفارع وهيئته التي بعثت قشعريرة بطول عمودها الفقري، نظراته الرمادية شرسة تنذر بعاصفة ثلجية قاتمة على وشك الهبوب وتوازي بذلته الأنيقة التي تناسب أبعاد جسده تمامًا.. بعض من حدة ترتسم على فكه المربع المحاط بذقن خفيفة مهذبة، وصرامة قاسية تشع من بين جفنيه..

صوت عميق خشن مسيطرونبرة أنيقة:

- قلت لها ما فيش داعي للمقدمات.. أعرفكم بنفسي..

وحط بعينيه اللتين تشبهان عيني نسر جارح على منعقدة اللسان باستنكار مذهول:

- فهد الراجي..

ثم أكمل رافعًا رأسه بشموخ:

- صاحب نسبة ٢٥% من أسهم مجموعة أبو العز.

******

كانت تصرخ فعليًا، فقدت كل ما تبقى لديها من طاقة تحمل دفعة واحدة، تعنف وتؤنب، تُحمِّل ذنبًا وتشكو قلة حيلة، تشعر بعجز أكبر يقهرها ولا تملك أمامه شيئًا.

أمها تقف أمامها ذاهلة لا تستوعب ربما.. لا تنطق ولا تعبر عما يدور بداخلها.. في النهاية دمعت عيناها وأكملت بصوت بحه الغضب والحزن في مزيج مميت:

- ليه يا ماما؟!.. هي دي آخرتها؟!.. شركة بابا تروح مني بالشكل ده؟!..

وتدور كلبؤة حبيسة قفص، تهتف بصراخ من جديد:

- هو ده اللي اتجوزتيه؟!.. سرقنا ومختفي بعد ما باع نصيبك من أسهم المجموعة بالتوكيل اللي سلمتيله بيه كل حاجة؟!.. هو ده اللي كان بيسعدك وبتقولي لي أنا محتاجة راجل في حياتي..!! هو ده الراااجل؟!!

وكأنما الأخرى اكتفت من العويل والندب فجأة فصاحت فيها بغضب هي أيضًا:

- أنت بتتكلمي معايا كده ليه؟!.. كأنك بنيتِ الشركة دي بنفسك!.. دي أنا اللي عملتها مع باباكِ، أنا اللي كنت الباب اللي عبر منه للمجتمع اللي ماكانش يحلم يكون فرد فيه، أنا كنت كل حاجة وكنت السبب في اللي وصل له.

أشاحت "دينا" بذراعها:

- وفي النهاية كنت السبب في ضياع كل حاجة، البيع قانوني.. ورجل أعمال له اسمه ووزنه في السوق، ما حدش يقدر يعترض أو يقف قدامه.. وفي الآخر بيطالب بعضوية مجلس الإدارة وبيهدد إنها من حقه سواء بتصويت الأعضاء أو حتى لو لجأ لجمعية عمومية.

وانهارت جالسة على مقعد قريب:

- كل حاجة انتهت.. شريك بدون أحقية غير إنه عرف يستغل ثغرات القانون صح، وبقى مالك لأكبر نسبة أسهم في المجموعة من بعدي.. وجاي يطالب بحقوق ملكيته كاملة.

ثم رفعت عينين دامعتين مقهورتين نحو والدتها تكمل بقهر أوضح في نبرتها:

- عارفة رد فعل أعضاء مجلس الإدارة كان إيه؟!.. موافقين جدًا، فهد الراجي اسم هيضيف للمجموعة، هيوقفها على رجليها وهتكون أقوى في السوق، موافقين بأغلبية يا ماما.

وابتعدت بنظراتها ثانية تستعيد ذكرى ماضٍ ليست بالبعيدة:

- دايمًا بتكوني السبب في ضياع كل اللي يهمني.

اتجهت نحوها "ناريمان" بخطى ثابتة رغم الرجفة التي تكتنف نفسها والذعر الذي يتسرب إليها بخبث يخبرها أنها بالفعل فقدت كل شيء، جذبتها من ذراعيها توقفها أمامها تعنفها بصرامة:

- ضيعت إيه تاني يهمك يا دينا؟!.. أنتِ مش طفلة تكسري لعبتك وتيجي تشتكي وتقولي ماما هي السبب، اعقلي واكبري بقى واتحملي مسئولية أفعالك.

تعلم أن أمها فهمتها تمامًا، نفضت ذراعيها منها بقسوة، تحبس دموعها وصوتها مخنوق بها:

- ولما احتجتك كنتِ فين؟!.. فاكرة طارق!!.. يومها قلتِ لي وإيه يعني؟! ده حد مهم، خليه في حياتك وأي مشكلة حلها بسيط، فاكرة خطتك والرسم اللي كنا بنرسمه عشان نفرق بين أدهم ومراته وحتى عشان نبعد آدم من الصورة؟!.. فاكرة نتيجة الخطط دي إيه؟

والتفتت تبتعد عن لقاء عينيها:

- النتيجة كانت ضياعي أنا.. في النهاية أنا بقيت عار، باستخبى وأهرب وأخاف، وكل واحد عاوز ينهش حتة من لحمي اللي اتعرى قدامهم.

قسوة قلبها لا تترك لها مجالًا لهدهدة، هذا الطفلة الحمقاء تبكي وتشكو وفقط، لم تتعلم منها شيئًا، لم تستغل كل طاقاتها، ولم تمنح عقلها فرصة العمل بكامل جهده..

اقتربت منها راغبة في تعنيف أشد غلظة لكن قاطعها صوت رسالة على هاتفها النقال، التقطته تنظر على أمل أن يكون زوجها الغائب، أمل فتته وحوله لشظايا مبعثرة كلمتان فقط هما النص القصير أمامها على الشاشة التي تحمل اسمه:

"أنتِ طالق"

اسودت الدنيا أمام عينيها فجأة، بل وشعرت برأسها يكاد ينفجر، تحشرج صوتها بهمسة تنادي ابنتها التي تدير إليها ظهرها.. وآخر ما وصل لسمعها قبل أن ترتطم بصلابة الأرض نداؤها الصارخ باسمها.

******

"بعد مرور شهرين"

قهر الرجال!!..

لم يتعوذ منه الرسول "ﷺ" إلا لعسره على النفس، على جدار أمان تهاوى مع أول صدمة من معول الألم، على رجلين انقصم ظهريهما بضربة قاضية سُددت بإتقان.. وفي العمق.

كما افترقا التقيا، لا جديد، لا خبر، لا فائدة مرجوة من هلع البحث الذي انهمكا فيه طيلة الفترة الماضية، مراقبة دائمة لمواقع التواصل الاجتماعي خوفًا من نشر صور صغيرتهما، تتبع للرقم وفي كل مرة هي نفس النهاية المسدودة، تفنيد الصور رغم ألم الطعنة التي تنخز قلبيهما في كل مرة يحاولان فيها النظر إليها.. والمحصلة؛ لا شيء.

كانا متجاورين على أريكة عريضة بمكتب "أدهم" في العمل، عندما غمغم بإحباط:

- والحل؟!.. مش قادرين نوصل لحاجة!

الآخر يعصر ذهنه محاولًا البحث عن منطق يسير عليه:

- بيتهيألي لو كان ناوي على فضيحة كان نشر الصور من زمان، مش هيستنى كل ده.

نبرة الصغير أصبحت غاضبة كما هي عادته مؤخرًا:

- يعني خلاص!!.. هنسكت؟!.. ونقول كويس إنها جت على أد كده؟!..

هب "آدم" واقفًا يهتف بنبرة خفيضة ووجع واضح مختلط بسخط يتغلغل فيه:

- وعاوزني أعمل إيه؟!.. نبلغ البوليس مثلًا؟!.. إحنا عملنا كل اللي نقدر عليه، لميا مش بترحمني من يومها وكل شوية بفكرة جديدة كلهم بيوصلوا لحاجة واحدة.. إن الموضوع هيتنشر، ومش بعيد تلاقيه على صفحات الجرايد، عارف ده هيعمل في أختك إيه؟!..

نهض في مواجهته يصيح بقهر:

- أيوة عاااارف، عارف.. بس مش عاوز حقها يضيع، مش قادر أسمح بكده، مش قادر أتعايش مع اللي حصل وأعديه كأنه ما حصلش!!..

أمسك "آدم" بقبة قميص أخيه يزجره بحدة:

- وطي صوتك.. أنت نسيت نفسك، إحنا في الشغل.

أبعد يده بقسوة، يتحرك في المكان يرغب في تحطيمه، يفكر، يبحث، يعصر مخه، بل يعتصر كل خلية في جسده ولا فائدة، لا هدف، فقط ضاعت الصغيرة هباءً ودون ثمن.

التفت لأخيه بعينين منكسرتين، فعض الآخر شفتيه بعنف..

هل يظنه جامد القلب!!.. يأبه لفضيحة قد تدق عنقه؟!.. هو أيضًا لن يمكنه فيما تبقى من عمره التعايش مع ما حدث.. سيظل دائرة سوداء

تتسع وتتسع حتى تشمل داخله كل وجع وترتد إليها كل فكرة تتجول بعقله أو صورة تطوف بخياله..

هو ليس شرقيًا قاسي القلب ينقب عن ستر لكارثة ألمت بهم.. بل فقط يخاف عليها، لن يتوقف عن البحث لكنه فقط سيبعد التفاصيل الدقيقة عنها، يحاول محوها من ذاكرتها ويعلم أن هذا أمر خارج طاقته وقدرته، هز رأسه بيأس يحث لسانه على الحديث ولا يجد ما يقوله ذا نفع، كله ألم، كله انكسار، كل الخيوط تقود لنفس النهاية:

- أدهم.. إحنا عملنا اللي علينا، ومش هنسكت، هنفضل برده ورا الموضوع لآخر نفس، المهم نكون جنب سارة.. سارة بترجع من تاني، بعد فترة الصمت الطويلة اللي حبست نفسها بعيد عننا فيها بدأت ترجع، الدكتورة بتاعتها بتقول إن في تحسن ملحوظ.. لميا كان عندها حق، خلينا ما نبطلش بحث مع نفسنا، بس كفاية عليها كده، بلاش نفتح الموضوع قدامها مرة تانية، كفاية..

وتنهد بحرارة، قلبه يؤلمه، عقله في صراع دائم، والنظرة التي نالها من الصامت المضطرم بلهيب المقت والنقمة على كل شيء كانت تعني.. موافقة، هزيمة، وهوان جديد.

******

جلست في سيارتها تتطلع للمكان بتردد، تنقر بأظافرها فوق المقود، تفكر.. تشك في كونها على صواب!!.. هي أيضًا تبحث عن حل، تريد الوصول بصغيرتها لشاطئ أمان، تفتح صفحة جديدة في حياتها وتغلق القديمة بكل أوجاعها للأبد.

ينهمك عقلها ثانية في أفكاره، تستعيد ذكرى، جواب لسؤال تدور في دوامته منذ الوهلة الأولى فنبض به على حين غرة بكلمة واحدة قد يكون فيها الخلاص، قد تصل بها لبر السلامة..

"زوج"..!!

عقد زواج، ولا يهم بعده شيء، البريئة ستبقى بريئة لكن الحل عسير التنفيذ، فمن سيرضى؟!.. ولو علم هل سيداري، يصمت، ويمرر الأمر بهدوء!!.. ثم يخط أحرف اسمه ويقرنها باسمها؟!..

من سيبسط رداء ستر رجولته على أنوثتها المنتهكة؟!.. يمنحها شرفًا انتزعوه منها عنوة، ففقدت براءة روحها قبل أي شيء؟!..

ويزجرها قلبها بوجع:

"لا تقولي عن شرفها كلمة، شرفها ليس عذرية، بل طهارة نفسها التي لم تمس.. لا تكوني أنتِ والألم على بقايا روح تقاتل لتستمر وتعود للحياة!!"

تصمت، تفكر من جديد، وتحتار كحيرة الأخوين، لم يصلا لنتيجة بعد مرور كل هذه الفترة الطويلة، لم ينالا ولو طرف خيط.. والنهاية ستكتب قريبًا بإغلاق صفحات الكتاب على ما حدث.. النهاية..

"قتلت ابنتها دون قصاص أو حتى دفع دية"

عندما فكرت في زواجها واعتصرت مخها بحثًا عن زوج مناسب لم تجد؟!.. من يليق بها!! "سارة الحسيني" الجميلة، ابنة الحسب والنسب، والمغتصبة!!..

كلمة قاسية آلمتها أكثر لكنه واقع لا مفر من الاعتراف به.. حينها ظهر اسمه من بين ذكريات مشتتة بشكل مفاجئ، هل يمكنها أن تثق به؟!.. كل هذا الوقت، والصمت يعلن عن رجل يستحق، وضعت خطتها حيز التنفيذ باتصال بصديق قديم، منحته الاسم، وطلبت معلومات.. عندما حصلت عليها عرفت أنه أكثر من مناسب.. فبالتأكيد هناك ما يمكنها شراء توقيعه على عقد الزواج به.

حسمت أمرها وغادرت السيارة، صعدت إلى حيث مكتبه الحديث نسبيا، تطلعت للاسم المعلق على لافتة أنيقة فوق باب المكان، دلفت إليه بخطوات مترددة وطلبت لقاء.

أمامه ألقت بعرضها دون تزيين، في البداية منحت الثمن وعندما نظر إليها دون فهم يسأل بدهشة:

- مش فاهم مطلوب مني إيه؟!

أخبرته ما سيبيعه ببساطة وحسم:

- تتجوز سارة!..

(٢٣)

صفقة غير عادلة

ولأنني انثى.. فالذنب ذنبي..

ولأنني أنثى.. فالعهر وصمة تحمل اختياري..

ولأنني أنثى.. فالضعف ليس من حقي..

ولأنني أنثى.. فالجاني هو أنا..

ضحية، مسلوبة الإرادة والروح.. تائهة في ظلمة لا يتخللها شعاع نور..

أو جانية.. أسلمت نفسها لطوفان الأوجاع دون إجبار!!..

بل لأنني أنثى..

فالألم هو طريقي فوق خريطة الحياة..

قالوا أن النهايات تحكمها البدايات، تخطط لها وتؤدي إلى مسارها المحبوك منذ أول الخط..

وهي كانت تسير بصمت، خنوع، استكانة لمصير تحدد مسبقًا باختيارات خاطئة أودت بها للدرك الأسفل من ظلام حاضر تحياه لحظة تتبعها ببطء أخرى، ومستقبل غامض تظن دجنته لا يتخللها ضوء مهما حاولت، مصير ونهاية تعلم أنها من مدت الجسور نحوها، من تعلقت بحبالها، وقطعت كل الطرق إلا المؤدية إليها.

ولأن سوء الاختيار لابد وأن يتبعه عواقب.. فلا مفر من نتيجة حددت أنت المسار الوحيد تجاهها إلا بعد المرور بكل الخطوات المدروسة مسبقًا؛ فقد أتى عليها الوقت الذي قررت فيه التوقف..

السباحة ضد تيار عنيف قوي وجارف لم تعد مجدية، فقط صارت مهلكة، تنهكها بشدة وتستهلك ما تبقى منها أكثر، ومجاراتها للتيار قاتلة لا محالة..

لم تعد تدري أي الحلول أفضل، بل ولم تعد تجد أي حل، في كل لحظة يزداد ضعفها، تنمو حولها قوقعة صلبة تحبس نفسها داخل قشرتها وتنطوي على وحدتها، لا تفكر في غد، وتتمنى الموت، لكنها أجبن من محاولة الحصول عليه بإرادتها فحسب.

مر اليوم بطوله عليها جالسة في المشفى خارج حجرة والدتها، أو بالأحرى خارج حجرة العناية الفائقة، زوجًا يصغر أمًا متصابية بالكثير، إمضاءات

وتوقيعات، ونهاية تشبه الأفلام.. سرقة، هروب وطلاق لم يكلف نفسه فيه عناء مواجهة، والنتيجة سقطة.. سقطة نتج عنها "جلطة بالمخ" أدت لشلل كلي في الجسد حتى لسانها فقد قدرته على الحركة فباتت لا تستطيع النطق.

ما تبقى من الأم الصلبة التي تفتح ذراعيها للحياة وتضمها بقوة غير راغبة في مغادرة.. جثة هامدة، طريحة فراش، ساكنة تمامًا ما عدا بؤبؤيها اللذان يتحركان بعجز ونداء استغاثة لا تعرف كيف تلبيه!!..

وها هو القدر.. ينتزع منها آخر أطلال أسرتها، أمًا ليست بأم.. لكن وجودها كان كافيًا، دافعًا تستمد منه صبرًا وتحملًا ولو بصورة عكسية لا تمت للحنان والأمومة الفعلية بشيء.

شعرت بتلك الأنامل الدافئة تحتوي كفها برقة، اعتدلت في جلستها بسكينة.. لم يصبها هلع أو تقفز فزعًا نتيجة لمسة تخطت حدودها الخاصة، فقط أدارت وجهها نحوه كأنما تتعرف دفئه دون أن تراه كدوار شمس يرتفع بوجهه نحو أشعتها التي تبث فيه الحياة.. ابتسم لعينيها بحنان:

- إن شاء الله هتبقى كويسة.

ردت هي بابتسامة كسيرة، يائسة.. تخبره ببساطة أن باب الأمل موصد، ولا داعي لخرافة تثبت وجوده لأنها لحظة النهاية، وهي على يقين..

ضم أصابعها بقوة أكبر يشد على يدها، يشعرها بكيانه المجاور لها، يود لو يحتويها فوق صدره يبثها شيئًا من أمان يدرك جيدًا كم تحتاجه.

صوتها الهامس بحزن وصله متقطعًا:

- النهاية دايمًا بتيجي في وقت مستحيل كنت تتوقعها فيه.

وابتلعت غصة ككتلة من نار:

- بتيجي عشان تقولك بكرة مش هيكون زي ما أنت بتحلم أو بتتمنى، بكرة مرسوم من زمان، وأنت اللي رسمت له الخريطة اللي هيمشي عليها.

عقد حاجبيه ولم يفهم، هل تتحدث عن والدتها!!.. أم تخبره عن دواخل نفسها التائهة؟!.. تحرك بعدم راحة يواجهها بجسده، وحدتها تعذبه، خوفها يزعج روحه، وما يملكه لا يساوي شيئًا، رغبته في ضمها تتعاظم.. لكن يوقفه خشيتها من قربه غير المسموح به، والمكان..

ناداها بهمس، فالتقت النظرات تحكي قصة، ليست بالطويلة أو القصيرة هي،

قصة بدايتها:

"أنا معك"..

وأوسطها:

"أخاف أن تتركني أنت أيضًا"..

لكن الخاتمة لم تُكتب والستار لم يُسدل بعد.

******

الطريق إلى الجحيم مفروش بالنوايا الطيبة.. ما قامت به، كان في نيتها ستر.. لم تفكر في هوان الموقف، في زاوية تحشر بها طفلتها، زاوية تبخسها حقها أكثر وأكثر، ركن يوازي حفرة في قلب جحيم مجتمع لا يرحم هي دعامته الأولى بصمتها عن الثأر، عن حق ابنتها المهدر خوفًا من نظرة طبقتها، ونظرة صغارها لها..

هي الآن تقرر وتدفع الثمن لتشتري لها زوجًا، لا تعلم عنه الكثير، ولا تدري هل سيوافق أم لا!!..

ولو رفض؛ فلا تُقدِر أي موقف مهين تعرض صغيرتها له!!..

وهذا ما حدث، ألقت بعرضها في وجهه دون تجميل، تمنحه ثمنًا لا يقاوم، وتطلب مقابلًا في نظرها بخسًا، مجرد ورقة زواج، ولو تلاه بعدها بأشهر طلاق.. لا تهتم!

هي فقط تريد لعذرية جسد ابنتها المنتهك تبريرًا مشروعًا يرضى به الآخرون خارج إطار الصورة.

تتذكر ملامحه المذهولة عندما أخبرته بصلف عن رغبتها في تزويجه من ابنتها، ارتداده للخلف خطوة كأنما دفعه شيء ما خفي، تحديقه المستنكر في وجهها ولم تفهم سببه.. هل يرفض العرض أم يرفض العار!!

عادت تكرر بلهفة جديدة على نبرتها:

- الموضوع مش هيكلفك كتير، وزي ما قلت لك؛ هتستفيد من وراه أكتر، هاجيبلك شغل لمكتبك اللي لسه جديد، ممكن أنقلهولك مكان أرقى، ولو حبيت أقدر أخليك معيد في كليتك.

وتوترت مع صمته وعيناه اللتان تنظران إليها بجمود:

- وكل المطلوب ورقة جواز؟!..

صمتٌ أشد وصوت الإبرة على الأرض بالتأكيد مسموع، النظرة الجامدة تتحول لمستنكرة، هذه المرأة تخطت كل الحدود، تبيعه زوجة، وعمل!!..

صفقة رابحة للغاية فقط مقابل ورقة، ورقة ستركما تظنها هي، لكن ماذا عن الفتاة التي دخلت في عقد بيع لم تكن طرفًا فيه؟!.. ماذا عن قلبها الذي يعلم أنه ملكًا لصاحبه والمصاب بالجنون بسبب غيابها مؤخرًا؟!.. ماذا عنها وهي التي مرت بتجربة لا يمكن وصفها سوى ببشاعة أفظع من الموت؟!..

تنهد بضيق، بالطبع الرد الوحيد هو الرفض، لكن كيف يرفض بطريقة لا تهين المرأة الواقفة أمامه، ولا تهين البريئة التي تباع الآن بمقابل زهيد ، مجرد مال!!..

أراد الحديث وعاندته الكلمات، عاندت بشدة حتى خرجت أحرف متكسرة مترددة لكلمة واحدة تعني الرفض:

- آسف..

اتسعت عيناها باستنكار مشدوه، هذا الأحمق لا يقدر ما يرفضه، من هو ليفعل؟!..

نعم حافظ على ما عرف، لم يخبر أحدًا ولم يتسبب بفضيحة، لكن لا يمكنه الرفض، هو الوحيد الذي يمكنه التوقيع على صك الستر، هو من تستطيع شراءه وشراء سكوته أيًا كان ما يطلبه.. لكنها لن تتذلل، "فريدة" لا تفعل، لا تخضع، لن تهين نفسها أكثر، خرجت الكلمات منها أسرع مما تخيلت وأغرب مما تصورت وقررت:

- فكر تاني يا باشمهندس، مش هتخسر كتير، بس هتقف جنبها، فكر إنك هتساعدها، أنا عارفة إنك راجل شهم، وحافظت على سرها.. ساعدها.

استغربت نفسها، لكن ملامحه التي لم تتغير، ونظرته الرافضة أثارت جنونها:

- آسف، مش هاقدر.

تبًا لها، ابنتها قلبها ليس ملكًا لها، وهي لا تدري عنها شيئًا، بل تبحث عن تعتيم على خبر لم يتناقله أحدٌ بعد..

فكر بتردد: ماذا لو أخبرها عن صديقه!!.. هل ستعرض عليه نفس الصفقة التي تظنها رابحة؟!.. لكن ليس من حقه هو أن يخبرها أو أن يكون سببًا في معرفة "عمار" بالأمر، هي الوحيدة صاحبة كل الحقوق في هذه القصة البائسة، وللأسف لا تزال غائبة عن مسرح الأحداث.

وجدها تصيح في وجهه بعنجهية غير متوقعة:

- أنت فاكر نفسك مين؟!.. أنا ممكن ألاقي ميت واحد أحسن منك، بس قلت على الأقل أختار حد عارف، لكن الظاهر اختياري ما كانش في محله.

عقد حاجبيه بغضب، الآن هي تهذي!!.. تهينه وتهدد!!.. هل ستعرض الفتاة على آخرين غيره، ومن يقبل تدفع له الثمن وتمر الزيجة بسلام!!..

رباه، كيف تفكر هذه المرأة؟!.. وماذا بيده ليفعله؟.. يشعر بعجز وشيء من مسئولية لا يفهمها ولا يعي لماذا تتداخل مع مشاعره الحانقة!!..

أفاق من شروده على نظراتها النارية، وكعب حذائها الذي يدق الأرض بقوة تتبع خطواتها المغادرة، بينما هي تفكر، بل تقتلها الأفكار وتتناوب على عقلها

حتى كادت تفقد صوابها، الحل الذي تفتق عنه ذهنها ذهب أدراج الرياح، وعادت لدائرة العجز وقلة الحيلة.

******

يقولون لها صبرًا، يهمسون بمواساة ويطيبون خاطرًا، يساندون روحها المنحورة ويخبرونها عن حياة لم تنته بعد.. فتصمت، تتقبل، تبتلع العلاج المر فيظنون أنها تشفى..

لا يعلمون أن بعض الجروح لا تلتئم بل تستمر بالنزف داخل الجسد ولا تلفظ الروح أنفاسها فتنال راحة لا خوف بعدها، تخلف وراءها ندبة لا يمحوها زمن ولا يؤثر بها نسيان ولا يطيبها اهتمام.

نوبات القيء التي تداهمها من وقتها لا تتوقف، والعلاج لا يفيد، وحتى مقابلتها مع تلك الاستشارية النفسية التي حددوها هم لها لا تسعف ما تبقى من كيانها بالقدر الكافي، هي مجرد قراميد تبني بها جدارًا تحتمي خلفه، بعيدًا عن كل الأعين، عمن يحب، من يكره، من يحتقر، من يواسي ويشفق.

جسدها الذي نحل بشدة، خوفها من كل صوت يخترق أذنيها، الأرق الذي أصبح رفيق ليلها، والكابوس الوحيد التي لم تعد تصادف غيره في غفواتها القصيرة!!..

عامها الدراسي والمفترض أنه الأخير ضاع، كل الأمور خارجة عن السيطرة، فوق طاقة احتمالها الواهنة، فوق قدرتها على التخيل، فلم تتوقع في يوم أن تنتهك روحها الصغيرة دونما سبب، ودون أن تعرف من فعلها!!..

وتفكر، حتى لو عرفت: ما الفائدة؟!.. هي لن تقتله بيديها، أو تخمش وجهه بأظافرها، أو حتى تهدد باقتلاع عينيه وتمزيق جسده الذي لوثها إربًا، تعلم أنها حينها ستجبن، تهرب، تموت رعبًا، وتنزوي في ركن صغير ببكاء لا يوقفه سوى انتزاع ما يسير به جسدها من آثار حياة.

تغيب في البعيد، ماذا لو ماتت!!.. أهو أفضل؟!.. لكن هل تقتل نفسها؟!.. كلا لن تفعل، هي تشعر بالذعر، من كل شيء، وتتساءل: بل من أي شيء!!.. الحيرة التي تغوص فيها حد الغرق تميتها هي الأخرى، فلا تكاد تتنفس حتى تختنق من جديد.

لم تعلم أنه يراقبها.. ملامح وجهه يعلوها الألم، يختلط بهياج كسعير يتلظى فوق نيرانه ولا يطفئه شيء، يراقب خطواتها المرتبكة الضعيفة، نسمة الهواء التي داعبت وشاحها غير المحكم فوق رأسها، انكماشها فوق أرجوحتها المفضلة، وتلك الهزات الرتيبة التي تدفع بها الأرجوحة بقدميها.

وقف خلف ذلك الجدار الزجاجي لغرفة مكتبه والذي يطل على حديقة المنزل، يتطلع إليها بينما عقله لا يتوقف عن البحث، ماذا يفعل؟!.. ما الذي تبقى ولم يقم به؟!.. هل هناك من مزيد وما الذي قصَّر فيه؟!..

ثم يؤنب نفسه:

"أنت لم تحمِها، تركتها للضياع بعدما رحل من كان لها كل شيء"..

ويعود فيحمل نفسه كل خطأ، كل مسئولية ويجدد عذابات قلبه بيديه.

زفر بحرارة تكاد تذيبه من الداخل، بل هي أشعلت فيه النيران بالفعل، لهيبها يرتفع لعنان السماء ولا فكاك، لا مهرب مما حدث، صغيرته لن تعود كما كانت مهما بذل من جهد.. لكنه يقسم أن القادم سيختلف، أنه سيكون معها بكل خطوة، لأجلها، لأجل روحها المعذبة، الضائعة والمذبوحة.

جلس خلف المكتب، فتح حاسوبه المحمول يتصفح المواقع المختلفة التي تتحدث عما ألم بطفلته، حتى الكلمة لا يستطيع التفكير بها، يحاول أن يفهم، يساند، يساعد ويدعم..

رن هاتفه فالتقطته بسرعة:

- أيوة يا آدم..

أتاه صوت أخيه الحازم:

- الفريق الجديد هيوصل كمان ساعة عندك، وقت وصولهم إنهي عقدك مع الشركة دي، دول أحسن بكتير.

هزرأسه بجواب محدود:

- تمام، مستنيهم.

وأغلق الخط، حراسات خاصة تتبع إناث العائلة كظلالهن، ولا رفض هذه المرة مهما كانت الاعتراضات، قلبه لن يتحمل ألمًا جديدًا، سيحميهن مهما كانت التضحيات.

******

الأمر خرج من إطار التفكير، تحول لهوس لم يعد يفهم ما الذي يعنيه!!..

هو يوميًا أمام منزلها، ينتظر طلتها، يبحث عن طيفها، يريد منها لمحة خاطفة تطمئنه.. وتطمئنه على ماذا لا يعلم!!..

في كل ليلة يصيبه الأرق، فيسلم نفسه لدخان تبغه ونبيذه الباهظ ليغرق في نوم قصير حالك السواد يفيق بعده محطم الجسد باحثًا عنها من جديد، الحيرة أصبحت مرادفًا لكل شعور يسري داخله، والخوف يشغل ذهنه بشدة عن كل شيء آخر، حتى عن العمل.. ليس خوفًا من انكشاف أمره بل خوفًا من شبحها الذي يطارد خياله.. صحوه ومنامه.

وكأنما خرجت من أفكاره فجأة وجدها تقف أمامه.. جميلة.. تمامًا كما وقعت عليها أنظاره آخر مرة، تلتحف بشرشف يعلم أنه رآه سابقًا، خصلاتها الطويلة مشعثة وعلى شفتيها ابتسامة مغوية، تضم جسدها بذراعيها تتحسسهما بإغراء، تنظر إليه بدعوة أوقفت أنفاسه بذهول:

- سارة!!..

أمالت رأسها تجاه كتفها الأيمن الذي هزته بجواب صامت يعني "نعم"..

نهض من فراشه بعنف، يشعر بنبض قلبه كقصف مدفع حربي بين ضلوعه، يمسح صدره المتعرق الظاهر من خلف قميصه المفتوح، ويسأل باستغراب مشدوه:

- أنتِ جيتِ هنا إزاي؟!.. وعاوزة إيه؟!..

ألقى نظرة حوله يتأكد من مكان تواجده، نعم هو بحجرته.. كيف دخلت منزله؟!.. بل وخلعت ملابسها تريد إغواءه!؟!.. ولمَ تفعل ذلك من الأساس!!..

عاد بعينيه إليها فقط لتُضاعف ذهوله وتكاد تصيبه بلوثة صادمة وهي تترك ستر جسدها يسقط أرضًا، تقترب منه ببطء بينما عيناه لا تبرحان عريها الذي يعرفه حق المعرفة ولم يسقط من ذاكرته بعد رغم عقم المحاولات مع نساءه الأخريات..

اقتربت، وتراجع.. خطوتها توازي خطوته، حتى سقط فوق الفراش خلفه فارتسمت على شفتيها ابتسامة أثارت رعبه أكثر، ابتسامة لا تعنى سوى أنها جثة تتحرك، تريد القصاص.. وفقط

أشاح بذراعه يريد إبعادها عنه، يدفعها ويصرخ بهلع:

- أنتِ عاوزة إيه؟!.. ابعدي عني..

لكن همسها القاتل يشج طبلة أذنه بفحيح:

- ما بقاش ينفع أبعد عنك.. أنت ملكي.

وصرخ بقوة أكبر، انتفض بعدها من رقاده، يتصبب عرقًا، يتلفت حوله بذعر، ويدرك أنه فقط مجرد كابوس آخر لم تتخلَ هي عن سطوة وجودها فيه.

نهض يكاد يركض، يدخل بجسده أسفل الماء البارد، يريد أن يصدم رأسه بالجدار، يريد الصراخ ويعلم أنه ليس حقًا مشروعًا، يريد الهروب من هذا العالم بأسره.. فمنذ يومين وهي تطارد أحلامه فتحولها لكابوس واحد مظلم لا تراجع عنه.

خرج يتطلع للوقت ثم ابتسم ساخرًا، السابعة صباحًا!!.. لا يذكر متى كانت آخر مرة استيقظ خلالها في هذه الساعة، إلا لو قضى ليلته ساهرًا فينام بعدها، ارتدى ملابسه وتوجه للخروج شاردًا عما حوله، فروتينه اليومي منذ أكثر من شهرين لم يتغير، بل أصبح يفعله دون وعي.

"تيام استنناني"

كاد يتعثر عندما اخترق الصوت الرفيع أذنيه حاملًا نبرة شقيقته الراجية، وخطواتها المتسارعة نحوه باستطرادة متلهفة:

- وصلني الكلية في طريقك.. عندي محاضرات بدري.

استدار إليها بملل:

- كنزي.. أنا مش فاضيلك، روحي بعربيتك.

دبت بقدمها في الأرض كطفلة عنيدة:

- عربيتي في التوكيل بعد آخر خبطة، وداد بيعاندني مش عاوز يرجعها ناو.

زفر بحنق فأردفت هي يائسة:

- خلاص يا تيمو، هاخلي رامي يوصلني.

عقد حاجبيه بتساؤل:

- هو جه من السفر؟!

أومأت بإيجاب تقبله هو وعاد يلتفت مغادرًا قبل أن يتوقف بغتة، تتقلص معدته وتقف غصة في حلقه بفكرة ما، هتف بها آمرًا من فوق كتفه:

- اطلعي غيري هدومك أنا هاوصلك، وقصري مع رامي يا كنزي.

لوت شفتيها بتعجب، هو ابن عمها وصديق الطفولة.. فما مشكلته الآن!!..

عاد يخاطبها بغيظ:

- انجزي يلا.

أوصلها على مضض، عقله تؤرقه فكرة واحدة.. أخته الصغرى التي لم تكمل التاسعة عشر بعد.. وابن عمه الذي يعاملها بحرية لم يعد يستسيغها في الوقت الحالي..

فكرة تدور وتدور وتخيفه لحد لم يتصور أن يمر بذهنه يومًا عنهما معًا!!..

زفراته الحارة ربما تعدت المائة، وبعد كل واحدة يشعر بأنفاسه محتبسة داخل صدره أكثر، ظل يقود لوقت لم يحسبه، لكنه عندما توجه لمنزلها كالمعتاد كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحًا، وقبل أن يوقف محرك سيارته ويأخذ وضع مراقبة وانتظار مريح وجد سيارة تغادر المنزل، ولمح وجهها من خلف الزجاج الخلفي لها.

******

الأيام أصبحت متشابهة، تمر دون عدد، دون فارق، دون انتباه.. والمشاعر لم تكن دومًا هينة أو سهلة التوقع، هي تهاجم على حين غفلة، لا تَتتَابع بنمطية.. بل تواجه في كل مرة بشكل مختلف مغاير لما سبقه..

في البداية كان الخوف، الرعب لو شئنا الدقة، تلاه الانكسار المصاحب لدموع بطعم لاذع يعني أنها فقدت أنوثتها، روحها، ونفسها.. ثم شعور بالقرف يتغلغل في خلايا جسدها، يثير غثيانها، يمنعها الطعام والشراب، اشمئزاز مصاحب لإحساس بالتلوث، بفقدان النقاء والطهارة، ببراءة نُفذ

فيها حكم إعدام دون محاكمة، وجلاد ملثم يخفي جرمه اغتصب فيها النبض ولا تدري عنه شيئًا.

وبعدها ذنب.. ربما هي مَن يسرت على خاطفها فعلته، مَن مكنته من طرفي الحبل الذي لفه حول عنقها حتى خنقها، من أولجت بنفسها السكين داخل قلبها، هي من خطت لفخه بقدميها وقانون الحياة لا يحمي المغفلين..

في النهاية المذنب لابد له من عقاب، قسوة تسربت لخافقها المطعون فامتلأ بظلمة، بسواد انعكس عليها فقررت أن تكون المرحلة التالية هي جلد الذات ومحاسبتها على خطأها.

هي المذنبة.. وتمسك بمقص حاد، أمام مرآة حمامها، تغرق عيناها الدموع، وتنظر من خلف غشاوتها دون انتباه..

هي المخطئة.. وتتوجه بيد مرتجفة نحو خصلاتها الطويلة الذابلة، تفتح فكي السلاح الحاد، تحشرها بينهما، وترتعش من جديد..

هي الجانية.. ودفعة أخرى من غلطة عقل يُخرس فيها الضمير، وتنقبض الأصابع، تقترب في عناق، وتتساقط الخصلات..

واحدة وراءها تالية وثالثة فرابعة وعذابات ودموع ونحيب، وتبكي، بل تصرخ.. ثم تصطدم يدها بكوب زجاجي فوق المغسلة فتسقطه محطمًا، وبين فتاته ونظراتها الضائعة نحوه بذنب تتيه أكثر، تدفعها رعونة نحو خطوة وأخرى.. وتنغرس القطع في قدميها الحافيتين فتصرخ أعلى.. هذه

المرة الألم أكبر، ونفسها تبتهل أن تسيل دمائها الملوثة فتطهر مكانها الذي تغادره في أوردتها، وعلى شفا الانهيار تأتي النجدة في ضمة عنيفة مباغتة تكاد تزهق روحها وأنينه يهمس في أذنها:

- ليه كده يا سارة؟!.. ليه؟!..

يضمها أقرب، يعاند رفضها، يسحب المقص من بين أناملها المتيبسة فوقه ويقبل رأسها، تنهار أرضًا فيعانق ويأخذها في أحضانه مستندًا للجدار خلفه، وتردد هي من بين شهقاتها:

- أنا السبب، أنا.. أنا إديته الفرصة..

ويسكتها، فقط لا يريد سماع المزيد، هي لا تقسو على نفسها فقط بل تذبحه بكلماتها:

- ششششش.. الذنب ذنبي أنا، ما قدرتش أحميكِ.

تنشج ثانية، سيل الدموع لا يتوقف، لكنها تستكين فوق صدره تبحث عن أمان ما كإبرة في كومة قش وسط النيران، يحملها لفراشها.. زوجته تطهر جرح قدميها وتضمده لكن ماذا عن جراح لا تظهر للعين.. لا يشعر بها أحد، وهي تنزف وتنزف فحسب!!..

لم تنم ليلتها بعدما اقتصت لبرائتها المنهوبة من نفسها التي فرطت فيها، في الصباح استيقظت بوجه جامد، تتقوى برغبة ما، تحاول النهوض والتشبث بما تبقى من دقات قلبها الضعيف.

وبنفس الجمود أعلنت عن رغبة في الخروج، تريد مقابلة صديقتها خارج جدران المنزل، وبعدها موعد طبيبتها، لكن قبل كل ذلك لديها لقاء.. جلست في المقعد الخلفي للسيارة التي يقودها شخص ما لا تعرفه وبجواره آخر ضخم الجثة، من المفترض أنهما يؤمنان لها الحماية.. لكن ماذا يحميان؟!.. جدران منزل مهدمة، أطلال أنثى، خراب حل عليها وما تبقى لم يعد يستحق.

في كل يوم تشعر بهوانها أكثر، بذل جديد وقيد آخر يكبلها نحو عار لا مخرج من متاهته، بالأمس علمت بالصدفة أن صديقتها رأتها، بل وليست وحدها.. كان معها "زياد".. صديق "عمار" الصدوق.

وعندما مر اسمه بذهنها نبض القلب، ها هو وجع جديد يضاف لأوجاع النفس، جنين حب لم يتمخض عنه بعد رحم الحياة إلا وأجهضته عذابات تتوالى عليها حتى مات ودُفن بداخلها كل أمل.

الوقت مبكر للغاية لكنها تظنه موجودًا.. وكان ظنها في محله، بعد دقائق لم تكن بالطويلة وجدته أمامها، يهرب بعينيه من لقاء عينيها، نبرته متوترة

وهو يدعوها للجلوس، استجابت بصمت.. وعانقت الأرض بنظراتها في انكسار أصابه بالحزن، قبل أن ينطق بحرف بادرته بصوت مرتجف:

- باشمهندس زياد.. ممكن أطلب منك طلب؟!..

هز كتفيه دون معنى وهمهم بموافقة، أردفت وهي تتأمل مكتبه الجديد:

- قبل أي حاجة مبروك التخرج، والمكتب.. ربنا يوفقك.

أومأ برأسه وغمغم بخفوت:

- الله يبارك فيك.

حاولت النظر إليه، خانتها عيناها، خانها قلبها الواجف، خانتها شجاعتها فتشتت حروفها وتبعثرت أنفاسها:

- أنت ما قلتش لعمار على.. على.. اللي حصل مش كده!!..

ابتعد بنظراته هو الآخر يوافقها بهزة رأس فأكملت بنبرة حاولت إسباغها بالحزم:

- عاوزة منك وعد إنك ما تقولوش.

حديثها هذه المرة أجبره على رفع عينيه إليها، يتأملها دون فهم!!..

وتتجرأ هي بلقاء العيون، عندها علم ما تقصده، ستبعده عنها، تقصيه من حياتها، وتخرج من حياته قبل أن تدخلها.. حمقاء هي كعادة النساء!

هتف بها دون وعي:

- أنتِ هتبعدي عنه!!.. وأنتِ عارفة إنه بيحبك!

تمتمتها المنكسرة أوجعت قلبه:

- أنا ما بقيتش أصلح للحب..

حرك رأسه برفض قبل أن ينهض واقفًا بحركة مفاجئة نفضتها في مكانها فانتبه هو لفزعها..

ضم قبضتيه يحاول التماسك ثم عاد يجلس ببطء هادئ:

- آنسة سارة.. سارة.. أنتِ مالكيش ذنب في اللي حصل، هو من حقه يعرف، هو اللي من حقه يقرر.. ما تاخديش القرار بالنيابة عنه.. اللي متأكد منه إن عمار بيحبك وهيفضل جنبك مهما كانت الظروف.

تبًا!!.. هي تحاول الثبات، تسعى لتمالك نفسها قبل أن تنهار باكية أمامه وتنثر ما تبقى من فتات كرامتها بمجيئها إليه، ازدردت لعابها وسحبت دفقة من الهواء تحاول إضافة العقل والمنطق على رأيها:

- وأنا مش عاوزاه يفضل جنبي بدافع الشهامة، أو حتى الحب اللي مصيره يتحول في يوم من الأيام لشفقة، مصيره في يوم يندم إنه اتجوزني، حياتنا هتبقى جحيم.. لا أنا هاتحمله، ولا هو كمان.

ويرفض بشدة فكرتها المتخاذلة، يعاند متشبثًا برأيه:

- مين قال هيتحول لشفقة؟!.. أنتِ بتقرري المستقبل كمان!!.. أنتِ عارفة هو كان هيتجنن عليكِ الفترة اللي فاتت إزاي لما ما حضرتيش الامتحانات وكل شوية يسأل وأخته تسأل وعلا تهرب!!..

عادت تنظر في عينيه واللمعة الدامعة تداعب مقلتيها بخشونة:

- ده اللي بيحصل يا باشمهندس، ده الواقع ودي الحياة مش الأحلام الوردية اللي بتحاول تقنعني بيها.

وكاد يصرخ في وجهها:

"أية أحلام وردية!!"

صديقه رجل، وهو يعلم ذلك ويثق به، يثق في قلبه، أنَّى لها هذه الفكرة التي لا تقدم لها سوى المزيد من الألم؟!..

ثم من قال أنه ينبغي أن يعرف؟!.. هذه الأمور تحدث، وتعالج، وينتهي الأمر.. وتعود هي كما كانت، تعيش بسعادة مع من يهواها..

ودون أن يشعر ترجم ما يجول في ذهنه بفظاظة لصوت مسموع:

- مش لازم يعرف، ممكن عملية تحل المشكلة.

وجدها تحدق في وجهه بذهول قبل أن تهرب بنظراتها بعيدًا عنه مجددًا، وجنتيها محمرتان بشدة كأنما تجمع فيهما كل الدم الكامن في جسدها، انتبه إلى أنه صدح بأفكاره عاليًا ولم يعد هناك من مجال للتراجع فخفض

عينيه في صمت، دقيقة أو أقل قبل أن تأتيه جملتها القصيرة توجعه من جديد:

- هو مش هيعرف.. بس أنا عارفة...

وتصمت لثانية أردفت بعدها بسخرية مريرة:

- وما بُنِي على باطل فهو باطل.. صح يا بشمهندس!!..

نظر إليها بعجز فأكملت تتفادى نظرته:

- عمر جوازنا ما هيكون طبيعي.. أنا عمري ما هاقدر أعيش حياة طبيعية، عشان كده عاوزة وعدك.. أرجوك يا زياد.

ولأول مرة تنادي اسمه مجردًا، تشعره بضعفها كطفلة تائهة تبحث عن أمان ضائع ولا تجده..

نظر إليها لا يعرف ماذا يقول!..

فهمست بتوسل:

- أرجوك.

لكن رأسه الحجري يمنعه من ذلك الوعد!!.. فقط لو تنصت، تعلم كم يحبها الأحمق صديقه، تمنحه ثقتها!!..

يريد طمأنتها وعقله يرفض التفهم، لسانه يعاند النطق إلا بكلمات يشعر بها وبقوة:

- عمار بيحبك صدقيني..

شعرت باليأس.. نهضت تدور في المكان بعصبية كأنها تريد صدم رأسها بالجدار قبل أن تلقي كلماتها بحدة واضحة، وصراحة مؤلمة:

- عمار راجل زي أي راجل، عمره.. عمره ما هينسى إنه ما كانش أول واحد في حياتي.

تراجع بصدمة في مقعده ثم هرب هو بعينيه هذه المرة، وماذا عن الحب؟!.. ماذا عن كونها لم تكن المخطئة؟!.. ماذا عنها وهي ضحية؟!.. ماذا عن عذابها هي وحاجتها إليه؟!.. لمَ تَبذُل قلبها ونفسها في مقابل وهم تظنه حقيقة!!..

نهض يواجهها، يحاول إقناعها من جديد لكنها عاندته توقفه بإشارة من كفها والدموع تسيل على وجنتيها بصمت:

- أنت راجل.. زيك زيه، ترضى تتجوزني؟!..

وكاد يهتف بنعم لو كنتِ حبيبتي.. لكنها ليست معشوقته هو، تردده للحظات أوجعها أكثر، كسرها أكثر، أشعرها بهوان أكبر فالتقطت حقيبتها والتفت تغادر بنهر دموع يفيض ويفيض:

- هاعتبر نفسي سمعت وعدك.

ومدت يدها تمسح وجهها بعنف، تخطو للخارج بهرولة كأنها ترغب فقط في الهروب من أمامه، أو ربما من الحياة بأكملها علَّها ترتاح.

******

" كنت بدي شوفها قبل ما اسافر، رح جن يا زياد"

انتزعه صديقه من تيه المسيطر عليه مؤخرًا بينما يجلس معه في مكتبه، يتذكر قبل يومين، لقاءه بالثرية المدللة أو كما كان يلقبها سابقًا، الفتاة التي انكسرت ولم يجبر كسرها شيء، حبيبة الجالس قبالته والرافضة لذلك الحب بشكل قاطع ونهائي.

أجابه بعد تنهيدة:

- معلش الظروف كده، مش علا قالت لديما إنها مسافرة، سافر أنت ولما ترجع بالسلامة تكون رجعت إن شاء الله.

استند "عمار" بمرفقيه فوق ركبتيه وشبك أصابعه مفكرًا:

- قلقان كتير عليها.. من بعد ما مات باباها وهي مختفية وتليفونها مقفول.

تنهد ثانية ومنحه نفس الجواب:

- هتعمل إيه بقى؟!.. معلش..

شعر بالحنق والغيظ فصاح بنبرة عالية بعض الشيء:

- شو معلش معلش!!.. بقلك رح جن وإنت بتِقلي معلش؟!..

عقد "زياد" حاجبيه غضبًا هو الآخر:

- يعني أعمل إيه يعني؟!.. واحدة ومسافرة وأنت بتقولي عاوز تشوفها.. أجيبهالك منين أنا؟!..

كاد يزعق لكنه تراجع بيأس وهمسة حزينة:

- اشتقتلها.

وصلته الزفرة المتضايقة فصمت على مضض، يعلم صديقه الخشن حاد الطباع، لا يفكر برومانسية ولا تمر بعقله أية أفكار حالمة، وربما لا يعرف معنى الشوق!!..

أنهى الحديث يحاول إراحته:

- خلص زياد.. خلص، ما إله لازمة الحكي، أنا رح سافر ولما إرجع بآخر الصيفية ربنا بيحلها.

لاحظ تردد صديقه وتوتره فنظر له بقلق يحاول حثه على البوح بما يشغل باله، تحدث بارتباك:

- عمار.. عاوز آخد رأيك في حاجة، هي ما تخصنيش بس واحد قريبي ويهمني قوي، عاوز أنصحه ومش عارف أنصحه بإيه!

وجد نظرة مشجعة فاستطرد:

- هو كان بيحب واحدة وعاوز يتجوزها.. اللي حصل هي اتعرضت لحادثة.. إمممم، اغتصاب..

ولاحظ الصدمة على وجه الصديق فأردف بسرعة:

- المهم صاحبي ده بيحبها جدًا ومش عاوز يبعد عنها، يعني عاوز يقف جنبها وكده.. بس هي اللي رافضة، رافضة تكمل معاه ورافضة حبه.. بتقول هييجي يوم يتحول لشفقة، وهو هييجي عليه يوم يندم إنه اتجوزها.. إنه بيعمل كده من باب الشهامة مش الحب.

وهز رأسه بتردد:

- أنت إيه رأيك في كلامها؟!.. ورد فعله؟!..

فكر "عمار" لثوان قبل أن يجيبه بحزم:

- هي معها حق.

عقدة الجبين التي قابلته باستنكار جعلته يكمل موضحًا:

- زياد خلينا واقعيين، هو أخدته الشهامة، إنها حبيبته ولازم يوقف معها ويساندها، ويكمل قصة الحب.. بس في الآخر رح يتعب، رح يجي الوقت اللي حبه لإلها متل ما قالت رح يتحول لشفقة، وكل يوم الشفقة رح تقل لحد ما يقسى عليها في النهاية وممكن يجرحها أو حتى يهينها.. هي فاهمة صح.

ثم مال نحوه يربت على ركبته:

- كمان هي ما رح تحكي هيك إلا وهي عارفة إنه عليها جزء من ذنب اللي صار لها..

اتسعت عينا "زياد" وسارع يوقفه:

- لا.. لا خالص يا عمار، هي اتخطفت وحتى ما حدش عرف إن حصلها كده غير أهلها وهو بس، يعني حتى مش هيخاف من فضيحة وكلام من ده.

رد الصديق كحكيم يحاول إقناع أحد الحمقى بوجهة نظر منطقية لا تقبل الشك:

- زياد.. ركز معي.. المسألة مش فضيحة وبس، مسألة إنه مش أول رجال بحياتها، مش أول واحد لمسها، رح يبقى دايمًا بباله إنه حدا سبقه لإلها، إنها فرطت بحالها وما حافظت على حالها كرماله.

تراجع في مقعده يشعر باليأس.. هي على حق، ومن ظنه عاشقًا سيضحي ويتقبل: لا يكتفي بالرفض فقط بل يلقي بالتهمة فوق رأسها أيضًا، شعر

بتربيتة أخرى فوق ركبته فرفع عينيه نحو صديقه الذي يحدثه بعقلانية شديدة:

- صدقني هي عندها حق، تصرفها صح، وهو مصيره يندم.. فانصحه يبعد عنها، بيريحها وبيرتاح.

زوى ما بين حاجبيه مفكرًا، ترى لو علم بالحقيقة هل ستخرج منه نفس الكلمات!!..

هل سيكون إلى جوارها!!.. أم سيصبح طعنة جديدة تسدد لنفسها الذبيحة؟!..

ودع صديقه والأفكار لا تترك عقله في حاله، تصهره، تعذبه.. وتتصارع كأنها في حرب لا منتصر فيها، ولا نهاية لها.. يبحث ويحلل، ويعيد حديثها وحديثه..

وعده الصامت الذي قررته هي، وقرار الصديق الذي اتخذه دون علمه.. وحيرة جديدة تضاف للقائمة.

******

يشعر بنفسه يطوف في دوامة لا تنتهي، دوائر متداخلة متتابعة تنتشر وتتوسع وتتولد محلها أخرى مختلفة فتصبح الحلقة المفرغة أبدية كلعنة أصابته ولا يجد لها ترياق.

ويخرج من دوامته فيضيع في دهاليز متاهة غريبة هذه المرة، تحكمها مشاعر الذنب، الشفقة، والأسى لحال من توقفت دنياها ولم تعد تدور كالبقية من حولها، توقفت على لحظة لا يمكن أن تنسى، بل ستظل عالقة في الذاكرة لنهاية العمر.

الكثير والكثير يدور بخلده، هي.. صديقه.. أمها والصفقة التي أتت تعرضها عليه!!..

هي بين ذراعي أخيها وعريها المغطى على استحياء بشرشف لا يسمن ولا يغني من جوع..

هي ودموعها التي قهرت تماسكها أمامه، وصلابتها التي تدعي وجودها، ورفضها لحب قد يتحول في يوم ما لشفقة أو ربما ما هو أسوأ..

هي وسؤالها الذي لم يمنحها جوابًا عليه فزاد من ضعفها، وفرت بعينيها وبكُليتها تغادر المكان تنتزع وعدًا لم يقرر هو النطق به..

وفي النهاية.. هي وأمها التي تصمم على شراء زوج أيًا كان، مادامت ستدفع الثمن والمهم أن يخط اسمه بنفسه على وثيقة تظنها سترًا فيجاور اسمها وتختتم القصة بطريقة تريحها وكفى، ثم بعد عرضها المخزي.. تهدد وتتوعد وتنظر إليه بدونية.. لكن قبل رحيلها تترك له ورقة صغيرة برقم هاتف..

تتردد أصابعه.. تتحرك فوق الشاشة الصماء، تداعب لوحة مفاتيحها وتتوتر.. ثم يقرر وتنفذ هي القرار، يضرب الأرقام بتتابع سريع، انتظار قصير والصوت الذي بات يعرفه..

رده منح.. موافقة، وقبول صفقة.. بدافع شهامة، أو بدافع فائدة لا يهم فقط أخبرها بحزم وعيناه يشتد ظلامهما:

- أنا موافق على العرض.. هاتجوزها.

وأغلق الخط والهاتف ثم ألقاه بعيدًا ودس رأسه أسفل الوسادة، جزءً من عقله يعنفه على خضوعه ويتهمه بسرقة حبيبة صديقه دون وازع من ضمير، يؤنبه على بيع نفسه بمقابل رخيص، لكن قلبه يشفق عليها ويأمر عقله بالصمت، يسبه باتهام قسوة ويخرسه فحسب.. هو قد فعل الصواب.

(٢٤)

أنتِ معي.. في أمان

دع الفرحة تولد.. فربما بها أحيا

دع أنفاسي تتجدد.. فقد تتم عندها اللُقيا

دعني أرتوي خارج نهر الدموع.. فمعك قد تكون السُقيا

انتشل روحي المحزونة من الغرق

امنحها تربيتة واهمس لها..

أنك هنا

ستكون هنا

ستظل هنا

فعندها.. قد تتحقق من بين كوابيسي الرؤيا

دومًا هناك مرةٌ أولى.. وبالطبع هي الأكثر عسرًا في لحظة الميلاد، مخاض عذابها هو الأقوى والأشد عنفًا وقسوة على النفس.. بعدها ينفرط العقد، وتتيسر الحروف فوق الشفاه الشاكية.

هكذا كانت تظن، وخالف هو كل ظنونها!!..

بعد تلك المرة منذ أشهر يوم وفاة والده، حينما أخرج كل مكنونات صدره وأنَّ لها بأوجاع قلبه ومخاوفه السرمدية، حين بكى بين ذراعيها يستمد من صدرها دفء الاحتواء وشعور الأمان والاهتمام؛ عاد لقوقعته السابقة والمعتادة..

حتى عقب حادثة "سارة" التي ذبحته، يحتفظ بخبايا نفسه لنفسه ويحجبها خلف غشاوة ضبابية تثير غيظها؛ فلا هي ترى ما يخبئه بوضوح، ولا هو مخفي عنها تمامًا فتتناساه، فقط لمحات هنا وهناك تمتلك مشاعرها فتقترب تريد محو أحزانه لكنه يتباعد ويصمت.. فيجبرها على تبادل الصمت.

تطلعت إليه بينما يجلس شاردًا في مقابل نافذة شرفة غرفة نومهما، يتأمل سكون الليل وقمره الوليد، ملامحه غامضة لا تشي بأفكاره كما هي عادته، عيناه كأنهما غادرتا المجرة بأكملها لتضيعا في غياهب كونٍ مختلف لا يرى غيره فيه ولا يشعر بسواه وبوحدته التي تزداد يومًا بعد يوم.

اقتربت بتؤدة تجاوره على الأرض قرب الأريكة التي اضطجع فوقها براحة، التفت نحوها نصف التفاتة بوجهه وتكرم ببسمة شاحبة لا معنى لها، لامست وجنته بظاهر أناملها برفق وكانت أكثر كرمًا في ابتسامتها الحنون:

- سرحان في إيه؟!

تنهد بعمق.. عمق شعرت به كرياح تعصف بأركان نفسه المنكسرة والباحثة عن سند، شاب بسمته شيء من حزن وزفر قبل أن تصلها نبرته بكآبة:

- ولا حاجة.. أهي أفكار من هنا على هناك.

تعلم بكذبه، هي فكرة واحدة تراوده، تشعل هوسه وتقض مضجعه، تزور أحلامه فتحولها لكابوس واحد طويل يحياه لحظة بلحظة في صحوه ومنامه، حاولت طمأنته:

- آدم.. لو اللي عمل كده ناوي على حاجة؛ ما كانش هيسكت ده كله.

تأملها بعينيه دون رد فأردفت بلهجة متألمة:

- هو غرضه يوجعكم؛ مش الفضيحة، عارف إنه ده الكسر الحقيقي في حياتكم، ما يهموش ناس تانية، يهمه أنتم وبس..

ظل على صمته يحاول هضم منطقها، أكلمت بهمس:

- لو بس تسمع كلامي وتسيبني أدور ورا الموضوع...

هب جالسًا بعنف يقاطعها دون تفهم:

- لميا!!..

عيناه تلمعان بتحذير خطير، تأففت بضيق:

- يا آدم.. مش كل مرة نتكلم في الموضوع تتنرفز وتسكتني، أنا هاعرف أدور من غير ما الحكاية تتنشر، ليَّ معارفي وطرقي، ما تخافش.

وقف يبتعد عنها ويقطع عليها كل الطرق بحزم صارم:

- الموضوع اتقفل خلاص.

نهضت هي الأخرى تقترب منه، تنتقي نبرة لطيفة تحاول إقناعه بها:

- وحقها يا آدم، أكيد جواك نار مش هيطفيها غير إن اللي عمل كده يتعدم.

استدار إليها، نظرته تقول أنها على حق، ملامحه، لغة جسده تقسم أنها على حق، لكن عقله الذي يمنطق ويحلل، قلبه الذي يخشى ويرتعب يملك التأثير الأكبر:

- مش هينفع.. للأسف مش هينفع.. سارة بتحاول تقف على رجليها، بتحاول ترجع، وإحنا بنحاول نكون جنبها.. كفاية عليها اللي عانت منه، مش هافتح الجرح من جديد.

تنهدت ترد ويعلم أن ما تقوله هو الصحيح كما هي عادتها:

- سارة جرحها مش هيطيب إلا لو خدت حقها، سارة جرحها هيفضل مفتوح لأنها مش فاهمة ومش عارفة مين عمل كده ولا ليه!!

نظر إليها بعجز، يريد الكثير، يرغب في أفعال لا يملك أمامها سوى السكون لأن الحركة الواحدة قد تكون غلطة لا تغتفر، غلطة لا رجعة فيها..

لمعت عيناه بألم أثار هلع قلبها، أدار لها ظهره والتفت يطالع القمر الضعيف ثانيةً، يحاول التفكير، يطمح في الوصول لحل، لكن كل الطرق مقفلة، والحلول معقدة كمعادلة فيزيائية لطالما كره التعامل معها في حياته.

دنت منه، تحاوطه من الخلف وتستند بوجنتها لظهره المتصلب، تربت على قلبه بكفها، تمنحه لمستها الحانية التي تخضعه دومًا أسيرًا لرقتها ودفئها، وتجعله في حالة احتياج أبدي لوجودها من حوله.

******

مرت أيام أخرى لم يتخلَ عن مراقبته لها طوال وقت وجوده بالمنزل، أثناء غيابه يوصي زوجته بها، أن تكون حولها.. تعتني وتهدهد وتحنو لأن الأم تعيش في دوامة أخرى كأنما عزلت نفسها في فقاعة بعيدًا عن مسرح أحداث حياة أسرتها المهدم.

منذ تلك الليلة التي قصَّت فيها خصلاتها الطويلة بعشوائية وخطت بقدميها فوق الزجاج المحطم كأنما تبحث عن آلام أخرى تضيفها لأوجاعها

التي لا تنتهي؛ وهو يفتأ يراقب، لا تغيب عن عينيه إلا وتبعتها أذناه، يهتم أكثر ويحاول التقارب معها بهدوء، يحتوي ألمها ويخضع لجبروت أحزانها فيتلقفها فوق صدره حين الحاجة، حين الضعف، يلملم دمعاتها، يمتص شهقاتها، وبين ذراعيه يعلو نحيبها.. فقط دون شكوى.

الحمقاء.. مدللته الصغيرة تلوم نفسها، على ماذا طفلتي؟!.. على ذنبي أنا!!.. قلة اهتمامي وتهاوني في حمايتك حتى أضعتك يا بريئة؟!.. لا حبيبتي، لا تلومي نفسك، بل لومي كل من حولك، نحن.. أنا، أمك، أخيك الأكبر.. كلنا، لكن ابتعدي عن روحك التي تبحث عن أنفاس نقية علَّها تُبعث للحياة.

لم تتحرك من جلستها هذه لأكثر من ساعة، وهو على سكونه لنفس الزمن، عيناه لم تبتعدا عن ملامحها الشاردة، وقلبه يشارك قلبها دقاته الهادئة المتباطئة، تستكين على مقعد غرفة الجلوس، أمام تلفاز لا ترى ما يعرضه، تضم ركبتيها لصدرها في وضع حماية، وتستند بوجنتها فوقهما، نهض ببطء واقترب منها، جلس إلى جوارها فابتسمت له، ابتسامتها أعادت بريقًا طفيفًا لعينيه وهو يبحث فيها عن طمأنينة، لا يبثها إياها فحسب، همس لها وقلبه ينزف دموعه الخاصة:

- تيجي نخرج سوا؟!

انكسرت ابتسامتها وانحسرت، هزت رأسها بنفي ضعيف:

- لأ.. مش عاوزة.

أصر عليها برفق:

- ليه يا سارة؟!.. هاوديك المطعم اللي بتحبيه نتغدى سوا، بعدين أفسحك في أي مكان أنتِ عاوزاه.

حاولت الابتسام من جديد فتعثرت شفتاها في الطريق:

- ماليش نفس يا أدهم، خليها يوم تاني.

واستكانت للحظة قبل أن تسأله:

- مش المفروض تكون في الشغل دلوقتِ؟!

داعبها بحنان:

- أنتِ بتطرديني ولا إيه؟!.. أنا جاي مخصوص عشان آخدك ونقضي اليوم مع بعض زي زمان.

شردت في الماضي، تستعيد ذكرى طهر فقدته، براءة تاهت منها في معالم طريق مظلم لم تخطُ فيه يومًا، وأيام تدفع ما بقي من عمرها لتستعيدها وبعدها لا مانع من أن ترحل عن الدنيا. تفَهَم هو شرودها ومنحها الصمت الذي تحتاجه لبضع ثوان قبل أن ينتزعها من ذكريات قد تسبب لها الألم أكثر:

- ها!!.. قلتِ إيه بقى؟!.. قومي البسي ويلا بينا نخرج، لوحدنا أنا وأنتِ بس.

ابتسمت هذه المرة تحاول طمأنته عليها:

- بجد ماليش مزاج النهاردة، خليها يوم تاني، ومادام جيت خد جمانة والولاد خرجهم، بقى لهم كتير محبوسين في البيت.

دفع نفسه ليشاكسها:

- هي اشتكت لك ولا إيه؟!.. أنا جاي عشانك أنتِ وبس.

حاولت الاندماج معه:

- طيب ما تقولش كده عشان ممكن تغير وتعملك مشكلة.

تراجع بحركة اصطنع فيها الرعب:

- لا فعلًا معاكِ حق، إن الله حليم ستار بقى.

وكأنما اسم الله "الستير" أيقظ نيرانها التي لم تخمد بعد، وأثار تلك اللواعج التي يعج بها قلبها فلا تكاد تتناسى حتى يظهر فتيل آخر يفجرها في وجهها يؤكد عليها أن النسيان أمر غير وارد، لقد سترها الله، سترها بعد حادث لم يعرف به أحد، ومن عرف التزم الصمت بحب واهتمام أو بدافع شهامة ندرت في هذا الزمان، لكن هل تبحث هي عن الستر.. أم عن انتقام؟!.. وهل يمكنها الانتقام بالفعل!!..

قاطع تيه أفكارها وتأمله هو الصامت لها محاولًا الدخول لعقلها المبهم هذه الأيام وصول والدتها، تنحنحت تكسب صوتها نبرة حازمة:

- كويس إنك هنا يا أدهم.. في موضوع مهم عاوزة أقولك عليه في حضور سارة.

نظر إليها بتساؤل بينما اكتفت المجاورة له بإسناد وجنتها لركبتيها مجددًا وأمها تكمل:

- في عريس متقدم لأختك، وجايين بكرة.

زلزال هو أو ربما إعصار، لا يدري بالضبط أي صاعقة حلت فوق رأسه وهو ينظر للجالسة إلى جواره بعينين متسعتين تقابلان نظرتها الصارخة برعب:

- عريس!!.. عريس إيه يا أمي في الوقت ده؟!..

جلست "فريدة" بجمود فوق مقعد مقابل:

- والله هو اتقدم، مش هاقوله لا معلش اختار وقت تاني أصل عندنا ظرف خاص.. سارة تشوفه وترفض أو توافق براحتها، المهم تقابله.

كاد يصرخ في وجهها:

- يعني إيه تقابله؟!.. الموضوع مرفوض نهائي، ماحدش هييجي البيت ده وإلا هيكون هو الجاني على نفسه.

اعتدلت تحدثه بصرامة:

- أدهم.. خلي بالك من طريقتك وأنت بتتكلم معايا، سارة بس من حقها تقول آه أو لأ.

والتفتت نحو ابنتها متسعة العينين بصمت:

- أكيد أنتِ تعرفيه يا سارة، هو زميلك في الجامعة بس كان طالب عند أونكل أسعد في هندسة.. اسمه زياد الأنصاري.

اتساع العينين في تلك اللحظة اختلف مدلوله.. هذه المرة دون فهم، ذهب الرعب وحل محله الذهول الممتزج باستنكار وهي تهمس باسمه:

- زياد!!

استدار إليها شقيقها بغضب يحرق ملامحه:

- أنتِ تعرفيه؟!

ترددت للحظة، تحاول النطق، تبحث عن منطق يجهد عقلها الذي استعصى عليه الإدراك:

- لأ.. أيوة.. يعني، مش قوي.

عقد حاجبيه ينتظر مزيدًا من التوضيح فألقت بكلمات متعثرة:

- هو صاحب الشاب اللي كنت خبطته بالعربية أول الدراسة، ده كل اللي أعرفه عنه.

تدخلت والدتها ترغب في تجميل الموقف وتخطي عقبة ابنها المشهرة بحدة في وجهها برفض:

- هو عرف إن أونكل أسعد ابن عم باباكِ الله يرحمه، وكلمه بعد النتيجة ما ظهرت، قال له إنه عاوز يتقدم لك، وأونكل أسعد بلغني وأنا بأقولكم أهو، بيقول عنه كلام كويس، إنه شاب طموح، ممتاز في دراسته وأول ما اتخرج اشتغل ومعتمد على نفسه.

انتفض أخيها واقفًا بعنف أجفلها:

- وأنا مش موافق يا أمي.

لكن همستها هي ألجمته رغم ضعفها:

- بس أنا موافقة أقابله.

لمعت عينا الأم بانتصار، بينما تطلع هو إليها بانشداه، لا يدري ما الذي يدور في عقلها الصغير المشتت!!.. ليس الآن.. ليس وهي في فترة نقاهة لم تتخطَ آثارها بعد.. ليس في حالة ضعفها وخنوعها الحالي واستسلامها لظروف انحشرت فيها دون ذنب..

عاد يجلس، يربت على كفها ويجذبه ليحيطه بدفء يديه، يحاول التحدث بهدوء قدر المستطاع:

- سارة.. حبيبتي، مش وقت الكلام ده.. أنتِ مش مجبرة تقابليه، أنا هاتصرف ومالكيش أنتِ دعوة، اعتمدي عليَّ.

لكنها رفعت عينيها إليه، تلك النظرة التي واجهته بها أعلمته بردها قبل أن تنطقه شفتيها:

- مش مجبرة يا أدهم، أنا موافقة أقابله، ما فيش مانع أعرف هو عاوز يتقدم لي ليه!!

هز رأسه بعناد رافض:

- سارة...

وهنا كانت المقاطعة من أمه تدحر تشدده ورفضه وتدعم جانب ابنتها المستسلمة:

- خلاص يا أدهم، أنا إديتهم ميعاد وأختك موافقة.. الموضوع منتهي، كلم أخوك عشان يكون موجود.

ونهضت تتركهما كل في تيهه الخاص، هو لهيب الغضب يعمي الصورة أمامه، وهي يتغلب عليها فضولها الذي شغل عقلها عما سواه.

******

توتر.. الكثير منه في الواقع، لقد استدعى عمته على وجه السرعة، وحضر حاله وفاتح خاله الذي هو بمثابة والده وكله في نفس اليوم..

لا يعلم هل قراره في محله أم لا!!.. هل هي ستوافق أم لا!!. فبالتأكيد لا تعلم عن صفقة والدتها شيئًا، وكلما تذكر هو احتقر نفسه أكثر.. يؤنبها ويخبرها ألا تدعي الشهامة فهو ليس بذلك النبل.

هم عائلة ثرية.. وللغاية، وهو وإن كان ميسور الحال فلا يرقى ليقابل ثرائهم، عمله الخاص اعتمد فيه على نفسه وعلى بعض مما تركه له والديه قبل رحيلهما، يعلم أنه باجتهاده سيصل لما هو أعلى وأفضل، لكن من موقعه الحالي تبدو الصور داكنة مشوشة وغير مضمونة العواقب.

يدرك أن والدتها اختلقت قصة عنه وعن كيف عرض رغبته في الزواج منها، ألقتها على مسامعه تخبره أنه ينبغي أن يحفظها عن ظهر قلب لأن هذا هو ما سيقوله لاحقًا وهو استجاب.

ذهب مع عمته وخاله، تعتلي وجهه نظرة غامضة غير مفهومة، يتحرك بثقة يحاول الثبات عليها، يتلقى نظرات أخويها المتشككة خاصة الأصغر والذي امتزج بنظراته حنق واضح كأنه يرفض المبدأ من الأساس، تقبل كل أسألتهم ورد عليها برحابة صدر، وجاءت هي تتهادى في خطواتها، تعانق الأرض بعينيها كعادتها عندما تخجل، وجنتاها متوردتان ببراءة، وتفرك أصابعها

بتوتر عروس.. مظهرها رسم داخله ابتسامة لأنها تبدو كطفلة في حين كانت كتلة من الشراسة وهي تنتزع منه وعدًا قبل أيام.

لم تفلت من تأمله وهي تلقي السلام على الحضور، تعانق العمة وتتبسم للخال، ترفع عينيها نحوه للحظة وبهما لمعة لم يستطع تفسيرها، كأنها تلقي عليه بسؤال لم يقرأه بطريقة جيدة ولا يجد له جواب، وعندما غادرها التقت نظراته بالجالس في مواجهته وشعر بأنه على وشك خنقه، تنهد بداخله وهو يفكر أنه مقبل على معركة حامية الوطيس.. معها ومع أخيها هذا أيضًا.

بعد فترة قصيرة وكما هي طبيعة هذه اللقاءات، تطوعت الأم بانفراد، وافقتها عليه العمة وكاد الأخوين أن يعترضا لكن هي.. هي من أقلقته بنهوضها تعلن رغبتها في ذلك وتبعها هو بصمت..

سارت إلى جواره في حديقة المنزل بناءً على اقتراحها، لم تتحدث ولم ينبس هو بحرف، تضم نفسها بذراعيها، وينظر أمامه في شرود، بعد دقائق لم يهتم لحسابها وقفت، تباعدت خطوتين وسألت بكلمة واحدة قاطعة:

- ليه؟!..

زوي ما بين حاجبيه في تساؤل فأكملت بنبرة حازمة أثارت إعجابه:

- عاوز تتجوزني ليه؟!

زم شفتيه للحظة قبل أن يجيبها ببساطة:

- ده ردي على سؤالك.

وكان دورها هذه المرة في التطلع الصامت غير الفاهم والمستغرب، سحب نفسًا عميقًا وأوضح:

- سارة.. أنا مش فارس، ولا نبيل.. أنا شخص عادي جدا، قولي راجل، قولي إنسان.. واقف برا الصورة وباحكم بعقلي، ما فيش مشاعر بتسبب لي حيرة أو تأثر على اختياري، بعد تفكير طويل ده كان القرار اللي أخدته، وردي على سؤالك اللي سألتيه يوم ما جيتيلي المكتب.

فكرت للحظة قبل أن تتمتم بلهجة حائرة:

- هتخسر صاحبك!!..

أجابها بحسم بينما يعتدل في وقفته:

- هاكسب احترامي لنفسي ورجولتي.

جابهته بعناد كأنما تريد إثارة غضبه وحسب:

- هيجي يوم وتندم.

لكن رده كان أبسط وأكثر هدوءً مما توقعت:

- ما حدش بيندم على خير أو اختيار صح.

وتنهد يحاول إقناعها دون الإيحاء بما قد يضايقها:

- جوازنا هيبعد عمار بشكل نهائي وبسبب مش هيفكر يخليه يحاول يقرب منك بعد كده.

رفعت عينيها إليه بألم فأكمل بسؤال يرضي به نفسه:

- مش ده اللي أنتِ عاوزاه؟!

أومأت بصمت، تفكر، بل تدور في دوامة داخل عقلها المنهك بشدة، تبحث عن منطق ما، حل ما، سبب ما، وكلها تؤدي بها لنقطة الشفقة التي ترفضها وبعنف، لذلك عادت تهاجمه:

- يعني هتتجوزني نوع من الشفقة!!.. ليه غيرت رأيك يا باشمهندس؟!

تأملها بصبر، هو يقدر ما تمر به بالتأكيد.. وصبره هذا دليل على جانب منه لم يدركه هو نفسه في خضم ناريته المشتعلة على الدوام:

- أنا يومها ما قلتش رأيي..

عقدت حاجبيها ترفض تلاعبه بالكلمات فأوضح بحسم:

- ده كان رأيي.. بس أنت مشيتِ من غير ما تديني فرصة أقوله.

أسقط في يدها، هي لا ترفضه، بل على العكس.. تقدر موقفه وبقوة، تقدر شهامة ندر وجودها في زمنها هذا الذي قتل فيها برائتها وفتح عينيها على

سواد تكنه نفوس البعض دون سبب مفهوم، تشكر له رغبته في مساندتها والتواجد إلى جوارها.. لكنها تخاف، تخشى كل أحد وكل فكرة، تشعر بالذعر من مستقبل قد يكون في باله شيء وداخل عقلها هي شيء آخر..

ترددت فنظر إليها باستفهام أجابته بخجل تخفي عينيها عنه:

- أنت عارف إن جوازنا مش هيكون طبيعي.. يعني.. أقصد...

فهمها وأراحها بنبرة مطمئنة:

- عارف.

عادت تتردد وتتهرب ترفض اللقاء بنظراته:

- طيب ممكن نخليه جواز مؤقت؟.. يعني أنت أكيد من حقك تعيش حياتك بطريقة طبيعية، ووجودي أكيد هيكون مشكلة.. أنت عاوز تساعدني وأنا مقدرة ده فمش عاوزة أكون عقبة توقف عليها الحياة العادية اللي أي راجل يحب يعيشها.

تنهد بصبر لا يدري هل تعي ما تقوله أم أنها ببساطة تتجهل الأمر!!..

تحدث برفق:

- ما ينفعش يكون بينا اتفاق مربوط بمدة يا سارة.. كده يكون العقد باطل، وإحنا هنعيش مع بعض في بيت واحد.

وتململ يرفض تقليلها من قيمة نفسها أو تلك النظرة المنكسرة التي تعلو وجهها:

- بس أوعدك؛ وقت ما تحبي تكوني حرة.. هاحررك.

رفعت رأسها تنظر إليه بترقب، ربما تبحث عن فهم، عن فكرة ما تقنع بها عقلها الذي يرفض ونفسها المستسلمة لضعف موقفها باحثة عن مخرج تعود به للحياة، همس لها ببسمة لطيفة:

- ها.. قلتِ إيه؟!

ابتسامته بعثت شيئًا من السكينة في روحها المتلهفة لإحساس الأمان، صمتت قليلًا تستمد منه قوة ربما، أو تفتش عن المزيد من الضمانات التي لا تعترف بها دنيا البشر التي غاصت في أوحالها دون وعي.. ملامحه الخشنة وتقطيبة جبينه الدائمة، حدة وغموض نظراته.. شيء ما، أمل ما.. جعلها تسبل أهدابها في حياء لا يعني سوى.. نعم.

******

وكأن تخصصه هذه الأيام أصبح المراقبة.. بعد خروجها معه اعتذر من الجالسين وتحجج بحجة واهية ثم تبعهما من الباب الخلفي، يقف في ظلمة الشرفة كشبح مستتر، يمعن النظر ويبحث عن حروف متطايرة تحملها نسمات الهواء لأذنيه ربما يصل بعقله لمرفأ أمان.

بعد مدة ليست بالطويلة وجدها تعود معه، رأسها منكسة لكن على الضوء الخافت لمح تورد وجنتيها والخجل المرسوم على ملامحها.. والمعنى واضح لا يحتاج لتفسير.. لقد وافقت.

تلاقت عيناه مع الشاب الذي يماثله طولًا، همس لأخته يحثها على الدخول وحجبه هو يريد الحديث، تطلع له يحاول سبر أغواره، يبحث عن مبرر للرفض، هو شاب ناجح وكما يقولون بدأ حياته بشكل عصامي يريد بناءها بنفسه دون اعتمادية على أحد.. هذا شيء يحسب له لكنه ليس المقابل الذي يمكن أن يسلمه شقيقته على أساسه، همس بسؤال يريد تأكيد جوابه فقط:

- وافقت!!

أومأ "زياد" برأسه، فأردف:

- بس أنا مش موافق.

لمعت عينا الشاب بتحدٍ أثار غضبه خاصة عندما أتاه الرد بغموض ولهجة باردة:

- يعني رأيها مالوش قيمة!!

وحشره في زاوية داخل قلبه المفعم بشتى مشاعر الألم والخوف بل والسخط:

- له قيمة أكيد، وهو الأهم..

ثم اقترب منه أكثر حتى كاد يلامسه، يستطرد بحدة أمام وجهه:

- لكن رأيي عندها هيفرق.

رفع "زياد" رأسه بثقة يرفض الخضوع أمام هذا الهائج رغم إخفائه لهياجه لكنه سافر داخل مقلتيه:

- ليه؟!

الآن انحشر أكثر والزاوية هنا انكشاف سر أخفوه حتى عن أنفسهم حين انفرادهم، بحث عن رد مناسب، حاول وحاول وكل ما خرج منه:

- مش شايفك مناسب ليها.

وأتاه السؤال سريعًا:

- من أي زاوية؟!

والجواب أسرع وأكثر عنفًا:

- من كل الزوايا.

وألجمه الرد الذي أتاه كبرق خاطف صعقه كأنه أمر خارج حدود التوقع والخيال:

- أنا بحبها.

ولا مفر من كذبة تسكن هذا البركان الثائر وتغير اتجاه حممه بعيدًا عنه، ربما حينها يطمئن، ذهول وجهه بعث في نفسه نشوة نصر.. فالتمعت عيناه وتلك اللمعة جذبت انتباه الواقف قبالته..

الموقف على وشك أن يتأزم أكثر، يحتاج تدخل سريع وموازنة من صاحب العقل الهادئ والتفكير المنطق، ظهر "آدم" عند مدخل الشرفة بابتسامة واسعة، نبرة مستريحة وكلمات تحاول منع الحريق المشتعل من التأجج أكثر:

- إزيك يا زياد.. سلامنا جوا ما كانش مظبوط.. أخبار شغلك إيه؟!

التفت إليه الاثنان.. أحدهما تنطق عيناه بالغضب والثاني بغموض بارد بينما يجيب بحياد:

- الحمد لله يا دكتور آدم، والشغل تمام.

حافظ على ابتسامته وألقى نظرة على أخيه تسحب منه حق الاعتراض:

- سارة بلغتنا بموافقتها.

شعر كلاهما بذبذبات التوتر والغيظ التي انتشرت فوق رؤوسهم منطلقة من "أدهم" الذي يعض على نواجذه ويضم قبضتيه بعنف كأنما يمنع نفسه من منح فك الفتى لكمة تعدل له ملامحه، اكتفى بمقاطعة الحوار المفتعل باقتراب، وهمس ناري شعر "زياد" بحرارته فعليًا لا مجازًا:

- لو جت لي في يوم تشتكي منك؛ لو عرفت حتى من بعيد إنك زعلتها؛ لو...

لم يتركه يتمم حديثه، غضبه هو الآخر مضطرم بداخله وهو يكبته بصعوبة منذ حجزه هنا ليهدده ويعلمه برفضه، فقاطع بصرامة وتقطيبة جبينه تزداد:

- أنا مش محتاج تهديد لأني مش ناوي أزعلها، بس ما تنساش إن المشاكل حاجة طبيعية في حياة أي زوجين وهما برده اللي طبيعي يحلوها مع بعض من غير تدخل أي حد.

وكانت له الكلمة الأخيرة، بعدها تدخل العاقل الكبير ثانية، هو يوافق بل وقلبه مطمئن، يثق بالفتى ويعلم أن بساطته وردود أفعاله المباشرة النابعة من شخص واضح، صريح وشهم تعني أنه يستحقها..

موافقتها وتلك الوجنتين المتوردتين، الابتسامة الطفيفة.. اللمعة في عينيها وشيء من الراحة لمحه في سكونها وهدوئها، كلها أضعفت عزيمته وشعت بالقبول في نفسه؛ لذا فعليه التأثير على أخيه الناري.. لأجلها هي وفقط.

******

كان يبحث عن راحة، اطمئنان، تأكيد أن كل الأمور بخير، بينما هي تكتفي بردود مقتضبة، وبسمة تحاول إقناعه بها أن موافقتها عن اقتناع وليس عن خضوع لموقف مكبلة به روحها المكلومة فباتت تنبش عن متنفسٍ أيًا كان..

همس لها بنبرة راجية:

- سارة.. أنتِ متأكدة إنك مستعدة؟!.. ما حدش يقدر يجبرك على الجوازة دي، أبدًا..

رفعت إليه عينين هادئتين، تريحه بجواب لم تجد غيره:

- زياد بيحبني، واختارني أنا.. عارفة إني هاحس معاه بالأمان، ما تقلقش عليَّ.

وكأنه يستجديها الرفض:

- بس ده مش كفاية يا سارة.

امتلأت مقلتاها بالأسئلة فأوضح:

- ما تتجوزيش عشان هو حد كويس، أو عشان بيحبك وهتعيشي معاه في أمان.. لازم تكوني بتحبيه عشان الحياة تستقيم بينكم، عشان يكون في توازن وتقدروا تكملوا.

يضغط شقيقها على جرح لا يعلم بوجوده حتى، ابتسمت تحاول دفع الوهن الذي يغمرها:

- مصيري أحبه، هو يستاهل.

هز رأسه بيأس، لا يفقه معنى إصرارها ولا إصرار والدته، لا يتفهم موافقة أخيه، الموقف كله يثير جنونه، يحضه على القيام بمذبحة يقتل فيها كل من يقترب من صغيرته، يختطفها ويحبسها بين ضلوعه وهذه المرة على من يريد أذيتها أن يعبر فوق جثته أولًا لأنه سيكون له بالمرصاد.

"في إيه يا أدهم؟!.. عريس وإنسان كويس الكل بيمدح فيه، وهي وموافقة حتى أخوك الكبير موافق، أنت معترض ليه؟!"

صوت والدته أجج المزيد من غضبه، لا يفهمها.. بل لا يفهمهم جميعًا، أخرجته همستها الواهنة من تصلبه أمامها:

- أنا قلت له.

صمتت "فريدة" ولم تعلق.. هي تعلم أنه يعلم، ويوافق، واشترت وهو باع.. لكن أخيها، تطلعت لوجهه بترقب تنتظر رد فعله الذي جاء مستنكرًا بذهول:

- إيه!!..

امتزجت نظراتها بنظراته تحاول طمأنته:

- كان لازم يعرف.

الحروف تحشرجت في منتصف حلقه، لا يستطيع النطق وتعبير وجهه هو فقط عينين متسعتين دون إدراك صحيح للموقف المحيط به، وجدها تكمل همسها بانكسار:

- اللي حصل لي مش عارعشان أخبيه، حقه يعرف.

الآن هي من تذر ملحًا فوق جرحه، بخطوة واحدة واسعة كان يعتصرها فوق صدره، يمسد ظهرها بخشونة بعض الشيء، أنفاسه ثقيلة وهو يهمس في أذنها:

- أنتِ عارفة إن ده مش قصدي.

أبعدها قليلًا يغوص في عينيها بتساؤل قلق:

- كان رد فعله إيه؟!

ابتسمت برضى حقيقي:

- لو أنت مكانه هتعمل إيه؟!

ظل يأسر نظراتها بعينيه، أردفت تحاول إنهاء الحوار العقيم الذي تدور في حلقته المفرغة دون مخرج:

- أنا مطمنة يا أدهم.. مش ده كفاية عشان تطمن!!

لم تمنحه أمه الفرصة ليجيب بل تدخلت تغير الموضوع برمته:

- أكيد هيطمن يا حبيبتي، أنا عاوزة فرح كبير قوي، فرح الناس كلها تتكلم عنه، إعلانات في المجلات، ودعوات لكل معارفنا.

نظرت إليها "سارة" برفض ولسانها يتمم ما تقوله عيناها:

- لا يا ماما، أنا مش عاوزة فرح خالص، حاجة بسيطة، مش عاوزة.. مش حاسة.. أنا...

تعثرت الكلمات تأبى الخروج، ترى نفسها لا تستحق، ترفض ثوبًا أبيض اللون بينما امتلأت روحها بالسواد، لا تبحث عن فرحة مفتعلة بينما هو مجرد زواج لا يزيد عن ورقة تربطهما بعقد موثق وتضفي على ما فقدت صبغة شرعية اجتماعية لا تعترف بها هي، لمح أخيها تتابع المشاعر على وجهها.. الانكسار، الذنب، الاشمئزاز، القنوط وانتهى بالرفض.. حين حاولت أمه إقناعها تدخل هو بحسم:

- لا يا سارة.. هنعمل فرح كبير، حاجة أنتِ تستحقيها..

وربت على وجنتها بكفه يحتويها بين أصابعه، قبل رأسها بحنو وأكمل بقلب حزين:

- فرحة أنتِ تستحقيها.

تشبثت به بضعف ضاعف أوجاعه، تبحث فيه عن أمان مفقود، عن ثقة ضائعة، عن سكينة تهفو إليها نفسها المشتتة المكسورة، ضمها إليه يمنحها

ما تحتاج بصمت مستسلمًا في نهاية الأمر لرغبتها.. بل ورغبة الجميع، لعله هو الوحيد ذو رأس الثور الذي يتصرف بتطرف كعادته.

******

هي تفهم ذلك السعير الذي يحرقه، من غيرها تستطيع استيعاب طوفان مشاعره عندما يهيج!!.. حممه عندما تثور فتندلع خارج فوهة البركان تحرق في طريقها الأخضر واليابس، تقضي على كل ما يوقعه حظه العاثر في مواجهتها!!..

هو حائر، غاضب، مستنكر.. وما يحنقه ويثير سخطه أنه مجبر على الاستسلام لأنها تريده وتوافق عليه، يبغي إدخال السرور على قلبها حتى لو رفضه هو، على قلب أمه النازف، وأخيه الصامت دون شكوى، يريد للفرح أن يطرق بابهم من جديد بعدما استوطن الحزن حياتهم فأحالها لبؤس لا يرى فرارًا من مخالبه سوى بالاستجابة لها.

هو حتى لا يشعر بمراقبتها له بينما يستلقي فوق الفراش على ظهره يتأمل السقف ولا يراه، عقله بأفكاره وخلاياه وجنونه في واد آخر لا تعلم له طريقًا، همست باسمه بهدوء جعله يدير رأسه نحوها، احتوته بابتسامة رقيقة:

- ما تفكرش كتير، خليك واثق في اختيارها.

تنهد بكلمة تؤرقه:

- خايف عليها.

اقتربت منه أكثر تربت على كفه:

- مش أنت سألت عليه؟!

صمت مفكرًا، يجيب بداخله قبل الرد.. نعم لقد فعل، وما وصله يعزز موقفها هي.. لكنه قلبه الذي أصبح يرتجف كلما كان الأمر يتعلق بها:

- أكيد.. الولد كويس من عيلة لها اسمها، من اسكندرية بس نقلوا القاهرة وهو صغير، بعدها بكام سنة كانوا مسافرين وعملوا حادثة، باباه ومامته الله يرحمهم وهو عاش، خاله الموجود هنا رباه مع ولاده، له عمة واحدة بس عايشة في اسكندرية لسه..

وزفر بحنق:

- طبعًا لسه دفعة السنة دي، بس بعد التخرج على طول فتح مكتب هندسي في مدينة نصر مع واحد زميله.

ردت بتفهم تحاول دفعه للقبول بالأمر والتغاضي عن غضبه غير المبرر:

- طيب الحمد لله، ما دام كويس يا أدهم وهي راضية خليك جنبها وساندها، هي محتاجة ده دلوقتِ.

تأملها بسكون متجهم، يدير الأمر برأسه، يحاول دفعه ناحية منطق يقبل به عقله، ترضى به نفسه، وبنفس الوقت تكون فيه سعادتها.. ربتت على وجنته برقة فتمتم بقلق:

- سارة قالت له على...

لم يكمل وبالطبع هي فهمت، تساءلت بعينيها فأجاب:

- بتقولي بيحبها، وحاسة بالأمان معاه.. خايف عليها، خايف ما يقدرش يحتويها أو يعاملها صح.

ونظر إليها بعينين تسيل منهما الأسئلة أنهارًا، تفهمت موقفه وعرفت ما يقصده، سألته:

- يعني لو أنت مكانه هتعمل إيه؟!.. الإنسانة اللي بتحبها واتعرضت لموقف زي ده، هتسيبها ولا هتكمل؟!.. هتحتويها وتقدر ولا لأ؟!

أجاب بحسم قاطع وسريع:

- أكيد هاكمل، هاكون دنيتها اللي تاهت منها، وآخد بإيدها عشان ترجع حبيبتي من تاني.

عادت تربت على وجنته بدِعة:

- خلاص.. اطمن.

منحها نظرة ممتنة، يحاول هضم الحكاية، ابتلاع مرارة موقفه واضطراره للموافقة على ما يرفض فقط إرضاءً لها، يدور في دوامة ماذا لو!!.. هل لو عاد بالزمن، وكانت صغيرته كما هي، تشع بالحياة والأمل؛ تقدم لها هذا الـ"زياد" خاطبًا ووافقت، سيوافق هو أيضًا ليسعدها؟!.. أو بالأحرى، هل كانت هي ستوافق دون مشاعر له بداخلها؟!..

يتخبط في حيرته أكثر، يفكر، عقله يعلن الثورة، قلبه يطلب الهدنة، وتائه هو فيما بينهما..

******

"عشان كده سكت الفترة دي كلها!!"

تقف أمامه كلبؤة شرسة تدافع عن صغارها، تكاد تمط جسدها علّها تصبح أطول قامة فتوازي الفارق بينهما، وتجابه عينيه الجامدتين بنظراتها الحادة المتهمة، تكمل بعنفوان غاضب:

- بتشتري سكوتك بجوازك منها؟!

انعقاد حاجبيه أنبأها أنها خاضت في مستنقع خطر وقذر، نظرته الجامدة تحولت للشراسة الممتزجة بقسوة أخافتها، نبرته الساخرة عادة تبدلت لهمس بارد أشعرها بصقيع جمد أطرافها:

- دي مش أخلاقي يا آنسة علا.. لولا إنك بنت كنت..

كانت قد استردت شيئًا من أنفاسها التي أهدرتها عيناه المخيفتين:

- كنت إيه؟!.. ضربتني مثلًا!!

لم يجبها بحرف، اكتفى بتعبير يعني "نعم.. بل وأكثر". لم تستسلم، تحدته بعناد ساخر:

- أنت كنت عاوز تتجوزني من كام شهر بس.

وبنفس الجمود أجاب:

- كان عرض واترفض.. نقطة وسطر جديد.

ضمت قبضتيها كأنها تريد لكمه وتحاول التماسك:

- ليه اخترت سارة؟!

ببساطة منحها الرد الغامض كعادته:

- دي حاجة بيني وبينها..

هي يائسة، تخشى عليها كابنتها رغم تقارب السن، تعلم ببرائتها التي لم يلوثها الزمن، ولم ينل منها حادثًا كاد ينتزع منها الحياة، مهما حدث تبقي "سارة" هي "سارة" لن تتغير، ولن يطالها دنس..

لمح خوفها على ملامحها، تلتمع به نظراتها العاجزة ونبرتها القلقة:

- عاوزة أطمن عليها.

التوت شفتاه ببسمة حاول جعلها مطمئنة قدر استطاعته:

- سارة في أمان معايا.

هي لا تشك به، كل ما قالته سابقًا كان بدافع الخوف، بغريزة الحماية التي تشمل صديقتها الوحيدة، تعلم أنه شخص جيد، لكن تلك الناعمة الرقيقة، حبيبة صديقه الذي سيخسر صداقته بالتأكيد.. لا تصلح له، هو المندفع العصبي حاد الطبع.. ترددت قبل أن تنهي الحديث وترحل:

- سارة زي البسكوتة؛ ممكن بسهولة قوي تكسرها، تفتتها.. أو تخليها تدوب فيك.

علقت الكلمة بأذنيه.. "تذوب فيه!!".. وهل هو زواج طبيعي، حياة حقيقية!!.. ليطمح من ورائها في مشاعر لم تولد من قبل ولا يظن أنها قد تفعل، تابع خروجها الشارد وعاد لأفكاره المتشابكة هو الآخر.

غادرت هي، تفكر بتوتر.. لو تدخلت وأخبرتها عن طلبه السابق؛ ماذا ستظن؟!.. بل ماذا سيظن هو؟!.. ستولد بداخله أفكار غير واقعية، والنتيجة بالتأكيد سلبية عليهما معًا.

قررت الصمت، تدعو.. تتمنى، تبتهل لأجل المسكينة التي عانت ما لا يقدر على تحمله بشر، وها هي تنهض، تتمسك بالحياة، تبحث عن أنفاس جديدة تنعش بها صدرها المختنق، لا تحتاج لتدخلها، لا تحتاج لماضٍ لن

يفيدها.. فقط تحتاج لصفحة جديدة تنقش فوقها المستقبل.. مستقبلها هي الذي كانت تحلم به وتتخيله دومًا.

******

أحد أفخر وأكبر فنادق العاصمة، حفل زفاف سليلة عائلة "الحسيني" على نجل عائلة "الأنصاري".. الدعوة تشمل كل الأحبة، والفرحة موزعة بالتساوي..

فقط العروس وأخويها وقلة حولها يمتلئون بترقب، رغم ملامح البهجة المرسومة بحرفية على الوجوه..

"زوجتك موكلتي"

لم يطُف بخيالها يومًا أن يسلمها لزوجها أحدًا غير والدها..

"قبلت زواجها"

ولم تظن أنها قد تتزوج رجلًا بخلاف من نبض قلبها له منذ الوهلة الأولى التي التقت فيها بمنجم الذهب القابع بين جفنيه..

تتابع بشرود وتيه، ستصبح زوجة.. وزوجها ليس هو ذاك الرقيق الحالم الذي وعدت خافقها به، بل آخر كتوم، خشن حاد الطباع، عصبي على الدوام.. والمفاجأة أنه هو من قبِل بها.

في مقلتيه سواد ليل مخيف، يشع بلمعة غامضة لم تفسرها أبدًا.. والآن عندما نطقها بكل وضوح وحسم ليعلن بها ملكية، ومد يده ليوقع الميثاق؛ لمحت نفسها هناك للحظة ثم تباعدت الأعين لتعود هي لضياعها وهو لجموده.

(٢٥)

بداية

ليس كل احتياج قابل للإشباع..

وليس لكل عطش ارتواء..

كما أنه ليس من كل ضياع رجوع..

فليت الأمس لم يحدث..

وليت اليوم لا يطول..

قد تأتي النهاية من حيث لا تتوقعها..

وقد يتمخض رحم قسوتها عن.. بداية..

بداية لا تخيب فيها الظنون..

وبها يمتنع سيل الدموع من.. الهطول..

تزوجت!!..

هكذا ببساطة، فعلتها وأصبحت ملكًا خاصًا وكاملًا لأحدهم.. كل ما يعلمه عنه أنه أحد زملائها بالجامعة، يعمل مهندسًا معماريًا بعد تخرجه، وقد تقدم لها قبل ما يقرب من الشهر ونصف..

تزوجت كأنما لم يحدث شيء!.. وبعد مرور أربعة أشهر أو أقل على وجودها بين ذراعيه في استسلام تام، وملكية لم يحظَ بها أحد من قبله.. لكنها وبكل يسر منحتها بأريحية لشخص آخر..

آخر غيره!!..

لم يصدق نفسه عندما وقعت في يده الدعوة الخاصة بعائلته ولمح اسمها في خانة العروس!!.. لقد فعلتها، تخطت ما قام به رغم أنها لم تعلم أنه هو..

في الزفاف اقترب منها مهنئًا، حياها بابتسامة وعينيه تتفحصان خلجاتها وحركاتها المرتابة،؛ تابع بؤبؤيها القلقين، ودورانهما المحتار في كل مكان لا يملكان مستقرًا آمنًا سوى لقائهما بنظرات أخويها المتأهبين لأي إشارة منها..

ومقطب الجبين الجالس بجوارها ببذلته السوداء وجسده المتحفز، كأنه يبحث عن حرب ما ليخوضها..

أتراه يحبها!!.. أتراه يعلم؟!..

كم شعر بالغضب عندما لمحها تبحث وتتشتت مقلتاها هنا وهناك.. فقط سكنت بهدوء عندما ضمتها نظرة زوجها القاتمة.. رغم حدة ودُجْنة عينيه.. لكنه بعث لها بإشارات مطمئنة لم يدرِ كيف!!.. لقد وجدت لأمانها مرفأً تحط عليه..

وهو!!.. المفترض أنه في خانة القوة، من سلبها كل شيء، تهاجمه كوابيسه في كل ليلة بصورتها، بهمسها، بعسل عينيها الغارق في الشجن وأحيانًا المستعر بالنار.

انتقى ركنًا مظلمًا لا تصله الأضواء الراقصة وقبع يراقبها، لا تنفلت من بين جفنيه نظرة إلا لتطوف حولها، يتأمل كل حركة تقوم بها، كل بسمة خافتة، كل حيرة تنوء بحملها ملامحها وكل خوف استشعره رغم بعد المسافة..

لقد تعثرت.. أو بالأحرى سقطت داخل حفرة في قلب الجحيم لا قرار لها، ثم نهضت، لملمت أشلاءها المتناثرة.. تقوت بدعامة لم تحظَ بها من فعل فعلته لأجلها، عادت متوردة الوجنتين مطمئنة حتى عندما تنبعث منها شرارات فزعٍ بين حين وآخر.

وفتاته الفاتنة، تتنقل بين المشفى الذي ترقد فيها الشيطانة والدتها كجثة، وبين العمل وذلك الشرس الذي سلبها أكبر نسبة من أسهم الشركة.. رجل

الأعمال الملقب بالكوبرا؛ "فهد الراجي".. وكعادته دومًا بطريقة قانونية لا غبار عليها، ولا يمكن مراجعته فيها.

ود لو وقف إلى جوارها وساندها لكنها ترفض قربه وتقربه، تنأى بنفسها عن تملقه، وبعد كل شيء؛ لم يصل لشيء.. والمحصلة، عمل مجاني يدفع هو ثمنه كل ليلة.

طوال الأشهر السابقة كان يترصدها، أطلق عليها "لعنته" الخاصة، يكاد يعد عليها أنفاسها، ويسب اللحظة التي قرر فيها أن يقدم على جريمته كما يجب أن يعترف ويسميها باسمها المناسب، فلا عادت عليه فائدة ما.. ولا هي استقامت حياتها في طريقها القويم..

يكاد يجزم أنه بهويته المجهولة بطل لياليها كما يحدث معه تمامًا.. لكن فقط من زاوية نظر مختلفة حتى لو كانت النهاية واحدة لهما.. الهرب، الخوف، والاستيقاظ المذعور.

تأمل همسات صديقاتها المرحة، جذبهن لها لحلبة الرقص..

وابتسم ساخرًا كأنها ستفعل!!..

ثم تشجيعهن لها على رقصة حالمة مع زوجها الذي يشع غموضًا، رفضها القاطع، نظراته المبهمة، ثم رفضه بابتسامة لم يفهم معناها إلا مع ضحكاتهن وهزات الأكتاف التي توحي بسعادتهن..

"هو يرفض بدواعي غيرة، يغار عليها ويحيطها بعينيه طوال الوقت كأنه يحميها من هجوم ما قد يحدث في أية لحظة"..

وأقر معترفًا وبيقين.. الرجل يعلم، لابد وأنه يعلم، وإلا فلمَ يظهر عليها ذلك السكون كلما همس لها بكلمة، أو منحها لقاء أعين!!..

بعد وقت ليس بالطويل شعر بالاختناق خاصة مع متابعته لشقيقته المتهورة تراقص أحد أصدقائه بطريقة لم تعجبه، عزم على الرحيل، وقرر أخذها معه رغم معارضة والديه، أوصلها للمنزل وتركها هاربًا حيث يعود لمحيط وحدته التي يصرخ فيها بما يجول داخل صدره فيحيله لشعلة متوقدة لا تنطفئ.

ضرب المقود بقبضته عدة مرات متتالية حتى كاد يخلعه من مكانه، سب وشتم وصرخ..

تبًا!!.. بل كل لعنة يمكن صبها فوق رأسه؛ على حياته التي انقلبت، وعلى تلك الصغيرة البريئة التي لا يشغل غيرها باله.. عقله، وكل خلية في جسده الذي.. يتوق لها.

******

دومًا الأقدار تختار لنا الأصعب.. تعرف عن طاقاتنا الخاصة، عن قدرتنا على التحمل، فلا تكلفنا ما لا نطيق رغم قسوة الوجع حينها، وحرب الأفكار التي تفتك بالعقل والروح..

لنبتئس.. نستسلم، نضعف، ونركن لخيبة الأمل واليأس.. نقنط من رحمة الله رغم أننا لم نسرف، ورغم أنه لم يكن هناك ذنب واضح على الأقل..

وفي عمق الظلام ينبعث خيط من نور، لا تدري من أين أتى!!.. من وضعه في طريقك؟!.. ولا حتى إن كان يناسبك أم لا!!.. لكنك فقط تهرول نحوه، تتشبث به كأنه الحياة، وتحاول الانتماء إليه فربما تبدأ معه من جديد..

وهي فعلت ذلك، هو رفض، حاول إثنائها مرة ومرات، وضع في طريقها كل الحلول المتاحة لكنها أصرت عليه في النهاية، وأحجمت إلا عن مصيرها معه ولا يستطيع التفكير في سبب واحد لذلك..

تخبره عن حبه لها، عن ثقتها به، واطمئنانها معه.. ويصدق، يقنع قلبه، يسكن عقله، ويمنع جوارحه من المعارضة بكل ما أوتي من قوة.. فالحق الأول والأخير لها، هو يدعم ويساند وينصح ثم يترك لها حرية الاختيار.. والقرار.

وقفت أمامه في غرفة المعيشة بالشقة التي يمتلكها زوجها وأسسها على ذوقه لاستقبال عروسه، بثوب زفافها الملائكي وهالة الرقة والضعف التي تحيط بها فتثير بداخله جنون غريزة الحماية حتى يود لو يخطفها ويلكم ذلك الغامض ثم يرحل بها هاربًا، يخفيها عن الجميع ويؤمن لها كل أمان واطمئنان تحتاج إليه.

ابتسم لها وتقدم نحوها خطوتين، أمسك بكفيها يقربها منه، انحني طابعًا شفتيه فوق رأسها بحنو:

- مبروك يا سارة.

لمعت عيناها بدمعة حبستها بصلابة، بادلته البسمة كأنما ترغب في بثه شيئًا من السكينة التي يحتاجها هو الآخر.. مثلها تمامًا:

- الله يبارك فيك يا أدهم.

مد ظاهر كفه يلامس وجنتها، يتأملها باحتواء تجود به عيناه لها وفقط، يناظر المكان من حوله وباعتراف ليس من السهل عليه نطقه لكنه فقط يبحث عن كلمات:

- ذوقه حلو.

وسعت ابتسامتها عنوة، تحاول الافتخار به:

- مهندس بقى.

أحاط ابتسامتها ووجهها الناعم بنظراته، يبحث فحسب عن قطرة خوف بعدها سيعيدها معه وعلى من يعترض طريقه أن يحمل كفنه أولًا، اقترب يقبل رأسها ثانية ويهمس برقة:

- تليفوني مش هاقفله.

امتنت تشكره بعينيها، وتهز كتفيها تشاغبه علَّه يهدأ:

- أنا بقى هاقفل تليفوني.

رفع حاجبيه متظاهرًا بالدهشة، فأكملت بمرح طفيف:

- أنا ما نمتش بقى لي كم يوم، هاموت وأنام.

اتسعت ابتسامته، طمأنها وبحث عن سلام يخصه معها فكانت عطيتها بكرم تحاول وتحاول إدعاء الثبات والقوة لأجله هو، تعلم بضعفه الشديد رغم الجلد الظاهر عليه، رغم عنفه وردود أفعاله المتطرفة حد القسوة أحيانًا.. لكن قلبه أرق، أرق بكثير مما يحاول أن يظهر، وهي تشفق عليه من ذنب لا يد له فيه، فقط يقصم ظهره بحمله عنوة، دنت منه تنكمش فوق صدره، تربت على قلبه..

وتتمتم بحنان:

- اطمن.

سكن لتمتمتها بعض الشيء، سيغادر الآن ويتركها معه وحدها، يسعى لبعض الثقة بداخله في ذلك الفتى، يشعر به يشبهه كثيرًا، طيلة الشهر الماضي كان يراقب كل تحركاته، يقابله ويستعلم عنه ويدرسه بدقة وبطء، يبحث عن فهم أعمق لشخصه فحينها قد يسلمه طفلته وقلبه مرتاح..

حصل على مبتغاه، لكن فقط يبقى عمق مشاعره صاحب التأثير الأقوى والأعنف.. وهو يخاف، فقط يخاف.. حد رعب يزلزل روحه ويسقط دعامات يحاول الاستناد إليها ليكمل المسير.

******

"مش هاأوصيك يا زياد.. أنا عارف إنك هتخلي بالك منها وتحافظ عليها"

أحرف قليلة ومسئولية ثقيلة، حمل كبير لا يعلم هل لديه القدرة على تحمله، أم أنه سيقع تحت ضغط ثقله في يوم ما.. فينكسر، أو الأسوأ.. يكسرها!!

نظر لأخيها الأكبر أمامه ببسمة مطمئنة، ثم منحه وعدًا يقنع نفسه أنها قادرة على الوفاء به:

- أكيد يا دكتور آدم.. سارة في أمان معايا.

ويكرر كلمته، نعم يعلم أنها ستكون في أمان معه، لا يثق بنفسه كثيرًا.. لكن في الوقت الحالي هو يعرف خطوته القادمة، والتي تليها، والتي تليها، ليست بالحياة التي تمناها كرجل وحيد يطمح للحب والزواج والأسرة المستقرة التي حرم منها في طفولته، لكنها محض حياة؛ قد لا تدوم!!..

- أنت زي أخويا الصغير دلوقتِ، ما فيش داعي لدكتور دي.

قالها بابتسامة، تعلقت عينا "زياد" بها للحظة يستمد منها بعض الثقة فيما هو مقبل عليه، هذا قبل أن تنكمش فوق شفتيه ويحل محلها تردد أعاد له قلقه:

- زياد.. عاوزك تخلي بالك منها قوي، سارة قوية، أنا عارف إنها قوية.. بس أوقات بتضعف، بتخاف، والخطوة اللي بتاخدها لقدام بترجع فيها لورا.. عاوزك تكون معاها، عينك عليها ولو لقيتها بتتراجع تقف وراها وتسندها، تبين لها إن الطريق اللي المفروض تمشي فيه اتجاه واحد بس.. المستقبل.

فكر في كلماته وطنين يملأ رأسه..

"عينه عليها!!"

ماذا يعني؟!.. هل يمكن أن تؤذي نفسها!!..

تشتت نظراته أشعر "آدم" بمعاناته والأفكار التي ربما تشن هجومها على عقله في هذه اللحظة فربت على كتفه بلطف:

- أنا عارف إنك أدها.. إنك هتكون مصدر قوة جديد في حياتها، كون واثق من ده جواك لأنها هتحتاج منك ثقتك دي.

ابتسم، يطمئن نفسه والواقف أمامه أن الأمور ستكون بخير، أن قراره في محله، أن اختياره هو الصحيح حتى لو كانت تبعاته تقترب من حد المستحيل في صعوبتها..

صوت من خلفه جعله يستدير باحثًا عنها، لكنه كان شقيقها الناري يقترب منه بخطوات وئيدة ونظرة واحدة تحمل من التحذير قدر ما تحمل من الرغبة في شيء من السكينة والبحث عن سلام نفسي هو في أشد حالات العوز إليه..

علق "آدم" بهدوء يسبق كلام الآخر كأنه يعلم أنه سيخرج لهبًا من بين شفتيه كتنين غاضب بعد قليل:

- لميا وجمانة ومامتك روحوا مع عم إبراهيم، يلا بينا إحنا كمان.

وجه نظراته لأخيه قبل أن يكمل خطواته الحثيثة نحوهما، يزم شفتيه موحيًا بأنه يمنع نفسه من النطق بكلمات قاسية أو سباب ربما.. كأنه خطف منه طفلته لا تزوج أخته، وقف أمامه بتحفز جعل الأكبر يتحفز في وقفته هو أيضًا، وقبل أن يحاول إيقاف أي تهور قد ينطق به وجده يضع كفه على كتف "زياد".. يقبضها بشيء من قوة تشي بتهديد خفي ويهمس له بهدوء اصطنع منه قدرًا مناسبًا لكنه غير كاف:

- سارة أمانة عندك.. أنا مش هاأوصيك.. هاثق في اختيارها و... فيك.

لمعت عينا "زياد" بشيء من راحة رغم النبرة التي تحمل عدة معانٍ، كأنما مباركة هذا الرجل تعني له الكثير، منحه ابتسامة واعدة رصينة، فاكتفى بها وألقى نظرة نحو المنكمشة بجوار باب الغرفة البعيدة.. حاوطها بالدفء بين جفنيه ثم رحل مع "آدم" بتلكؤ كأنه مجبر.

أغلق الباب خلفهما.. التفت نحوها ببطء ثم اقترب منها يعد خطواته، يحسب لكل حركة حسابها لا يريد إخافتها أو إثارة اضطرابها، منحها بسمة رقيقة قبل أن يحادثها برفق مشيرًا نحو ممر جانبي:

- أوضتك من هنا.

نظرت إليه وسؤال يداعب مقلتيها فعاد يشير لباب على الناحية الأخرى:

- ده مكتبي وهيبقى أوضتي برده.

وتحرك بعدها نحو الممر، تبعته بصمت لتجد أمامها ثلاثة أبواب مقفلة..

سمعت صوته الخافت:

- دي أوضتك، ودي أوضة تانية ما حبيتش آخدها عشان تكوني براحتك.

رفعت عينيها إليه بخجل، وترددت بنطق اسمه:

- زياد!!..

استدار نحوها مستفهمًا فأردفت بارتباك، تبحث عن كلمات ولا تجد سوى أحرفًا عديمة الجدوى:

- شكرًا.

رفع حاجبًا واحدًا وابتسامته تزين شفتيه، انحنى نصف انحناءة يخفف من رهبة الموقف بداخلها:

- إحنا في الخدمة.

وتحرك مغادرًا المكان، تابعته للحظات حتى دلف لغرفته وأغلق بابها من ورائه ثم دخلت لغرفتها وأحكمت إغلاق الباب، تأملتها بتأنٍ.. ثم اتجهت نحو الفراش تستكين فوقه بثوبها.

أما هو فما إن أصبح وحيدًا حتى خلع سترته وفك رابطة عنقه بشيء من عنف، ألقى بنفسه فوق الفراش الصغير والذي بالكاد يحتوي جسده ثم همس لنفسه ساخرًا:

"مبروك يا عريس"

وأغمض عينيه يحاول النوم دونما اهتمام بما يرتديه، فقط يريد إغلاق جفنيه والغرق.. الإرهاق الجسدي والنفسي قد بلغ منه مبلغه.. وهو بالفعل يئن احتياجًا لقليل من الراحة.

******

انقباض شديد قاس، ليس في قبضتيه فوق مقود السيارة فقط، لكن عند قلبه الخافق بطيش بين ضلوعه، كيف تركها!!.. بل كيف سلمها له من البداية؟!.. سيعيدها، سيصعد الآن وينتزعها من منزله.. يسكنها صدره، ويقتل كل من يفكر في الاقتراب منها.

أفكاره كانت شديدة الوضوح على ملامحه، التهور المزمع ارتكابه، النظرة القاتلة، والأفعال غير المنطقية، لذلك أخرجه من صمته يدفعه نحو الرحيل قبل ممارسة أي جنون:

- أدهم.. اطلع يلا، هنبات هنا ولا إيه؟!

استدار نحو أخيه الأكبر، بعينيه تساؤلات كثيرة تثير غيظه وسخطه، كيف وافق على منحه صغيرته بهذه البساطة!!.. فقط بارك قبولها، وتقبل الفتى الغامض، وسلمها له بثوب أبيض وتاج يعلو رأسها كملاك بريء صغير يحتاج لكل حماية ممكنة..

وهذا الـ"زياد" لن يوفرها لها، لن يفعل.. هو فقط من يستطيع، وسيحارب ليكمل، نداء آخر وحديث ينتزعه انتزاعًا من أفكاره السوداوية:

- أدهم.. حاول تثق في اختيارها، ما تفكرش كتير، الولد كويس، انسان صريح وواضح واختارها هي رغم كل شيء.

نظر إليه بضيق ونبرته جامدة تشير لشرود عقله:

- صريح يمكن.. واضح لأ، وده اللي عامل لي قلق، غموضه بيخوفني عليها أكتر.

ربت أخيه على ركبته بإشفاق:

- مع سارة كل حاجة واضحة في عينيه، هو شخصيته كده، بس شخص مستقيم بيكتسب ثقتك بسهولة، المشكلة عندك أنت.. مش عاوز تثق فيه، أنت مش هتقدر تفضل جنب سارة طول الوقت، دخوله في حياتها هيديها دفعة، هيكون معاها وإحنا كمان فترجع زي الأول وأحسن.. الاتنين اختاروا بعض، والاتنين هيتحملوا مع بعض مسئولية الاختيار ده.

تساءل بتيه:

- هيفهمها، هيحس بخوفها!!.. هيقدر يتعامل معاه؟!..

تنهد "آدم" يحاول طمأنة نفسه هو الآخر، نعم يعلم أن الفتى شهم للغاية، صادق وأمين في ردود أفعاله، لكن له طبع حاد خشن، مندفع كالنيران التي تأكل ما يقع في طريقها حتى تأتي على كل شيء..

هل يثق فيه؟!.. نعم، لكن هل سيتفهم هو موقفها؟!.. لا يستطيع الجواب بتأكيد رغم الأمل، لذلك رد على أخيه المتلهف للعودة إليها:

- أنا متأكد إنه هيعمل اللي يقدر عليه.

وكان صادقًا، لقد منحه ثقته كما منحتها هي له، وعليه الآن أن يتحمل تبعات قراره، يأمل، يدعو ويتمنى.. ويكرر توقيعه على صك الثقة الممنوح بلا حدود.

******

قلبها لم يعد فيه متسع لألم جديد، ألمها عليه، على أخته، وحتى على والدته التي تدعي التماسك رغم العلاقة النارية بينهما.. كل هذا يعتصرها ويزيد أوجاعها..

اقتربت منه بتمهل، يقف أمام باب الشرفة يتأمل البعيد، كأنما يحاول اختراق الزمان والمكان والمسافات بعينيه فيصل إليها ويطمئن، أحاطت خصره من الخلف وأراحت وجنتها فوق ظهره، تجمد للحظة قبل أن يغلق جفنيه، يتنهد، ويجذب كفيها يفك حصارهما ويلتفت إليها، رفعت رأسها نحوه ببسمة رقيقة:

- حاول ترتاح.

ألقى نظرة خلفه عبر الباب الزجاجي ثم عاد يستدير نحوها، يزفر بحرارة تشعل روحه:

- مش قادر.

ليت باستطاعتها محو أحزانه وخوفه وقلقه بلمسة، كل ذلك الخوف على ملامحه، هذا القوي الذي كانت تهابه في يوم من الأيام.. الآن، ضعيف، خانع لظروف ضد إرادته، مستكين للألم.. يبحث فقط عن بعض الراحة:

- ليه مش واثق فيه؟!

ارتبك للحظة.. هو فقط لا يفعل، لم يبحث عن أسباب، قلبه ومشاعره وعقله وكل جوارحه لم تفكر مرتين، أخذت القرار ونفذت ولم تمنحه الثقة، ربتت على وجنته برفق:

- مش لاقي سبب؟!

ظهر الغضب في عينيه فأردفت بسرعة:

- وازن الموقف جواك.. ما دام ما فيش سبب يخليك ما تثقش فيه، وفي نفس الوقت برده مش قادر تديه الثقة دي.. يبقى خليك على الحياد، وثق في حاجة واحدة بس.. ثق فيها وفي اختيارها.

تأملها بصمت، يعقل كلماتها ويبحث عن مخرج يريح فؤاده الذي يلقي بنفسه كل لحظة تحت مقصلة الذنب، يحاول، يتفهم، يدفع عقله دفعًا، يتمنى ثم يتضرع لله..

في النهاية اصطنع ابتسامة خافتة بها شيء من انكسار، يعد بما يفوق طاقته لكن الوعد مزدوج:

- هاحاول.

نعم سيحاول، سيحاول منحه الثقة، وسيبذل الجهد للوفاء بهذا الوعد..

رفعت نفسها على أطراف أصابعها تمنحه قبلة خافتة همست قبلها:

- وهتقدر.

تشبث بها قبل أن تغادر ما بين ذراعيه، كم يفتقد قربها!!.. يشتاقها!!.. يبحث عن حنانها ودفئها واهتمامها!!.. احتواؤها الذي يحتاجه بشدة، ألم ممضٍ يمزق روحه يرغب بدفنه في غياهب أنوثتها لعله يتوه ويبتعد بعقله ولو لوقت قصير عن بركان الأوجاع الذي يصب بحممه داخل عروقه في كل لحظة.

قربها يضغطها بشيء من القسوة فوق صدره.. ينحني نحو شفتيها بأنين متحشرج:

- وحشتيني.

ولم تبخل بالطبع، تتفهمه، تدري بحاجته، من سواها يمكن أن يمنحه الأمان وبعض الراحة حتى يملك القوة ليعود.. حتى لو بعدها سيغرق نفسه في دوامة أفكاره مجددًا.. حتى ولو بعد حين!!..

******

كل هذا التوتر والارتباك.. الكثير من الاستغراب وشعور الضياع، الوحشة في مكان جديد ونوم لم يطرق أجفانها للحظة بل حرمها راحته ببساطة..

نهضت بتردد، كانت ترتدي منامة طويلة محتشمة، وضعت وشاحًا فوق رأسها ولم تعقده، ثم تقنع نفسها..

"هو زوجك، من الطبيعي أن تتصرفي بأريحية في المنزل أمامه"..

وتفك الوشاح، تتردد ثانية ثم تعيده وتقرر الخروج من جحرها الذي تختبئ داخله كأرنب مذعور.

الصباح، يوم آخر يمر، شمس تشرق فتبعث الدفء لتتعلق هي بخيط رفيع نحو أمل تبحث فيه عن غد أفضل، فتحت بابها ببطء هادئ دون صوت وتحركت في أنحاء البيت تستكشفه.

غرفته كانت مفتوحة في مقابلها، فراش مبعثر في ركن المكان، مكتب أنيق ولوح هندسي يشبه ذاك الذي امتلكه شقيقها يومًا، ابتعدت بعينيها كأنها تخترق خصوصيته عندما طرق مسامعها صوت قادم من الجهة المقابلة.. توجهت إليها وتوقفت بعد عدة خطوات مبهوتة تتطلع لظهره داخل المطبخ المفتوح.

يتحرك بسهولة، يتنقل من هنا لهناك ويصنع شيئًا ما بيديه في عناية، تساءلت بدهشة: "هل يطهو أم ماذا؟!"..

تنحنحت بخفوت مبحوح:

- صباح الخير.

ابتسم قبل أن يلتفت ليواجهها، كان يعلم بمراقبتها القصيرة له بعدما سمع خطواتها المرتبكة.. وربما الذهول الذي رأي بقاياه فوق ملامحها عندما نظر إليها وابتسامته تتسع:

- صباح النور.. ما تقوليش صحيتك بالدوشة اللي عملتها!!..

وتطلع للوشاح فوق رأسها بغموض دون تعليق، هزت رأسها بنفي رقيق وأجابت بصراحة:

- لأ.. أنا ما عرفتش أنام.

لم تأتِ بجديد، فقد ظل ساهرًا هو الآخر حتى الفجر، طيب خاطرها برفق:

- معلش، أوقات بتحصلي لما يكون المكان جديد عليَّ.

ثم عاد يلتفت ويلتقط طبقًا ما من فوق السطح الرخامي، يمد يده به إليها مستطردًا بشيء من مرح يزيح به جمود الموقف:

- فطارك.

ازدادت دهشتها وظهر ذلك بوضوح في نبرتها:

- عملت لي فطار!!

منحها بسمة هادئة تحمل مشاغبة طفيفة أخجلتها وهو يومئ برأسه:

- نوتيلا.. أظن العلاقة بين البنات والنوتيلا علاقة روحية أبدية.

ضحكة خافتة خرجت من بين شفتيها فتأملها بصمت لثانية قبل أن يسألها:

- شاي ولا نسكافيه!!

هزت كتفيها بحياء:

- شاي.

وكأنه كان يعلم باختيارها، عاد يلتفت ليلتقط كوبًا مليئًا بالمشروب الساخن ويشير إلى وعاء صغير خلفه موضحًا:

- ظبطي سكرك.

ثم حمل طبقًا يخصه يتحرك به خارج المطبخ:

- براحتك بقى، أنا هافطر في أوضتي وأكمل الشغل اللي في إيدي.

وغادر بسلاسة كما قدم لها إفطارها بسلاسة..

يتعامل معها بطريقة غريبة لا تفهمها، كأنه لم يصرخ في وجهها معنفًا يومًا، لم يغضب ويسخر ويتعامل ببرود!!.. وفي النهاية يأخذ دور الفارس النبيل، ينقذها من الغرق في براثن وحشية كادت تودي بحياتها.. ويحمل بين يديه طوق النجاة.

تنهدت بخفوت، كم تنشد الراحة.. تبعد عن ذهنها من تركته خلفها وتعلم بغيابه، تحاول رسم صورة لموقف.. أو مواجهة لابد وأن تحدث، لا تدري إلامَ ستنتهي أو حتى كيف ستبدأ؟!.. لكنها تخشاها وبشدة.

في شرودها أفلت منها الكوب فسقط محطمًا، تمتمت بلعنة ساخطة وهي تنحني تحاول لملمة القطع المكسورة، فجأة وجدته خلفها يهتف بقلق:

- حصل إيه!!..

نهضت واقفة بسرعة قبل أن يلتقط هو ما حدث، اقترب منها يبعدها آمرًا:

- سيبيه أنا هاشيله.

قلبه ينتفض بذعر، رباه!!.. هل يمكن أن تؤذي نفسها حقًا؟!..

تبًا لهذه الفكرة التي انزرعت في رأسه دون قصد على الأرجح، انتزعته هي من أفكاره بنبرة شبه غاضبة:

- الموضوع بسيط يا زياد.

التفت إليها وقد جذبته نبرتها المؤنبة، عيناها لامعتان بضيق بينما تكمل:

- أنا مش طفلة.. هاعرف ألم الإزاز المكسور.

تردد، يحاول التبرير:

- خايف بس تجرحي نفسك.

تحركت خطوة للأمام تخبره بها أنها من ستقوم بالمهمة:

- لا ما تقلقش.

راقبها تبحث عن شيء ما تلملم به الفتات المبعثر، شعرت به وراءها فنظرت إليه بغيظ:

- أنت هتراقبني!!..

ارتد للخلف بارتباك غير ملحوظ، قبل أن يجيبها ببرود:

- لا طبعًا.

ثم غادر وزفرت هي بحنق، لمَ كانت جافة معه بهذا الشكل؟!.. لقد كان يحاول مساعدتها فحسب!!..

ازداد غضبها فلملمت القطع بعنف ثم ألقتها بالقمامة وتوجهت نحو غرفتها بخطوات سريعة دون أن تلقي نظرة نحو بابه المفتوح، ودون أن ترى تلك اللمحة الغامضة التي اعتلت وجهه بينما تمر من أمام عرينه.

******

شعور العجز كأنما خلق لأجلها، تجمعت الغيوم الجافة في سمائها، اكتفت بحجب دفء الشمس.. فلا هي أمطرت لترطب جفاف قلبها، ولا هي تباعدت لتصلها أشعتها الذهبية وضوئها..

جلست على مقعد مواجه لفراش والدتها، تتأمل سكونها وصمتها، ارتجافة جفنها الأيمن الدائمة، وتلك النظرة التي تناشدها بها شيء ما لا تدري كنهه لكنه فقط ثقل آخر يضاف لأحمال روحها.

احتضنت يدها بين كفيها، تنظر إليها باهتمام، تواسيها بعينيها وتتساءل أكثر:

- هتبقي كويسة أنا عارفة.. مش فاضل لي غيرك ورغم كل حاجة أنا محتاجة وجودك.

تطلعت إليها الأم دون رد فعل، ولا حتى تسارع أنفاس..

أكملت بنبرة باهتة:

- أنتِ قوية يا ماما، هترجعي.. ناريمان هانم ما ينضحكش عليها.

لمعة في عينيها أنبأتها أنها على الطريق الصحيح:

- ناريمان ممكن تقع، بس في كل مرة بتقوم أقوى من الأول.

واقتربت منها بوجهها تحثها كأنما إرادتها ستمنحها الشفاء لو حاولت:

- أنتِ اللي هترجعي حقك منه، هتقومي تاني، وتسمعيني صوتك، تتخانقي معايا وتأنبيني وتعتبريني طفلة مش بتفهم حاجة.. هتكوني قاسية بس...

وتنهدت بألم:

- هتفضلي موجودة معايا.

انغلق جفنا أمها دلالة على موافقة ربما، أو حتى رفض لكنها تتفاعل معها وهذا جيد، دلف للغرفة أحد الممرضين، بدا في الأربعين من عمره، نحيل الجسد نوعًا ما ذو ملامح باهتة، تعامل بروية مع المحلول المعلق بذراع والدتها فابتسمت له محاولة إخفاء دموعها:

- ممكن تخلي بالك منها!!.. وأي حاجة تحتاجها تبلغني بيها؟!

بادلها البسمة بهدوء:

- أكيد يا هانم، ما تقلقيش.. العناية هنا في المستشفى على أعلى مستوى.

أومأت برأسها تتقبل حديثه، نهضت تقبل رأسها، تودعها وتغادر على وعد بعودة في اليوم التالي، استدار الرجل نحوها وعلق بنبرة مبهمة:

- حلوة قوي بنتك.. بس طبيعي مادام مامتها زي القمر.

والتمعت عيناه بينما تنظر إليه بعجز.. ابتسم وربت على كفها، رتب الفراش وأراحها فوق الوسائد بعناية ثم تركها وخرج.

******

"وقوع البلاء أفضل من انتظاره"

أمر معروف، ومن المؤكد أنه صحيح، فماذا إن كان البلاء بيده وهو من ينتظر تنفيذه ليثأر لنفسه ممن آذاها!!..

رهين محبسه القذر، يخطط ليل نهار، وينام على أمل أن يستيقظ على خبر يريحه، يخبره أنه حصل على ما سعى إليه، وأن من ألقى به في جب النسيان هذا قد نال ما يستحق.

اقترب منه رجله ببطء، وانحنى يهمس في أذنه بتأكيد:

- ما فيش فايدة يا أبو كمال.. برده هنأجل.

كاد يصرخ في وجهه، كلا.. لقد اكتفى، هو يتعفن في هذا المكان منذ أكثر من عامين، وهم يتنعمون في الخارج، يتزوجون وينجبون ويحيون بطريقة طبيعة بينما هو مجرد جرذ لا يستحق، كلا.. بالفعل هو قد اكتفى..

أمسك بتلابيب الرجل الضخم:

- سالم.. أنا جبت آخري، التنفيذ خلال أسبوعين وإلا خطتنا تتلغي، اللي اندفع ترجعه، واللي كان هيندفع تنساه، خليني أشوف ناس بتفهم تعرف تنفذ صح.

أبعد يديه بقسوة عنيفة آلمته لكنه أخفى ذلك الألم يجابه الفظ أمامه:

- باقولك إيه يا أبو كمال.. أنت عارف إني ما باتهددش، وعارف إني بانفذ صح، هتصبر وتخلص شغلك على نضيف، ولا هتروح تعك مع أي حد؟!

كان يعلم أنه على حق، سمعته تسبقه في أنحاء السجن، ليس هناك من لا يعرفه، ولا يثق في قدراته الإجرامية العاتية على تنفيذ أدق المخططات بحرفية..

رد من بين أسنانه:

- أنا صبرت كتير يا سالم.

مال الرجل نحوه ثانية يخبره بنبرة باردة:

- وهتصبر أكتر عشان ننفذ مظبوط.

ثم اعتدل بقامته الضخمة مردفًا:

- دلوقتِ كلهم عايشين في فيلا عليها حراسة، ولما حد بيخرج بيبقى معاه اتنين قبضايات زي الحيطة، يبقى نصبر ونخطط بالراحة، ولما يجي الوقت المناسب.. ننفذ صح الصح، ولا إيه؟!

هز "كمال" رأسه في استسلام، يعلم أن رجله على حق، يعلم أنه أضعف في هذا المكان من حرية اتخاذ القرار، ويعلم أن هذا هو المتاح..

لذا كل ما عليه هو تقبل الأمر الواقع والرضى به، حتى تحين اللحظة المناسبة، وعندها يفتخر بنصره، وينتشي بثأره.

******

الواقع!!..

لا مفر من مواجهته، كما لا مهرب من تقبله، أصبح شريكها وقضي الأمر، القانون في صفه ولا يحميها، هو لم يخالفه، بل استغل ثغراته بذكاء مكنه من تملك نصيب الأسد في شركتها، لذا فكل ما عليها هو القبول بهذه الشراكة لأن الحرب بكل معاركها ستكون فيها.. هي الخاسرة.

جلس أمامها عبر طاولة الاجتماعات، يتابع توتر جسدها بحدة صقر، والاثنان قيد الانتظار للشخص الثالث الذي سيعمل على خلق منطقة توافق بين الشريكين لتبحر بهما السفينة قبل أن تغرق.

دلف "آدم" للمكان بهدوء، على شفتيه ابتسامة دبلوماسية لا تعني أي شيء، ألقى التحية على الاثنين، وجاور "دينا" في مقعده، بدأ الاجتماع، محاورات تتسم بالصبر، محاولات إقناع، وفي النهاية موافقة على اندماج لا تملك في مواجهته سوى الخضوع.

عند رحيله أخبره بحزم:

- الشراكة قانونية يا فهد بيه، بس مش معنى كده إنها مقبولة، أنت بس لعبتها صح.

رمقه بنظرة غامضة ولمعة عينيه توحي بنصر يسعده:

- الحياة كلها لعبة يا آدم بيه، واللي عاوز يكسب، لازم يلعب بكل قوته.

واقترب منه يكمل بجدية:

- وأنا لعبت بشرف، ما خالفتش قانون، بس عرفت أخليه في صالحي، مش ذنبي إن الخصم مبتدئ.

كانت نظرة "آدم" جامدة وهو يرد:

- المرة دي خصمك هيختلف.

تحولت اللمعة في مقلتيه للعبث المقترن بالتحدي:

- يبقى اللعبة هتكون ممتعة أكتر.

ومال نحوه يستطرد بغرورمن يعرف قدره:

- اسم فهد الراجي إضافة لأي مكان يملكه.

لكن الواقف أمامه رد ببرود:

- واسم أبوالعزمش محتاج إضافات.

ضحك الرجل بخفوت، بدا مستمتعًا بالحواروهو ينهيه:

- يبقى خلينا نقول إن نتيجة الماتش تعادل.. سلام.

وتوجه نحو الصامتة فوق أريكة في طرف الغرفة المقابل لهما، تتشاغل بأوراق لا تعرف حتى مضمونها، انحنى نحوها بتحية فنهضت تردها بحيادية..

التقط كفها ولثم أطراف أناملها بقبلة همس بعدها بنبرة عميقة أبحة:

- شراكتنا بالنسبة لي.. نصركبيروشرف.

تمتمت برد لا تعلم ما هو، ولم يهتم، أهداها نظرة مقتحمة كأنما يعلمها أنه يقرأ أفكارها الشاردة بوضوح، ثم تركهما ورحل.

اقترب منها "آدم" متسائلا باهتمام قلق:

- دينا.. أنتِ واثقة من قرارك؟!.. ممكن نخليها حرب.

نظرت إليه وبداخلها ضعف تمنعه من الظهور بقوة:

- مش وقت حروب يا دكتور آدم.. وزي ما هو قال وأعضاء مجلس إدارتنا قرروا.. اسمه إضافة، يبقى خلينا نستفيد.

لم يعجبه استسلامها، لكنه قرارها في النهاية، ووصية أبيه كانت بالدعم، وها هو ينفذها، اقترب خطوة أخرى ومنحها بسمة أبوية حنون:

- لو غيرتِ رأيك!!.. أو احتجتِ أي مساعدة؟!.. أنتِ عارفة توصلي لي إزاي.

ابتسمت له ممتنة، واكتنفها شيء من إحساس أمان لم تستشعره إلا مع والد الواقف قبالتها، هو يماثله في الكثير من الأمور.. فيالحظها السعيد.. وكانت تسخر من نفسها، من ضعفها واحتياجها، تتمنى قوة خارقة أو ربما شيطان ما يتلبسها فتعود لما كانت عليه من قبل مع بعض التعديلات لتتناسب مع حياتها الجديدة التي انغرست فيها دون إرادتها.

"مساء الخير"

بصوته الذي يثير جنون نبضاتها، ونبرته التي شعرت فيها بغرابة لم تفهمها إلا عندما تلاقت الأعين، فرأت شعلة ما على وشك إحراقها وهو ينظر إليها وإلى المجاور لها بتساؤل..

ابتسمت له بحنين جذب عينيه إليها فابتسم في المقابل.

قامت بتعارف سريع، غادر بعده "آدم" تاركًا إياها لعملها كما أخبرته عن "مراد" الذي اقترب منها يضمها بنظراته، يحتويها بدفء أنامله.. ويبثها لهفته بقبلة في باطن كفها قبل همسته الحارة:

"وحشتيني"

(٢٦)

سأنال منك

في ليله عشق.. في ليلة عشق صيفية.. في لحظة حزن وحشية

ما أجمل أن أجد امرأةً

في ساعة ضيق

تشرق كالفجر على العينين.. فيغمرني شلالُ بريق

تتقاسم حزني كالأطفال فألقاها.. بيتًا وحنانًا وأمانًا ووفاءَ صديق

أتقاسم معها أيامي..

خبز الترحال..

كؤوس الفرح..

شموخ الحلم

وتؤنسني في كل طريق

تصبح بركانًا حين تثور

ونهرَ حنانٍ حين تفيق

تنتشل يقيني من شكي.. وتخلص عمري من سأمي

وتمد يديها خلف الموج.. وتحملني أشلاء غريق

"فاروق جويدة"

ثقافة الاعتراف بالخطأ فتصحيحه باعتذار فن لا يتقنه الكثيرون.. والأكثر لا يستسيغونه، بل يصبح محض ثقلٍ على النفس، وانكسارٍ لشموخ غرورها..

لكن.. كان لابد وأن تعتذر..

لم تجد سببًا واحدًا للتصرف بهذه السخافة معه، كل ما حاول فعله هو تقديم المساعدة، الاهتمام ومحاولة الاعتناء بها، وفي المقابل كانت هي جافة، حانقة وغاضبة لسبب غير معلوم.

أربعة أيام مرت على زواجهما، يعاملها بهدوء يقترب من الجمود؛ "زياد" في روتينه العادي، لم يعد ذلك اللطيف الذي داعبها عن غرام الفتيات بالشيكولاتة، وانتقى مشروبها المفضل دون سابق علم.

لا يزال يصنع لها فطورها وكل يوم بنكهة مختلفة، لابد وأنه يعلم عن يقين أنها لا تجيد حتى سلق البيض كما يقولون، تشعر به يحيطها بعنايته، يهتم

لأمرها ولكل شاردة أو واردة منها.. لكنها لا تقبض على عينيه في حالة تلبس فوق ملامحها أبدًا.

وهذا البرود يثير جنونها، حسنًا.. هو زوجها رغم كل شيء، نعم لا تحبه بل ومشاعرها ما زالت قيد أسر فتاها الذهبي، تحاول وتسعى لاجتثاث حبه الوليد من أعماق قلبها، تتحرك في اتجاهات عدة، وتحتار بشدة، في النهاية استقر رأيها..

"هذه ليست حياة!!"

عندما يزدحم قلبها بالأحاسيس حد الاختناق، ويداهم عقلها نوبات خوف من كل فكرة تحمل صبغة ذكرى خاضتها دون وعي، تضيع بين حاضر تغرق في لجة بحره بقبول دون إجبار وماضٍ كان انتزاعها من بين أمنياته أنينُ وجع..

لا بالتأكيد هذه لا تصلح لأن تكون حياة.

وبالتأكيد أيضًا ليس من حقها التفكير في رجل آخر ولو عشقته بينما اسمها اقترن باسم غيره مهما كان الدافع وراء هذا الاقتران..

تختلف المسميات وتتباين التعريفات فقط تظل النتيجة هي الأهم.. والمعادلة بكل معطياتها منحتها برهانًا واحدًا: هي الآن زوجة.. وذاك اللقب له مكانة لا تُمس.

زوجها العابس صامت، ساكن وبالتأكيد غاضب، تريد تقديم غصن الزيتون، ترتجي حياة ولو كانت قصيرة مؤقتة، ولو لن تظفر منها سوى بلمحات طفيفة تشعرها بالنبض، لذلك قررت أن تأخذ الخطوة الأولى..

بعد بحث سريع على الشبكة العنكبوتية، احتفظت بالوصفة على هاتفها، هي مخاطرة وتعلم، لكن يكفيها شرف المحاولة وربما تخرج منها بنصر ما.. بقيت حجة أخيرة وطرف خيط.

طرقت باب غرفته برقة خجول، حصلت على إذن الدخول ففتحته وتقدمت نحوه بتردد، يجلس على مقعد عالٍ خلف لوحه الهندسي، يخط باهتمام فوقه دون أن يلتفت إليها، تنحنحت تناديه:

- زياد!!

وضع ما بيده جانبًا واستدار إليها دون رد فعل معين، مدت يدها التي تحمل وعاءً زجاجيًا وطلبت بارتباك:

- ممكن تفتحهولي؟

نظر إليه بشك، التقطه منها بتساؤل شبه مستهزئ:

- مش معقول مش قادرة تفتحيه!!

وتأمر نفسها:

"تماسكي، هو حانق، وأنت تستحقين، والحجة طفولية لكن ربما يفهم منها ما تريدين".. لذلك لم تتردد أو تظهر ضيقًا:

- عادي يعني، أنت قفلته جامد شوية.

هز رأسه ولم يهتم، ناولها إياه بتعليق رفع من درجة غيظها:

- والمرة دي هتعملي ساندويتش ولا هتاكليها بالمعلقة؟!

كادت تدب بقدميها في الأرض.. هي ليست مدللة بالكيفية التي يظنها وستثبت له، لذلك ردت بعناد بدا له لطيفًا:

- لأ.. هاعمل كيك بالنوتيلا.

وتاليًا خرجت بخطوات واسعة كاد يستشعر فيها تحديًا ما لن يعود عليه بالنفع أبدًا، تابعها بعينيه وابتسامة تتخلل جمود وجهه عنوة قبل أن يعود لعمله بتمتمة ساخرة:

"الموضوع ده مؤكد مش هيعدي على خير"

تركها لساعتين، قرر بعدهما أن يرى نتيجة جريمتها في حق الإنسانية كما أسماها، تحرك بهدوء وقبل أن يدلف للمطبخ ناداها برفق عندما اقترب بغية إعلامها بوجوده دون إفزاعها كما اعتاد..

استدارت نحوه بعينين لامعتين ورائحة ما تداعب أنفه:

- باظت؟!

عقدت حاجبيها ترمقه بغيظ فكاد يضحك، تماسك وأشار بكفه، يدرك أن كل ما تقوم به ما هو إلا اعتذار ناعم يوازي رقتها التي يستشعرها في كل لحظة، لذلك سيصمت ويتقبل دون حرف.

عادت توليه ظهرها، تتجاهله أو تتظاهر بذلك، لم تشعر بنفسها إلا وسيل من الدموع يغرق وجنتيها المحمرتين.. الحرارة تشع من وجهها فلا تدري أخجلٌ هو أم غضب!!..

سمعت نحنحته تدنو كأنما ينبهها لدخوله حيز وجودها باقتراب غير مصرح به، على مسافة ليست بالبعيدة وقف خلفها ورفع نفسه ينظر من فوق كتفها لما تداريه بعناية عن عينيه، وكانت المأسوف عليها أمامها على السطح الرخامي ترقد في سلام..

يقسم أنه لم يرِد الضحك، جاهد وقاتل وحبس واصطنع اهتمامًا لكن كل هذا لم يكن كافيًا، والموقف كان فوق قدرته.. لذا لم تكن القهقهة الرجولية التي صعقت أذنها إلا ردَ فعلٍ قسري على الكعكة السوداء بين يديها.

حاولت الصمت، كتمان النحيب الذي يشج صدرها ليعلن عن وجوده، هزات كتفيها والرجفة التي تملكت من جسدها بينما يتأمل ظهرها أقلقته، انكسرت ضحكته وناداها برفق:

- سارة!!

لم يصله رد، فقط شهقة خافتة أخبرته أنها تبكي..

اللعنة!!.. كاد يصرخ بها، ماذا الآن أيتها المدللة؟!..

همس باسمها ثانية فكان الرد نهنهات متتابعة قصيرة وانحناء كتفين غاصت بينهما رأسها، قبضتيها متعانقتان فوق صدرها وصوت نحيبها يعلو أكثر في كل لحظة.

مد يده نحوها يحاول التربيت عليها برقة لا يمتلك منها شيئًا كما يعرف عن نفسه لكن كفه ظلت معلقة في الهواء لثوان قبل أن يعيدها إلى جواره، يناديها مجددًا، يراضيها، يعتذر عن ضحكاته وهي تبكي فحسب.

تملكته حيرة، وتملكها غيظ.. هو لا يملك ما يفعله، لم يعتد التعامل مع دموع الفتيات، لم يدلل إحداهن قبلًا أو حتى يهتم، وهذه الصغيرة تربكه بشدة، بخوفها وتشوشها، بضعفها الممتزج بقوة غريبة لا تظهر إلا وقت الشدائد، بنظرة عينيها التي تستكين عندما تتلاقى بنظراته هو كأنما يمثل لها أمانًا من نوع ما.. وكم يشعره ذلك بالفخر وبحاجتها إليه.

وهي.. لا تعلم لمَ تبكي!!.. وماذا إن احترقت الكعكة؟!.. لا شيء حدث، هو لن يهتم بالتأكيد، سيمزح قليلًا بسماجته المعتادة وينتهي الأمر.. فلمَ البكاء كطفلة يا حمقاء!!..

وكلما جاهدت لحبس دموعها وكتمان شهقاتها لم يزِد الموقف إلا سوءً، مشاعر انفجرت بداخلها فجأة فكان أن حطمت جدران سجنها بقلبها وقررت الفرار من أسر إرادتها لتنطلق حرة.. وفي وجهه هو.

كم كانت في حاجة للدموع، الكثير منها.. تشتاق للصراخ لكنه ليس في قائمة المباحات في هذه اللحظة، طوال الشهرين الماضيين ثابرت في مواجهة التغيرات التي طرأت على حياتها بصلابة، تدعي تماسكًا لا تملكه، تتناسى ما حدث وتدفع بنفسها للأمام، ترسم بسمة علّ بها تمحو آلام أخويها ووالدتها.. لكنها اكتفت، وتحطم السد.. فأغرقها السيل.

وجدته يمد يده يحاول جذب الصينية من يدها مرددًا بقلة حيلة:

- خلاص أنا هاكلها بس ما تزعليش.

أبعدتها عن متناوله، لا رد، لا كلمات.. طريقة التواصل المتاحة مزيد من الدموع التي كادت تفقده صوابه، ازداد ارتباكه.. انطلق لسانه باعتذار سعيًا لمنع عبراتها من الهطول:

- سارة.. أنا آسف بجد إني ضحكت.. معلش، بس يعني...

ولم يجد ما يتمم به جملته، الموقف لا يستحق كل هذا، بل كان مضحكًا بالفعل، وبدلًا من الرد بغضب تبكي فتسبب له الشلل عاجزًا عن تقديم أي شيء، مد يده من خلفها ثانية بهتاف محبط ونبرة أعلى:

- والله هاكلها، ما تقلقيش.. بس بطلي عياط.

لكنها عادت تبعدها ثانية، تدفع بحروف متحشرجة عبر حنجرتها المجروحة.. هو يقترب وهي تبتعد، ولا مفر من حرب صغيرة يسعى للنصر فيها..

كاد يلتصق بها فمدت يدها بحماقة تدفعه في صدره تحاول منعه من الدنو أكثر:

- زياد.. خلاص.

شعر بلمستها الطفيفة فانتفض مبتعدًا عنها، انكمشت على نفسها متراجعة خطوة، تمتمت بحياء قابضة يدها وهاربة بنظراتها:

- أنا مش زعلانة عشان ضحكت.

نظر إليها بلا فهم، عقد ساعديه أمام صدره واستند للخزائن من ورائه بسؤال جاد:

- أمال بتعيطي ليه؟!

عادت توليه ظهرها بهزة كتف لا معنى لها ولم يخرج منها صوت، أعاد سؤاله بحزم:

- ليه يا سارة؟!

تهدل كتفاها، جففت دموعها بمنشفة المطبخ دون أن تهتم، وهمست بخفوت لم يكد يصل لأذنيه:

- كنت محتاجة الدموع دي.. بس كده.

هز رأسه، لم يدعِ الغباء.. ولم يتهمها بتفاهة، كانت تحتاجها وهذا كاف..

البسمة المصطنعة موجعة، والتماسك الواهي في الظاهر قاتل عندما يختبئ خلفه ضعف وحرمان من شعور الأمان بمعدل تحتاجه أنثى مثلها، تنهد ببطء وتساءل ثانية:

- وارتحتِ؟

التفتت إليه بعينين متورمتين ووجه شاحب أيقظ فيه شعورًا بالحماية لم يمر به من قبل، اعتدل في وقفته بتحفز بدا غريبًا على الموقف وهي تومئ برأسها موافقة في صمت.. اطمئن قلبه قليلًا، قليلًا فقط، فالتقط من خلفه وعاء الشيكولاتة وملعقة، كسر الحدث الباكي بمرح جديد عليه هو الآخر:

- أنا باقول من البرطمان أحلى.

وضحكت برقة، تلك الضحكة التي تشبه رفرفة جناحي عصفور رقيق يسعى بجهد جهيد للتحليق بحرية، تأملها وابتسم فأخفضت نظراتها بخجل..

تغمغم محاولة تجاهل ارتباكها ولحظة ضعفها التي شهدها دون إرادتها:

- أنا هاخد الصينية عشان...

وقاطعها بمشاغبة:

- تتخلصي من آثار الجريمة؟!

نظرت إليه بغيظ فعاندها يستفز فيها الغضب.. بالتأكيد أفضل من الدموع، جذبت الوعاء والملعقة من يده، فتحته وبدأت في التهام الشيكولاتة بتلذذ طفولي، تحاول إثارة حنقه حتى كاد يتخيل أنها ستخرج لسانها له في أية لحظة..

هز رأسه في استسلام، تحرك يبارح المكان مشيرًا من خلف ظهره بسخرية:

- نضفي آثار الجريمة دي بضمير..

وانعقد حاجبيها مجددًا تلقي نحوه بنظرة قاتلة كادت تخترق ظهره كسهم حاد، ثم تتطلع حولها للمكان المقلوب رأسًا على عقب بيأس.. وهو مع خطواته المبتعدة ترددت همسة بداخله وعلا صوتها بشدة:

"لطيفة"

******

بعض من قراراتنا نتخذها بعشوائية حتى لو اعتدنا سابقًا حل المعادلات الصعبة، لا نخطط لها أو نعي خطواتنا قبلها جيدًا مهما اقتنعنا بمدى صحتها، ولأن كل قرار له ما يترتب عليه.. له تبعات لن نستطيع المماطلة معها أو الهروب منها؛ فقراره الجديد هو المواجهة..

لكنها مواجهة ملتوية بعض الشيء، الحديث هي أستاذة فيه، والتبريرات لا تنضب من عقلها، لذلك الخطة الجديدة.. هي نفسها القديمة، مع تعديلات لا تكاد تلاحظ ونهاية الخط.. امتلاك كلي وشامل.

يوم قابل برميلها الأجوف السابق تحداه، أخبره بثقة أنها ستكون له بكل جوارحها، أنه ينتظر بشوق لقاءً قادمًا يجمع بين ثلاثتهم.. وحينها ستكون الضحكة الأخيرة من نصيبه هو.

ثم عند أول معركة في حربه الصغيرة.. لاذ بالفرار، تراجع وولَّى الأدبار، أعلن الهزيمة واندحر بجيوشه كأي جبان، لكن اليوم.. وبعد الكثير من التفكير عاد لطريقه المقرر قبلًا، وانتوى التنفيذ وبحرفية أعلى هذه المرة.

كم مر من وقت لم يقربها فيه؟!.. أكان قبل حادثة أخته الصغيرة؟!.. لا.. بل قبل وفاة والده، أيضًا لا.. نعم..

وابتسم ساخرًا، منذ تلك الليلة التي وجدها فيها مع زوجها السابق بينما هو يضع مشاعرها في مواجهة المدفع ويسحب من لسانها اعترافًا بعشق يسكن قلبها نحوه ولا يموت.

وينهره ضميره معنفًا.. أنت أعمى أم ماذا؟!.. هل نسيت ما فعلته لأجلك، لأجل أختك؟!.. وجودها إلى جوارك ورتق ثقوب روحك الضائعة حين الحاجة، مساندتك واحتواء أوجاعك.. دفعك لاستعادة قواك الخائرة ومواجهة الصدمات بشجاعة وعنفوان!!.. لا تنسى، لأن النكران ليس من طباعك التي اعتادت تبجيل كل من كان سندًا لك وقت العوز.

لا تنسى والدفاع في خيالك مشروع ومباح.. غضبك منها لأنها لجأت إليك من ضعف أمام حياة سابقة لم تكن بالقصيرة.. هربت لحضنك أنت تطلب حمايتك.. اختارتك أنت وأنت تعلم أن هناك آخر كان يحوم حولها.. وربما آخرين لم تعلم بهم!!.. لا تكن قاسيًا في حكمك.. وحتى لو كان يا ما كان بفعل هروب فعاشا في سعادة وهناء إلى الأبد بيدك أنت.. ستصبح اختيارًا.

يبرر لها.. يبرر لنفسه.. والبداية خطوات تنتهي بملكية لن يتخلى عنها هذه المرة..

وقف يراقبها بتمعن، ملامحها التي تبدو مرهقة بعض الشيء، منظارها الطبي الخاص بالقراءة منسدل فوق أنفها، بين كل فينة وأخرى تزيحه للأعلى، خصلاتها بلون قهوته الداكنة معقوصة بحزم صارم ورباط مطاطي جاف أثارغضبه.. ترتدي قميصًا حريريًا بلون الخزامى دون أكمام.. وفي الغالب من الأسفل باقي ملابس العمل الرسمية المختفية خلف المكتب والتي لم تغيرها بعد.. تتابع وتقرأ باهتمام ملفًا مكدسًا بالأوراق بين يديها، وتتأفف بضيق كل عدة ثوان.

يراقبها منذ خمس دقائق على الأقل ولم تلحظه، العمل.. والعمل، ثم العمل.. مصدر انشغالها الأهم، وحين الغوص في أعماقه تفقد الشعور بما ومن حولها..

أهو يغار؟!..

يريد أن يكون مالك أفكارها في كل لحظة؟!.. يعود لخط سير أنانيته نحو من يرتبط اسمها باسمه؟!.. يصبح شخصه ما كان، يكون وسيكون؟!..

طرح كل الأسئلة خارج عقله ودفع نفسه في خطوة بنداء هامس اختص نبرته بعمق يعلم أنه يؤثر بها، رفعت عينيها إليه.. تتعلقان به كأنما تتساءلان عن سر همسته!!..

أخرج من جيبه اسطوانة صغيرة، أمسكها بين سبابته ووسطاه، وابتسم بمكر.. وها هي نظراتها تمتلئ بالدهشة التي تحاول كتمانها خلف رداء التحفظ والمنظار الطبي الذي يكرهه رغم أناقته..

تحرك ببطء نحو مشغل الاسطوانات المستقر في منتصف المكتبة الجدارية الضخمة التي تحتل حائطًا كاملًا.. دسها فيه فانبعثت منه الموسيقى الناعمة.. والكلمات التي اختارها بعناية لصاحبة الصوت الدافئ " Celine Dion"..

توجه إليها، وقف أمامها ومد يده في دعوة واضحة للرقص.. علا وجهها نظرة مستغربة فابتسم ثانيةً وجذبها إليه، سار بها لمنتصف الغرفة، قربها

منه، مد أصابعه يحرر شعرها ويشعثه بأنامله ثم يخلع المنظار من فوق أنفها ويلقيه خلفها على المكتب.. أحاط خصرها بذراع والثانية رفع بها كفها في مستوى كتفه..

بدأ يتحرك بها بانسيابية.. يضمها، يدور، يجبرها على تتبع خطواته، يلامس ظهرها برقة شغوف.. ويعود مع ارتفاع اللحن يلف بها بسرعة أطلقت منها ضحكة ناعمة قابلها ببسمة غامضة.. يميل بها، يقربها ويبعدها متتبعًا الكلمات.. في النهاية كانت الجذبة التي ألصقتها به، وتباطؤ الخطوات حتى السكون التام.. أحاطها في ضمة بعينيه فغرقت بين جفنيه.

أوقفها تستند لصدره، أنفاسها علت بعض الشيء مع الرقصة التي كشفت لها عن جانب آخر من زوجها الكتوم.. تحرك بظاهر أنامله يداعب جانب وجهها..

يعيد همس الكلمات دون نغم وسهام نظراته تخترقها:

You were my strength when I was weak"

You were my voice when I couldn't speak

You were my eyes when I couldn't see

You saw the best there was in me

Lifted me up when I couldn't reach

"You gave me faith 'coz you believed

تاهت.. وهو يعلم.. ابتسمت برقة امتزجت بنظرة منبهرة ولدت في مقلتيها اللتين تتأملان ذاك الرجل الذي يضمها إليه كأنها تراه للمرة الأولى..

اقترب أكثر، وأكمل همسه بحرارة فوق شفتيها:

I'm everything I am"

"Because you loved me

وكانت قبلة.. ليست كأي قبلة، كان ينتزع بها من خافقها الهادر في مقابل صدره اعترافًا.. اعتراف بأنه يتسلل إليه، يسطو على حجراته واحدة تلو الأخرى، يتحكم في نبضاته، بينما واحدة منها تتفلت مناجية اسمه..

اعتراف أنها لن تملك أمام طوفانه سوى الخضوع..

******

قبل أن تفتح عينيها ارتسمت على شفتيها ابتسامة ناعمة تمطت بعدها في كسل، جسدها حبيس أحضانه وذراعه مستريح فوق خصرها بينما ظهرها يلامس صدره ويكاد ينغمس في دفئه.. تفرق جفناها بصعوبة بعد ليلة طويلة مرهقة..

ابتسمت مجددًا، لقد منحته نفسها بطريقة مختلفة، لا كأنثى تعلم بأنوثتها.. لا كزوجة تعلم بحقوق زوجها.. لا كامرأة تريد احتواء أوجاعه ومحو أحزانه..

بل كمشتاقة كانت تفتقد من سكنت إلى جواره وشعرت معه بالأمان، أدارت وجهها تنظر لملامحه الساكنة المرتاحة بهدوء، تحركت برفق تلتقط هاتفها تريد معرفة الوقت ولم تصدق نفسها عندما وجدته قد تخطى العاشرة صباحًا.

كادت تنتفض لكنها تماسكت قدر استطاعتها، أزاحت ذراعه ببطء، تحركت مغادرة الفراش، التقطت روبها الحريري ولفته على جسدها كيفما اتفق..

خرجت من الغرفة تقف جوار بابها وتجري اتصالًا عاجلًا.. ما إن أتاها صوت مساعدتها حتى عاجلتها:

- شروق.. ضروري ابعتي أستاذ سعيد قضية النهاردة يطلب التأجيل...

صمتت لثوان تستمع قبل أن تعقد حاجبيها في توتر:

- الجلسة كمان ساعة مش هاقدر أكون موجودة.. أنا عارفة إنه معاه ملف قضية تانية، بس...

وفكرت للحظة أردفت بعدها:

-خلاص ابعتي أستاذة سامية.. أيوة تأجلها يومين بس...

"خليها أسبوع"

همسة دافئة لفحتها بعدها أنفاسه الحارة عند أذنها وهو يحاوطها من الخلف، التفتت إليه نصف التفاتة بتساؤل أجابه بابتسامة:

- هنسافر كام يوم مع زياد وسارة.

توترت مع يديه اللتين لا تكفان عن العبث وهو يحادثها، شعرت بالتشوش تحاول التركيز في كلماتها مع الفتاة التي أتاها صوتها باهتمام قلق:

- أستاذة لميا.. أنتِ معايا؟!

تنحنحت تجلي صوتها وابتسامته تتسع، مد أنامله يزيح شعرها من فوق كتفها للخلف وانحنى يطبع شفتيه على عنقها بنعومة خاطفة بعثرت تركيزها وهي تجيب:

- أيوة يا شروق.. خليها.. بصي خليها تأجل أسبوع لأني هاسافر.. أو تأجل على أد ما تقدر.

وسكنت تنصت وهو يواصل عبثه حتى نهرته بعينيها فابتسم بشقاوة بدت غريبة أمام نظراتها:

- لأ.. يمكن ما أقدرش آجي فترة الصبح.. هاحاول على...

قاطعها همسه الشغوف:

- ما تحاوليش، ما فيش شغل النهاردة.

وتلعثمت:

- ها!!.. ماشي يا شروق.. لا خلاص ظبطي أنتِ، لو هاجي هابقى أقولك.. حولي أي مقابلات النهاردة على باقي الأساتذة عندك.

استمعت للرد، بعدها أغلقت الخط وهي تعاتبه بنبرة زاجرة:

- آدم..

أدارها لتواجهه ثم دفعها للخلف يسندها للجدار، يحيطها بذراعيه ويبعثر ما تبقى من تماسكها بشفتيه وهمسه الحميم:

- عيون آدم..

تنهدت بضعف، حاولت التحرر من قبضته لكنه ابتسم ثانية بتكاسل عابث، حملها بطريقة مفاجئة أطلقت من حلقها شهقة رقيقة قبل أن يعود لغرفة النوم بضحكة خافتة تسمعها منه للمرة الأولى.

******

اختلافٌ ما مربه!!.. اختلاف لا يمسك بخيوطه، لا يعرف أين تقع بدايته أو طريق مسلكه حتى النهاية!!.. لكنه يقلقه بقدر ما يبث في سكون روحه الحياة..

اختلاف يشبه البعث.. عنقاء قلبه تنهض من بين رمادها المحترق، تتجول في صحرائه القاحلة فتغمرها الغيمات بأمطارها.. تنبت فيها واحات نضرة تنبض وتنبض حد تلاحُق الأنفاس..

نعم هو مضطرب.. يشعر بحيرة.. بموجات تحمله معها للأعالي وتعود فتهبط به حتى الأعماق، يتيه فيما بينها ولا يكاد يفهم ما يحدث له، وعند محاولة الفهم.. تتشابك خيوط العنكبوت حول عقله فتمنعه راحة الإدراك.

هناك شيء ما فيه قد تغير.. لا يحب هذا التغيير.. لكنه يرغبه بقدر ما يخشاه، لا.. الأمر تخطى الخشية، تلك النبضة التي تحاول الفرار من أسره العتيد، من سجنه المؤمن بإجراءات مشددة، الأمر وصل لمرحلة الرعب..

وعند هذه النقطة يتغير التفكير ويستفيق العقل، ينشط من غفوته التي غاب خلالها في شهدها، حنوها، رقتها، قلبها الذي يعطي بلا حد.. ينهض ليعيد الأمور لنصابها الصحيح ويقتل فيه كل نبض.

زفر بغيظ يتذكر يوم وليلة أمس.. نعم كان رجلًا آخر.. لم يقابله من قبل أو يتعرف إليه، كان جامحًا لدرجة أثارت دهشتها واستغرابه قبلها.. ماكرًا لعوبًا ينالها مرة بعد مرة حتى أرهقها فهربت منه بدلال جعله يطاردها بشغف لا ينتهي، وهو لا يمل.

ما يعلمه عن نفسه أنه كان يحاول دمغ كل خلية في جسدها باسمه، وسمها ببصمته، إخضاعها لعنفوانه.. متتبعًا خيطًا رفيعًا رسمه بدقة نحو روحها

التي يشتهي تملكها، نحو قلبها الذي يتوق لأن تحمل كل نبضانه اسمه هو.. وما نسيه أو تناساه أن القاعدة العامة تقول:

"لكل فعل رد فعل، مساوي له بالقوة ومضاد في الاتجاه"..

هز رأسه برفض، سيتملكها حتى الثمالة، وستنال منه ما يمكنه منحه فقط، ليس هو من يقع في حفرة حفرها بيديه، بل ليس هو من يغلق على نفسه فخًا يدرك نهايته جيدًا..

نعم ليس هو!!..

"آدم"

صوت أخيه يناديه بنبرة أشعرته أنه ليس النداء الأول، استدار إليه بمقعده فوجده معقود الحاجبين يملأ عينيه القلق، ابتسم بهدوء:

- خير!!

جلس "أدهم" مواجهًا للمكتب وسأله باهتمام:

- مالك؟!.. كنت سرحان في إيه للدرجة دي؟!

هزرأسه ينفض عنه الشرود:

- ولا حاجة.. أنت كنت عاوز إيه؟!

غمره أخيه بنظرة متشككة ثم تجاهل الأمر بجواب وهو يرمي أمامه مظروفًا أنيقًا:

- هنعمل إيه في الحفلة دي؟!

لم يلتقط "آدم" المظروف، بل ألقى عليه نظرة خاطفة ورد:

- أنا مش رايح.. وأنت زي العادة مش هتروح، ابعت لهم شيك تبرع وخلاص.

أومأ "أدهم" برأسه موافقًا قبل أن ينهض:

- قررت هتروح فين مع سارة؟!

أجاب بحيادية:

- راس سدر.

عاد يهز رأسه، يعلو وجهه تردد محاه الأكبر بنبرة مطمئنة:

- أنا معاها.. إيه هتقلق برده؟!

حاول الابتسام:

- أكيد لأ.. كان بودي...

وحصل على مقاطعة تنهي الحديث المحزن كما في كل مرة:

- ونسيب الشغل لمين!!.. يلا روح وهابقى أكلمك من هناك على طول.

استجاب لرغبته، رحل ممنيًا نفسه براحة.. راحة قلب يذوق العلقم في كل لحظة.. ينزف بلا انقطاع، وتنطبق حوله الضلوع كلما مرت هي بذهنه.. واستشعر معها ذنبه الذي لا يموت.

******

القاعدة تقول:

"المستحيل وجد لينكسر"..

أو ربما قالها شخص ما يعشق التحدي!!..

فقط تحتاج لمزيج مقنن من العزيمة، قوة الإرادة.. الصبر والمثابرة، والقدرة على المواجهة، وهي تفتقر للكثير من هذا الخليط الصعب..

مستحيلها؛ ماضيها.. ذلك الماضي الذي ترغب في محوه تمامًا من قائمة الموجودات، من قائمة الذكريات، وليست ذكرياتها الخاصة فهذا قد تقطن الجحيم دون حدوثه، إنما هي عوالق مجتمع عقيم يشتهي فيها الخطيئة.. يوشمها بحبرها، ويناديها بالخضوع حتى يمارس فوق بقاياها ألعن رغباته المكبوتة.

وهذا النوع من المستحيلات.. غير قابل للكسر، مهما امتلكت من مقومات.. لذلك تحاول اللجوء للحل الملتوي.. التجاهل والانغماس فيما يحبس

أفكارها خلف قضبان الهلاك.. تهلك روحها، قلبها وجسدها في العمل، في الانطواء، ورغبة الانزواء في جزيرة منعزلة لا تسمع فيها أنفاس غيرها..

ونقطة ضعف خطتها هذه؛ هو.. من تعلم خافقها النبض لأجله، من أجاده حد الإتقان، وتاق إليه حد الحياة، من تهمس باسمه حين أسوأ أوجاعها فيقطر فوقه بهدهدة تغشي عقلها فوق غيمة سكينة لا يهبها إياها.. إلا هو.

ارتفع رنين الهاتف معلنًا عن مكاملة كانت بانتظارها.. وها هو العمل يعود ليسحبها من شرودها المر، يخرجها من نطاق الألم.. علهَّا تنجو وتحيا، التقطت سماعته فأتاها صوت مساعدتها:

- مدام دينا.. فهد بيه على الخط.

أجابته باقتضاب وهي توليه انتباهها:

- خيريا دينا هانم!!.. في سبب معين للاتصال ده؟!

حاولت التماسك قدر ما أمكنها، الشراكة بينهما تحتم عليها حدودًا خاصة في التعامل بينما هي تود لو تثقب عينيه أو تجز عنقه:

- أهلًا فهد بيه.. أكيد في سبب، بخصوص مناقصة مصانع الحديد.. أظن كنا اتفقنا في آخر اجتماع هنسيبها لشركات العزيزي!!.. وده كان اتفاقنا مع إدارتهم، أنت كده بتشكك في مصداقيتنا معاهم وإحنا بينا شغل كبير وقديم.

تراجع في مقعده خلف مكتبه بتراخ، ابتسم وهو يعلم أن هذه المكالمة كانت ستحدث في أية لحظة خلال اليوم، أجابها بجدية:

- الاتفاقات اللي من النوع ده ما بحبهاش، وأنتِ عارفاني.. السوق بتاعي مادام أقدر أملكه.

عقدت حاجبيها بغيظ:

- أيوة بس أنت وقتها ما اعترضتش.. والاتفاق بين مجموعة أبو العزو بينهم.

رد بغموض:

- وما وافقتش.. كسر الاتفاق باسم فهد الراجي كشريك في مجموعة أبو العز، يعني أنتِ برا الموضوع، تقدري تنكري أي علاقة ليك قدامهم.

وكانت مستنكرة عندما علت نبرتها بشيء من حدة:

- يعني المفروض أعرفهم إن إدارة المجموعة غير متوافقة.. والخبر ينتشر في السوق!!

اعتدل هذه المرة يحادثها بلهجة شبه آمرة:

- يبقى تسيبي لي الصفقة دي، باسم المجموعة، من غير تدخل، دي مناقصة لو خسرناها هنخسر كتير قوي، ولما أقولك كده لازم تعرفي إني عندي حق..

هي تعلم بحجم المناقصة، بأهميتها، لكن الاتفاق المبرم يكبل يديها فاعترضت:

- يا فهد بيه...

لم يمنحها الفرصة:

- خبرتي أكبر من خبرتك بكتير.. خلي الموضوع ده عليَّ.. وأوعدك؛ مافيش قلق من شركات العزيزي.

ثم أردف بسرعة يمنعها من الحديث:

- هاشوفك في حفل رجال الأعمال الخيري الأسبوع الجاي؟!

تذكرت ذلك الحفل، تحضره كل عام.. تنزوي في ركن، تتابع في صمت ولا تشارك في أية فعاليات، أخرجها عن صمتها صوته بنبرة متلاعبة:

- مؤكد هاكسب رقصة معاكِ في المزاد.

لكنها ردت بحدة قبل أن تغلق الخط:

- للأسف مش باشارك في مزادات.. مع السلامة يا فهد بيه.

ابتسم بمكر قبل أن يضع سماعة هاتفه هو الآخر، همس لنفسه بحسرة مصطنعة:

- خسارة.. كانت المنافسة هتبقى حامية قوي بين رجال الأعمال.

وأغمض عينيه متراجعًا برأسه لظهر المقعد:

- بس أكيد برده المكسب ليَّ أنا.. يا دينا.

أنهت هي مكالمتها معه، تزفر بحنق.. وتود لو تشعل النيران في شيء ما، هاتفها النقال أوقف ذلك الحريق برنين مميز يحمل اسمه، تراجع الغضب وربما انمحى، تفلتت نبضات القلب والشفاه ابتسمت بشوق:

- مراد..

استشعرت الابتسامة في صوته:

- وحشتيني تاني.. مامتك عاملة إيه؟!

أجابته بنبرة باهتة:

- الحمد لله.. ما فيش جديد للأسف.

واساها ببضع كلمات رقيقة قبل أن تتغير لهجته للغموض:

- عندي ليكِ مفاجأة.

اشتعل فضولها فسألته باهتمام:

- خير!!

ضحك بلؤم تعالت له الخفقات بين ضلوعها:

- هتبقى مفاجأة إزاي لو قلت لك؟!.. لازم تشوفيها بنفسك.

وصمت لثانية قبل أن يكمل بشرود بدا غريبًا:

- عاوز أشوفك بيها يوم حفلة رجال الأعمال.. لأني مصمم ع الفوز.

وقبل أن تعترض ودعها وأغلق الخط تاركًا إياها في دوامات محيرة، قبل ثوان رفضت وبعنف عرض "فهد" للمشاركة في الحفل.. وها هي الآن وكأنما تلبسها عفريت ما.. توافق ودون صوت لأن حامل الصفقة هذه المرة هو "مراد".. من يسعى للفوز بها في تلك الليلة، ولذلك فلأجله ستشارك.. وبحب.

******

جلست تراقبها تداعب الصغير بين أحضانها وعلى شفتيها ابتسامة شاحبة لا تعني شيئًا، هذه الفتاة التي تجيد وبشدة التظاهر بالقوة والصلابة أمام أخويها فقط لتمنح قلبيهما نذرًا ولو يسيرًا من الراحة، لكنها ورغمًا عنها لابد وأن ينفرط منها بعض مشاعر تشي بما يثقل روحها المكسورة..

تطلعت لملامحها الرقيقة لثوان قبل أن تسألها فجأة:

- سارة أنتِ لابسة حجابك ليه؟.. إحنا لوحدنا!!..

شعرت بارتباكها وهي تهرب بعينيها:

- أصل.. يمكن.. يعني ممكن زياد ييجي في أي لحظة.

لم تتظاهر "جمانة" بالدهشة.. الأمر كما توقعت، هي بالفعل ترتديه حتى أمام زوجها، عادت بذاكرتها لعامين مضيا، عندما كانت في موقف يشبه موقفها، لكن زوجها هي الحبيب المشاغب لم يقبل، نعم الوضع مختلف وهذه الصغيرة تحتاج لبعض الإرشاد:

- سارة.. أنتِ بتلبسيه قدام جوزك؟!

ارتبكت، لم ترد فقط أحنت رأسها دون رد فأردفت زوجة أخيها:

- حبيبتي.. ده جوزك، يعني طبيعي تكوني على راحتك قدامه، كمان ده هيكسر أي حواجز بينكم لما تتعاملي معاه ببساطة..

وتأكدت أن الحالة تشبه حالتها كثيرًا.. والأمر مبرر هنا، هي لن تتقبل تقربه منها كزوج بوضعها هذا، وهو رضي بذلك.. علت قيمته في نظرها درجة أخرى..

ابتسمت لها تطمئنها مكملة:

- زياد انسان كويس قوي، يستاهل إنك تحاولي تقربي منه، جربي وشوفي.. الموضوع بيبقى صعب أول مرة بس هتتعودي بعد كده.. على الأقل تكوني براحتك في البيت.

ابتلعت "سارة" ريقها بصعوبة، أومأت بصمت لا تعني به القبول، لكنها وعدت بمحاولة.. بعد رحيل "جمانة" وقفت تواجه نفسها في مرآتها، تحاول

فك وشاحها، تنظر لخصلاتها القصيرة التي قصتها في لحظة انكسار فقضت على تاجها الذي طالما عشقته، كانت تعذب روحها بالحرمان.. تضن عليها بصفة جمال.. تستكثرها على ذاتها الملوثة وجسدها الممتهن.

حاولت عقصها في ربطة لكنها لم تستجب.. لعنت، لقد قصتها برعونة لم تترك لها المجال لجمعها بسهولة، وحتى تنسيق مصففة الشعر اقتطع منها أكثر حتى يصبح مظهرها مقبولًا، تركتها حرة تنساب بنعومة فوق جبينها وحول أذنيها، قررت المواجهة رغم ضعفها.. ليس تقربًا منه وفقط، فزواجهما محكوم عليه بنهاية محددة.. لكنها تحتاج لتعيش ببساطة أكبر، تمنح نفسها قليلًا من الجرأة والقدرة على خوض موقف ما تظنه صعبًا.. تتحدى فقط قدرتها على الصمود أمام عينيه حين يراها حتى لو لم يشكل ذلك أدنى فارق.

ذهبت للمطبخ لتشرب بعض العصير البارد، تريد ترطيب حلقها الجاف من موجة التوتر التي تنتابها في هذه اللحظة.. لقد اقترب موعد عودته، وهي في كل يوم تختفي في غرفتها فلا تراه إلا صباحًا قبل نزوله عندما يطمئن عليها ويسألها عن حاجتها قبل ذهابه لعمله.. لكن الليلة ستنتظره، وتختبر قوتها في مقابل حضوره.. لن تهرب من اللقاء أو تختبئ في ركنها كما اعتادت.

عاد من الخارج متأخرًا بعض الشيء، يرغب ككل مرة أن يترك لها مساحة أكبر من الحرية في المنزل، لا يعلم أي نوع من الزواج هذا لكنه ارتضاه،

اختاره بل وأصر عليه.. أسبوعان مرا على زواجهما، الحال لا يتغير، لا يتقدم خطوة بل ولا يسعى لواحدة..

صديقه سيعود في خلال شهرين أو أقل، وحينها ستنفتح أبواب الجحيم، سعير فقدان صداقته المؤكد، ونظرة شوق منكسرة يعلم أنها ستملأ عينيها بمجرد سماع اسمه أو خبر عودته..

دخل غرفته بعدما تطلع حوله يتأكد من اختفائها كالمعتاد، يزم شفتيه غاضبًا.. أي رجل يقبل على نفسه أن تكون زوجته عاشقة لآخر!!.. حتى لو كان زواجًا لم يتخطَ مرحلة الورق وربما لن يتخطاها أبدًا!!.. هو بالذات من وضع نفسه في هذا الموقف، وليت الاختيار كان ممكنًا أمام رجولته التي كانت تستصرخه.. تطالبه بحمايتها ومساندتها.

فك أزرار قميصه بضيق، التقط منشفة وتحرك نحو الحمام يرغب في تبريد جسده وسخطه الذي تأجج فجأة، كانت هي خارجة من المطبخ، تمسح شفتيها بمحرمة ورقية وتلوك شيئًا ما.. تجمد في مكانه يتطلع لخصلاتها البندقية القصيرة للغاية عند مدخل الرواق الدائري الذي يفصل المطبخ عن الاستقبال..

لم تره بعد وهي تتحرك تجاهه في خطوات بطيئة، تباطئت أكثر عندما رفعت عينيها لتصطدما بصدره الأسمر المكشوف أمامها ونظراته التي تحدق في شعرها بشيء من دهشة..

تخلص من دهشته بسرعة متسائلًا:

- لسه صاحية؟!

ارتبكت بشدة تحاول إيجاد مستقر لبؤبؤيها بعيدًا عنه، تلعثمت حروفها بشكل أشعرها بالخجل والغضب معًا، فكان كل ما خرج منها نبرة مهتزة غير واضحة:

- إمممم.. يعني، لأ.. كنت باشرب.. قصدي.. تصبح على خير.

حاولت تخطيه فأفسح لها لتمرق من جواره بسرعة كغزال شارد يفر هاربًا من بين مخالب أحد الضواري ووجنتيها البيضاوين محمرتين كثمرتي فراولة ناضجة..

تنهد ودلف للحمام بصمت، استند لبابه بعدما أغلقه مفكرًا.. لم يظن أن شعرها قصير لهذه الدرجة!!.. في الواقع هو لم يفكر به كثيرًا، لكنها كانت لتبدو أكثر جمالًا.. لو كان أطول.

******

اعتلى الدرج بقفزات واسعة، يظهر على ملامحه القلق.. كل ما علق في ذهنه من حديث أمه عند استقباله عائدًا من العمل.. أن زوجته شعرت ببعض التعب فأعرضت عن غذائها وقررت النوم لنيل بعض الراحة.. لا يدري

أيصدق أنها متعبة بالفعل!!.. أم أنها مشكلة جديدة بين المرأتين هربت هي منها كعادتها منعًا لحدوث ثورة ما.

دخل لجناحهما يبحث بعينيه عنها.. وجدها في غرفة المعيشة الملحقة بالمكان، تجلس على أريكة واسعة تقرأ في كتاب ما وعلى وجهها مرسوم حنق واضح..

نعم هو على حق؛ هي ليست متعبة بل ساخطة.. وحان وقت الدلال.

اقترب منها وجلس إلى جوارها، قبل وجنتها بشوق تبعته همسة:

- أمي قالت لي إنك تعبانة.. مالك؟

رفعت عينيها إليه وبدا في مقلتيها الغضب:

- مش تعبانة ولا حاجة، كنت محتاجة أقعد لوحدي.

زفر بحرارة، يعلم أن والدته وزوجته قلما تتفقان، يبحث عن حل ما لهذا الموقف لكن لا حلول.. هو لن يترك المنزل، وهما لن تتكيفا بشكل طبيعي، حاول التبرير:

- جمانة.. أنتِ...

قاطعته بنبرة حادة بعض الشيء:

- أنا عاوزة أشتغل..

ارتد للخلف بحركة منزعجة، امتلأت نظراته بالأسئلة التي لا تجد لها جوابًا..

حماتها العزيزة قد وصلت معها لمرحلة الفيض.. فاض الكيل.. وفاض الكأس حتى أغرق المكان، كأس غضبها وتحملها، خلال الأشهر السابقة وكلما حدث لقاء لا تتوانى عن تذكيرها بزوجها السابق، مرة بابنته التي يربيها ابنها، مرة بها معلقة على ملابسها غير المناسبة لذوق العائلة القادم من بلاد واق الواق.. مرة عن ميراث ابنتها من والدها وكونها أحق به لتكمل حياتها، وتبتعد عن أموال العائلة، وفي النهاية اشترطت وجود مربية مقيمة تعتني بالأطفال رغمًا عن رفضها كطقس عائلي أزلي، لتصبح هي في رتبة شرفية وإشرافية فحسب.

طال صمتها وصمته في المقابل، يتطلع إليها بعمق، يسبر أغوارها بدعوى فهم لا يحصل عليه، نهضت من مكانها تتحرك أمامه بعصبية واضحة:

- أنا زهقانة ده أولًا.. ثانيًا أنت عارف إن وجودي في البيت طول الوقت لوحدي هيعمل مشاكل أكتر وأنا مش عاوزة ده.. الولاد دادة مهتمة بيهم، وأنا يا دوب باشرف على شغلها.. على طول فاضية وحاسة بملل مش طبيعي.

ثم توقفت تنظر إليه بقوة:

- محتاجة أشتغل.

وفي نيتها.. احتياجات ابنتي ستكون من مالي الخاص، لا من أموالك أنت التي تقض مضجع والدتك، ولا من أموال أبيها التي تؤرق مضجعك أنت، رده كان صارمًا:

- محتاجة!!.. ليه؟!.. ناقصك إيه؟!

نبرته أعادت لها وعيها، هي تتطلع لموافقته، وعصبيتها وحدة حديثها ستمنحها الرفض، لذا فالتراجع التكتيكي مطلوب في هذه اللحظة، تحدثت بلهجة ناعمة وهي تعود لتجاوره وتربت على كفه:

- ناقصني أحس إني باعمل حاجة، أرجوك يا أدهم.. أنا كنت باشتغل لما اتجوزنا، أنت أمرت وقتها إني أسيب الشغل، وعشان خاطرك نفذت.. عشان خاطري أنا المرة دي.. بجد محتاجة أخرج وأقدم حاجة، أندمج في مجال بافهم فيه.

نظر إليها بصمت.. يقلب الأمر في رأسه، ربما ما تطرحه يوازي حلًا منطقيًا للمعضلة التي وقع هو بين فكيها، لكنه لا يستطيع.. امرأته هو تخرج للعمل!!.. تشارك هذا وتتحدث مع ذاك وتنال نظرة من آخر وربما تبتسم لأحدهم!!.. حتى لو من باب المجاملة، هذا فوق طاقته، لن يتحمل وبدلًا من بضع مشادات تحدث بين كل حماة وكنتها؛ ستكثر بينهما هما ويتأزم الموقف.

حثته برفق:

- حبيبي.. حاول تفهمني، بجد محتاجة ده.. قدَّر احتياجي.

ظل على تطلعه الصامت، ثم هز رأسه بنفي:

- لا يا جمانة مش هينفع.

عادت تلح محاولة التماسك قدر ما أمكنها:

- أدهم.. أنا هاكون معاك.. مش بعيد عنك، يعني ما فيش حاجة تقلق منها.

ظل مترددًا لدقيقة كاملة، في النهاية كانت ولادة الكلمات على شفتيه متعسرة:

- في مكتبي؟!

أخذت نفسًا عميقًا.. هذه بداية، تحتاج فقط لقليل من الضغط:

- أعمل إيه في مكتبك؟!

والجواب مترقب:

- سكرتيرتي أو مديرة المكتب.. هيكون إيه يعني؟!

تربت على كفه ثانية وتتودد إليه:

- أنا مش بافهم في شغل السكرتارية.. عاوزة أرجع مكاني، قسم المحاسبة، عشان أقدر أعمل حاجة فعلًا.

هب واقفًا بحنق:

- إيه!!.. أنتِ مرات مدير وصاحب الشركة يا جمانة.. محاسبة إيه وكلام فاضي إيه؟!

نهضت تراضيه بصبر:

- يا حبيبي ده المجال اللي أنا أعرفه، وأقدر أشتغل فيه صح.

واقتربت تحيط عنقه بذراعيها ترجوه بدلال:

- عشان خاطري.. ما كنتش هاطلب لو ماكانش حقيقي ناقصني ده.

زم شفتيه دون أن يضمها، رأسه تكاد تنطبق على أفكاره، فك ذراعيها يبعدها عنه، أدار لها ظهره برد حاسم نبرته تحمل قليلًا من السخرية:

- خلاص يا جمانة.. اللي يريحك، كنت طلبت من أمي تبعت لنا غدا هنا.. كلي أنتِ، أنا داخل أنام شوية.

وتحرك نحو غرفة النوم لكنها سابقته، وقفت أمامه تريح كفيها فوق صدره تستدر عطفه بعينيها:

- أدهم.. مش عاوزة أعمل حاجة ما تكونش راضي عنها أو زعلان منها..

وأشارت لقلبه ورأسه:

- لو دول اقتنعوا إن الحاجة دي هتسعدني، هيرتاحوا.

طرق هو على رأسه بجمود:

- ده عمره ما هيقتنع..

ووضع كفه المفتوح فوق موضع خافقه النابض بهدير غاضب:

- وده عمره ما هيرتاح.

أزاحت كفه وقبلت موضع النبض بحب، رفعت عينيها تلتقي بعينيه اللتين شعتا بالحنان للحظة قبل أن تعودا لجمودهما، وتلعب على وترعشقه لها:

- حتى لو أنا هاكون مبسوطة!!

رفع رأسه للسماء يزفر بغيظ:

- أنتِ عارفة إن سعادتك غالية عندي.

أحاطت عنقه ثانية ورفعت نفسها تقبل فكه:

- يبقى متفقين.

طوقها هذا المرة وكانت قبلته حاسمة قوية آمرة، ابتعدت تبحث عن أنفاسها التائهة، تنظر في عينيه الغائمتين بالعاطفة قبل أن يسألها باهتمام مباغت:

- سارة عاملة إيه؟

ابتسمت تطمئنه:

- الحمد لله كويسة.. هي اختارت صح، أنا متأكدة من ده.

تنهد بعمق يقنع نفسه بالتصديق، ويسعى فقط لبعض راحة البال، داعبت خصلاته بأناملها بحنو، فعاد ينظر إليها، منحته بسمة عاشقة قطعها بشفتيه ثانية، وقبل أن يتمادى أو تبعده هي طُرق الباب وأتى الصوت من خلفه:

- ست جمانة.. الغدا اللي البيه طلبه.

ابتعد لاهثًا ووضع إصبعه على شفتيها يمنعها الحديث بينما أجاب هو بنبرة متحشرجة:

- نزليه تاني يا رجاء..

ونظر إليها بمكر:

- ساعتين وهننزل نتغدى تحت.

اتسعت عيناها وعضت شفتها السفلى في خجل فغمزها بشقاوة ابتسمت لها..

عادت المرأة محملة بالطعام، لمحتها "فريدة" فسألتها باهتمام:

- في إيه؟!.. رجعتِ ليه؟!

ردت بآلية:

- البيه قالي ساعتين وهينزلوا يتغدوا.

اشتعلت النيران في عيني سيدتها فجأة فرحلت من أمامها تجر ذيلها بين أسنانها، تعلم هذه النظرة الساخطة الوحشية، وتخشاها كما تخشى الطاعون..

همست في سرها وهي تلقي بنظرة نحو مخدومتها مخافة أن تسمعها:

"ربنا يهنيهم ببعض، ريحي نفسك أنتِ"

(٢٧)

تائهة

لدي القوة!!.. يُقربأن لدي القوة..

لكني أضعف من تلك الصورة..

من رَسْمٍ في خياله الطامح فيّ..

أنا أبحث عن بقايا تائهة..

أبحث عن أنثى كنتها يومًا..

لا!!..

بل أنا أبحث عن نفسي.. فيك..

عن بسمة ترسمها أنت..

عن نبضة تربكها أنت..

عن همسة تتوق إليها الروح، تنطقها أنت..

عن كنزمدفون تحت عمق سحيق.. حتى استخرجته أنت..

فيا أنت.. لا ترحل، لا تبتعد.. لا تنسى أنني منك

وأنني بعد جهد.. قد وجدت نفسي فيك..

قد لا نختار البدايات.. لكن الطريق الموصل للنهاية نرسمه بأيدينا، نسير فيه باختيارنا؛ حتى آخر محطة وصول، وحينها.. لا نملك التراجع فيما قررناه من نقطة الانطلاق، أو حتى إلقاء التبعات على سوانا..

وها هو يرسم خارطته الخاصة؛ صباح اليوم أتاه عميلٌ جديد، وبعد الترحيب به علم أنه من طرفها، شِقها الخاص من الصفقة.. لم يدرِ ما أصابه!!.. لكنها فقط نيران اشتعلت داخل عقله وقلبه بذات الوقت!!..

بعد رحيل الرجل على وعد منه بالبدء في تصميم مشروعه في أقرب فرصة، ووعد آخر أنه لن يندم على اختيار مكتبه لذاك المشروع؛ جلس يراجع حساباته، والنتيجة شعور بغيض بالحقارة.. هو الرجل ذو الكبرياء الحاد والعصبية الشرقية ذات النزعة الذكورية الفخور يبيع نفسه، يقايض اسمه!!.. والمقابل بخس، دنيء.. ووضيع أيضًا.

ويعود فيقنع عقله أو هو من يقنعه أنه سيعمل، سيجتهد، ما سيصل إليه سيكون بعرقه هو، بجهده وكَدِّه هو.. والضمير يغلبه..

"لولاها لكنت تبحث عن مكان لاسمك في عالم المبتدئين!!"..

ويصدق على الحديث، ثم يعلو صوت الإغراء الأقوى..

"أنت ستعمل، وهي أم زوجتك، مساعدتك في نطاق العادة والمعقول"..

لكن كرامته تأبى، وتصر على أنه مجرد ثمن.. وزهيد لا يستحق.

يفكر.. لقد حصل على الجائزة الأفضل والأغلى بالفعل، فتاة رقيقة جميلة خرجت من عالم الحلم لدنيا الواقع بكابوس لن تزول آثاره أبدًا.. وهو أخذ على عاتقه مسئولية الدعم والمساندة، وبإرادته الحرة.. وطالما لم يجبره أحد ولا حتى مستقبل يغري به طموحه؛ فالصفقة ملغاة.

هاتفها، وبعد تحية فاترة منه قلقة منها كانت جملته الحاسمة:

- الصفقة ملغية.

لكنها خافت، ارتبكت.. ترددت وخشت الفضيحة:

- هتطلق سارة!!.. بترجع في الصفقة؟!

ويزفر بغيظ منها ومن سوء ظنها وأفكارها:

- أنا بألغيها، وسارة "مراتي" .. برا الموضوع ده.

وضغط أحرف الكلمة وشددها، واطمأنت لكنها تريد المزيد:

- بس ده حقك.. وكان بينا اتفاق.

أتاها جوابه المقتضب قاطعًا:

- متنازل عنه.

أنهى المكالمة ليرده اتصالها تعلمه بنبأ السفر.. يشرد، يفكر.. ولا يعلم هل موافقته هي الصواب أم العكس!!.. لكن نبرتها الناعمة وهي تخبره، الأمل الذي انغمست فيه والفرحة البسيطة التي لمسها لم تترك له الخيار.. وكان أن أعلن موافقته.

******

حتى هو أصبح يدللها..

والنتيجة ماذا!!.. ينام على الأرض بجوار فراشها، يتيبس ظهره ويشعر بتفتت عظامه، حتى ترتاح هي..

كانت تكفيه تلك النظرة المرتعبة على وجهها عندما علمت أنهما سينامان في غرفة واحدة وبفراش واحد، نظرة لم توجهها نحوه لكنها ارتسمت في عينيها بوضوح سافروهي تتطلع للداخل بهلع.. كأنه سيأكلها مثلا!!..

طمأنها بالفعل والقول، مريوم واثنان وها هو صباح الثالث يستيقظ على أنين عظامه وهروبها المعتاد من الغرفة قبله، في المساء تودعه بكلمة شكر وتهرب لتدثر نفسها بالغطاء فلا يظهر حتى خصلة واحدة من شعرها القصير، وفي الصباح تهرب من لقاء عينيه وتغادرقبل أن يفيق هو.

استلقى على الرمال بقميص مغلق حتى منتصف صدره وبنطال قصير للركبتين، يديه متعانقتان أسفل رأسه وفوق وجهه قبعة.. أنفاسه المنتظمة تدلل على استغراقه في النوم حتى أتى الإزعاج من حيث لا يحتسب.. أحرقت الشمس الحارة جفنيه المنغلقين بعدما جذب "آدم" القبعة في حركة واحدة:

- إيه يا عريس!!.. أنت جاي هنا تنام ولا إيه؟!

اعتصر عينيه وانكمشت ملامحه في رد فعل تلقائي، سخرية بديهية من لفظة "عريس" كاد ينطق بها حتى ألجم لسانه في آخر لحظة:

- يا دكتور الله يرضى عليك.. عاوز أنام.

وهمس دون صوت:

"أخيرًا حاجة طرية!!"..

لكن الضحكة علت في مقابله تبعها تحفيز لا يرضيه:

- قوم يا زياد تعالى ننزل البحر.. خسارة تضيع وقت البلاج في النوم.

تأفف، وانقلب على بطنه يدير وجهه للناحية الأخرى برد قصير:

- مش نازل المياة.

وعيناه عليها تهرب بنظراتها بعيدًا عنه.. لا يتخيل نفسه بأقل القليل من الملابس أمامها وهي من كادت تذوب قبل أيام عندما رأت قميصه المفتوح فقط.. كما أنه يتوق للنوم.. قليل من الراحة فوق الرمال اللينة بدلًا من الأرض الصلبة التي يعاني جسده كله بسببها.

تأملها بعينين نصف غائبتين، تبني بيتًا من الرمال وعلى وجهها نظرة حالمة أثارت ضيقه ولا يدري لمَ!!.. تشارك الصغير "يوسف" وتضحك برقة وعفوية.. ربما تترك لروحها العنان لتحيا ولو لوقت ليس بطويل..

فوجئ بدفعة أخرى والنبرة هذه المرة تستفزفيه التحدي:

- طيب قوم أغلبك في دور شطرنج.

ورأى التفاتة رأسها، نظرة الاهتمام كأنها تحب اللعبة، أو ربما مشاهدة مباراة يبارز فيها زوجها أخيها. ثار فضوله رغبة في معرفة أي منهما سيحوز على دعمها، نهض بكسل يغمغم بنبرة تنافسية:

- هنشوف مين هيغلب!!

يعلم أنه جيد في اللعبة، وموقن أن النتيجة لصالحه، اعتدل في جلسته ليجد "آدم" قد وضع الرقعة على طاولة صغيرة بين المقعدين الطويلين، يجلس وإلى جوراه زوجته التي تضم إليها الصغير بنظرة متحفزة.. فنهض ليتخذ من المقعد المقابل مجلسًا، أتت هي بخطوات حيية بطيئة، أشار لها بترقب:

- تعالي اتفرجي.

ابتسمت بخجل وجلست على مقعد آخر منفرد جذبته من خلفه، لم يهتم رغم النظرة المستفهمة التي لمحها على وجه زوجة أخيها، وبدأت المباراة.. تحركت القطع بخبرة بين المتنافسين، وانطلقت جمل التشجيع من "يوسف" نحو أبيه، زوجته تنظر إليه باهتمام.. حتى نقلة كادت، ونقول كادت تقتل الملك الخاص به فهللت بمرح، أنقذ نفسه بصعوبة.. لا ينكر مهارة الخصم، ولا ينكر انتفاضة قلبه عندما سمع صوتها الناعم يهتف باسمه تحمسه للفوز..

ابتسم حتى لامها أخيها:

- بتشجعيه عشان يغلب أخوك يا سارة!!

وتظاهر بالأسى، لكن الزوج رمقها بنظرة جانبية وأعجبته الحمرة التي اكتنفت وجنتيها:

- طبيعي تشجع جوزها.. أمال تشجع مين يعني!!

واللفظ والبسمة والنظرة والدفء الذي انتشر داخلها منحه انحناءة وجه خجول، وإيماءة خافتة وهمسة أسعدته أكثر:

- ما هي لميا ويوسف بيشجعوك.. يبقى أنا من نصيب زياد.

وخفق القلب، الكلمة ليست بالهينة وإن ظنتها هي مجرد مباراة شطرنج... ونعم هي نصيبه وقدره الذي ارتضاه..

قبل أن يشرد أكثر.. نهض "آدم" يجذب يد زوجته ويهتف بمرح بدا غريبًا على وقاره الذي لمسه منه سابقًا خاصة مع ملامحه التي تشع بحيوية لم يرها من قبل:

- طيب.. ما دام بتشجعي جوزك؛ كملي أنتِ الدور.

ثم نظر إليه بغمزة:

- خلوا بالكم من يوسف بقى.

وتحرك مبتعدًا تاركًا خلفه "زياد" ينظر بنقمة ونبرته الخافتة حاقدة:

- أنا العريس على فكرة.

ونظر بإحباط نحو الصغير حتى سمع تساؤلها:

- هتلعب!!

رفع عينيه ليجدها واجهته في مجلسها وعلى وجهها نظرة حماسية، ابتسم وجاوبها بتحد:

- هالعب.

وربح، مرة وثانية بسهولة تامة وفي الثالثة دبت بقدمها الأرض في عناد ورفضت دورًا جديدًا مما جعل ضحكته تجلجل لتنظر إليه بغضب ذاب في لحظة عندما وقعت نظراتها على ملامحه المنفرجة دون تقطيبته المعتادة، وضبط نظرتها الشاردة فصمت وابتسم، هتفت فجأة تداري خجلها:

- عاوزة آكل كشري.

اتسعت عيناه ذهولًا:

- كشري!!.. أنتِ تعرفي الكشري أصلًا؟!

والجواب أتى من المجاور لها حيث ارتسم الحنق على وجهها:

- سارة بتعشق الكشري وخليتني أنا كمان أحبه بعد ما جيت مصر.

نظر للفتى في عدم تصديق، علا صوتها بانزعاج تعانده:

- وبحبه حراق كمان.

ولم تكن قدر اللعبة هذه المرة.. لأنه نهض وتصرف كغضنفر في رحلة صيد، ثم عاد محملًا بالغنيمة والكثير من "الشطة" كما رغبت هي..

علت قهقهاته من جديد، لقد فازت في تحدي البساطة وخفة الروح غير المتكلفة.. وانهزمت شر هزيمة في تحديه هو، تسعل.. جبينها متعرق، وجنتاها محمرتان بشدة وتنظر إليه من خلف غشاوة دموع ليسخر منها:

- حراق.. ها!!

نبرتها خرجت من بين شفتيها بصعوبة:

- أيوة.. بحبه كده.. بس واضح إنك زودت الشطة عشان تغيظني!!

وادعى الدهشة ونظر باستنكار مفتعل:

- أنا!!.. لأ طبعًا.

لكن "يوسف" أنهى المنافسة والتحدي والنبرات المشاكسة والعناد الطفولي بجملة غيرت منحنى تفكيره بزاوية حادة صادمة حتى له، يضحك ببراءة وينظر إليها وهي تبادله نظرته بغل:

- شوف يا زياد.. خدودها احمرت قوي وشفايفها اتنفخت واحمرت هي كمان.

وتتبع الكلمات بنظرة، والأنفاس ثقلت فجأة بينما تحاول إخراج الهواء الساخن من صدرها ودفع البارد منه للداخل عبر شفتيها المنفرجتين المنتفختين..

ازدرد لعابه وأبعد عينيه، التقط الطبق من بين يديها وناولها زجاجة من الماء بأمر:

- اشربي وسيبي الطبق ده.

وكادت تعاند لكنه كان حازمًا، منحها طبقه مردفًا:

- ده شطة أقل.

انحسرت الضحكات وانتهى التحدي، وعقله غاب في حين نبت بداخله ضيق لم يفهم سببه للمرة الثانية، شرد في البعيد يهرب هو هذه المرة بنظراته متنائيًا عنها.

******

ببساطة، لم تعد تفهمه..

وقاره، هدوءه المعتاد، صمته الطويل في أغلب الأوقات، غموضه!!.. أو ربما هذا الغموض قد ازداد مؤخرًا فتاهت هي أكثر.. كلها أمور لم تعد كالسابق، حتى هو لم يعد كما كان!!..

لقد جذبها تاركًا المباراة وأخته وزوجها.. بل وطفله الصغير، تحركت خلفه في خطوات شبه راكضة تتساءل بفضول:

- على فين يا آدم؟!

التفت نحوها برأسه وابتسم بتلاعب ماكر:

- هتشوفي!.

ورأت.. زورقًا صغيرًا بمحرك قوي، انفراد.. وقيادة حتى مسافة بعيدة تصاحب قلبها النابض بقلق متوتر:

- آدم.. أنا باخاف من الحاجات دي، كفاية بقى ما تبعدش أكتر من كده.

لكنه عاد يبتسم، أوقف المحرك واستدار إليها بجسده:

- ما تخافيش وأنتِ معايا..

ومال نحوها يمسك بكفيها:

- عاوز نبقى لوحدنا.. كده المسافة كويسة قوي.

استغربت تتساءل:

- لوحدنا!!.. ليه خير؟!...

قاطعها بجذبة كانت بعدها جالسة فوق ساقيه، والجواب قبلة حبس بها أنفاسها ثم همسة حارة:

- عشان وحشتيني.

ابتعدت بخجل، لا تفهمه بالفعل!!.. حيرة شديدة تملؤها وتساؤلات كثيرة تدور بذهنها، نبضات متفلتة تعاندها لأجله.. وخوف مجهول المصدر، ينبئها عقلها أنها غادرت المنطقة الآمنة وتكاد تغوص في أوحال الحب من جديد.. وهذا ما لا تريده أبدًا.

نظرت إليه، تتأمله بارتباك لاحظه فسألها:

- مالك؟!

لم تعتد اللف أو الدوران، كانت دومًا تأخذ الطريق المستقيم فتقصر على نفسها وقت الوصول، داعبت وجنته بكفها الناعمة فأمال رأسه في استجابة رقيقة، أجابته بتردد:

- أنت مين؟!

لم يكن جوابًا، ولم تتوقع أن تلقي بالسؤال، لكنه كان في محله، ضحك بخفوت، اعتدل يضمها إليه أقرب:

- آدم.

ابتسمت وتوترت أكثر، فتحدث هو:

- مستغربة آدم الجديد!!

وكانت صريحة لأنها تشعر بقلق لا ترغب به مطلقًا:

- موترني.

أصبح عابثًا فجأة:

- ودي حاجة وحشة!!

والجواب حائر:

- مش متعودة عليه.

اعتدل ثانية وأراح رأسها على كتفه:

- هتتعودي.

تنهدت بحرارة.. لفحت أنفاسها عنقه فأشعلت حواسه، رفع وجهها إليه ثانية ولم يقاوم.. بل لم عساه أن يقاوم!!.. فليترك نفسه للتيار قليلًا، لن يجبر يديه على الحركة ومحاولة السباحة، سيهمل غريزته التي تخبره أنه في خطر.. فليغرق لبعض الوقت أو يطفو نحو السماء.. لا يبالي، معها هي فقط.. يغوص في عالم لم يمر بطرقاته يومًا ولم يعرف لمساراته خارطة من قبل.

******

هو قلق، هي تعلم.. يحاول الحديث وتتجاهل، في النهاية استسلام وموافقة انتزعتها منه عنوة، حتى لو كانت بشروطه هو.. فالذهاب والإياب معه، العمل معه، بل وفترات الراحة معه، متحكم، متسلط وعاشق.. متمردة، حانقة ومتيمة.. معادلة جنونية، لكنها تذوب في حبه وكفى.

دلفت تجاوره في السيارة، خرج من بوابة المنزل تتبعهما سيارة أخرى بها أفراد طاقم الحراسة، أول يوم في العمل.. متوترة وغاضب ومزيج مذهل ملأ الهواء من حولهما.. مدت يدها تربت على كفه برقة، تشعر بغضبه على

وشك الانفلات.. تريد نيل رضاه والحصول على ما تريد بنفس الوقت، لذلك فالخطة هي كالآتي:

- للدرجة دي زعلان إننا هنكون مع بعض طول الوقت!!

حصلت على نظرة جانبية ساخطة وجواب حاد:

- هو إحنا هنكون مع بعض؟!

يسألها بتهكم غاضب، لقد رفضت العمل في مكتبه، لن تفيده هناك بل ولن تعمل في الحقيقة مع وجودهما سويًا..

وابتسمت فجعلت حنقه يزداد:

- بتبتسمي كمان!!

لترد بخبث تبعد به عقله عن منحنى النار التي تحرقه منذ منحها موافقته إرضاءً لها:

- أصل لو مكاني في مكتبك؛ مش هنشتغل، لا أنا ولا أنت.

رمقها بيأس، كم هو ضعيف أمامها، وكم يثير ذلك الأمر استياؤه!!..

ربتت على كفه ثانية وهمست بحنان علَّه يهدأ:

- أنا سعيدة قوي.. هننزل مع بعض ونروح مع بعض، واللي مخليني أسعد إنك وافقت عشان خاطري.

تلعب على وتره الحساس..

"هي، سعادتها، حمايتها، كل ما يمر به ويشملها"..

زفر دون رد فمطت شفتيها في دلال:

- أنت هتخاصمني؟!

وصمت أيضًا، فقررت العبث قليلًا:

- طيب.. لما نروح هاصالحك بطريقتي.

وشاغبته بلية شفاه مبتسمة يعرف منها مقصدها، هز رأسه مستسلمًا واكتفى بصمته، اقتربت أكثر تستند بوجنتها فوق كتفه، تغمض عينيها وتتنهد بحب:

- بحبك يا مجنون.

لم يقاوم البسمة لكنه أجاد إخفاءها قبل أن تلمحها.. هو قلق، غيور، مهووس بها وهي تعلم، يحاول تقنين كل هذه الأمور لحد معقول ولا يقدر، طاقته لا تكفي، تنهد بيأس وهمس يتردد بداخله:

"لمَ كان عليَّ أن أعشقك لهذه الدرجة!!"..

وصلا لمقر الشركة، قبل أن يتركها لعملها جذبها لمكتبه.. هناك أغلق الباب خلفهما غير آبه لنظرات مساعدته المندهشة أو حتى ترحيبها المبتور بزوجته نتيجة اختفائهما من المكان..

طوق خصرها يلصقها به، ينظر في عينيها والنبرة آمرة.. لا تحتمل أفكارًا أخرى:

- عارفة!!.. بس عارفة.. لو لمحت واحد بيبص لك؛ هاعمل فيه إيه؟!

تعلقت بعنقه وقلبها ينبض بعنف، رباه.. كم تحبه رغم جموح جنونه.. تدللت بنعومة:

- إيه!!..

زم شفتيه وأنفاسه تهدر كأنما مرجل على وشك الانفجار داخل صدره:

- هاخليه يشوف سواد اللي باقي له من عمره.

داعبت عنقه من الخلف بأناملها، روحها تنتعش معه.. له.. به.. هو فقط من يحيي تلك الأنثى بداخلها، من يملكها، من تحلق معه وتذوب فيه وتهتف دقاتها صارخة تناديه، ابتسمت بسعادة وتورد وجهها بعشق..

همست:

- مجنون.. بس جنونك هو اللي بيحييني.

شملها بنظرة ثم وصمها بقبلة متملكة لم تفهم سببها، ابتعد يستند بجبينه لجبينها، يتأمل ملامحها المستكينة له، أبعد رأسه بتنهيدة:

- تعالي.. هاوصلك عند الأستاذ محفوظ.

كانت تعلم كيف يشعر.. وقدرما تخشى غيرته المستعرة على الدوام، قدرما تشعرها بالبهجة..

هناك سلمها للرجل، أوصاه بها، ألقى نظرة محذرة منذرة بالويل على زميلها القديم "عصام" الذي لم يغادر مكانه في عمله بعد ورحل بخطوات عنيفة تدق الأرض دقًا..

لكنها هي، تنهدت في ارتياح.. لقد حصلت على ما تمنت، ومن الآن فصاعدًا لن تملك والدته المصون ما تعايرها به.

******

دومًا كانت تكره المفاجآت..

هي مدللة سابقة، والمدللات يعشقن من يفاجئهن.. إنما هي لم تفعل حينها، وبالتالي لا تريد الآن، تفضل السيطرة على مجريات الأمور، معرفة تفاصيلها والإلمام بكل جوانبها، دور القيادة يناسبها بشدة رغم أنوثتها التي كانت مفتاحها الوحيد لكل الأبواب.

وسيمها وعدها بمفاجأة، لم يرغب بحرقها وهي ستتقبلها منه.. لم تخشَ ما قد يدور بخلده، فقط سلمت الأمر إليه وتركت له دفة القيادة، والآن تعلم أنها لم تخطئ..

الثوب صمم لأجلها، لونه، قصاته، احتوائه لجسدها بنعومة تخطف الأنفاس.. كان يخفي أحد كتفيها بكم يصل لثلثي ذراعها والكتف الآخر تركه عاريًا بإغواء فاتن، يضم حناياها بأنوثة وينسدل على قدِّها المتناسق حتى ينتهي بقصات عريضة تبدأ من فوق الركبتين وتتداخل معها خامة الشيفون الناعم.. ثم يفترش الأرض حول قدميها بملكية فخمة.. حتى قناع العينين الذي جاء معه.. كريستالات مرصوصة بعناية تتجانس مع ثوبها بأناقة راقية..

راقبها بقلب نابض، تهبط الدرج ببطء.. تقترب ويقترب في المقابل حتى تواجها، مد أنامله يبعد قناعها دون قناعه، يغرق في عسلها وربما هي من تحلق في سمائه..

ثوان أو دقائق مرت دون انتباه حتى تنحنح أخيرًا، والنحنحة أجفلتها فارتعشت للحظة قبل أن يأتيها صوته الأجش مليئًا بمشاعر متباينة:

- فاضل حاجة أخيرة.

نظرت بتساؤل فسحبها أمام مرآة طولية ضخمة مجاورة لباب المنزل، أوقفها ووقف خلفها، تحركت يداه حول عنقها بقلادة ماسية توازي رقي ما

ترتديه وتنتهي بياقوتة حمراء بدت نافرة عن مزيج الألوان الفضي الذي يغلفها، أمسكت بها في تأمل فانحنى يهمس في أذنها:

- دي النار اللي عارف إنها جواك.

رفعت عينيها إليه في المرآة فابتسم لها برجولة أرعدت أنفاسها.. نعم هذا هو رجلها، لا تريد سواه، لا تخاف وهي معه، لا تتقزز من لمساته، لا ترعبها نظراته التي اختلط فيها الإعجاب برغبة تبث في أنوثتها الحياة، حتى نبرته العميقة تستكين إليها وتشعرها بالطمأنينة..

لاحظ شرودها فتحرك يجاورها، مد ذراعه يدعوها لتأبطه واستجابت.. كما تستجيب معه للكثير والكثير والدافع واحد ووحيد.. قلبها الخافق بحبه.

******

حفل تنكري.. مزاد خيري على جميلات الحفل، والرجال يتنافسون..

من يدفع أكثر يحصل على رقصة، وهي.. الأجمل والأعلى سعرًا والمنافسة تأججت لأجلها حتى اقتصرت على ثلاث أحدهم لم يطف ببالها وجوده.. لكن كما وعدها رجلها، ستكون من نصيبه وقد كانت.

ضمها إليه ينظر في عينيها من خلف قناعه الأسود، لا.. هو يحتويها بتلك النظرات، يشعرها بالأمان، يدور بها فيدور عقلها معه، ويوثق حضوره بهمس:

- قلت لك هافوز بيكِ.. ما ينفعش تكوني من نصيب حد تاني.

وابتسمت، ابتسامة من القلب، له هو وفقط.. قربها منها أكثر، فشعرت بدقات قلبه تتقافز داخل صدره، غمرتها سعادة ما.. لا بل انتشت بتأثيرها عليه، لم تشعر بما تفعل لكن هيامها به ازداد فأراحت رأسها فوق كتفه تترك له دفة السيادة ومقعد السلطة.. لأول مرة تفعلها، وهو يستحق.

"مراد بيه.. فزت بالجميلة، بس كان ليَّ شرف المحاولة، ممكن جزء بسيط من الرقصة!!"

ورفعت وجهها بحركة حادة، ليس هو.. رباه!!.. ليس هو، التفتت إليه وحبيبها يجيب:

- المزاد بيكسبه واحد بس يا ...

وعرف عن نفسه بنظرة خاصة لها:

- طارق الحديدي.. دينا هانم تعرفني كويس.

وتلك النظرة أعادتها لدائرة الخوف مرة أخرى، كلما نهضت تعثرت، وكلما بعثت للحياة عاد هو يطعنها، وحين نبض القلب يسعى لعصره مانعًا عنه الأنفاس..

تشتت الأحرف لكنها حاولت لتخرج من بين شفتيها مرتعشة:

- معلش يا مراد.. طارق بيه صديق قديم.

نالت نظرة مندهشة مرتابة، فابتسمت بارتجاف تحاول طمأنته وساعدها قدوم أحدهم يهمس في أذنه بأمر ما، أومأ له برأسه قبل أن يتركها بنبرة حازمة:

- موضوع مهم.. دقايق وراجع.

ألقى بنظرة تحذيرية نحو الآخر وغادرها بخطوات سريعة، فجأة وجدت نفسها بين ذراعيه، يقربها منه بطريقة لا يلاحظها من حولها لكنها تجعلها تلتحم بجسده حرفيًا، شعر بتلك الرعشة الباردة التي انتابتها فابتسم بتملك منتصر وعيناه تداهمان سكرات روحها بقتامة امتزجت بسواد قناعه:

- مكانك الطبيعي يا دينا.. بتترعشي ليه!!

حاولت الابتعاد فأحكم الحصار حولها بشيء من غلظة..

"لا فائدة، لافائدة"..

كلمة تكرر صداها وتعالى بداخلها.. يأس تسلل إلى نفسها الضعيفة فأوهنها أكثر.. تمتمت بترجي:

- طارق من فضلك.. اللي بتعمله ده ما ينفعش.. ابعد شوية.

وينتشي برعبها فتتسع بسمته الشيطانية الخالصة:

- أنا عارف أنا باعمل إيه.. سيبي لي نفسك وبس.

ثم انحنى أقرب يهمس في أذنها بأنفاس حارة أثارت اشمئزازها:

- وحشتيني قوي.. فوق ما تتخيلي.

وهمستها أكثر ضعفًا:

- طاااارق.

تأوه بيأس بدا غريبًا:

- آآآه.. دينا ارحميني بقى.. كفاية هروب.

دفعته في صدره بتخاذل وعينيها تبحثان من فوق كتفه عن منقذها، تتساءل أهو مريض!!.. مجنون!!.. مهووس فاقد للسيطرة!!.. أو ربما راغب بكامل الهيمنة عليها!!.. لم تر من تبحث عنه لكن حديثه لفت انتباهها كأنما يعلم اتجاه نظراتها ومستقرها الذي لا تجده:

- مش هتلاقيه.. أنا عرفت أشغله عنك إزاي!!

ودار بها فسبب لها الدوار، يده تتحسس ظهرها بخبث نبت له عرقًا باردًا فوق جبينها، وأنامله تحتضن كفها.. لا بل تعتصرها بخشونة كأنما يعلنها ملكية خاصة.. تود لو تصرخ، تستغيث، تتمنى لو لديها القوة الكافية لطعن قلبه إن كان يمتلك واحدًا فتخرجه من قائمة الأحياء وترتاح، بحثت عن بقايا شجاعة توقفه بها.. تتحداه بذكرى ماضيها الذي لم تهرب فيه من مواجهة أبدًا:

- مش هتوصل لحاجة في الآخر.. حتى لو شغلته، حتى لو فضلت لوحدي..

ضحك بخفوت ساخر:

- هاوصل يا حبيبتي.. هاوصل.

ابتعد ينظر في عينيها الشاردتين المخفيتين بقدر مثير من الكريستالات الأنيقة وخلف قناعه توحشت النظرة، ثم في مقابلها التوت شفتاه بمكر قبل أن يكمل بتلاعب:

- تعرفي لعبة القط والفار يا دينا!!.. القط بيفضل يطارد الفار، يدور حواليه، يمسكه ويسيبه، يحسسه إنه قدر يهرب، بعدين يهاجم تاني.. وفي اللحظة اللي يحس فيها الفار المسكين إنه فعلًا قدر ينجح ويبعد عن مخالب القط...

قبض أنامله على خصرها بقسوة:

- هوووب.. يلاقي نفسه بين أنيابه.

"ممكن أنا كمان أنول شرف رقصة مع الجميلة!!"

مقاطعة أخرى والنبرة هذه المرة تعرفها أيضًا، قد لا ترعبها كمن يضمها إليه لكنها تثير بداخلها قشعريرة ريبة لا تدري لها سببًا، تهورًا ما يدفع بدمائها لتعمي الصورة أمامها، هددها بوضوح.. أخبرها أنها له، لا فكاك من بين أنيابه ومخالبه التي تتوق لأن تنهشها..

ابتعد "طارق" عنها.. فتنفست براحة رغمًا عنها:

- فهد بيه!!.. أكيد، دينا هانم..

وأحنى رأسه بتحية لها وغادر.. اقترب "فهد" خطوة وفي التالية كان يحتويها بأناقة، تكاد لا تستشعر لمسته الطفيفة فوق ظهرها، وكفه الكبيرة تضم أصابعها برقة بدت غريبة، ثم همسته التي أثارت ذهولها:

- آسف.. ما قدرتش أستنى مراد ينقذك منه، فأخدت أنا دور المنقذ.

رفعت عينيها إليه بقلق فابتسم بغموض:

- عينيكِ كانت بتستغيث.. إيه رأيك!!.. أنفع فارس؟!

نفت بارتباك:

- مش فاهمة يا فهد بيه!!.. دي مجرد رقصة.

اتسعت ابتسامته الغامضة ولم يعلق على تكذيبها لما كانت تعانيه، انحنى يجبرها على الإنصات لنبرته الصريحة الحاسمة:

- أنا كان ممكن أكسب المزاد، وطارق الحديدي ما كانش هيقدر ياخدك من حضني، بس لاحظت إنك عاوزة مراد يفوز.. فقررت أتسلى شوية وأشوف المواجهة هتكون إزاي!!

نبض فؤادها برعب، والعرق البارد أصبح حارًا..

لاحظت أنه يجذبها بهدوء نحو الشرفة الضخمة التابعة للمكان فتبعته كمسيرة حتى وقف قرب السور مستندًا إليه بمرفقه يواجهها:

- أنا عارف عنك كتير قوي يا دينا.. أكتر مما تتخيلي، فما فيش داعي للف والدوران.

ازدردت لعابها بصعوبة، أشواك حادة تخز حلقها، قلبها أعلن العصيان فانفلتت نبضاته بجنون أصابها بدوار خفيف جعلها تستند للسور هي الأخرى، يسجنها خلف نظراته التي تشبه الفهد حقيقة لا مجازًا، نظرات صياد يسعى خلف فريسته التي أضعفها الزمن وأنهكتها الآلام..

لاحظ ما بها فقرر طرق الحديد حال انصهاره:

- تحبي نتكلم بصراحة!!

نظرت إليه بتهالك تستجديه أن ينهي الأمر ويذبح الوريد، هي سلمت واستسلمت.. لم يعجبه ما لمحه في عينيها المنكسرتين فاقترب خطوة يتحدث بلهجة جادة اشتملت نبرتها على شيء من صرامة:

- أنتِ كنتِ هدفي.

لم تفهم، ازدادت حيرتها فلم تنطق وهو لم ينتظر منها حرفًا:

- مجموعة أبو العز بالنسبة لي مجرد سلمة، الهدف كان دينا أبو العز..

وصمت يتنفس بحدة وهو يتطلع لوجهها الساكن بخضوع:

- دينا القوية.. اللي بعد كل شيء قدرت تقف على رجليها، وتوقف شركتها معاها وتخلي اسمها يكبر..

أمال رأسه نحوها:

- أنا باراقبك من وقت ما مسكتِ إدارة الشركة بعد وفاة والدك الله يرحمه، كنت ناوي أخلي المجموعة تابعة لاسم الراجي.. بس اللي حصل: إنك ظهرتِ في الصورة.

وابتسم مردفًا:

- وغيرتِ كل الخطط.

اعتدل في وقفته وأسند ظهره لسور الشرفة هذه المرة:

- إنسانة لسه خارجة من محنة عنيفة، محنة تقتل أي أنثى.. لكن أنتِ...

وشملها بنظراته في إعجاب واضح لم تفهم سببه:

- أنتِ اتحديتِ المحنة.. الضعف.. عديتِ من عنق الزجاجة رغم الماضي اللي بيطاردك لحد اللحظة دي.

وتحرك بعينيه خارج المكان يلقي نظرة سوداء نحو "طارق" الذي يتظاهر بالانشغال بينما هو يراقبهما كصقر جارح..

تتبعت نظرته وفهمت.. هو يعلم عنها كل شيء، كل شيء..

انهارت بداخلها، ولمعت دمعة في مقلتيها لكن صوته القوي أعادها من ماضيها المظلم:

- إوعي تسمحي للدمعة دي تهزمك.. أنتِ أقوى منها.. وأقوى من أي تهديد.

رفعت رأسها إليه بحيرة ولأول مرة ترى ابتسامته المطمئنة:

- أنتِ بصمودك وعنفوانك وقدرتك على التحدي.. تستحقي الأفضل..

وأخيرًا همست باسمه والنبرة واجفة:

- فهد بيه..

مال إليها ثانيةً وبعينيه من وراء القناع الفاحم إعصار رمادي أقلقها رغم كلماته:

- عارف الماضي كله يا دينا.. وصدقيني لما أقولك وأنا قاصد كل حرف، ما فيش أنثى تستحق إن يكون عقابها على أخطائها انتهاك، مهما كان حجم الأخطاء دي..

تراجعت بحدة تهز رأسها بنفي.. لا تفهم، تخاف.. لا بل تشعر بالذعر ويتملك منها الهلع..

شعرت به يساومها على أمر ما.. أتراه هو الآخر تخلى عن فصيلة الفهود واندمج مع الذئاب!!..

تمتمت بارتجاف تخفيه خلف بأس مصطنع:

- أنت عاوز مني إيه!!

والبسمة في هذه اللحظة اكتسبت شيئًا من طمأنة كانت تحتاجها وهو يدري:

- دينا.. أنا عارف الماضي، شايف الحاضر.. والأهم: عاوز أرسم المستقبل.

امتزج بخوفها حيرة، لم تعلق.. انتظرت منه المزيد وهو منحها الجواب أكثر وضوحًا وصراحة قاطعًا عليها كل التساؤلات:

- عاوز أتجوزك.

******

الظلام يحيط بها من كل جانب، لا تكاد ترى يدها عندما رفعتها أمام عينيها، ارتفع صوت لهاثها وتقطعت أنفاسها.. أصبح الشهيق صعبًا كأنها تغرق في أعماق محيط بهيم، لهثت أسرع.. تشنج جسدها حتى شعرت بتلك اللمسة..

يد خشنة تتحسسها بشهوة.. تنتهك حرمتها، تغتال عذريتها، وشفاه غليظة تتلمسها، تخدش براءة شفتيها.. بل تحطمها، تئن بعنف.. تدفع بيديها.. تقاوم ما لا تراه، تحاول وتحاول لكنها تغوص في ظلام سرمدي لا تجد به نقطة نور..

أيادٍ أخرى تجد طريقها لجسدها.. تجذبها للعمق، تمنع عنها الأنفاس.. تقتلها.. تريد الصراخ، تدعو، وتتألم.. تنادي أحدهم، تطلب الغوث.. وتضيع أكثر.

كان يسعى جاهدًا للنوم، الأرض صلبة بها لسعة رطوبة باردة أوجعت عظامه.. لكن كله فداءً للأميرة الخائفة.. سمع أنينها فجأة.. بدت كأنها تحارب شيئًا ما، انتبه لحركاتها العنيفة فوق الفراش فنهض جالسًا يلقي عليها نظرها..

هاله مرآها.. جسدها متشنج، تقبض بكلتا كفيها على الشرشف أسفلها، وتدفع بقدميها في رفض كأنها تقاوم عدوًا وهميًا، تعض على نواجذها وتهز رأسها بهذا الأنين الذي هدرله قلبه في استجابة حمائية فورية.

جلس إلى جوارها يناديها بهمس رقيق، يريدها أن تستيقظ.. لابد وأنها تعاني من كابوس ما، لم يستطع السكوت أكثروتمتماتها الرافضة تتعالى..

مد يده يهزكتفها برفق، يناديها:

- سارة.. اصحي، ما تخافيش.. ده مجرد حلم، سااارة.

لكنها تشنجت أكثر، ثم فتحت عينيها بشكل مفاجئ تنظر إليه برعب جمده في مكانه، بنبرة بائسة مرتعبة باكية انتحبت ترجوه:

- ابعد عني..

لم تخرج من حلمها بعد، والقلق ازداد بداخله:

- سارة.. أنا زياد.. ما تخافيش، أنا معاك، ما حدش يقدريأذيكِ.

سالت دموعها بسرعة باغتته، هزت رأسها برفض:

- أنت ما كنتش معايا.. ما كنتش موجود.

ثقلت أنفاسه، يشعربالعجز، لا يفهم ما تقصده لكنه يرغب في دعمها:

- من هنا وجاي أنا موجود.. ما تخافيش أبدًا.

نظرت إليه بأمل أدمى قلبه:

- هتحميني!!

نبرته كانت مرتعشة لكنه رد بحسم:

- بحياتي.

وافقته بإيماءة صامتة، انكمشت بعدها على نفسها في وضع جنين توليه ظهرها، وهمسة أخيرة تعالت لها نبضاته:

- أنا واثقة فيك.

هل تخاطبه هو!!.. هل تعلم مع من تتحدث؟!.. أم أن حلمها مستمر وتظنه شخصًا آخر؟!..

توالدت الأسئلة والجواب صفر.. تنهد، لا يهم.. ما يهم في هذه اللحظة أنها اطمأنت، وأنه سيبقى ساهرًا إلى جوارها رغمًا عن إرادته.

أما هي فكانت تغمض عينيها.. تقنع نفسها بالأمان، بوجوده، به يسدل حمايته حولها فتشعر بالسلام.. بجملة رددتها على مسامعها "لمياء" زوجة أخيها، سواء قصدتها أم لا:

"زياد إنسان محترم وراجل قوي.. ربنا يهنيكم يا سارة"..

لكن سؤال قاس تردد في ذهنها حتى كادت تصرخ برفض:

"كيف أصبحت زوجة!!.. بل كيف أصبحت زوجته هو دون من أحبت!!.."

وتردد لقلبها ترنيمة مهد علّه يهدأ..

"ألا يا صغيري الممتهن، أعلم أن الطعنة قاسية.. أن الجرح غائر.. أن الغد بسواد اليوم بل ربما أسوأ.. أنني انتهيت وأن ما بقي هو محض عبث"..

******

"عاوز أتجوزك"

ياله من عرض زواج!!.. لم يثر تعجبها بقدر ما استنكرته.. هذا الفهد المتربص بها، يخبرها، بل ويؤكد عليها أنها هي الهدف، يعلنها صريحة: أن رحلة القنص انتهت وأنها خطت بقدميها داخل فخه دون أن تعلم بوجوده..

مع نظراتها الجامدة علم أنه أصاب في توقيت وطريقة عرضه، لذلك أردف بصراحة أكبر:

- أعتقد إنك تعرفي عني معلومات كتير مصدرها السوق اللي بيحكم شغلنا.. اللي ما تعرفيهوش إني ابتديت من الصفر، اسم الراجي اتولد على إيدي أنا، كبر معايا ولسه هيكبر.

وكان يتحدث بثقة وافتخار، شد جسده معتدلًا وعقد ساعديه أمام صدره، حرك قناعه أعلى رأسه كأنه يكشف لها عن خباياه أكثر أو ربما يرغب في إشعارها بالأمان:

- أربعين سنة.. من شهرين بالظبط، ما سبقليش الجواز، ما فكرتش فيه وكل اللي كان بيهمني إزاي أكبر وأمتلك السوق..

وفرد ذراعيه يحركهما أمام وجهها:

- دلوقتِ وصلت لدرجة عالية قوي.. وجه وقت الاستراحة، حتى لو كنت كوبرا؛ محتاج وريث، محتاج زوجة جنبي.. جنبي مش ورايا يا دينا.

وتنهد بعمق يقنعها باختياره لها:

- القوة.. الأنوثة.. الجمال.. الصمود، اللي هتدفعني وتساندني وتبني معايا حياة أسرية مستقرة وأنا عارف إنها بتوازيني.. خطوتها جنب خطوتي، بتدعمني وفاهمة العالم بتاعي صح.

وكأنما يقص عليها حكاية ما لا تخصها، ليست أحد اطرافها، تنصت والحديث يمر بعقلها لكنها لا تستوعبه، كل ما أرادته في هذه اللحظة هو الاختفاء من أمامه..

عن أي قوة وصمود يتحدث وهي تكاد تهرب.. تجر خلفها أذيال الهزيمة وعمق الفضيحة التي غرقت فيها ولم تستطع التخلص من رواسبها وربما أبدًا لن تفعل.

"دينا"

النبرة التي تشتاقها، تفتقدها، تشعرها أن هناك أرض صلبة تحت قدميها، لا اهتزازات.. لا دوار.. لا رغبة في فقدان الوعي والغياب..

التفتت إلى "مراد" الواقف بباب الشرفة ينظر إليهما بريبة، ابتسم له المجاور لها بلباقة، حياه وقرر الرحيل، لكن قبل أن يختفي من أمام أنظارها همس لها:

"فكري في العرض"..

وغادرهما دون نظرة واحدة إلى الخلف..

في طريق العودة سألها عن محور حديثها مع الفهد، ألقت بضع كلمات عن العمل ولم تكمل الكذبة بل اكتفت بنثرها وتركت استنباط البقية لعقله، جملة واحدة تكرر صداها في أرجاء نفسها التائهة:

"لا توجد أنثى تستحق الانتهاك عقابًا على زلاتها.. مهما بلغ مداها"..

ناداها باسمها بعد صمت طال، نظرت إليه فشعرت به مرتبكًا، كأنه يريد قول شيء ما لكن الحروف ترفض طاعة لسانه وترجمة ما يرغب في النطق به..

أدار وجهه ينظر خارج النافذة واستمر على صمته حتى بوابة منزلها، هناك فتح لها باب السيارة، مد يده يساعدها على الترجل منها ولم يتحرك، وقف في مواجهتها وهمس يناديها ثانية، تطلعت إليه بأمل قصم مقاومته فهمس برقة:

- بحبك.

اتسعت عيناها، نعم كانت تستشعر حبه.. ونعم تحبه وربما أكثر مما يفعل هو، تأمل في سماعها منه، تمنت اللحظة قبل حدوثها وكانت تظن أن حينها ستملك الدنيا وما عليها..

لكن بعدما لفظها وعيناه تحتويانها لم تجد سوى قلب ينتفض بين ضلوعها ذعرًا، ودموع هزمت كبريائها وجفونها تواجه بها نظراته المندهشة وأنين تصاعد بوجع حبسته شفتيها بصلابة..

نعم هي تخاف، هو يحبها.. هذا الرجل يحبها، وهذه مسئولية ليست قدرها على الإطلاق، بذاتها الملوثة، بماضيها المشين، وحاضرها مدلهم السواد، بجسدها الذي امتهنته فكانت النتيجة أن استحل أحدهم انتهاكه، بدنس يغلف روحها حتى أصبح الطهر محض حلم.

هزت رأسها برفض أغار خافقه بين ضلوعه، انتحبت وصوت نحيبها مزقه، شعر أنه يفهمها، ولم يوقف نفسه هذه المرة.. بل اقترب واقترب وهي لم تبعده أو تبتعد حتى عندما أحست بذراعيه تطوقانها بحنو، لم تشعر إلا وهي تدفن رأسها في دفء صدره تستجدي منه الأمان والسكينة.

هي وهو، لحظة مصارحة وانكشاف مشاعر، راحة وطمأنينة وعينين داكنتين تراقبان من بعيد، تشعلان جمر الغضب، صاحبهما يتآكله هياج حتى كاد يهبط إليهما فينتزعها من بين ذراعي ذلك الأجنبي ويثبت ملكيته لها

أمام عينيه.. قبضتين تلوتا بعنف فوق مقود، وخطة أعلن انتهائها: فالذبيحة تحاول الفرار بعد النحر.. وهذا ما لن يسمح بحدوثه أبدًا.

******

ألقى بالعلبة المعدنية الفارغة من نافذة السيارة بينما يقودها بسرعة جنونية كأنه يفتش عن حادث ينهي به حياته، أشعل تبغه المحمل برائحة لم يستسغها يومًا لكنها الآن أصبحت الرفيق والصديق والطريق..

الجميلة لم تعد من نصيبه.. والبريئة تملكها آخر..

وهو بكل بساطة وكما يقول العامة:

"خرج من المولد بلا حبة حمص واحدة"..

وضحك ساخرًا، بل جلجلت ضحكاته بجنون، سحب نفسًا طويلًا احتفظ به في صدره لثوان ثم أخرجه ببطء.

أحلامه كابوسية النزعة لم تتوقف، حتى بعد زواجها.. مراقبته لها أيضًا لم تنتهِ، عرف عنوان منزلها الجديد، كل يوم يقف مقابله ينتظر طلتها، من نافذة أو عبر باب..

المهم أن تقع عينه عليها فيرتاح، ولا يعلم لمَ يريحه التطلع لملامحها، بل من بعيد يحرك أصابعه حول وجهها كأنه يتلمسه، وتشتعل مشاعره، يود لو يحرقها..

أليس من حق اللعنات أن تُحرق!!..

هي أصبحت لعنته، كابوسه الأزلي، ومحرقة سجائره المحملة بالسم.. لو انفرد بها لدقائق.. فقط لو؛ لا يعلم هل حينها سيفترس أنوثتها التي لا يزال يستشعر مذاقها حتى اللحظة!!.. أو يخنقها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة بين ذراعيه فيريح عقله الذي أصبح مهووسًا بها.

هي شبحه الخاص، روح أسطورية تطارد صحوه ومنامه، تحرمه لذة الحياة وهو لن يلاقي بنفسه رهبة الموت.. بل ربما عليها هي أن تفعل بعد أن يشبع كيانه التائق إليها لمرة واحدة ونهائية.

كان يغمض عينيه بقوة مستندًا لمقعده بعدما وصل للمنزل، لقد اكتفى ويود الوصول لنهاية الطريق.. لم تعد به قدرة احتمال، وحبل الصبر انقطع، فرق بين جفنيه بصعوبة إثر طرقة خافتة على الزجاج المجاور له، نظر من خلف غشاوة دخانه للواقفة في الخارج تناديه بخفوت..

اعتدل في مقعده بعنف ينظر إليها.. إنها هي، لقد أتت إليه بقدميها.. كيف واتتها الجرأة؟!.. أم أن هذا كابوس آخر!!

فتح الباب وخرج إليها، لم يمنحها الفرصة لتتحدث، بل هاجمها بشراسة:

- أنتِ عاوزة مني إيه؟!.. بتطارديني ليه!!

وجدها تتراجع في خوف مع همسة باسمه فشعر بالنشوة، اقترب أكثر وصوته يعلو حد الصراخ:

- أنا ممكن أقتلك حالًا، وبرده ما حدش هيعرف إن أنا اللي عملتها!!..

تعثرت في أحد قراميد الرصيف خلفها فهاجمها بعنف، يقبض على عنقها يحبس عنها الهواء، يصرخ وتصرخ، تناديه فيصم أذنيه حتى تحشرجت أنفاسها وإزرق وجهها..

نعم.. انتشى أكثر، ستموت، وبعد موتها سينالها، ما الفارق بين المرة السابقة وهذه!!.. في كلتا الحالتين كانت جثة.

"تياااام.. أنت اتجننت"

أوقفه الزعيق الهادر، انقضاضة أحدهم من خلفه يجذبه بقسوة وصراخه يستمر، التفت لمن يعاند رغبته في قتلها بجنون وكاد ينقض عليه حتى وجد ملامح أبيه المهتاجة، دفعه الأب بعيدًا وجرى نحوها، يضمها إليه، يناديها بهلع:

- كنزي!!.. حبيبتي.. ردي عليَّ، كنزي!!

وتردد النداء محملًا باسم أخته داخل عقله المغيب، رباه!!.. لقد كاد يقتل أخته، أخته التي تجسدت أمامه بخيالها هي.. سمع صوت استعادتها لأنفاسها، رأى نظراتها المرعوبة الموجهة نحوه..

تجمد في مكانه، فقد النطق والإحساس وحتى أذنيه فقدتا قدرتهما على توصيل ما يقوله الآخرون لمخه التائه.

والده يواجهه، يصرخ، يشيح بذراعيه، يأمره بشيء ما لكن خلف كل ذلك كانت صورة واحدة تولد، صورتها هي وعزم هائج على أن ينهي هذه المهزلة..

غادر المكان راكضًا والدم يرسم خطواته بعدما نال صفعة لم توقظه من تيهه، بل أوقعت كبرياؤه تحت قدميه.

******

"شهر أول سعيد يا عريس"

لا يصدق أنه قد مر على زواجه شهر.. ليس بالطول الذي تخيله بل هي مجرد أيام مرت، متتالية بتعاقب متشابه، بعضها يشوبه تغير طفيف.. والأخرى مستنسخة فقط لا غير.

إلا الأسبوع الأخير.. عقب عودتهما من الرحلة التي دعاهما لها أخيها، بعد ليلة الكابوس الذي يعلم بوجوده لأول مرة، أصبحت أكثر انطواءً، شاردة صامتة، على وجهها نظرة جامدة وتنتفض لأقل صوت يحدث حولها.

يتحرك في البيت كمن يسير على زجاج مكسور.. مزيج من الألم والخطوات البطيئة والصوت الخافت شبه المسموع..

نعم أصبح يتألم لأجلها، أليست زوجته!!.. ألم يأخذ على عاتقه مسئوليتها كاملة!!.. ألم يمنحها الوعد بالحماية، بوجوده إلى جوارها، بمساندتها!!..

هو قيد الانتظار، الصديق على وشك العودة.. أيام اخرى لن تطول، ومواجهة دامية يعلم عن يقين أنها ستحدث شاء أم أبى..

وهي تنظر إليه بغربة تثير غضبه، فيحبسه ويختلق الأعذار.. ترفض الحديث، بل وحتى جلساتها العلاجية الروتينية أصبحت ترفض الذهاب إليها، وكلما سأل كان الجواب واحدًا حاضرًا لا يتغير:

"لا شيء"..

كابوسها يتكرر، صراخها في كل ليلة يوقظه من نومه، لا يفهم سبب التكرار ذاك!!.. ولم يعد يفهمها هي الأخرى.. القوة التي تظاهرت بها خارت، والضعف أصبح هو مسلكها.. لكنه لن يصمت أكثر، اليوم حادث صديقتها، أخبرها عن حاجتها إليها وأعلمته أنها ستعود من سفرها قريبًا.. فقط لأجلها.

زفر بينما يفتح باب المنزل بعد طرقه برفق أولًا، دلف للداخل بهدوءه المعتاد لكن الصدمة كانت من نصيبه هو، جحظت عيناه في ذعر..

فعلى ذكر الزجاج المكسور.. كانت الأرض تمتلئ به، المقاعد مقلوبة، أوراق لا يدري كنهها مبعثرة في كل مكان.. وصمت يغلف الجدران.. صرخ باسمها:

"سااااارة"

تحرك بجنون يفتش عنها، قلبه ينتفض، صوته يعلو.. وما من مجيب!!.

(٢٨)

مخاوف

مرجومة أنا بعارٍ لا ذنب لي به..

أجوب طرقات الصبر..

أرقع ثوب روحي بخرق كبرياء وكرامة مهترئة..

أرفض إشفاق النظرات..

أحاول تجاوز محنتي..

كم من وجعٍ يكمم قلبي حد الألم؟!

أجد نفسي أقاوم الزمان بشجاعة وشموخ..

أنوثتي مطعونة.. تنزف الأنفاس أنينًا مبحوحًا..

ضحية أنا..

من يلملم شظايا نفسي إلا لحظة قد ترنو بها عينيك نحوي تبثني الأمان!!

وقلب يدمي يسترجي ذكراها بتخطي ونسيان..

لكن هيهات.. فجرحي ينزف ويتوكأ عصا في متاهة قلب طريّ..

يخاف الإقدام ويبحث عن مرفأ ترسو فيه قوارب النجاة..

إهداء/ زهرة الكاميليا

حين الخوف؛ لا تمتلك رفاهية التفكير..

يندفع الأدرينالين مقتحمًا كل خلية في جسدك، يحرقك، يلهب كيانك كله، فتمضي دون صبر حتى حافة الجنون، وربما تسقط حينها من فوق الهاوية..

ولأنه لا يخاف فقط.. بل يتخطى هذه الدرجة لمرحلة الرعب، وهي كانت وحيدة، حزينة، صامتة، متنائية عنه وعن أخويها وزوجتيهما؛ فالأمر جلل.. نبض قلبه تسارع لحد مؤلم، أنفاسه تهدجت بلهاث حاد وهو يتجول في أرجاء المنزل كمجنون، ينادي باسمها يرجوها ويكاد يتوسلها الرد.

أسئلة قاتلة تجوب عقله بطيش.. هل آذاها أحدهم؟!.. هل آذت نفسها؟!.. كابوسها، رعبها، فقدان الثقة والبحث عن سلام لا تجده وسط ظلام تغوص فيه.. كلها أمور تثير ذعره، هل ضعفت!!..

استسلمت وقررت الرحيل عن الحياة بأكملها!!..

ناداها بصوتٍ أعلى، تحرك أخيرًا نحو غرفتها، الباب مفتوح وعبره لمح بقايا الزجاج فوق الأرض، الكثير من الأشياء المبعثرة، ولا أثر لها.. تحرك للداخل يهمس حروف اسمها بقلب واجف، وحينها وقعت عيناه عليها..

منزوية في ركن.. ساكنة.. هادئة.. خامدة ومنطفئة، تضم ركبتيها بذراعيها وتنظر أمامها بنظرة فارغة خاوية تنتمي لعالم الموتى لا الأحياء..

تنهد بتصاعد مرتاح، جثا على ركبتيه في مواجهتها، استند بكفيه فوق ساقيه كأنما نال منه التعب مبلغه، يسحب الهواء داخل صدره بقوة، يحتويها بعينيه يبحث عن جرح ما، يطمئن نفسه.. هي بخير، المهم أنها بخير.. وهمسه هذه المرة منهك بحق:

- سارة..

لا رد، لا طرفة عين، لا أنفاس ظاهرة، صمت ساكن حد سكون القبر، ويتجدد الخوف:

- كلميني.. إيه الي عمل في البيت كده؟!.. أنتِ كويسة؟!.. أنتِ اللي عملتِ كده!!

ويتمنى جوابًا بنعم، لم يؤذها أحدهم أو يقترب منها.. هذا هو المهم:

- سارة ردي عليَّ.. طمنيني.

يستلهم الصبر، يتنفس بعمق، وهي على حالها، نظر حوله بيأس ولم يجد بدًا من إخراجها من هذا المكان، تردد للحظات، لا يخمن رد فعلها على ما سيقوم به، لكنه لن يتركها وسط الحطام.. حطام أشعره أنها كانت تحطم ذاتها فيه لا مجرد زجاج مكسور طالته يداها، خطا على ركبتيه نحوها.. همس باسمها ونفس النتيجة، فقرر التنفيذ.

مد ذراعه أسفل ركبتيها بهدوء والآخر أحاط به ظهرها، لم تتحرك لثوان فتنهد بارتياح، رفع نفسه واقفًا يحملها وحينها رمشت بعينيها، بتباطؤ شديد تشنج جسدها بالكامل، حركت قدميها بعنف متصاعد ترفض لمسته وقربه، أنينها خرج متعسرًا من بين شفتيها الجافتين حتى كادت تسقط نفسها أرضًا، تشبث بها بقوة يجذبها نحو صدره أقرب.. همس لها يحاول طمأنتها:

- اهدي يا سارة.. اهدي.. أنا زياد، زياد.

كرر اسمه ولا يدري هل تسمعه أم لا!!.. عاد يشعرها باحتوائه لها، يعلمها أنه يسبغ عليها حمايته ومعه لن يطالها أذىً وكما التزم أمامها من قبل حتى لو كانت حياته هي الثمن:

- ما تخافيش.. أنا معاكِ، أنا زياد..

سكنت بغتة، كما تصاعد أنينها انخفض، أنفاسها المتقطعة هدأت.. وتمسكت بقميصه تغمض عينيها، تستسلم لعنايته بها، وربما تخبره ببساطة.. أنها شعرت الآن بالأمان.. وهي معه.

تحرك مغادرًا الغرفة، يخطو فوق الركام ويسمع تكسر الزجاج أسفل حذائه، اتجه لغرفته المغلقة، في الغالب لم تحطمها هي الأخرى.. فتح بابها وتطلع داخلها بارتياح، لم تقترب منها.. وضعها فوق فراشه الصغير فاعتدلت جالسة، على وضعها تنظر للفراغ بتيه وضياع وتضم نفسها لنفسها كأنها تواسيها وتمحو عنها مرارة الفقدان.

جلس أمامها على الأرض، يتأملها بصمت.. يبحث عن فهم، يود لو تنظر نحوه لكنها فقط ساهمة.. شاردة، ضائعة في خيال مؤلم يحمل ذكرى لم تمت بعد وربما أبدًا لن تموت..

ناداها وكما توقع لا رد، تجاهل صمتها، تناسى خوفها الذي يستشعره رغم سكونها، حدثها بخفوت يحاول طمأنتها، يعدها بما يقدر عليه.. وفي كل لحظة يزداد بداخله شعور العجز.. يأس ما تسرب لنفسه وهمسة خافتة خاطبه عقله يؤنبه بها:

"لمَ فعلت ذلك بنفسك!!.. هي مسئولية لست قدرها، وبطباعك وناريتك لن تتحملها طويلًا"..

هز رأسه برفض، هو اختار.. بكل ذرة في كيانه، بعقله، بدافع رجولته وشهامته، بمشاعر ضعفها التي أيقظت فيه حمائيته نحوها في التو.. هو كان صاحب القرار الأخير.

نهض واقفًا، ينتظر منها استجابة ما.. بل يرجوها لكنها لا تفعل، لا تمنحه راحة، لا تتكرم عليه بهدوء نفس يحتاجه كي يطمئن عليها، لدقائق ناشدها أن ترحم قلقه عليها وهي على حالها، شعر بنوع من الغضب تشتعل شرارته في نفسه، ناداها ونتيجة صمتها هذه المرة انفعال:

- فهميني إيه اللي حصل؟!.. مالك؟!

وكأنما انخرست.. ازداد حنقه:

- أنتِ خرجتِ طيب؟!.. قابلتِ حد؟!.. حد اتعرض لك او اتصل بيكِ؟!

ويقابله السكون لا غير، تهدلت أكتافه بيأس، فزعق بسخط:

- ردي عليَّ يا سارة..

ثم الصمت يثير جنونه أكثر، خلل شعره بأصابعه حتى كاد يقتلعه من مكانه، زفر بحرارة وجلس على الأرض يواجهها ثانية ونبرته ترتجف:

- طمنيني عليكِ.

نهض ثانية، يتحرك في الغرفة كأسد وقع أسير العجز:

- طيب أنتِ زعلانة مني؟!

تطلع إليها من مكانه البعيد عنها، يحاول سبر أغوارها، يبحث داخل ثنايا مخه عن سبب انتكاستها!!.. حينها تقفز الصورة فجأة.. ويستنير العقل بالحل، اقترب ببطء، جلس هذه المرة فوق الفراش يسأل بجمود:

- عمار اتصل بيكِ؟!

وطرفت الأعين، تعالت الأنفاس، وانفك حصار ذراعيها عن ساقيها بينما رفعت رأسها تواجه نظراته المتفحصة، شعر أنه على حق.. واكتنفه غضب حارق لا يدري مصدره بالضبط!!.. عقد الجبين بحدة:

- كلمك!!

وانهمرت الدموع، كلا لم تنهمر، بل تفجرت كأنما تهاوى سد كان منيعًا أمام فيضان على حين غرة، صدح الصوت بنحيب واهتز الجسد بنشيج موجع للقلب.. وبداخلها هي صرخت:

"لا تسألني عما فقدت فهو كثير.. أنت تجدد الجرح!!"

بكت وبكت وضربت بقبضتيها الفراش من حولها، انحنت برأسها تشهق تحارب الأنفاس لبقاء قصير بين حنايا صدرها المنطبق، وعندها تعددت الأسباب والدموع واحدة.. وعن حاله فناظر إليها بذهول، والقلب يعتصره ألم ما بهمسة ناجت عقله المشتت:

"هي تبكي حبيبها يا أحمق.. لا تأمل في الكثير"

أغمض عينيه يرفض صورتها التي انطبعت في خياله، نهض ثانية معرضًا عنها، يفتح نافذة الغرفة الوحيدة، يقف قبالتها يبحث عن هواء نقي يحي به رئتيه العاجزتين عن التنفس.. يعض شفتيه بقسوة كأنما يوقظ نفسه من حلم ما كاد أن يغوص فيه، يتركها لنهر دموعها فربما ترتاح.

وهي.. تبكي وفقط، لا تحاول حتى التوقف، بل تترك لنفسها حرية الشعور بالألم، راحة الدموع، تأوهت بصوت عال من عمق الروح الذبيحة فالتفت إليها، الغضب أصبح هو الرفيق، وخوفها أخذ دور المتفرج فالحزن أقوى والوجع أكبر والمتنفس موجود.

عاد يقترب، لم يعد يتحمل بكائها من أجل آخر، بل لم يعد يتحمل سيلها المنهمر الذي يصب فوق قلبه هو كحمم مصهورة لا تبقي ولا تذر، انحنى بسؤال قاطع امتزجت صرامته بنبرته الشاحبة:

- بطلي عياط وفهميني.. مالك؟!

تهز رأسها بنفي طفولي، والبكاء حدته تزداد، كأنما فقط تحتاج لأن تمضي وتمضي في مسار الدموع، تفتش عن سكينة، عن علاج، عن دواء.. عن نسيان لا تجد له سبيلًا، لم يتمالك نفسه أكثر، حيرته مع غضبه وإحساس العاجز المستضعف الذي يحيط به ويسيطر عليه قطعوا آخر حبال الصبر

فنهض بعنف يضرب بيده حامله الهندسي بقوة أسقطته أرضًا ونفضتها في مكانها تنظر إليه بذعر.

تجمدت عبراتها على أطراف أهدابها، لمعت عيناها بفزع ثبط من عزيمته بغتة، وارتعش جسدها بخوف بيِّن كبح هياجه اللحظي.. فتح فمه يريد قول شيء لكن الحروف تمنعت وعادت دموعها تغرق وجنتيها بصمت.. تحبس نشيجها خلف كفيها كأنها تخشاه، لا تبعد نظراتها عنه تراقب تحركاته وتهابها.

تصلب جسده، ضم قبضتيه ولعن نفسه بخفوت وعيناه لا تبارحان عينيها، هذا ما لم يرده.. كانت تبدو رقيقة للغاية، ضعيفة ودموعها الصامتة أوجعته أكثر من انهيارها السابق، حبسها لصوتها كأنها لا تريد إزعاجه جعله يود ضرب رأسه بالجدار.. دنا منها، جلس أمامها ودون وعي أو حتى إرادة حرة تصرفت ذراعاه بمنطق خاص بهما مخالفتان لكل قرارات عقله وصراخه داخل جمجمته بالرفض..

أمسك برأسها وأحد كتفيها، قربها منه يضمها إليه برفق، يبثها الأمان، يخبرها أنه هنا.. أنه أبدًا مهما حدث لن يؤذيها، أن نظرة الخوف بعينيها منه تطعن قلبه وتشعره بالحقارة، والغريب في الأمر أنها استكانت وعاد نحيبها يعلو بعض الشيء، تهتز بإيقاع رتيب فوق صدره، تغرق قميصه بسيل العبرات، وتتعلق به بوهن انقبضت له روحه.

همسة متوجعة أنَّ بها خافقه أسفل أذنها:

"رباه.. طفلتي، كيف السبيل لمحو مخاوفك وميلادك من جديد؟!.."

نعم هي طفلته.. زوجته التي منحها وعدًا أبديًا بالحماية، بالتواجد لأجلها وفي المقابل بادلته الوعد بالثقة.. دقائق قصيرة وابتعدت كأنما أفاقت لوضعها، انكمشت على نفسها تمسح وجنتيها بأناملها وتهرب ببصرها لا تلاقي عينيه مع اعتذار خافت لا يفهم سببه:

- آسفة.

زوى ما بين حاجبيه ولم يسأل، بل نهض بهدوء وطلب خدمة التوصيل بطعامها المفضل.. بعدما أغلق الخط وجد السؤال يقفز بداخله:

"الآن أصبحت تعرف عاداتها، ما تحب وما تكره.. ماذا ينقصك أكثر؟!"..

لم يهتم كثيرًا لاتجاه أفكاره، نحاها جانبًا وعاد إليها، يتحدث معها، وهي تستمع وفقط.. يبثها شيئًا من قوته علَّها تعود تلك الشقية المدللة التي كلما قابلها كان يشعر بالغضب.

أتى الطعام.. ورفضته، واحتد عليها مجددًا.. ثم تنهي هي الأمر بنظرة واهنة مستكينة فتكسب الموقف باكتساح ساحق، يعلن استسلامه لها، يتركها لترتاح، ويغادر الغرفة فوراءه مهمة شاقة.. يلعنها في سره ويبدأ في تنظيف وترتيب المكان مشمرًا عن ساعديه وداعيًا أن يلهمه الله الصبر.

******

حين الخوف؛ يدخل العقل في حالة من الأرق والإجهاد..

وعقله بالفعل على الحافة، يعمل لكن أفكاره كلها تدور حولها، تبحث عن منفذ من معضلة عذاباتها التي لا تنتهي، تلك الدائرة المحبوسة بداخلها وكلما دارت مع منحنياتها تفتش عن مخرج؛ عادت لنقطة الصفر.

عندما أنجز مهمته الشاقة كان الإنهاك قد تمكن منه، هي نائمة مرتاحة في فراشه، وجسده يئن طلبًا للراحة هو الآخر.. ذهب إليها ووقف يتأملها لثوان، تبدو صغيرة للغاية، كعادتها تنام على وضع جنين مختبئ في رحم أمه تنفصل داخله عن عالم الواقع المحطم للآمال الخانق للأحلام.

أيقظها برفق، آثار الدموع على وجنتيها أثارت في قلبه أحاسيس مختلفة تبرأ منها كلها.. لا، لن يخضع لتلك الرقة، ولن تمتلكه بخوفها الكائن بين جفنيها كجزء لا يتجزأ من "سارة الجديدة"، أمرها بالذهاب لغرفتها فاستجابت باستسلام، قبل الخروج عرض عليها الطعام ثانية وقابلته برفض آخر لم يعلق عليه.

ارتمى فوق الفراش يفكر، نعم.. يفكر بها، بحالها، برعبها، بكابوسها الذي يتكرر بشكل مخيف، بطريقة لدعمها، وربما يبحث عن بسمة تائهة أصبح يشتاقها.. تقلب بإرهاق يدفن رأسه في الوسادة، والصدفة جعلت شذى الياسمين خاصتها يقتحم أنفه.. أدخلها فراشه، فسكنت فوقه والنتيجة

أفقدته راحته هو.. عطرها يحيط به، وكلما تحرك انتشر أكثر كموجة تداهم أنفاسه، وضع يده بغضب يضغط وسادته ويحركها فلامست بللًا خفيفًا علم أنه أثر بكائها.

نهض بتأفف، طار النوم.. كاد يشد شعره حانقًا لكن فكرة نبتت في ذهنه جعلته يتحرك نحو حاسبه المحمول، جذبه وتمدد فوق الفراش ثم تحرك مبحرًا في الشبكة يبحث عما يمكن أن يفيدها به، مساعدة ما قد تخرجها من شرنقتها وتعيد إليها الحياة.

"كرب ما بعد الصدمة"

مصطلح صادفه، وربما هذا هو ما تمر به زوجته.. أو هذا هو بالتأكيد، ذاكرة مرضية لما حدث رغم غيابها عن الوعي آنذاك، لكن بعد إفاقتها يكفي فقط أن تعلم وتترك الباقي للخيال ليجسد لها صورًا لم تراها رؤى العين.. ذاكرة تؤثر على حياتها النفسية، فتحلم بها في صحوها ومنامها بشكل متكرر يحرمها الراحة.. هذا هو كابوسها إذًا!!..

هو على حق في طريقته معها، قلقها والرعب الذي يعايشه كثيرًا في عينيها نتيجة كل صوت مفاجئ، أيام الأرق التي هاجمتها مؤخرًا، شرودها وفقدان الإحساس بما حولها..

تراجع برأسه يستند لظهر الفراش، يغمض عينيه بتعب.. ابتسم ساخرًا وهو يتذكر الجزء الأخير من المقال الذي قرأه.. هي ترى الرجل حيوانًا يريد

افتراس جسدها، وخيالها يصور لها العلاقة الزوجية شيئًا عدوانيًا قذرًا ترفضه بشراسة، هنأ نفسه بتهكم: "لا بجد.. مبروك يا عريس"..

عاد لحاسبه، يتجول مرة ثانية، وهذه المرة كثف دائرة البحث حول طرق إخراجها من محنتها، مساندتها ومساعدتها على العودة.. الدراسة أوشكت على البدء ونصف العام الأول فارغ بالنسبة إليها.. لذلك لن تجد ما يشغلها كثيرًا، ولذلك أيضًا فعليه هو السعي والبحث عما يمكن أن تفعله حين فراغها.

حينما انتهى كان قد اتخذ قرارين هامين.. سيذهب هو الآخر لطبيبتها، يتلقى منها ما يفيده في مساعدتها، والثاني أن يعلِّمها نشاطًا ما تشغل به ذهنها ويديها.. وهو لديه الحل المناسب لهذا تمامًا.

في الصباح اعتذر لشريكه عن الذهاب للعمل، كلفه بما ترك وراءه وبقي إلى جوارها، عندما استيقظت وجدته أمامها في حجرة المعيشة بابتسامة وملابس بيتية مريحة على خلاف عادته عندما تقابله حال ذهابه لعمله، نهض يشير لها وابتسامته تتسع:

- صباح الخير.. الفطار النهاردة هنعمله سوا.. تعالي اتعلمي عشان عاوز أدوق الأكل من إيدك بقى.

اتسعت عيناها في ذهول أضحكه، استدار يشاكسها ويدعوها لتتبعه:

- هتتعلمي يعني هتتعلمي.. مش هنقضيها دليفري.

دون أن تشعر تسللت ابتسامة خافتة لشفتيها وذهبت وراءه، كان وقتًا لطيفًا، صنعا سويًا بعض الشطائر، علمها كيف تحضر القهوة كما يحبها، بل وعصير البرتقال والخوخ الذي اكتشف أنها تعشقه..

بعد تناول الإفطار قرر أن يخبرها بما عزم عليه:

- سارة.. إيه رأيك تتعلمي فوتوشوب؟!

نظرت إليه بدهشة، لا تفهم غايته!!.. وبذات الوقت لا تأبه لتعلم شيء ما، نعم هي لا تهتم ولم تعد تبالي بأي مما حولها، ما مضى وما هو آت كله في سلة واحدة.. سلة تحمل عدادًا تنازليًا تنخفض تبعًا له ساعات عمرها حتى تسقط آخر ورقة فترتاح ويضمها القبر، هزت كتفيها بلا معنى ونبرتها دون أي مدلول:

- أتعلمه ليه؟! مش...

لم يمهلها لتكمل رفضها بل عاجلها:

- يعني.. حاجة جديدة، هتفيدك، وممكن تشتغلي بيه كمان.

همست باستغراب:

- أشتغل!!

مال نحوها عبر الطاولة:

- إيه مش عاوزة تشتغلي؟!.. تعملي حاجة؟!.. تقدمي حاجة؟!

كادت تنفي لكنه أردف بسرعة بينما ينهض ويحثها على النهوض هي الأخرى:

- قومي.. تعالي جربي، هيعجبك صدقيني.

تبعته على مضض، جلست إلى جواره يشرح لها باهتمام، ينظر إليها ويحرك يده بحرفية أدهشتها، ينقل الصور، يفتحها ويدمجها ويكتب والكثير من الأشياء التي لم يستوعبها ذهنها دفعة واحدة، نزلت على رغبته لكنها بنفس الوقت لا تكترث إن تعلمت جديدًا أو قدمت شيئًا، الأمر بالنسبة إليها منتهٍ، وكل ما يحدث مجرد محاولات عقيمة لبث النبض في قلبها الذي يرفض الحياة.

شعر بتململها.. لقد مرت ساعة، هو يشرح ويشرح وهي لم تسأل ولو مرة واحدة أو تستفسر عن شيء ما، لم ييأس، ناولها فأرة الحاسوب وتحرك من مقعده بأمر:

- خدي جربي وريني اتعلمتِ إيه؟!.. ادمجي الصورتين دول من غير قص واكتبي عليهم أي جملة.

تطلعت إليه بحيرة فحثها بعينيه وإشارة من رأسه، استجابت.. ثم نجحت.. وأعلنت بسمتها الواسعة عن فرحة تولد، لقد أنجزت.. حصلت على نتيجة جيدة للغاية ومن أول محاولة..

اتسعت ابتسامته يراقب عودة اللون الوردي لوجهها وميلاد السعادة فوق ملامحها، فوجيء بها تأمره بالجلوس، تركز في الشاشة.. تسأل وتنتبه وهو يجيب برحابة صدروأمل ما بداخله يتردد..

"نعم يا مدللتي، تحتاجين للشعور بالإنجاز، وهذه هي أول خطوة على الطريق"..

وفي ذهنه يرتب للخطوة الأكبر، لكن ينقصها المزيد من الوقت والجهد، وهو معها لن يبخل بأي منهما.. مرت ساعة وثانية تبعتهما ثالثة ورابعة.. ثم بعد الخامسة نهض يتمطى حانقًا:

- كفاية كده.. أنا تعبت، مش معقول!!.. بقى لنا أكترمن خمس ساعات يا سارة.

رفعت عينيها إليه بترجي:

- معلش يا زياد، بليزعشان خاطري.. طيب آخرسؤال.

أحنى كتفيه لاعنًا نفسه.. عاد للجلوس فاعتدلت هي بسرعة:

- لوعندي صورة زي دي وناقص فيها جزء، أزوده إزاي؟!.. بص..

نظريتابع ما تقصده وأجابها بعملية:

- أنتِ ممكن تعدلي التصميم بحيث يناسب الصورة، بس لو عاوزة تظبطيها أكترفي فلتراسمه liquify هيساعدك نوعا ما..

ومد يده يمسك بالفأرة، يشرح لها عمليًا ثم تركها لها، عادت تلاحقه بسؤال آخر:

- طيب ولو عاوزة أعدل الألوان شوية أو أحط... أنت قلت اسمه إيه؟

رد بتنهيدة مستسلمة:

- تأثير.. action.. الاتنين بيلعبوا في ألوان الصورة.

ثم اكتسبت نبرته حزمًا مفاجئًا:

- قومي بقى.. سخني الأكل بتاع إمبارح أنا ميت من الجوع والعطش.

نظرت إليه بتبرم كاد يتسبب في ضحكة، لكنه تماسك فمطت شفتيها بيأس وتحركت تغادر مقعدها، تمطى ثانية في جلسته عندما وصلته همستها باسمه قرب الباب، التفت إليها بتساؤل لتقابله وجنتاها المحمرتان، تنظر بأسف واضح:

- آسفة على اللي عملته في البيت إمبارح.. وتعبك...

لم تستطع إكمال حديثها بتعبير مناسب فصمتت تنتظر رده الذي كان ابتسامة متسامحة وهزة رأس بمعنى لا تشغلي بالك، عادت تغمغم ونبرتها هذه المرة خفيضة بها لمحة تأنيب كأنها تعنفه على ظنه:

- على فكرة.. عمار ما كلمنيش.

لم يجد ما يرد به وهي لم تنتظر بل أردفت بخجل أكبر:

- وحتى لو كلمني مستحيل أرد عليه.. أنا مراتك دلوقتِ.

رسمت بها حدًا لنفسها ثم غادرت، تبًا لها.. تلك الحمقاء الصغيرة المدللة الـ...

ود لو صب قاموس الشتائم كاملًا فوق رأسها.. قبل أيام تصف نفسها:

"أنها من نصيبه"..

والآن ببساطة تقول له:

"أنا زوجتك"..

وفي كل مرة تفقد قلبه نبضة، وتستحق لعنة.. ويغيب هو في تفاصيلها أكثر.

******

حين الخوف؛ تفقد فرصة الاختيار..

فبين أمان موعود، وماضٍ تم محوه.. وبين قلب نابض بعشق يخطو فيه خارج المهد؛ لا خيار..

الفهد يعرض عليها برسمية، بعملية تامة، بحسابات بسيطة لا تتطلب أية تعقيدات.. حياة جديدة، مستقبل يريد رسمه معها، وحماية خالصة من

سواد كتبته بيديها عندما غاصت في أوحال الخطيئة وأضاعت نفسها بنفسها.

و"مرادها".. يقدم لها العشق.. حدائقه الغناء التي لم تزر طرقاتها يومًا، ولم تشتم عبير زهورها في مرة، يعدها بما لم تمر به من قبل ولم تعتقد أنها قد تفعل..

وفي خلفية الصورة.. في جزئها المظلم بوحشية قاسية يختبئ جلادها.. حامل السيف، رجل المقصلة التي تترقب عنقها لتهوي فوقها وتقطعها فتنتزع منها الروح..

وتفكر هي.. أي كفة هي الراجحة!!..

كفة احتوت الحماية، وغض الطرف عما سبق؟!.. أم كفة امتلأت بالعشق، لكن غاب عنها كامل الحقيقة؟!.. وثالثة تبيع فيها ما تبقى منها وجسدها مقابل أن تحيا في سلام..

أكثر من أسبوع مضى على تلك الليلة التي تناوب على الرقص معها خلالها الرجال الثلاث.. كأنها جارية تتناقلها الأيدي حتى وإن رغبت هي بأحدهم..

شريكها العملي يملأ الفجوات ويوضح لها خطته التي دفعته لاستغلال ثغرات القانون والاستيلاء على نصيب والدتها من الشركة.. هي، الدافع هي، الثمن والهدف هي.

لكنه كان شريفًا في عرضه، لم يتخذ الطرق الخلفية، ولم يدُر حول النقطة التي يرغب بالوصول إليها، بل انطلق نحوها بصورة مباشرة متبعًا القاعدة..

"أقصر طريق بين نقطتين: هو الخط المستقيم"..

ولعله على حق، فهو أصاب هدفه بدقة وحسم، زلزل استقرارها الوهمي، بل وزعزع قناعاتها الوليدة عن عالم الحب الوردي.

والعاشق القادم عبر البحار، من كان يتودد إليها بهدوء، يستولي على قلبها ببطء، يحاول التمكن من عقلها وكيانها كله وقد فعل.. أخيرًا يجهر بحبه، لم تعد تُقِر به النظرة أو تدور حوله الهمسة.. بل نطقها واضحة صريحة لا تحتمل معنيين.. وأمامه انهارت وسالت دموعها، وفوق صدره استكانت تبحث عن مستقر.

ليلتها لم يتحدث، تقبل آلامها في صمت أثار شكوكها، أي امرأة تقابل محبوبها عند اعترافه بحبها بسيل من الدموع ويستقبلها بهدوء، يضم ويهدهد ثم يرحل دون أن يسأل!!.. كيف لم يثر الأمر فضوله حتى؟!.. هل يعلم شيئًا؟!.. ولو كان يعلم؛ فإلى أي مدى بلغت درجة علمه تلك؟!..

هي في حيرة، حيرة ممتزجة بخوف لم تتخلص منه، رهبة مزروعة بداخلها، تنتزع منها قوتها الماضية، عنفوانها، دلالها وحتى قدرتها على توظيف عقلها

وجسدها فيما تريد.. كانت مندفعة رعناء لا تهاب شيئًا، ثم انكسرت وانكسر معها حاجز الصمود فتهاوت من خلفه نحو الحضيض.

هي كأي أنثى، تدعي الصلابة والبأس، وربما تمتلكهما بالفعل، لكن حين تنتهك.. تفقد كل ما كان لها من قبل، يذوي كيانها، تذبل روحها.. وتسلم أنها أضحت أرض مدنسة يملك كل من شاء الحق في أن يطأها بقدميه..

اللحظات التي مرت بها بكامل وعيها، تنظر في استسلام خاضع فاقدة القدرة على تحريك إصبعها، دموعها تغرق وجهها بصمت، وهو يستنزف منها ما ظنت أنه مصدر السلطة.. سلطة النساء على الرجال، سلبها إياها في ثوان ودون أن يمكنها منعه، بل اتخذت وضع المراقب وتركته يمارس قذاراته فوق جثمانها الساكن سكون الموت.

لحظات طويلة.. طويلة كسنون عذاب، كأنها غادرت الجسد الراقد فوق فراش متهالك ملوث، تنظر من علٍ، وتبكي حالها.. وهذا أقصى ما تستطيعه، حتى غرست السكين وسال الدم ثم خرجت الروح تودع من سلبها كل ما تملك في طرفة عين.

وها هي ذي.. بعد ما يقرب من عامين، تجاهد لتقف، تحارب لتعود، تعافر بجهد لتنتصر في حرب يهاجمها فيها ماضيها مختلطًا بحاضر لا يأبه لتهديد أو وعيد، بل يظنه تسلية رخيصة الثمن، وثمنه عنده مجرد ضحكة ساخرة..

نعم.. حين الخوف، لا تمتلك القرار!!..

******

حين الخوف؛ يجبن اللسان عن الاعتراف بالحب..

بل يجبن القلب نفسه خاصة وإن كان قد ناله فيما مضى طعنة، لكن العقل لا يهدأ، يغوص في بحر من الأسئلة.. يبحث عن تصنيف ما لما خاض في متاهاته النابض الحالم قبلًا، وما يمر به في هذا الحين..

وحصل على اختلاف عميق للغاية، يكاد يقلب الصورة رأسًا على عقب، يخبرها أن ما كان شيء وما يكتسحها الآن شيء مغاير.. متفرد، يعزف على احتياجها سيمفونية من عالم الخيال.

سبعة أسابيع مرت على زواج أخته الصغيرة، وما يقرب من ستة منذ تلك الليلة التي راقصها فيها، همس لها بكلمات أذابتها، نظر إليها.. لا بل نظر بداخلها، غاص بعينيه في أعماقها، وانتزع من فؤادها الضعيف نبضة، تلتها أخرى ونبضات.. حتى لم تعد تملك الحق في منعه من النبض.

أفكار كثيرة تتصارع فيما بينها داخل ذهنها.. ومشاعر أكثر تتقاتل كأنها حرب لا يجوز فيها سوى النصر بخبايا روحها..

لطالما كان لديها الإيمان أن الحب يشبه زهرة.. تتفتح في الربيع، تتعانق أوراقها بنعومة في دفء شمسه، وتزهو بألوانها في ضوء صباحه؛ لكنها وبعد حسابات كثيرة تكالبت على خافقها فلم يخرج منها سوى مهزومًا، مستلسمًا وأسيرًا؛ علمت أن للخريف زهوره أيضًا..

الخريف لا تتساقط فيه الأوراق وتذبل خضرة الأشجار فقط، بل يحمل في حناياه حياة لزهرة تغرس بذورها في العمق، تنمو ببطء، ترويها الأيام باهتمام.. ودونما انتباه أو شعور؛ تجدها وقد تملكت منك، وثبتت جذورها في تربة روحك حيث لم يعد هناك مهرب من وجودها والاعتراف به..

هكذا تقر وتعترف..

هي تحبه، في خريف قلبها الذي ظن أنه وصل لنهاية لا تبدأ بعدها حياة، فأتى هو بذر وغرس وروى وربما دون أن يعلم.. حتى تمكن من الفؤاد والروح، والاعتراف هنا سيد الأدلة فلا برهان بعده، ولا دليل يثبت براءتها من تهمة حبه التي غاصت بين أمواجها واستسلمت لها.

ابتسمت طائعة لحكم لا استئناف يتبعه، نعم تحبه.. ونعم ستخبره، هي تمتلك جرأة البوح، وهو يستحق.. وبعدها لن تنتظر منه تصريحًا مماثلًا، بل ستغرقه في حبها وتغدق عليه من حنانها.. لكنه هذه المرة بنكهة مختلفة.. نكهة عاشقة أذعنت للحب ولبت نداء القلب.

نهضت من مكانها بأمل وليد، بحثت عن هاتفها، ستهاتفه، تطلب منه العودة باكرًا، ستهيئ نفسها وتستقبله كما ينبغي، وفي النهاية تفجر قنبلة حبها في وجهه ولن تهتم لشظاياها التي ستتناثر فوقه أو تخترق صدره.. فالمهم أن تصل إحداها لقلبه، وحينها.. قد تحصل على ما تريد.

لمحت الهاتف على الطاولة المجاروة للفراش، أسرعت نحوه وقبلها بخطوتين دارت بها الغرفة، ترنحت للحظة قبل أن تسقط على الأرض الصلبة.. وتغيب تمامًا عن الوعي.

******

حين الخوف؛ يضيع التعقل وتحل الرعونة والتهور محله..

وهو في هذه اللحظة يخشى ضياعها، لا يعلم ما فعلته به!!.. لكن مهما حدث ومهما هربت أو حاربت أو هددت فمكانها ومستقرها ومستودعها.. بين أحضانه.

متى كان المتاح مرغوبًا؟!..

الصعوبات مصدر كل لذة في الحياة، والمستحيلات مفتاح كل تحدٍ، وتحديه الوحيد، الجديد والقديم والأزلي.. هي.

انتهى من زوجته وولاها ظهره كعادته مؤخرًا.. لم تعد سوى واجبًا ثقيلًا على النفس رغم فتنتها، أو ربما باله المشغول بغيرها وجسده الذي يئن شوقًا إليها لم يعد يشبعه إلاها، تظاهر بالنوم وترك أفكاره تبحر به بعيدًا إليها.

فأرته الصغيرة تحاول مغادرة المصيدة التي أحكمها حولها، تحتمي بعاشق غبي لا يعلم عن ماضيها شيئًا، وآخر كان يبادله النظرة بنظرة كأنما يقول له:

"نعم أنا أعلم.. ولا أهتم"..

كلا.. هذه المرة الأمر جدي، ستتسرب من بين أصابعه وهو أبدًا لن يسمح بذلك، لن تهرب أو تتركه لغيره وإن أنهاها على يديه.. تلك اللعبة انتهت.. فالملكية والوشم والصك النهائي يحمل توقيعه هو..

يسأل نفسه كثيرًا ما المميز بها!!.. لمَ هي دون غيرها من تشغل باله ويشتاقها؟!.. هل يحبها.. ويسخر من نفسه:

"وهل تعرف معنى الحب طارق باشا؟!"..

ويجابه بعناد:

"ولمَ لا؟!"..

أليس بشرًا؟!.. أليس رجلًا؟!.. حتى وإن كان شيطانًا؛ فالشياطين تعشق بطريقتها الخاصة أيضًا، وهي إثمه الأعظم، خطيئته الكبرى.. والذنب الذي لن يكفر عنه سوى بامتلاكها.. له وحده، وللأبد.

تقلب بملل، يتساءل متهكمًا: "أتراها تبحث عن عقد زواج!!"..

إن كانت تفعل؛ فهل يمكنه المخاطرة بطموحه ومستقبله الذي بناه ناحتًا في الصخر حتى تحطمت أصابعه وكلل جهده بالنصر!!.. تزوج ابنة السلطان وترقى حتى وصل لما لم يصل إليه من هم في مثل سنه..

أدار وجهه يتأملها حال استغراقها في النوم.. مجرد شكها السابق أذاقه الويل لأيام طويلة ولم تتوقف عنه إلا عندما راقبته وهو يعلم، سخر منها..

"الجميلة تتمنع حلوتي، وربما لو كانت ملكي لانتهيت حينها"..

تنهد بضيق، ماذا عن زواج سريّ؟!.. أتراها تقبل؟!.. وعاد يسخر.. ولمَ عساه يهتم بقبولها من عدمه.. سيخضعها لإرادته أولًا.. يشبع نهمه التائق لها، ثم في النهاية يجعلها توقع بنفسها على ورقة ميثاق تضمن استحواذه عليها حتى نهاية الحياة.

نعم.. هذه هي الخطة الجديدة، تحتاج فقط لبعض الرتوش، التدقيق والتمحيص.. ثم سيضعها موضع التنفيذ، يفجر فيها وفي عاشقها لغم ماضيها القذر الذي خطت فوقه بغباء وعندها ستسلم له.. ولن يملك فهدها المتعجرف مساعدتها بشيء..

نعم، هكذا ستنتهي، تستقر بين ذراعيه هو.. حيث مكانها الذي ولدت لأجله، وستموت فيه، ابتسم بتملك مرتاح ثم غرق في النوم.

******

حين الخوف؛ تنهمر الدموع.. يتلبسنا الضعف والاستكانة لخرافات الرعب..

لم تكن تعلم لمَ تبكي!!.. فرحة أم خوفًا وقلقًا أو ربما عدم تصديق، عندما أفاقت قبل ساعتين وجدت شقيقتها فوق رأسها تطل عليها بوجل، تناديها وتنعشها بحنان، ومن خلفها ذا العينين الزرقاوين بنظرات مضطربة وعجز ما يظهر عليه، حاولت التحرك لطمأنته لكن أختها منعتها، لقد آذت رأسها عندما اصطدمت بالأرض وستشعر حتمًا بالدوار.

نادته، ضمته وربتت على ظهره، تمتمت له بكلمات رقيقة تزيل خوفه بها حتى استكان فوق صدرها، لقد وجدها في غرفتها، هتف باسمها ولم تجبه.. أصابه الذعر فاتصل بوالده لكن هاتفه المغلق سد الطريق في وجهه، ولحسن حظه وجد الخالة "جمانة" تهاتف شقيقتها وما إن علمت حتى أتت على الفور.

بعدها أقنعتها بتناول بعض الطعام مع مشروبها الأثير، وما إن تناولت بضع لقيمات حتى انقلبت معدتها وركضت تفرغ جوفها بعنف مرهق اتسعت له عينا الصغرى بشك.. ولم ترحل حتى تأكدت، وفي غضون أقل من ساعة كان تمسك بيدها الورقة والنتيجة.. "إيجابية"..

بالطبع لم تصدق، لمَ عساها أن تفعل؟!.. لقد تزوجت لثمان سنوات، وها هو عامها الأول مع زوجها الثاني يقترب من الاكتمال، فقط بضعة أشهر أخرى، فما الذي حدث؟!..

دخلت في نوبة هيستيرية من البكاء أقلقت أختها التي ضمتها برفق تطيب خاطرها وتطمئنها بكلماتها، بعدها ضحكت بجنون حتى دمعت عيناها، ثم عادت تستكين في صمت ودموعها تغرق وجنتيها في وجوم، هي لا تتقبل ما حدث، بل لا تتخيله.. بعدما فقدت الأمل، ظننت أنه قدرها الأبدي، ولد فجأة بداخلها نور أحياها من جديد..

بعد وقت ليس بطويل اضطرت الأخت للمغادرة عقب اطمئنانها عليها، أرسلت برسالة لهاتف زوجها المغلق وجلست تنتظر.. لا تعلم كيف ستخبره؟!.. لا تتوقع كيف سيتلقى الخبر؟!.. فقط كل ما يهمها في هذه اللحظة.. أنها سعيدة حد التحليق مع الفراشات.

عاد هو بأقصى سرعة حينما وصلته رسالتها عند تشغيله لهاتفه الذي نسيه مغلقًا أثناء اجتماع عمل هام، وجدها منطوية على نفسها في ركن أريكة غرفة المعيشة، تضم جسدها بذراعيها في وضع أذاب قلبه، اتجه إليها ببطء هامسًا باسمها، عندما رفعت عينيها نحوه هاله مرأى الدموع فجلس إلى جوارها شاعرًا بالقلق ينهشه:

- مالك يا لميا؟!.. إيه الدموع دي!!

مسحتها بكفها بضعف أقلقه أكثر، تهز رأسها بنفي وتطمئنه بكذبة:

- ما فيش ما تقلقش.

أنبها بعينيه:

- لميا.. في إيه؟!.. كل الدموع دي وما فيش إزاي؟!.. طمنيني، مالك؟!.. مين زعلك؟!

تحاول الابتسام لكنها تشعر بالضياع قدر ما تشعر بالحيرة الممزوجة بسعادة لم يسبق مذاقها أن مر بلذوعة حياتها ومرارتها:

- ما تقلقش بجد أنا كويسة.. مش زعلانة.

أحاطها بعينيه وكرر السؤال بصمت، اعتدلت في جلستها تنزل قدميها للأرض، نظرت إليه بارتباك متردد، صمتت لفترة طالت كأنها تدير أمرًا ما في رأسها وهو منتظر بصبر.. في النهاية وضعت كفها بحنو فوق بطنها بينما تنظر إليها بدهشة مستغربة:

- أنا حامل..

وكانت مازالت لا تصدق، لا تتوقع ما تشعر به، ذلك الكائن المنمنم الذي ينمو بداخلها لكم تمنت وانتظرت هذه اللحظة.. وقد حباها الله به بعد طول صبر.. بعد الكثير من الوجع، لكن لا يهم.. فأن يأتي متأخرًا أفضل من

ألا يأتي على الإطلاق.. وها هو مزروع بأحشائها، يحيا بجوار قلبها ويستمع لدقاته التي تتقافز في انشراح لم تدركه من قبل.

كان هو يتطلع لكفها الحاني فوق بطنها بذهول أقرب للصدمة، فمه مفتوح قليلًا وعيناه متسعتان بما يشبه الرفض، نظرت إليه بعد صمته الغريب وأرعبها ما رأت على ملامح وجهه المنقبضة بشدة.. قابل نظراتها بنظراته وخرج منه الرد القاسي بلهجة شجت كيانها:

- بس إحنا ما اتفقناش على حمل!!

قبضة عاصرة أُحكِمت على فؤادها المسكين.. استنكار علا وجهها، شك ملأ كيانها.. لقد كانت على وشك الاعتراف بحبها له كما عزمت قبل ساعات، فألجمها هو بكلماته التي كسرتها وطعنت روحها في العمق، رددت خلفه ببلاهة:

- ما اتفقناش!!..

هز رأسه برفض صريح هذه المرة ونبرته تكتسب جمودًا مؤلمًا جمد أطرافها:

- أيوة.. مين قال إني عاوز أولاد؟!.. إحنا لسه يا دوب...

لغة جسده بالكامل كانت تشرح رفضه الخالص أثناء حديثه.. لكنه قبل أن يتمم عملية الذبح بإتقان وقعت عيناه على وجهها ليجد السيل وقد تجدد،

تخفي فمها بكفها وتحتضن بالأخرى طفلها كأنها تحميه من كره أبيه لوجوده، أخرسته بسؤالها:

- مش عاوز أولاد مني يا آدم؟!

حاول الرد ولم يجد ما يقوله فكان صمته دليل إدانة لا تحتاج لما هو أكثر منه، انهمرت عبراتها في تسارع عجيب.. نهضت من جواره تهتف بصوت مذبوح:

- لو أنت مش عاوزه أنا عاوزاه.. وممكن أبيع الدنيا كلها عشانه.

وغادرت يتابعها بعينيه في عجز.. لقد قتلها وانتهى الأمر، لكنها لا تعلم، لا تدري عنه شيئًا، وهو فقط لا يريد.. لا يريد.. بل يخاف.

******

حين الخوف؛ يدخل القلب في المعادلة، رغم النتيجة المحسومة..

لقد اعترف.. خوفه عليها أصبح يشغل باله بقوة حتى شتت تركيزه وأوقعه في الخطأ عدة مرات، أن يكون هو سكنها وأمانها؛ شيء على قدر ما يثلج صدره بقدر ما يحمله فوق طاقته.. هو يتعامل معها سائرًا فوق خيط رفيع، لا يضغط عليه فينقطع، ولا يتخطاه فيخيفها.

وهي تعيش معه ولا تفعل!! غائبة حاضرة، يروح ويجيء والأمر سيان.. تشرد وتغيب أحيانًا، تضحك وتشاركه الكثير في أحيان تالية، تصنع قهوته

وتقدمها له حين انشغاله فيبتسم شاكرًا وتخجل هي، خجلها يذيبه فعليًا، بريئة لم ينل من روحها سواد رغم الألم والجرح الغائر والندبة الموسوم بها القلب.

تعلمت بضع وصفات كما طلب منها في مرة، تنفذ بدقة فتنجح واحدة وتحرق الكثير، وعندها يسخر منها، يشاغبها، يشاكسها، يخرج منها عنادها اللطيف الذي لا يكتمل يومه بدونه، وتبرمها الذي يحمل رائحة الطفولة الشقية ممتزجة بنكهة الأنثى التي لا تعلم كم هي...

أوقف ذهنه الشارد، كم هي ماذا يا رجل؟!.. تمالك نفسك، وبخ عقله الذي يغيب فيها كلما أتيحت له الفرصة، أهي قصة محكوم عليها بالفشل؟!.. أم يمكنها النجاح والاستمرار؟!.. زفر بانزعاج، وعاد ينتبه لتصميم مشروعه الجديد بين يديه منحيًا إياها بعيدًا عن أفكاره.

سمع صوت صراخها المفاجئ، ككثير من الليال، كابوسها لايزال يتكرر بين فينة وأخرى، أنفاسها حينها تكاد تنقطع ونبضات قلبها تعلن التمرد فتتقافز بعنف بين ضلوعها، لا يملك ما يفعله وذلك الإحساس العاجز يكبله ويغضبه حد الهياج فلا يتحمل كتمانه.

يود لو يستطيع منحها الشعور الكامل بالأمان لكن كيف!!

نهض مهرولًا بسرعة تجاه غرفتها، وقف أمام بابها بتردد، هل يطرقه!!.. يفتحه!!.. يناديها ربما؟!.. رفع يده لكن قبل أن يلمسه انفتح واندفعت هي

عبره لترتطم بصدره وترتد للخلف في رد فعل عكسي، حاولت التمسك بأي شيء قبل أن تسقط فمد كفيه بتلقائية يمسك بمرفقيها ويجذبها إليه.

اعتدلت بين يديه بصمت مرتعش، رفعت عينيها نحوه ودموع تلتمع في مقلتيها، شعر برجفتها فتركها بمفاجأة أشعرتها بالبرودة، لا يدري هل ترتجف خوفًا مما تراه في كابوسها الملازم لها أم هلعًا من لمسته!!.. تفحصها بنظراته، همس لها بتساؤل:

- نفس الكابوس!!

هو لا يعلم تفاصيله لكن يمكنه أن يخمن، يكفيه الهلع المرسوم على وجهها الناعم، أما هي فبكت، لم تتحمل أكثر، ثم أومأت بنعم صامتة..

ازداد شعوره بالعجز، زفر بحدة وهز رأسه يائسًا، لقد ظل طيلة الثلاثة أسابيع الماضية إلى جوارها، يعلمها شيئًا جديدًا تشعر من خلاله بالقدرة على السيطرة والتحكم التام، الإنجاز وتحقيق الهدف، زار معها طبيبتها وزارها وحده حين طلبت منه، نفذ التعليمات كلها حرفيًا، لكن خوفها لا يزول.

فتح فمه ليتحدث فقاطعته طرقات قوية متتابعة على باب المنزل، عقد حاجبيه بينما ارتعشت هي أكثر واختلجت عيناها تنظران إليه بتوتر مرتبك، تأكد من الوقت الذي لم يتخط الحادية عشرة بعد، أمرها بخفوت حازم:

- ادخلي جوا وإقفلي الباب.

تابعته بعينيها للحظات ثم استجابت بقلق، أغلقت بابها خلفها واستندت إليه تنصت لمن بالخارج، توجه هو لمقابلة الطارق والذي ما إن غادر باب المنزل إطاره حتى اندفعت عبره تلك القبضة القاسية في وجهه بعنف شرس أرجعه خطوتين للخلف وأدمى جانب شفتيه، رفع عينيه للقادم بغضب تلاشى في لحظة عندما ظهر وجهه في دائرة الضوء..

تمتم لنفسه عالمًا أن المواجهة قد حانت:

- عمار!!

(٢٩)

لا تتركيني

آه يا حبيبي..

تلك الكلمات قتلتني.. ذبحتني.. طحنت قلبي.. أماتت كلمات الحب على شفتي..

انتظرت لسنوات أحلم بطفلٍ يسكن أحشائي..

وحبٍ يلف حياتي..

ورجلٍ يكون ملاذي..

تأتي الآن تئد فرحتي بإصرار!!..

تقولها في وجهي بكل صفاقة!!..

تقتل روحي وتذر الملح علي جروحي!!..

قمة الوجع..

قلبي الآن مكعب بارد فى مواجهة شمس غضبك الهادر..

تخنقي العبرات ولكن لن أبكي وسأحارب..

إن كنتَ آدم القاسي المكابر الخائف المتشبث بظلال الماضي؛ تتقن دور المتأذي!!..

فأنا حواء المغرمة القوية المدججة بحبها..

ستجتاح أسوارك وتفك أغلالك.. وتنير ظلامك.. وتسقيك جرعات الحب قطرة قطرة..

إهداء/ زهرة الكاميليا

حين الخوف؛ تتلبسنا شياطين الذكرى، تحيي عبق ماضٍ لم يمت، لم يُدفن، ولن يُنسى.. ماضٍ رسم الطريق نحو حاضر شائك، معقد.. يحمل بقايا ترسخت في الذهن والعقل والروح وترسبت فوق شغاف الفؤاد حتى منعته خفقات الحياة..

ما ذنبها!!..

نعم، هي زوجته الحنون التي احتوت أوجاعه واستمعت لشكواه الوحيدة، مَن ألقى بهمومه فوق صدرها وامتصت منه أحزانه باهتمامها وحنوها..

ما ذنبها إن كان هو لديه عقده الخاصة من ماضيه الظالم والمظلم؟!..

ما ذنبها وهي كانت تعطي وتعطي.. دون أن تنتظر منه المقابل!!.. وعندما منَّ الله عليها بنعمة انتظرتها طيلة عمرها ذبحها هو بالرفض..

بعقدة الخوف التي تمكنت من خلاياه خلية خلية حتى استحكمت حول عقله وأفقدته البصيرة والتفكير السليم..

كيف كان غبيًا لهذه الدرجة!!.. هذا هو طفله أيضًا، ولها هي الدنيا، لها هي النور في وسط عتمة لطالما أحاطت بها، لها هي الأمل الذي حلمت به لسنوات.. وانكسرت بسببه كذلك.. ثم أتى هو بكل صلف وحماقة فكسرها لمرة ثانية..

عدم حملها مع مَن سبقه إليها كسر فيها إحساس المرأة الكاملة، الأنثى التي تمنح زوجها وريثه، الأم التي تشبع غريزة ولدت بها بطفل تتمناه منذ كانت تلعب بالدمى..

وحملها معه كسر فيها الفرحة التي تطلعت إليها كمشتاق لقطرة ماء وسط صحراء قاحلة كاد يلقى حتفه فيها عطشًا.. فأتى هو.. سقاها، بل رواها، أزهرت وأينعت، اهتزت وربت.. ثم اجتث ما زرع من جذوره بكل قسوة دونما اكتراث لندبة يعلم أنها لن تنمحي مهما بذل لاحقًا من جهد..

كيف أمكنه فعل ذلك بها وهي مَن قدمت له كل شيء؟!..

منحته خلاصة نفسها.. كل قطرة فيها؛ في أمومتها التي لم تبخل بذرة منها مع ابنه أو حتى معه هو.. في أنوثتها التي كانت تشبع بها رجولته.. في عقلها الذي كان يوزان الأمور مع عقله.. في حنانها الذي كان مصدر راحته وأمانه.. وفي

نظرة عينيها التي دومًا ما أشعرته بالرضى عن الذات لما فيها من تقدير وصل مؤخرًا حد الانبهار.

ماذا كانت عطيته هو في المقابل؟!..

استنزف منها كل ذلك، وعندما وفر له القدر الفرصة في أن يشبع احتياجها تصرف بأنانية.. لا، بل بجبن.. جبن ممزوج بحقارة وظن يعلم عن يقين مدى خطأه..

هي أبدًا ليست مثلها، لم تكن في لحظة ولن تكون.. ابتسم بسخرية مريرة..

"فريدة"..

عقدة لم يحلها الزمن، ولم تؤثر بها علاقات تحسنت في ظل ظرف قاتل.. عقدة مربوطة بذكريات أكثر من ثلاثين عامًا، وآلام تركت ندوبها على جدران قلبه وروحه.. عقدة التف حولها خوفه على طفله الوحيد أن يصبح في يوم ما ونتيجة اختيار خاطئ وماضٍ مكرر.. مجرد نسخة منه هو.

أنبه ضميره بقسوة:

"يالك من جائر!!.. هذه ليست هي تلك، ووضعهما في سلة واحدة لهو الظلم بعينه"..

وصدَّق على حديث الضمير العاتب.. نعم، لقد جار وآذاها، ويعلم أنها لن تسامحه ببساطة، وربما لن تسامحه على الإطلاق..

كلما اقترب خطوة أوقع نفسه في الخطأ ليعودها وأخرى معها للخلف.. لم يظن في نفسه حماقة حد الغباء من قبل.. لقد تأكد الآن، هو أبله، أرعن.. لكنه أيضًا تائه يخشى ما لا يراه بعينيه أو يمسكه بين يديه.. والمستقبل مجهول حتى لو كان أساسه الحاضر متينًا قويًا.

أدار محرك السيارة بعدما دار بها كثيرًا في شرود، لقد اتخذ القرار، سيعود إليها، يتوسلها، يستجديها.. يطلب عفوها ويناشدها الصفح، سيتذلل ويدلل.. ويهمس لطفله طالبًا الغفران؛ لقد رفض ابنه!!.. كيف يهتم بواحد ويهمل الآخر؟!..

يبحث عن راحته وينسى أن جنينها من صلبه هو أيضًا؟!..

سب نفسه ثانية وانطلق عائدًا على أمل في أن تكون زوجته كما عهدها على الدوام.. كتلة من العطاء والحنان والتفهم والعقل.

ارتفع رنين هاتفه بشكل مفاجئ، عقد حاجبيه والتقطه يدقق النظر.. أجاب بقلب متوجس:

- أيوة.. خير؟!.. إيه بيسأل عليه؟!.. طيب طيب اطلعوا اطمنوا وشوفوا من بعيد لو في حاجة وأنا مسافة السكة وجاي.

أنهى المكالمة وقلقه ينمو.. تنهد بضيق فعلى من أغضبها أن تنتظر قليلًا لأن هذا الأمر لا يحتمل التأجيل.

******

في مواجهة العواصف أمامك خياران..

إما أن تكون لين العود فتنحني حتى تمر؛ أو تتصلب واقفًا فتنكسر..

وقوفك لا يعني قوتك الصرفة، والانحناء لا يشير إلى الضعف.. فسنابل القمح تتمايل تبعًا لاتجاه الريح فتمنح الخير، ويتماسك النخيل فننال الثمر.

وهو لم ينحنِ في مرة ولم يكن ليفعل في هذه اللحظة حتى لو انكسر وتحطم، لكن عندما تقابلت الأعين بنظرة.. نظرة ذهبية تتألق فيها شرارات نارية تشي بهياج، ولمحة عاتبة مع وجع في ركن منزوٍ، لم يستطع الصمود.. لم يفكر بالوقوف والعناد، ولم يسعَ للمواجهة بل قرر الصمت حتى يعبر الإعصار بسلام، لم يفكر حتى كيف وصله الخبر!!.. فالأصدقاء المشتركون كثر ومعظمهم كانوا في زفافه.. يكفي أن يكون لدى أحدهم فيديو من الحفل فتنتهي القصة وينتقل الخبر..

وها هو الغاضب أذاق فكه اللكمة بقسوة ثم دخل بانقضاضة وحشية، جذبه من قبة قميصه القطني، وعاد يلكمه ثانية، لم يرد الضربة بل لم يفكر حتى بالدفاع عن نفسه.. المجروح لديه كل الحق وإن لم يدرِ شيئًا عن بداية القصة!!..

لكمة في معدته، أخرى في وجهه، ثم دفعة عنيفة اصطدم على إثرها بطرف الباب فسمع صوت تحطم أحد أضلاعه يطِّن في أذنيه، سقط أرضًا يتأوه بعنف محاولًا حماية صدره بذراعه، لكن "عمار" انقض عليه ثانية، يسحبه من ملابسه..

يصيح في وجهه والنيران تكاد تندلع من عينيه لتحرقه:

- ليه هيك يا زياد!!.. ليه؟!.. خنتني ليه!!.. سرقتها مني ليه؟

لم تسعفه الكلمات برد!!..

هل سيخبره أنها كانت تحتاجه؟!.. أنه وقع بنفسه عقد البيع وأنهى الصفقة قبل أن تبدأ عندما وافق رأيها الذي لم يعرفه بل وألصق بها التهمة!!.. أنه قبض الثمن رغم رفضه للمبدأ وتنازله عنه فيما بعد؟!

مع صمته الشارد خرجت هي تداري خصلاتها القصيرة المبعثرة بوشاح لم تعقده بثبات، تصرخ في الواقف بذعروتأمره بنبرة مهتزة:

- عمار!!.. سيبه.

التفت إليها الاثنان بحدة، أحدهما ناره حارقة على من يظنها خانت وقد منحها ميثاق العشق، والآخرلم يكتف بنظرة بل صاح غاضبًا ببقايا القوة التي تستقرفي جسده:

- أنتِ إيه اللي طلعك دلوقتِ؟!.. ادخلي جوا...

صرخة عاتية أجفلتها فنظرت إليه بصدمة مرتعبة، كررها بصرامة تختلط بالأنين:

- جوا يا سارة.

لكنها تجمدت، لم ترغب في تركه وحده يواجه أخطاءها هي.. يتحمل عنها المواجهة ويتلقى اللوم على نبل اقترن باسمه في قلبها، يوصم بخيانة وهو الرجل الشهم الذي وزر أوزار غيره بزواجه منها..

قدماها لم تتحركا تنظر إليه ثم تنتقل بنظراتها للثائر الذي نفضه عنه واستدار يواجهها، عيناها أصبحتا أسيرتين لقدر الذهب المصهور الذي يطالعها بقهر وغضب ونيران متأججة، يتقدم نحوها خطوة مخاطبًا من تركه خلفه يئن على الأرض:

- لشو تدخل جوا؟!.. خليها معنا، لناخد رأيها، لنعرف لشو خانت!!.. لشو باعت!!

انكمشت على نفسها في هلع أمام عينيه المشتعلتين بنيران من قلب سعير الوجع..

تغضن جبينه بحيرة يتأمل خوفها غير المبرر منه.. هل تظنه سيؤذيها هي أيضًا؟!.. تعتقد أنه قد يضرب امرأة حتى وإن كانت خائنة طعنته في ظهره وتسلمت منه قلبه ثم دهسته بقدميها ولم تبالي!!..

حاول "زياد" النهوض بتأوه مكتوم، نبرته العالية كانت متوجعة لكنها اكتسبت صرامة مخيفة وهو يخاطبه:

- ابعد عنها يا عمار..

الصوت انتشلها من حالة الفزع التي غرقت فيها، لكنها لم تستطع تحريك عينيها بعيدًا، ظلت مسمرة مكانها كلوح من الثلج البارد ترتعش دون أن تعلم أن رجفتها خلعت قلب زوجها عليها..

تلاشت حيرة "عمار" كأن لم تولد مع النبرة الآمرة، التفت إليه برفعة حاجبين:

- شو بتظن رح أعملا!!

اعتمد على ركبته يدفع نفسه للوقوف واللهجة أصبحت مهتاجة:

- بأقولك ابعد عنها.

دهشته في هذه اللحظة أصبحت حقيقية لكنه استمر هازئًا:

- شو غيران!!.. بيلبقلوا الحمش.

كان قد استوى واقفًا يستند بيده للجدار وساعده يحيط بصدره المتألم، الأنفاس موجعة كأنما قطارًا قد داس فوق جسده، نظر إليها بقوة ونطق أمرًا حازمًا بلهجة متقطعة:

- ادخلي.. جوا.. يا سارة.

اتجاه نظراتها ينسلخ نحوه، ترى في عينيه غضب، وجع.. وشيء آخر لم تفهمه وربما تخشى أن تحاول..

صرخ بها بما تبقى من قوته:

- جوااا.

وأخيرًا تحركت قدماها في استجابة لأوامر المخ الذي تيبس في حالة شلل مؤقت، منحته نظرة متوسلة ترجوه بها صفحًا أو ربما تمنحه اعتذارًا وقد تتوسله بها البقاء إلى جواره.. أبعد عينيه عنها وفي طرف النظرة كانت خطواتها الراحلة..

لكن "عمار" لم يمهله الفرصة لالتقاط أنفاسه، انقض عليه ثانية يدفعه خطوة واحدة أمامه حتى صدم ظهره بالحائط، عض شفتيه بقوة مانعًا صرخة ألم من تخطي حاجز كتمانه..

أمسك بعنقه حتى كاد يخنقه:

- شو!!.. خايف عليها مني أنا!!.. أنا ياللي حبيتها!!.. أنا ياللي سافرت منشان ارجعلها وخليها على اسمي!!.. مين ياللي خان، مين ياللي من حقه يغضب؟!.. ليه عملت هيك!!.. ليييييه؟!

حبس تأوهاته، تفصد جبينه عن عرق يخبرعن آلامه، لكن الهمسة خرجت دون إرادة والنبرة كانت صادقة حد إقناع الواقف قبالته:

- بحبها.

وأصبحت ضربة قاصمة لكنها لا تبرر خيانة أو طعنة في الظهر، امتدت يد "عمار" الثانية لتمسك الاثنتان بقبة قميص "زياد".. يجذبه ويعود فيصدمه بالجدار، يصرخ في وجهه، وتخرج منه الكثير من الكلمات دون أن يسمعها بوضوح مَن كاد يفقد وعيه.. ثم أتى الارتطام الأخير الذي أصاب رأسه فدارت بعنف..

حاول فتح عينيه والدم يسيل على وجنته بسرعة، الآخر يسأل، يحاسب، يصرخ، ولا جواب.. فقط نظرات متألمة جامدة ترفض منحه راحة رد.

دفعة أخيرة كأنه يشمئزمنه، وهمسة بحقد حانق:

- خاين.

ثم اتجه نحو الباب يطلب الرحيل.. قبل أن يصله بخطوة وجد رجلين ضخمي الجثة يحيطان به وثالث يندفع للداخل محاولًا دعم "زياد" المتكئ على الجداروالدم يكاد يغرق وجهه بهتاف مهتم وصوت خشن حاد:

- زياد بيه!!..

كبلا "عمار" بغلظة في حين علت الدهشة وجه "زياد" المتسائل عن هوية هؤلاء الرجال ونال نظرة محتقرة من صديقه كأنه يقول له:

"تزوجت المال والنفوذ.. هل هذا ما كنت تطمح إليه؟!"..

شعر بغضب كأن الصورة لم تكن سيئة بما يكفي ليظهر هؤلاء فتصبح أكثر تشوهًا، حاول أن يصبغ حديثه بلهجة آمرة رغم النار الحارقة التي يشعر بها مع كل نفس:

- سيبوه..

تردد الرجلان وأحدهما يغمغم باعتراض:

- بس يا زياد بيه ده...

قاطعه بحدة حابسًا آهة كادت تنطلق من حلقه:

- قلت سيبوه.

تركوه فعدل ملابسه بتقزز محتقرًا الموقف كله، رمقه بنظرة أخيرة تتهمه بالخسة ثم رحل..

أشار للرجال بالمغادرة دون أن يقوى على الوقوف، لقد اكتفى.. حقًا اكتفى ولم يعد هناك من مجال للمزيد..

ارتبك الضخام ثانية لكنه زجرهم بعينيه دون صوت فترددوا للحظة أخرى ثم رحلوا يقفون في الممر المقابل للمنزل، عندها تهاوى "زياد" على ركبتيه، يئن.. وينعي فقدان الصديق..

خرجت هي تهرول عندما سمعت صوت إنغلاق الباب، تهتف باسمه والذعر يملأ ملامحها حتى شهقت بفزع بينما تقف أمامه تتطلع لوجهه المكدوم، جانب شفتيه المجروح، الدم الذي يسيل من أنفه وجبهته، انحناءته للأمام يدعم صدره وذلك الأنين الذي عصر قلبها:

- زياد!!

والهمسة كانت آخر قشة، رفع عينيه إليها:

- إيه اللي خرجك من جوا؟!

تلعثمت، لقد خافت عليه.. ألا يفهم ذلك؟!..

"عمار" لديه كل الحق، يظنها باعت حبه ويصدق أن صاحبه قد خانه..

وزوجها قدم لها من التضحيات ما يكفي ويفيض ثم في النهاية خسر صديقه، وتحطم جسده.. فوجئت بزعيقه:

- خرجتِ ليه من جوا!!

نظرت إليه بضعف تحاول الرد لكنه أكمل بغضب أخافها:

- خايفة على حبيب القلب؟!

تراجعت خطوة في صدمة لا تصدق أنه يعتقد أنها باقية على عهد حب ذُبح منذ ذُبحت هي:

- زياد!!

لكنه لم يأبه لها، حاول النهوض بصعوبة وآهاته يحبسها خلف شفتيه المزمومتين بقوة، يستطرد كأنما وجعه يتضاعف ويتضاعف:

- ما كنتش هاقدر أأذيه مهما عمل.. هو عنده حق، أنا خنته.

كانت تريد مساعدته، حاولت دفع نفسها للاقتراب ومساندته.. فقط لم تستطع، لذا اكتفت بالهمس الضعيف تسعى لتبرير:

- أنت وقفت جنبي.

التفت يرميها بنظرة لم تفهم معناها، ثم عاد يسير ببطء معتمدًا على الحائط، ما أوقفه كان سؤالها المتوجع:

- ندمان يا زياد؟

تعالت أنفاسه أكثر، دعم صدره بساعده وفكر لثانية قبل أن يجيبها بحسم:

- قلت لك مش هاندم.

لاحقته نحو غرفته، كان يريد خلع قميصه الذي تناثرت فوقه دمائه دون أن يمكنه رفع ذراعيه، أنَّ لثوان يكتم شهقة ألم كادت تحرر نفسها من أسر إرادته الصلبة، وقفت لا تدري ما تفعل حتى لمحها فدمدم من بين شفتيه بغضب:

- روحي أوضتك.

ترددت للحظة ثم حسمت أمرها تخبره بتوتر:

- أنا كلمت آدم.

تفرق جفناه عن نظرة شيطانية أرعبتها وهو يكاد يصرخ:

- إيه!!.. كلمتِ مين؟!.. وقلتِ له إيه؟!.. حبيبي بيتخانق مع جوزي اللي سرقني منه؟!

تراجعت خطوة بذهول:

- زياد أنت بتقول إيه؟!

جلس على الفراش فلم يعد يستطيع الوقوف وهو يجيبها بعنف شرس:

- إيه!!.. مش ده اللي حصل؟!.. بررتِ الموقف بإيه؟!

هزت رأسها بنفي ونبرتها انكسرت لخفوت لا يكاد يُسمع:

- قلت له يجيب دكتور وييجي ما قلتش تفاصيل.

سلط عليها سهام نظرة حارقة فأكملت دون أن تهتم.. لقد سئمت طريقته هذه حقًا:

- وبعدين مش كل مرة تقولي حبيبك.. قلت لك قبل كده وباكررها تاني.. أنااا.. مرااتك.. أنت.

تضغط أحرفها حرفًا حرفًا وتفقد قلبه نبضة.. بل اثنتان، لا بل ألف.. اللعنة عليها وعلى صوتها الناعم الذي يزيد في الحديث:

- ليه مُصر كل مرة تفكرني بقصة انتهت قبل ما تتكتب؟!.. حدوتة وردية أنا بنفسي قررت نهايتها ومن قبل أنت ما تطلب تتجوزني..

وأكملت بألم:

- ليه بتظن إن بعد ما بقيت مراتك هافكر في واحد تاني حتى لو جوازنا محكوم عليه بالإعدام!!..

رفع عينيه إليها فجأة، تعثرت الكلمة بعرض حلقه حتى كاد يسعل فعليًا، يبحث في عينيها عن تأكيد لما نطقت به لكن ما قابله هو القنوط:

- ليه مصمم تحشر الماضي بينا وأنا باحاول أنساه؟!.. متمسك بيه ليه؟!

وواجهت نظراته بصلابة:

- أنت اللي بتفكر فيه مش أنا..

ألجمه ما قالت، حقًا هي اختارت وأنهت القصة قبل أن يفكر في الزواج منها؛ فلمَ يضع العراقيل في طريقه إليها بنفسه كأحمق أعمى؟!..

قبل أن يجيبها أو تغادره هي ارتفع رنين جرس الباب باستمرار مزعج جعلها تتحرك نحوه بجملة قصيرة:

- ده أكيد آدم.

فوجئت بصياحه الحانق:

- استني هنا أنتِ رايحة فين؟

ارتبكت للحظة ولم تفهم ما يقصده فنهض بعسر:

- روحي أوضتك أنا هافتح.

كادت تعانده لكن ملامحه المتغضنة بالألم جعلتها تبتلع لسانها وتلتزم لأمره بخطوات سريعة، اتجه للباب وفتحه ببطء، ظهر من خلفه وجه "آدم" القلق والذي ما إن لمحه حتى ظهرت عليه الصدمة وهو يتلقاه بين ذراعيه عندما أصابه دوار مفاجئ:

- زياد!!.. إيه اللي عمل فيك كده؟!

******

"ممكن أفهم بقى إيه اللي عمل فيك كده وليه؟!"

سؤال يستعصي على جواب.. هل سيخبره أن حبيب أخته الصغيرة، مَن خطفها منه وتزوجها حال غيابه مقتنصًا الفرصة، أنه عاشقها.. أتى بعدما اكتشف خيانة الصديق ونال منه، حطم له ضلعًا يئن لوجعه وتناشده رئتيه طلبًا للهواء فيمنحه لها بآهة ألم تتوارى خلف صمته.. أهانه واتهمه بالخيانة؟!..

وما أفضل من وضع تلبس، الجاني والجانية وعقد زواج!!..

طال السكون ولم يكن هناك بد من مهرب أو ربما هجوم بسؤال يؤرقه بقدرما يثيرسخطه:

- ممكن أنا أفهم مين الناس اللي برا دول؟!

فهم "آدم" التفافه حول إجابة سيحصل عليها ولوعنوة، جاراه مؤقتًا:

- حراسة يا زياد، أظن ده منطقي..

اشتعلت عيناه بقتامة:

- حمايتها مسئوليتي أنا..

مال نحوه بحزم لا يخلومن تأنيب:

- حماية سارة مسئوليتنا كلنا..

حاول الاعتدال لكن كل ما ناله المزيد من الألم فسكن بنبرة ثائرة:

- بس هي مراتي.

زوى "آدم" ما بين حاجبيه بكلمة:

- وأختي.

ثم أغلق الأمربشيء من حدة تلبست صوته بغتة:

- مش كل ما هنقدم لسارة حاجة هتاخد الموضوع بحساسية كده.. أختنا يا زياد.

نظر إليه بجمود، اكتنف ملامحه ذاك الغموض الذي يكرهه أخيه الأصغر بل ويخشاه، لم يهتم بل عاد يبحث عن رد وفهم للموقف:

- ممكن تفهمني بقى إيه اللي حصل؟!

أشاح بوجه يجيب بنبرة باهتة:

- واحد صاحبي زعلته وخد حقه خلاص.

لم يتوقع اللهجة الغاضبة التي وصلت لأذنيه:

- خد حقه في بيتك اللي فيه مراتك!!..

التفت إليه فأردف بهدوء حاول افتعاله:

- زياد.. أنا واثق فيك.. بس مشاكلك مكانها برا البيت، خليني أطمن على أختي معاك.

كاد يسخر.. الآن ماذا؟!.. يناله التوبيخ من العاقل الكبير وآه لو يعلم السبب؛ هي..

أغمض عينيه بتعب ومنحه وعد الطمأنينة:

- ما تقلقش يا دكتور.. سارة دايمًا في أمان معايا.

وصدقه، هو يعلم.. رغم ما حدث الليلة والذي لا يفهم له سببًا، لكنه على يقين أن هذا الفتى هو رجلها المناسب، وحاميها الجديد..

نهض من مقعده الذي جاور الفراش الراقد فوقه "زياد" بإنهاك، وكان رده بحنو صادق:

- أنا واثق فيك زي ما قلت لك.. هانزل أجيب لك الدوا ده وأوصي حد يطلع يديك حقنة المسكن عشان ترتاح.. حاول تنام.

فتح عينيه ولاحقه قبل ذهابه:

- استنى لحظة.. ساعدني ألبس قميص.

استدار إليه وغمزه بابتسامة يتعجل الرحيل:

- مراتك عندك تلبسك.. سلام.

وسابقت خطواته بعضها البعض فقد تأخر على أكثر الناس احتياجًا إليه في هذه اللحظة..

قطب "زياد" جبنيه بحنق طفيف، كيف سيطلب منها مساعدته؟!.. بل كيف ستراه عاري الجذع دون أن تهرع هاربة من المكان؟!..

ابتسم بتسلية، انقلبت لزَّمة شفاه متألمة وهو يرفع نفسه في الفراش، فكر للحظة ثم أراح ظهره ثانية وجذب الغطاء حتى عنقه، أغمض عينيه يحبس أوجاعه التي شملت جسده كله.. وعقله الذي تناوبت عليه الأفكار فصرعته.

في طريقه مر "آدم" على طاقم الحراسة بتنبيه يعلم أهميته..

"لن يُكتب ما حدث الليلة في تقريرهم الأسبوعي الذي يقدم لأخيه"..

نعم وإلا سيحطم "أدهم" ما بقي من أضلع سليمة في جسد الفتى!.

******

تكون السقطة أقوى وأكثر عنفًا وألمًا كلما ارتفعنا لأعلى، وإذا علا سقف الطموحات خاصة في دنيا العشق يكون الوجع أكبر والسقوط مدوٍ والأثر قاتل..

الغبي، المتهور، الأرعن معدوم المشاعر..

قتل بداخلها سعادة لتوها خرجت من رحم أوجاعها التي لازمتها لسنوات، اغتالها بجمود قاسٍ ولم يتورع ولو للحظة عن عملية ذبح متقنة كخبير في فنون نزع الروح..

طفلها.. مصدر كمالها الأوحد ودليل اكتمال أنوثتها الأجمل.. المشبع النهائي لغريزة في حالة اشتياق، والتربيتة الحنون على قلب لطالما أنَّ وانتظر، نديمه الأمل وونيسه الطمع في رحمة الودود، حتى وصلته أنفاس البعث..

وحضر هو فحبسها بكلمة، وقطعها بنظرة رفض.

الأحمق!!..

كانت على وشك التصريح بعاطفتها نحوه، تخبره وتغدق عليه من فيض قلب يخوض بحار الغرام بقوة جديدة عليه، يغرق ويغرق ولا أمل له في نجاة لكنه في ثوان قلب الموازين وأخل بنظام مشاعري كانت قد أرست قواعده لأجله هو..

قررت الرحيل..

ربما للأبد وربما حتى ترتاح.. تفكر وتحلل حتى تمتلك القدرة على مواجهته، فلو وضع أمامها الخيار سيكون هو الخاسر حتمًا حتى لو ملك قلبها بكل غرفاته وأركانه..

ستدوس فوقه وتسجنه وتمنح الحياة لمن منحها هي الحياة..

خطت نحو غرفتهما بعزم، التقطت الحقيبة الكبيرة من أحد الأركان ووضعتها فوق الفراش، ألقت ملابسها داخلها بعشوائية، سترحل وهذا هو

القرار الأخير والصحيح.. ستأخذ طفلها المسكين الذي يرفضه أبيه وتترك له العالم بأسره ولن تنظر إلى الوراء أو تهتم.. ثم دمعت عيناها بشجن..

كيف استطاع؟!..

كيف سمح له قلبه؟!..

بل كيف أفقد ضميره الوعي ليفعل بها ما فعل؟!..

أنهت ما تقوم به فأغلقتها وأنزلتها تجرها إلى جوار باب الغرفة، ارتدت ملابسها على عجالة وقبل أن تكمل ارتداء وشاحها وجدته معها في المكان..

اقترب منها بسرعة بعدما لمح الحقيبة وسؤال مرتعب يتردد فوق لسانه:

- لميا.. أنت رايحة فين؟!..

انهمرت دموعها، يا إلهي.. ستكرهه، ستفعل، إلا طفلها، إلا هو..

أدارها إليها فبكت أكثر، دفعته بعيدًا عنها وهو يتوسلها الجواب، جففت دموعها بقسوة:

- هاسيب البيت فترة.. محتاجة أرتاح شوية.

جذبها إليه ثانية برجاء:

- لأ يا لميا.. كله إلا كده، هتسيبيني؟!.. هتسيبي يوسف؟!..

ويتشبث بها كطفل صغير تائه يضيع منه ملاذه الآمن..

نظرت إليه بحيرة، تأملته من خلف ضبابية عينيها اللتين غشيتهما العبرات، تفكر فيه وقلبها ممزق بين أمنية غافلتها التحقيق على حين غرة.. ومالك له يستجدي القرب ويتذلل باحتياج هو نقطة ضعفها، لكن الجواب كان نعم ستتركه بل وستتناسى الدنيا كلها.. أنَّى له ذلك؟!.. كيف أمكنه؟!..

أبعدت يده بجفاء تكرر بتأكيد:

- أنا محتاجة أرتاح.

ورده السريع أوجع قلبها:

- وأنا محتاجك.

لكنها اكتفت:

- وفين احتياجي أنا؟!

تهدلت أكتافه في يأس بسؤال منكسر:

- أنا قصرت معاكِ؟!

ردت ببكاء:

- أنت كسرت فرحتي، فتها ودوست عليها من غير ما تهتم، من غير ما تحس.

أوجعته وهي صادقة.. لقد فعل كل ما نثرته في وجهه لكنه حينها كان جبانًا خائفًا، ليتها فقط تفهم وتتفهم.. تحنو كعادتها..

همس باسمها:

- لميا..

قاطعته بحدة تصل للصراخ:

- أنت عارف أنا كنت مستنية اللحظة دي إزاي؟!.. من إمتى؟!.. بتمثل لي إيه؟!..

وتربت على بطنها ببؤس واستكانة:

- هو بالنسبة لي إيه؟!

ثم عادت تدير ظهرها له دون أن تأبه لرده، تحاول استكمال ارتداء الوشاح بأصابع مرتجفة متعثرة، أوقفها بصوت مذعور:

- لميا!!.. ما تسيبيناش، اعملي اللي أنتِ عاوزاه بس...

وتردد قبل أن يلقي بورقة يظنها رابحة:

- طيب بلاش أنا.. يوسف، مش هيوحشك؟!.. مش هتخافي عليه لما تسيبيه لوحده؟!

لكنه أحرق كل أوراقه وانتهى، حينها تجمدت للحظة والفكرة تبرق بذهنها، لا هو لن يفعل!!.. لن يظن بها هذه الظنون.. لن يوجعها أكثر، للأسف لم تمنحه العذر بل فقط زادت فكرتها من غضبها الذي صبته في وجهه بعنف:

- أنت فاكرني زيها؟!.. عشان كده رافض حملي.. رافض تكون أب لطفل مني؟!

زم شفتيه يكبت حزنه ودمعة تسعى للانفلات من أسر جفنيه:

- خوف مشروع.

وترد بألم:

- بتكسرني تاني!!

نظر إليها بدهشة، كان يتمنى تفهمها فقط ولم يعد يعلم ما تقصده، يسعى جاهدًا ودون تصريح جليّ لمنحها مفتاح فك شفرته المعقدة حالكة السواد..

أردفت بوجع أوجع قلبه عليها:

- أنا مش زيها.. أنت اخترتني لأني مش زيها، ولا.. ولا!!..

ثم صمتت تقلب الأمر في رأسها لثوان قبل أن ترفع عينيها إليه باتهام:

- أنت اخترتني لأنك كنت فاهم إني مش باخلف؟!..

رباه!!..

وأنبَّ الضمير وثار وطالب بتوضيح، واستكان القلب خانعًا لخوف لم يتخلص منه وفي الغالب لن يفعل، وهي تحتاج لتأكيد بنفي..

هز رأسه بعنف مستنكرا طريقتها في التفكير حتى وإن ألقى عليها بظلال الصدق:

- لأ.. لأ يا لميا، أنا اخترتِك لأنك أنتِ.. كنت محتاجِك أنتِ.. عاوزِك أنتِ.

واقترب خطوة والنبرة صادقة لحد لمَسَ الشغاف ورفرف له القلب المتلهف:

- لأنك أنتِ اللي بتكمليني.

ثم أتى دورها لتهز رأسها بنفي ترفض التصديق رغم معاندة خافقها وصراخه باسمه يدعوها لتسامح وتقترب..

دنا منها محاولا لمس بطنها.. همس باعتذار:

- أنا بجد آسف.. سامحيني.

وتراجعت خطوتين للخلف ترفض لمسته، بل تنظر ليده بما يشبه الهلع، انهار قلبه بين ضلوعه.. لقد فقدت إحساسها بالأمان معه، بل وأصبحت تخشاه، وعلى من!!.. طفلهما، رفع عينيه نحوها بذهول:

- لميا!!..

أحاطت بطنها بساعديها تخبئها عن عينيه، تحرك جسدها كله دليل إعتراض، ترفض جميع اعتذاراته بل وتمنع عنه احتياجه لها:

- أنا لازم أمشي.

اقترب خطوة ببطء يحاول طمأنتها:

- لأ يا لميا.. أنا آسف، آسف بجد، بس مش هاتحمل.. المرة دي مش هاتحمل، أي حاجة إلا الفراق..

وبصوت يشبه أنين احتضار أردف:

- إلا الفراق يا لميا..

وتبًّا لقلبها الذي بات يعشقه، توجعت لأجله، غضبت منه، خافت عليه، حزنت لحزنه وودت لو تشعل به النيران قربانا لفرحتها التي وأدها في المهد..

اقتربت هي الخطوة المتبقية، تلكم صدره بقبضتيها وتصيح فيه، تسبه، تلعنه، تبكي وتكاد تصرخ، خصلاتها تشعثت واختفى بينها وجهها، يداها في النهاية آلمتاها فتهاوتا في استسلام يائس إلى جوارها..

تقبل هو منها كل ذلك ولم يعلق، تركها تفرغ شحنات انفعالها فربما تسامحه، همس باسمها فوجدها تندفع نحوه ثانية لكن هذه المرة كانت ضمة..

تعلقت بعنقه تضم رأسه لأحضانها بقوة، فأحاطها بذراعيه يضمها برفق حنون ولهفة انبعث منها أمل ما، أنها ستبقى، تسامح وتغفر..

تنتحب وتبكي ومن بين شهقات دموعها خرجت همستها مشحونة بكل مشاعرها المشتتة بينما تضرب كتفه من الخلف بقبضتها المضمومة في وهن:

- أنا بحبك.

وتجمد ثانية بين ذراعيها، سأل نفسه غير مصدق:

"ما الذي همست به للتو؟!"..

ضمته إليها أكثر فاستجاب لرغبتها في القرب، بعد لحظات أبعدها عنه، ينظر في عينيها بصدمة أخرى، يسألها بتردد:

- أنتِ قلتِ إيه؟!

تعض على شفتيها كأنها تأسى لحالها وتشفق على نفسها وعليه:

- بحبك.

والنظرة على وجهه أشعرتها كم هو.. رجلها الكبير العاقل الرزين والمبهم المليء بمخاوف لا حصر لها: طفل صغير ضعيف يحتاجها قبل أي شيء!!..

لم تنتظر منه رد الكلمة بمثلها فهي أدرى بتعقيدات نفسه المضطربة، فقط لتمنحه راحة ما اقتربت من صدره تستكين فوقه وتكررها من جديد علَّها تمنحه شيئًا من أمان:

- أيوة.. بحبك.

وضمته كانت أقوى، يلهث بصوت مسموع، قلبه يهدر بقسوة أسفل أذنها، يناجيها فترفع عينيها إليه باحتواء سكن له قلبه الواجف..

وابتسم بانكسار فابتسمت بضعف..

حملها بهدوء وسار بها نحو الفراش، جلس فوقه ولم يتركها تغادر أحضانه، ظل يهمس لها باعتذاراته، يناشدها العفو.. يرجو غفرانها ويطلب الصفح حتى راحت في النوم المرهَق فوق صدره.

لم تعلم كم مر من الوقت عندما أفاقت على لمساته الرقيقة فوق بطنها.. يتحسسها بأنامل حانية وعينيه تملؤهما التساؤلات بجوار اللهفة الخفية كأنه يشتهي رؤيته ويتمناها، يهمس لطفله بأسف:

- أنا مش عارف قلت كده إزاي!!..

وابتسم بانكسار لمعت معه مقلتاه بتأمل:

- أنت غالي عندي قوي.. زي يوسف بالظبط، سامحني ووصي ماما عليَّ.

والابتسامة احتوت اللطف والرقة هذه المرة:

- يا ترى هتبقى شبهي ولا شبهها؟!.. أنا عاوزك شبهها.. في كل حاجة..

وتنهد بشرود:

- في حنانها وقلبها اللي مليان حب واهتمام بكل حد حواليها، في عينيها الغريبة..

وأغمض جفنيه يضع رأسه فوق بطنها برفق دون أن يترك كامل وزنها فوقها:

- عينيها اللي بتسكنها الناروقت ما تغضب عشان اللي بتهتم بيهم..

ابتسمت بإشفاق، نعم.. هذا هو زوجها، بل طفلها الأول.. احتياجه لها يشبع بداخلها الكثير رغم قوته وغموضه وإخفائه لمشاعره على الدوام، مدت يدها تربت على شعره بنعومة، رفع وجهه إليها فبادرته والنبرة عطوف:

- بتعمل إيه!!

اقترب منها يدفن أنفه في عنقها، يتشممها ويغرق في عبيرها:

- بنتعرف أنا وهو..

أغمضت عينيها وتنهيدة ارتياح تخرج من بين شفتيها..

همس عند أذنها:

- بأقوله عاوزه يشبهك في كل حاجة..

وتراجع ينظرفي عينيها بتأمل:

- كل حاجة..

تطلعت إليه وهي تتيه فيه، ما الذي فعله لها ليحصل على تلك الدقات الجنونية بين جنبيها؟!.. ليمتلك الساكن بين ضلوعها ويقلب موازينها رأسًا على عقب؟!..

ابتعد أكثر يدور بنظراته حولها دون مواجهة والارتباك يملأها كأنه يبحث عن كلمات ضائعة، تساءلت بعينيها ليهمس برد متلعثم:

- هو ممكن!!.. أنا عارف إنه مش المفروض... يعني.. في الشهور الأولى.. يعني ممكن...

وقاطعت تلجلجه بجذبة وقبلة تملكت بها زمام المبادرة.. وكما اعتادت تمنحه نفسها حتى آخر قطرة.. فيطمئن، يسكن إليها.. ويرتاح.

بعدما هدأت عاصفته القلقة التي كان فيها مختلفًا مراعيًا لأقصى درجة بطريقة أراحت قلبها، استقر رأسه فوق صدرها، راح في نوم عميق بينما أناملها تتخلل خصلاته الناعمة الطويلة وتشرد فيما آل إليه حالها مع رجلها ذو الماضي المظلم.. صاحب فوبيا الفراق اللعينة، وفؤادها الذي ملكه دون إرادتها.

****

جسد خامد لا تتحرك فيه أنملة.. وعقل لم تصبه هفوة الخرف ولو للحظة..

مشتعل بالأفكار متأجج بالصراعات ويختفي وراء كل فكرة.. شعور بالذنب..

هذا هو جزاؤك العادل "ناريمان".. أهملتِ ابنتك بل وحرضتها على الفسوق وبيع جسدها إن كانت بثمن البيعة ستمتلك ما هو أغلى، حولتها لمشروع عاهرة وكنتِ ستنهين المتاجرة بها بزواج من ابن الحسب والنسب صاحب الملايين، وفي زاوية أخرى علاقة مستمرة تحت مسمى خيانة مدفوعة الثمن مع "طارق" الذي علمتِ بمطاردته لها ولم تهتمي..

ثم دمرتِ فتاة بريئة لم تصدر منها إساءة إليكِ أو حتى لابنتك فقط لتحقيق نشوة انتقام أحرق قلبك نحو عدوة بمسمى سابق.. "صديقة".. ولا فارق بينكما في الواقع، أنتما الاثنتان نفس عجينة الوحل، قذرة.. وسخة.. ومن يغوص فيها لابد وأن تطاله بقذارتها.

خرجت أنفاس من صدرها كأنها تتنهد، تسعى لراحة ولو بدفقة هواء حار تخرجها ولا فائدة..

من خلف حجب الظلام أتاها الصوت، باب الغرفة يفتح!!.. لا تعلم كم الساعة لكنها بالتأكيد تخطت منتصف الليل وهي على حالها، أرقها لا ينتهي، وسويعات نومها معدودة ومحدودة..

وسعت عينيها تنتظر ظهور أحدهم لكن صوت إنغلاق الباب بإحكام هو ما أتاها، وعلى ضوء الأجهزة المحيطة بها ظهر آخر وجه تتوقع رؤيته.. هذه ليست ممرضتها المعتادة في المناوبة الليلية.. بل هو..

مَن لم ترتح له في لحظة، وتظن به أسوأ الظنون.. ذلك الأربعيني الذي يلتهم ابنتها بنظراته في كل زيارة، وبعدها يتظاهر بمساعدتها وتوفير راحتها ويختلس بضع لمسات للجسد الساكن تصيبها بقشعريرة تجمدها أكثر بل وتشل عقلها للحظات..

اقترب وزاد في اقترابه ودقات القلب تتعالى دون فهم حتى لو خمنت..

وقف إلى جوار فراشها بابتسامة شيطانية واللمعة بين جفنيه أرعبتها، انحنى متخطيًا حدوده المسموحة:

- إيه!!.. الجميل لسه صاحي لحد دلوقتِ ليه؟!

كل الأسئلة حملتها مقلتاها نحوه، وفهم وأجاب بأريحية وهو يجذب غطاءها بعيدًا عن جسدها الخامل:

- قلت آجي أسليكِ بدل ما كل يوم تسهري لوحدك.

وليتها تتحرك، بل ليتها تصرخ، ما الذي ينوي فعله؟!.. رحماك يا رب..

الآن تذكرت أن لديها خالق.. تلجأ إليه وقت الحاجة وتخشاه حين تتجبر..

راقبته بصمت لا حراك فيه ولا تمتمة، يخلع زيه الطبي فيظهر صدره العاري أسفله، لم تستطع النظر فتحرك جفناها بعسر تغمض عينيها..

شعرت بأنفاس مقززة تحمل رائحة عطنة لم تطقها تلهب وجنتها، يد تتسلل نحو عنقها تداعبها وتتحسس فيها النبض الذي أضحى كهدير موجات عاصفة، زيها الذي ارتفع عن جسدها حتى لامس وجهها وعري بات واضحًا وغرض أصبح جليًا وحساب عسير يخبرها أن الأيام دُول.. وقد حان يومها.

أتسميه اغتصابًا، انتهاكًا!!.. أم فقط دينًا عليها تسديده بعدما تقاضت الأجر مقدمًا؟!.. صوته الأجش يحرق أذنيها بألفاظ خادشة لم تتصور أن تسمعها في يوم، أهو أعمى!!.. هي تكبره بالكثير؟!.. كيف يتصورها!!..

وتسخر من نفسها أو ربما هي من تسخر منها.. بينه وبين زوجك السابق فارقًا ليس بالكبير..

انتهى منها.. وجدته يعتني بها برقة أثارت تقززها أكثر، ينظفها ويمحو دليلًا لن يتركه خلفه على ما فعل، يعيد فوقها ملابسها، يغادر بابتسامة منتشية ووعد..

"غدًا لقاء آخر جميلتي"..

وأيقنت أنها أصبحت مصدر متعته البائس.. حيث خلاصها الوحيد هو الموت.

******

هل كثير عليها أن تشعر بالقلق لأجله.. أو ربما هل هو كثير عليه؟!..

بعد كل ما فعله لأجلها، كل ما تحمله وعاناه ودفعه من حياته ووقته وأعصابه التي تعلمها مشتعلة، سيطرته على نفسه، رقته وقت اللزوم، وغيرته الطفيفة التي تطفو للسطح بين حين وآخر فتدغدغ أنوثتها التي أخفتها أسفل ركام الوجع.

جسده الذي تحطم، وجهه المليء بالكدمات وجانب شفتيه المجروح، ضلعه المكسورة وأناته الخافتة كلما تنفس أثناء نومه.. كل هذا بسببها هي ودون مقابل.. لا تمنحه أي شيء.. أي شيء.

فقط المزيد من الأحمال فوق كتفيه والمخاوف التي يعيشها في كل لحظة.. بإدعاء شهامة.. رجولة.. إنسانية.. اختلفت المسميات وتعددت وتنوعت.. لكن النتيجة لديها هي واحدة.. زوجها هو رجل تتمناه أي امرأة، بل تحلم به.

ذلك المزيج الغريب من النار المتأججة المضطرمة بحرارة لاهبة.. والحنو والرقة المغلفة بغلظة لم تعد تضايقها منه.. تقطيبة الجبين التي لم تنفرج حتى حال نومه بفعل المسكن الذي حُقن به ليلة أمس.. بذله جهدًا فوق طاقات البشر لخاطرها هي وفقط..

تأملت ملامحه الغارقة في سبات قلق، الغطاء الذي يسحبه حتى عنقه لا تعلم هل يشعر بالبرد أم ماذا!!.. حبات العرق القليلة التي لمعت فوق جبينه رغم جو الخريف الذي يحيط بهما ورغم التحافه بغطائه كلما تحرك..

نهضت تحضر شرشفًا إضافيًا دثرته به بأنامل مرتجفة تخشى ملامسته، لقد سهرت إلى جواره طوال الليل، نامت لدقائق مخطوفة فوق مقعدها ومع كل إفاقة كانت تركض بعينيها نحوه تطمئن عليه..

وأتى الصباح المرهق ولم يستيقظ بعد..

نعم تحتاج لبعض الوقت قبل أن تواجهه مرة أخرى، بالأمس وضعت النقاط فوق الحروف بخصوص ماضٍ هربت منه بإرادتها الحرة وتلقفها هو بدعم ومساندة واحتواء لم تتخيله فيه أبدًا..

بالأمس وقفت للحظة متجمدة في مواجهة منجم الذهب الذي كانت تغرق فيه سابقًا وكل همها وما يقلقها ويخيفها أن يؤذي زوجها..

بالأمس واجهت اتهامًا بالخيانة، أصابها هلع بل ونظرته النارية أرعبتها وظنت به الظنون رغم رقته التي عايشتها من قبل..

وبالأمس قطعت الخيط الأخير وأسدلت ستار النهاية على مسرحية لم يكن لها جمهور ولم تُعرض بعد..

أما اليوم.. وعيناها تحيطان به في تساؤلات لا حصر لها: فهي أهدأ نفسًا، كأنما مواجهتها مع "عمار" خففت حمولة كتفيها من القهر والخوف.. الألم والترقب، رفعت عنها حيرة كانت تغوص فيها كلما شعرت بالانتماء لمن تحمل اسمه.. وكلما كان أمانها معه هو.

تنهدت تراقبه، ويبرز السؤال الأقوى والأهم:

"أحقًا زواجها منه محكوم عليه بالإعدام؟!.. وإن كان كذلك: فمتى يتم تنفيذ الحكم!!.. وأخيرًا هل هي حقًا ترغب بالتنفيذ؟!"..

تغير انتظام أنفاسه فجأة.. أصبحت ثقيلة كأنه يصارع لأجلها، نهضت بقلق تقترب منه، نادته برقة فحاول فتح عينيه حتى طالع وجهها المضطرب، همس باسمها بشحوب:

- سارة!!

وكأنه يتساءل فأجابت:

- أيوة يا زياد.. أنا هنا، حاسس بإيه دلوقتِ؟!

تحرك بصعوبة:

- أحسن الحمد لله، أنا نايم بقى لي كتير؟!..

طالعت ساعة الحائط المقابلة وردت:

- ١٢ ساعة.

اتسعت عيناه بصدمة، رفع يديه دون انتباه كأنه يرغب في النهوض:

- يا خبر.. المكتب.

وانكشف صدره أمامها فشهقت متراجعة تدور بعينيها في اتجاه آخر مرددة:

- أنا كلمتهم وبلغتهم إنك مش رايح النهاردة.

جذبها أنينه نتيجة حركته المفاجئة فعادت تلتفت إليه لا تعرف كيف ستنظر!!..

راقبها للحظة قبل أن يستريح فوق الفراش، لم يبذل جهدًا في سحب الغطاء فوقه ثانية بل رغب في بعض الدلال الممزوج بعقاب لذيذ كان يفكر فيه قبل أن يسقط في غيبوبته ليلة أمس:

- سارة.. ممكن تساعديني أقعد وتلبسيني تي شيرت.

أخفضت نظراتها أرضًا بخجل، نبرتها أصبحت مرتبكة حائرة:

- أساعدك إزاي!!.. مش هاعرف ألبسك.

مد كفه إليها بصعوبة يجيبها بعبث أخفاه بمهارة:

- عادي.. امسكي إيدي واسنديني هاساعدك..

ترددت لحظة ثم مدت كفها إليه، احتواها بين أصابعه وشعر بالرجفة الطفيفة التي مرت بجسدها لكنه تجاهلها ولأنه لا يريدها أن تسقط فوقه لو جذبها لينهض فقد نبهها برقة:

- أنا هاقوم.. امسكي نفسك بقى.

أومأت برأسها دون أن ترفع عينيها نحوه، تماسكت حتى نهض بألم واضح على ملامحه، كان يحتاج دعمًا لظهره لكن كيف يطلب منها ذلك؟!..

أشار إليها بأمر مرح:

- التي شيرت بقى، مش هافضل كده طول اليوم.

خطت نحو صوان ملابسه الصغير، فتشت فيه قليلًا ثم جذبت قميصًا قطنيًا مناسبًا وقبل أن تساعده على ارتدائه تمتمت بخجل أذابه بعدما كاد يذيبها:

- الدكتور بيقول لازم كمادات تلج على الضلع المكسور.

رفع حاجبًا واحدًا واستند بظهره للفراش يمد ذراعيه إلى جواره ويجيب بشقاوة:

- ماشي، أنا تحت أمرك.

نظرت إليه بدهشة فأردف ببراءة:

- مش معقول ها أقوم أجيب التلج وأحطه لنفسي.. أنا مش قادر أتحرك أصلًا.

ارتبكت بشدة ثم استجابت بخطوات سريعة عادت بعدها بكيس مليء بالثلج، مدت يدها به إليه فعاجلها:

- مش هاقدر أحطه، حطيه أنتِ.

عقدت حاجبيها وابتعدت بنظراتها تتنهد بصبر جعله يبتسم، وضعت الكيس فوق مكان الضلع فتشنج للحظة قبل أن يسترخي مستسلمًا، دقائق ثم همس لها وهي تجلس قربه:

- كفاية كده.

نظرت في عينيه.. سواد داكن للغاية لم تره من قبل.. سواد مخيف ورغم ذلك لا تخشاه.. بل هو محل أمانها ومستقر اطمئنانها، ابتسمت وابتعدت يلاحقها صوته المتلاعب والذي لا تفهم لمَ نبرته تبدو مرتاحة هكذا؟:

- التي شيرت..

تهدل كتفاها في يأس وهي توليه ظهرها فشاكسها:

- قلت لأخوكِ إمبارح يساعدني ألبسه بس قالي مراتك عندك تلبسك..

وصمت للحظة افتعل بعدها براءة:

- مش أنتِ مراتي برده؟!

هل يسأل؟!.. أم يخبرها أنها من أوضحت له مرارًا أنها زوجته هو؟!..

"المستغل"..

هتفت بها في حنق داخل نفسها قبل أن تستدير إليه بابتسامة مفتعلة، تحمل القميص وتقترب بتردد مرتبك، هيأته له ليمد ذراعه فمط شفتيه موضحًا:

- مش قادر أرفع دراعي.

تذمرت بدلال لا تعلم كم يؤثر به!!.. غمرها بين جفنيه بنظرة لم ترها، ظل يتأملها تمسك بمعصمه بأطراف أصابعها، تجذبها برقة وتمرر أحد كمي القميص بسرعة حولها، ترفعه دون أن تنظر إليه وتدخله في رأسه وبقيت الذراع الأخرى.. الخطوة الأصعب، سلم لها نفسه دون أن يتحرك..

هو لا يريد إخافتها، يسعى فقط لشيء واحد.. أن تعتاد ملامسته، هكذا نصحته طبيبتها:

"هي محتاجة تتعود عليك كزوج، قرب منها، دايما خليك حواليها، لازم تحس باهتمامك وتشعر بالأمان معاك.. أمانها هيفتح لك أبواب كتير تقدر من خلالها تقرب منها وتعيشوا حياتكم بطريقة طبيعية"

وهو منحها الأمان بالفعل، أو هكذا يظن.. ألم تثق به وتخبره بذلك؟!..

حان وقت الاقتراب إذًا.. بالأمس أوضحت أمامه الصورة وكانت على حق، ما مضى قد مضى.. وهو يصر على حشره بينهما في كل لحظة كأنما يذكرها بحب فقدته في غمرة ألم انغرست في أراضيه دون إرادة.. هو من يحي الذكرى ومن يجذبها من أعماق النسيان التي ترغب هي بدفنها فيها..

نعم فقد الصديق، وليت الأمر كان بيده.. لأخبره ودعم حبهما وسعادتهما معًا، لكنه القدر.. من تحكم ودبر ونفذ الحكم.. هو مجرد بيدق فوق رقعة حياة كتبت قبل الميلاد، حتى لو اختار حمايتها والوقوف إلى جوارها، فضَّل رجولته وإنسانيته التي حركت فيه الشهامة؛ يبقى الأمر في النهاية.. قدر.

لا يستطيع أن يجزم نحوها بحب.. هو لا يفعل ولم يفعل من قبل، لكنها تؤثر به كثيرًا، لا ينكر أنها تعجبه بشدة.. كأنثى ناعمة جميلة.. وكفتاة قوية رغم الكبوات التي تهزمها بين حين وآخر..

جسدها المختفي خلف ملابس فضفاضة لا تظهر منه شيئًا، عيناها بلون الموكا التي يعشقها، تلتمع فيهما بقايا دموع دومًا فيهفو لها قلبه بحماية أصبحت هي مصدر قُوته اليومي..

خصلاتها القصيرة بطريقة تحرك خياله.. ماذا لو كان أطول؟!.. لونه الذي يشبه القرفة بحمرة طفيفة تمازجت مع البن الداكن الذي يغلفه، تشعثه البريء والمغري بنفس الوقت، يحثه على غرس أصابعه فيه والشعور

بملمسه.. والله وحده يعلم كم قاوم هذا الأمر عندما ضمها إليه وسكنت فوق صدره آمنة مطمئنة!!..

انتزع نفسه من أفكاره، هو تزوج.. هي حياة.. يريدها مكتملة وسيسعى لتحقيق اكتمالها.. فقط بعض الصبر والتحايل ورقة اكتشف امتلاكها ولا تظهر إلا نحوها.

وأكمل يومه يتدلل، يطلب، يأمر، يتذمر..

وهي تستجيب في مرة وتتأفف في عشر، أطعمته بنفسها وكعادتها لا تلقي بنظرة نحوه إلا لتحدد مكان فمه لتضع فيه الملعقة، وهو اكتنفته سعادة غريبة لم يفهمها ولم يسعَ لفهم.. يكفيه ما يشعر به في الوقت الحالي.. ولا يريد المزيد.

ختم اليوم بطلب ارتفع له حاجبيها فقاربا الالتصاق بمنابت شعرها القصير:

- إيه!!.. لا طبعًا، ما أعرفش.. مستحيل.

حك ذقنه بتململ، تحدث بانكسار مفتعل:

- مضايقاني، بقى لي كام يوم.. حرام عليك على فكرة.

انعقد الحاجبين هذه المرة والنبرة أضحت مستهجنة:

- نعم!!.. ليه هو ده كمان تخصص المدام؟!..

ضحك بصعوبة رغمًا عنه، لوح بكفه يائسًا والابتسامة تضمحل:

- المدام المفروض تهتم بيَّ لما أكون محتاج الاهتمام ده.. وده أنا محتاجه دلوقتِ.

وبادلها بعقدة جبينه التي باتت تجذب نظرها تلقائيًا كأنها علامته المتفردة، فكرت لثوان بتردد، تجاهد لتمنحه موافقة، العقل والجسد متوجسان من هكذا اقتراب، والقلب ينبض بترقب كأنما هي لعبة تسعده..

في النهاية قررت بتبرم:

- أوك.. بس لو جرحتك ما تشتكيش..

مازحها بابتسامة:

- المهم ابعدي عن رقبتي.

ابتسمت في المقابل، حضرت ما طلبه، ساعدته ليجلس في وضع أكثر استقامة ثم وزعت كريم الحلاقة على ذقنه النامية وبدأت بإزالتها في بطء شديد تحت مراقبة عينيه المتسليتين.. ثوان وأغلقهما تاركًا لها كامل المهمة.. تتفادى لمسه، تبتعد قدر الإمكان.. وتتأمله بحرية خارج أسر نظراته..

أنهت مهمتها بعد وقت طويل لم يتململ خلاله لحظة.. بل بدا مستمتعًا بشدة خاصة عندما طلب منها:

- اغسلي لي وشي بقى.

ابتعدت خطوة بهتاف محتد:

- إيه!!

أشار إلى وجهه دون أن يرفع يده:

- إيه هتسيبي أثر الكريم عليه؟!.. وأنا مش قادر أرفع إيدي.

"مستغل"..

تكرر وصفه في قرارة نفسها، والقلب يحنو والضمير يؤنب.. حاله هكذا بسببك أنت، وهذا واجب الزوجة.. يا زوجته.

وفجأة برقت الفكرة بذهنها فابتسمت بانتصار أقلقه.. تحركت خارج الغرفة دقيقتين وعادت بمنشفة ناعمة مبللة، اقتربت منه ثانية ولأول مرة يلمح نظرة شقية بعينيها، كأنها تخبره: "أنا الفائزة هذه المرة"..

مسحت وجهه جيدًا وقبل أن تبتعد لم يجعلها تهنأ بالفوز بل طالبها بتسلية كأنه نسي:

- الأفترشيف.

وهنا كان لابد وأن تفرق جفنيها باتساع أضحك قلبه بشدة رغم تماسك وجمود ملامحه.. نظرت إليه تود خنقه، لمَ يفعل ذلك؟!.. لمَ يتمادى؟!.. لم

يحاول لمسها من قبل أو اقتحام مساحتها الخاصة واليوم.. اليوم هو "زياد" آخر.. كأنما ليلة الأمس غيرت فيه شيء، مواجهته القاتلة مع صديقه!!.. وربما حديثها هي معه عن الماضي الذي يتشبث به وتحاول نسيانه!!.. لا تفهم، لكن مرحه يبث فيها روحًا افتقدتها طويلًا.. بل ودلاله عليها يشعرها بمسئولية لذيذة عن هذا الرجل الضخم المخيف.. الضعيف بين يديها.

كان ينظر إلى تعاقب مشاعرها على وجهها، لم يعلق، سكن بانتظار صامت لتأخذ خطوتها وقد فعلت، دنت منه بخجل، وضعت سائل ما بعد الحلاقة على كفيها ثم لامست بهما وجنتيه وذقنه برقة ناعمة كلمسة فراشة صغيرة..

أغمض عينيه وحبس تنهيدة داخل صدره، لم يكد يشعر بأناملها حتى ابتعدت.. عاد يفتحهما.. ينظر إليها وتبادله النظر..

أسئلة كثيرة، حيرة، قلق، خوف ووعود.. والمحصلة ابتسامة مرتبكة تبعها هروب تعلن به انتهاء اليوم، وابتسامة أخرى شاردة يعلن بها تمسكه بالأمل..

وكأن عقد زواجه كان ينقصه توقيع شاهد أخير.. وها هو يعود فيضع إمضائه بتشكيل ملامحه من جديد.. ومعه يفتح بابًا ظنه موصدًا نحو غدٍ مختلف.

******

لم يكن القرار صعبًا كما ظنت في البداية..

فبين حماية تنشدها.. وماضي تود الهروب منه كان الخيار واحدًا لا غير..

العشق..

الفهد يعرض مستقبلًا رسمه مقدمًا، خطط له، وبقيت هي القطعة الأخيرة الناقصة من الأحجية.. وعندها تكتمل الصورة..

و"طارق".. هو الماضي بنفسه، فلن تهرب منه بإلقاء نفسها بين براثنه مجددًا..

الخيار هو مَن اعترف بحب، من تملك القلب، وسكنت في ظله الروح.. من تنقصها خطوة واحدة تتضمن مصارحة، بعدها تلقي بهمومها فوق كتفيه، أو تبتعد وترتاح..

برسالة قصيرة طلبت اللُقيا، وبرسالة أقصر وافق..

جلست أمامه على طاولة مطعم بأحد مراكز التسوق الشهيرة، مرتبكة، قلقة، وجهها لوحة كاملة متقنة لمشاعر متباينة أكثرها وضوحًا هو الترقب.. علم أنها على وشك التصريح بأمر ما.. هل يخمن عشقًا؟!.. أو ماضيًا تظنه لا يعلمه؟!..

ربت على كفها برقة فنظرت إليه، تستمد أمانها من دفء عينيه، ابتسمت بارتباك:

- مراد.. محتاجة أتكلم معاك في موضوع يهمك..

لمع التساؤل في نظرة وجهها إليها فأردفت دون انتظار:

- حاجة ما تعرفهاش عني.. وبعد كلامك آخر مرة...

قاطع حديثها الذي لا يعجبه بتكرار أسرع بوتيرة أنفاسها حد اللهاث:

- قصدك لما قلت لك إني..

ومال أقرب:

- بحبك!!

هربت بعينيها، فمد أنامله يدير وجهها نحوه، الذنب ينهشها، هي لا تستحقه، لا تستحق حبه، ليست أهلًا لرجل مثله منحها القلب دون سؤال..

تعمق في نظراته إليها، يتفهم توترها، يتقبل ارتباكها، لا يهمه ماضٍ أوجعها بقدر ما يهتم بحاضر ومستقبل يريد فيه تطبيب هذا الوجع.. فعنده؛ العشق يمنح صك غفران واسع المدى، سرمدي لا بداية ولا نهاية له..

همسها الخافت أتاه بعد صمت:

- مراد.. لازم تعرف عني حاجة مهمة، مش هأقدر أخبيها.. حقك تعرفها...

وكانت تلف وتدور وهو فهم، فبادرها بحنو:

- ما يهمنيش اللي فات يا دينا.. المهم بكرة، بكرة اللي عاوز نكون فيه مع بعض.

تطلعت إليه بأمل نفض قلبه داخل صدره، يالها من امرأة!!.. تحرك فيه كل الكوامن، تجعل كونه يدور حولها.. بنظرة ضعف، ضحكة.. لحظة قوة، وأمان معه يشعره وكأنه حامي الحمى..

لحظة وأخرى ولم تستطع النطق، كيف تخبره عن ماضٍ ملوث؟!.. نفس مدنسة لا تمت للطهر بصلة؟!.. عن شيطان يطاردها ولديه هاجس ملكية لا عقد لها!!.. كيف؟!..

انتهى اللقاء دون وعود.. انتهى دون حديث.. انتهى دون أن تحكي ودون أن يسأل.. فقط براحة تسللت لصدرها المبتئس.. ونفسها التي تئن حاجة للسكن.

في مرآب المبنى الضخم، فتح لها باب سيارته بابتسامة رقيقة، دار حولها متجهًا نحو مقعد السائق، وبين فتحه لبابه، وخطوة واحدة بساقه للداخل سمعت الآهة المكتومة.. انتفاضة جسده.. تلاها سقوطه منكفئًا على وجهه إلى جوارها وقطرات من دماء تسيل فوق عنقه..

ملأها الهلع وقبل أن يرتفع صوتها بصراخ شعرت بإبرة محقن تنغرس في عنقها بعدما انفتح الباب المجاور لها بغتة، وصوت خشن أجش منتشٍ بنصر:

- كان بودي أخدره برده.. بس الحقيقة أنا عاوز أضربه.

وتهالك جفناها في عناق مظلم..

وتعرفت النبرة قبل أن تغيب بهمس مرتعب:

- طارق!!..

(٣٠)

أوراق مكشوفة

عاشقة أنا..

ظننتُ بحمقٍ أن الماضي قد أستطيع محوه بممحاة الحب..

عاشقة أنا..

بعد أن كنتُ مشروع عاهرة..

لايهم أكان بعقد.. أم كان استباحة لجسدي باغتصاب!!

لهوت وأخذتني ظنوني أنني أنثى لا تقهر يتساقط الرجال تحت قدميها رغبة في الوصال..

لم أعلم أن الرجال بيوم لم يكونوا أبدًا الطريدة..

بل هم الصياد..

وكنتُ أنا منذ البداية الطريدة التي كان قيدها بيد الصياد..

وكلما ابتعدتُ عنه جر الحبل حول رقبتي ليذكرني أنني جاريته المسبية..

فلا عتق.. ولا انعتاق

بل هو صك ملكية حريتي فيه فقط وفقط الموت..

آه آه يا معشوقي عذرًا لك..

فأنا مجرد بقايا وإرثي من حياتي قبلك قد ختم على حكم جلادي الصادر بحقي..

فأنا جاريته الهاربة وقد آن وقت عودتها إلى كنفه.. لايهم بأي طريقة أو قرار..

أعتذر إليك فأنا ملوثة بماضيّ ولن أتطهر منه إلا بالموت..

وإن جاءوا إليك بخبري؛ أوصيتهم أن يبلغونك وصيتي..

فبعد البسملة..

كتبتُ أحبك وأحبك وأحبك..

فأنت كنت ولادتي وميلادي..

وأنت خيوط الضوء التي أنارت ظلمتي وسواد عالمي..

وأنت غيبوبتي في الحياة..

أوصيك بنفسك وبقلبك فهما.. أمانتي لديك..

إهداء/ نداء الحق

خسارة معركة؛ تعلمك كيف تنتصر في الحرب..

وهي لم تخسر واحدة ولا اثنتان، بل هزمتها طاحونة الحياة شر هزيمة حتى أصبح الخضوع ورفع راية الاستسلام محض حلمٍ بعيد المنال.. كما الصراع لا طائل من ورائه..

هي امرأة تمتلك من سلطة الإناث؛ الفتنة الممزوجة بإغراء.. تُحكِم به السيطرة وتنال بعده عرش القيادة وتولي الأمر!!..

هي امرأة منحت بغَيض ونالت بفيض حتى انقطع الخيط وتعرت الحقيقة، سقطت في جوف مدفع، ستعبر فوهته بانفجار يمزق ما تبقى منها أشلاءً لا يلملمها أحد..

هي امرأة قررت الفوز في لعبة لم تكن قدرها كما ظنت، فانتهت مقيدة، تهذي بهلوسات.. وأحدهم يخط فوق جسدها ميثاق انتهاك..

هي امرأة لعنت الحياة واشتاقت للحب وحلمت بالأمان.. طمعت في صفح واستجدت الغفران، ثم وقعت في فخ ماضٍ نصب خصيصًا في هاوية من عتمة خطاياها..

هي امرأة لم تعرف للطهر مسارًا ولم يكن معها العهر إجبارًا، حتى أتت السقطة التي منحتها شهادة ميلاد لأخرى جديدة مزقها مجتمع جائر ووضع ختمه على شهادة وفاة هي أقصى أمانيها..

هي امرأة رسم خرائطها شيطان، تمَّلكها شيطان، وحدد السبيل إليها شيطان، ثم ترك لأتباعه نهش الفتات منها والاقتيات على روح تُنازِع فيها الرمق الأخير..

هي امرأة؛ إذًا هي مذنبة، هي المخطئة، هي المغوية، وهي من أخرجت آدم من جنان لم تخطر على قلب بشر، امرأة تحمل لقب أفعى.. تنوء بوِزْر الخطيئة وانكشاف العورات وافتضاح السوءات..

وأخيرًا.. امرأة، وقفت.. صمدت.. حاربت.. قاتلت.. انتصرت وهزمت، كرَّت وفرت ولم تولِ الأدبار ولو للحظة.. امرأة ببساطة توازي جمعًا من نون النسوة الخانعات لظروف الضعف والقهر حتى حان وقت الألم الأكبر والوجع الذي ما بعده نبض، وحانت معه لحظة الاستسلام.

امرأة في النهاية استكانت لإغماء بفعل مخدر أو بفعل هروب.. المهم أن تريح عينيها بإغماض، وتوقف عقلها بغياب.. عينيه هو لم تُرفعا من عليها، يتأملها بنظراته، يراقب أنفاسها ويكاد يعدها ويعد تقلباتها غير المرتاحة واحدة تلو الأخرى بلوعة وآهات محبوسة خلف كمامة وقيود تغله لمقعد وتمنعه أقل حركة.

لا يعلم كم مضى من وقت بالتحديد!!.. لقد أفاق قبل قليل وألم قاتل يشج رأسه، سائل ما خمن أنه دماء جفت فوق مؤخرة عنقه، وهي ملقاة على مسافة ليست ببعيدة فوق فراش داخل غرفة عارية الجدران إلا منهما.

قاوم، حاول تحرير ساعديه المكبلين بأصفاد حديدية خلف ظهره، قدميه المربوطتين بحبال غليظة لساقي المقعد، آذى معصميه.. أنَّ بصوت مكتوم يناديها، والمحصلة صفر.. لا فائدة، هى راقدة بصمت مخيف وهو عاجز لحد مهين.

انفتح باب الغرفة فأدار رأسه نحو القادم، وبلحظة تعرفه، إنه هو.. من راقصها في الحفل وأثار غيرته ثم لم يهتم بعدها بمن يكون!!.. ليته اهتم، ليته سأل وعلم وفهم!!..

اقترب منه "طارق" بابتسامة شيطانية متشفية:

- صحي النوم يا سبع الرجال..

تأمله بنظرة ناقمة اتسعت لها البسمة وازدادت بها نشوة النصر:

- تؤ تؤ.. خوفتني كده!!.. اهدى على نفسك شوية، الوقت لسه طويل قدامنا.. وعندي ليك حدوتة حلوة قوي عاوزك تطرطق ودانك معايا وأنا باحكيهالك بالتفاصيل المملة.

انعقد حاجبي "مراد" بغضب ممتزج بحيرة، رآه يقترب من حبيبته النائمة فاهتاج أكثر ساعيًا بجهد مؤلم لتحرير نفسه، انطلقت ضحكة ساخرة من حلق الآخر وهو يجاورها فوق الفراش، يمد أنامله العابثة يتخلل بها خصلات الشيكولاتة خاصته، يمسك بواحدة ويلفها حول إصبعه، يجذبها نحو أنفه ويتشممها بتلذذ أثار الزوابع داخل قلبه.

راقبه ينحني مقتربًا من شفتيها، يغتصب منهما قبلة لا حياة فيها، وأمام عينيه المعذبتين مرر يده تاركًا شعرها إلى عنقها، يتلمس النحر باستمتاع برقت له عيناه بشهوة حركت تقززه، تحرك بعنف وارتفعت همهماته الحادة من خلف كمامته، انطلقت شرارات نارية من عينيه تحيط بها كأنها تمنعه الاقتراب، كل هذا جعل "طارق" يرفع ناظريه إليه، يبتسم بخبث كأنما يسعده رد فعله:

- إيه يا خواجة!!.. غيران على القطة؟!

اندلعت النيران من سمائه فأضحت كغيوم سوداء تنذر بعاصفة لن ينجو منها أحد، قهقهة هازئة جلجلت في المكان، ومحرمة قماشية نظيفة مبللة بسائل ما، قربها من أنفها برقة لا تناسب الموقف، بضع أنفاس متقطعة، انفراج جفنين ببطء، لهاث تسارع واتساع عينين مرتعب.. نهوض حاد عنيف وتراجع حاد لتلتصق بجدار جاور الفراش تهمس اسمه بذعر كترنيمة عذاب:

- طارق!!

ويحافظ على ابتسامته المنتزعة من أفواه شياطين الجحيم، ثم يلقي بنظرة نحو المقيد يخبره فيها:

"أرأيت!!.. هي ملكي، تعرفني، تهابني، وستنتهي معي ولي وحدي"..

عاد يلتفت إليها ليجدها قد تابعت اتجاه عينيه، وسقطت عيناها على العاشق المكبل بأغلال ماضيها هي، ذنوبها هي، آثامها هي.. سالت عبراتها بصمت، ناشدته مغفرة لم يفهم سببها، ورجته صفحًا لم يعلم له داع، خاطبها خاطفها:

- إيه رأيك في المفاجأة دي؟!.. حبيب القلب وأنا وأنتِ وحدوتة وصور، أنتِ عارفاني بحب التفاصيل، وباسجل كل لحظة.. بحكم المهنة، وبحكم إنها ما يصحش تتنسي مادام كانت معاكِ.

لم تنظر إليه، ظلت عيناها معلقتان بالحبيب المصدوم، وتحول الاستجداء لحزن بائس، وانكسار تهدلت له أكتافها وهربت بعده ترفض لقاء النظرات رغم أمانها الساكن في مقلتيه.

نهض "طارق" بلامبالاة، جذب مظروفًا ورقيًا من جيبه الخلفي، فتحه باهتمام وطالع ما بداخله للحظات بلمعة عينين شامتتين، في النهاية تحرك نحو "مراد"، انحنى يثني ركبتيه جالسًا أمامه عندما شعت عيناه بالقهر والغضب والفضول..

وبدأ عرضًا مجانيًا لفراش، ورجل كان هو وامرأة كانت هي وعري، وملامح غائمة.. ابتسامات، دلال، وخمر.. وهي.. هي.. هي..

رنين الكلمة تعالى داخل جمجمته دون صوت، هي من أحب، من منحها قلبه دون انتظار لأن تمنحه قلبها بالمقابل، من أثارت فيه حميته ليكون

أمانها، من تغاضى عن كل شيء فقط لينتهي معها.. من تناسى وأمر عقله بالخضوع لأنها ضحية لا ذنب..

والآن يعلم.. هي كل ذنب، كل إثم، كلها ماض مدنس لم تتخلص من شوائبه بعد..

"معلش.. ما تعملش في نفسك كده، معذور.. أكيد ما كنتش تعرف، ما هي مش هتقولك على ماضيها الوسخ"

لم يستطع النظر إليه، أو إليها.. عيناه تجمدتا تائهتان في اللامكان، وعقله كأنما غاب في دنيا مختلفة لا مسكن فيها للأوجاع التي تهاجمه بشراسة قاسية.. تؤنب، توبخ، وتحمله ذنب القلب المطعون..

ثم أتاه صوت.. نبرتها الرقيقة وصوتها الأبح الذي يضيع في حروفه، تخاطب أحدهم، وتبعه صوت الجالس قبالته، غثيان أصابه و"طارق" يمسك بذقنه، يرفع وجهه بغلظة يجبره على النظر إلى شاشة هاتفه، ويهتف بأمر:

- بص وملِّي عينيك، بالصوت والصورة.. مش حارمك من حاجة.

ونهض يضحك.. وهي تنكمش، دموعها صامتة وأفكارها مشلولة.. لقد حاولت، تبًا له ولها ولقلبها الذي هواه.. لقد حاولت أن تخبره، وهو لم يساعد، لم يسأل.. بل رفض الاستماع فمنحها مخدرًا غيبت بها ضميرها في غيبوبة عشقه.

نظر إليها سجانها بانتصار شامت، نشوة غلفت ذرات الهواء من حوله فأسكرته، خوفها.. رعبها.. انكسارها، كلها تعني خضوعها، نعم ستخضع، وسيحصل على المزيد، عاد يلتفت للمقيد ويكمل حكايته:

- عارف يعني إيه أول مرة تدوق خمرة.. خمرة من نوع نضيف قوي غير الصنف اللي أنت متعود عليه؟!

وأشار بيده في حركة استعراضية:

- ولا أنت مالكش في الشرب يا خواجة؟!

استدار إليها وخطا نحوها بتمهل، مال بركبته فوق الفراش، يعريها بعينيه كأنه يخبره بوضوح أنه يعلم كل المنحنيات المختبئة بحياء خلف ملابسها:

- أهي دينا؛ أحلى وأغلى نبيذ دقته في حياتي.. وأنا كنت أول شفطة هي داقتها.

ونظر إليه من فوق كتفه:

- كانت ليلة طعمها ما يتنسيش، هاقولك تفاصيلها وتفاصيل الليالي اللي جت بعدها عشان تعرف أنا إيه بالنسبة لها يا أبو السباع!!

وانطلق يسرد قصتهما.. بقذارة ودناءة، بوصف لم يخطر ببالها أو بال الحبيب.. بألفاظ خدشت ما تبقى فيها من براءة ونزف لها قلبها ناعيًا حبًا لم يكتمل، ولم تمنحه خطاياها الفرصة..

في النهاية ختم مسرحيته التي كان فيها البطل الأوحد بلفتة، بسمة.. ونظرة تعريها ثانية بتبجح:

- ها.. إيه رأيك؟!.. بذمتك لو أنت مكاني، هتضيعها من إيدك؟!..

ودنا منه هذه المرة، انحنى يقبض أصابعه فوق كتفه بعنف تحرك له "مراد" بنفور شديد:

- طيب أنت ما دقتش وهتتجنن عليها..

ثم اعتدل وتحرك نحوها بابتسامة ذئب على وشك افتراس طريدة أوقعها حظها العاثر في وجاره:

- اللي داق يعمل إيه!!..

وقف يتأملها بتملك، يكمل حديثه باستمتاع مسيطر:

- أنا كنت الأول..

ثم التفت إليه يغمزه بوقاحة رغم النبرة الصارمة المتسلطة:

- وهاكون الأخير..

حينها رفع المخدوع عينيه نحوها أخيرًا، رأى خوفها.. انكماشها، ضعفها واحتياجها، ورغمًا عنه تحرك القلب يهب للدفاع عنها، أخرسه يرمي في وجهه كذبها فكذبه هو بتأكيد..

هي لم تكذب، كانت تريد إخبارك وأنت من رفضت، ربما لم تمتلك الشجاعة، ربما خشيت فقدانك، ربما لم تستطع تعرية ماضيها أمامك.. لكنها حاولت، وفقدت الفرصة بظهور هذا الماضي مجسدًا يحول بينها وبين المستقبل الذي تمنته معك.

هل يكرهها!!.. هي لم تكن ضحية، بل كانت مذنبة منذ البداية حتى وقعت بين مخالب من نهشها فانقلبت حياتها، وتحولت للمرأة التي أحب..

ومَن منا خالٍ من الذنوب؟!.. من لا يشعر بالعار أو الخجل من نقطة سوداء انطمست عندما مضى في حاضر يمحو به ما سبق!!.. من منا لم يعش في لحظةٍ متعةٌ ما كانت نتيجتها عذاب أبديّ يطارد واقعه وخيالاته على اختلاف المسميات أو عِظم هذه الخطايا!!..

هل يكره كذبتها!!.. لكنها لم تكذب، بل فقط التزمت الصمت أيًا كان سببه..

هل يكره نفسه وقلبه الذي تعلق بها؟!.. وما ذنب قلب كان يحتاج للحب، وامرأة كانت هي المستقر؟!..

أفاق من سواد أفكاره عليها، تنهض من مكانها تدعي التماسك وتتظاهر بالقوة، تخفي عينيها عنه، وتتوجه بنظرات توسل نحو الرجل شيطاني الملامح:

- طارق.. أنا هاعمل لك اللي أنت عاوزه، بس سيب مراد يمشي.

وانعقد حاجباه بغضب يتجدد في عروقه حتى كادت تنفجر..

هذه المجنونة!!.. ماذا تفعل؟!..

لكن الضحكة الخافتة التي وصلت لمسامعه، نظرة الفوز الكاسح التي اعتلت وجه الشيطان، ولية الشفاه التي لا تعني سوى شيئًا واحدًا..

"أن هناك المزيد"..

كلها فجرت فيه الخوف بدلًا من الغضب.. خوفٌ عليها هي، دور المتفرج لا يرضيه بل يضنيه، مهما فعلت هو يود حمايتها، لا يهم الغد.. فقط لتخرج من هنا معه بخير.. بخيروحسب.

"شايف!!.. هتعمل لي اللي أنا عاوزه.. هترجع الـ***** اللي كانت بتتفنن عشان تغويني"

والكلمة ذبحتها حتى كادت تتهاوى على ركبتيها في حسرة، استندت للفراش تدعم نفسها وترمقه بذل.. لم يعد بها طاقة لخوف أو سخط.. لم يعد بها قدرة لتحمل أي شيء.. خضوعها هو الحل الوحيد، وهي ثمن زهيد في مقابل حياة من تحب..

أرادت أن تنظر في عينيه، خافت احتقاره، خشيت غضبه، ويرعبها أن ترى ألمه.. هي أوجعته، حطمت قلبًا منحها الأمان والحب وانتهى الأمر، بتردد رفعت عينيها إليه، وفاجأها بنظرته، نظرة آمرة، صارمة حازمة مترجية..

"لا تفعلي"..

رباه.. أمازال يحبها؟!.. يحميها!!.. يخاف عليها؟!..

وتسلل صوت "طارق" لأذنيها يوازي اقترابه الحثيث:

- هتتجوزيني!!

ولم يكن يسأل.. بل يقرر، انتقلت بنظراتها إليه.. لن تعود إلى الحبيب، ستهرب من سمائه التي ظللتها بالسكينة والاطمئنان، ستمنح نفسها مقابل حريته، ستبيع روحها للشيطان، هزة رأس خانعة بموافقة، ودمعات لا تتوقف ونحيب يعلن عن ظهوره محاولًا الخروج من أسر صدرها..

أخرج ورقة وقلمًا مد يده بهما إليها، رمقتهما بيأس ثم مدت أناملها المرتعشة تمسك بهما متجاهلة تحركات معشوقها الرافضة العنيفة، رفع ذراعه يبعدها عن متناولها فرفعت عينيها إليه بتذلل مستكين متسائل، ألقاهما خلفه، تحرك نحوها كقرش أثارته رائحة الدماء فأراد تذوقها أكثر، وقف يواجهها، يفتح أزرار قمصيه ببطء ويعلن عن رغبته بسفور:

- الأول في حاجة هتعمليها..

لم تفهم!!.. لكن "مراد" فهم، اتسعت عيناه من خلف ظهره ينظر بجنون، يهمهم بهياج ويتحرك بخشونة أدمت معصميه، انحنى "طارق" برأسه مقتربًا ومتغاضيًا عن الثائر مكمم الفم:

- المرة دي.. بث مباشر..

واقترب حتى لامست أنفاسه خصلاتها:

- على الهوا.. عشان حبيب القلب يتفرج بمزاج.

وألقى بنظرة نحو الفراش المستندة إليه.. وصلتها دمدمة "مراد" عالية هذه المرة.. لقد اتضحت الصورة، أدركت ما يريد، وعلمت أنه لن يتراجع، نظرته القاسية تحيط بها وتجبرها على التسليم، الآن أيقنت كيف يراها!!.. والطائل من وراء كل ما فعل ويفعل، وكأنه وصمها بعار لا ينمحي، كأنه ختمها بوشم لا يزول..

لا.. كأنها جاريته المسبية في فتح عظيم.. بل هي غانيته، والثمن بخس..

أو ربما هي غنيمة؛ أضحت ملك يمين..

والمملوكة لا ترفض، لا تعارض.. فقط تخضع، وتنحني لأمر مالكها بطاعة.. همست بتوسل:

- عاوز تعريني قدامه يا طارق!!..

وكانت تعني بها الكثير، وهو لم يهتم بل جذب مرفقها بقساوة:

- هاثبت ملكيتي ليكِ قدامه، وهتتفنني إزاي تمتعيني زي زمان قدامه، وهترضيني قدامه.

كانت ساكنة لا تتحرك بين يديه فقط دموع ونبرة واهنة ووجه شاحب:

- هو ده الحب عندك!!

قربها منه حتى ألصقها به:

- ده درس لازم تتعلميه.

رفعت عينيها نحوه تستجديه وهي تشعر بوعيها يكاد يغيب:

- طارق..

شعر بغضب نتيجة ضعفها الذي تسلل إليه ليثبط عزيمته ويصيبه بلين يرفضه، دفعها عنه، استل سلاحه من حزامه، جذب صمام أمانه بقوة، ووجه فوهته نحو رأس المقيد الذي كان يراقب ما يحدث والنار تحرقه فعليًا، واجه الرصاص بنظرة قاتلة متحدية فصرخت هي بعذاب تتعلق بيده الأخرى والنبضات تتسارع لحد مميت:

- طارق!!.. لأ.. ما تأذيهوش.

لف وجهه نحوها والشراسة تغزو ملامحه:

- هتنفذي؟!..

تطلعت إليه بيأس، تشبثت بيده للحظة قبل أن تتركها، قنوط ما هاجم روحها، مهانة ألجمتها وقلب يحثها على الإذعان وإنهاء الموقف لأجل من يدق باسمه..

منحت رجلها نظرة أسف ممزوج بانكسار، بادلها إياها آمرًا بعدم الرضوخ.. لكن عجزٌ ملأ كيانها، قهرٌ تملك منها؛ دفعاها نحو الاستسلام..

تقدمت خطوة فثانية، وفي الثالثة كان جسدها يحول بين فوهة النار وزنادها أسفل إصبع جلادها وبينه هو، تسللت بكفها تمسك بكفه كأنها تزيحه بعيدًا، تخبره:

"نعم.. سأهبك ما تريد"..

والتالي إبهامها فوق سبابته يضغط بقوة!!..

وما بعده جنون..

صيحة ألم، فدماء امتزجت بدموع، شهقة محبوسة خلف كمامة وعينان متسعتان في هلع، وأخيرًا سبة بذيئة من حامل السلاح وهو يتلقى جسدها فوق صدره قبل أن يمس الأرض وتهمد حركته تمامًا معلنة انتزاع الروح وراحة لا تعب بعدها أبدًا.

******

"وأخيرًا ظهرت يا بيه!!"

صياح غاضب منفعل والاحتقار يغلب على النبرة المستهجنة، هتف بها الأب في وجه ابنه معنفًا، والابن شارد، تجمدت ملامحه على ابتسامة ساخرة مستفزة كأنه لم يعد يأبه لشيء، أردف بسخط:

- ممكن أفهم كنت فين؟!.. شهر دلوقتِ مختفي وسايب البيت والشركة.. كنت فين؟!.. رد عليَّ..

هز كتفيه بلامبالاة:

- ويهمك في إيه كنت فين!!.. أهو كنت مكان ما كنت، باريحكم من وشي.

اقترب والده منه، يدفعه في صدره بحدة:

- تريحنا!!.. كنت هتموت أختك وجاي تقولي تريحنا؟!

ابتعد عنه، هو اكتفى ولا يرغب في المزيد من الأخطاء، جلس بتراخ فوق أريكة غرفة المكتب، وأجاب ببرود:

- أيوة باريحكم.. مطلوب مني إيه تاني!!.. سيبت لكم البيت وخلصنا.

اتجه نحوه الرجل، جذبه من ذراعه يجبره على النهوض بغلظة:

- أنت شارب إيه قبل ما تيجي؟!.. أنت نسيت نفسك؟!.. نسيت أنت ابن مين ووريث مين؟!.. نسيت اللي عملته آخر مرة؟!.. نسيت إنك كنت بتلهوس وشارب بلاوي من اللي بتتعطاها وأختك كانت هتموت في إيدك!!.. أنت عاوز تضيع نفسك وتضيعنا معاك!!..

انتزع نفسه من يد والده بعنف، ومال نحوه بغضب:

- أيوة نسيت وضعت.. وما بقاش فارق معايا حاجة.

وحصل على الصفعة الثانية، ورقصت الشياطين رقصة جنونية أمام عينيه المحمرتين، وتعالى الصراخ:

- لأ.. لازم يفرق يا تيام يا ابن أمجد زهران.. ما تنساش نفسك.. جرى لك إيه فهمني؟!

وزفر بكمد، تراجع بعدها خطوة حانقة، دار حول نفسه يدرك ما عليه فعله رغم قسوته، عاد يلتفت إليه بلهجة آمرة حازمة لا تعني ولا تطلب سوى التنفيذ:

- أنت هتسافر روما.. هتمسك الفرع هناك، ولما تبقى راجل وأد المسئولية هترجع هنا تاني.

اتسعت عيناه بهياج:

- أسافر!!.. أنت بتنفيني؟!

وبادله الصياح بصياح:

- أيوة.. لحد ما تعقل وتعرف اللي ليك واللي عليك.

نظر إليه بشر، كأنه يود خنقه.. تحرك مغادرًا بسرعة فلاحقه صوت الأب بجمود:

- ما تفكرش إنك هتهرب أو تختفي تاني يا تيام.. أنا قررت وأنت هتنفذ.

توقف للحظة خلف الباب المغلق ثم فتحه راكضًا خارج المكان بغضب مستعر، قبل باب المنزل وصله النداء الحنون:

- تيام!!

تصلب في مكانه..

"ليس الآن"..

هو يرغب في الهروب، لن يجده أحد، لم يعد يريد أي شيء، فقد اللذة في كل ما يفعل واللامبالاة هي عنوان الحدث، شعر بلمستها الرقيقة فوق كتفه، انحنى ظهره بيأس، فسمعها تردف بحنان أكبر:

- مش هتبص لي؟!

استدار إليها بتشتت، ضمته إليها لحظات بثته فيها شوقها، ومن فوق كتفها لمح الصغيرة تنظر إليه من بعيد بخوف، لقد أصبح مصدر غضب حزن ورعب لمن هم الأقرب إليه.. تنهد بحرارة يود لو يشكو.. يهرب.. يبتعد أو حتى يغادر الحياة..

طيفها لا يتركه لحاله، وخوفه هو أن يؤذي من يحب أصبح هاجسًا لا ينفك يطارده!!

أبعدته والدته عنها ببطء كأنما ترفض أن يبارح دفء أحضانها:

- اسمع كلام بابا يا تيام.. عاوزة ابني يرجع لي، ما تحرمنيش منه.

غمغم بخفوت بائس:

- بينفيني يا ماما.. أرجع إزاي؟!

ربتت فوق موضع قلبه بحنو:

- بيقويك..

تمتم بتساؤل شابَهُ الحنق الممتزج بحيرة مستسلمة:

- بالبعد!!

عادت تضمه، تربت وتشفق وتهمس وتقنع رغم قلبها الذي يبكي غيابه قبل الرحيل، لكن والده على حق، هو يحتاج أن ينهض من عثرته بنفسه بعيدًا عن مسبباتها هنا.. وهناك سيجد من يسانده حتى يعود ابنها، رفيق قلبها الأول.. كما كان.

******

هي مسئوليته هو، زوجته هو.. وبالطبع واجب حمايتها يقع على عاتقه هو، ليست حساسية كما ادعى أخيها، بل محض شعور برجولته التي يخدشها ما يقومون به حتى لو لأجل أختهما الصغرى.

حياته معها أصبحت كتلة من الصراعات.. معها، مع نفسه، مع ضميره الذي لا تهمد حركته، ومع ذكرى الصديق الذي وصمه بالخيانة وصدَّق ورحل وتركه جريح النفس.. لينتهي الأمر بصراع، بل هي حرب ضارية مع القلب.. القلب الذي لم يعد يفهم ما به، ما يحدث لدقاته الغبية عندما تقترب، عندما تبتسم، عندما تهتم به وترعاه!!.. وعندما تصرح بها.. "أنا زوجتك"..

لقد قرر..

خمسة أيام من الدلال والراحة أكثر من كافية.. عليه العودة لعمله، والبحث عن مجال أوسع يخطو داخله حتى لو أفنى نفسه فيه.. ما يهمه أن تكون حراستها، احتياجاتها، متطلباتها.. من ماله هو.

نهض من الفراش محاولًا الوصول إليها لتساعده، سمع صوتها الضاحك بنبرة افتقدها:

- بجد يا لولو مش مصدقة إنك رجعتِ.. وحشتيني قوي... طيب هاشوفك إمتى؟!.. خلاص اتفقنا هاستناكِ ونتكلم في كل التفاصيل.. ماشي يا ندلة..

كل ده غياب وجاية تقولي لي مشغولة!!.. أمال لما تبتدي الشغل هتعملي إيه؟!.. خلاص خلاص.. على ميعادنا.

وأغلقت الخط ثم التفت لتخرج من غرفة المعيشة ووجدته في وجهها يتأملها بحنان غريب.. احمرت وجنتاها كأنما مؤشر احمرارهما ينبعث دومًا من سواد عينيه، فكل نظرة.. تدفعهما دفعًا وبقوة للاشتعال خجلًا.. ابتسمت بحياء:

- قمت من السرير ليه؟!

مط شفتيه متظاهرًا بالملل:

- زهقت.. هانزل المكتب..

هتفت فجأة بحدة:

- إيه!!.. تنزل فين؟!.. لأ طبعًا.

ارتفع حاجباه دهشة، هذه مرة أولى لانفعال من هذا النوع، وهو كما هي يبدو لطيفًا للغاية، الآن ماذا؟!.. ستمارس سلطات الزوجة المتنمرة وتمنعه بالقوة؟!.. كم هذا ممتع.. لكنه ليس وقت الهزل، تحدث بجدية:

- الشغل يا سارة.. إيه!!. غريب إني أكون في شغلي؟!

حركت يديها كأنما تشرح له درسًا علميًا صعبًا:

- أنت مش قادرتتحرك.. محتاج ترتاح.. يعني إيه تنزل الشغل؟!

كان داخله يتسلى بالفعل، بل يرقص طربًا باهتمامها وسعادة بغضبها لأجل راحته، وليته يستطيع الاستكانة لما تطالبه به، الأمرجدي وهو مجبر، لذلك كسا نبرته بحسم أكبرولمحة صارمة تنهيها عن الحديث بالأمر:

- أنا راحتي في شغلي.. قعدتي في السرير بتتعبني أكتر، تعالي ساعديني ألبس عشان أنزل.

واستدار يوليها ظهره يرغمها على طاعته لكنها عاندته ببراءة كادت تذيبه مستجيبًا لرغبتها:

- مش هاساعدك.. زياد لو سمحت، ارتاح على الأقل يومين كمان، الدكتور قال راحة أسبوع.

هزرأسه بنفي متصلب:

- أنا دلوقتِ أحسن بكتير.. يلا يا سارة من فضلك.

نظرت لخطواته المغادرة بغضب، وقررت.. "حان وقت فرض السيطرة".. ذهبت خلفه:

- زياد.. ما فيش شغل النهاردة.

التفت إليها بتعجب فقوست حاجبيها بحزم:

- دي أوامر الدكتور.. وأوامري أنا كمان.

هتف بذهول:

- نعم!!.. أوامرك.

خاطبته برقة:

- أيوة.. عشان خاطري ما تحسسنيش بالذنب أكتر، كفاية إن اللي حصلك ده بسببي.

فتح فمه يريد نطق شيء ما ولم يستطع.. هل طالبته بالراحة لأجل خاطرها؟!.. أهو إحساس الذنب فقط أم هناك ما يخفى عليه؟!.. نظرتها الحانية.. رقتها.. بل ونبرتها الناعمة التي تأمره بها فأصبح كل ما يطمح إليه الآن هو الاستجابة لهذه الأوامر..

هز رأسه بعنف رافض، ما به؟!.. قبل أيام قليلة كان يعتبرها مجردة مسئولية تحت مسمى زوجة وحياة مع إيقاف التنفيذ، والآن..

كأنما حمل زائد أزيح من فوق كتفيه، أنين كف عنه قلبه الذي اطمأن وسكن لها بعد مواجهته مع صديقه، رغم وصمه بالخيانة.. رغم الغضب والحزن وانكسار القلب.. رغم الخوف والاتهام بالغدر.. هو بالفعل اهدأ نفسًا وصدره منشرح يخبره أن الغد سيكون أفضل، وأن المستقبل الذي يحلم به.. سيتحقق في يوم ما.. وهو ليس أبدًا ببعيد.

دقيقة كاملة أو أقل بثوان، التزم الصمت يتأملها، وأخفت هي عينيها عنه تحفظ ملامح الأرضية بدقة كأنها ستخوض فيها اختبارًا صارمًا، ابتسم فجأة وأطاع أمرها مخرسًا أفكاره السوداء:

- ماشي يا سارة.. يومين كمان.

ورفعت الأعين والتقت النظرات.. أشرقت الشفاه ببسمة أضاء لها وجهها كقمر مكتمل وسط ليل حالك، ونبض القلب يخبره أنه على وشك.. البعث، أردف برقة بدت عجيبة مع جبينه المقطب:

- وعلى فكرة اللي حصل لي.. كان اختياري أنا.

اتسعت ابتسامتها وظهر فيها شيء من طمأنينة كأنما شعرت به يريد التخفيف عنها، ورفع الذنب عن كاهلها، عادت تعانق الأرض بتأمل طويل منحه هو الوقت ليتأملها كما يريد.. وبداخله أمنية..

وعلى شفا الأمنيات.. تحيا الروح بأمل..

******

قبلت جبين صغيرها النائم بملائكية ثم اتجهت لفراش طفلتها، جاورتها بحذر خشية إقلاق نومها، داعبت خصلاتها الطويلة الناعمة بأناملها في رقة، انحنت تمنح جبينها قبلة هي الأخرى، ثم اتكأت لمرفقها تراقبها بشرود مضطرب..

نعم فقدت ابنتها والدها قبل أن تتعرف إليه، لكن القدر عوضها بأب لا مثيل له، يحنو ويمنح ويهتم.. بالفعل هو التعويض الأفضل والأكبر، فقط هناك حجر عثرة فوق صدرها.. "والدته".. بأحرف كبيرة مشتعلة بالكراهية العميقة التي تظهر بوضوح على وجهها كلما تلاقت الأعين.

زفرت بضيق، لو علم زوجها سبب مطالبتها بالعودة لعملها لذبحها حرفيًا، غيرته أصبحت أكثر جنونًا، تشبه بركانًا ثائرًا.. تخمده هي في كل مرة بليلة دلال.. ووعد بتنفيذ كل ما يأمر به، وهي تنفذ بالفعل، لكنه يفتأ يزيد في أوامره كأنها تتوالد من العدم..

"لا تكلمي ذاك"

"لمَ يبتسم إليك؟!"

"لا تبتسمي بهذه الطريقة.. يظنها له"

"صوتك ناعم؛ اجعليه أكثر خشونة"

"لا تكوني رقيقة في رفضك.. بل كوني حازمة حتى لو بقلة ذوق"

"ستعودين معي حتى لو لم تنهِ عملك"

"لا عمل بالمنزل"..

والكثير الكثير من الأوامر، لا ينفذ هو نفسه واحد على عشرة بالمائة منها.. لكنها تحبه، وهذا سبب أكثر من كاف لتطيع، وبسعادة في أغلب الأوقات.

نهضت متوجهة لغرفتها، أغلقت الباب خلفها بهدوء شديد ثم التفتت لتجد عيناها تنظران إليها بحنق، ابتسمت لها وقبل أن تنطق بحرف بادرتها:

- أنت مش هتبطلي بقى.. إمتى هتفهمي إنك اتنقلتِ لمستوى تاني لازم تتكيفي معاه؟!

عقدت حاجبيها بغضب دون أن تدرك مقصدها، اقتربت منها تنظر إليها من علو:

- الولاد لهم مربية بتهتم بيهم، مش لازم تعملي تشيك عليهم كل خمس دقايق.. دي واحدة دارسة وعارفة هي بتعملي إيه.. ما تبوظيش شغلها.

اتسعت عينا "جمانة" في ذهول:

- هو أنا لما أطمن على ولادي أبقى بابوظ شغل المربية؟!

هزت كتفيها باستعلاء:

- طبعًا.. لما تدخلي لهم بالليل وهما نايمين ممكن تبوظي نظام نومهم وتصحيهم.. هي عارفة هي بتعمل إيه، حاولي أنتِ كمان تعرفي مطلوب منك إيه في البيت ده!!

وغادرتها بخطوات واسعة ساخطة راقبتها "جمانة" بفم مفتوح ونظرات على وشك القتل، دلفت لغرفتها دون أن تلتفت لكُنتها ولو للحظة، ولم يوقظها من سباتها المصدوم سوى صوت الباب المقفل بعنف في وجهها..

ضغطت أسنانها بغيظ واشتعلت عيناها بغضب أسود.. عادت لغرفتها والتي ما إن دلفت إليها ورأى زوجها ملامحها حتى خمن ما حدث.. لقد قابلت أمه، ولابد أنها مناوشة جديدة من مناوشاتهما اللامنتهية.. لم تنظر إليه فعلم أنها غاضبة بشدة هذه المرة.. ابتسم وناداها، نظرت إليه بعقدة جبين، مد يده إليها بدعوة اقتراب، هزأت رأسها بنفي:

- أنا داخلة أنام.

رفع حاجبه وناداها ثانية، زفرت بحنق ثم اتجهت إليه، مدت يدها تضعها داخل قبضته الدافئة فأمسك بها وقبل أن تجلس إلى جواره جذبها يسقطها في أحضانه، دفعته بغيظ تزجره:

- أدهم.. لو سمحت.

ضحك بخفوت وكبلها بين ذراعيه:

- اهدي بس.. حصل إيه؟

أدارت وجهها بعيدًا عنه:

- ما فيش.

همس في أذنها:

- أمي؟!

لم تجبه.. فعاد يهمس بترضية:

- أنا عارف.. بس عشان خاطري بلاش...

قاطعته بحدة:

- أنا ما اشتكيتش.

جذب ذقنها يعيد عينيها لتلتقي بعينيه:

- عارف برده.. مش عاوزك تزعلي.

طرفت عيناها تحبس دمعة لا تريده أن يراها، شعر بضيقها وأنفاسها المحبوسة فقبل جبينها:

- انسي معايا الدنيا كلها.. وما تفكريش في أي حاجة تانية.

غمغمت بوهن:

- من حقي أتضايق وأغضب وأحزن.

ابتسم برقة:

- كل ده باحس بيه.. من حقك، بس مش عاوزك تركزي معاه.

غرقت في عينيه باستسلام، لن تشتكي إليه، لن تعدد مساوئ أو تذكر تفاصيل.. ليست هي من تفعل، رغم أنه سيراضيها، ورغم أنه يعلم خطأ والدته فلن يذكر الأمر معها، أخبرها من قبل.. تجنبي ما يغضبك، وتجاهلي ما يزعجك.. لكن فاض بها الكيل ولولاه لما...

سحبها من أفكارها بقبلة فوق وجنتها:

- بطلي تفكير بقى.

تنهدت باستجابة متذمرة:

- طيب.. إوعى خليني أقوم.

وحاولت النهوض لكنه تمسك بها بمشاكسة:

- رايحة فين؟!.. أنت فاكرة إن الوقوع في حضني زي الخروج منه؟!

زجرته ثانية:

- أدهم!!

مال بها على الأريكة التي يجلس فوقها:

- لازم ضريبة.. ودمغة.. ومصاريف.. وانتقالات.. وأذونات..

عنفته بنداء ضعيف:

- أدهم..

قبل أرنبة أنفها بنعومة:

- عيون وقلب وجنون وروح وحياة أدهم كلها.

وألجمها هذه المرة فاستكانت لحبه، وفي حرم العشق.. الصمت أساس الملك..

(٣١)

لا تنطقيها!!

لم أعشقك كرجل بل عشقتك أمانًا وانتماءً ووطنًا بعد طول اغتراب..

يا محطتي الأولى والأخيرة..

يا لحظات الفرح في الوقت الضائع..

لو أفنيت عمري في جمع معاجم الكلمات؛ لما أوصلت إليك..

عشقي وقناعتي بأيامي معك..

وخوفي ورعبي من أن تعلم أنني مدنسة بالخطايا..

وظننت بكل حمق أن الفرص تأتي مرتين..

أنت الذي لا يشبهه شيء في الوجود..

حسبك أن تعلم أنني لم أَرد أن يمسك سوء وفي عيني ضوء للنهار..

هذا نحري قد ابتل بالدماء..

لعلها تغسل الدنس من جسدي..

وتطفئ نارك التي أوقدها في قلبك الجلاد..

فسلامٌ عليك يوم أحببتك..

وسلام عليك يوم أعلنتك الحاكم والمالك لروحي التي كانت بدون انتماء..

وسلام عليك وفي عينيك بقايا ألم..

من خطاياي على يد الجلاد!!

إهداء/ نداء الحق

***

أسيرُ رقتها..

يعيش فوضى مشاعر ناسفة..

يرمم زخرفات نبض استيقظ..

قرعه سهم إعجاب نافذ في عسل عينيها..

يكابر.. يتوسد عباءة النبل.. وهو غافل، كيف يداري خوفًا بات زاد أفكاره؟!

محرومٌ أن يقترب بخياره..

أنينها وبكائها يمزع أحشائه..

يتقلب قلبه بداخل جلباب القلق المتّسع..

يطمئن ماردًا يكاد يمزق أغلالًا تأسره وخوفًا من قادم يمزقه هو..

يعتلي سفوح الصبر.. لكن إلى متى؟!

إهداء/ زهرة الكاميليا

الحياة ما هي إلا سلسلة من المتغيرات تتخللها بعض الثوابت كالأخلاق والدين والمبادئ وخلافه.. وما المشاعر إلا أحد أهم هذه المتغيرات؛ حيث لا تخضع لقانون ولا يتحكم بها لجام..

هي تولد، تنمو وتتشعب وتمد جذورها بقلوبنا دون إرادة، وكل ما علينا عمله هو الاستجابة لسلطتها سواء بالرفض أو بالقبول.. فالرفض لن يمحيها كما أن القبول يرويها أكثر فتزهر وتثمر ونرضخ نحن بالفعل قبل القول..

والفعل يبدأ باهتمام، رعاية، تقارب.. تفاصيل لن تخوض في خباياها إلا عندما يتسلل داخلك حس المشاركة.. يشعرك في لحظات متفرقة بالاكتمال.. حتى لو تغاضينا عن القول، وتخطينا المرحلة التي تنتهي به..

كما أن الحياة أيضًا لها متطلبات لم يسبق لها التعامل معها من قبل، ولأنها الآن سيدة المنزل المسئولة عنه لو جاز لنا أن نطلق هذا المسمى عليها؛

فقد قررت أن تقوم بهذا الدور على أكمل وجه.. أو على الأقل نيل شرف المحاولة.

تضع الهاتف بين أذنها وكتفها، تنحني أمام المِغسَلَة الكهربائية، تحشر فيها العديد من القطع وتردد بتساؤل:

- طيب ودرجة الحرارة يا جوجو!!

أتاها الجواب فأوضحت:

- هي خامة ناعمة.. أعتقد قطن، يعني ستين كويس!! ولا أخليها أكتر؟!

صمتت لثوان تستمع ثم أردفت باهتمام:

- ماشي.. على أي برنامج؟!

كانت تهز رأسها في إيماءات صامتة كأن زوجة أخيها تراها، أنهت المكالمة، أدارت المؤشرات، ونظرت لمرة أخيرة بدقة ثم ضغطت زر التشغيل.

مر الوقت المحدد وهي تدور حول المكان في وضع مراقبة مضحك، فتحت باب المِغسَلَة وبدأت بإخراج الملابس منها، حتى وقع في يدها ما لم تتخيل وجوده بين ما يخصها هي!؛ قميصه الأبيض الذي وعدته عند خروجه صباحًا ألا تلمسه عندما حذرها:

"اعملي كل التجارب اللي أنتِ عاوزاها.. بس ابعدي عن القميص ده"..

وضعت كفها فوق فمها المذهول، وعيناها تتسعان.. الآن ماذا!!.. سيغضب بالتأكيد..

تبًا لها.. هي مجرد فتاة مدللة كما أطلق عليها، فاشلة.. لا تجيد الطهي، ولا حتى صنع كوب من القهوة التي يحبها بطريقة مضبوطة، والأدهى والأمَّر.. تشغيل جهازكهربي غبي يمكن لمعتوه أن يتعامل معه..

عندما عاد من عمله، متأخرًا، متعبًا، يتلمس وقت الراحة؛ كانت في انتظاره بقلب واجف، وشعور بالذنب.. لكنه بادرها ببسمة وذاكرة فلاشية صغيرة بين أصابعه:

- جبت لك شغل..

ارتفع حاجباها دهشة ونسيت تصريحها الخاص بقميصه:

- شغل!!

أومأ بموافقة ونبرته علاها الجدية:

- أيوة.. ما زهقتيش من الفراغ؟!

ترددت، بل ارتعشت دواخلها، هل يريدها أن تعمل؟!.. يطلب منها الخروج من المنزل وهي لم تفعل بعد نوبة التحطيم التي أصابتها قبل شهر!!.. لا تخرج إلا في أضيق الحدود ودومًا في صحبة.. إما معه أو مع إحدى زوجتي أخويها!!..

لن تستطيع، لا لن تفعل.. لن يمكنها.. لاحظ ملامحها المتوجسة بقلق لم يفهم سببه، مد يده لها بالذاكرة مردفًا بهدوء:

- جربي نفسك وشوفي.

هتفت بسرعة وأنفاسها تعلو:

- بس أنا مش عاوزة أشتغل يا زياد.

وجاء دور تقطيبته الحادة في الظهور، سألها بلهجة مكبوتة وغضبه يولد:

- مش عاوزة؟!.. أمال إيه!!.. عاجبك تفضلي قاعدة على الفاضي كده؟!.. التيرم الأول كله ما فيش حاجة تنشغلي بيها.. اعملي حاجة مفيدة.

وبدا أن الموقف على وشك الاشتعال، هزت رأسها برفض متوتر:

- مش عاوزة.

وقبل أن يعلق أو يحاول إقناعها، رفعت عينين خائفتين نحوه:

- مش هاقدر أخرج من البيت لوحدي ببساطة كده يا زياد.

وفهم.. عليها اللعنة، ماذا تظن فيه؟!.. اقترب خطوة مهددة:

- أنتِ فاكرة إني بأقولك أخرجي اشتغلي؟!..

تراجعت خطوته بل وأوسع، شرارة السواد بين جفنيه أثارت فيها رهبة تهدل لها كتفيه.. لا تزال تخشاه رغم كل شيء!!.. لكنها تماسكت تدافع بسؤال:

- أمال هاشتغل إزاي؟!..

قرر تخطي حدوده باقتحام لمساحتها الخاصة، اقتراب.. ثم كفها الصغيرة تحتضنها قبضته بحزم يجبرها على السكون.. وضع بها الذاكرة وأجابها بنبرة محتدة:

- من البيت يا سارة.. دي شركة دعاية مبتدئة لسه وصاحبها قريبي، مش طالبين خبرة خمس سنين عند المصممين زي باقي الشركات، عرضت عليه تصاميمك وعجبته، بس عارفة قال لي إيه!!..

لم تسحب يدها التي استكانت في دفء كفه، بل رفعت إليه عينين متسائلتين، مال نحوها قليلًا يجيب بحسم:

- ناقصها لمسة ثقة.

ترددت وشعرت بخطأها، همست بارتباك:

- زياد.. أنا...

قاطعها مغلقًا قبضتها على محتواها:

- أنا واثق فيكِ.. باقي أنتِ تثقي في سارة.. إنها تقدر، وهتنجح.

استمدت أمانها من دفء نظراته المراعية رغم لمعة الغضب المحبوسة..

ما الذي يريده منها؟!.. لمَ يسحبها لعالمه وهي تتنائى خشية الغرق!!.. هل بوسعها أن تسلم له راياتها؟!.. تكمل به ومعه وله.. وتنتهي إليه؟!..

تأملها للحظات مستشعرًا ما تمر في متاهاته ثم تحرك متجهًا لغرفته يأخذ القرار عنها، نادته بسرعة تعترف بتهمة منسوبة إلى غبائها:

- زياد.. قميصك.

توجس هو هذه المرة، عاد إليها بتساؤل صامت أجابته بفعل وهي تمد يديها به إليه، صاح بصدمة وهو يعاينه دون أن يلتقطه منها:

- وردي يا سارة!!.. وردي؟!

تناوله منها يمسكه أمام وجهه، يفرده مدققًا بسخط قبل أن يردف باستنكار:

- وكمان بقى حجمه النص.. إزاي حصلت الجريمة دي؟!

واجهته تقر بذنبها:

- سوري يا زياد بجد.. أنا ما رضيتش أجرب في هدومك، حطيت هدومي أنا.. بس هو جه في وسطهم غلطة.. وكان معاه بيجامتي الحمرا.

عقد حاجبيه بزعيق أجفلها:

- حمراااا!!..

مطت شفتيها تحاول ترضيته:

- خلاص بجد بقى، ما كانش قصدي..

وصمتت للحظة تمسك بأطراف القميص بين أصابعه قبل أن تعلق باهتمام:

- على فكرة اللون متوزع عليه حلو قوي.. ممكن ينفع على بدلة كحلي، هيبقى تحفة.

رمقها بنظرة نارية قبل أن يلقيه إليها هازئًا:

- أنا راجل وأسمريا سارة.. مش بالبس وردي، مبروك على ملك.. يادوب بقى مقاسها.

غضنت ملامح وجهها ثم خرجت أفكارها على شكل صوت دون انتباه:

- خسارة والله.. أنا هاخده، هيليق عليَّ مع إنه هيبقى كبير شوية.

كان يستدير مغادرًا عندما سمع كلماتها التي نطقتها بعفوية، تجمد مكانه للحظة.. وداعبت خياله الذي أصبح يتركز حولها كثيرًا في الفترة الأخيرة.. صورة: صورتها هي بقميصه هو، حتى وإن أصبحورديًا وانكمش بعض الشيء، يحيط بحناياها وينعكس لونه على وجنتيها، وربما تقف به في المطبخ تمارس تعاويذها التي لا تنتهي أو تحرق طبخة جديدة، ابتسم للفكرة

التي لا يذكر أين قرأها أو مرت عليه!!.. بينما عقله يرهقه أكثر ويسحبه بعيدًا..

هز رأسه بعنف يطردها من خيالاته ثم نظر لها من فوق كتفه:

- ما تلبسيهوش.

رفعت عينيها إليه بتساؤل قاطعه اتساع عينيه وهو ينظر لفتاة ضئيلة الجسد مرت أمام باب الغرفة لتختفي في الحمام المجاور كأن وجودها أمر طبيعي، عاد يلتفت إليها محاولًا التماسك قدر استطاعته فقد وصل الصبر لمنتهاه:

- مين دي؟!

ودومًا هي عفوية.. أحيانًا لدرجة مغيظة مثيرة للأعصاب:

- دي فاتن، بنت دادة رجاء.

نظر إليها بغضب مكتوم:

- وبتعمل إيه هنا؟!

عقدت حاجبيها بلا فهم:

- هتكون بتعمل إيه يعني؟!..

زفر بغيظ.. المدللة الصغيرة، ترهقه أكثر وأكثر وهو يتحمل، حتى شارف الكيل على الفيض، دمدم من بين أسنانه:

- مين بيدفع لها؟!

اندهشت للسؤال وتلعثمت، فهي لم تهتم بهذه النقطة أو تفكر بها:

- إمممممم.. أعتقد...

تأكد من ظنه، وثار بركانه الذي يشتهي الثورة منذ مدة:

- سااااارة.. أنتِ اللي هتدفعي.. ومن مصروف البيت اللي باسيبهولك.

وكان قرارًا عنتريًا كما رأته، مطت شفتيها، هل يتضايق من مساعدة أهلها لها؟!.. هي لا تريد إغضابه بالتأكيد لكنه أمر بسيط، اعترضت بخفوت:

- أيوة.. بس...

قاطعها بنبرة حادة لأول مرة:

- ما بسش.. أنتِ اللي هتدفعي، لا مامتك ولا أخواتك.. مفهوم؟!

وهنا نالها نصيبها من الغيظ، هو بالفعل غاضب من هذا الأمر:

- ما هو يا زياد..

ويقاطع كأنما المقاطعة هي مسلكه الوحيد اليوم:

- عاوز أسمع حاضر.

لوت شفتيها بسخط، لم تعتد الأوامر، وهو يأمر بلا انقطاع وهي تلبي بسعادة.. هذه حماقة لا تدري لها سببًا:

- بس..

نهرها بحنق:

- سارة!!

سلمت لأمره بنظرة حارقة:

- حاضر.

انفرجت ملامحه بشكل مفاجئ جعلها تقسم على جنونه، منحها بسمة وكرر أمره الآخر:

- وإياكِ تلبسي القميص.

ورحل.. دون أن تفهم دوافعه، أو تفكر بأسبابه، وبالطبع لا تنوي التنفيذ.. حتى لو من باب إثارة غضبه والعناد معه، فيكفيها الاستجابة لأمر واحد كل يوم.

******

هو اعتاد مفارقة الأحبة.. سنة كونية جبرية لا مفر من المرور في جحيم عذابها..

لكن عندها هي توقف الزمن للحظات..

لحظات طويلة دامية سكن جسدها خلالها والآخر يضمها بين ذراعيه بقوة صارخًا باسمها، يسُبها، يهيل فوق رأسها لعناته وبكل جنون يهتف مناديًا بنبرة راجية يأمرها بألا ترحل..

وهو مكبل، عاجز، ينظر والنيران تشتعل في صدره.. بل في روحه، يود الذهاب إليها، احتوائها، التمسك بها مبتهلًا أن تتمسك به أيضًا، ليس هذا هو طريق الرحيل الصحيح حبيبتي.. ليس هو أبدًا.

لمح وقلبه يئن "طارق" يحملها برفق، يضعها فوق الفراش الصغير والدماء لا تتوقف عن النزف، يجثو على ركبتيه أرضًا، يحتوي كفها ويهمس لها بتوسل:

- دينا!!.. ردي عليَّ.. عملتِ كده ليه؟!.. أنت مجنونة.. مجنونة، ما كنتش هاعمل حاجة، أنا كنت باهددك بس.. ردي عليَّ، ما تموتيش.. ديناااااا..

ويصرخ، يصرخ بألم بدا غريبًا على من مزقها شر ممزق قبل دقيقة واحدة حتى قررت إنهاء القصة بانتزاع روحها بنفسها من جسدها وانتزاع روحه معها، كان يتحرك بعنف لم يتوقف، يريد الذهاب إليها، يهمهم بل تكاد همهماته تصل حد الصراخ، والآخر في ملكوته هائم معها، يتلمس وجهها بلهفة، يبحث عن نبض في عنقها، يستجديها البقاء:

- دينا.. ردي عليَّ، إوعي تموتي وأنتِ معايا، ما تسيبينيش، مش هارحمك لو سيبتيني.. أنا بحبك يا دينا.. ما كنتش هأذيكِ، كنت بس عاوزك ليَّ لوحدي.

تحرك جفنيها برمشة خافتة فتعالت أنفاسه بأمل وعاد يناديها:

- دينا.. فوقي، أيوة أنتِ سامعاني مش كده؟!..

وصله أنين "مراد" من خلفه يخترق تلك السحابة التي غيمت فوق عقله وأذنيه وكل حواسه حاجبة عنه أي شيء عداها، استدار إليه بجمود اكتنفه لثوان، بعدها توسعت عيناه كثور هائج، نهض من جلسته أمام جسدها، مال يلتقط سلاحه الذي رماه عندما تلقفها قبل السقوط، اقترب منه وبين عينيه رأى الموت يرفرف بجناحيه، لم يأبه بل نظر إليها بعجز ثم عاد بنظراته إلى الجلاد بتحدٍ، سمعه يردد بجنون:

- أنت السبب..

واقترب خطوة:

- أنت اللي وقفت بيني وبينها، علقتها بيك وهي ملكي أنا..

وخطوة ثانية:

- دفعت حياتها تمن عشان تنقذ حياتك..

وثالثة مندفعة:

- ماتت بسببك.

وأخيرة ألصق بها فوهة المسدس بجبين "مراد" وهتف بنبرة مستعرة كأنما أصابه الخبال:

- قولها الوادع زي ما ضيعتها مني.

وجذب اللاصق المكمم به فمه، والذي ما إن ابتعد حتى صرخ المقيد غير مبالٍ للسلاح:

- أنت مجنون.. أكيد مجنون، بدل ما تفكر تقتلني فكر فيها.. ممكن نلحقها، نلحقها قبل ما تموت.

انعقد حاجبا "طارق" لثانية كأنما أفاق على واقع أنها لم تمت بعد، يمكنها أن تحيا.. ويمكنه بعدها أن يتملكها كما يريد، تردد للحظة والآخر يصرخ به يطالبه بفك قيده ليحاول إنقاذها، اتخذ قراره بحسم..

"هي يجب أن تعود"..

بحركة خاطفة انحنى "طارق" يفك أصفاده، لمح الدماء التي تغرق معصميه ولم يكترث، بل ساعده في فك إحدى ساقيه وهو اهتم بالأخرى..

وبقفزة واحدة كان إلى جوارها، يناديها من أعماق فؤاده النازف بوجع:

- دينا.. حبيبتي، كلميني.. أنتِ سامعاني مش كده.. سامعاني!!..

رفت بجفنيها ثانيةً قبل أن تنظر إليه من بينهما بضعف، تنكسر ابتسامة واهنة فوق شفتيها وتهمس باسمه كأنها ارتاحت أخيرًا:

- مراد!!

رد بلهفة:

- أيوة.. حبيبتي.. افتحي عينيك، خليكِ معايا هنروح مستشفى حالًا.

والتفت للمراقب بضياع، أمره بهياج:

- أنت واقف تتفرج، خرجنا من هنا وإلا ورب العزة لأدفنك مكان ما أنت واقف.

ناظره بتبلد كأنه لا يراه، بل يرى من سعى خلفها كل هذا الوقت، دون حراك، مغطاة بدمائها.. أنفاسها تقترب من الانقطاع، والجسد الذي أصبح هوسه على وشك السكون الأبدي، ومن أحبت وتركته لأجله يأمره بأوامر لم يفقه منها الكثير سعيًا لإعادتها لحياة رفضتها لأجل الهروب منه، لأجل إنقاذ من عشقت.. نهض إليه "مراد".. جذبه من قميصه وعاجله بلكمة عنيفة في فكه بصراخ:

- فووووق.. أنت السبب، خرجنا من هنا يمكن ألحقها.

نظر إليه يتحسس ذقنه دون شعور، ابتلع لعابه كأنه أشواك تخترق حلقه بحدتها، ناوله سلسلة مفاتيح وبحشرجة صوت غائب:

- دي مفاتيح عربية هتلاقيها برا..

نظر إليه وكادت ألسنة اللهب تطاله من عينيه، تجاهله وانطلق نحوها يحملها بين ذراعيها، يضمها جوار قلبه متغاضيًا عن معصميه المجروحين، وصله صوت المراقب الصامت قبل خروجه:

- استنى..

التفت إليه بتحفز مقسمًا على قتله لو حاول منعه لكنه أردف بشفاه مرتعشة:

- روح مستشفى... أنا هاكلمهم يستنوك، ما حدش هناك هيسأل عن الرصاصة.. المهم تلحقها..

لم يتوقف كثيرًا ليفكر، بل ركض بحمله للمكان الذي أخبره عنه، وصل للمشفى فتلقفها منه فريق طبي وجدهم بانتظاره، حينها تم طمس كل شيء.. ونجت..

الرصاصة لم تستقر في جسدها، بل دخلته وعبرته تاركة خلفها ثقبين نازفين، فقدت الكثير من الدماء وتم تعويضها عنها.. أما هو فوجد فجأة ممرضة ما تشير إليه باهتمام قلق تخبره عن رسغيه ووجوب الاعتناء بهما..

استسلم لها بعدما اطمئن عليها ومن يومها وهو إلى جوارها.. يعود لمنزله فقط ليقيم أوده بقليل من الطعام، يغير ملابسه ثم يظل معها حتى تنتهي مواعيد الزيارة..

أسبوعين مرا.. أسبوعين طويلين وهي في غيبوبتها كأنها ترفض العودة للواقع بكل ظلامه وظلماته، وكل ما أمكن الطبيب فعله هو متابعتها وإخباره أن هذه الغيبوبة اختيارية لا أكثر، ولا يوجد داعٍ طبي لحدوثها..

مال نحوها وذقنه التي استطالت بإهمال تخدش نعومة يدها الباردة بقبلة يبثها فيها أحزانه واشتياقه، يهمس لها والقلب يتلهف العودة:

- ارجعي لي يا دينا.. كفاية غياب.. وحشتيني.

وتنهد بقلب مثقل بهَم الفراق:

- مش مهم الماضي.. المهم اللي جاي، المهم تكوني معايا.

وليتها تعود، بل ليتها تصدق أن الحياة يمكن أن تكون بهذا الكرم فتمنحها الفرصة الأخيرة!!..

******

ماذا أجمل من خبر سعيد ودواماته المتتابعة ليخرجك من أزماتك، يفتح عليك ذاتك المغلقة، ويجبرك على النظر نحو بصيص الأمل وتمني السعادة بشكل مطلق!!..

ماذا أروع من بهجة امرأة تمنت وحلمت وانتظرت واستكانت أسفل جدران الصبر تأمل وتدعو حتى حقق الله لها ما تعاني شوقًا إليه!!..

وماذا أفضل من قريب تحمل لك انفراجة أحزانه فرجًا خاصًا، وتمنحك رغبة في أن تتغير، تنجح، تصبح أقوى وتبحث في دواخلك عما ينقصك تنشد تمامه!!..

نعم.. هي أكثر من سعيدة لأجل زوجة أخيها، لخاطر أخيها، ولصغيره الذي سيحصل على أخ قريبًا.. قبل ساعتين هاتفتها "لمياء" وطلبت منها ملاقاتها في أحد مراكز التسوق الشهيرة لأمر هام..

أخبرت زوجها الذي أوصلها للمكان وانتظر معها حتى ظهرت زوجة الأخ، بعدها اتفقت معه على موعد عودتها وغادر..

نوبة تسوق محمومة ومبررة سقطت فيها الحامل الجميلة.. لم تكمل الثلاثة أشهر بعد، بل لم تظهر بطنها حتى ولو بانتفاخ ضئيل، لكنها تجوب المحلات، تشتري هذا وتتطلع لذاك.. جنون حقيقي وممتع، وهي تشاركها متعته بصدر منشرح، تنتقي معها الألوان، تخبرها هذا يناسب صبيًا وذاك لفتاة.. وهي تشتري وفقط، لكلا الجنسين دون تمييز.. ما يعجبها تلتقطه ولا تخرج من المكان بدونه..

في نهاية اليوم، وبعدما شعرت أن قدميها على وشك سبِّها لطول المسير، قررت "لمياء" إنهاء هذه الجولة، على أن تكررها لاحقًا فهي لم تنتهِ بعد ولا تظن أنها ستفعل.. وضحكت من قلبها، وبادلتها الأخرى الضحكات.

تحركتا عازمتين على الرحيل عندما توقفت زوجة أخيها فجأة أمام مكان جديد، تنظر بلهفة وتشير إليها:

- سارة بصي ده.. تحفة.. دقيقة هاجيبه بسرعة، مش هاتأخر عليك.

ولم تمنحها فرصة لاعتراض، دلفت للمحل وتركتها في الخارج تتأمل الواجهة الزجاجية بحالمية، تفكر.. هل يمكنها أن تحظى بطفل هي الأخرى في يوم ما؟!.. أتراها تحصل على حياة طبيعية كزوجة وأم!!.. وزوجها الصبور يكون الأب.. توردت وجنتاها حال شرودها وارتسمت على شفتيها بسمة ناعمة...

"إزيك يا سارة؟!"

التفتت لصاحب النبرة الأجشة من خلفها، كان قريبًا لدرجة مقبضة، وعطره أصابها بدوار طفيف كأنما أيقظ ذكرى مبهمة لا ترى ملامحها بوضوح، نظرت إليه بتوتر قبل أن تجيبه بارتباك:

- الحمد لله.. يا تيام؟!

شملها بنظرة متفحصة كأنه يبحث عن بروز ما يدلل على حملها، هل هي تحمل طفلًا الآن؟!.. هل هذا ممكن؟!.. لا.. مستحيل!!..

أشار برأسه نحو واجهة المحل:

- ما تقوليش إنك حامل!!..

هزت رأسها بنفي مرتجف وحاولت الابتسام:

- لأ.. دي مرات أخويا.

تنهد ببطء، تأملها في صمت جعلها تود الهروب:

- عقبالك.

أومأت بجواب مبهم فعاجلها:

- بس أنتِ مختفية يعني؟!.. كنت فاكرك هتشتغلي في الشركة!!

تلعثمت قليلًا وقبل أن تجيبه ظهر رجلان من العدم حولها بتساؤل مهتم:

- في أي مشكلة يا مدام سارة!!

عقد "تيام" حاجبيه باستفهام مفتعل كأنه لا يعلم بوجودهما منذ البداية، سمعها ترد:

- لأ ما فيش..

ثم نظرت إليه ببسمة خافتة لا معنى لها:

- معلش يا تيام.. عن إذنك.. هادخل جوا.

وتسابقت قدميها بخطوات متسارعة تهرب من حيزوجوده.. وهو فهم، عليه وعليها كل اللعنات.. لقد أصحبت أكثر جمالًا، الراحة والسكينة تبدوان على ملامحها كأنها سعيدة بالفعل، كأن شيئًا لم يحدث وجميلته التي كان دافعه الوحيد في غيبوبة نتيجة رصاصة كما علم.. لقد زارها مرة خلال الليل، لم يرد لأحد أن يراه.. هو على وشك الرحيل وكان لابد من وداع..

يودع ضحيته.. والمغوية التي دفعته لطريق الخطيئة دون علمها..

يرسله والده بعيدًا عنهم، يجبره على فراق الأهل والصحبة، يخبره أنه لمصلحته.. لكنهم لا يعلمون شيئًا، فما يؤرقه لا مهرب منه، ولو غادر المجرة كلها.. هي.. هلوساته، عالم أحلامه أو للدقة كوابيسه.. مخاوفه ورعبه من شيطانه الذي يصور له أبشع الصور..

سيعيش بمنفى فخم منبوذًا مطرودًا.. ومعه ما بقي من ذكرى..

******

تخمة من البهجة..

مصطلح قد يعبر عما تشعر به.. هل بالفعل أمسكت النجوم؟!.. حلقت مع الطيور واسترخت فوق السحب تداعب دفء الشمس!!.. طارت مع الفراشات ولعبت بقوس المطر فبعثرت ألوانه كما تشاء!!..

هرمون السعادة في دمها وصل لمعدله الأقصى.. بإمكانها أن تغمض عينيها، ترتاح.. تهمس لجنينها، تتفحص مكان وجوده وتتأمل صورتها في المرآة طوال الليل والنهار.. تناجيه وتناشده الظهور.. تتخيل نوعه وتتخير اسمًا مناسبًا، تبحث وتسهر وتنام وتفكر وتقرر وتلغي الفكرة والقرار.. وتبتسم وتحلم..

كلها لأجل ذلك الصغير في أحشائها..

تشعر وكأنها عادت طفلة، خفيفة للغاية كريشة تطفو مع نسمات الهواء الرقيقة، لم تعد تلك العقلانية التي تحسب كل شيء بدقة.. بل تركت لروحها العنان، ألقت لها الحبل على الغارب علَّها تقطف لها من جنان الفرح ثمرة تغنيها لما بقي من عمر..

كانت تقف أمام مرآتها كعادتها، تجذب ملابسها القطنية الناعمة للخلف تحدد بها جسدها، تناظر بطنها بتأمل، تدور حول نفسها وتتابع من كل الزوايا.. وهو يقف هذه المرة مرتكنًا للجدار بجوار باب الغرفة، يبتسم بحنان، ويتأملها برقة..

هذه المرأة له.. بكل ما فيها له.. حتى قلبها العنيد ملكه.. ببراءة روحها، بأمومتها الطاغية، بأنوثتها المدللة، بطفولة ظهرت فجأة عندما حملت بطفله هو..

التقت عيناها بعينيه ولمحت بهما دفئًا أحاط بها فغرقت فيه، ابتسمت له هي الأخرى، فرغب في مداعبتها، اقترب منها بهمس مشاكس:

- بيتهيألي ظهرت شوية!!

استدارت نحو المرآة في لهفة:

- بجد؟!

قهقه بمرح، فمطت شفتيها بتذمر:

- ماشي اضحك..

احتوى خصرها ووقف خلفها يناظرها عبر السطح اللامع:

- بكرة تكبر وتبقى زي البالونة..

وأراح ذقنه فوق كتفها، أمسكت كفيه المحيطين بها تضمهما بين أصابعها:

- نفسي قوي..

قبل عنقها بنعومة:

- هانت.. هتبقي أحلى بالونة..

مالت برأسها لوجنته الخشنة تغمض عينيها بحميمية وهو يضمها أكثر، ينفث أنفاسه الساخنة ويتنشق عبقها الخوخي الذي يسكره، همس:

- تعالي نروح ليوسف.

باعدت بين جفنيها بكسل ناعس، جذبها خلفه فتبعته باستسلام نحو غرفة الصغير المنبهر تمامًا بفكرة حصوله قريبًا على أخ أصغر منه، جلسا إلى جواره فوق الفراش، فاقترب منها يربت على بطنها برفق متسائلًا باهتمام:

- هو هييجي إمتى؟!

ضحكت "لمياء" برقة:

- يعني.. كمان ست شهور وشوية.

اعتدل في جلسته بتحفز:

- هينام معايا في أوضتي مش كده!!.. هاخلي بالي منه.

عادت تضحك:

- لا في الأول يا جو هاخليه معايا عشان لما يصحى باليل، بعدين هيجي أوضتك.

نظر إليها بلهفة:

- لما يصحى أنا هاشيله، مش هاسيبه يعيط.

ربتت على شعره بحنو وجذبته تقبل رأسه أمام عيني الوالد المبتسم، بهما تكتمل حياته، وبالقادم سيصل اكتماله لأقصاه..

فبماذا قد يحلم الرجل أكثر من امرأة هي السكن.. وأبناء هم الزينة!!..

ضمهما إليه، منح جبين كل منهما قبلة حانية، وهمس داخله:

"ربنا يخليكم ليَّ"

******

هل يمكن أن تصل سخرية القدر لدرجة أكثر من هذه!!..

الزيارة الثانية والأخيرة للجميلة، الصديقة، الفاتنة التي تمنعت ورفضت حتى أصبح بسببها شيطانًا أدمن الخطيئة ظنًا منه بأنها طريق الوصول، ثم يتعثر قبل النهاية بها.. غائبة عن الوعي، ملعونة برصاصة كادت تزهق منها الروح ولا يعلم لمَ أو من فعلها!!..

تأملها متفحصًا، أمسك بكفها بين أصابعه يضغطها بلطف، انحنى يطبع شفتيه فوق جبينها وينظر إليها من قرب، تمتم أمام وجهها بشرود:

- عملت كل حاجة.. وما وصلتش لحاجة!!

بأنامله تلمس ملامحها الساكنة، يحاول التشبع بها قدر استطاعته قبل الرحيل:

- هتوحشيني.

ويبتسم بمرارة:

- فيها إيه لو كنتِ سمعتِ كلامي؟!..

واعتدل واقفًا دون أن يترك يدها:

- كنا بقينا مع بعض، يمكن كنت قدرت أحميك من الرصاصة دي!!.. يمكن كنتِ معايا تحميني من ذنب عملته عشانك!!

قبل باطن كفها ببطء قبل أن يتركها إلى جوارها بحنو:

- أتمنى أسمع إنك بخير قريب.. طيارتي بعد الفجر، ابقي كلميني.. مهما حصل إحنا كنا أصحاب.

احتواها بنظرة أخيرة قبل أن يتحرك مغادرًا المكان، عند الباب توقف لثوان استبقى فيها عذوبة وجهها الصامت في ذاكرة عينيه لمدة أطول قبل أن يرحل..

خطوات رحيله التقطها رادار عينين زرقاوين متشككتين، لمحتا الشاب الذي يخرج من غرفة الحبيبة، وصاحبهما يتساءل بغضب مكبوت:

"ومن هذا أيضًا؟!"..

ولاحقه بسرعة لكنه اختفى من أمام ناظريه قبل أن يصرخ به..

"ماذا كنت تفعل عندك؟!.. وما علاقتك بها!!"..

توجه نحو الرجلين الواقفين إلى جوار باب الغرفة بحنق:

- مين اللي كان جوا ده؟!..

أجابه أحدهما بارتباك:

- ده واحد قريبها يا مراد بيه..

صاح فيه ساخطًا:

- هو أي حد يقول إنه قريبها يدخل؟!.. أنتوا وظيفتكم إيه هنا؟!.. تحموها وبس.. ما حدش يدخل الأوضة دي من غير إذني.. مفهوم؟!

بعدها رفع هاتفه وأجرى اتصالًا صارمًا للشركة التابع لها هذان الضخمان، طالب باستبدالهما مؤنبًا، فبعد كل شيء حتى وإن تصرف هو: هذا الـ"طارق".. لم ينتهِ بعد؛ ومن يدرِ ما الذي يمكنه بجنونه أن يقدم عليه!!..

******

يقال أن العشق يغدق على طرفيه صك غفران مرآته عمياء..

أنت عاشق؛ إذًا أنت صبور.. محب.. متودد.. تتحمل حتى نهاية الفيض، لا تشتكي، لا تعاتب.. تسامح وتغفر وتنسى.. وتفند كل مشكلة لأمر الهوى.

لكن ماذا عن الوصول لمرحلة الاكتفاء؟!.. ماذا عن الاختناق؟!.. ماذا عن طريقة لم تعد قابلة للاحتمال بل أصبحت تشبه فضيحة على وشك الحدوث!!..

كان يجذبها خلفه بعنف حتى تعثرت، ساندها للحظة وعاد يتحرك بسرعة، دلف لمكتبه غير مكترث بالنظرات المذهولة لمساعدته، أغلق الباب وعلا صوته بهياج:

- آخر يوم ليك في الشغل النهاردة يا جمانة.

انتزعت يدها من قبضته بسخط:

- ده أمر يا أدهم؟!

مال نحوها بنيران محتدمة:

- أيوة.

جابهته بعناد متحدٍ:

- ولو ما نفذتش؟!..

قبض على ذراعها حتى تأوهت:

- هتنفذي غصب عنك..

وقربها منه يهمس من بين أسنانه بغضب:

- مش معقول هافضل طول الوقت قاعد على أعصابي أتخيلك.. ده شوية بيبصلك ولا ده بيبتسم لك..

ونفضها عنه بحنق:

- والأستاذ عصام اللي عايش دور التسبيل.

صاحت بغيظ توقفه:

- أدهم.. من فضلك خلي بالك من كلامك..

عاد يقترب ونبرته أضحت مخيفة:

- بيسبل ولا لأ.. مع إنه عارف إنك متجوزة ومتجوزة مديره!!

هزت رأسها بيأس:

- أنت بقيت مش معقول بجد.. مش كل كلمة أو نظرة تفسرها على مزاجك، أنا تعبت.

زم شفتيه وردد خلفها:

- أنا كمان تعبت.. ما فيش شغل وإحنا الاتنين هنرتاح.

رفعت عينيها نحوه غاضبة هي هذه المرة:

- لأ.. أنت هترتاح.. أنا لأ..

برقت عيناه بلمعة أرهبتها:

- لأ ليه؟!.. ناقصك إيه!!..

وكانت قد اكتفت، بل فاض الكيل وانساب حولها كحمم تتلظى فوقها أنفاسها فانفجرت:

- ناقصني أحس بذاتي.. أنت عاوز تلغيني.. مامتك بتهيني طول الوقت وأنت ساكت.. قلت مش هاشتكي، مش هازعله وهاحاول أتجاهل، بس اللي بيحصل إن ما فيش فايدة، لا هي بتبطل ولا أنت بتهتم.. المهم تراضيني بكلمتين وخلاص.. لكن تمنع الحاجة اللي بتضايقني.. لأ.. مش بتعمل حاجة.

ضم قبضتيه كأنه يود خنقها.. فقط يمنع نفسه بعسر:

- ولو فرضنا إني بشع زي ما بتقولي!!.. إيه علاقة ده بالشغل؟!..

خرجت الكلمات من بين شفتيها دون حساب:

- عشان أصرف على بنتي.. مامتك متضايقة إنك بتصرف عليها من فلوسك وأنت مش أبوها، وأنت هتضايق لو صرفت عليها من فلوس أبوها زي ما بتضايق من كل حاجة متعلقة بيه.. أعمل إيه أنا!!.. أشتغل وأصرف عليها من فلوسي.

اتساع عينيه وتلك الشرارات التي كادت تقسم أنها تشتعل فوق رأسه جعلتها تتراجع خطوة.. خطوة واحدة لم تكتمل لأنه بعدها قطع المسافة بينهما في ثانية، يمسك بمرفقيها يهزها بخشونة أصابتها بنوعٍ من الدوار:

- تصرفي عليها!!.. مش أبوها؟!.. هو ده اللي واصلك دلوقتِ بعد أكتر من سنتين جواز!!

حاولت التخلص من يديه لكنه لم يدع لها الفرصة فهتفت برعونة:

- لو بتسمع كلام مامتك هتعرف.. لكن أنت ساكت وبس مادام أنا مش باشتكي عشان تريح نفسك.

انعصرت قبضتاه حول ساعديها حتى أنَّت بألم:

- أريح نفسي!!.. دي الصورة اللي في دماغك عني بعد ده كله؟!.. عاوز أشتري دماغي وأريح نفسي؟!.. مش مهتم بيكِ ولا بزعلك عشان أعيش مرتاح وخلاص!!

هزت رأسها بأنين:

- أنت مش بتحاول تعمل حاجة، تمنعها عني.. أو حتى تعمل لي كرامة قدامها، عارف إنها بتهيني وساكت.. تقدر تقولي ساكت ليه؟!..

تركها فجأة بتساؤل حاد:

- تهينك!!..

هاجمته عندما لاحظت تراجعه:

- أمال فاكرنا بنتخانق على هنتغدى إيه النهاردة!!..

رمقها بغضب مستعر:

- وما قلتيش ليه؟!

صاحت بعناد:

- عشان قلت لك مش هاشتكي.. عشان أريحك، عشان مش عاوزة أزعلك حتى لو حساب زعلي..

وانهارت بخنوع يائس:

- أنا تعبت يا أدهم.. خلاص بجد مش قادرة أتحمل.. أنت بتغير بجنون لدرجة تخنق.. لأ لدرجة تموت..

ودارت حول نفسها بعصبية حائرة:

- وأنا باموت.. وساكتة عشان باقول ده بيحبك.. هو بيغير عشان بيحبك..

وواجهته بنظرة متهمة:

- بس حبك بقى هوس.. بقى جنون وصلت معاه لدرجة الشك!!

انعقد حاجباه فأردفت باستسلام:

- وبرده سكت.. سامحت، قلت معلش، ورجعت عشان محتاجني وعشان أنا لازم أكون جنبك..

هتف الكلمة كأنه يبصقها:

- لازم!!

تأملته بوجع ودمعاتها بدأت في التسرب من فوق أهدابها:

- أيوة لازم.. لأني بحبك لازم أكون جنبك.. معاك.. قربك، بس أنت مش شايف حبي، مش حاسه.. وكل مرة غيرتك بتزيد، اتحملت وجودي في بيت مامتك عشانك وعشانها وبرده ما فيش فايدة.. اتحملت إهاناتها المتكررة ليَّ ولكل حاجة تخصني.. وقلت معلش، أم وغيورة على ابنها..

وصمتت لحظة تلتقط أنفاسها قبل أن تكمل بحزن:

- اتحملت كتير عشان خاطرك، رغم إن أنت مش شايف ده وبرده كأنه مالوش لازمة.. مصمم تحجر عليَّ وعلى راحتي واحتياجي وعشان مشاعرك أنت.. مش عشاني أنا!!

كان يتألم.. تبًّا لها ولكل كلمة نطقت بها.. لم يعلم أن حبه أصبح حملًا زائدًا على قلبها وروحها!!.. أنه هو مجرد طوق يخنق أنفاسها!!.. أنها تتحمل الكثير وهو لا يهتم.. لا، هي فقط تتهمه أنه لا يبالي وهو من البداية لا يعلم إلى أي مدى وصل الأمر!!..

همس لها بخفوت:

- للدرجة دي بتضحي عشان تكوني جنبي؟!.. بتتعبي قلبك وتضغطي على أعصابك!!

ارتعشت شفتاها وودت لو نفت، لمحت ألمه في عينيه لكنها الحقيقة دون تجميل، لن تزينها بعد الآن لأنها أُنهكت وقلبها لم يعد به مكان خال لما هو أكثر..

صمتها جاوبه فتذكر ما كان على وشك التضحية به لخاطرها، لأجل أن يكون معها، ليتمم زواجهما.. تهديده لوالديه بترك المنزل بل وترك كل شيء يمكن أن يتحول لورقة ضغط تمنعه عنها.. أيام عذاب كان قربها ولا يستطيع لمسها، فقط متمنيًا الحصول على قلبها أولًا.. سعادتها التي كانت همه الوحيد.. وطفلتها التي كان ثمن عودتها رصاصة كادت تودي بحياته..

هي لا ترى ما فعل، وما كان على استعداد وما هو جاهز لفعله وتقديمه.. بل ترى ما تفعله هي فقط.. أنانية الحب كما هو أنانيٌّ أيضًا، ظل صامتًا حتى تمتم بخفوت كأنما يذكرها بخجل بما كان:

- أنا مش عارف مين فينا ضحى في جوازه من التاني!!

لم تصدق ما سمعته ينطق به، هذه الأحرف التي خرجت بنبرته، على لسانه، من بين شفتيه كطلقات قاتلة، تجمعت في كلمات قليلة العدد عظيمة المفهوم والمردود، كلمات وقعها على الأذن كالخناجر عندما تنغرس في الصدر، تحطم الضلوع، تخترق الجلد ممزقة الأعصاب واللحم، مسيلة للدماء، لتنتهي في عمق القلب، ينتفض لثانية، أو ربما ثانيتين، ثم تهمد حركته تمامًا، تسكن نبضاته، يتوقف عن طرق قفص صدرك وضخ دمك، تصبح كميت إكلينيكيًا، أو حتى كجثة هامدة.. فقط تقف على قدمين.

عندما جهر بها لم تكن تتخيل في يوم أن تصلها منه أبدًا!!.. لقد وعدها بحب لأبد العشق، أبد الكون، بهوى تطوف في مداره حتى تنتهي أنفاسها..

والآن .. يخبرها بأنه ضحى!!.. بزواجه منها!!..

توقفت الكلمات في حلقها لدقيقة أو ربما أكثر، صمت.. ومزيد منه.. سكون.. أنفاس تعلو، تنقطع، لهاث، حدقتان متسعتان وصدمة منعتها بصرامة من الوصول إلى ملامحها، جمود غلفها، وهو ينظر إليها في عدم فهم!!..

ترى بما تفكر؟!..

هل تحلل كلماته؟!.. هل فهمتها؟!..

أم ستتصرف كعادتها وتأخذ المنحنى الخاطئ؟!..

وصله صوتها مرتجفاً يدعي الثبات:

- ليه تجبر نفسك تضحي؟!

تطلع إليها في دهشة لم تخلُ من شجن، عندما فتح فمه لينطق قاطعت حروفه بإشارة وهي تكمل بصوت بدا أشبه بالأنين:

- بيتهيألي كفاية قوي لحد كده، ما تضغطش على نفسك أكتر أو تحملها فوق طاقتها.

هتف بسرعة يلاحق كلماتها في حين كان قلبها ينتفض كطير ذبيح بين جنبيها:

- جمانة أنتِ فهمتِ إيه؟!.. ما تفهميش غلط، أنا...

رفعت رأسها في اعتداد حازم رغم ألم يمزق أحشائها..

تقاطع تبريراته، تخرس صوته الذي طالما أسمعها قصائد عشق علمت الآن أنها كاذبة..

طرفت بعينيها لتبعد صورته من داخل جفنيها، ابتسامته، شقاوة عينيه حين يشاكسها، خصلاته الفحمية التي طالما تخللتها بأصابعها، صدره الدافئ، مسكنها ومستقرها، حتى غيرته الجنونية التي أدمنتها حتى ذبحتها..

همست بألم:

- كفاية قوي.. المدة انتهت ولازم تاخد إفراج.

تطلع إليها بذهول غاضب..

دموع تحارب جفنيها تحاول خدش نعومة وجنتيها لكنها صامدة، تقاتل في صلابة لم يعهدها بها، صاح بصوت عالٍ ليسكت أي حماقة قد تنطق بها:

- جمانة أنتِ اتجننتِ!!.. بتقولي إيه؟!.. اتفضلي روحي دلوقتِ وهنبقى نكمل كلامنا بعدين..

فقدت ثباتها فجأة..

قلبها لم يحتمل الوجع في صمت فانتفض بين ضلوعها، صرخت بآهة لم تتخطَ شفتيها لكن ما خرج من بينهما كان هتافًا حادًا عاليًا كأنها تصرعليه

أن يسمعه مهما سد أذنيه بل وحتى الجدران من حوله رددته كصاعقة اخترقته:

"طلقني يا أدهم"

(٣٢)

وماذا بعد؟!

بريئة هي كملاك.. كغزال في البرية..

تظن أنني الفارس ذو الدرع اللامع.. وتبالغ في تمجيدي وبداخلي مجازر..

وحروب تباد فيها المشاعر.. وتندلع في حرائق وحرائق..

وجع عميق كعمق البحار..

صديقي يراني خائنًا للعهود..

وهي تراني بطلًا في زمن الجحود..

وأنا خائنٌ في الأصل لصديقي..

فأنا بكامل إدراكي: أحببتها دون شعور..

فلقد ابتدأ القلب بفقد نبضاته..

نبضة نبضة

ولكنني لستُ بطلًا يا صغيرتي!!

فلا تقلديني ألقاب، ولا تسبغي علي أوصاف..

وارحميني من عذاب صوتك..

فهو يذبحني من الوريد إلى الوريد..

عذرًا ياصغيرتي..

لا تشعري بالذنب..

فأنا المجرم، وأنا القاضي..

والجلادُ والمذنب..

"زياد"

***

أحببتها وعشقتها فكان نصيبي منها الهجران والطعن في الصدور..

حلمت وحلمت باللحظات التي ستكون فيها حلالي..

لأبحر في عينيها وألتقط رفرفة جفنيها..

في لحظات ضحكتها..

أو خجلها الذي أدمى قلبي عشقًا وغرامًا وهيامًا..

ذهبتُ عازمًا أن تكون لي..

نصفي الثاني..

لأعود إليها وقلبي يسابق الخطوات والعيون..

لم أجد فاتنتي؛ بل وجدت سوادًا قد سكن النفوس..

صديقًا لي طعنني في صدري، ويتشدق بالتبرير لي..

"أحببتها"!!..

متى؟!.. سحقًا متى أحببتها؟!..

متى؟.. ولماذا؟

وبجميع أدوات الاستفهام بالعالم أجمع..

أتوسل إليك أن تخبرني وتطفئ ناري..

كيف لي أن أحتمل فكرة أن تنام على ذراع غيري!!

أو يفرد شعرها على وسادة غيري!!

أو تضع رأسها فوق قلبك يا صديقي!!

أو أن تلمس منها النحر والشفتين والعينين بشفتيك!!

وبعناق عاشق!!..

يا الله!!.. أتعلم يا صديقي أن الخيانة جرح لا يلتئم وذنب لا يغتفر؟!

آه.. آه.. قد اختلط فيها الدمع والدم سواءً يا صديقي..

فأنت ذبحتني وانتهى الأمر..

فإلى أين المفر؟!

"عمار"

إهداء/ نداء الحق

قالوا قديمًا وكانوا حكماء:

"تسلط البعض لا يمكن حدوثه إلا عن طريق جبن الآخرين".. "خوسيه ريزال"

وهي جبنت فسيطر..

هي جبنت فتجبر..

هي جبنت فتملك وأبى لها الرحيل، أحرق وبغى، أمر وخدع وذبح.. وفي النهاية كادت تموت برصاصته هو، من سلاحه هو.. حتى لو كان إبهامها فوق سبابته يضغط الزناد..

سعت لفراق الروح والجسد، تمنح نفسها حرية من سجن ماضيها معه، تحطم قضبانًا أسسها ودعمها وقواها بصلب لا يصدأ لتصبح أسيرته حتى آخر الأنفاس..

وتمردت..

تمردت بخطيئة قتل نفس، لا يهتم أن تحمل الوزر، ما يثير حنقه، غضبه وجنونه الأعمى، أنها فعلتها هربًا منه.. تهرب لجحيم أبديّ.. المهم أن ترحل عن مكان يشغله معها، أو ملكية دمغها بها وما لها من خلاص..

بلحية نامية دون ترتيب، دخان تبغ يملأ الأفق أمام ناظريه، شرود يخيم على أرجاء قلبه وعقله، كان يستقر خلف مكتبه، يغيب فيها.. في تفاصيل ذاقها ولم تمحُها بعدها أخرى، في امرأة مرت في طرقاته فكانت هي الأنثى.. هي الكمال.. هي الرغبة واللذة وإثم غير مغفور..

امرأة لم يعرف هل وقع معها في بحر غرام أسود!!.. أم كان هاجسه تملك بتوقيع غير موثق إلا ما خطه فوق جسدها وما بادلته إياه حينما رغبت.. ووقتما أمر!!..

علا رنين الهاتف فنظر إليه بغياب.. كأنما الصوت العالي يأتيه من مكان ناءٍ أو مجرة أخرى، لا يستدعيه.. بل فقط ذبذبات لا معنى لها تتردد من حوله، وفي ضياعه مد يده يلتقط سماعته حين أتاه الأمر المقتضب بصرامة:

- في مكتبي حالًا يا طارق.

انعقد حاجباه!!.. ترى ما الأمر الجلل الذي يطلبه رئيسه لأجله؟!.. هو ليس في مزاج يسمح له بمهمات على شاكلة مراقبة هذا الراقصة، أو تصوير رجل الأعمال ذاك.. هو بالفعل يشعر بنفسه.. بعقله وكامل قدرات ذهنه مستهلكة، تعمل بقوة دفع.. نبعت من انتظار عودتها.

ذهب إليه وعلى ملامحه لامبالاة أثارت غضب الرجل أشيب الفودين حاد النظرات الجالس خلف مكتب أنيق بغرفة واسعة، رمقه بغموض بارد قبل أن يلقي ما في جعبته:

- أنت تخطيت حدودك يا طارق..

ويبدو أن الجملة كانت هي إشارة الاستيقاظ، فتح عينيه باستنكار قبل أن يزعق مندهشًا:

- حدودي؟!.. ومن إمتى كان عندي حدود!!

نهض الرجل بحدة يشير إليه بسبابته:

- واضح إنك نسيت نفسك ونسيت أنت بتتكلم مع مين!!

ودار حول مكتبه يواجهه:

- رجل أعمال مع جنسية بريطانية.. خطف ومحاولة قتل..

ومال نحوه بقسوة:

- دمرت مستقبلك يا غبي..

وعاد لوضعه بشفتين مزمومتين:

- وكل ده عشان إيه!!.. واحدة ست ما تسواش..

انعقد الجبين، توترت الأنفاس، وعلا الصدروهبط بإيقاع سريع غيرمنتظم يعبرعن لهاث حارمستعربهياج، ورئيسه أمامه يقلب كفيه مسقطًا النهاية فوق رأسه:

- ما فيش في إيدي حاجة أعملها يا تلميذي اللي طلع مش نجيب..

وضم قبضتيه خلف ظهره يشد قامته بحزم:

- صدرقراربإيقافك عن العمل وتحويلك للتحقيق.

هذه المرة توسعت عيناه بنظرة شيطانية يخشاها إبليس نفسه:

- إيقاف!!..

واقترب خطوة مهددة:

- عملتوني كبش فدا؟!

نهره الرجل بصرامة:

- أنت اللي عملت في نفسك كده، أنا داريت عليك كتير..

ومال نحوه باشمئزاز:

- بس ريحتك فاحت خلاص، وما بقاش ينفع السكوت..

وهدد وتوعد:

- لو وقعت مش هاكون لوحدي..

والخبث والمكر والشيطنة يرسمون بسمة:

- أنت عارف كويس إحنا بنتصرف في المواقف دي إزاي!!

واهتاج دون صراخ، بل غضب مكبوت وهمس من خلف ضروس مطحونة يكاد يسمع صريرها:

- وأنت عارف إني مأمن نفسي كويس.

هز الرجل رأسه كأنه يحادث أبلهًا:

- للأسف، مش هتستفيد حاجة..

ومال نحوه واللهجة شبه شامتة:

- أنت وقعت خلاص، والعجل لما بيقع؛ بتكتر سكاكينه.. بقيت كارت محروق.

يعلم أنه على حق، بدأ اليأس يتسلل لنفسه، لن ينتهي هكذا!!.. كلا لن يفعل.. هذا لن يحدث، ليس هو وليس بعد ما وصل إليه عبر طريق مفروش بالغدر والدماء والأكاذيب والكثير من التملق وخنق المبادئ، زفر بلهيب حار:

- طارق الحديدي ما يقعش إلا واقف.. وهنشوف.

تطلع إليه رئيسه بنظرة دونية ولم يعلق، شد هو قامته والتفت يغادر المكان وقبل الخروج ناداه الرجل، توقف دون أن ينظر إليه:

- سلم سلاحك وأنت خارج، وورقة جيهان توصلها في أقرب وقت.. إنت ما بقيتش تنفع تكون جوز بنتي..

تصلبت قبضته عاصرة مقبض الباب وحماه يردف:

- خنتها وسكتت بس المرة دي أنا عرفت.. طلق أو طرق خلاصها منك كتير وأنت عارف إني مش هاتردد أستخدم أقسى وأعنف طريقة.

تشددت أصابعه بعنف أكبر حتى شعر بجلده يكاد يتمزق، خرج من الغرفة بخطوات سريعة تشبه الوثب.. كأنما يثب فوق عراقيل وضعت في طريقه عمدًا، عثرات هو من صنعها، وهو من تعثر فيها ثم انكفأ على وجهه وحينها خسر كل شيء..

بغتة.. قفزت صورتها لعقله..

ربما لم يخسر الكل بعد.. فهي لاتزال حية، حرة وطليقة، ونيلها بالتأكيد سيوازن معادلة الخسارة التي تضخمت حتى شملت حياته كلها ولو بمكسب ضئيل يساويها هي.

قد يكون سلم سلاحه، لكنه لم يرفع راية الهزيمة أو يعلن الاستسلام حتى الحين..

******

الصمت في حرم الألم؛ حياة..

حياة تشبث بها طرفان عاشقان، خانت كل منهما الأحرف فانطلقت حادة قاتلة تذبح الآخر، ودون أن يهتم أو يبالي بما خلف الصورة.. فالواجهة ساطعة بسطوع الشمس..

هو يخبرها أنه ضحى بزواجه منها!!.. لم يجبره أحد، صحيح؟!..

هو من فاجأها بطلب زواج، من همس لها بنبرة لم تفهمها وقتها أنها له ولو دون إرادتها، هو من داعب القلب وهدهد المشاعر وهو من حمل الروح نحو سحب عشق وردية..

وكذلك هو من ارتفع وعلا وترك اليد المتشبثة به فأتت السقطة صاعقة كبرق أحرق الفؤاد، وتجمد معه الجسد بل وتيبست الأفكار ونسمات الهواء..

وهي.. هي من تدللت، من منحها عشقًا لم يظن أنه قد يملكه، من منحته طفلًا واستقرارًا وسكنًا وسعادة ونبض حياة، بل أشعلت النار بعقله غيرة عليها، وبقلبه غرامًا بها، وبروحه توقًا إليها..

هي الملك والسلطان والحاكم بأمره، وهو في بلاط ملكها من الرعايا، الوحيد ربما، لكنه يكتفي بقربها، بحبها، بنعمة أسبغها الله عليه كانت تحمل اسمها..

هو يذبح بكلمة.. وهي ترد برصاص قاتل تطالب بالفراق..

هل حقًا نطقتها؟!..

الاثنان تصلبا حرفيًا في مواجهة بعضهما البعض، لم يصدق أنها تريد الابتعاد عنه والخروج من حياته، ولم تعتقد أنها أخرجت هذه الحروف من بين شفتيها تقصدها..

انفرجت شفتاه ذهولًا ينظر إليها ولا يقوى على إصدار صوت أو حتى رمشة أهداب، توسعت عيناها في صدمة تنتظر منه النطق بحكم الأعدام.. ثوان، دقائق.. ساعات أو دهر، فالوقت أصبح حادًا قاتلًا كسيف فوق رقاب الهمسات والكلمات والأنفاس..

رأفة بهما أو ربما هو قدر أبى إلا أن يكونوا معًا؛ أتت نجدة مباغتة في طرقات متتابعة ثم باب يفتح وهتاف مهتم متعجل:

- باشمهندس أدهم.. الاجتماع فاضل عليه دقيقتين، حضرتك اتأخرت جدًا.

استدار يزدرد لعابه نحو مساعدته بتطلع ضائع غير مدرك فأردفت بإشارة:

- الأعضاء منتظرين حضرتك من بدري.

لم يفهم، بالفعل لم يفهم!!.. وبطرف عينه التقط تلك التي ركضت حرفيًا خارج المكان كأنما تطاردها شياطين الإنس والجن مجتمعة، عاد بنظراته للواقفة أمامه بحرج وخرج صوته متحشرجًا:

- اجتماع!!

أخفضت وجهها في خجل:

- أنا آسفة.. بس حضرتك.. يعني.. صوتكم كان عالي قوي.

ثم رفعت عينيها إليه بنظرة مشفقة موضحة سبب تدخلها المكذوب:

- آسفة إني اتدخلت بس...

وهزت كتفيها تبرر بصمت وهو فهم وقدَّر رغم عذاب تنضح به ملامحه، هز رأسه وأغمض عينيه يشير إليها بالرحيل.. وربما هو من كان يرغب بالرحيل، بالغياب، بفقدان العقل والمنطق وكل فكرة أو نبضة أو ذكرى.. كانت هي مصدرها، منبعها ومصبها..

هي معشوقته، التي طالبت بالانتحار ثم هربت بعدها كدجاجة مرتعبة ولا يعلم السبب!!

******

"آدم"..

النبرة مبحوحة والصوت أجش وبقايا تُلمح أنه الأخ الأصغر برغم ألم واضح يكاد يسيل من أحرف اسمه المنطوقة بعذاب، رفع عينيه ليجد "أدهم" واقفًا ببابه يبدو عليه الضياع كأنما هو طفل تاه من يد أمه في سوق مزدجم.. تأمله بقلق للحظة قبل أن ينهض متجهًا إليه:

- خير يا أدهم!!.. مالك؟!

ويبتلع لعابًا وهميًا يحاول ترطيب جفاف حلقه، يلهث كأنه ركض لأميال، عيناه تدوران موحيةً بفقدان وعي وشيك رغم تماسك الجسد:

- جمانة طلبت الطلاق!!

اللهجة متعجبة، مستنكرة ترفض التصديق، توسعت عينا الأكبر ذهولًا:

- إيه؟!

جذبه من يده يجلسه على أريكة المكتب ويجاروه بتساؤل مندهش:

- أنت بتقول إيه؟!.. ليه وإزاي؟!.. إيه اللي حصل؟

رفع إليه نظرة تائهة:

- في مكتبي، من شوية..

وزم شفتيه يحبس آهة قلب طُعِن على حين غرة:

- قالت لي: طلقني!!

والهمس بدأ يعلو بحدة غاضبة، ينهض من مكانه بثورة:

- قالت لي: طلقني..

واجهه أخيه يهدئه برفق:

- اهدى بس وفهمني إيه اللي حصل!!.. أدهم..

ثم يناديه بحزم محاولًا إعادته إلى رشده والآخر يكاد يصرخ:

- عاوزة تتطلق!!

والتهبت عيناه بشرار حارق:

-أنا أقتلها قبل ما ممكن أسيبها..

أمسك "آدم" بذقن "أدهم" بين أصابعه بقوة، يواجه عينيه ويهتف بصرامة:

- باقولك اهدى وفهمني.. حصل إيه؟! ليه طلبت منك كده؟!.. عملت لها إيه؟

نيرانه المضطرمة لا تستعر بداخله فقط، بل بدت على ملامحه ونظراته وهو يجيبه بهوس:

- ما عملتش حاجة!!.. كل اللي عملته إني حبيتها.. حبيتها بجنون، اتخنقت من الحب ده، من الغيرة، مني.. مش عارف.. مش عاااارف.

ضغط فكيه بعنف أكبر وهو يهمس بحدة آمرة:

- إمسك أعصابك يا أدهم إحنا في الشركة.. فهمني بالراحة إيه اللي حصل بالظبط!!.. هي مش هتطلب من الباب للطاق كده..

هز رأسه بعنف، كأنما يرفض الخوض في الأمر، يرفض السماع عنه، يستنكر أي حرف من تلك الكلمة يرتبط بهما معًا، بها.. بشفتيها ونبرتها وصوتها.. كيف سولت لها نفسها ذبحه بهذه القسوة!!..

أمام جموده وشروده والضياع الظاهر عليه جذبه أخيه خارج المكان، ظل يقود السيارة في صمت، يدور بها في دوائر والجالس إلى جواره تتردد أنفاسه برتابة وعيناه خارج حدود الكون، تنهد بعمق وعاد يستفسر منه عما حدث.. وصَمَت، صمْتٌ طويل قبل أن تنفلت عقدة لسانه ويخبره بالتفاصيل..

بما قاله وقالته، بما فعل وبما حدث معها، وبعد ختام قصة الوجع أوقف "آدم" السيارة إلى جانب الطريق، التفت إليه بكامل جسده، رمقه بنظرة امتزج فيها الغضب بالإشفاق وسكن لدقيقة أو أكثر كأنما يمنع نفسه من توبيخه بحدة ويستلهم الهدوء والصبر قبل الرد:

- أدهم.. بداية أنت غلطان.

وفتح فمه والنية تعقيب صارخ، أخرسه بإشارة من كفه وأمر حازم:

- اسمعني كويس من غير عصبية.

نظر إليه عاقد الجبين فأردف بتوضيح:

- يعني إيه والدتك بتهين مراتك وأنت ما تعرفش؟!.. كم مرة شُفتها غضبانة أو حزينة وسألتها مالك وحصل إيه؟!.. كم مرة صممت تعرف التفاصيل؟!..

ابتعد بعينيه وعنوان النظرة خزي.. هو لم يفعل، ربت أخيه على كفه المستكين فوق ركبته:

- ولا مرة مش كده!!.. رغم إنك عاصرت حزنها وزعلها، بيتهيألي كل اللي عملته إنك سكنت الوجع ما عالجتش الموقف، والمسكن عمره ما كان حل..

وأغمض عينيه يعود بعقله لزمن مضى، زفرة حارة والنبرة اعتلاها ألم دفين:

- نفس اللي كان بابا الله يرحمه بيعمله معايا.

رفع "أدهم" عينيه إليه بدهشة فابتسم بحزن:

- كان بيراضيني رغم إنه عارف إن مامتك بتيجي عليَّ كتير، ما كانش بيسأل حصل إيه!!.. كان بيقولي ما تزعلش زي مامتك ولو مامتك زعلتك أنا مش هاتكلم...

طالت النظرات المتبادلة، ما بين استفسار، قهر، حزن، غضب محبوس في العمق وهو يستطرد:

- أنت بتعمل كده مع مراتك.. النتيجة عندي كانت انكسار أكبر وألم ما قدرتش أستحمله فهربت..

وغاص في عينيه يجبره على خشية الغد لأنه يسير على نفس الدرب:

- وعندك.. هتكون فراق أنت مش أده يا أدهم..

ارتجفت شفتا العاشق بينما جفناه يتعانقان بقوة، أخيه الأكبر على حق، وربما هي أيضًا على حق، لقد اكتفى بوجوده معها، بأن تكون هي له، ملكه.. ولم يفكر أن الضغط يولد الانفجار، لم يعالج المشكلة بل تغاضى عنها، التف حولها.. وقابل قلبها من ناحية تتيمه به فأسكن وجعه.. لفترة مؤقتة زاد بعدها الألم حتى فاق التحمل، سمع "آدم" يكمل حديثه بعقلانية:

- كمان الجملة اللي قلتها لها لما اشتكت..

عاجله بمقاطعة:

- أنا ما قصدتش اللي فهمته!!

ربت على كفه ثانية:

- أنا عارف.. بس الصياغة مش هيتفهم منها غير كده وقت الغضب والخناق، وقت تبادل التهم والتضحيات..

ومال نحوه برأسه:

- أنتوا الاتنين غلطانين بس غلطك أكبر.. راجع من البداية وشوف..

أدار وجهه ينظر خارج النافذة، ويعود بذاكرته للكثير، يوم غار، يوم أمر، يوم خنق أنفاس الحرية، يوم شك، يوم تسلط وسيطر وقوله كان نافذ المفعول..

ثم عاد ليوم عشق، يوم ذاب، يوم رأى وهمس وسمع واقترب وضم.. يوم أن أعلنها مليكته وبخجل أعلنته سلطانها.. أغمض عينيه، والمجاور له يتأمل تتابع المشاعر على ملامحه، يبتسم.. يربت على الكتف هذه المرة ويأمر برقة حنون:

- روح لها.. صالحها، وحاول تتغير عشان ما تخسرش حب بالشكل ده يا أدهم.

عاد ينظر إليه، يبتسم بضعف أوجع قلب أخيه عليه، ويهمس برجاء:

- رجعني عند الشركة عشان آخد عربيتي.

منحه بسمة مشجعة، أدار المحرك وقاده في طريق العودة..

لم تكن مجرد عودة لمقر العمل، بل كانت عودة لذات أفقدها العشق صوابها حتى باتت على حافة الجنون، أو ربما الموت.

******

لم تعد الدموع حقًا مشروعًا، لم يستحق القلب طعنة، لم تكن الروح سوى وسيلة ألم..

ورغم الرفض فالعبرات أغرقت الوجنات وطفت فوق الجفون، ترمش بها الأهداب فتنوء بحملها حتى تساقطت تباعًا تغرق الخافق الملتاع الحزين..

الخوف يطفو فوق السطح، والفؤاد يشجب ويستنكر، ثم يعود فيرتعب، ويؤنب، يوبخ بعنف على لفظة ستحرمه حبيبه، تمنعه قربه.. وتمنع آذانها من سماع همساته، نبرته عندما ينادي اسمها، عندما يدللها، عندما يبوح لها بأسرار حبه ويذيبها مع كل حرف.

تتحرك بسرعة كأنما الهروب هو المتنفس..

ستهرب، لن تقابله، كلا لن تنتظر عودته فربما حينها يستجيب لطلبها الأحمق، بل الأكثر حماقة وغباءً على وجه الأرض، وتنفلت عقدة اللسان بعد زوال الصدمة ورحيل الذهول..

أنهت إغلاق حقيبتها التي جمعت فيها ما أمكنها من ملابسها هي وطفليها، حملت الرضيع وجذبت يد الصغرى وخرجت كأنما بالفعل تطاردها الشياطين، أمام سيارتها التي لم تعد تستخدمها توقفت، ترمق جدران المنزل بنظرة مودعة من خلف ستار الدموع، وترتعش الشفاه فتعضها أسفل أسنانها تمنعها راحة همس اسمه في وداع..

"حضرتك خارجة يا مدام؟!"

انتفضت في ذعر، قبل أن تلتفت جففت وجهها قبل أن تجيب:

- أيوة..

وكانت تغلق حقيبة السيارة بعدما أجلست الطفلين في مقعدها الخلفي، أكمل الرجل:

- طيب إحنا وراكِ بالعربية.

أكسبت نبرتها حزمًا آمرًا:

- لأ.. مش محتاجة حراسة، المشوارمش بعيد.

عقد حاجبيه وبقايا الدموع تترك بداخله استفسارًا ليس من حقه نطقه فاعترض:

- ما ينفعش يا فندم.. الأوامر إننا..

قاطعته بحدة:

- الأوامربتاخدها مننا، يعني تنفذ اللي باقوله.

ارتبك الرجل فجأة:

- أيوة بس حضرتك...

وتقاطع من جديد بفظاظة مدعاة:

- من غيربس.. اتفضل على شغلك.

عاد يتردد فرمقته بنظرة صارمة هز لها كتفيه وتحرك مغادرًا يلتقط هاتفه لكنها عاجلته:

- ما فيش داعي للاتصال اللي ناوي تعمله، هو عارف.

استدار إليها فأردفت بإشارة:

- عارف إني ماشية ما تتعبش نفسك.

والنظرة تحذيرية أجبرته على إهمال لم يكون محسوبًا وهو يسب بداخله علية القوم البلهاء الذين يصيبهم الجنون بين كل حين وآخر..

خرجت شاردة، تقود دون هدى، تبحث عن فكرة أو نبضة أو حتى ذكرى لكن عقلها كان كصفحة بيضاء شلته الصدمة فغاب عن وعيه رغم الوعي، وصلت عند منزل والدتها التي استقبلتها بدهشة والجملة التي علقت بين شفتيها توضح الصورة دون ثرثرة:

- أنا طلبت الطلاق.

وبشهقة أم وضربة صدر زعقت في وجهها:

- إيه؟!.. طلاق!!.. أنتِ اتجننتِ!!

وربما حان وقت إفراغ شحنة الخوف والحزن والغضب بصراخ:

- أيوة اتجننت، تعبت، خلاص ما بقيتش قادرة أتحمل، كفاية كده.. كفاية قوي.

رمقتها والدتها بنظرة موبخة فتراجعت، اهتمت بالأطفال بعدما أشارت إليها بالذهاب لغرفتها، كانت تتحرك ولسان حالها العاجز يتمتم:

"يا حسرة قلبك على بناتك يا سمية"

عندما خلد الصغار للنوم وعادت إلى صغيرتها التي لا تريد أن تكبر، تعقل وتفهم وتحيا كما الكبار وجدتها في وسط الفراش، تستند لظهره تنظر في شرود للاشيء، جاورتها بهمس لاسمها، منحتها لقاء مُقل.. حزينة متحسرة خائفة، وموجوعة:

- هيطقلني..

الهمس مذبوح نازف لحد بادله النزف له قلب الأم:

- مستحيل..

تحول التطلع لأمل ملهوف، لا يصدق، أو ربما يهدد ويخيف علّها ترتجع، تنتبه، تتمسك بعاشق هي معشوقته، والوالدة الرءوم تردف:

- للدرجة دي مش عارفة إنه ما يقدرش يبعد عنك أو يسيبك!!. للدرجة دي مش حاسة إنك حياته؟!.. مش بتشوفي نظرة عيونه ليكِ؟!.. عينيه اللي

بتطاردك وتحاوطك في كل خطوة حتى وأنتِ وسطنا كلنا.. عيونه اللي بتصرخ بالحب من غير خجل قدام الدنيا كلها!!

ثم اقتربت تضم رأسها لصدرها بحنو مشفق:

- احكي لي اللي حصل.

وقصت عليها التفاصيل، كل التفاصيل.. حتى تلك الكلمة التي كانت آخر ما نطقت ومنتهى ما سمع، تبعها الهروب المذعور غير المدروس وعادت تختم الحديث بكلمتها التائهة:

- هيطلقني..

أبعدتها أمها بحزم تنظر في عينيها وتؤكد عليها ثانية:

- قلت لك مستحيل..

وبكت، الدموع أصبحت هي الرفيق الذي يستمع للشكوى دون أنين أو ملل، تبثها أوجاعها فتسيل بيسر، لا تمانع أو تؤنب أو تمتلك حتى حق التوبيخ!!..

مسحتها والدتها بأناملها مهدهدة:

- ما تبكيش، أنتوا الاتنين غلطتوا.. كان المفروض من البداية تحطي النقط على الحروف، مش تسكتي وتعدي لحد ما ييجي الوقت اللي ما تقدريش تتحملي فيه.. ويحصل الانفجار..

وأمالت رأسها للجانب بأسى:

- وآدي النتيجة..

تمتمت بصوت مبحوح دامع:

- كنت باقول الغيرة معناها حب مش أكتر، الشك لأنه بيغير بجنون وما كانش يقصد.. بيحبك فوق ما تتصوري عشان كده مش قادر يحس بحبك كفاية.. افرحي براجل هو حلم لأي واحدة، بحب من عالم الخيال، عدي وما تقفيش على كل حاجة وخلي المركب تمشي.

ربتت الأم على وجنتها باحتواء:

- المركب هتمشي لما يكون الموج في صالحها، لما يكون الربان عارف طريقه وعارف هو بيعمل إيه.. هتوصل لبر الأمان لما كل فرد فيها يعرف اللي ليه واللي عليه يا جمانة..

ونظرت في عينيها بشمول:

- أنت كنت بتعدي حاجات وهو اعتبرها مسلمات، عليه الأمر وعليك الطاعة مادام هو شايف ده لصالحكم، سواء شغلك أو وجودك مع مامته في بيت واحد وده كان تاني غلط وأكبر غلط سكتِ عليه!!

سارعت تدافع عن فكرها وتنفي خطأً لا تراه:

- ما كنتش هاقدر أقوله لأ خليها هي وسارة لوحدهم بعد موت باباه..

ردت أمها بتفهم:

- عارفة.. بس الحلول كتير حتى لو هتسكنوا قريب منهم!!.. الحلول كانت إنك من البداية تعرفيه اللي بيحصل بينك وبين مامته لأنه هو بس اللي كان هيعدل كفة الميزان.

تمتمت من بين الدموع:

- ما كنتش عاوزة أبقى الزوجة النكدية الشكاية اللي بتقوله أمك عملت أمك سوت كل ما تشوف وشه، وهي ما كانتش هتبطل تجرحني، ومش كل مرة هاجري عليه زي الطفلة عشان يجيب لي حقي.

أوضحت لها برفق:

- أنا ما قلتش كده، بس من البداية كان هيبقى عارف اللي بيحصل، ما كانش هيضغط أو يطنش زي ما أنتِ متخيلة، كان هيهتم ويقدر ويعدي معاك عشان المركب تمشي زي ما بتقولي..

ثم ابتعدت عنها تطالعها بحنو:

- نامي دلوقتِ وارتاحي، أنا متأكدة إنك جيتِ من غير ما تقولي له.. هاقوم أطمنه وليَّ كلام تاني معاه.

تشبثت بها ترفض الفكرة:

- لأ يا ماما عشان خاطري، لو بيحبني فعلًا هيفهم احتياجي، وعلى ما يفهم أنا هنا.. ووقتها هييجي هو.

نظرت إليها والدتها للحظات قبل أن تومئ بموافقة، انزلقت في الفراش فدثرتها بغطاء خفيف، منحت جبينها قبلة اشتاقتها بشدة، ظلت تربت على خصلاتها برقة تدعو، تقرأ القرآن.. وتبتهل أن يشرح الله صدر ابنتها وصدرها..

فكلما ظنت أن السعادة دخلت من باب بيتهم.. طاردتها شياطين الحزن حتى تهرب قفزًا من النوافذ.

******

يقولون أن العشرة تخلق مودة.. فهل يمكنها أن تخلق حبًا؟!..

تلك النبضات المتفلتة داخل صدره، استجابة لهمسها، لعينيها، لحزنها، لابتسامتها.. والكثير الكثير من تفاصيلها التي بات يحفظها عن ظهر قلب!!.. أهذا من مسميات الحب؟!..

أم هي تلك المودة وهذه الرحمة المؤسسة لحياة أسرية سوية!!..

كرجل أو حتى شاب في سنه لم يطمح في يوم لقصة عن عشق مجنون يغيب فيها وينسى حاله والكون، لم تمثل له تلك الحكايا عامل جذب، يهتم بجانبه العملي ويبحث عن الاستقرار مع من يراها مناسبة..

فماذا إن تدخلت المشاعر في المعادلة.. ورغمًا عنه؟!..

ومع زوجته الرقيقة الناعمة المدللة والمرعوبة من كل شيء وكل صوت!!..

هل يمكن أن تستقيم الحياة؟!..

تراجع في مقعده يفرك أعلى أنفه بإرهاق، أغمض عينيه واستند برأسه للخلف، يود لو ينام لخمس دقائق فقط، العمل كثير للغاية وهو يقتل نفسه فيه كل يوم حتى وقت متأخر..

"زياد"

الهمسة كانت خافتة لكنها نفضته بعنف، فرق جفنيه على اتساعهما ومع اكتمال الصورة استقر ذهنه على قرار.. فلو تطاول هذه المرة لن يكون الصمت هو الرد!!.. نهض واقفًا ببطء، يتساءل بحزم:

- خير يا عمار؟!

وابتسم الصديق منكسرًا:

- ما في كيفك؟.. شو أخبارك؟

وطعنه بنظرة تخبره ببساطة:

"أنت نذل، سارق.. استوليت على ما لم يكن لك"..

أردف بعد لحظة صمت:

- ما في سؤال عن وجع قلبي ياللي عشته طول الوقت اللي مضى؟!

لم يرد.. بل بمَ يرد وقد آن أوان التأنيب؟!.. بعدما تخلص من طاقة غضبه على شكل لكمات قاسية شرسة.. حان وقت اللكمات النفسية.. وما الحب إلا حرب لا يخرج منها منتصر..

ملحمة أسطورية لا فرار من وغاها، قرقعة سيوف، دقات طبول، صراخ يأمر بهجوم.. وما نيل القلوب بالتمني، وما فراقها سوى هزيمة..

رفع "عمار" رأسه بنظرة حاسمة:

- أنا جاي بلغك بشي..

وانتظر وفي عينيه ترقب:

- أنا رح هاجر..

انعقد الجبين كرد فعل مبدئي، تلاه زمة الشفاه الغاضبة ثم الحديث الحانق:

- هتسيب البلد عشان حب ما كملش..

وآلمه باقتضاب:

- لأنه ما فيني إتحمل الخيانة.. لأنه مكاني مانو هون.. لأنه ما رح إبكي ع الأطلال.

والآخر ابتسم بسخرية:

- فلقيت إن الهروب هو الحل الأمثل.

يشعل النار، يفجر الديناميت، يثير البركان.. لكن واأسفاه هو خامد بارد:

- الهروب من المكان ياللي شُفت دمي بينزف فيه.. فعلا هو الحل.

ولأن التمثيلية طالت بسخافة، والوجع ليس من السهل مداراته فقد ظهرت بادرته على وجه المهاجر:

- الله يوفقك مع.. معها، بتلبقوا لبعضكن..

ورمقه بنظرة قاسية:

- الخونة دايما لبعضن.

وكاد يزعق فيه لكنه منعه برحيل تابع فيه خطواته بانكسار حزين.. وارتياح يتسلل للقلب يخبره أنه رغم ما حدث، رغم ألم تسبب فيه دون قصد بل كانت نواياه طيبة.. فإنه قد يجد نفسه هذه المرة باختيار البعد.. عقله يطمئن بعض الشيء على مصيره، فهو وقبل أي شيء.. كان صديقه.

ربما ناله اتهام بالسرقة، بالخيانة، أصبح نذلًا في نظر الصديق.. فقده بشكل نهائي؛ لكن القلب خفقاته أصبحت أكثر هدوءً واستقرارًا.. والعقل يخبره بحيادية:

"أنت لم تخُنه، أنت كنت إلى جوارها.. وللآن أنت مازلت معها، هذا لأنك أنت وهي تستحق"..

******

ولأنك ضائع فمباح لك التيه أكثر، مباح لك الحزن، الانخراط في متاهات الألم والتناسي لأن النسيان خارج حدود المنطق والمعقول..

ساعات بعدما أوصله أخيه للشركة ليعود بسيارته، لم يذهب للمنزل خلفها، لم يهاتفها، بل ظل يفكر.. أوقف السيارة بجوار النيل وتركها يتأمل صفحة مياهه الجارية بحركة رتيبة لا تكاد العين تلمحها..

هل حقًا طالبته بنزع روحه من جسده وبإرادته؟!..

جنحت نحو الفراق كمركب تتلاعب بها عاصفة هوجاء!!..

نسيت ما كان من عشق، ما كان من قرب، ما كان من سُكنى تبادلاها!!..

وجن الليل بظلامه.. ظلامًا لم يسدل أستاره على الكون من حوله فقط، بل سيطر بدُجاه على قلب تباطئت خفقاته عنوة بين الضلوع تبحث عن ونيسها الهارب وتطالب بالرجوع..

يستعيد حديث أخيه، نبرتها الشاكية، دموعها، هتافها الحاد بصراخ يطالب بالرحيل من حياته، يفكر.. بل يدور ويضل الطريق في دوامة أفكار عاتية لا منفذ لها ولا مهرب منها..

عاد لسيارته وبدلًا من عودته إليها بدا وكأنه يرغب في البعد قليلًا.. يتلظى هو فوق نيران الخوف ويتركها تشتعل بلهيب الرعب.. أيريد تأديبها؟!.. تعذيبها؟!..

ولمَ لا؟!..

ألم تذبح قلبه قبل قليل!!.. ألم تعتصر النبضات التي تملكتها فمنعتها من الخفق باسمها!!..

وجد نفسه أسفل منزل شقيقته، تأمل سيارة الحراسة الرابضة خارج المبنى بشرود قبل أن يتخذ القرار ويصعد إليها، لن يخبرها.. لن يقص لها أوجاعه فلديها ما يكفيها.. لكنه فقط ينشد راحة تمنحها له براءة ملامحها، ابتسامتها.. حنوها الأمومي الفطري الذي لم يعد يخصه كما كان..

استقبلته بفرحة عارمة، جذبته لحجرة المعيشة وحدث ولا حرج عن ما ملأت به الطاولة أمامه من مشهيات وطعام كأنه يعاني الحرمان.. ابتسم بحزن رغم سعادة القلب..

وجهها، ابتسامتها، لمعة عينيها وحتى نبرتها المرتاحة كلها منحته الأمل.. أملًا يحلم به ويتمناه، لم يتحدث عن نفسه كثيرًا، ظل يتأملها وهي تشاغبه وتضحك كطفلة، وتلك السعادة البريئة التي تنضح بها ملامحها كان مردودها الكثير والكثير من التقدير لذلك الزوج الذي أعاد لصغيرته نبض الحياة..

أخرجته من شروده بسؤالها المهتم السعيد:

- ها تحب تشوف؟!

هزرأسه ينفض عن نفسه إحساس الضياع:

- أشوف إيه!!

ضحكت برقة ووكزته في كتفه:

- أمال أنا باتكلم في إيه من الصبح؟!.. أنت مش معايا خالص.. مالك؟

ورسم بسمة واسعة مكذوبة:

- معلش.. مرهق حبتين بس كنت عاوز أشوفك قبل ما أروح.. عاوزة توريني إيه؟

ومناورته نجحت بشغلها فيما كانت تتحدث عنه:

- شغلي..

انعقد حاجباه فجأة بحدة خلفها غضب:

- شغلك؟!.. أنتِ اشتغلتِ؟!.. ومن غير ما نعرف!!

هزت كتفيها ببساطة:

- لسه من قريب، ما جاش مناسبة، بعدين ده أول شغل زياد جابهولي.

وتحولت النظرة لشيطانية:

- زياد!!

لم تنتبه لسخطه الواضح أو ملامحه التي بدت كملامح قاتل محترف يستعد لأداء مهمة:

- أيوة.. ما هو زياد برده اللي علمني التصميم.

ولم يعد يفهم أو يتحمل عدم الفهم:

- سارة فهميني.. شغل إيه وتصميم إيه؟!

وانطلقت تشرح له كل شيء، تخبره عن زوجها الذي يدعمها بكل الطرق، يعيد إليها روحها، يمنحها "سارة" جديدة أفضل وأقوى من تلك التي فقدتها في معمعة انتهاك، وابتسم.. فجأة ابتسم بحنان وهو يحصي عدد المرات التي نطقت اسمه عبر شفتيها خلال حكايتها..

"زياد قال".. "زياد فعل".. "زياد لا يحب".. "زياد منحني الثقة".. "زياد" والكثير من الـ"زياد" حتى أوقفها برقة متسائلة:

- حبيتيه يا سارة؟!

تصلبت في مواجهة عينيه المتفحصتين:

- ليه بتقول كده؟

والجواب كان مائة مرة ذكر طوال حديثها، لمعة عين مع لفظه، وابتسامة رقيقة فيها شيء من حلم، لكنه لا يريد تعجل مشاعرها بل غير اتجاه تفكيرها تاركًا لها حرية النطق أو الانطلاق:

- باطمن عليك..

انحسرت ابتسامتها بشرود:

- مش لازم حب يا أدهم.. مع إنه يستاهله، بس...

واحتارت في أحرف، بحثت وصمتت لدقيقة كاملة قبل أن تكمل وفي خيالها صورته بعقدة جبينه وبسمته وقهقهته التي تسعدها حين يفعلها حتى لو كانت هازئة منها:

- بالاقي نفسي معاه.

ظل يتأملها لثوان قصيرة قبل أن يربت على ركبتها:

- وريني تصاميمك.. يمكن تمسكي الحملة الجديدة بتاعة الشركة لو عجبتني.

وانتفضت بفرحة تهب واقفة:

- ثواني هاجيب اللاب توب من أوضة زياد.

ورحلت وتركته يفكر في كلمتها.. "أوضة زياد".. ينام في غرفة منفصلة!!..

لقد ظن أنه في أحسن الأحوال سيتقرب إليها برفق وبطء، لكنه وبعد ما يقارب الأربعة أشهر لايزال بعيدًا!!.. ما نوع هذا الفتى!!.. وازداد شعور التقدير بداخله..

عادت إليه وجلس إلى جوارها يشاهد بتدقيق ما قامت به، بالفعل عملها مميز حتى أنه سألها:

- لما التلميذة تبقى كده أمال أستاذها إيه بقى؟!

ردت بتلقائية سُعد لها قلبه:

- زياد فنان بجد.. هاوريك تصاميمه.

وتنطق اسمه في كل جملة ويكاد يقسم أنه يتسلل للقلب وهي لا تنتبه..

وحين تفعل، سيكون هو ملكه المتوج..

******

ظلت تدور في المكان بغيظ..

لقد رحل "أدهم" قبل قليل وهو لم يعد بعد، هاتفه مغلق أو فرغت بطاريته لا يهم!!.. ما يهم أن أخيها انتظره لوقت طويل ولم يظهر ولا تستطيع الوصول إليه..

تأخيره في الفترة الأخيرة زاد عن الحد.. هل يتهرب منها، من وجوده معها؟!.. أصبحت حملًا ثقيلًا لا فائدة ترجى منه فبات يبحث عن سلواه خارج المنزل!!..

رباه.. هل من الممكن أن تكون هناك أخرى؟!..

وصلها صوت مفتاحه في الباب فتحركت نحوه بحدة، عندما دخل ووجدها في مقابلته بحاجبين معقودين وعينين غاضبتين كاد يبتسم.. حتى في غضبها بدت ناعمة وبريئة للغاية، تكتف ذراعيها أمام صدرها وتنتظره كزوجة نكدية مخلصة تتلقفه من أمام باب المنزل بقائمة النكد المعتادة..

وهنا لم يستطع منع البسمة، بل اتسعت وهو يسألها:

- خير واقفة كده ليه؟!

فكت ذراعيها وسألته بحنق:

- ممكن أفهم كنت فين لحد دلوقتِ؟

ارتفع حاجباه دهشة!!.. هي لست الزوجة النكدية.. بل المتسلطة التي تحشر أنفها في كل صغيرة وكبيرة تخص زوجها.. ورغم ذلك أجابها بهدوء:

- هاكون فين يعني؟!.. في المكتب، كان ورايا شغل مهم لازم أخلصه لأن بكرة عندي شغل برا.

زمت شفتيها بضيق:

- مش ملاحظ إنك بقيت تتأخر كتير وبتتعب نفسك في الشغل زيادة عن اللزوم!!.. الأول ما كنتش كده، إيه اللي حصل؟!.. حتى موضوع شغلك برا المكتب بقى أكتر من الأول، فهمني في إيه؟!

رفع رأسه في صمت فأردفت:

- بقيت تتأخر كل يوم وتسيبني لوحدي.. زياد أنا...

انتظرها لتكمل وما أتاه صدمه:

- أنا باخاف.. وجودك بيطمني.

وعاد قلبه يخفق بجنون يضرب جدران صدره كأنه يبغي التحرر من سجن ضلوعه.. وسبَّها في سره ثانية بينما يوضح باقتضاب ونبرة حازمة افتعلها بعسر:

- باتأخر في شغلي يا سارة.. مش بالعب.

وعادت تعاند كطفلة:

- أيوة عارفة إنه شغل، بس الأول ماكانش كده، إيه اللي جد يخليك تهلك نفسك بالشكل ده؟!

وترددت لحظة:

- أنت بتتعمد تتأخر وتقضي وقتك برا البيت ليه؟!

زجرها بنظرة حانقة:

- باتعمد!!

تراجعت بارتباك.. ربما هو لا يفعل؟!.. لكن قلبها يخاف، وبحيرة تساءلت داخل نفسها: منذ متى أصبح الخافق الصغير في الصورة؟!..

أردف بغيظ دون انتباه، كل ما يحيط بها يغيظه ويثير بداخله كل غضب:

- كل ما في الموضوع إني محتاج أزود دخلي.

ولم تفهم، هما لا ينقصهما شيء، وهي لا تطالبه بالكثير:

- أيوة بس إحنا كويسين.

شملها بنظرة غامضة قبل أن يريحها في صراحة بما يشعره بالانتقاص:

- لأن أنتِ مسئوليتي يا سارة.. وحراستك وأي حاجة تخصك مسئوليتي أنا مش حد تاني، مسئوليتي بالكامل من الألف للياء.

تطلعت إليه بنظرة لم يعلم معناها، تمتمة خافتة صدرت من بين شفتيها باستفهام شارد:

- وليه عاوز تشيلها بالكامل؟!.. ليه بتعمل كده؟

لم يجبها.. فعادت تأخذ دور المحقق الألمعي الذي يبحث عن طرف خيط نحو أول طريق الفهم:

- مش معقول تكون بتتعب روحك وبتعمل كل ده شهامة أو حتى عشان ترضى عن نفسك!!.. ليه يا زياد؟!.. ليه اتحملتها وبتزودها كمان؟

وجملة قصيرة أراد أن يخرسها بها فهو لا يريد الخوض في هذا النوع من الحديث:

- عشان عاوز كده.. وبس.

اقتربت خطوة عنيدة حادة غاضبة:

- يعني إيه عاوز كده؟!.. مش مقتنعة، أنا مجرد حمل عليك، حياتك مش كاملة ومش باديك أي مقابل للي بتعمله معايا، يبقى كل ده ليه؟

كاد يحرقها بنظراته وهي تتحدث عن مقابل فأردفت وقد تفهمت سخطه:

- طيب أنا دلوقتِ باشتغل.. أينعم شغل زي ما بيقولوا بالقطعة بس ممكن أساعدك.. وده بيتي برده.

وهنا كان قد اكتفى، لقد منحته طرف خيط يتحرك به نحوها مقتربًا وسيكون من الحماقة ألا يجذبه، خطوتها زاد عليها خطوتين فأصبحت في مواجهته، مال نحوها بهمس حاد:

- عاوزة تديني مقابل يا سارة؟!

ازدردت لعابها وحاولت التماسك أمامه دون أن تهرع هاربة خائفة، أمام نظرتها المشتتة شبه المذعورة أجابها دون أن تسأل:

- أنا عاوز أعيش حياة طبيعية.. زي كل الناس.

صمتت كأنما تدير الأمر برأسها للحظات قبل أن ترفع عينيها إليه لتجده يزفر وقد أدار وجهه بعيدًا عنها، همستها كانت خافتة متحشرجة كمن يئن هلعًا وألمًا:

- هتطلقني يا زياد؟!

وتشتت عيناها في كل اتجاه بينما هو يدير رأسه بسرعة لينفي فهمها الغبي للموقف، ولمح الدمعة التي تعلقت بأهدابها..

هي تدمع لأجل فراق ظنته على وشك الحدوث!!..

هي لا تريد فراقه!!..

هي ترغب بالاستمرار!!..

وكان لابد أن يفهم، فصمت.. عادت تنظر إليه بضياع وتسأل بصوت أعلى:

- رد عليَّ.. هتطلقني؟

أدار وجهه يرفض لقاء نظراتها المرتبكة، فأعادتها بشبه صراخ:

- جاوبني.. عاوز تطلقني؟

التفت إليها بسؤال حاسم يحتاج وسيحصل على جواب:

- مش عاوزاني أطلقك؟

وتراجعت خطوتها بصدمة، تنتبه للأمر، تفكر وأفكارها تعلنها لها صريحة واضحة..

لا هي لا تريد الفراق!!.. هي تريد أن تكمل حياتها معه هو.. أن تنتهي بجواره، تنتمي إليه..

واقترب خطوتها التي تراجعتها وبداخله أمل.. أمنية.. حلم قد يتحقق:

- عاوزة تكملي معايا؟!

رفعت عينيها الدامعتين إليه فأوخزت قلبه بضعفها، هزت رأسها بموافقة فأكمل بحزم:

- مش هاطلقك.

وعاد كتفيها يتهدلان بيأس، تتمتم وتثير جنونه أكثر:

- يبقى هتتجوز عليَّ..

وكاد يقتلها حرفيًا هذه الغبية المدللة التي لا تفقه أي شيء، زفر بحنق وخلل شعره بأصابعه:

- برده لأ يا سارة.

نظرت إليه بأمل أدمى فؤاده، دنا نصف خطوة جديدة، وتحولت النبرة لهمس:

- أنا عاوز حياة طبيعية.. معاكِ أنتِ.

ارتجف فكها السفلي برعشة التقطتها عيناه، منحها الكرة بملعبها ولم يكمل، فتقطعت أنفاسها بكلمات متفرقة:

- أيوة بس أنا.. أنا..

ولم يحثها لتوضح، ترك لها حرية الحديث، علَّه يفهم كيف ترى الأمر.. بل كيف ترى حياتهما معًا!!.. بدت شاردة وشفتيها تتحركان بكلمات حمقاء مثلها كما يظن:

- أنا إنسانة ملوثة.. مشوهة من جواها، مش هاقدر أديك الحياة اللي تستحقها، مش هاقدر أكون زوجة طبيعية وأم.. مش هاقدر أكون...

كان لابد أن يوقفها، نصف خطوة أخرى وسبابته فوق شفتيها بلطف:

- أنتِ بإيدكِ تكوني اللي أنتِ عاوزاه..

لم تنتفض للمسته بل نظرت إليه بأمل أذاب روحه فأردف بحنان:

- سارة مش ملوثة، سارة بريئة.. سارة تستاهل تعيش، سارة...

وتنهد بعمق بطيء:

- سارة أكتر واحدة هتقدر تاخد بإيد سارة وترجعها أقوى من الأول.

وتأمل كليتها المترقبة لكلماته:

- سارة هي اللي عاوز أكمل معاها..

ثم تقطعت حروفه وزاغت بين عناق نظرات ضعيفة وأخرى تمنح القوة، باقتراب مشروع وسؤال ظلت إجابته معلقة في الهواء فكانت المخاطرة هي رد الفعل..

رد الفعل المتمثل في كف تحركت ببطء تلامس العنق بلين، تجذب برفق وأصابع الأخرى ترفع الذقن فتتلاقى الجفون في خجل، تنتاب الجسد رعشة تجاهلها، والفك رجفة تناساها، وأسنان تصطك ببعضها أسفل أصابعه فتغافل عنها..

ثم انحناء رأس ولقاء شفاه رقيق لكن به نزعة سيطرة تخبرها ألا تخاف، أن تتقبل وتستكين، لقاء يختبر به قربه الحميم منها للمرة الأولى، وجوابها كان كما رغب للحظات؛ خشوع صامت حتى ذاق الدموع فابتعد بتردد يبحث عن عينيها..

لكنها هربت، هربت وتركت قلبه يصرخ خلفها يأمرها بالعودة والسكن قربه، هربت وتنهد هو بإغماضة عينين وأمنيته تناوشه من جديد تطالب بالأمل، بالإصرار.. بخطوة سيكون غبيًا لو تراجع فيها الآن.

أما هي فقد وقفت خلف باب غرفتها ترتعد كأنما تغوص في صقيع قاتل..

لقد قبَّلها!!..

لم تخف أو تشمئز بل فقط رهبة الموقف، القرب.. الحميمية ولمسة رجل، كلها جعلت قشعريرة باردة تمر في خلاياها خلية خلية..

هي لا تخافه هو!!.. لكنها تخافهم كلهم..

وكادت تبكي.. عندما سمعت طرقته الخافتة من خلفها انتفضت، استدارت تنظر للباب بقلق حتى ناداها ثم فتحه ببطء، ولج للداخل وقد غير ملابسه، ابتسامة طفيفة فوق شفتيه صاحبت سؤالها:

- أنت بتعمل إيه؟

جاوبها بنظرة مشاغبة ورفعة حاجب:

- هانام.

فغرت فاهها بذهول:

- تنام فين؟!

أشار للغرفة من حوله وتوقفت أصابعه موجهة للفراش:

- هنا.. في الأوضة دي، على السرير ده.. من النهاردة مكاننا مع بعض يا سارة.

وانكمشت على نفسها تنظر إليه بترقب كأنه سيهاجمها، ينهشها أو يلتهمها دفعة واحدة، عاد يبتسم بحنو:

- هانام بس.

وأدار لها ظهره يضعها أمام أمر واقع لا جدال فيه، فهي وهو يريدان أن يكملا حياتهما معًا، وهذا يتبعه بعض التنازلات من جانبها كما تنازل هو عن الكثير والكثير من قبل:

- تصبحي على خير.

ودلف للفراش، جذب الغطاء فوقه كليًا وكان على طرفه حد السقوط، ظلت في مكانها تتأمله حتى انتظمت أنفاسه بالفعل وبداخلها صراع عنيف..

هل تخطو خطوة بالمثل نحوه.. أم تتباعد خطوته التي اقترحها!!..

ولأنه هو.. ولأنها لا تريد غيره، بل وأعلنها العقل واضحة صريحة لا تحتاج للمزيد من التفسير فقد ارتسمت ابتسامة بلهاء على شفتيها.. لا ليست بلهاء!!.. بل بريئة حالمة تتمنى وتطمح للحياة.

تحركت بخفوت نحو الفراش، على طرفه الآخر استكانت حد السقوط مثله، وتدثرت معه بنفس الغطاء، أغمضت عينيها وابتهلت لله أن يمنح قلبها ما يتمناه..

وكان هو يبتسم، يخرج نفسًا عميقًا بطيئًا.. ويبادلها الأمنية..

******

"أنت اتأخرت كل ده ليه؟!.. وموبايلك كمان مقفول!!"

تلك الدرجة التي صعدها عاد فيها بالتفاتة نحو والدته واستقبالها الحافل، عيناه الحزينتان لم تجذبا أنظارها وهي تعاجله بالخبر الصادم:

- ممكن أعرف مراتك راحت فين هي والولاد؟!.. لمت هدومها وخرجت من غير ما حد يشوفها غير المربية اللي ما لحقتش تفهم في إيه؟!

تجمد أمامها للحظات بدت طويلة كدهر، لو تلقى صفعة أو حتى رصاصة قاتلة لكان الوقع أخف..

لقد رحلت، تركته.. غاردت وربما بلا رجعة هذه المرة!!

ودون وعي ابتسم، واتسعت البسمة حتى شملت وجهه كله ثم انقلبت لضحكة مجلجلة تحمل طابعًا هيستيريًا مجنونًا كأنما فقد عقله، أوقفته بحدة:

- أنت بتضحك؟!.. ممكن تفهمني إيه اللي حصل؟!

توقف فجأة وتهدل كتفاه يأسًا:

- اللي أنت عاوزاه هو اللي حصل.

زوت ما بين حاجبيها في استفهام مستنكر:

- هو أنا عاوزة مراتك تسيب البيت!!

وكاد يهتاج لكن طاقته نضبت:

- جمانة طلبت الطلاق.

نظرت إليه بصدمة وعندما فتحت فمها لتعلق منعها بإشارة:

- مش ده اللي أنتِ عاوزاه؟!..

واقترب منها يكمل حديثه كأنه يسكب آلامه أمامها دون تزيين، يلقي باللوم، يحملها الوزر وكل إثم:

- أهنتيها وسكتت، ما كانتش بتشتكي، وأنا كمان عملت نفسي مش واخد بالي وباقول هي عاقلة، من أول يوم وأنت بتقولي إنها ما تصلحش ليَّ مع إن اللي اكتشفته..

وانعصر قلبه بوجع تعسرت معه ولادة الأنفاس:

- اللي اكتشفته إنها كتير عليَّ.

وتحولت النظرة لصارمة غاضبة لا يصلح معها إنكار:

- أنا عرفت كل حاجة، وبدل ما أطيب جرحها وجعتها أكتر.. شافت إن الحل هو الفراق، وكده كل طرف هيرتاح.. أنتِ .. هي!!..

وابتعد بعينيه عنها:

- وأنا أموت..

وكانت النبرة أبحة مكسورة الأحرف كطير ذبيح ينازع خروج الروح:

- مش فارق معاكِ هي بالنسبة لي إيه؟!.. هي في حياتي إيه!!.. كل اللي يهمك يا فريدة هانم المظهر الاجتماعي اللي مخليك مش عارفة تقولي إن مراتي كانت أرملة ومش بنت فلان الفلاني..

وقلب كفيه ببؤس:

- وأهي خلاص.. حلت لك المشكلة.

وأغمض عينيه، أولاها ظهره وصعد نحو ما كان في السابق مكانهما معًا..

ينشد ذكراها، يشتم عطرها، يبحث عن شيء نسيته علَّه يجدها فيه ويجد نفسه معه، وقلبه يناديها بتوسل:

"كيف هُنتُ عليكِ حبيبة العمر؟!"

(٣٣)

اعتراف

هذا شوقٌ لا يغرب..

وتحت لهيبه قلبي يتعذب..

يئن ويكاد يُجن..

في غيابك أقاتل صمتي وأحيا بينكِ وبين موتي..

بُعدك عني قد أفرغني..

أكابر وأنا أكتوي على تلال الوجع وأعافر..

جن جنوني وأخذت الحياة تسود في عيوني..

كلماتك لاتغادر الذاكرة..

واليأس في عيونك هزني، جرحني وصدمني..

آه لو تعلمين كم تنحرين في روحي!!

وتذرين الملح على جروحي!!

منذ رحلتِ؛ لم أستطع جمع شتات نفسي..

فنفسي يأكُل نفسي..

إهداء/ "زهرة الكاميليا"

في عالم موازي.. تتحقق الأمنيات..

نركن للحلم ونستكين لجانب الأمل علَّنا ننجو من مقصلة الوجع..

في عالم موازي؛ قد تكون الحياة وردية والسحب قطنية.. والبلابل تغرد مع نبرة صوتك عشقًا للحرية..

وفي عالم موازي.. تهرب العقول والقلوب فربما نستيقظ من كابوس قطع الأنفاس حد الاختناق..

لم يكن هنا، لم يكن معها.. لم يحمِها رغم وعد قطعه لنفسه حتى لو لم توافق على عرضه بالزود عنها، بحقها في فرصة جديدة وأمل وحياة بلا منغصات، بأن تكون ما تريد، ما تتمنى وما تحلم.. أن تقف وتتحدى وتتقوى بذاتها لا به ولا بغيره..

لكن اللعنة هو لم يكن هنا، ولم يعلم بما حدث إلا صدفة عندما لم يستطع مقاومة السؤال عنها متعللًا بالعمل ليفاجأ بغيابها، حادث ومشفى ورفرفة جناحي موت، وكادت تضيع، تنتهي وهو غائب..

عاد على أول طائرة، ومن المطار مباشرة إلى المشفى حيث ترقد في غيبوبتها الاختيارية، يتأمل وجهها الشاحب بسكون من بين المعدات الطبية والأسلاك، جسديًا هي في حال أفضل بكثير رغم الكم المفقود من الدماء، لكن عقلها يهرب من عالمنا لعالم آخر موازٍ..

عالم لن ترى فيه أغلال الماضي تطوق عنقها تبغي قتلها وحبسها في زنازينه دون حرية كأسير حرب..

ظل جالسًا على مقعد مجاور لفراشها لنصف ساعة، يراقب بصمت، في النهاية اقترب يحتضن كفها في قبضته الدافئة، يهمس لها بأسف يشعر به:

- لو كنت موجود ما كانش ده ممكن يحصل!!..

وأغمض عينيه بزفرة حارة غاضبة تقارب الاشتعال:

- مش هاقول لو.. بس المرة الجاية وعد هاحميكِ.

وزم شفتيه كأنه يكظم غيظًا ينهشه بضراوة:

- هاحميكِ حتى من نفسك، من ضعفك، وخوفك اللي مخليك لحد دلوقتِ غايبة عن العالم.. هربانة منه ومش عاوزة ترجعي للكابوس اللي بيطاردك فيه.

ورفع يدها لشفتيه يختمها بقبلة خافتة واعتذار:

- آسف.

ونهض ببطء، لمحة أخرى لوجهها احتفظ بها بين ثنايا عقله قبل أن يرحل ويغلق الباب خلفه بهدوء، عندما استدار متحركًا كانت المفاجأة النارية تقابله مشتعلة في سماء عيني العاشق الغاضب:

- أنت دخلت جوا إزاي؟!

رفع حاجبًا هازئًا:

- الحرس دول من شركة تابعة لاسم الراجي يا مراد بيه.

وكاد يزعق لولا المكان:

- يعني إيه؟!.. تدخل وتخرج عادي والمفروض إنهم هنا لحمايتها؟!

واقترب منه خطوة بدمدمة حانقة:

- كنت عندها بتعمل إيه؟!

هز "فهد" كتفيه بلا مبالاة:

- هاكون باعمل إيه؟!.. باطمن عليها، كنت مسافر ورجعت وجيت أشوفها.

خطوة أخرى وازت هسيس سخطه:

- وإيه المناسبة؟!

صمت لثوان يتطلع إليه، يسبر أغواره ويسعى لفهم تطرف موقفه:

- دي شريكتي، طبيعي آجي أطمن على صحتها لما تكون في غيبوبة.

والآخر لم يصدق، لم يستطع، والغضب يزداد دون عائق أو لجام، ثم كانت خطوة أخيرة استقرت بعدها سترة "فهد" بين أصابع "مراد" المنقبضة بعنف:

- طبيعي تيجي في ميعاد زي ده؟!.. أقدر أخمن وأقول إنك جيت من المطار على هنا على طول!!.. كنت عندها بتعمل إيه؟!

السؤال كان حادًا عاليًا أثار بركان غضب "الكوبرا"، أمسك بالقبضة المتشبثة به بقسوة، يضغطها بشراسة ومال بوجهه نحو "مراد" يجيبه من بين أسنانه:

- قلت لك بازورها، شريكتي، واللي بتعمله ده ما يصحش.. إحنا في مستشفى.

ولم يهتم، الثورة المستعرة بداخله لم تمنحه فرصة للتفهم والنبرة ارتفعت أكثر بسؤال يشج رأسه:

- بتزورها ليه؟!.. فهمني.. في إيه بينك وبينها!!

واتسعت عينا "فهد".. بل ارتفع حاجباه نتيجة الصدمة الأولى، بعدها انعقدا وتوالى السباب بأعماقه على ذلك الحبيب الغبي فقرر منحه درسه الأول والأخير:

- وأنت ليه معتقد إن في حاجة بيني وبينها؟!

صرخ بجنون:

- عشان...

ولم يجد ما يكمل به!!..

تجمدت الحروف على طرف لسانه بحثًا عن كلمات تشكلها، تعثرت في حفرة الشك الذي نبت بقلبه حولها، عن كل ما يخصها، وكل من يمر بها، تلعثم بضياع:

- عشان..

وهنا تحرك "الفهد" بغيظ واضح يخلص سترته من قبضته:

- خسرتها يا مراد.

ثم خطا راحلًا وعقله يخبره بيقين.. لقد عرف ماضيها، وتركه كوسواس ينخر فيه حتى وصل لمرحلة الخطر، وحينها هي من سترفضه لا هو.

ظل يتابعه بعينين زائغتين، يسترجع الحديث، ما قاله، ما صرخ به، ما دار في نفسه الوجلة، وأغمض عينيه بألم معترفًا بصدق منافسه، أو من يظنه كذلك..

رمق الرجلين الواقفين على مسافة قصيرة بنظرة ساخطة ثم خطا نحو بابها، ترددت أنامله تمسك بالمقبض، تديره ببطء وقلبه يؤنبه متهمًا إياه بأنه مثلهم جميعًا.. مجرد طوق آخر سيخنقها لا أكثر.

ما إن فتح الباب وعينيه ترتفعان إليها باشتياق حتى باغتته عيناها..

استيقظت!!..

وعندما دقق النظر وقبل أن ينطق باسمها فرحًا بالعودة، لمح الدمعة وسقط قلبه بين قدميه بلعنة وخوف..

لقد سمعت!!

والويل لعاشق نضب ماعون عشقه في قلب معشوقه بقسوة جناها في لحظة طيش..

******

هي تعود..

البسمة، الضحكة.. الملامح المنفرجة والمرح والخفة التي تكاد تحلق بها كريشة فوق النسمات، كلها تخبرها بعزم وصدق: أنها تعود!!

كانت تشاكسها كالقديمة التي تعرفها، تلقي بالنكات وتخبرها عن آخر الأخبار والشوق والافتقاد، تعلم منها ما فعلته خلال سفرها، وعن عودتها وماذا تنوي أن تفعل!!.. وبين كل الحكايا كانت تسعد لأجلها، وكان اسمه يذكر!!..

لم تعُد بعد المرة العشرون، توقفت وابتسمت وأكملت الحديث ترد على سؤالها:

- طلبني تاني زي ما قلت لك في التليفون، بس برده رفضت.

تأملتها بتساؤل فأكملت:

- يا بنتي مش هاتجوز غير واحد أحبه، أعشقه، أتجنن بيه وهو كمان يكون مجنون بيَّ.

وضحكت بمرح:

- هتدوري كتير كده.. مش يمكن الجنون ييجي بعد الجواز؟!

ردت بعناد تشاكسها:

- لأ.. أنا عاوزاه قبل، يا كده يا بلاش.

عادت تضحك برقة:

- طيب سيبك منه، ناوية على إيه هنا بقى؟!.. ومكاني محفوظ ولا إيه يا سيادة المدير؟!

ربتت على ركبتها بحنو:

- طبعًا محفوظ..

وعادت تداعب بشقاوة:

- ابعتي لي السي في بس، ولازم خبرة ٣٥ سنة.

علت الضحكات، ونبض قلب الصديقة الحنون سعادة، كانت تدعو لها، لم تنسها للحظة خلال غيابها، تهاتفها كل يوم تقريبًا إلا عند الانشغال، والآن لم تعرف ماذا تقول أو بماذا تفكر!!..

لقد فعلها!!..

هذا الخشن البدائي مشتعل الأعصاب فعلها.. أعاد لتوأمة روحها نبض الحياة.. سألتها فجأة وهي تخبرها عن عملها وتعلمها للتصميم:

- بتحبيه يا سارة؟!

انعقد لسانها داخل حلقها بشهقة وكادت تغص برشفة العصير:

- هو في إيه؟!.. بتسألوني السؤال ده ليه!!

طالت الدهشة "علا" فعادت تهتف باستغراب:

- هو مين اللي بيسألك؟!..

مطت شفتيها في غيظ:

- أدهم.

وابتسمت الصديقة برفق:

- وقلتِ له إيه؟!

رفعت إليها مقلتان حائرتان، تنظر إليها بتشتت، بارتباك وفي الخلفية خوف وانكسار:

- مش عارفة..

وقبل أن تدافع أكملت والنبرة يملأها الشجن:

- زياد يستحق الحب..

ثم أغمضت عينيها بتنهيدة أسف:

- أنا.. قلبي مش قادر يحب.. أنا ما أستحقش الحب، ما أستحقش واحد زي زياد.

ولم تقاوم الضمة المفاجئة، والهتاف الحاد الغاضب:

- إيه الكلام العبيط اللي بتقوليه ده؟!..

وأبعدتها تدقق في عينيها:

- أنتِ تستحقي أحسن راجل في الدنيا، واللي مش عاجبه يخبط دماغه في الحيط.

نظرت إليها بابتسامة ونطقها لسانها دون تخطيط:

- زياد أحسن راجل في الدنيا.

وانتبهت لما قالت وغزا وجنتيها احمرار والتقطت أذنيها نحنحة رجولية خشنة تحمل صوته فكادت تفقد الوعي..

أتراه سمعها!!..

رباه..

ناداها فانتفضت بحمرة والأخرى تكاد تضحك لكنها حبستها عندما نالت نظرة قاتلة، نهضت تدعوه للدخول فأقبل ببسمة نبض لها قلبها وهو يحي صديقتها باقتضاب، ابتسمت له:

- كويس إنك جيت بدري، تلحق علا قبل ما تمشي.

حافظ على ابتسامة رسمية:

- حمد الله على السلامة.

بادلته إياها بود أكبروردت تحيته قبل أن تهرب الأخرى بحجة واهية:

- هاروح أجيب عصيرتاني، هتشرب معانا بقى.

وركضت يتابعها ببسمة والكلمة لاتزال ترن بأذنيه:

"زياد أحسن راجل في الدنيا"..

وخر قلبه صريع أرض المعركة معلنًا انتصارها، رافعًا راية الهزيمة والاستسلام لسلطانها..

انتزعه من شروده حيث وقف يتابع ظلال رحيلها بنظرة لا تعني سوى الحب صوت صديقتها:

- أنا آسفة.

انعقد حاجباه كأنما نسي أنه ليس وحده، التفت إليها ببطء يحمل تساؤلًا:

- على إيه؟!

ابتسمت بتقدير امتزج بحرج:

- على سوء ظني..

ومنحت عينيها حق متابعة أثر الهاربة:

- سارة بترجع..

تابع النظرة باحثًا هو الآخر عن الأثر، بسمة رقيقة وقلب ينبض، ولمعة بين الجفون تحمل صورتها:

- سارة تستاهل كل خير.

وفهمت رغم حيرة تظهر على وجهه، أدركت قبل أن يدرك.. وعلمت قبل أن يعترف، هو يحب.. وهي تحب، والأحمقان متباعدان، كادت تزفر بضيق لكنها حبستها لتخبره برقة:

- أنت تستاهل سارة وهي تستاهلك.. ربنا يسعدكم.

تحولت البسمة لشجن، وعادت الأمنيات تحلق في سمائه، والفؤاد يشجب البعد ويطالب بما يخصه، بملكية هو الأحق بها، هو أهل لها.. وهي له.

******

أحيانًا في وسط وَغَى الألم نجد شعاع نور يخبرنا أن الأمور يمكن أن تكون بخير، يمكننا أن نعود، نحيا ونأمل..

هناك من يهتم، هناك من تلجأ إليه ولو بقشور الوجع فيقف إلى جوارك بدعم لا يسأل عن أسبابه ولا يبحث عن تفاصيله.. هو فقط حاضر، وهذا أكثر من كاف..

ظلت تنظر إليه بخجل، وقلبها ينبض فرحًا كسيرًا مخنوقًا بسلاسل الحيرة والخزي والخوف:

- يعني ينفع كده يا دينا؟!

هزت كتفيها بلا هدف:

- أنا كنت في غيبوبة، أكيد لو كنت واعية كنت قلت.

وكانت تقصد دعابة غير مضحكة، عقد حاجبيه ومال في مقعده نحوها:

- مش وقت هزار، وأنت حتى وشك مش باين عليه هزار، أنا عاوز أعرف اللي حصل ده حصل إزاي وليه ومين وراه!!

اغتصبت بسمة فوق شفاهها الجافة:

- ما تشغلش بالك، الموضوع انتهى خلاص.

ظهر غضبه جليًا على ملامحه:

- يعني إيه ما أشغلش بالي.. قلت لك قبل كده أنتِ زي سارة بالظبط، وأي حاجة.. أي حاجة تحتاجيها تقولي لي، يبقى أعرف إنك في المستشفى وغيبوبة ورصاصة يا دينا بعدها بأكتر من أسبوعين!!.. إزاي؟!.. وما أشغلش بالي إزاي؟!

كانت متعبة، بالفعل متعبة رغم سعادة خفية تناوشها للظهور باهتمامه وحمايته:

- أنا تعبانة.

قالتها بضعف أقلقه فهتف بتوجس:

- حاسة بإيه؟!.. لحظة أنادي الدكتور..

ونهض لكنها عاجلته قبل أن يتحرك خطوة:

- مش محتاجة دكتور.. محتاجة بس.. أرتاح.

وتقطعت نبرتها في آخر كلمة، رمقها بنظرة متفحصة، عاد يجلس في صمت، صمته لم يرحها بقدر عينيه الحانيتين الغامضتين:

- ماشي يا دينا.. بس أنا هاعرف التفاصيل بنفسي.

توسلته واهنة القلب والجسد والروح:

- أرجوك يا آدم.. ما تدورش ورا الموضوع، ده كان ذنب وباتطهر منه.

وأغمضت عينيها تتنهد بشبه راحة:

- والتمن كان دمي.

لم يفهم وربما فهم في مزيج غريب.. لكن قلقه منعه من الاستسلام لرغبتها، لم يضغط عليها أكثر، مكث معها لبعض الوقت قبل أن يرحل ويقابل في طريقه حارسها الأمين، يرميه بنظرة حانقة لم يدرِلها سببًا، حياه بهزة رأس وغادروحينها نادته..

ربما هو هنا.. هو المعشوق والعاشق، هو نبض القلب وأمل الغد، هو منفذ على عالم من نور ونبع طهارة ودت لو غاصت فيه؛ لكنه فقد الثقة، وعندها سيموت الحب:

- محتاجين نتكلم يا مراد.

نظر إليها بترقب، يعلم أنها سمعته يوم أمس مع شريكها، تلك الدمعة التي لمعت فوق أهدابها تخبره رغم عدم العتاب، اقترب بتؤدة وبسمة يخفي خلفها خشيته من أحرف ستنطقها فتذبح بها الهوى الوليد:

- ما فيش داعي لأي كلام دلوقتِ ، ارتاحي، ولما تخرجي هيبقى بينا كلام كتير..

تطلعت إليه بصمت، يحاول الهروب من الموقف، لكنها توصلت لقرار نهائي لن يغيره شيء، عضت شفتها السفلى تكبت دمعة أخرى:

- ما فيش داعي.. للتأخير.

وأمام إصرارها، ضعفها، الحزن الموشومة به خلجاتها رضخ، صمت وأنصت.. وتألم.

******

تعددت الأسباب والفراق واحد..

موت، هجر، بعد، رفض.. العمر قصير، والتردد مضن ومهلك للنفس، كما الخوف يجبر على التراجع لحظة الاستسلام لتيارات الأمل، لكن الموج عالٍ هذه المرة والخضوع لمسيره أمر حتمي.

كان يجاورها بتأمل لاستكانة ملامحها الرقيقة، ابتسامتها التي أصبحت رفيق الشفاه بعد حملها، حتى أثناء نومها، ابتسم وأزاح خصلة عن وجنتها وعاد يملأ عينيه بصورتها..

امرأته هي وتستحق كل ذرة في كيانه، هو لا يبخل لكن الجبن سلاح ردع عنيف وقوي في مواجهة طوفان المشاعر الوليدة.. وليدة لحظة اكتشاف، أن الفرصة لا تمنح مرتين، أن القدر كان كريمًا حتى اللحظة، أن غباءه الممتزج برهبة الفقد سيضيع منه ما هو أجمل!!..

غادر بذهنه إلى صباح ذات اليوم، عندما كان يجالس أخيه المكتئب، زوجته رحلت عن المنزل منذ أسبوع، هو يطمئن عليها مرتين يوميًا عبره من خلال زوجته، ومهاتفة والدتها.. أعاد الحراسة التي رفضتها في اليوم التالي لترابض أسفل بيتها، ولم يحاول استرجاعها أو التقرب منها كما اعتاد..

"لمياء" هي الأخرى تذهب لأختها كل يوم، تطمئن على حالها، وتريح قلبها القلق عليه، العناد هو المتحكم في مجريات الموقف، أو ربما صحوة عقل أدرك أن البعد حاجة أساسية لتقييم الموازين المقلوبة حتى الاعتدال.. عندما سأله عن نيته كان جوابه شاردًا والنبرة أبحة:

- هاسافر..

شعر بالدهشة فعقد حاجبيه بتساؤل شبه غاضب:

- تسافر؟!.. تروح فين وتسيبها على الحال ده؟

نظر إليه بابتسامة حزينة:

- هو أسبوع بس.. هاخلص الشحنة اللي جاية على المينا في اسكندرية، وآخد أجازة يومين أرتاح فيهم.

ونعم هو يحتاج للراحة، للبعد، لتصفية الذهن وإعادة رسم خريطة حياته مع معشوقته التي كادت تنهيها بحماقة ولحظة بلغت فيها نهاية حدود الصبر، همس "آدم" برفق:

- وهي!!

تلاشت البسمة ببطء:

- هي محتاجة نفس الفرصة.

ذلك الهدوء والسكون أو ربما الانكسار لم يعجباه فقرر بث بعض الحرارة في الجامد أمامه:

- يعني هتسيبها؟!

وكان على حق، تحولت النظرة لاستعار شيطاني رغم جمود اللهجة:

- أنا باقول فترة راحة وبُعد نقيم فيها فكرنا ومشاعرنا، مش أسيبها يا آدم.

عاد يسأل كأنما ينبش عن شيء مجهول:

- وهي مشاعرك محتاجة تقييم؟!

أغمض عينيه وتراجع في مقعده:

- محتاجة لجام.

وتنهد بتعب:

- محتاج أسيطر عليها وأوظفها عشان أقدر أتعايش معاها من غير ما تستهلكني..

وفرق جفنيه بنصف نظرة:

- زي ما قلتِ لي قبل كده.

وعاد يميل مرتكنًا فوق مكتبه:

- جمانة حب حياتي، لو اتخليت عنها أبقى باقتل قلبي، هي لي مهما بعدنا واتخانقنا وقسينا على بعض، بس عشان نكمل صح، محتاجين نبعد شوية.. نتعلم قيمة الفراق حتى لو كان البعد موت.

ويدرك الكبير أنه على حق، رغم الألم الذي يقطر من صوته، يخط لمحات وجهه، تنكسر به عيناه، غير أنه فهم أخيرًا معادلة حياة العاشقين، حيث العطاء والأخذ بتوازن هما خط السير الصحيح وإلا سيحدث الانقلاب وتنفلت المشاعر من العقال محدثة بلبلة قد تنهي قصة العشق.

سحب نفسًا عميقًا وهو يعود بعينيه للنائمة إلى جواره، أخيه عاشق، ويجزم أن صغيرته على وشك العشق، بينما هو يرفض الخوض في بحار العشاق بكل ملذاتها ومخاوفها..

عقله يخاف وقلبه يزجره ويئن تحت وطأة سطوة الجبن والرعب، يبحث عن حياة، عن سكن في ملاذ ضلوع الحبيبة التي همستها له، ولاتزال تهمسها في كل مرة تستكين فيها فوق صدره، تدلله وتمنح أذنيه وخفقاته متعة الحب ودفء المشاعر.

انحنى بقبلة عميقة فوق جبينها، تأمل ملامحها عن قرب، خاضعة لعالم الحلم، هادئة رغم قلقها على شقيقتها لكنها بعقلها الذي يعشق أفكاره

تفهم وتقدر وتوافق أخيه عندما قص عليها ما حدث، تذكر ابتسامتها الحالمة وهي تتحدث عن الجنون، جنون حظيت به أختها ورغم كل شيء فهو كالحلم، أمنية لكل امرأة.. فقط لو التزم العاشق جانب السلامة.

لم يستطع النوم والكثير من الأفكار تتناوب على عقله، أشرقت الشمس ففرك عينيه بإرهاق وكان القرار متخذ.. سحب ورقة من الدرج المجاور، خط فوقها بضع كلمات، غادر الغرفة للحظات ثم عاد محملًا بزهرة وضعها مع رسالته فوق الوسادة إلى جوارها، يود لو يمتلك الشجاعة لكنه جبان ويعترف..

تأملها لثوان أخرى ثم رحل..

بعد وقت ليس بطويل فتحت عينيها واللهفة تسكن مقلتيها تدور بوجهها تبحث عنه، فوجئت بمكانه الفارغ وتلك الوردة الحمراء حيث ينبغي أن يكون.. بنظرة لا تفهمها كما اعتادت خلال اليومين الماضيين، وتطلع صامت لثوان بعد استيقاظها قبل أن يقترب منها بقبلة وتحية صباح..

تحسست بطنها بحنو قبل أن تتمتم:

- صباح الخير.

وارتفعت قليلًا تلتقط وردتها قبل أن تلمح أسفلها ورقة مطوية، جذبتها بفضول مهتم، فضتها برفق وقرأت.. لا بل التهمت الأحرف المعدودة التهامًا

وتعالت نبضات الخافق بجنون حتى كادت تخترق الضلوع، ازدردت لعابها وتحولت الأنفاس للهاث وهي تعيد قرائتها مرات ومرات:

" أنا لم أكن أدري بأن بداية الدنيا لديك..

وأن آخرها إليك..

وأن لقيانا قدَر"..

"فاورق جويدة"

أهذا اعتراف بالحب!!..

لا تكاد تصدق، نهضت بسرعة سببت لها دوارًا طفيفًا وهي تتساءل عن ذاك الجبان الذي هرب من لقاء عينيها وهو يخبرها..

التقطت مئزرها ووضعته عليها بعجالة، بعدها أمسكت بالهاتف تطلبه، ستسبه أولًا ثم تأمره بالعودة والصراخ بها ولن تتراجع عن ذلك أبدًا.. لم تسمع رنين الهاتف على الطرف الآخر لكن فقط وصلتها همسة بنبرته العميقة التي تزلزل ثباتها:

- بحبك.

وارتجفت فعليًا، تمسكت بجانب الفراش ودمعة تتسلل من بين الجفون، لم تستطع الرد فأعادها، مرة واثنتان وثلاث حتى سمع نشيجها الخفيف فناداها..

تحركت باندفاع كأنها ستذهب إليه حيث هو، فتحت باب الغرفة تأمل في وجوده واصطدمت بصدره، رفعت عينيها إليه ويدها التي تحمل الهاتف تسقط إلى جوارها.. وليتها ما فعلت، فبين جفنيه كان الغرق عقد احتكار وقعته دون أدنى إرادة أو أمل في نجاة، وتلتها الهمسة والإبهام يمسح الدمعة التي لامست الوجنة:

- بحبك.

وتقدم خطوة فتراجعت بينما يردف بلهجة حانية وهزة كتف يائسة كأنما لا مفر من الاستسلام أمام طوفان عشق إنهار في مواجهته سد الخوف فأصبح ألم كتمانه أكبر من ألم فقده:

- بحبك بكل العقد اللي جوايا..

ونظر إلى عمق روحها يغوص فيها لا يبغي خلاص:

- يا ترى ممكن تقبلي حب راجل معقد بالشكل ده؟!

وتقدم فعادت تتراجع وهي أسيرة سجن نظرة غرام نقية شفافة في مقلتيه:

- التصريح بالحب محتاج شجاعة.. مش الكل بيمتلكها زيك..

أغلق الباب من خلفه بهمس:

- أول مرة.. أول كلمة.. أول نظرة..

وضمها إليه يتمم همساته في أذنها:

- أول نطق.. بحبك.

وعاد يلتقي بعينيها في أمل متلهف:

- أنا مش حلم لست زيك هي بالنسبة لي الكمال..

وشملها بين جفنيه بقضبان لا فكاك من سجنها:

- هتقبلي وجود راجل زيي في حياتك بحب هو لسه بيفك رموزه ومش عارف شفرته؟!

وكانت ذائبة بالفعل، ضائعة في صوته، نظراته، لمسته الدافئة وكلماته التي علت كالطنين في أذنيها حتى أفاقت على سؤال غبي يشبه جبنه تمامًا، فجاوبت بحب صريح وابتسامة عاشقة:

- أنت في حياتي فعلًا.

ورفعت كفها تتلمس بها وجنته برقة، تتأمله كأنها تراه لأول مرة:

- بحبك.

وقرر قلبه التمرد فأصبحت نبضاته كأنها في سباق ماراثون أيها تسبق الأخرى أولًا تهتف باسمها، مال يضمها إليها ثانية بأمنية وسعادة تتخلل

روحه لأول مرة بعمره كله، يعيد همسها مرات ومرات كأنما حرمانه أصبح شغفًا لا يمكن مجابهته أو الصمود في حرب ضده.

******

لأول مرة منذ زواجها تخبرها والدتها عن دعوة عشاء، لها ولزوجها.. ما ضايقها غياب شقيقها بل وزوجته عن المكان، فهو مسافر وهي ذهبت لتقيم مع والدتها لبعض الوقت حتى عودته..

لكن لا بأس، ما يهم أنها ستذهب إليه في عمله، وسيتوجهان من هناك لمنزل والديها، أبلغها أنه لن يكمل ما بيده مبكرًا فألحت عليه كطفلة فضولية تريد الجلوس معه حتى ينتهي ووافق..

وها هي تقف أمام باب مكتبه في انتظار خروج العميل الموجود معه بالداخل والذي ما إن انفتح الباب ورأته...

عفوًا!!..

رأتها حتى فغرت فاهها في شبه صدمة بعدها عقدت جبينها حتى شابهته كثيرًا وهي تطالع تلك الفاتنة التي تحدثه بأريحية واهتمام لم يرق لها، بل لم تعجبها كذلك نظرتها لزوجها وهو يبتسم بود جعلها ترغب في تحطيم أسنانه، قررت التدخل وإيقاف تلك اللزجة التي تكاد تلتهمه بعينيها وهو الأحمق لا ينتبه ويضاحكها..

منذ متى يضحك بهذا الشكل؟!..

سبته كثيرًا بأعماقها واقتربت بخطوات واسعة تناديه:

- زياد.

استدار إليها وعلى الفور تغيرت نظرته، تبخر غضبها اللامبرر وتحول لخجل وهي ترى انعكاس صورتها في عينيه والبسمة الحنون التي ارتسمت على شفتيه وهو يرحب بها:

- سارة.. تعالي.

وقام بتعارف سريع:

- سارة مراتي، الباشمهندسة ريهام.. ماسكة الموقع بتاع آخر مشروع صممته.

وقبل أن ترحب وجدت تلك الملونة تهتف بدهشة بدت مصطنعة للغاية فأغاظتها أكثر:

- معقول يا باشمهندس!!.. أنت متجوز؟!.. أنا قلت الدبلة دي زي ما الشباب بيعملوا اليومين دول.

زوت "سارة" ما بين حاجبيها بتهكم وهو يوضح باقتضاب ويمد يده دون تردد يحيط بها كتفيها:

- لا متجوز.

ولم تتردد هي الأخرى بخطوة اقتراب تلقائية تبعًا لجذبته، رغم احمرار وجنتيها وتلك النظرة التي رمقها بها كأنه فخور بها، أو سعيد بقربها.. لا تعلم!!.. لكن الأخرى رحبت بتكلف:

- تشرفنا يا مدام.. بس أنتوا الاتنين صغيرين قوي.. أكيد حب من أيام الدراسة.

ودون تأخير جاوبها بثقة:

- أيوة.

ومنحها تطلع دافئ أثار غيرة الواقفة بينما هي تتيه في سواد مقلتيه لا تصدق ما قاله:

- طيب ربنا يسعدكم.. عن إذنكم، وزي ما اتفقنا على التخطيط.

عاد إليها بعينيه وتحدث بجدية:

- تمام، ما تقلقيش هيكون عندك بكرة بإذن الله.

رحلت الأخرى فسحب ذراعه وتحرك نحو مكتبه، شعرت ببرودة مفاجئة بينما تتبعه، أدار ظهره متجها نحو لوحه الهندسي مشيرًا إليها وهو يجلس فوق المقعد العالي المواجه له:

- معلش يا سارة، اقعدي شوية، حاجة بسيطة هاخلصها ونمشي.

زمت شفتيها شاعرة بالغضب، تمتمت من بين أسنانها تكاد تسخر من جديته المفاجئة:

- ولا يهمك.. براحتك.

وجلست غائبة في تفاصيله، تتأمله بنظرة حالمة بدت غريبة على ملامحها وهي تراقب كتفيه اللذَين يتحركان بتناغم مع حركة يديه وساعديه أثناء الرسم فوق اللوح، لحظات السكون القصيرة التي يتأمل فيها ما خطه ثم عودته للعمل..

راودتها أمنية رومانسية تشبه "سارة" القديمة التي تاهت منها.. أمنية أن تقترب، تتملك، تلمس وتحيطه بذراعيها تريح رأسها على كتفه، تشاغله وتمنعه عن العمل بدلال أنثى لم تعد تعرفها، بل تخشى وجودها..

وجودها نفسه أصبح محل رفض، فهي تجذب إليها الألم والقهر والخزي، بدعوى انتهاك حدث لأنها فقط تلك الأنثى..

هل تخنقها؟!.. تحبسها في قمقم الأوجاع التي تراكمت على روحها فغبرت الصورة أمام عينيها حتى فقدت الأمل؟!.. أم تترك لها العنان!!.. لرجلها.. يدللها وتدلله..

رجلها!!..

هل أصبحت تطلق عليه هذا اللقب الآن؟!.. أليس هو الأفضل في هذا العالم؟!.. لمَ لا إذًا؟!..

مالت برأسها للجانب وشفتيها تخطان بسمة رقيقة، تنسى نفسها وتدعو، تناشد الروح والغد باختلاف، بقرب، بقلب يحتويها وتحتويه، بدفء تحتاجه.. بل تئن حاجة إليه..

انتهى من عمله فالتفت إليها يمط ذراعيه بتعب، وقعت عيناه على عينيها، لم تبدُ أنها تراه أو تشعر بلقاء المقل!!.. تطلع إليها لثوان محاولًا استنباط أفكارها ومن تلك النظرة التي تعتلي وجهها.. ابتسم وقلبه يدق، يدق بغباء منقطع النظير كأنه يخبره أنها تفكر به، شاردة فيه، كما أصبح يضيع فيها.

لوح بكفه في مقابلتها بمشاغبة:

- إيه!!.. رحتِ فين؟!

انتبهت بانتفاضة طفيفة، ابتسمت بخجل تهرب بنظراتها:

- أبدًا هنا.. خلصت؟!

نهض يشير إليها:

- أيوة.. يلا بينا.

عندما وصلا لمنزل الأم استقبلتهما بترحيب زائد عن الحد بطريقة أصابتها بالدهشة، سألتها عن أخيها وزوجته وتهربت بكلمات مقتضبة وجواب

يشابه جواب "آدم" عندما أصرت على الفهم.. ذهبت معها للداخل وظل هو بالحديقة يدور حول نفسه في حيرة..

تلك النظرة التي كانت على وجهها قبل قليل، التقارب الحاصل بينهما، اللمسات الخافتة التي لا تنتفض لها بل بالعكس تستكين في ظلها، ويفعلها هو عامدًا لتعتاد قربه، استيقاظه صباح اليوم ليجدها منكمشة بجواره تكاد تلتصق به كطفل صغير يبحث عن الدفء والاحتواء، حينها ظل يراقب تقاطيعها الرقيقة لما يقرب من نصف ساعة، يستعيد ذكرى البسمة التي وجدها على شفتيها في اليوم التالي لقبلته، لمسة أناملها فوقهما كأنما تحتفظ بالأثر.. وانشقت عيناه عن حب يقاتل ليظهر للنور، ليتنفس أول أنفاس الحياة ويلمس دفء الشمس فتنال الروح منها بعث..

الآن يقر لنفسه وعقله الحائر قبلها وقبل غيرها.. أنها برقتها ونعومتها، براءة روحها التي لم يمسها دنس.. عيناها اللتان تناشدانه الأمان والسكينة، قد تمكنت من العرش وارتدت التاج، توجت نفسها بنفسها مليكة قلبه الذي لم تطأ عتباته أخرى بخلافها.

"زياد"

والتفت وتعثرت وسقطت فوق صدره يساندها بذراعيه، استقامت ببطء تخفي عينيها دون ابتعاد:

- سلامتك.

رفعت إليه وجهها تدور بحدقتيها فوق ملامحه يمينًا ويسارًا، تتمتم بخجل:

- الله يسلمك.. متشكرة.

وتبًا لها.. لم تبتعد!!.. لمَ لا تبتعد؟!

ظل ممسكًا بمرفقيها وبقيت هي واقفة في مواجهة عينيه، يتيه فتتيه معه، وتضيع فيه، وتتوسله بنظرة أن ينتشلها من غرق في مخاوف تحارب للهروب منها ويعِد دون حرف أنه سيكون هنا.. سيظل هنا.. معها ولها وبها، ملكًا خالصًا حتى تنتهي حياته.

هزت رأسها بهدوء تحاول التخلص من أسر نظرته التي لم تفهم مدلولها:

- العشا جاهز.

تركها دون رغبة وأومأ موافقًا، لم يستطع النطق كأنما الحروف كلها انحبست وتحشرج بها لسانه غير قادر على التعبير، تبعها في صمت ونال لفتة خجول جعلت قلبه يلهث وراءها دون نجاة.

******

يعلم أن الأمور لم تنته بعد، الدنيا ليست وردية.. والدم يثير الذئاب أكثر لا يثبط من عزيمتها..

ولأنه فهد ويدرك جيدًا طباع الضواري؛ فالحكاية بالنسبة إليه لم يغلق بابها حتى هذه اللحظة، هذا الصمت، الهدوء المريب؛ ينبئان عن عاصفة

هوجاء يقسم أنها لن تكون ضحيتها هذه المرة.. أنه سيخلصها من سواد ماضيها وسيحررها من قيده ويمنحها الفرصة لتحيا كما تحلم.

استعاد ملامحها عندما قابلها بعد استعادة وعيها، نظرتها المشتتة ورغم ذلك كانت صامدة، كأنها تعلم تمامًا ما تريد الآن، كأن القرار أصبح واقعًا وما بقي فقط هو التنفيذ.. كانت قوية وازداد إعجابه بها..

وعدها بانتقام فابتسمت بصمت، حلَّته من وعد لفظه للتو وطالبته بالنسيان، لكنها تعيش في خيال محض لو ظنت أنه قد ينسى!!.. لن يتراجع حتى يمنحها أمانًا تستحقه.. وتحتاجه.

التقط سماعة هاتفه وكانت لهجته حازمة آمرة:

- أيوة يا نادر.. إيه الأخبار عندك؟!

وسكن لثوان يستمع لمحدثه، أردف بعدها:

- ماشي.. كده تمام قوي.. اسمع بقى اللي هاقولك عليه وتنفذه بالحرف.

وانطلق يحبك خطته بدقة، ويرسم خريطة الإيقاع بالشيطان الذي يظن نفسه ملك وتملك فبغى وتجبر..

لا يفل الحديد إلا الحديد.. والشياطين تحرقها النيران..

******

"قربنا ننفذ يا كبير"

برقت عينا الراقد فوق فراشه ثم اعتدل بلهفة:

- بجد يا سالم؟!

جاوره متكئًا على طرف الفراش:

- بجد يا أبو كمال.. الحلوة سابت له البيت من ييجي أسبوع، لا فيلا ولا بوابة والحراسة يا دوب تحت العمارة.. بس أنا هاتصرف..

ومال نحوه بنظرة خبيثة:

- بكرة تسمع سمع خير وقلبك يرتاح.

وازداد البريق في الأعين بينما توقع أنواع أخرى من الشياطين عقد الدم..

(٣٤)

فوضى مشاعر

فوضوية التأثير.. وكفى

الاسم أنثى..

والنبض أنثى..

والشغف أنثى..

والقلب طفلة.. وكفى

هل تدركين كيف عبثتِ بقاموس اختياراتي!!

كيف تمكنتِ مني حد الظمأ.. والارتواء!!

التشبع.. والخواء!

العلة.. والشفاء!

فوضوية التأثير.. أهربي

أنا رجل في العشق متقلب الأهواء..

أنا رجل في العشق جحيم الأرض، وجنة السماء..

أنا رجل حائر فكفى بمقلتيكِ التردد.. أنت لي ومن قبل اللقاء..

إهداء/ مروة جمال

الحياة لا تمنح أحدهم كل شيء..

البعض ينال السلطة، آخرون المال.. وقد يطال الباقون من الزينة جاهًا أو أولادًا..

وكما المنع ابتلاء يستدعي الصبر، فالنعم اختباريستوجب الشكر..

هو حصل على الكثير لا ينكر: عائلة تحبه وإن قل عدد أفرادها منحصرًا في واحدة هي الأقرب، عملًا هو أكثر ما يناسبه ويتألق فيه، وحياة هادئة حتى لو خلت من أنثى تحمل على عاتقها أمومة أطفاله وسكن روحه..

قد يتمنى أو يحلم، يطمح أو يرجو ما يفتقده غدًا أو بعد غد.. لكنه في حالة من الرضى للوقت الحالي..

رضى تبعثر القليل منه متناثرًا في الهواء من حوله عندما استقرت عيناه عليها، وبدقة ملاحظة لدرجة غبطة أو حتى حسد، وربما ببديهية مظهر وثوب خاص تيقن من حملها.. شفتيه انفرجتا عن ابتسامة رجل فاته شيء، أو يظن نفسه الأَوْلى.. دنا منها بتمهل يناديها:

- أستاذتنا.

النبرة المألوفة مع اللهجة شبه المرحة منحته التفاتة وبسمة هادئة مرحبة تختلف عن لقاءات سابقة لم تزد فيها عن ترحيب مقتضب وهروب من مجال وجوده:

- سيادة المقدم.. إزي حضرتك؟

ونالت تأملًا قهر نظراته رغمًا عنه، هزة رأس وجواب يشبه ملل وحدته:

- عايش الحمد لله.. وأنتِ؟

تحركت في وقفتها بخجل تحت عينيه المتفحصتين:

- الحمد لله.

ومن خلفه يتكرر المشهد بنداء عميق يحمل حروف اسمها:

- لميا!!

قد تتشابه المواقف.. لكن تختلف النظرة وتتباين ردود الفعل..

في السابق امتلأت عيناها برهبة وقلق من سوء فهم ينخر في ثنايا عقله، والآن هي تستقبله ببسمة ولدت بين الجفون قبل أن ترتسم فوق الشفاه..

كان هو جامدًا مجروح الكرامة.. والآن يقبل عليها بنظرة تحتويها، وغيرته سافرة على وجهه.. فهي أنثاه، امرأته.. وحبيبته.. زوجته وأم طفله.

والفارق بيِّن..

فبينما هي تهمس اسمه بنبرة ناعمة.. ألقى هو تحية وازت اقترابًا وضمةً شابهت سابقتها وإن تمايز المدلول، هذه ملكية عاشق.. والأخرى احتكار رجل شعر بامتهان رجولته..

وشتان بين الاثنين والاثنين..

الآخر تملكها قبله ولم يكن قلب الحبيب عاشقًا.. وذاك سعى لتملك لم ينله وأضحت هي من تمتلك القلب، وهنا خلاف يختفي من أفق الأعين ليستقر في حيز القلوب.

مد يده بتحية نصف باهتة وبسمة افتعلها وهي تدرك:

- سيادة المقدم.

مصافحة بين رجلين تنافسا يومًا للحصول عليها، واختارت هي بضمان طفل ربما!!.. حتى أصبحت كل الضمانات ملك يمينه، جاورها بهدوء يمنحها نظرة مشتاقة:

- أخبار الشغل إيه يا ترى؟!.. الأمن مستتب!!

ومزحة لزجة كرهتها رغم نبضة خافق تفلتت تعلن أنه الأحمق.. هذه المرة يغار بالفعل!!.. لكن ضحكة خافتة لامست أذنيها:

- مستتب.. ابقي خلينا نشوفك يا أستاذة.

وإيذان برحيل لم تتوقعه حتى لو أراحها، فكفها المستكين في قبضة زوجها معتَصَرة بتملك مؤلم، رمقته بنظرة لائمة ليناوشها ببسمة عابثة وغمزة جعلتها تنظر حولها بارتباك قبل أن يزيد من جرعته باقتراب خافت النبرة:

- باغير على فكرة.

وبداخلها كانت تضحك بسعادة والقلب يهمس:

"لا سمح الله"

لكن اللسان اختلف جوابه:

- ما فيش حاجة تستدعي غيرة.. بس برده ما فيش مانع تغير!!

قهقه بخفوت وجذبها خلفه يغادر المكان، لم يلاحظ المراقب من بعيد، أو بسمته التي باتت تتمنى، أو حتى تغبط على نعمة يشتاقها بشدة.

******

شرود وقيادة ليسا من المفترض أن يجتمعا، وعندما يوازيهما شبه حزن: تضيع السيطرة..

لكن ليس هو، الحازم على الدوام، المدقق في كل شيء، العالم بالتفاصيل حتى غير الظاهر للعين منها، هو الوحيد بدنيا لم يحلم فيها بأكثر من أسرة ومودة تجتمع برحمة تظلل عشًا صغيرًا به طفل أو اثنين، هو الذي يبيت فوق وسادة باردة وفراش ضيق لأن المتسع يشعره بوحدته أكثر..

والحادث لم يكن بسببه!!..

الصوت العالي والارتطام العنيف، تحطم مقدمة سيارة كانت تسبقه باصطدام قوي في أخرى متوقفة إلى جانب الطريق!!.. عقد حاجبيه بقلق وتجمهر صغير يبدأ في التجمع حول السيارتين، توقف بسرعة محاولًا الوصول للمكان على قدميه، واختراق حاد لصفوف المشاهدين..

تفحص الواقعة بسرعة قبل أن يندفع نحو السيارة باهتمام، رأى يدين أنثويتين في مقعد السائق تدفعان بتأفف شبه مذعور "الكيس الهوائي" من أمام وجه صاحبتهما وبجوارها أخرى بنفس السعي الحثيث، انحنى فوق النافذة بهتاف قلق:

- أنتوا كويسين؟!.. حصلكم حاجة؟!

أخيرًا ظهرت من خلف الكيس فتاة عسلية بخصلات طويلة نظرت إليه ويجزم أنها مرتعبة:

- أيوة.. بس العربية..

والتفتت للمجاورة بتوجس قلب مرتجف:

- نيرة!!.. أنتِ كويسة؟

لكن كتلة النار فوق المقعد البعيد عن عينيه تكاد تصرخ بانفعال:

- أنا كويسة، والغبي ده اللي سايب عربيته في نص الشارع، في حد يركن بالطريقة دي؟!..

وبعدما كاد يطلب لهما النجدة أو الإسعاف ربما؛ ارتد للخلف بحدة ونبرته تحولت للاستنكار:

- إيه؟!.. يعني أنتوا دخلتوا في عربية راكنة وكمان بتقولي صاحبها هو الغلطان؟!

أخيرا تخلصت من العائق أمام ناظريها لتنظر إلى ذلك الفضولي بنفور نزق:

- وأنت بتتدخل ليه؟!.. نص عربيته برا الصف.

وفتحت الباب تغادر السيارة تتبعها الثانية تحاول تهدئتها وهو يتحدث من بين أسنانه:

- العربية راكنة عادي، صف أول موازي للرصيف.. أقل حاجة تعملوها إنكم تعتذروا وتشوفوا التلفيات.

اقتربت تواجهه بانفعال وخصلات حمراء تشبه لهيب الشمس تتطاير بفتنة حول وجهها:

- أعتذر؟!..

من خلفها أتت ولولة ورجل قصير بطابع مصري أصيل يتمثل في "كرش" بارز فوق جسد ممتلئ يترجرج مع حركته المندفعة ليتأمل السيارة المصدومة بحسرة:

- عربيتي.. أنتوا عملتوا فيها إيه؟!.. أنا هاوديكم...

وبالطبع انحباس الأحرف منطقي أمام كتلة الأنوثة المتفجرة ذات الثوب القصير قبل ركبتيها وهي تتأمله شذرًا، لكن المهتم تدخل بحسم:

- الآنسة هتعوض حضرتك ما تقلقش..

قاطعته بحدة:

- مين قال هاعوضه؟!..

والفتاة المصاحبة لها تسعى لهدنة تهدئة لكنها لا تستسلم إلا لغيظ يأكلها، قبل أن يجيبها بزعيق كان على وشك الحدوث أتى جندي مرور بهرولة مهتمة:

- خير؟!.. إيه اللي حصل هنا؟!

والجواب بالطبع من صاحب الأعصاب المشتعلة:

- الآنسة واللي معاها دخلوا في عربية راكنة.. حاجة بسيطة ما فيش داعي، هي هتحل المشكلة.

لكنها لم تكن لتخضع لأوامر يلقيها هذا الرجل دون رادع أو حساب:

- لا طبعًا، العربية دي كانت راكنة غلط ولما كنا بنحاول نعديها دخلنا فيها.

ونظرت إليه بشرار يلمع في زبرجد عينيها:

- البيه بيتدخل من غير داعي.. حضرتك تقدر تمشي وإحنا هنتفاهم.

وبـ "نحن".. كانت تقصد البدين المفتون بها تمامًا حد فم مفغور ببلاهة وعينين تمران فوق منحنياتها البارزة بلا لجام مما أجج غضبه أكثر، توجه إليه الجندي باستفسار:

- أنت كنت شاهد؟!

لم تعجبه اللهجة أو صيغة الخطاب، شد قامته بصرامة يلقي للرجل بنظرة قاسية:

- المقدم حازم القاضي، مباحث الدقي.

وفي لحظة تغيرت النبرة والفكرة والمعاملة وأصبح هو بكل بساطة "الباشا".. أردف بخشونة:

- الأستاذة غلطت.. وطبيعي تعتذر، بس بدل ما تعمل كده، بتقاوح وتجيب الغلط على عربية واقفة.

ومع موجة الاحترام المباغتة التي انتشرت في المكان نتيجة لفظة "المقدم" التي نطقها بحزم يشبه اسمه؛ غضبها هي كان قد وصل لحده الأقصى:

- أنت فاكر نفسك مين؟!.. سيادة مقدم!!.. وإيه يعني؟!.. ده اسمه استغلال سلطات.

وتدخل البدين القصير بسماجة:

- معلش يا باشا، امسحها فيَّ.. الهانم أكيد ما تقصدش.

لم يأبه للمتعرق الذي يلتهم تلك الصهباء النارية بنظراته الفجة، بل اقترب منها خطوة واحدة، وتعليقه كان حادًا آمرًا بلهجة قاطعة:

- هنروح القسم.

حينها تيبست الواقفة بجوارها.. عيناها معلقتان بالسيارة المحطمة، ولسان حالها يهتف بحسرة:

"حسن هيقتلني، منك لله يا نيرة"

******

"نيرة!!"

هتاف قلق من أخرى أنيقة فاتنة تدلف لمكان لا يناسب مثلها أو حتى السابقات، ومع اعتدالها في جلستها والذي تبعه نهوض لاستقبال القادمة شق سمعها صوته بنبرة مبتهجة بدت غريبة على أذنيها:

- دنيا!!

التفتت إليه قبل أن تتسع بسمتها وتغير اتجاه خطواتها:

- حازم!!.. مش معقول!!.. فينك من زمان وأخبارك إيه؟

ولأول مرة تنفرج شفتاه بغير صوت حاد أو لهجة زاجرة وهو يبتسم في المقابل:

- أهو عايش.. أنت اللي عاملة إيه؟!.. طمنينا عليك.

أجابت بدفئها المعتاد:

- الحمد لله تمام.. ابقى خلينا نشوفك.. إنما أنت بتعمل إيه هنا؟!.. أنا كنت فاكراك في الدقي!!

أومأ بموافقة:

- فعلًا.. بس جاي شاهد على حادثة.

ومنح الحمراء الحانقة نظرة باردة جعلت "دنيا" تستدير إليها بهتاف مندهش:

- حادثة نيرة؟!

ثم تحركت نحوها باهتمام قلق:

- أنتوا كويسين؟!.. حصل إيه؟!

جذبتها من يدها تقربها بتساؤل فضولي مغتاظ:

- أنت تعرفي القفل ده منين؟!

ضحكت "دنيا" برقة قبل أن تلقي عليه نظرة وقد عاد لمقعده ينظر خارج النافذة:

- ده ابن أخت جوزي الله يرحمه.

رمقته بحنق في ازدياد مستمر، منذ وطأ قسم الشرطة بقدميه وهو يعامل كأنه ملك متوج ورغم النظرات التي تلتهمها التهامًا إلا أنه كان محط الاهتمام..

بالفعل.. السلطة لها بريقها الخاص، وهو كغيره من فصيلة المتسلطين يستغلها لأقصى درجة..

تركت صديقتها تتجه نحوه في حديث ودي خافت وضحكات قصيرة متتابعة أثارت ضيقها أكثر فعادت تجلس باندفاع، تضع ساقًا فوق أخرى غير آبهة للبدين الحاضر والذي التقطت عينا "حازم" تطلعه المقيت لساقيها المكشوفتين، تهز إحداهما بملل وكعب حذائها الطويل يكاد يثقب عين

المراقب السمج، زم شفتيه وعاد بنظره لقريبته عندما دلف رجل يبدو على وجهه الخوف إلى الغرفة، اتجه نحو الفتاة العسلية بخطوات سريعة:

- صبا!!.. أنت كويسة؟!

رفعت إليه عينين دامعتين قبل أن يقترب منها، يربت على كتفها بحنان ويغمرها بنظرة شاملة متفحصة تنضح بالقلق:

- حسن أنا.. العربية..

ربت على وجنتها برقة:

- هششششش.. معلش حصل خير.

كانت ممتنة وأعربت عن امتنانها بتطلع صامت مطمئن في كنف عينيه، لكنه فاجأها بزمة شفاه ونظرة غامضة:

- بس حسابنا بعدين لما نروح.

مطت شفتيها بحنق قبل أن يتجه هو ناحية "حازم" المتابع بصمت:

- مساء الخير.. حسن العدوي، ممكن أفهم إيه اللي حصل؟!

قص عليه الموقف باختصار مما جعله يرمق "نيرة" بسخط، أدارت وجهها بعيدًا عنه دون اكتراث مع عودة الضابط المسئول إلى الغرفة، ترحيب وتعارف سريع بينما "دنيا" تنهي الموقف بابتسامة ودود:

- خلاص يا حسن.. ما تقلقش، أنا اتفاهمت مع حازم.

شكرها بعينيه وودع الرجل مصطحبًا زوجته قبل أن يخاطب هو البدين بلهجة شبه آمرة:

- الآنسة هتصلح العربية على حسابها يا أستاذ بهاء، ما تقلقش.

نهضت بحدة تصحح له بتعالي:

- مدام.

عقد حاجبيه معلنًا لامبالاته.. يودع شريكتها:

- ابقي خلينا نشوفك يا مرات خالي.

وغمزها قبل أن يرحل، تتابع خطواته النارية باشتعال لا يهدأ جعلها تدمدم بغيظ:

- هو فاكر نفسه مين؟!

ضحكت "دنيا" قبل أن تلتف لها مؤنبة:

- هو عارف إنه عنده حق.. بطلي عناد بقى.. يلا بينا.

تحركتا مغادرتين وبداخلها نار تضطرم، وربما لن تنطفئ حتى تقتص من ذلك الأرعن الذي جرها لقسم الشرطة كأي مجرم عتيد.

******

"إحنا مش هينفع نكمل مع بعض"

جملة ابتدأت بها حديثًا، وأنهته بها كذلك..

ذكرى أسبوع طويل تمر بمخيلتها، سبعة أيام ممزوجة بآلام لا حصر لها، فراق، قلب مكسور، عشق مات ولم يمنحه القدر فرصة ميلاد.. أو لنكن عادلين، هو ماضٍ مدنس ومجتمع ظالم لا ينسى..

أغمضت عينيها واسترخت تريح رأسها فوق وسادة تشبعت بدموعها حتى لم يعد هناك منها مزيد، يومها لم تستطع الصبر أكثر، بعد وعد رفضته بحماية لم تطلبها ربما لأنها سلمت وبات الأمل حلمًا بعيدَ المنال لا يمكن أن يخترق حيز الواقع مهما قدمنا أو أعلنا الندم، مهما عانينا أو توجعنا، ومهما قلنا أننا تغيرنا.

وبينما يجلس أمامها كطالب مذنب يستوجب العقاب، ابتسمت بيأس خانع وأخبرته:

- أنا سمعت كلامك إمبارح مع فهد.

عاجلها يريد منها الصمت، فجرحه مازال مفتوحًا، يحتاج فقط بعض الوقت ليندمل حتى لو ترك ندبة:

- دينا ده غصب عني، محتاج وقت بس...

قاطعته بإشارة:

- أنا كمان محتاجة وقت، وقت لدينا.. عاوزة أرجع دينا من غير ما تكون محتاجة لحد، من غير ما يقف معاها حد، دينا اللي بتضيع مني أنا وخايفة ما ألحقهاش.

ابتهل لها بقلب مرتجف:

- وأنا معاكِ، نرجعها سوا.

والرجفة كانت عند شفتيها تصاحب دمعة خائنة لم يتحمل حبسها قلب موجوع:

- أنت شكيت فيَّ.

أغمض عينيه بألم لا يستطيع الإنكار، هي على حق، هو فقط يحتاج لبعض الصبر حتى يستعيد ثقته.. وربما ليس بها وحدها، بل بنفسه.. بقلبه وعقله وحكمهما على الأمور:

- أنت عندك حق، وفي كل مرة هيكون خوفك وقلقلك وشكك مبرر.

نظر إليها بأمل طعنته في عمق قلبه بتمتمة:

- بس أنا مش هاقدر أتحمل.

وبحزم واجهت عيناه، بجمود حد روح مذبوحة تعاني وتكتم المعاناة:

- الشك هيقتلك ويقتلني ويقتل الحب، هيقتل كل حاجة حلوة بينا.

وعانقت جفنيها تخفي ملامحه الحزينة عن بصرها، تدير وجهها لجهة لا يشغلها وجوده:

- يبقى مش هينفع نكمل مع بعض.

والنهاية كما البداية واقعية حد الخضوع لأنها على حق، هو أخطأ.. ورغم أن خطأه مبني على خطيئتها هي فإن الحياة ستستحيل بينهما، سيذبل العشق في قلبه ويميتها في كل لحظة يتابعها فيها بنظرة شك.

وافقها، ضغط شفتيه بين أسنانه يمنع آهة ببسالة قبل أن ينهض، يحيطها بضمة تأمل دافئ:

- محتاج وقت بس.. ومش هاتأخر..

ومد يده يربت على كفها برقته المعهودة:

- ما تقلقيش من طارق خلاص، كل حاجة انتهت.

لم تسأل!!.. فليت الأمر بالسهولة التي يتخيلها صاحب المبادئ والصراط المستقيم، هو لا يفقه شيئًا عن قذارات وحشها المتملك ولا عن عالمه المتوج هو ملكه، وهي لن تخبره عنها لأنها تبغي الرحيل.

وها قد مر أسبوع على غيابه، علمت أنه عاد لموطنه الآخر، لا تأكيد لديها إن كانت عودة مؤقتة أو دائمة، لكنها فقدت حبها الوحيد.. وهي السبب، لذا فالثمن لن يدفعه غيرها.

أخرجتها من شرودها دقاته الهادئة على باب غرفتها، أصبحت تعلمها ببساطة فتتلبس قناع القوة وتواجه صلابته الداعمة بتحدٍ رافض:

- مساء الخير!!

وقدم لها زهورًا بيضاء نقية نظرت إليها بشبه حسرة:

- فهد بيه.. أنا هاخرج من المستشفى إمتى؟!

لم ترد تحيته بل بادرته بسؤال لن يمنحها جوابه مهما حاولت:

- لما أطمن عليكِ.

بتذمر ردت:

- أنا بقيت كويسة، عاوزة أخرج وعاوزة أطمن على ماما.

جلس على مقعد مقابل بنظرة غامضة:

- لسه مش كويسة قوي، ناقص حاجة بس هنهتم بيها وتقدري تخرجي براحتك.. مامتك الحمد لله باطمن عليها يوميًا.

تطلعت إليه بلا فهم، لم يوضح ولم تستفهم..

هي تقتصر معه الحديث قدر ما أمكنها، وهو يظللها بحماية لا تعلم لها سببًا، ورغم نبذة أمان تستشعرها في وجوده فقد أصبحت هذه الغرفة

كسجن يأسرها داخله بإدعاء مرض أو رغبة اطمئنان لا يملك الحق بها، لكنها فقط تمنحها راحة وربما تسويفًا لغد تجهله وتخشاه.

******

حلم السعادة لا يمتلكه البعض دون الآخرون.. هو ملكية عامة تسيطر على عالم الأمنيات وتمنحه بهجة ولو كانت مؤقتة كمسكن لأوجاع نفس تائقة للأمان..

وهي تتمنى ذلك الحلم، تناشده الوجود في حياة تعيشها لحظة بلحظة، وتتوسله وقوعًا لا خوف بعده، تنظر لماضٍ وتعيش حاضرًا في حين أن المستقبل تحاول رسمه فتستعصي الألوان وتبهت الصورة..

لا تنكر أنه يسبب لقلبها رعشة فرح، عيناه الدافئتان، حنانه الجواد في عطائه، رقته التي يختصها بها وحتى لحظات غضبه باتت تشعل فيها حرارة جسد حي يتنفس ويعيش، عندما يبتسم.. يشاكس، يداعب، يلوم، يعاتب وعندما تركن إليه.. فهو السكن والأمن وطمأنينة الروح.

تبسمت تنهض من فراشها بكسل، طالعت الوقت وعلمت أنه غادر دون إقلاقها، اتجهت لجانبه تتلمس وسادته بيدها، التقطتها تتشممها ببسمة قبل أن ترخي كتفيها وتتحرك نحو الحمام تراودها فكرة شقية.. فالتنفيذ متاح مادام هو غير موجود.. وعودته ستكون متأخرة كما يحدث مؤخرًا.

خرجت بخصلاتها المبللة والتي استطالت قليلًا حتى كادت تلامس كتفيها، بحثت في صوان ملابسها وجذبت قميصه الأبيض الذي أصبح ورديًا والجاني هي.. عادت تبتسم بينما تحيط جسدها به فوق سروال قصير من الجينز يصل لأعلى ساقيها بالكاد..

وقفت أمام المرآة تتأمل انعكاسها ورغم انكماشه فقد بدا واسعًا ضخمًا تخطى سروالها بقليل وأكمامه تتدلى من فوق كفيها.. شمرتها بسرعة وتطلعت لنفسها قليلًا قبل أن تخرج من الغرفة..

شطيرة النوتيلا اليومية، كوب الشاي الممزوج بالحليب، وقطعة من كيك الشيكولاتة.. جلست بضحكة خافتة تستعيد ما قاله قبل يومين:

"بيتهيألي لو عملنا لك فحص هتتطلع خلاياكِ محشية شيكولاتة"

يومها تظاهرت بغيظ وهربت من نظرة أصبحت تعتلي عينيه في الآونة الأخيرة حينما يظن أنها لا تنتبه إليه، فتحت حاسوبها الذي أهداها إياه قبل أسبوع متذمرًا:

"محتاج اللاب توب بتاعي.. ما ينفعش كده"

بدأت العمل على تصميم طلبه منها قريبه وبعد عدة خطوط عادت لشرودها فيه..

حينما زارت طبيبتها آخر مرة كانت تحدثها عن زوجها.. عن اهتمامه بها ورغبتها في أن تكون له كما يتمنى، وعندما سألتها كيف تشعر نحوه نالها تردد!!.. بل ارتباك وتدخل القلب بنبضة حائرة تعلنه مالكها، يومها ابتسمت بخجل وأجابت شاردة في ملامحه الرجولية التي تتأملها كثيرًا حال نومه:

- مش عارفة!!

وابتسمت الطبيبة، حثتها برفق لتقترب، تسمح له أيضًا بالقرب.. لكنها مرتبكة.. تتلبسها مخاوف لا حصر لها، أو ربما نفور من ذاتها المدنسة..

هو يستحق من هي أفضل، المرأة الكاملة الطاهرة التي لم يسبقه إليها أحد.. دفع بها داخل حياته وزج نفسه إلى معمعمة ضعفها وانكسارها، اختارها، أصبح بطلها، رجلها.. لكن ضعف ثقة بنفس، احتقار لها ربما وصل حد الكره والتحقير يجعلها تتباعد كلما اقترب، تداعب القلب أمنية وتأتي هي فتخنقها في المهد وتضع في طريق سعادتها كل العراقيل الممكنة.

وتعود فتقر باعتراف لا مناص عنه.. روحها تشتاق قربه، تتمنى احتواءه.. تحتاج له، حتى أحلامها أصبحت تدفعها للقرب منه حال نومها فتستيقظ لتكتشف أنها تنكمش إلى جواره ملتصقة به كقطيطة تفتقد الدفء والأمان.

أفاقت من شرودها على تصميمها وقد خرب تمامًا، أما عن الوقت فهو الكارثة الحقيقية، لقد اقترب موعد عودته وهي لاتزال جالسة حيث هي بغرفة المعيشة أمام تلفاز لا تتابع ما يعرضه، بقميصه الذي منعها من ارتدائه.. ولم تحضر له غذائه حتى.

نهضت بعجالة تركض نحو المطبخ، تخرج طعامًا من البراد، تتحرك بسرعة تريد إنجاز ما يمكنها حتى تغير ملابسها قبل عودته، أوشكت على الانتهاء فخرجت بخطوات واسعة نحو غرفتها وتعثرت به!!..

كان يغلق باب المنزل خلفه بهدوء، يلتفت نحوها.. وتحول المشهد بغتة للتصوير البطيء، صدمة.. جمود، نظرة تأملتها بتمهل وازت همسها المتقطع الواجف:

- زياد!!.. أنا.. أنا..

ولم تكمل، ماذا ستقول وهي تعانده حال غيابه!!.. وبمظهرها ذاك!!..

جرت نحو غرفتها، أغلقتها خلفها بحدة واستندت بظهرها للباب، تلهث بارتباك خجول، تحني عينيها نحو ساقيها المكشوفتين وتمد أناملها تجذب القميص لأسفل بحياء.. ثم تهمس لنفسها مؤنبة:

- بعد إيه يا غبية ما هو شافك!!

وتذكرت نظرته، احمرت وجنتاها تتذكر احتواء عينيه الحميم ولمعة صورتها في سواد مقلتيه الذي تغرق فيه، تحركت تغير ملابسها لا تشعر بمن تركته في مكانه خلفها، يتابع أثر رحيلها بعينين ساهمتين وقلبه يعاند بشدة، يصرخ ويشجب ويستنكر ويسأله ما هو فوق طاقة احتماله..

يطالب بها، بقربها، بدفئها والتحام أنفاسه بأنفاسها.. بحياة يتمناها مع حبيبة لا تعلم عن حبه شيئًا، واكتمال ينقصه ليتتم شق روحه المفقود.

مرر أصابعه في شعره قبل أن يمسح وجهه بتنهيدة حارة، توجه نحو غرفة المعيشة ليجد حاسوبها على الطاولة وتصميم مشوه غير منته، عاد يزفر ورمى بنفسه فوق الأريكة العريضة ينتظر عودتها..

خرجت إليه ببنطال واسع وسترة رمادية تشبهه، غمغمت بخجل عن عشاء وعادت تهرب من محيطه ترفض لقاء نظراته، غير ملابسه، تناول عشاءه وترك المكان بصمت متجهًا إلى غرفة النوم..

استغربته.. لا تعلم سبب سكونه!!.. أو حتى عقدة جبينه التي ازدانت بها جبهته بقوة هذه الليلة كأنه غاضب من أمر ما!!

رفعت الأطباق، وذهبت تتبعه، تعود بذاكرتها للحظات قصيرة كانت نظرة عينيه مختلفة، تمنح أنوثتها قبلة حياة وتخبرها أنها عادت تنبض من جديد، نظرة حميمية أشعرتها بجمال ظنت أنها فقدته في خضم مأساة تركت ندوبها على روحها.

وجدته مستلقيًا على ظهره، أحد ذراعيه إلى جواره والآخر يغطي به وجهه، دلفت للفراش بهدوء تتدثر بغطائها حتى العنق كعادتها.. صمت لم تستطع تحمله لفترة طويلة قبل أن تناديه بنبرتها الناعمة، همهم بجواب مقتضب غير واضح جعلها تسأل:

- أنت زعلان؟!

لم يرفع ساعده بعيدًا بل رد بسؤال جاف:

- هازعل من إيه؟!

ارتبكت للحظة قبل أن تتدلل مشاكسة:

- عشان لبست القميص.

على وضعه جاوبها بخشونة:

- لأ..

زمت شفتيها بتذمر:

- طيب ساكت ليه؟!

ويرد بكلمة واحدة يحاول إخراسها:

- هانام.

هزت كتفيها بمشاغبة تريد صحبته:

- طيب أنا مش جاي لي نوم.

رفع ذراعه عن عينيه ومنحها نظرة شبه ساخطة وبالكلية غامضة:

- قومي كملي التصميم اللي كنت بتشتغلي عليه.

وأدارلها ظهره علَّها تصمت وترتدع:

- لأ.. ده باظ مني وقفلت منه كمان.

لم يرد، التزم جانب الصمت يحثها به على مجاراته والخلود للنوم، لكنها عاندت، أصرت وعادت تناديه لتحصل على جواب تلاه زفرة لاهبة:

- نعم.

ترددت ونبرته تزعجها:

- مش جاي لي نوم.. صحيت متأخر.

التفت إليها بحركة حادة أجفلتها للحظة:

- وأنا صاحي بدري ومطحون في الشغل طول النهار.. أعملك إيه؟!.. نامي يا سارة.

نظرت إليه بغضبها اللذيذ فكاد يبتسم، لكنه تماسك وحاول استدعاء النوم.. فضولها وبعض غيرة لمعت في أفق عقلها تستعيد ذكرى تلك المهندسة التي لمحتها معه مرتين وفي كلتيهما لم تعجبها طريقة تطلعها إليه:

- هي المهندسة ريهام دي لسه بتشوفها؟!

فتح عيناه اللتان برقتا بغيظ وازى زعيق:

- مهندسة إيه وزفت إيه!!.. باقولك تعبان وعاوز أنام؛ تقولي لي مهندسة!!.. نااامي يا ساارة.

وضغط أحرف أمره بالنوم، أصابها يأس وارتباك نتيجة حنقه غير المبرر، ولَّته ظهرها هي هذه المرة وانكمشت على نفسها بصمت كان بالأساس طلبه..

نال تأنيبًا حادًا لاذعًا من قلبه وعقله بل كامل جوارحه، سكن للحظات قبل أن يسُبَّها.. لقد أطارت النوم من عينيه وهو يتأمل ظهرها وخصلاتها القصيرة مستريحة بنعومة فوق الوسادة..

تردد لثوان وحمل النداء همسه هذه المرة باسمها.. تظاهرت بنوم لم يحدث، تمنعه جوابًا ينشده.. عاد ينادي وتجرأ باقتراب لم يتعداه حيث تتناطح الأفكار داخل عقله والقلب يناوشه على تملك..

هو محض رجل.. قد يقفز بمشاعره وشهامته بعيدًا عن المعدل المعتاد.. لكنه في نهاية المطاف رجل..

لو وعدها بحب أفلاطوني فهو كذب بيِّن.. وإن تعاهد معها على الصبر للأبد.. فهو يتخطى منحنى الصراحة ويلقي بنفسه في وادي التهلكة..

لقد اعترف لنفسه أن القلب أصبح يدق لها.. الشرس خشن الطباع ذو التقطيبة الدائمة.. وقع في غرامها وكما يقولون:

"لم يسمِ عليه أحد"..

سخر بها من روحه.. وقعت يا عنيد، وهي!!.. ماذا عنها هي؟!..

يكاد يجزم أن بداخلها شيء ما ولد نحوه، لكنها لا تتخذ تجاهه خطوة.. وربما لن تفعل، فهو الذكر.. وهنا الشرق، وبناءً عليه فالمبادرة من نصيبه..

لكن كيف يبادر وهو على غير يقين!!.. بل كيف يتحرك مقتربًا بينما لا يدري هل اقترابه مسموح.. مقبول، أم فقط سيخيفها فتتنائى عنه!!..

زفر بغيظ.. هو فقط رجل، وهو يحب.. وهو عاجز حتى عن لمس محبوبته والتعبير لها عن هواه كما يفعل البشر منذ خرج الرجل من كهفه يبحث عن الطعام فوجد الأنثى هي من تتمم حياته.. لا غيرها..

لا.. بل منذ خلق الله سبحانه "آدم".. وفي وحشته وهبه "حواء" من ضلعه ليسكن إليها.. هو يريد أن يسكن إليها، يحتويها وتبادله احتواءه..

يهمس لها بحبه ولا يدري كيف ستبدو نبرته حينها!!.. لكنه يرغب في التصريح به.. وما يكبله هو الخوف وفقط..

يخشى رفضها، ويخاف قبولها وعجزه بعدها عن القرب فيتضاعف عذابه ويرهق قلبه أكثر..

لمس كتفها برقة فأجفلت للحظة قبل أن تستكين، بحنو همس لها:

- سارة.. بصي لي.

عاندت برفض مدلل:

- لأ..

ابتسم واقترب أكثر:

- ما تزعليش.

وتتذمر برقة تخطف أنفاسه:

- مش زعلانة.

يتنهد ويشاكس فربما تتحقق الأمنية ويغدو عالم الأحلام حقيقة:

- اثبتي طيب.

سكنت لحظة قبل أن تتساءل بفضول:

- أثبت إزاي؟!

رد بشقاوة:

- بصي لي.

ترددت أو بالأحرى ارتبكت وخجلت..

كيف تلتفت إليه وهي تشعر به قريبًا حد اختلاط الأنفاس!!..

استدارت ببطء فوجدته مستندًا خلفها فوق مرفقه، تأملها من علو.. لا بل غرق فيها، في عسل عينيها اللامع.. وابتسم ليحين وقت ضياعها في ابتسامته، تمتم باسمها فتعلق بصرها به كغريق في عرض بحر هائج ألقي له طوق نجاة من العدم.. دون وعي لف ذراعه حولها ودنا أكثر..

أسرها بعينيه، أحاطها بنظرة غاصت في أعماقها قبل أن يهمس بشغف بدا غريبًا:

- تعرفي إن لون عينيكِ يشبه العسل في ضوء الشمس!!

تأملته بلهفة خجولة وهو يردف:

- فاتح.. شفاف، بيبين كل اللي جواكِ بعفوية...

وتقطعت كلماته بأنفاس متحشرجة وهو ينخفض ببصره لشفتيها، يتأملهما بتوق مستعيدًا مذاقهما الذي يحتفظ ببقاياه في ذاكرته كلما ناوشه الشوق، هرب بعيدًا عنهما عائدًا إلى لقاء المقل:

- لون بيحسسني بالدفا..

وتحرك بأنامله فوق جبينها يرسم خطوطًا وهمية، يتتبع تقاطيع وجهها برفق ناعم:

- ملامحك كلها بتحسسني بالدفا.. بالبراءة وبطفلة جواكِ بتتشاقى وتدلع عليَّ أنا وبس.

ابتسمت بحياء، حاولت الابتعاد بعينيها لكنه أمسك بذقنها يرفض الفراق، تأملت صمته.. ودت لو أكمل حديثه حتى لو أخجلها، لكن تلك الحيرة والتيه اللذان يتركانها غارقة في لجة سواد ما بين جفنيه فوق طاقتها.. رمشت بارتباك وهو يناديها بنبرة متوسلة، كانت تحاول الكلام ولسانها عجز عن النطق، عن التعبير أو فقط تجميع بضعة أحرف في كلمة.. كلمة تبعده أو حتى تقربه..

مدت كفيها بتردد تريحهما فوق كتفيه، استكان للمستها الرقيقة الخجول قبل أن تهمس وأمان ما يطغى على روحها بالكامل:

- زياد..

لبى بعينيه النداء فهمست باندفاع بريء يعشقه منها:

- أنا بحبك قوي.

تيبس.. تجمد.. غادرته روحه أو ربما عادت إليه!!.. لا يعلم..

تجمدت بالمقابل عندما وعت لما نطقت به، لقد اعترفت بحب ظلت تعاند وجوده حتى لحظة الفيض، ابتسمت على استحياء وهربت بعينيها تنظر

لعنقه ووريده النابض بعنف جليّ قبل أن يسأل بأمل وقلبه يخبرها.. وأنا أحبك أكثر:

- يعني مش خايفة مني؟!

منحته أمانه الخاص هي الأخرى:

- أنا عمري ما خفت منك..

واحتوته بنظرة دافئة:

- أنا بالاقي نفسي معاك.

وتبًا لها ولقوانين الكون كله.. بل تبًا لكل ما يمكن أن يمنعه عنها أو يحرمه منها.. وألف تبٍ لشهامة قد تعانده بظهور في هذه اللحظة.. لأنه سيتملكها وليكن ما يكون..

أحكم على نظراتها قيود نظراته.. وكانت عيناه تسألان:

"هل يمكن!!"..

وعيناها جاوبتا بتردد خجول:

"نعم"..

وعادتا تؤمنان على كلمة تخطت حاجز الشعور والنطق:

"أحبك"..

فأغمضت جفنيها تحتفظ بما لم ينطق به لكنه سافر على كل خلجة من خلجاته وهو يجذبها إليه.. أو ربما كان من يقترب فلا فارق.. حين غمرها باحتواء آمن استكانت له، انتهت بين ذراعيه خاضعة لأغلال عشقه.. ولم يدرك هو كيف بدأ!!.. كل ما يشعر به.. أنه تائه معها، شارد بها وفي كل لحظة.. ينسى نفسه ويضيع في دفئها أكثر..

دقائق أو دهر.. سعادة أو جنة.. عشق أو جنون.. إلتحام قلوب أو أنفاس، لكن في النهاية تأتي الصدمة من حيث لا تتوقع، أو حتى يمكن أن يمر بخيالك..

شهقة ألم امتزجت بصرخة خافتة وهي تتشبث به قبل أن يبتعد عنها ببداية ذعر، ينظر لوجهها بذهول وتحيط بها موجة من عدم التصديق، تجذب الغطاء فوقها وتهز رأسها بحيرة شديدة شبه قاتلة!!..

لم تعي عيناه المسلطتان عليها إلا بعد ثوان، جمود ملامحه، دهشته الممتزجة باستنكار جعلها تهتف بدفاعٍ باكٍ وأول ما جال في خاطرها:

- زياد.. أنا ما عملتش العملية.

انعقد حاجباه بينما غضب قاتم يتسلل لعينيه جعل رهبة تعتصر قلبها، تكاد تصرخ ثانية تتوسله التصديق:

- صدقني يا زياد.. ما عملتهاش.. ما عملتهاش.

وتحولت الرهبة لفزع.. صمته أحاط بها كدوامة لا نهاية لحلقاتها التي تدور حولها، والغضب تحول لحريق لن يخمده شيء.

******

العناد يورث الكفر..

والفراق بعناد يورث كل ألم، كان طلبها، بل كانت رغبتها.. وعندما وافقها امتلأت بسخط وغيظ، أو هو خوف!!..

خوف من تكيفه على بُعد لن تتحمله هي، ورغم ذلك ظلت تعاند ترفض محادثته مع علمها بالمكالمة اليومية بين والدتها وبينه، وطلبه مرات عديدة ربما فقط شوقًا أراد إخماد ناره بسماع نبرتها حتى مرحلة الاعتياد.

كل ليلة تفتقد صدره مستقر رأسها، احتواء ذراعه لخصرها حال نومها، تشتاق صوته يناديها.. بل تحلم به، والحلم موجع أكثر من واقع بعيد المنال.. هو يمنح أملًا، وعند فتح الأعين تكتشف أنه محض كذب وخيال بثه القلب المشتاق لحبيبه الغائب.

علا رنين هاتفها يخرجها من شرودها، نظرت إليه وابتسمت قبل أن تجيب:

- أيوة يا ميا.. الولاد لبسوا خلاص..

وتطلعت للساعة التي تخطت السابعة مساءً بقليل:

- ابعتي دادة جليلة تاخدهم على ما أكمل لبس.. أوك ماشي.. سلام.

قابلت السيدة تسلمها "ملك" و"مروان" الذي حملته بتحبب تقبل وجنته المكتنزة وتخبرها أنهما بانتظارها في السيارة أسفل المنزل.. نادتها والدتها فردت عليها حين نبهتها:

- ما تتأخريش يا جمانة، أنتِ عارفة جوزك.. الموقف مش ناقص زعل.

شعرت برعشة تكتنف جسدها، لقبه الذي لم يتغير للآن.. "زوجها".. لايزال يسبب لقلبها رجفة لا تنتهي فيعلن عن شوقه.. عن حنينه بصرخة لا تتجاوز ضلوعها:

- ما تقلقيش يا ماما، هما ساعتين أو تلاتة بالكتير وآدم هيحصلنا كمان.

وصلهما صوت خافت عند باب المنزل فأردفت بدهشة:

- معقول لميا طلعت!!.. أنا قلت لها إني نازلة.

ردت الأم وهي تتجه نحوه:

- يمكن طلعت تسلم عليَّ بدل ما هي مقضياها تليفونات.

ضحكت "جمانة" تواسي والدتها:

- ما أنت عارفة إنها مشغولة يا ست الكل، بعدين كانت قاعدة معاكِ إمبارح طول النهار.

لوت أمها شفتيها قبل الباب بخطوة عندما انفتح!!.. لم يظهر من خلفه وجه ابنتها الودود، لم ترَ عينيها الحنونتين، بل نظرات قاسية ووجه أسمر لامرأة طويلة خطت بسرعة داخل المكان تتبعها أخرى، وقبل أن تصرخ سمعتها تأمر بصوت أجش:

- ولا نفس.

تراجعت ابنتها خطوة في ذعر قبل أن تتجه إليها شبه راكضة بهتافٍ عالٍ مرتجف النبرة:

- أنتوا مين؟!.. ودخلتوا إزاي!!

لكن أمها صرخت وأعقب الصراخ أمر قاطع:

- ابعدي يا جمانة، اجري.

نصل لامع ظهر أمام ناظريها موازيًا لدفعة من يد غليظة أفقدتها توازنها فسقطت للخلف بعنف، تصدم رأسها بطاولة رخامية وتهمد حركتها تمامًا، الصراخ انتقل لصوت الابنة المتحشرج:

- ماماااا؟!

نالها دفعة تالية تسند ظهرها للجدار وإحدى المرأتين تخبر الثانية:

- روحي شوفي العيال فين وخلصي.

تفرق جفنا "جمانة" اتساعًا بهلع عندما تحرك النصل في مواجهة عينيها:

- ما تخافيش، إحنا بس هنرجعهم للي سابهم أمانة عندك.

لم تستطع النطق وبصرها يهرب لما خلف تلك الضخمة التي تحتجزها عندما شعرت بالطعنة، شهقت بألم تنظر لأسفل بطنها وتنحني بأنين، ثم همسة شامتة تحمل شبه تأنيب ساخر:

- كمال باشا باعت لك التحية والسلام أمانة..

وانسحب السلاح من جسدها، فعادت تشهق بعنف، ثم عاد ينغرس في موضع آخر قريب للأول والمرأة تردف بخشونة:

- بيقولك ما تقطعيش الجوابات..

وجذبته ثانية وتجددت الشهقة المتألمة بلهاث حاد، تلاحقت أنفاسها تشعر بها تغادر جسدها بلا رجعة، تحسست بطنها بكفها وحطت بغشاوة فوق عينيها عليها تتطلع لدمائها التي تسيل بسرعة ومعها بقايا حياة عندما أتت الطعنة الثالثة والهمس الأخير:

- عيب.. أنتوا أهل برده.

وسحبته لمرة نهائية وحاسمة عندما عادت المرأة الأخرى بهتاف منزعج:

- العيال مش هنا..

سقطت "جمانة" على ركبتها أسفل قدمي الأولى التي التفتت لزميلتها بشراسة:

- يعني إيه مش هنا!!

أشاحت بذراعها التي تحمل مدية مشابهة:

- يعني مش هنا.. يلا بينا.

ترددت للحظة قبل أن تهتف وهي تحثها على الخروج:

- كده إحنا ما نفذناش المطلوب ورجالة سالم ما بترحمش.

هزت كتفيها دون أن تمتلك من الأمر شيئًا:

- وإحنا مالنا، إحنا بننفذ وبس والتخطيط عليهم.

كانتا تركضان هاربتين، تتناقشان في تنفيذ خطة مرسومة بالدم كأنما تتحدثان عن طقس اليوم اللطيف، تاركتين خلفهما ابنة تغلق جفنيها على صورة والدتها ورأسها النازف، تغمضهما في وداع نهائي وهمس متعب يصاحب السيل الأحمر الخارج من جسدها:

"ماما!!"

(٣٥)

هل هو الوداع!!

عند الرحيل..

أيقنت أني لا أرحب بالرحيل..

في القلب شيء من بقايا أغنية..

كلماتها تنبض بقلبي مدوية..

عند الرحيل..

أيقنت أني لم أبادلك الوداع..

وودت لو بقيتُ معلقة..

ببقايا قيود حريرية ناعمة..

عند الرحيل..

قاومتْ.. لم أرحب بالغرق..

أدركتُ أني دونك طفلة تائهة..

وأنك دوني ضائع بلا ثقة..

عند الرحيل..

قاومتُ لذةَ استسلامٍ بين أجفاني..

لن ينكسر القيد دون مقاومة..

لن أرحل..

أنا باقية..

إهداء/ يمنى عزت

ما الفارق بين المكسب والخسارة!!..

هل هو يشبه ذاك الاتساع بين سماء وأرض؟!.. أم يوازي شعرة إن انقطعت تساويا؟!..

هو خاسر، في جميع الأحوال خاسر.. ظن أنه ببساطة قد يتحول لشيطانٍ يتملك ويسيطر ويسلب ما لم يكن له ملكًا في لحظة، وبعدها حرٍ طليقٍ وينال ثمن الخطيئة.. سبية أو غنيمة حرب خاضها دون شرف، بقذارة، ومن الأبواب الخلفية..

لكنه علم بعد جهد: أنه مجرد بيدق فوق رقعة تتحكم بها الشمطاء، لم يكن يومًا أحد اللاعبين، بل فقط جندي مسير لمهمة محددة.. وليته كان بقدرها، هو لم يستطع إنهاءها.. أو الأصح لم يرغب، وتبعاتها تطارده حتى اللحظة تمنعه الراحة أو سلام النفس رغم بعد المسافة.

بجسد متعرق وقطرات منه تبلل وسادة أسفل رأسه، قبضتين متشنجتين فوق شرشف فراش يغوص فيه، وساقين تعاندان بركلات قصيرة المدى وشبه صراخ: كان يرقد.. في انتظار اقترابها المتمهل، وعينيها اللائمتين، وبداية بسمة ساخرة.. أو ربما غاضبة..

"عاوزة مني إيه!!.. أنا ما أذتكيش، ما قدرتش، ابعدي عني، سيبيني في حالي"

وبرق أغشى بصره سطع بين جفنيها، نظرة قاتمة تنشد سفك دمه، تستحل نزع روحه، وربما خبالُ عقله:

"كنت عاوز تعمل إيه أكتر من كده!!.. فرق إيه اللي عملته عن اللي ماعملتوش؟!.. أنت تستحق الموت"

زعق بها قبل خطوة ساعية لدُنو قاتل:

"موتيني وريحيني، بطلي تطارديني.. الموت أهون"

وبهسيس مخيف كان الرد:

"الموت رحمة ما تستاهلهاش"

وانطلقت تضحك بجنون قبل أن يلمح تلك الدماء التي تسيل من كل فتحات جسدها حتى بدا كأن مسام جلدها تفرزها بدلًا من العرق، تغرقها ويقابلها صراخه المفزوع المصاحب لنهوضٍ حادٍ بصدر يسيل فوقه عرقه بغزارة وعينان متسعتان في رعب، وانتفاضة جسد شبه عار يجاوره وازت سؤالًا قلقًا مذعورًا بانجليزية ركيكة:

- تيام.. ماذا بك؟!

التفت إلى الشقراء صاحبة السؤال بحدة، تراجعت في رهبة فالنظرة تكاد تخترق روحها بسهم من نار:

- من أنتِ؟!

شهقت باستنكار وخرجت من الفراش تلملم ملابسًا متناثرة حوله بهرولة ساخطة:

- أحمق!!.. جررتني إلى غرفة نومك لتسألني بالنهاية من أنا!!

واستعاد جزءً من وعيه المفقود فصرخ بها:

- لا تأتي إلى هنا مرة أخرى.. اذهبي.

استقامت تناظره بغيظ تلاه خروج عنيف وباب غرفة كاد ينخلع خلفها، أنزل ساقيه للأرض، التقط بنطاله وارتداه كيفما اتفق قبل أن يشعل تبغًا يتلاشى مع ضباب دخانه بذكرى..

ذكرى اتفاقٍ دامٍ، وقرار بلعبة ظن أن خيوطها كلها بين أصابعه فانتهت للاشيء.. وما ناله هوكان العقاب وفقط..

ذكرى فتاة صغيرة تشبه شقيقته وتقاربها عمرًا، ورجل حياته مقسمة ما بين عمل ومتعة تليها متعة حتى تعاقد مع أفعى على انتهاك والمقابل حلم امتلاك دون قيد..

والخطة رسمها بدقة، ونفذها باحتراف.. لكن علقت به أذيال الذنب أو علق هو بها، ربما لأنه ليس ذاك المجرم العتيد صاحب القلب الميت والضمير الذبيح، هو حاول الفوز فحسب بلعبة لم يتقنها، دون أن يخسر الطرف الآخر الكثير.. لكن هذا الطرف لم يكن سهل الخداع، والرحيل غير مسموح..

شقة استأجرتها الشيطانة، وبحث دقيق قام به بنفسه، لا كاميرات، لا مسجلات ولا شيء مدسوس ينبىء عنه أو عن خطته التي قررها، توقيت مناسب واختطاف فتعرية وبضع قبلات قاسية تخطت حاجز الشفاه لجسد ساكن وروح ماتت دون رحمة ونشرت بداخله توقًا لا ينتهي نحوها..

توقًا لا إشباع له.. ثم علامات لا تدع للتخمين مجالًا، وصورًا تثبت بدليل قاطع، وخطوة أخيرة لن يفعلها..

حبكة دقيقة وناجحة لا تحتوي ثغرة..

إلا واحدة.. ثغرة ظهرت داخل عقله هو، بقايا الضمير الذي خدره عادت تستفيق، تلوم، تؤنب، تُحمل الذنب وتصفده بقيد وزر وربما لنهاية العمر..

لا تحسب أنك تركتها حية.. فالفكرة والخيال والحلم يكفون..

أنت لم تمنحها حق الراحة؛ إذًا لا تستحقه أنت.. زفر نفسًا بغشاوة رمادية لمح من خلالها سكينًا صغيرًا فوق طبق من الفاكهة على طاولة مقابلة، ونهض شيطانه يزين له الصورة.. والخلاص.

******

البعض ينظر إليهم الشيطان من بُعد، يصفق، وينحني احترامًا لعقولهم الفذة.. يخرج دفترًا وقلمًا ويُدَوِن.. فهم أساتذة وهو في الغالب طالب نجيب..

أتاه الخبر فضحك بانتصار، نشوة صريحة أغرقت نفسه حتى بات يشبه من عاقر الخمر حتى تمام الثمالة، لكن عندما يحين وقت التفاصيل بالتأكيد نحتاج لبعض انتباه:

- ها يا سالم.. طمني!!.. كله تمام؟

بادله الرجل ضحكته بلعاب متناثر كعادته:

- تمام التمام يا كبير.. أرض بور؛ ده لو لحقوها وما ماتتش منهم.

اعتدل بحدة في جلسته، يأمر ويزجر كأنه يمتلك الحق في الحياة أو الموت:

- لا يا سالم.. اتفاقنا من غير موت، عاوزها عايشة لحظة بلحظة والحسرة بتاكل فيها وهي محرومة من الخلفة بتبكي على اللي راحوا منها زيي بالظبط!!

ربت خليله على كتفه بطمأنة:

- ما تقلقش يا أبو كمال.. اللي بعتهم عارفين هما بيعملوا إيه!

تأمله لثوان، يسبر أغوار أداته المنفذة قبل أن يسأل دون مواربة:

- والعيال؟!

وربما وقت التلعثم قد حان، فهناك جزء من الصفقة مفقود:

- ما كانوش هناك يا كبير.. بس...

قاطعه بصراخ مهتاج:

- إيه!!.. ما كانوش إيه؟!.. سمعني تاني كده.

ونهض يجذب الضخم من ملابسه، لكن الآخر اعتاد جلجلة صاحب الصوت العالي دون فعل حقيقي، خلص سترته من قبضتيه وأجابه بخبث:

- رجالتي كانوا طابخينها مظبوط قوي، بس اللي نفذوا مالقوش العيال، إنما أوعدك..

قطع حديثه يترك الشيطان لينضج فوق نيران الترقب بعقدة جبين ساخطة:

- متعوضة.. في دماغي ليهم خطة هتشفي غليلك وتريح بالك أكتر من اللي فاتت.

وكزه في كتفه بعنف:

- واستفدنا إيه؟!.. قولي استفدنا إيه لما العيال لسه معاها!!

اقترب بنبرة شيطانية:

- مش لوقت طويل.. صدقني هاخلصلك الحكاية صاغ سليم..

نظر له بريبة وكاد يزعق من جديد، عاجله بلفافة محشوة وهمس ثعباني:

- خد دي.. اعدل مزاجك وسيبها عليَّ.

أخذها منه بتردد، تردد من يشعر بالنقص، بخطة لم تكتمل ودماء سالت لكنها أبدًا ليست كافية.

******

لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها..

فماذا إن سلختها أولًا!!.. عانت كل لحظة ألم، ببطء وتمهل قاتل، ذبحت فيها الأمل قبل أن تمنع عنها الأنفاس!!..

وبعدها أخبرتها بكل صلف..

سأتركك تعيشين..

أنت على قيد الحياة، لن تموتي، لن أقتلك!!

وبمرارة وسخرية منطق شبه ملتوٍ..

أي حياة هذه بعدما نزعت عنها جلدها، بوجع.. بتعرية.. وتركتها دون ستر، أمام نفسها وأقرب المقربين!!

هل هذا قيد حياة.. أم قيد موت!!.. موت بنابض يخفق في رعب، في أنين، في شك وحيرة وجنون على وشك البدء!!

هي عذراء..

بإثبات ألم، نقاط حمراء.. وابتعاد ملسوع لزوج لم يجُل بخاطره أنه الأول بالفعل..

هي عذراء..

ببساطة دليل هو غشاء تمزق للتو..

هي عذراء..

رغم كدمات ملأت جسدها في السابق، وخدوش جرحت براءة شفتيها.. ولمسات تعدت حدودًا ليست من حقها..

هي عذراء.. ومات الكلام..

رفعت عينيها للغاضب أمامها، لا تفهم فيمَ غضبه!!.. بررت بحماقة، لكن ماذا تبرر؟!.. تبرر له أسبقية؟!.. تسوغ له انتصار بكارة امتلكها!!.. تهتف بطهر ظنته مغتصبًا فأثبتته قطرات دماء!!

وما النفع؟!

بل ما فائدة غشاء عذرية، عندما تُنتهك الروح؟!..

روح فقدت برائتها حينما استيقظت صاحبتها على عُري، نظرات أسف واعتذار، على ندم وذنب حملته ذاتها المستكينة والمستعدة لثِقل كل إثم..

روح نازعت الرمق الأخير مرات ومرات حتى أتى هو فوهبها بعث، لكن ليت الأوجاع تكتفي منها.. لم تفعل إلا وقد قضت على ما تبقى، وهدمت جدارًا آمنًا احتمت به توقًا لأملٍ كاذب بغدٍ أحن..

وماذا كان الثمن؟!..

بقعة دامية.. لا تدري هل لوثت فراشها فأثبتت طهرًا أم محت عنها دنس خطيئة تحمل نفسها وزرها!!..

وفوق الأهداب ترقرقت دمعة، لمعت بين الجفون قبل أن تشيح بوجهها عنه.. لكنه رفض، رفض أن تفارق عيناها عيناه، رفض أن تكون وحدها في لحظة كهاته!!.. رفض رغم دهشة تمازجت مع ذهول مستنكر وغضب من تبريرها الأحمق.. فزوجته بعد كل شيء؛ عذراء!!..

تحركه السريع نحوها نفضها خوفًا وربما لأول مرة منه.. قبل أن يقاطع باحتضان كل فكرة ورهبة وحزن.. بضمة شبه قاسية كادت تختلط فيها عظامها فوق صدره وسباب تعلوه نبرة شرسة غريبة:

- أنتِ غبية!!

وبأصابعه تغلغل في خصلاتها.. بعثرها بنفس حار وهمس فوق رأسها:

- إزاي ييجي في بالك إني ممكن أفكر فيكِ كده!!.. أنا عارف.

ولحنوه ترفع القبعة لكنها في لحظة ضعف، عُريّ نفس قبل جسد.. وانتهاك تحت مسمى..

"لم يحدث!!"..

تركت لعبراتها اللجام، تسابقت في السيل على صدره دون صوت.. ثم نهنهات خفيفة تعالت لنشيج يشبه نزع الروح، وظل على حاله.. يضمها بصمت، لوقت لم يحسب طوله لكنها عندما اكتفت تباعدت بدفعة رافضة، لفت الشرشف حولها بإحكام وطوت ساقيها تعانق ركبتيها في سكون..

وفي هكذا موقف؛ الصمت مقصلة بترت عنق الكلمات..

اكتفى بجوار هادئ، تأمل وعناية نظرات، ودعاء يبتهل به القلب أن تصبح بخير.. قلق ما ينهشه، عقله يخبره عن عودة حيث نقطة البداية، صفر المشاعر ورهبة الذكرى وكوابيس الخوف.. وهو أبدًا لن يدعها تفعل مهما بذل ومهما عاندت أو خضعت للألم.

وهذه المرة عدَّ الدقائق وإيقاعها البطيء، عشر.. عشرون.. ثلاثون، تلاها استنباط فكرة ونظرة اتهام وجهتها إليه بنبرة تحمل سؤالًا قاسيًا:

- أنت طبعًا فرحان!!

عقد جبينه وادعى عدم الفهم، نعم يعلم مقصدها وإلام تريد الوصول!!.. لكنها فقط تبحث عن سبب لتزيد من أوجاعها، أما هو فسيتحرى الصدق وكفى، هز رأسه باستفهام أجابته بفظاظة اقترنت بإشارة للبقعة التي لم ترفع عينيها من عليها فوق الفراش:

- كنت الأول!!

وتبًا لها.. لقد كان على حق.. لم يتمالك إلا أن يزعق بها علَّها تفيق من دوامة جلد الذات تلك قبل أن تضيع فيها فعليًا، جذب مرفقها بغتة يقربها منه ويغوص في أعماقها بنظرة سوداء:

- أنتِ شايفة زياد كده!!

انتفاضة طفيفة مرت بجسدها مع نبرته الحادة واستطرادته المشتعلة:

- هو ده اللي هيفرح زياد اللي اختارك؟!

وكانت من إصبعه إشارة تحقير للقطرات التي اعتبرتها سبب سعادة، ونظر إليها على أنها انكسار آخر لمن هواها القلب دون حساب..

ترك ذراعها وعاد لوضعه، خلل شعره بعنف ثم جذبه بين أصابعه يود اقتلاعه.. تنهد بعمق، يسحب الهواء كأنما هو على وشك خوض معركة أو صراع لن يرضى فيه بغير النصر، اقترب يتمتم من بين أسنانه:

- من قبل كده وأنا مؤمن إني الأول..

وحان دورها لتستفهم لكنه أكمل بتوضيح صريح دون انتظار ونبرة صادقة:

- من يوم ما اتجوزتك وأنا عارف ومتأكد.. مش ده الدليل يا سارة.

ابتسمت ساخرة، جابهته بنظرة قاسية وازت لهجة أكثر قسوة:

- ليه!!.. مش زي باقي الرجالة؟!.. مش فارق معاك إن مراتك تكون مغتصبة وواحد سبقك ليها!!

انضمت قبضتاه بشدة رغمًا عنه، جرحها يوازي جرحه بل ينزف بداخله وهي لا تعلم، فقط تزيد من نزفه وألمه وبحماقة لن تمحي ندوبه:

- ماحدش سبقني.. مش معنى إن اتسرق منها حاجة غصب عنها إنها بقت ناقصة.. هي في نظري كاملة، في نظري بريئة وأطهر واحدة قابلتها.

وعاد يقترب يحنو ويهدهد النفس الذبيحة بتأكيد:

- في نظري نقية والدليل مش ده.

ويكرر إشارته لمسوغ الطهارة المفترض، يردف برقة ونبرة شاع فيها عشق سافر:

- الدليل عاشرته من شهور..

وغمرها بضمة دافئة من عينيه:

- الروح اللي كانت معايا.. دي أنقى من أي فكرة وأهم من أي دليل.

رفعت إليه عينين متوسلتين.. انكسار يتكرر، ونزف يعود، وروح كلما تمسكت بأذيال الأمل تاه منها في غياهب عتمة انزرعت في طرقاتها عنوة.. نظرتها أصابته في مقتل فعاد يحتضنها في صمت وعقلها يتساءل بتيه:

"لماذا!!"

وترجم اللسان بشرود حائر:

- طيب ليه؟!..

وانتفضت تبتعد عنه، تكاد تصرخ بالسؤال:

-كل اللي حصل لي ده كان ليه؟!.. اللي عشته طول الفترة اللي فاتت ليه؟!..

تهز رأسها بتشتت مرتبك لا مستقر لأفكارها سوى متاهات مظلمة:

- خوف من كل نظرة أو صوت أو لمسة.. كوابيس ونوم ما فيهوش راحة.. كسرة قلب ودبح كرامة.. ليه!!

وعادت تناظره كأنها تناشده الجواب:

- ليه يا زياد؟!.. كل ده ليه!!

هز رأسه بعجز، يود لو يمتلك الجواب.. بل يود لو يصل لمن فعلها وحينها سيجتث عنقه من فوق جسده ويعود لها بها فداءً لعذاب لم ينتهِ بل يتكرر ويتكرر ويزداد.. أمسك بوجهها بين كفيه، يثبت لقاء الأعين يبثها به شيئًا من قوته وصبره:

- ليه وإزاي وعشان إيه.. كله...

وألبس نبرته رداء الحزم يخبرها ألا مناص مما يخبرها به:

- كله كان إمبارح، النهاردة نقطة تحول.. بكرة بتاعنا إحنا..

وابتسم.. بسمة رغم الوجع باتت تحلم وتتمنى وتعيش الأمل:

- هنبنيه سوا، هابنيه مع سارة اللي اخترتها شريكة حياتي وأم أولادي..

ولمعت عيناه بإعتزاز:

- سارة اللي هي مصدر فخري وسعادتي وراحتي واستقراري..

واختلط باللمعة حب يريد الجهر به فصرخت عيناه تعبران عنه:

- سارة اللي هي سكني..

وطبع شفتيه فوق جبينها بقبلة طويلة دافئة أغمضت لها عينيها، بل أغمضت لأجلها كل جوارحها تمتص منه عبرها راحتها وأمانها المفقود، سعادة لامستها بأناملها وقبل أن تتمكن منها بين أصابعها تسربت وتاهت في اتجاه آخر معاكس بعيدًا تمامًا عنها.

مرت ساعة وأخرى.. ساكنة بين ذراعيه، أفكارها تتصارع فيما بينها كحرب شعواء تدور وتدور ورحاها صداه في رأسه هو الآخر..

كل ما حدث لها وما عانته كان هباءً، الخوف، العار، قهر أخويها، انكسار قلبيهما، الكوابيس، الألم، الذنب وإثم لم تزره بنفسها؛ هباء.. نثرته عذرية لم تُغتَصب في الطريق.. وفي النهاية؛ لا فارق..

عقله كان يأكل بعضه، من فعلها؟!.. ولمَ إن لم يكن الطائل من وراء ذلك نيل أنوثتها!!.. وما هو غرضه إذًا؟!.. ويعود للسؤال الأول.. من هو!!.. ثم يقسم بيمين غليظ، سيقتله لو أوقعه حظه العاثر في طريقه، هو وحده له الحق، وهو وحده يمتلك سلطة الثأر.. لحبيبته، زوجته، مدللته البريئة التي لم ولن يمسها دنس مهما حدث.

قبل رأسها قبل أن يهمس بتردد شبه قلق:

- تحبي تكلمي مامتك!!

تعالت ضحكة ساخرة بداخلها، أمها الحبيبة لا تهتم كثيرًا لأمرها، بضع مكالمات هاتفية من باب واجب تحتمه غريزة، زيارة وحيدة لم تتكرر.. ودعوة واحدة لم تثنيها، بماذا تخبرها!!..

"افرحي أماه.. إسعدي وعلقي الزينات.. فابنتك مصدر خجلك وعارك عفيفة طاهرة.. وعذراء"

أو بالأحرى..

"لقد تم تفعيل زواجي أمي.. واحزري ماذا اكتشفت!!"

عادت تدمع بحزن، نظرت إليه بضعف تسأله سترًا وتعني به الكثير:

- ممكن تجيب لي روب!!

مد إبهامه يمسح تلك الدمعة التي خدشت وجنتها، التقط مئزرها وأشار لها ليساعدها على ارتدائه، نهضت فلفها به بين ذراعيه، ضمها بحنو كأنما يخبرها أنها منه.. أنه ملاذها وملجأ أمانها، أدراها لتواجهه وكانت ضمة عينيه.. ودفء أكثر يغزو شرايينها، يتملك من روحها.. يسيطر على نبضاتها فتشبثت به نظراتها بهتاف واهن:

"لا تتركني"

وردت نظراته بعطف امتزج برحمة ومودة:

"لا يمكنني أن أفعل!!"

تنهدت ومسحت دموعها بأناملها، همست بخفوت حائر:

- هاكلم جمانة.

ولم يستفسر منها عن السبب!!.. فمادام هذا اختيارها وفيه راحتها فسينفذه على الفور، أجرى الاتصال وناولها الهاتف بهمس:

- هاسيبك تكلميها براحتك على ما أعملك أي حاجة دافية..

تمسكت بكفه تمنعه المغادرة:

- لأ.. خليك معايا.

كان يشعر بالحرج، لكنها تريده معها.. ولذا سيظل معها، تعالى الرنين وتواصل حتى انتهى دون رد.. وتعاود المحاولة ونفس الجواب حد وسواس بدأ ينخر قلبها، تطلعت إليه بتوجس:

- مش بترد.

طمأنها بصبر:

- جربي تاني.. يمكن مش سامعاه أو نايمة.. الساعة داخلة على حداشر.

وعادت تجرب، خمس مرات حتى عشر ونفس النتيجة، أصابتها رعشة خوف:

- برده!!.. هاتصل بلميا.

أومأ موافقًا فعاجلت الهاتف بالرقم الآخر، ومع ثالث رنين أتاها صوت أخيها بنبرة لم تعجبها فهتفت به:

- آدم!!.. ليه بترد على موبايل لميا؟!.. وهي فين وجمانة كمان باتصل عليها مش بترد..

جاوبها بمبررٍ واهٍ لم يقنعها فعادت تطالب برد صريح:

- آدم.. قولي حصل إيه!!.. ما تلفش وتدور.. طمني عليكم.

والواقف إلى جوارها انتقلت إليه عدوى القلق فتحفز بانتظار، يراقب ملامحها التي تسلل لهالتها شحوب، وهمسها المذعور يرفض في غير تصديق:

- مستحيل!!

******

امرأة كان المنح حرفة قلبها.. الفقدان لم يكن من ضمن معادلة حياتها، لم تعتده رغم أنها عانته، ربما لأن حينها كانت مجرد طفلة، وربما لأن الفؤاد اعتاد المرور من ثقوب الألم والاستمرار..

مشهدًا لن تنساه ما بقي في جسدها من أنفاس، ودماءً لم تتخيل أن تقع عيناها عليها في واقع مرير خاضت لحظاته كلها واحدة تلو الأخرى بمخاض وجع..

تأخرت الصغيرة، ورنين هاتفها يصدح دون رد.. لم يخطر ببالها قلق، أو حتى فكرة تشبه ما تكبَّدت رعبه قبل دقائق ليست بالطويلة، ترجلت من السيارة تاركة الصغار في عهدة مربية وتحت نظرات سيارة حراسة تقف على بُعد وأخرى خلف سيارتها..

أمام الباب الموارب توقفت بتوجس.. خطوة وثانية ومدت يدها تباعد بين شقيه ليصطدم بساقي شقيقتها الغارقة في بركة من اللون الأحمر، وبعدها عيناها حطتا فوق والدتها الملقاة أرضًا على مقربة ودماء تحيط برأسها.. حينها انهار القلب..

هل صرخت!!..

نادت!!..

بكت!!..

ابتهلت أو دعت أو تمنت أو حتى صفعت نفسها علَّه كابوس قد تفيق منه في أية لحظة!!..

لا تتذكر، كل ما تعيه بعدها هو صوت سيارة الإسعاف المتداخل مع شرود أفكارها المرتعبة وكفا زوجها ينتشلانها من الأرض حيث جاورت أختها ترفع رأسها فوق ساقيها في وجوم وهاتفها مفتوح الخط في يدها على كلمات لم تستطع إكمال حروفها:

- آدم.. ماما.. جمانة.. دم.. دم كتير.. ماما.. جمانة..

وكان يصرخ ولا تعي، فقدت الرشد والحس والعقل وكل منطق وعادت طفلة خائفة تنزوي في ركن بعيد تناظر فيلم رعب تجسدت فيه أسوأ مخاوفها.. بفقدان.

وأمام غرفة عمليات جلسا، يدعمها إلى كتفه ويحيطها بذراعه، ملامحه شاحبة وهي ليست في عالمنا، ومحاولات الوصول لأخيه لا تتوقف ولا تأتي بثمرة.. ثم أتى طبيب، بحرج، بخطوات خجول، بتردد وشبه ارتباك يحمل الخبر الأسود:

- آسف.. الأم وصلت فعلًا...

ورفع عينيه نحوهما بخبريقين:

- البقاء لله.

وبالله عليكم ليخبرها أحد لمَ عليها أن تتحمل وتقف أو حتى تصرخ!!..

لا.. كل هذا فوق طاقتها، وغياب الوعي ربما يكون الحل الأمثل بين ذراعي زوجها الواجم والذي تلقاها قبل أن تسقط أرضًا صارخًا باسمها:

- لميااا..

أشار الطبيب للبعض من حوله للعناية بها في حين تحول هو لحالة اللاوعي يناظر زوجته برعب قبل أن يعاجله الطبيب بخبر آخر ومسئولية يلقيها على عاتقه وتبًا.. هو ليس أهلٌ لها:

- الشابة اللي معاها.. محتاجين توقيع حد من أهلها.. مضطرين نستأصل الرحم، تهتك شديد ونزيف مش بيقف.. هنفقدها.

ومن موقعه على الأرض رفع وجهه إليه بذهول.. لا يصدق ما يحدث، لا يمكنه أن يفعل، ماذا عن أخيه!!.. بل ماذا عنها هي!!..

وسقط في بئر الحيرة والثمن.. حياة..

******

لا يصدق كيف يمر الوقت دون معنىً أو هدفًا حين الغياب.. حين البعاد، ووجع الفراق!!..

منذ ما يقارب الشهر.. طالبته بطلاق، هربت وتباعدت وقرر هو معاملة بالمثل.. لكن لغرض آخر، تقييم مواقف، إعادة حسابات، والكثير حتى تكون العودة مؤسسة هذه المرة على متانة تتحمل نوازل الحياة..

سافر وعاد.. وسفر ثاني تلته عودة.. وفقط لو تعلم كم يشتاقها!!..

ليتها تدرك.. ليتها تصدق.. وليتها تنصت إليه!!.. ترفض مكالماته، تعاند بحديث معه ولو عن أطفالهما.. تهرب بعيدًا عندما يهاتف والدتها ليطمئن.. وكأنه يراها بعينيه حينها!!

لا شك لديه أنها تحبه، تذوب فيه كما يتيه فيها.. لكن هناك خلل ما يحتاج لإصلاح، وهو سيبذل كل ما يملك من جهد ليفعل..

عاد هاتفه يزعجه بنداء أخيه، هل هذه هي المرة العاشرة ربما!!.. اللعنة عليه ماذا يريد؟!.. حتى اختبائه معتكفًا بمكتبه في الشركة يقاطعه هو بسخافة يظنها اهتمامًا وكل ما يريده في هذه اللحظة هو وحدته..

رنين آخر وقرر الرد حتى ينهي الأمر:

- إيه يا آدم.. يا أخي ما رديتش من أول مرتين خلاص إفهم إني مش عاوز أتكلم.

ونبرة الأخ الأكبر لم تعجبه، هل بها هلع ما!!.. شحوب!!.. خوف!!.. ألم!!.. اعتدل في مقعده ينصت لرد لم يحمل توبيخًا قدر ما حمل من ضعف:

- أنت فين!!

انتبه قلبه قبل أذنيه:

- في إيه يا آدم!!.. صوتك ماله؟

ناله توجس وقبضة عاصرة تتحكم بخافقه الذي تسارعت نبضاته دون سبب محدد:

- أنا في مستشفى... تعالى.

هب واقفًا:

- مستشفى؟!.. ليه حصل إيه؟.. أنتوا كويسين!!.. لميا كويسة ويوسف!!

صوت ابتلاع أخيه للعابه وصله عبر الأثير قبل أن تأتيه اللهجة الجامدة:

- إحنا كويسين.. جمانة بس.. تعبت...

ولم يمهله ليتمم جملته:

- مسافة السكة وأكون عندك.

أركض أم قاد سيارته أو حتى طار إليها!!.. لا يذكر، فقط وجد نفسه أمام مكتب استقبال المشفى يسأل بجزع عن اسمها وأتته الصدمة قبل حتى أن يكمل سؤاله:

- آه اللي جت في الحادثة.. عمليات الدور التالت.

هل توقف القلب!!.. أم سقط بين قدميه!!.. لا.. لا.. هل اخترقته أسهمًا من نيران حارقة أشعلت بجوانبه كل أنين متاح أو غير متاح!!..

تجمد للحظة فقط بعدها اندفع نحو الدرج، ومن ممر لآخر بتيه وضياع حتى سقطت عيناه على الأخ مهدل الكتفين يجلس القرفصاء مستندًا للجدار.. تيبس وعاد قلبه يعلن تمرده على صدره وضلوعه يود لو أمكنه الخروج من أسر جسده..

خطا نحوه ببطء يجوب بنظراته المكان، يبحث عن وجه آخر مألوف، أم.. شقيقة.. طفلة.. طفل!!.. أين الجميع!!.. وأين هي؟!..

وصل للجالس الذي وقعت عيناه على قدمي أخيه، حرك رأسه عاليًا لتتقابل النظرات.. واحدة تحمل سؤالًا ممتزجًا بنفي هو أمنية:

"لا تقل أنها ليست بخير"

والجواب كان هروب لم يصمد أمامه:

- آدم!!

نهض الأكبر يواجهه، يستدعي الكلمات، يعتصر الأحرف علَّه يستخلص منها أي شيء يطمئن الواقف أمامه شبه ميت، والجواب أتاه نجدة أو صدمة أو رحمة عبر باب وطبيب يتقدم نحوهما بلهجة آلية جامدة لا روح أو شعور فيها:

- مين فيكم الزوج!!

نظر لأخيه دون فهم، هل يسأل عن زوجته هو أم من!!.. أشار "آدم" نحوه:

- هو الزوج.

تعلقت عيناه بشفتي الرجل الغارق بياض معطفه ربما بدمائها ولا يعلم:

- إحنا عملنا اللي قدرنا عليه، النزيف وقف الحمد لله بعد استئصال الرحم.. بس للأسف كانت حامل، هننقلها العناية المركزة لحد ما تفوق.. ربنا معاكم.

كلمات كالطعنات لم تنل من قلب الحبيب فقط بل الواقف معه نفسه يلهث لوقع الخبر، عن طفل فُقد.. وأمومة ضاعت.. وزوجة بين حياة وموت..

والعاشق المكلوم لم يظهر على ملامحه سوى رجفة مرت بفكه للحظة، رعشة جفن، وجمود طغى على كل حواسه دون فهم أو حتى وعي..

همس أخيه باسمه:

- أدهم!!

التفت إليه بوجهه الفارغ من التعابير:

- حامل!!..

وارتجفت الشفاه:

- رحم!!..

وحيرة غمرت الروح والعقل والقلب:

- نزيف!!..

ودار بعينيه في المكان بارتباك:

- جمانة؟!

ثم كان على وشك انهيار أو جنون أو ربما ما هو أكثر، وقبل أن يمنعه ركض نحو الباب الذي خرج منه الطبيب بصراخ رجَّ أرجاء المكان.. رجَّها وجعًا وألمًا، عجزًا وقهرًا وضعفًا و.. خوفًا:

- جماااااااااانة..

وخلفه أخيه يتمسك به بين ذراعيه، يدفنه فوق صدره ويود لو داخل ضلوعه.. الألم رهيب، غير محتمل، ينتزع الروح من الجسد ببطء غليظ.. وصراخه باسمها يتكرر وهي!!..

لا تجيب..

******

لو أخبروه يومًا أنه سيذوق أشد الآلام وجعًا لأجل امرأة؛ لما صدق!!

لو قصوا عليه حكاية خيالية عن أنثى تصبح هي النبض والفكر والحب والاحتياج بل والأنفاس التي يتعاطاها صدره لأجل حياة؛ لما صدق!!

ولو قالوا له أن تلك الحبيبة كادت تضيع منه نتيجة غدر؛ لقتلهم جميعًا وبعدها حماها ساكنة جوار روحه..

تتغير المواقف.. ويتبادلا الأدوار، هو هذه المرة خارج الغرفة، يشاهد من خلف زجاج معشوقة القلب راقدة، هادئة.. أنفاسها رتيبة ودقات قلبها أكثر رتابة..

بداخله صراع يشبه بركانًا يغلي فوق مشاعره التي اندهست بقسوة ولا يفهم السبب!!..

يقترب.. أم يصرخ!!.. يعشق.. أم يؤنب!!.. يثور.. أم يهدهد ويبتهل ويأمرها أن تعود!!.. يضمها، يعتصر جسدها الضئيل ويقتلها هو هذه المرة!!..

كيف استطاعت!!.. كيف أمكنها أن تفكر في مغادرة دنياه وهو لم يكتفِ منها ولن يفعل؟!.. ترحل وهو على قيد الحياة!!.. تتركه وحده دونها!!.. اللعنة عليها.. كيف أمكنها؟!..

"أدهم!!"

انتزعته الهمسة الخافتة باسمه من وقفته الصامتة أمام نافذة غرفة العناية المركزة يطالع جسدها الراقد كرقود الموتى وسط الأسلاك والأجهزة، أدار وجهه لأخيه، والآخر هاله ما رأى فكرر النداء بعذاب:

- أدهم!!

هز رأسه، ازدرد لعابًا يرطب به حلقًا جافًا يتأجج به لهيب الوجع، سحب نفسًا متحشرجًا ومد أنامله يمسح خيط الدموع الذي يعانق وجنتيه في صمت، ربت الأخ على كتفه يتخيل قدر الألم وأنين القلب:

- إن شاء الله هتبقى كويسة..

وعاندته الدمعات ترفض التوقف، خافقه ينزف بين ضلوعه وتشاركه عيناه السيل:

- كتير.. كتير..

لم يفهم "آدم" مقصد الصغير المكلوم، عقله هو الآخر متعب وقلبه ينوء بحمل ثقيل:

- قصدك إيه!!..

عاد يمسح وجهه بشبه عنف وازى نبرته الضعيفة:

- فقدت كتير..

عاد يربت ويحنو:

- أنت معاها.

وتحشرجت الأنفاس بتجبر ترفض إراحته:

- تفتكر أنا كفاية!!.. مامتها، ابنها.. وأمومتها!!

لم يتحمل أخيه نبرة الوجع فضمه إليه:

- بإيدك تكون كفاية، لما تفوق هتحتاجك.. ما تسيبهاش..

ابتعد يناظره بشراسة عاشق كاد يفقد معشوقته:

- مستحيل أسيبها..

وتحولت نظرته للقسوة:

- فهمني إيه اللي حصل بالظبط!!..

أجاب يحاول إبعاد ذهنه عن الساكنة خلف الزجاج:

- مش عارف تفاصيل.. هي ولميا والولاد كانوا رايحين حفلة ياسين ابن صاحبة جمانة، وكنت هاروح لهم أوصلهم بعدها.. فجأة لقيت لميا بتكلمني ومش فاهم منها حاجة، بتقولي دم وماما وجمانة.. ما حسيتش بنفسي إلا وأنا هناك.. قبل ما أروح طلبت الإسعاف..

انعقد حاجبا "أدهم" يحاول تحليل الموقف، عقله غائب معها وتركيزه تخطى مرحلة الصفر بدرجة سيئة، يريد الفهم لكنه لا يستوعب أي حديث، وتلاقت الأعين بنظرة..

"ماذا يحدث لنا؟!"

وكأن من يستهدفهم يعلم أن الضربة التي تذبح تأتي من عجز.. عجز رجل عن حماية نسائه، شقيقة.. زوجة.. أم، وازداد الوجع، عجز رغم توفر حراس لم يمنع مصائبًا تحيق بهن واحدة تليها أخرى وأخرى حتى أضحى التمسك بخيوط الصبر ألمًا زائدًا لا يطاق..

أردف "آدم" بشجن:

- لما جينا للأسف مامتهم كانت... ولميا ما اتحملتش الخبر، الدكتور إداها مهدئ يناسبها ونقلناها أوضة هنا ترتاح.. مش عارف لما تفوق هتعمل إيه هي كمان!!..

بالفعل لا يتخيل كيف ستكون ردة فعلها؟!.. هذه ضربة قاصمة فوق عنق الجميع، النزف لن يتوقف بسهولة والندبة ستبقى حتى نهاية العمر..

فكرة ما طافت بباله!!.. ماذا عنها هي؟!.. هل يمكن أن تكون عرضة للأذى؟!.. أن تكون التالية!!.. بسرعة تناسب نبض قلبه الواجف وهلعٍ يتلبسه يصور له أكثر مخاوفه رعبًا.. الفقد.. التقط هاتفه يأمر بحراسة على غرفتها وأخرى تعتني بالأولاد.. وليتها تكفي!!.. ليتها..

كما يقولون هو "The last man standing".. وعليه فهو كذلك الجبل الذي يحتاج لدعمه الجميع، ولأجلهم سيكون هنا، فقط يتمنى أن يكون قدر مواساة ومسئولية قلوب مثقلة بالأوجاع والهموم..

راقبه أخيه بتيه، الطعنات تتكرر في كل لحظة، مع كل كلمة ونظرة وفكرة وخوف، كلما تطلع إليها في فراشها، وكلما طاف بذهنه فراق كان على وشك الحدوث، وقبل أن يعقب على ما لم يستوعبه كاملًا بعد سمع صوتها من خلفه:

"أدهم"

وربما هذه النبرة الناعمة هي ما يحتاجه في هذه اللحظة، التفت لشقيقته بصحبة زوجها ذو الملامح المكفهرة بقلق خفي، ركضت نحوه.. لا ترمي نفسها بين ذراعيه بل تجذب رأسه في أحضانها وتهدهد نابضه بهمس أمومي:

- هتكون كويسة.. ما تخافش..

تربت على شعره تضمه أقرب:

- إن شاء الله هتكون كويسة.

وكادت دموعه تعود لكنه حبسها بصلابة، تشبث بالصغيرة كطفل تائه، ضمها بقوة عنيفة حد التأوه فكتمت آهات صوتها جوار آهات قلبها..

الليلة طويلة.. والألم يتدفق كنهر منبعه ومصبه أكثر من تحب في هذه الدنيا..

******

ربما من أذيال الهزيمة.. تحرز النصر..

خلطة سحرية مكونة من طموح مسحوق، سُلطة منتزعة، وجميلة وازت خسارتها ضياع الكثير.. مع جنون مؤقت لرجل لم يعد لديه ما يخشاه!!..

غافل حراسها، وببطء حريص كان داخل غرفتها، وقف أمام فراشها يتأملها بسكون، مد أنامله يتلمس ملامحها النائمة برقة لا تناسبه، وابتسم.. بسمة تشبه شيطان، في حالة عشق.. أوربما هوس:

- شفتِ!!..

مال نحوها حتى لفحت أنفاسه بشرتها:

- رغم كل حاجة؛ وصلت لك..

وبرقت عيناه بنصر:

- ما خسرتش كل حياتي ومستقبلي على الفاضي.. هتبقي ملكي مهما حاولتِ تهربي..

وأبعد خصلة عن جبينها بهمس أخير:

- ملكي أنا وبس، الأول والأخير يا دينا..

"ما تعلاش بسقف طموحاتك قوي كده.. عشان لما يقع على دماغك؛ مش هتتحمل الضربة"

اخترقت الجملة الصارمة حجب ظلام عقله الموازي لظلام الغرفة، وتبعها نور وغشاوة بصر، رجلين في حجم جبلين صغيرين ومن خلفهما ظهر هو.. ثم تقييد انطلق معه صراخه:

- أنت بتعمل إيه!!.. فاكرها هتوافق عليك عشان عايش دور الفارس النبيل؟!..

اقترب الفهد بخطوات سريعة، تعانق قبضته فك المتبجح:

- مش باعمل كده عشان منتظر موافقتها يا.. طارق.

انبثق الدم من جانب شفتيه والرجلين يحافظان عليه في حالة وقوف:

- هه.. أمال إيه!!.. أنت فاهم إني مش عارف أنت مين ولا ماضيك إيه؟!.. مش أنا اللي يخفى عليَّ وساختك يا فهد بيه؟!..

رمقه بغضب صامت وهو يردف بصراخ جنوني:

- فاكر إنك هتقدر تحميها مني؟!.. دي بتاعتي أنا.. ملكي.

أشار "فهد" للرجال لكنه عاد يصرخ:

- أنا خسرت كل حاجة، كل حاجة.. بس هي لأ، هي ملكي أنا..

أتاه الرد من "الفهد" بصرامة مخيفة:

- دينا ملك نفسها.. وأنت خسرت..

وابتسم بسخرية:

- يا باشا.

عاد "طارق" يصرخ، يشجب ويعاند ويطالب بغنيمته، أو جاريته:

-ما خسرتش يا ابن الراجي، ما خسرتش.. أنا طارق الحديدي، ما باخسرش ومصيرها تقع في طريقي تاني.. ووقتها لا هارحمك ولا هارحمها.. أنا طارق الحديدي.. الباشا غصب عنكم كلكم..

وبعدها تعالت قهقهاته كأنه بالفعل صاحب النصر.. أو على حافة جنون وفقدان عقل، تطلع إليه "الكوبرا" بنظرة محتقرة آمرًا الرجلين:

- طلعوه زي ما اتفقنا، هما برا عارفين هيعملوا إيه!!

انفتح باب الغرفة ليظهر من خلفه طبيب، ملاك رحمة، ورجل آخر كبل الهائج الهاذي بصياح غير مفهوم المعالم ممتزجًا بضحكات مشتتة هيستيرية ومنح مساعدة مطلوبة، بدأ هو الحديث بنبرة ممتنة:

- متشكر يا دكتور..

وراقب الثائر الصارخ بخبال:

- رسم نهايته بنفسه..

ثم استدار نحوها بنظرة احتوت الكثير:

- ما كانش ينفع تكون واعية في موقف زي ده..

وافقه الطبيب بإيماءة:

- أنا وافقت بس يا فهد بيه عشان فهمتني إن في خطر على حياتها..

عدل الفهد من وضع سترته بثبات:

- فعلًا..

وتحرك مغادرًا، يشيعها بعينيه، يخبرها عن أمان جاهد ليمنحها إياه، وغد يود لو توافق على رسمه معه، لكنه سيترك لها حرية الاختيار ووقت القرار، قبل الخروج استطرد بحسم:

- تقدر تكتب لها على خروج من بكرة يا دكتور.

تبادل مع الرجل نظرة صامتة متفهمة.. ورحل، بعدما أوفى بوعده الذي رفضت هي توقيع صكه معه..

******

"يعني ما فيش حد معين بتتهمه؟!"

رفع عينين شاردتين نحو الضابط الجالس أمامه بترقب، يستعيد ذكرى ما حدث لشقيقته، التعب والبحث والقلق والكثير الكثير من الخوف، ثم

النتيجة صفر، زوجته.. طفله والأم، مائة فكرة وألف اتجاه ولا يدري أيها الأصح!!:

- مش عارف!!..

حيرة شديدة تتملكه، لا يدري لها مصدرًا ليقتلعه من جذوره علَّه يثوب لرشده ويكون إلى جوارها كما ينبغي.. هو يضيع بالفعل، غيابها عن الوعي يقتله، يعتصر قلبه بين جنبيه حتى تخطت نبضاته حاجز الصراخ وحدود الصمت..

تائه دونها، وعقله لا يدرك كل جوانب الصورة:

- التحريات أثبت إن من حوالي سنتين أنت اتعرضت لضرب نار مقصود.. يا ترى في رابط بين الحادثتين؟!

رد بتفكير:

- أيوة.. بس هو مسجون!!

سأله الضابط بتقرير:

- اسمه كمال زيدان مش كده.. أخو الزوج السابق لزوجتك؟!

أومأ بصمت ومجرد ذكر الاسم يؤجج غضبه ويكاد يفقده سيطرته على أعصابه، أردف الرجل:

- يعني ممكن يكون ورا الحادث!!..

نظر إليه وعقله يخبره أنه الوحيد.. خلف طعن زوجته على الأقل:

- ممكن جدًا.

نهض الضابط بحزم:

- تمام، هنعمل تحرياتنا وهنكون على اتصال.. لما تفوق يا ريت تدونا خبر عشان نكمل التحقيق.

منحه موافقة صامتة.. يعود بذاكرته للحظات كان ينازع فيها آخر الأنفاس والحياة تتسرب من مسام جسده، تتسرب كما كاد يحدث معها هي أيضًا..

كادت تضيع ويعلم أنه بعدها ميت..

******

من سنن الكون.. الميلاد، الزواج، الموت..

والأخير هو ديدن الحياة الأول والحقيقة التي لا ينفيها شيء، فكما ولدت ستموت.. مهما طال عمرك، مهما ظننت أنك لن تفارق، ومهما تمسك بك من حولك ظنًا منهم أنك معهم أبدًا..

الخلق يموتون كل يوم، عشرات، مئات، آلاف.. ولا نهتم، لكن عندما يلاحق الموت من هم الأقرب إلينا.. تتبدل الصورة، ويتدخل الخوف..

وحينما نتحمل نحن ذنب موت الأحبة.. يكون الوجع غير محتمل، والصمود في مواجهته يقترب من المستحيل..

فماذا إن لم يمت من أحبائنا واحد فقط!!.. بل اثنان.. وكلاهما.. كنت أنت السبب في رحيله عن دنياك؟!..

هل يمكنك أن تتبعهما!!.. تدفن روحك معهما في قبر واحد قبل أن تدفن الجسد وتهيل عليه تراب النهاية؟!.. تلوم ذاتك وتحملها آثام لا يطيقها بشر.. فمهما حاولت، تناسيت، ادعيت، تهربت أو غبت عن وعيك هاربًا من حقيقة تلقيتها كلكمة في وجهك، ستظل عالقة بعيدًا عن عالم الذكريات، ستظل واقعة، أكيدة ووحيدة.. أنت السبب!!

كانت تستقر فوق صدره، بكامل وعي جسد وغياب عقل ونبض يفارق القلب وعذابات سرمدية تخوض لُجتها الروح..

عادت من قبضة الموت التي لاحقتها، عادت على خبر.. لا بل ثلاث، رحلت الأم؛ وهي المقصودة.. مات الابن؛ والمعنيّ هي.. ورحم هو كمالها لم يعد جزءً منها؛ والخطاب موجه لها!!..

عادت تتمنى رحيل، عادت تدعو بفراق لربما كان فيه الراحة من ذلك التمثيل الدامي بما تبقى منها.. عادت وليتها ما عادت!!..

وعت لدنيا فارقها من تحب.. والدافع والمبرر والمسوغ والحافز هي..

القرار أصبح أمرًا واقعًا؛ لن تكون سببًا في مزيد من الفقدان، لم يبق إلاه.. ولو حدث له مكروهًا كان في الأصل موجه إليها ستموت، هي انتهت.. لم تعد أرضًا خصبة لإنبات ثمرة حبه، أو حمل أطفاله..

لم تعد أنثى.. بل هي شبه أنثى.. وللأدق بقاياها..

ولذا نشيجها فوق صدره في هذه اللحظة هو آخر لمسة.. ضمة ودفء تستطيع الوصول إليه منه، هو نهاية اختارتها بنفسها وبكامل إرادتها هذه المرة.. هو قرار لن تعود فيه..

تخشى عليه، ترتعب من فكرة أذى قد يلحقه ثانية لتئن هي.. وتشفق عليه من أطلال امرأة لم تعد صالحة لرجل مثله حتى لو عشقته وذاب هو عشقًا لها..

لا تريد شهامته، رجولته، شفقته أو حتى عطفه وحبه وحنانه.. بنهايتها انتهت حياتهما معًا وستخبره وبحسم قاطع وأخير رغم حاجتها إليه..

كان يضمها بحنو.. يربت فوق رأسها مرة.. يتحرك نحو كتفيها بربتاته، يقبل جبينها.. يواسيها بصمت ويشعرها بوجوده، بدعمه، بقربه وعشقه الذي لن يقل مثقال ذرة مهما توالت على دنياهما النوائب..

لخمسة أيام ظلت فاقدة الوعي، لخمسة أيام كان يموت في كل لحظة.. والرعب الذي يتملك من خلاياه لم يترك به مساحة للتفكير أو التعقل.. وعندما عادت، علمت بالخبر أو بالأحرى الأخبار؛ حدث الانهيار، انهيار تلقاه

فوق صدره ولم يترك لها الفرصة لتبارحه.. باتت جزءً منه، يحتويها ولا يجد سوى ضمته وبين ذراعيه أمانًا تحتاجه في هكذا لحظة..

فجأة أبعدته عنها، خرجت من أحضانه تهرب بعينيها بعيدًا عن عينيه للحظات، لحظات قصيرة أثارت عواصف قلقه وهواجسه، لحظات انحبست فيها أنفاسه وتوقفت نبضاته قيد انتظار ثقيل على الروح، بعدها التفتت إليه.. بحزم وقرار نهائي لا رجعة فيه كأنه طعنة جديدة لكنها هذه المرة في عمق القلب:

"طلقني"

(٣٦)

الأخير

أغلال من حرير

من منا لا يكره الأغلال!!

أغلال تعني القيد..

الأسر..

الانقياد..

العبودية لسلطة سجان لا يرحم..

يمارس علينا سطوته..

يأمر فيطاع..

يمتهن فننصاع..

يؤذي فنرتاع..

الأغلال باختلافها قاسية..

آسرة..

مرفوضة..

إلا تلك الأغلال..

نبحث عنها..

نرضى منها الهوان..

نتقبلها بطيب خاطر..

تلك الأغلال نعشقها و نرغب بها كقيود أبدية..

إنها أغلاله..

أغلال الحب..

أغلال من حرير!!

إهداء/ مروة ممدوح

***

عاشق أنا وعشقي فاق الحدود..

أناني أنا بحبها وأعترف..

أريدها لي بلا ماضٍ يؤرقني ولا مستقبلٍ سوى معي..

اقتحمتُ أسوارها.. وهدمتُ حصونها..

ولكن هل استطعتُ الحفاظ عليها؟!..

غيرتي أرقت مضجعي وصرتُ مهووسًا بكل ما يتعلق بها..

يخبرونني ألا أجعل الحب يستهلكني..

أن أحتفظ بجزءٍ لنفسي..

ألم تأتِ تلك النصيحة متأخرة كثيرا؟!..

هل حبي خطأٌ أعاقب عليه؟!..

أم أنني لم أخلق للسعادة؟!

كلمة واحدة حطمت ما بقى من تماسك لديّ..

كلمة واحدة مجرد تخيلها يجعلني أشعر بالموت!

كلمة واحدة سحبت أنفاسي وجعلتني أختنق خوفًا..

هل ستتركنى؟!

وهل سأسمح لها؟!

وهل ستكون تلك هى النهاية؟!

"أدهم"

***

فقدُ تلو الآخر جعلني أدفن مشاعري وأحيطها بسياج ثلجيّ..

جعلني أهرب من الحب..

أهرب من التقارب..

أهرب من التعلق بأي شخص.. حتى لا أذوق مرارة الفقد مرة أخرى..

حتى لا أحترق بنار الفراق..

لكنها اقتحمتني بطيبتها..

برقتها..

بقلبها الكبير الذي احتواني بكل ما بي من تعقيدات..

هدمت حصوني وأذابت ثلوجي..

لم أملك إلا أن أعشقها..

لم أملك إلا أن أسلم لها رايات قلبي الخائف من مرارة الفقد..

لم أملك إلا أن إعترف لها بعشقٍ أبديٍ يملك عليَّ حياتي..

لم أملك إلا أن أخر أمامها معترفًا لها بأحقيتها في سلب قلبي وأنفاسي..

لم أترك خوفي.. ولكني حاولتُ محاربة جميع مخاوفي فقط من أجلها..

هى حبيبتي وزوجتي وأم أطفالي..

هى لمياء.. وكفى..

"آدم"

وتسأليني ما الحب؟!..

الحب؛ أن أكتفي بكِ ولا أكتفي منكِ أبدًا..

"نزار قباني"

....

"طلقني"

بشبه حزم.. انكسار.. ضعف.. وشعور بالنقص..

"على جثتي"

بصرامة قاطعة لا جدال بعدها.. نظرة احتوت حنان الدنيا.. وهوى أغرق القلب حتى فاض..

يقال: أن الحب أعمى يقوده جنون وربما هوس، ونقول: أن القلب عندما يسلم مفاتِحه بين يدي امرأة يسهل عليها كسره، إيلامه، النفاذ إلى أعماقه.. أو ببساطة...

الهروب من براثن عشق اجتاحها خلف أبوابه..

وفاشلة هي.. فاشلة في كل شيء إلا الوقوع بغرامه، حتى لو تذمر هو كطفل يطالب بها كلها لنفسه بأنانية رجل فطرية، فاشلة في القرب والبعد والهجر وطلب الفراق وحتى الخوف..

فاشلة تتعامل بتخاذل مع عاشق يعيش الجنون..

تخشى عليه من خطر يتربص بها وقد يسدد لها في صدره هو، تشفق عليه من بقاياها التي فقدت صلاحية الأنثى الكاملة، وترفض وجوده بداعي حب حالي وتنازل يومي حتى مستقبل مليء بالشفقة تختفي خلف مسمى علاقة تأججت يومًا بنيران عشق..

ولأنها هي فالجبن مظلة تحتمي أسفلها من سيل ضعفها أمامه، احتياجها له، ورغبتها في الموت فوق صدره أو حتى بين ضلوعه لو فقط أدخلها هناك..

- مش عاوزاك تضيع مني!!

هل تبرر بغباء؟!.. أم تسوغ لنفسها فراقًا بافتعال خوف؟!.. هي لا تعلم لكنها فقط تشعر بفزع لم يمر بحنايا خافقها يومًا، وهذا الخوف يحيط به هو.. وبطفليها؛ وينتعش العقل بذكرى وهلع:

- الولاد!!

طمأنها باحتواء كفها بين أنامل قبضتيه بإحكام:

- ما تخافيش.. كويسين.

عادت تبكي، ترتعب ومائة ألف فكرة تفجر رأسها لشظايا متناثرة:

- لأ.. عاوز يأذيهم.

انعقد حاجباه، هل تعلم من فعلها!!.. وترجم انقباض قلبه بسؤال متوجس:

- هو مين؟!

تشبثت بأطراف قميصه كتائهة فاقدة لكل منطق:

- كمال.. قالي هيأذيهم.. عاوزين يقتلوهم.

هل هي هلوسات!!.. لا يمكنه الجزم، لكنها تحتاج لشعور بالأمان وهو سيمنحها إياه بكل جهد متاح أو حتى غير متاح، ثبت رأسها المشتتة في حركات مرتبكة لا معنى ولا مستقر لها، احتوى عينيها بعينيه يبثها عبر نظرة؛ السكن الذي تنشده:

- ما تخافيش..

وتنهد بعمق:

- الولاد في الفيلا.. والحراسة معاهم أربعة وعشرين ساعة.. فهميني بس الأول!!

وبدت كأنها في عالم آخر، لا ترى صورته أو تسمع صوته.. بل فقط شياطين الخوف تتمكن منها خلف نصب أقامه ذاك المجرم على أطلال قلبها الواجف:

- هيأذيك..

وانتزعت نفسها بعيدًا عنه، بدمع يترقرق ليذبح فؤاده جوار حزم تحاول افتعاله ولا تُحَصِّل أي نجاح:

- طلقني..

زم شفتيه، هي تسعى لإغضابه بالتأكيد:

- قلت لك: على جثتي.

وبكل شدَّات العالم ضغط أحرف كلمته، لكن عيناها لمعتا بوجع:

- ما تقولش كده.

اقترب ما تباعدته يتوسل قلبها الإنصات والصمت:

- أنتِ ما تقوليش كده، ما تكرريهاش!!

وانكسر جفناها في عناق حزين:

- أنا ما بقيتش أنفعك.. مش هاقدر أكون أم ولادك، مش الست اللي...

هل يضر الزعيق في حالتها!!.. قد يفعل وقد لا يؤثر بشيء، لكن أن يتمالك نفسه أمام هذيانها الأحمق فهو المستحيل بعينه، بكفه ألجم شفتيها عن الحركة وبصوته الهادر أمرها:

- اخرسي.. ولا كلمة.

نظرت إليه بضعف، يده تغطي فمها ونصف وجنتيها، ومقلتاها تتألقان بدموع سالت ببطء حتى بللت أنامله، وعناق النظرات وحديثها ومشاعرها أصبحوا أسياد الموقف، حتى استكانت له بصمت كسر حاجزه هو باحتواء دافيء:

- أنتِ دنيتي كلها، كفاية عليَّ وجودك معايا..

وألصق شفتيه فوق جبينها بقبلة تسحب منها أوجاعها:

- عندنا ملك ومروان.. عندي أنتِ.. هاعوز إيه تاني!!

تراجع يغوص في بركتي العسل الحزين خلف أهدابها:

- أنتِ كمالي مش بس نصي التاني، عاوزاني أعيش بنص روح وقلب وعقل!!.. أنتِ كفاية.. كفاية قوي

ابتعدت، تهرب بكل جوارحها بعيدًا عنه، لا تبحث عن كلمات أو حديث مطول، لا ترغب في احتواء أو دفء عاشق، لا تحتاج لشفقة يسترها بقايا حب، ولن تكون معه وهو نقطة ضعف قلب.

- كمال مات.

رفعت عينيها إليه بصدمة، فاجأها بالخبر ودون سؤال انطلق يشرح:

- أنا اتهمته في التحقيق، مات تاني يوم الحادثة، أووفر دوز.. واللي كان معاه اعترف بعد.. أنتِ عارفة هما بيتصرفوا إزاي في المواقف دي!!.. واتقبض على اللي نفذوا.. لما تقدري لازم تتعرفي عليهم.

تعلقت نبضاتها به فدنا يهمس بحنو:

- يعني كمال مش حجة.

فتحت فمها تريد إضافة المزيد من الحجج، وقاطعها بلمسة من أنامله تعارض اعتراضها، وتغلق أمامها كل السبل إلا سبيله هو:

- ششش.. ما فيش حجج هتنفعك، وما فيش حاجة هتحررك مني يا جمانة..

ظلت تعاند برفض صامت فهمه من لقاء الأعين، تنهد وقرر:

- هاسيبك ترتاحي.. ترتاحي شوية، تفكري وتهدي وتعرفي إن مكانك معايا أنا وبس.. مش هاغيب.

وعاد ينحني، يقبل الجبين ويبث دفء أنفاسه في باطن الكف، يضم بنظرة ويدلل بلمسة، يأمر بصمت ويحتوي القلب قبل الجسد.. يسكنه جوار روحه، ويحبسها خلف قضبان عشقه..

أغلاله لا حرية تكمن في الخلاص منها، فكلما حاولت الفكاك، أحكمت عليها أكثر، وهو لا يريد سواها أسيرة قيد قلبه.

******

البعض ينزل من عليائه عندما تحدث الكارثة.. أو بالأحرى هم ينتظرون حدوثها حتى تستقيم حياة من يقتربون منهم، يدخلون حيز وجودهم، ويعايشونهم يومًا بيوم..

عندها يتكرمون بحاتمية ويطالبون بذاك الوجود، ربما فقط لأجل من يحبون!!.. لكن ليست كل المصائب يسهل التعايش معها، وليس من اليسير تقبل من نلقي على عاتقه بجزء ولو ضئيل من إثم معاناة مررنا بها.. فقط لأنهم كانوا هناك..

جروح جسدها تطيب، ببطء رغم ألم تعانيه، ألم تتوجع به الروح لأن النفس لا تطيب، لا تهنأ، وتخاف حد فزع سيغدو هو ونيس القلب والعقل فقد أصبحنا محض أطلال لما ظننا أننا كلّه يومًا..

لا يتركها لحالها.. وبأنانية من يغرق ويحتاج لطوق نجاة تتشبث به، تغرقه معها ولا تريد.. لكنها لا إرادية النفس الكسيرة التي لا تجد مرفأً سواه، عندما يحضر ترفضه، وحينما يغيب تتوسل وجوده..

طرقات هادئة على باب غرفتها انتزعتها من شرود تود لو تتيه فيه لنهاية الحياة علَّها تنسى أو ترتاح، التفتت نحوه تتوقعه رغم أنه لا يطرق الباب أبدًا، بل يقتحمه كما اقتحم حياتها وخافقها وكل جوارحها، ولم تتوقع أو للدقة لم تتمنَ أن تراها.. بوجه شاحب شبه حزين يحمل بوادر خجل، ابتسامة خافتة وخطوات بطيئة مترقبة تنوء برغبة اطمئنان لن تكون سوى مصطنعة:

- إزيك يا جمانة؟!

وكأنما استحضرت الدموع بحضورها، بنبرة صوتها.. وعاد الانكسار يغلف ضعفها أكثر، أدارت وجهها ترفض النظر إليها.. ماذا تريد منها بعد؟!.. لقد انتهى الأمر والقصة أسدل عليها ستار بلون الدم..

- مش عاوزة تردي عليَّ!!

واقتربت من الفراش، تمد يدًا مترددة تربت بها على كفها التي ما إن استشعرت اللمسة حتى سحبتها بعيدًا، ضمت المرأة أصابعها وعيناها تنخفضان أرضًا، لأن الذبيحة على حق ونزيف قلبها لم يتوقف بعد وربما لن يفعل أبدًا:

- أنا عارفة إنك زعلانة مني.. أنا جاية أصالحك..

أغمضت "جمانة" جفنيها وابتسامة ساخرة واسعة ترتسم داخلها، وصلها صوتها بضعف:

- أدهم بيحبك.. بيموت من غيرك، أنا مش لاقية كلام ينفع أقوله عشان تنسي اللي أنا...

وتقطع صوتها، تنسى ماذا؟!..حقًا!!.. زمن عجيب، الفريدة تنزل من برجها العالي باعتذار عما لا تعرفه وبكلمات لا تجدها، هذا رائع بالفعل، همست بحزم باكٍ:

- من فضلك، أنا تعبانة، محتاجة أرتاح.. ياريت تسيبيني لوحدي.

اشتعل سخطها للحظة، تطردها!!.. لكنها عادت تتذكر ملامح ابنها، وجعه وحزنه وانطوائه على ذاته، زوجته التي كاد يفقدها وابنه الذي كاد يضيع والآخر الذي ضاع!!.. ضمت قبضتيها تخرس لسانها عن حدة كلمات ترددت بعقلها، ثوان وعادت توازن الأمر باعتدال تقنع بقايا ضمير أنها تفعل الصواب:

- مش هاتكلم عن موقفي يا جمانة.. اللي يهمني أدهم.. وابني ضايع من غيرك!!

وارتسمت البسمة الساخرة على شفتيها، إنها حقًا امرأة مميزة، أدارت وجهها بعيدًا أكثر توحي برفض السماع، رفض العودة، وبرفض وجودها..

وكانت على حق، فالغرور تكرم بما يكفي وحان وقته إيابه لمرتبته الحقيقية، تأملتها "فريدة" لثوان أخرى لم تحاول فيها اللمس أو الحديث، لم تواسيها لفقدان أم أو طفل هو حفيدها، وربما في الغد تتحدث عن فقدان آخر بحق ابنها في أبوة لن تستطيع هي منحه إياها!!..

غادرت، لكن الأمر لم ينتهِ بعد.. كأن كل من منعوها حقها في الحياة يظهرون تباعًا بثقل آخر على النفس هي ليست في وضع يسمح بتحمله..

خرجت "فريدة" ودخلت "راضية"..

بنظرة حزينة واقعية أو مفتعلة لا يهم.. بدموع مواساة أو تماسيح لا تبالي.. بشماتة موتها على قيد النبض أو مساندة بإدعاء أنها ابنة لم تنجبها لا تكترث!!..

- دايمًا أعرف متأخر يا جمانة كأني مش في مقام والدتك!!

ولها العين لتعاتب!!..

ربتت على كتفها بحنو لم تستسغه:

- البقاء لله يا حبيبتي.. أنتِ عارفة إني مكانها، وربنا يخلي لك ولادك يملوا عليك دنيتك.

آهة عالية اخترقت روحها دون أن تغادر شفتيها، وتذكرها كأنها نسيت!!.. وماذا بعد؟!.. نادتها المرأة فنظرت إليها وبجفاء صادم سألتها:

- دلوقتِ ارتحتِ!!

ذهول مستنكر علا وجه "راضية" كأنها تخبرها عن جنون ألمَّ بها:

- ليه يا جمانة بتقولي كده؟!.. أنتِ زي بنتي وراحتك وسعادتك...

وقاطعتها بتتمة جملتها كما يقول الواقع الذي عايشته:

- آخر حاجة تهمك.. لأني في نظرك كان لازم أموت يوم ما حسام مات.

ارتبكت السيدة، هل من حقها أن تقول: "نعم!!".. أم أن آدميتها تحتم الإنكار!!.. قلب أم أو قلب امرأة عانت في السابق وإنسانة لديها شبه ضمير حي؟!..

- يابنتي...

بإشارة منعتها وبجملة قاطعة نبرتها بها غضب:

- أنا تعبانة..

اتسعت عينا المرأة في استنكار!!.. استهجنت منها طردها فهي لم تؤذها لكن قلبها كان يرفض وذاك ليس بيدها، لمَ لا تتفهم!!.. نهضت تودعها بطيبة حاولت استدعائها:

- ماشي يا بنتي.. هاسيبك ترتاحي، بس أنا زي مامتك.. مهما حصل هتلاقيني جنبك.

وتكررها!!..

"ابنتي"..

ولا تستشعر حرفًا واحدًا لكنها تغادر وأمام بابها تقابله، ينعقد جبينه ويكاد يخترق بعينيه الجدران علَّه يراها ويطمئن على حزن سببه وجود هذه السيدة، رسمت بسمة خافتة على شفتيها ترغب في الحديث معه، تطيب جرحه لأنه هو من يطيب جرحها:

- إزيك يا بني؟!

وبجمود متعجل جوابها:

- الحمد لله، هي جمانة صاحية؟

ردت بطلبها المتوتر:

- أيوة.. كنت عاوزة أقولك كلمتين.

منحها اهتمامًا باهتًا بنظرة متسائلة فأشارت حولها:

- لو في مكان نقعد فيه!!

فكر للحظة ثم ذهب معها لمقهى المشفى، وبينما هي تتحدث عن كونها محل أمٍ فقدتها، عن كونه هو لها الزوج والابن والتعويض والدفء والأمل، وعن أن الحياة لم تنتهِ بعد كان ينصت ببرود، هذه المرأة لا تختلف كثيرًا عن والدته، كل منهما لها طريقتها الخاصة في تحطيم حبيبته، وهذا يكفي:

- أنتِ استكترتِ عليها تعيش..

مقاطعة حادة بنبرة قاتمة اندهشت لها وسكنت بخجل تعلم أنه على حق لكنها تأبى الاعتراف وفقط:

- استكترتِ عليها تحب ويكون عندها أولاد.. كنتِ عاوزاها تندفن مع اللي راح حتى لو لسه بتتنفس.

لم تجد ردًا لكنها فتحت فمها ترجو لسانها حركة معاندة ألجمها هو باستطراد غاضب بوضوح:

- محاولاتها ترضيكِ كانت بتكون على حسابي أنا، ورغم كده؛ ولا في لحظة فكرت تزعلك أو تجرحك..

ونهض يرفض تتمة كلام لا طائل من ورائه:

- وكله ضاع في لحظة انتقام أسود من أخو ابنك..

استند بكفه فوق الطاولة مقتربًا منها ببداية انحناءة:

- دلوقتِ الندم مش هينفع، ولا حتى أي كلام بيوصف مشاعر مش موجودة.. عن إذنك.

ولو قالوا له أنه يفتقد الذوق وأدب معاملة الكبار لأمرهم بالذهاب إلى الجحيم.. فمن تهمه تعاني وتتوجع بسبب هؤلاء.. وهو لن يكون رحيمًا بمن يؤذيها أو لبقًا معهم، حتى أمه نفسها..

عاد إليها ونابضه يناديها، يأمل أن تفيء لتعقلها، أن تعود إليه حيث مكانها الذي خلقت له، أمام بابها قابل شقيقته ذات الملامح الذابلة، ابتسم لها فبادلته البسمة بضعف، عواصف ورعود أنهكت حياتهم جميعًا، وهي الصغيرة.. نالها منها الكثير، همس لها باهتمام:

- عاملة إيه؟!

أومأت بهدوء:

- الحمد لله.

تأملها، رغم عذابها وكل ما حدث فهي هنا، معهم.. إلى جوار زوجته وإلى جواره، ما مرت به لم يكن باليسير، يفوق قدرة أعتى الرجال على التحمل.. لكنها هي خاضت غماره، عانت أوجاعه، ولا تزال تبثه هو من قوتها ليقف على قدميه..

ربما لزوجها اليد العليا في صمودها حتى اللحظة، حكت له الكثير، علم الكثير، وكل ما هو كثير مؤلم وموجع لأنه لا يقدم ولا يؤخر في أنات قلب سهر لياليه يعانيها:

- هاسيبك تدخل لها الأول، بعدين هابقى أسلم عليها وأقعد معاها براحتي.

وها هي تتفهمه دون حديث:

- طمنيني عليكِ.

هزت كتفيها ورسمت اسم الحبيب بين ثنايا عقلها لتتغير لمعة الأعين وتكتسب البسمة شيئًا من روح:

- كويسة يا حبيبي، ما تقلقش عليَّ.. ادخل لها يلا.

أطاع أمرها بصمت.. توجه نحو بابها ودون طرق فتحه ببسمة عاشقة، وعلى وجهه تصميم محدد، فهي لن تكون إلا ملكه.. معه، تنتهي به وإليه.

******

أن نفارق.. هي عادة وسنة كونية، لكن أن نفارق وهناك نقصان جلل فهذا كثير..

كم من العمر مر في انتظار!!.. كم من ليال توسدت فيها صدرها تبلله بالعبرات وتشتكي في صمت وهي تهدهد دون حديث!!.. وكم كان باقيًا حتى ترى فرحتها الأولى وربما الوحيدة؟!..

اللهم لا اعتراض..

رباه هي لا تعترض، هي فقط تتألم.. حد قسوة تعتصر القلب دون هوادة، دون رأفة، بغلظة تنتزع منه النبض وتتركه في سكرة بين الموت واللاموت..

ثماني سنوات وزواج أول، وأكثر من عام وزواج ثانٍ، وانتظار تلو انتظار حتى حقق الله لها الحلم والأمنية والمعجزة بجنين تحمله في أحشائها..

وانتظار آخر لكنه قريب، أيام معدودة، ساعات ودقائق محسوبة حتى يخرج من ظلمة الحشا لدفء ضمة بين أحضانها، وكانت تتمنى وجودها، تلك اللحظة التي تحمله هي أيضًا وفرحة خاصة بطفل ابنتها الكبرى بعد غياب طال وطال حتى سكنت الروح الجريحة في استسلام خانع..

لكنها رحلت..

فجأة رحلت، غادرت دنياها قبل أن تسعد لسعادتها وتبتهج ببهجة وليدها، فارقت بوجع غير محتمل، والدموع لم تجف بعد، تصاحبها آلام لا حصر لها على أم وأخت وجنين و.. الكثير!!

ربتت على بطنها التي ظهر انتفاخها بعض الشيء بشجن، همست لطفلها الساكن جوار قلبها:

- كانت مستنياك قوي.. وفرحانة بيك، بس ربنا أراد إنها ما تشوفش ملامحك ولا تحس بدفا حضنك..

وعادت دموعها تتساقط، توازي آهة أطلقتها الشفاه بتنهيدة وجع:

- كان نفسي تكون معايا..

"لميا"

وركض إليها يضمها إليه، يواسي نفسها المكلومة برفق عطوف:

- الله يرحمها، ما تتعبيهاش.

رفعت عينيها إليه بتأوه خفيض:

- استنت كتير وسابتني قبل ما تشوفه.

مسح وجهها بأنامله:

- ده قدر، هي هتشوفه.. هتبقى فرحانة بيه كمان، وهتحس بيكِ وبفرحتك.

وردها أوجع فؤاده:

- بس أنا مش هاحس بيها، مش هاشوف الفرحة في عينيها.. مش هاشوفها خلاص.

أعادها فوق صدره باحتضان قوي، يعلم ما تمر به، يقدر كل وجع ينخر في فؤادها، يلملم تلك البقايا التي تحاول الاستناد إليها حتى يدعمها ويمر بها من شق ألم هو الأقسى.. لكن الفراق مر، ووجعه علقم لا يضيع مذاقه شيء بديل.

قبل رأسها بهمس حانٍ:

- ادعي لها، والأهم ادعي ربنا يجمعك بيها في الجنة.

أنَّت بخفوت:

- يارب.

صوت خافت وبكاء عند باب الغرفة جعلها تبتعد عنه، تمسح وجهها كطفلة وتلتفت للصغير الذي يحمل ابن أختها بشبه ملل:

- أنا مش فاهم هو بيعيط كتير كده ليه!!..

تناولت منه "مروان" برقة، حاولت الابتسام بإشفاق:

- عاوز مامته يا يوسف.

تبرم الفتى ولوى شفتيه بتذمر:

- أنا حاولت أخليه يلعب بأي حاجة بس مش راضي، وبيغلس على ملك طول الوقت.. مش عارفين نلعب وهو قاعد في حضنها على طول.. خلوه هنا بقى.

وابتسم أبيه هذه المرة بسؤال:

- وفيها إيه يعني يا جو ما هي أخته!!

عقد حاجبيه بضجر:

- يعني إيه أخته!!.. خلاص ما تلعبش مع حد وتلعب معاه هو بس!!

ولا مفر من ضحكة خافتة انكسرت في نهايتها وهي تجيبه:

- أنتوا بتلعبوا إيه؟!

ابتسم بفخر:

- بلاي ستيشن..

سأله أبوه باهتمام:

- ومين كسب بقى؟!

هز كتفيه وهو يغادر:

- سيبتها تكسب مرة والباقي غلبتها..

نظرا لبعضهما البعض بدهشة ضاحكة. سألته وهي تداعب الصغير الساكن بين أحضانها:

- هترجعهم الفيلا إمتى؟!

رد بشرود:

- بافكر أخليهم هنا معانا.. باباهم مش مركز معاهم، وأنت عارفة الباقي.. الحراسة هناك أحسن بس إحنا هنخلي بالنا منهم أكتر..

أومأت موافقة بصمت ونفسها تهفو لراحة، فبين جنبات الألم.. قد تجد ضوء الأمل.. وما الأمر إلا حرفين تبادلا الأماكن.. فعاد القلب ينبض والروح تتمنى وتحلم.

******

مودة ورحمة..

سكن، أمان واحتواء لا محدود.. وربما ما هو أكثر..

لن تطمح لأكثر من ذلك، هو.. ذاك الرجل الذي وقَّعت ميثاق زواجها منه رغبة في حياة ظنتها منتهية قبل أن تبدأ؛ أصبح الروح والفؤاد وأساس تلك النفس التي تحاول بناءها من جديد..

كانت تستقر فوق صدره، أنامله تتخلل خصلاتها برتابة وشرود.. كلاهما شارد، هو فيها وهي فيه واختلفت وجهات النظر، تطلعت إليه بتأمل فبادلها النظرة بابتسامة:

- بتفكر في إيه؟!

اتسعت بسمته وداعب أنفها بسبابته:

- فيكِ.

ارتسم تساؤل مبهم في عينيها جاوبه بهدوء:

- أنتِ قوية قوي يا سارة.. قوية لدرجة إني عارف ومتأكد وقت ضعفي هتكوني مصدر قوتي.

تسللت لقلبها سعادة.. لم ينطقها بعد، ولا تدري لمَ!!..

تشتاقها من بين شفتيه لكنه ساكن غامض، كل جوارحه، كل نظرة ولمسة وبسمة تصرخ "أحبك".. لكن اللسان صامت عنها، عادت تريح رأسها فوق نابضه:

- أنا قوتي منك أنت.

رفع وجهها إليه بتأكيد:

- أنتِ قوية من قبل ما أعرفك، من قبل ما تكوني معايا.

وبحزم امتزج ببسمة بدت لعينيها عاشقة:

- بيَّ أو من غيري أنتِ قوية.

وهمستها دون وعي كما اعتادت في الأيام السابقة:

- بحبك.

واستقبلها بخافق هادر كما اعتاد كلما نطقتها، وأمل يسطع في الأفق، ورد لا يمتلك غيره في الوقت الحالي باقتراب وقبلة ولحظات عشق لطالما تمناها وتأخرت هي في الوصول.

******

البعض موتهم راحة، لهم ولمن حولهم..

لن تقول أنها تمنت لها الموت.. لا هي لم تفعل، هي أمها مهما كان، مهما قست عليها أو أودعتها طريق الضياع والنسيان.. هي من بقي لها في هذه الدنيا، وها هي ترحل بلا وداع، ودون عودة ولا عزاء للمنسية وحدها..

مأتم قصير وحضور قليل، انتهى سريعًا والكل ذهب إلاه، في النهاية وقف يؤدي واجبه وقبل الرحيل أخبرها:

- دينا.. مش هاقولك لو احتجتِ حاجة أنا موجود.. لأ..

وبحزم أكمل بعد لحظة صمت:

- أنا موجود طول الوقت، سواء احتجتيني أو لأ..

وفكر لثانية قبل أن يردف:

- طارق في مصحة مش هيخرج منها إلا على القبر.. أنتِ في أمان، بيَّ أو من غيري.

تأملته بحيرة، هي لا تفهمه، لا تريد أن تفهمه أو ربما تخاف أن تفعل.. ما الذي يريده منها بعد؟!.. حطام امرأة، بقاياها، شبه لما مضى لن يعود كما كان!!.. ما الذي يبحث عنه فيها؟!.. وانطلق السؤال دون إرادة:

- بتعمل معايا كده ليه؟!

تأملها "الفهد" لهنيهة بسكون، علت ملامحه نظرة غامضة وجوابه أتاها أكثر غموضًا:

- لأني عارف إن مش سهل الفرصة التانية تتولد.

واقترب خطوة:

- كل شخص من حقه الفرصة دي، ودايما بيكون قصادها معوقات تمنعها وتمنعه إنه يعيشها..

وابتسم بخفة:

- كل اللي باعمله، إني باخفف العوائق دي من طريقك..

وهز كتفيه بتسليم لحقيقة:

- لأن ده حقك..

شعرت بارتباك يغزوها:

- أنت عاوز مني إيه؟!

اتسعت البسمة وشملت لمعة غيوم عينيه صورتها الحائرة:

- أنتِ عارفة أنا عاوز إيه!!.. وقت ما تكوني جاهزة للقرار هتلاقيني.

وصافحها برقته المعتادة التي لا تكاد تستشعر لمسته فيها، ودعها بنظرة مطمئنة ورحل تاركًا علامات استفهامه على جدران عقلها التائه.

******

أخبروها أن الحب أنانية، أن العشاق يؤثرون ذواتهم.. في الامتلاك، في البعد والهجر والفراق، أنانيون متسلطون والطمع هو سمت دروب الغرام..

أخبروها أن العشاق ضائعون، تتيه بهم الطرق عن أي اتجاه إلا سبيل المعشوق، فمهما تشعبت المتاهة التي شردت فيها.. لن تنتهي إلا إليه..

وأخبروها أن العشق ضعف وقوة، ماء ونار.. جذوة مشتعلة لا تنطفئ، وفيضان يحطم سدود الكبرياء أمام الحبيب فلا تملك سوى الخضوع لسلطانه على قلبك..

وأخبروها أنه ألم.. الفراق ألم.. الاشتياق ألم.. ولمسة في عالم الحلم تفيق بعدها على سراب هي كل ألم..

وأخبروها ألا تنسى، فالنسيان دواء القلوب، والعشاق لا يتداوون إلا بالعشق!!..

وتعلم هي أنه أحمق.. وربما هي الحمقاء، ترفضه بحدة وعنف، وتريد منه أن يرفض رفضها، أن يختطفها، أن يكبلها به، فلا مكان لها إلا معه..

تحتاجه، تشتاقه، والقلب ينشد القرب.. لكن الروح تعافر بقاءً بعيدًا، والعقل يمنطق حياته دونه لأنه يستحق ما هو أفضل..

تريد أن تكون أنانية ولا تستطيع، لم تكن من طباعها يومًا، ولن تستحدثها في نفسها الآن حتى لو لأجل معشوق عاشق عشقه جنون وحياة..

كم تمر الأيام في بعده بطيئة!!.. واللحظات في غيابه تخطت حدودها فأضحت كالساعات.. لكن ينهرها عقلها؛ أنتِ على حق فتماسكي قليلًا وبعد وقت لن تكون الأمور صعبة.. هو غبي وهي غبية، فهذا لن يحدث أبدًا والألم باقٍ حتى لحظة النهاية..

أنهت ارتداء ملابسها مجبرة، الأخت الكبرى تعيش دور الأم معها بعدما غادرت المشفى قبل أسبوعين، وهو.. وابتسمت بانكسار؛ تراه كل يوم من نافذة منزلها ويراها.. يجلس في سيارته لساعتين، يراقبها أو يشتاقها هو الآخر..

والمتاح لمحة من وراء ستار..

الحراسة تقف أمام بابها مباشرة ووعده كان فترة نقاهة لن تطول وحتمًا في نهايتها ستعود إليه، تتمنى ذلك لكن القرار لم يعد في يدها.. لقد اتخذته منذ اليوم الأول وانتهت معه..

التقطت حقيبتها وتحركت مغادرة، عندما فتحت الباب تأهب رجلان ضخمان لظهورها، أخفضت وجهها ومرت بينهما سريعًا، تلعن شقيقتها

التي أخبرتها أنها ستصطحب الصغيرة من مدرستها وقبلها أرسلت زوجها ليأخذ الصغير دون أن تمنحها حرية الاختيار..

أمام السيارة التي كانت في انتظارها وجدت الرجل البشوش حيته برقة:

- إزيك يا عم إبراهيم؟!

وابتسم لها بحنان أبوي:

- الحمد لله يا بنتي.

دخلت إلى المقعد الخلفي واستكانت في صمت، يوم آخر تقضيه في منزل أختها ضد رغبتها في الوحدة، تحركت بها السيارة فأسندت رأسها لمسند مقعدها وأغمضت عينيها.. تشرد في وقت كانت فيه تمتلك النجوم والقمر.. بل دفء الشمس، وفي لحظة فقدت كل شيء..

قد تكون بإرادتها، وقد يكون اختيار قدر.. لكن في ختام الحكاية تعلم أنها على حق..

تنهدت بحرارة، والقلب يعلنها صريحة:

"أشتاقه يا الله"

وتزجره لاعنة الحب والمحبين وقيود العشق التي تسلسلها إليه:

"لم يعد لك.. فتوقف"

مر وقت بعده توقفت السيارة فجأة، فتحت عينيها تظن أنها وصلت لمنزل أختها لكن ما رأته حولها أثار رعبها.. صحراء ممتدة على مرمى البصر وطريق تمرق به من جوارها سيارات معدودة بسرعة خاطفة، انفتح الباب البعيد عنها وجسد احتل المقعد المجاور.. ينزع عن رأسه قبعة صيفية لم ترها أو تنتبه لها فوق رأس الرجل حين انتظاره.. وواجهتها عينيه المشتاقتين.. لتعلم أنها في وسط شرودها لم تنتبه أن من قاد السيارة كان هو..

ضعفت وضعف القلب، بل هلل فرحًا ورقص بعنف بين ضلوعها كأنما يخرج لسانه لها مغيظًا:

"لقد أتى يا حمقاء"

ابتسم لها بحب، احتواها بنظراته يطوف فوقها، يتأمل تقاطيعها الحزينة الناحلة:

- وحشتيني.

هزت رأسها بنفي تريد إفاقة من غيبوبة يجبرها على الدخول فيها معه:

- أنت بتعمل إيه؟!

أجابها بمكره المحبب إليها:

- بانفذ حكم القدر.

طالعته بحيرة فاقترب، أمسك بكفها، لثمها برقة فارتعش جسدها بأكمله:

- حكم عليك غيابي.. بالمؤبد.

ولم تفهم أيضًا فأردف بنبرة عاشقة:

- معايا..

هزت رأسها برفض قطعه بحسم:

- ما فيش استنئاف على فكرة.

ترجته في ضعف:

- أدهم.. ليه بتعمل كده؟!.. ليه بتصعبها عليَّ وعليك؟!.. خلاص إحنا انتهينا.

وسخر منها بحدة:

- انتهينا بأمر مين!!.. جبنك وخوفك، ولا تضحية شايفة إنها مناسبة!!

كادت ترد فقاطع بحزم:

- أنتِ بتضحي بقلبي أنا.. بتوجعيني أنا.. بتقتليني أنا..

ودمعت عيناها بألم:

- الفراق هيوجعنا شوية، بس مصيرنا نتعود.. المهم إن ده الصح.

صاح فيها غاضبًا:

- الصح من وجهة نظر مين؟!..

وجذب وجهها إليه:

- أنتِ مراتي، لا في يوم هابعد عنك.. ولا هاسمح لك تبعدي، أيًا كانت الأفكار اللي في دماغك.

سيل دموعها يزداد والنبرة اكتسبت وجعًا تحشرجت به في حلقها بمرارة:

- أدهم أنا ما بقيتش أصلح لك.. خلاص بقيت بقايا ست، أنت تستاهل...

وأخرسها هذه المرة بشفتيه عن أي حماقة وغباء تخرجه من بين شفتيها، ربما يريد إضعافها، أو فقط يشتاقها حد الألم.. ابتعد عنها وأسند جبينه لجبينها فهمست بوهن:

- ليه عملت كده؟!

تراجع ينظر في عينيها:

- يمكن عشان وحشتيني.. ويمكن عشان دي أسهل طريقة أسكتك بيها لأنك بتقولي كلام غبي..

تعلقت عيناها بوجهه، بل تعلقت روحها وكل جوارحها به في استكانة وتعب:

- جمانة أنا بحبك.. فاهمة يعني إيه!!

وتراجع أكثر فبينهما حديث مطول:

- يعني دنيتي وحياتي ونبض قلبي وجنوني وعقلي وكل حاجة أنتِ.. يعني بعدك فيه موتي، عاوزاني أموت!!

هتفت بسرعة ترجوه ألا ينطقها:

- بعد الشر.. قلت لك ما تقولش كده..

ابتسم بحزن:

- يبقى ما تبعديش.

وتظل تعاند:

- بس أنت..

لمس شفتيها بأنامله:

- أنا بحبك.. من أول خطوة دخلتِ بيها مكتبي وأنا بحبك.

نظرت إليه في دهشة فعاد يبتسم:

- أيوة.. من اللحظة دي، كنت تايه ولقيت نفسي فجأة، لقيت اللي ناقصني، لقيت روحي بترجع للحياة، وقلبي بيجرب يعني إيه نبض!!..

وشرد ليوم ما فيما مضى يكمل من عالم الذكرى:

- يوم حادثة ملك.. أول مرة أشوف دموعك، وقتها اتخانقت معاك بس لأني حسيت بضعف غريب وأنا شايف لمعتهم في عيونك.. كان نفسي أمد إيدي أمسحهم ودي كانت تجربة غريبة أول مرة أمر بيها، ساعتها غضبت منك ومن نفسي وداويت الغضب ده بعصبية عليك أنتِ..

وتأملها بحنو:

- عارفة يومها!!.. وأنتِ بتتكلمي مع دكتور حسام!!.. حسيت إني شفت دموعك تاني.. مع إنك ماكنتيش بتعيطي، استغربت قوي، استغربت إحساسي الغريب بيكِ، قاومته وهربت منه، هربت منك، لكن فجأة لقيتني غصب عني باتحجج بزيارة ملك عشان أشوفك، وبرده كنت رافض أعترف إني باعمل كده عشانك أنتِ.

نادته بهمس ضعيف:

- أدهم!!

ورد بعينين حانيتين:

- روح وعقل أدهم المجنون بيكِ.

هل الاستسلام مشروع في هذه اللحظة!!..

تعترف أنها لم تقاوم كثيرًا، تقر بأنانية ستتخذ منها مسلكًا في هذا التوقيت ، وتدرك أنها لن تحيا دونه، إلا لو كانت حياة شفافة لا طعم لها ولا لون أو رائحة!!..

سألته ولايزال شيء من دهشة يكتنفها:

- إحنا فين!!

رد ببسمة خبيثة:

- أول طريق الساحل.

اعتدلت في مقعدها بسرعة:

- إيه!!.. أنت موديني فين؟!.. الولاد.

مال نحوها فتراجعت للخلف حتى التصقت بالباب ومازال يقترب:

- خاطفك.. أسبوع كده وأرجعك.

دفعته في صدره وهي ترى جنونه يخرجه عن حدود العقل والمنطق:

- الولاد يا أدهم..

لم يستجب لدفعتها:

- عند آدم.. يعني ما تقلقيش.

تلفتت حولها بحيرة وقررت فجأة مشاغبته فما عاد العناد يجدي والقلب يتوسلها القبول:

- طيب أنا ما حضرتش نفسي للخطف.. معاييش شنطة هدومي.

قهقه بخفوت:

- لميا جهزت لك شنطة.. فيها ما لذ وطاب..

رمقته بنصف عين فأكمل بشقاوة:

- ليَّ أنا طبعًا.

تهدل كتفاها بيأس مفتعل:

- أنت بجد مجنون.

وهز كتفيه بلا داع يمط شفتيه:

- قديمة.

أخبروها أن العشاق أنانيون.. فقررت أن تكون منهم..

بوجه حق أو بدون، هو منحها السلطة، وهي تقبلتها.. أن تموت معه أكثر رحمة من أن تموت دونه، والأنانية هنا مشروعة حد المتاح من قلب ينشد الراحة في كنف ساكنه.

الخاتمة

كبرياء ورهبة..

قيود يمر بها البعض، قد يتخلصون منها بدافع حياة.. وقد تجذبهم أكثر نحو قاع لا نجاة من مخاوفه، لكن كي تهرب؛ فأنت بحاجة لكف تتمسك بها، تنتشلك من استسلام يائس للغوص في بحر آلامك الخاصة والخضوع لانكسار نفسك كأي بائس ضعيف..

تعرضتْ لغدر أجج فيها كبرياء الأنثى ومحا عنها خنوعًا وقعت أسيرته يومًا لأجل سلطة عشق..

ومر بفقدان.. تكرر وتكرر حتى شابه عادة ولدت لديه رهبة لا يمحوها زمن، في النهاية نفضت هي الرماد عن القلب المغلق، وتملكته رغمًا عنه..

والحياة بينهما تتوج كل لحظة بتوازن، احتواء وسكن.. حب ومودة.. قرب هما الأحق به بل والأجدر..

وأتى التتويج الأخير بمفاجأة غير متوقعة، عندما فتحت عينيها بعد غياب قصير عن الوعي وإنهاك يتملك من خلاياها، تنشد رشفة ماء والقلب يسأل أولًا:

- آدم.. فين البيبي!!

دنا منها، ابتسم لعينيها المتعبتين فقد كانت ولادتها صعبة:

- بخير ما تخافيش.. عاملة إيه؟!

حاولت الابتسام بضعف:

- عاوزة أشوفه.

أومأ مستجيبًا:

- حاضر.. دقيقة واحدة.

وغادر الغرفة بينما شقيقتها تناولها كوب الماء الذي تحتاجه وتبتسم بفرحة وغموض لم تفهم سببه!!.. عاد وخلفه ممرضة تدفع أمامها عربة ضخمة، حاولت الاعتدال فدعمها بسرعة، والتقط الوليد من المهد، ناولها إياه بحنو، وفخر أبوي يرسم نفسه على وجهه:

- آسر الحسيني..

تلقفته بلهفة حريصة، ضمته تملأ عينيها بملامحه الناعمة المنمنمة، لكنه عاد يقترب وآخر بين يديه، نظرت إليه بذهول جاوبه بغمزة شقية:

- صبا الحسيني.

تمتمت بفرحة:

- توأم!!

اتسعت بسمته وهو يعود للعربة ويلتقط وليدًا ثالثًا، ظل يحمله بين ذراعيه برفق:

- سما الحسيني.

تعالت نهناتها فجأة وهي تتساءل بغباء:

- تلاتة!!

رد بحنان:

- تلاتة..

وجاورها ليشبعها من ملامح أطفالها:

- أنتِ اللي رفضتِ تشوفيهم بالسونار.. إيه رأيك في المفاجأة؟!

مد يده يربت على وجنتها حينما انخرست عن جواب مناسب:

- ربنا كريم.

ابتسمت من بين دموعها، وقلبها يرتجف بعنف داخل صدرها:

- الحمد لله

قد يطول الانتظار، تتمنى وتدعو، تصبر أو تستسلم، لكن الخالق أرحم بك منك.. وقدرك ربما يخبئ لك ما لم يخطر ببالك قط..

فقط اسجد واقترب ولا تترك جانب الأمل..

******

ماضٍ موشوم بخطيئة لا تمحوها محاولات تطهير..

قيد آخر يغل النفس بعقاب أبدي ويقتل كل فرصة في حياة جديدة قد تخرج من رحم أوجاع تعاقبت عليها..

أن تسقط فهو سهل.. أن تقف؛ هذه هي القوة الحقيقية..

وهي سقطت، مرات ومرات.. حد ضعف، حد ضياع، وحد موت.. والقدر كان رحيمًا فأنقذها من نهاية تلقي بها في سعير لا يحتمله بشر.. تنشد توبة وتحاول النهوض من رماد احتراق ذاتها المكسورة..

القدر يرسل برسائله، بدعمه.. وهي تتقبل أحيانًا وترغب بقوتها الخاصة أحيانًا أخرى، أما هو فيراقب من بعيد، شهور طويلة مرت، تركها تقرر بحرية.. وحان وقت العودة والسؤال، لأنه لن يقبل بالرفض كجواب:

- أنا جاي أكرر عرضي.

واعتدل في مقعده بحزم، يحيطها بقيد نظرة حازمة:

- تتجوزيني!!

ليس بها ضعف الآن، تعلم أنه يريدها زوجة.. وتدرك أنه ربما لن يرغبها في هذه المكانة غيره مادامت موسومة بماضيها حالك الظلمة، لكنها ليست الطريقة المثلى لتبدأ بها حياة..

فقط أنه المتاح!!.. أنه من قَبِل!!..

هذا لو كان الزواج نعمة تتمناها!!.. قبل أن ترد علا هاتفها برنين رسالة مرت على أحرفها سريعًا تتباطأ في منحه الرد:

"هاكون في مصر خلال أسبوع، لازم أشوفك، بيننا كلام كتير.. مراد"

ورفعت أنظارها إليه في حيرة..

هل تركن لجانب القوة!!.. أم تختار العشق الذي عاد!!

******

العناد قد يصبح قيدًا هو الآخر.. قيد من حرير لقلب يرفض الخضوع إلا عن طريق عشق..

أسست شركتها، بدأت عملها بجدية والصديقة تعاونها بإخلاص، أحيانًا تشعر أنها قوية قدر مسئولية تتحملها للمرة الأولى، وأوقاتًا أخرى يكتنفها قلق ألا تستطيع الاستمرار في طريق اختارته بنفسها!!..

لكنها تواظب، لن تتراجع، القيد الوحيد المسموح به هو لقلبها الصغير، والقلب وحده من يقرر ساكنه، حينها قد تخضع، أو حتى تتمرد لحين.. وفي النهاية تستسلم بسعادة..

دخلت مساعدتها بورقة ناولتها إياها باهتمام:

- آنسة علا.. الفاكس ده وصل حالًا.

قرأته سريعًا، الشركة البريطانية التي راسلتها تعرض تعاونًا قبلت عرضها.. ومديرها بنفسه قادم للوطن الذي ينتمي إليه في الأصل، ليثبت عقد الشراكة..

طالعت الاسم باهتمام وباب نحو غدٍ مجهول ينفتح أمامها..

"مراد مهران"

******

براءة دنسها ذئب وخوف استشرى في الجسد حتى النخاع، بل حتى حدود الروح التي تقاتل لتحيا..

قيد لم تتصور أن يكبل نفسها يومًا، لكنه هو من حل الأصفاد، هدهد القلب وتملكه، وناره التي تشعلها نظرة منها أصبحت هي مصدر دفئها وركونها إليه..

بفارق ضئيل لم يكن ذا أهمية جمة، حتى عند معرفة أخويها والهوس الذي انتابهما لفترة بعدها بحثا عمن فعلها من جديد في ضوء معطيات مختلفة عن المرة الأولى.. ولم تقدم شيئًا، وهي لم تنتظر.. فقد انتهى الأمر بداخلها بعد الذبح الأول..

"زيااااد"

انتفض من نومه بفزعٍ إثر صراخها:

- في إيه!!

ردت بألم:

- أنا تقريبًا باولد.

اتسعت عيناه ذعرًا:

- إيه!!.. طيب طيب..

ونهض مهرولًا يبحث عن ملابسه، يجذب بنطالًا يرتديه فوق منامته دون اهتمام وبين قدمٍ داخله والثانية خارجه تنبه عقله فجأة، التفت إليها بحنق:

- بتولدي إيه يا سارة أنتِ في الخامس!!

مطت شفتيها وهي تعتدل:

- في وجع فظيع.

رمى البنطال أرضًا بعنف:

- والله حرام عليكِ.

تأوهت بصوت عالٍ:

- أهو أهو.. تعالى شوف كمان بنفسك.. بيتحرك.

اتجه نحوها بتذمر ومد كفه يلامس بطنها المنتفخ قليلًا، أتته حركة خافتة نبض لها قلبه فابتسم رغمًا عنه، همس بسعادة:

- بيتحرك!!

_ آها..

رفع وجهه نحوها:

- أنتِ مجنونة صح!!

هزت رأسها نفيًا بدلال، اتسعت بسمته وشاكسها بحب:

- طيب مادام صحيتيني مفزوع؛ لازم تتعاقبي.

وكان عقابه هو عشق لا تخشى نفاذه، ودفء لا تجده إلا هناك..

بين ذراعيه..

******

الغيرة قيد خانق وهي تعلم..

جربته حول عنقها مرة، لكنها قهرًا أصبحت تمسك بيدها الطوق..

راقبته يقف معها، يتحدث بجدية تتخللها بسمات طفيفة بين حين وآخر، اللعينة فاتنة، والأحمق يبتسم لها.. وهي تناظره بإعجاب واضح جعلها تريد تمزيق وجهها وفقأ عينيها الخضراوين..

اقتربت منهما بتؤدة ترسم ابتسامة مفتعلة على شفتيها، بادرتها المرأة:

- مدام جمانة بجد الحفلة هايلة.. كنت لسه باقول للباشمهندس إننا محتاجين خبراته في مشروعنا الجديد.. عارف إمتى يهاجم السوق وإمتى يتراجع ويدرس الموقف.. ولا إيه رأيك!!

ورغمًا عنها تأملته بفخر ظهر جليًا في نبرتها:

- طبعًا.

ابتسم لها فجذبت ذراعه:

- بعد إذنك.. هاخده منك شوية.

وصعدت نحو غرفتهما وهو خلفها لا يعلم ما بها، ملامحها غاضبة.. ونظرات عينيها حانقة وشك ما تسرب لنفسه.. أصبح يخشاها وابتسم داخله بتفكه!!..

هناك أغلقت الباب والتفتت تنظر إليه بسخط، عقد حاجبيه في تساؤل جاوبته بحدة:

- ممكن أفهم كل ده واقف معاها بتعمل إيه!!

رفع حاجبًا بدهشة مصطنعة:

- بنتكلم في الشغل.. مش دي حفلة عشان شغل برده!!

اقتربت تنغز صدره بإصبعها في غضب:

- كل ده واقف معاها هي!!.. وباقي المدعوين!!.. ما فيش بينكم شغل؟!

ابتسم.. بل ضحك بمرح ماكر وكانت هي تشتعل:

- دي غيرة بقى!!

كتفت ذراعيها بغيظ:

- ما أنت ما شفتش كانت بتاكلك إزاي بعينيها!!

اقترب هو هذه المرة بلؤم:

- الحقيقة ما خدتش بالي.. أصل عينيا بتشوف واحدة بس..

وشملها بنظرة تسارعت لها دقات خافقها:

- أدهم!!

خلع سترته فجأة:

- عيون أدهم..

تراجعت بارتباك تراقبه يفك رابطة عنقه:

- أنت بتعمل إيه يا مجنون؟!

تخابث بنظرة وربما كان جديًا لا تعلم، ظلت تتراجع واستدارت تهرب لكنه أمسك بها:

- أدهم إعقل من فضلك.. الحفلة والناس تحت!!

هز كتفيه بلامبالاة:

- البركة في آدم.

وتوقف للحظة يتأملها، ينظر في عينيها.. يشاغب قلبها الذي يذوب فيه:

- أنا عيوني ما بتشوفش غيرك أنتِ، ما حدش بيحرك مشاعري غيرك أنتِ، مجنون بيكِ وقلبي بيدق ليكِ أنتِ وبس..

ثم غمزها بشقاوة:

- يبقى ما تجيش تقوليلي أصلها كانت..

وضمها إليه:

- حياتي كلها ملكك أنتِ.. بحبك.

واستكانت..

هل أمام هكذا عشق يجوز التمرد!!.. بل هل يمكنها التمرد؟!..

قالوا أن الحب قرينه الألم.. فماذا إن كان هو دواء كل وجع!!.. هل يباح الهروب منه إلا إليه؟!.. بل هل يمكنها أن تهرب من الأساس!!..

هو من يجبر انكسارًا لم تزول آثاره بعد.. من يحتوي أوجاع نفسها التي لن تشفى ربما حتى الأبد، من يتممها ومن في عينيه تشعر بالاكتمال..

أغلال العشق حريرية ناعمة.. تحرر نفسك من قيد فتسقط في فخها.. والقلب لا يريد تحريرًا؛ فحريته تكمن في استسلامه وخضوعه لسلطانها.. ودون إرادتك أنت.

******

كلنا قد تكبلنا أغلال..

أغلال وهمية.. حريرية..

غيرة.. خوف.. شك.. رهبة فراق.. وألم غدر.. ماضٍ منقوش بحبر أسود..

بعضنا يتحرر.. والبعض يخضع للقيود..

وآخرون يخطون نحو نجاة بقيد آخر فيه الخلاص..

قلوب تحررت من أغلالها بعشق.. باحتواء.. بأمان بات كنفه هو الأهم..

وقلوب أخرى.. ربما لم يكن لها نفس الحظ.. لكنها لاتزال تسعى..

فقط حينها نتيقن أن..

المثابرة هي طريق اتجاهه واحد ووحيد..

نحو النصر..

تمت بحمد الله

٢٠١٦/٥/١٤

صابرين الديب

حلم-هن

نلتقي في الجزء الثالث بإذن الله

"على مفترق عشق"

نظرة

ذهبية هي كسنابل القمح، بعيون لوزية ناعسة تقهرها نظرة متحدية عنيدة، طول متوسط وجسد نحيف تأمله بتمهل وازى ابتسامة ماكرة فوق شفتيه.. فالامتلاء في أماكنه الصحيحة تمامًا..

تتقافز كطفلة تشجع الصديق المشترك، وضربة فاز بها جعلتها تصرخ باسمه في حماس قطعه هو باقتراب وهمسة أجشة تحمل اسمها هي:

- ملك!!

رجفة سرت في خلاياها بسرعة تتبع التفاتة ولقاء بموج بحره الفيروزي، يتفحص، يراقب ويبتسم فتبتسم وترحب وتتراجع ناسية أنها بين مقاعد المتفرجين فتكاد تسقط لولا ذراعه الداعم وخجل:

- يوسف!!.. حمد الله ع السلامة.. جيت إمتى؟!

ساندها لتعتدل وابتعدت أنامله عنها بعسر:

- يادوب من ساعتين، طنط جمانة قالت لي إن ياسين عنده مباراة مهمة وإنك معاه..

وصمت لحظة بتفكير ساخر:

- طبعًا، فقلت آجي أشجع وأشوفك.

ابتسمت دون تكلف مشيرة للاعبها المفضل:

- أيوة.. وهيفوز إن شاء الله يلا شجعه معايا.

منح الوسيم نظرة ولم يتوقع أنه رآه وسط معمعة مباراته ومن خلف قناعه!!..

لقد خسر نقطة ونال هو لفتة أثناء الاستعداد لاستكمال النزال، أشار بتحية والآخر تجاهلها، شعر بنشوة نصر، فهو يجاور الأميرة.. وهي تشجع بنزاهة وإخلاص.. والبعيد سيفقد رصيده كله حتمًا.

******

بين جدران الزنازين؛ أمامك خياران..

إما أن تميت قلبك وضميرك بصحبة إنسانيتك.. أو تموت أنت..

وأي منهما لم يكن متاحًا له لاختياره، فإن كان قد ظلم نفسه فضيعها؛ لن يعيد تكرار البغي عليها بقتل ما تبقى فيها من نوازع آدمية..

أن يموت هو؛ ربما يكون الخيار السهل رغم قسوته..

لكن ما لم يكن في حسبانه، أن حياته لها ثمن.. ودفعه بنفسه دون أن يدري..

تحركت كفها فوق كتفه برفق تنتزعه من شروده في رقة:

- برده بتفكر في أيام السجن!!

ابتسم بشجن ومد يده يحتضن بها يدها يجذبها لتجلس قربه:

- مش بإيدي أمنع الذكرى.

تأملته كأنما يمثل لها دنياها بأكملها وهو يفعل:

- إفتكر حاجة فرحت ده.

ووضعت يدها فوق موطن نابضه، عاد يمسك بأناملها ويجذبها لشفتيه، يطبع في باطنها دفء قبلة وبعينيه يحيطها قبل همس يقر به واقعًا:

- أنتِ اللي بتفرحي ده..

ابتسمت له..

في زمن ما كان ينشد فرصة ثانية ولم يحصل عليها بسهولة؛ الكل حينها اتحد في مواجهة ضده حتى قدره وماضيه المظلم.. وفي وقت ما تمنتها هي أيضًا فأتاها هو بها.. على طبق من عشق.